مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ق

مع تعاليق

العلامة المفسر أبو الحسن الشعراني

المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ق

وتعاليق جديدة



المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية

مجمع البيان

في تفسير القرآن

مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

مع تعاليق

العلامة المبين أبو الحسن الشعراني

الجزء الخامس

التوبة - يوسف

حققه وعلق عليه وأشرف على تصحيحه

حامد الفدوي الأردستاني

تحرير ووضع العلامات

أحمد داية

سرشناسه : طبرسی، فضل بن حسن ۳۵۸ ـ ۵۴۸ ق.
عنوان و نام پدیدآور : مجمع البیان فی تفسیرالقرآن/تألیف امین‌الاسلام ابی علی الفضل بن الحسن الطبرسی؛ مع تعالیق ابوالحسن الشعرانی؛ حققه و علق علیه حامد الفدوی‌الاردستانی؛ محرر احمد درایتی.
مشخصات نشر : تهران: المکتبه‌المرتضویه‌لاحیاء الآثارالجعفریه: مرتضوی، ۱۴۳۱ق.=۱۳۸۸ـ۱۳۸۹.
مشخصات ظاهری : ۱۰ ج.
شابک : دوره: 978-964-2965-11-3؛ ج.۱: 978-964-2965-12-0
: ج.۲ 978-964-2965-13-7: ؛ ج.۳: 978-964-2965-14-4: ؛ ج.۴: 978-964-2965-15-1
: ج.۵ 978-964-2965-16-8: ؛ ج.۶: 978-964-2965-17-5: ؛ ج.۷: 978-964-2965-18-2
: ج.۸ 978-964-2965-19-9: ؛ ج.۹: 978-964-2965-20-5: ؛ ج.۱۰: 978-964-2965-12-2
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه.
موضوع : تفاسیر شیعه ـ قرن ۶ق
شناسه افزوده : شعرانی، ابوالحسن، ۱۲۸۱ ـ ۱۳۵۲.
شناسه افزوده : فدوی اردستانی، حامد
شناسه افزوده : درایتی، احمد، ویراستار
رده بندی کنگره : ۱۳۸۹ ۳م۲ط / BP۹۴/۵
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶
شماره کتابشناسی ملی : ۲۰۲۹۴۹۲





هوية الكتاب

الكتاب: مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٥
المؤلّف: أمين الاسلام الفضل بن الحسن الطبرسي رحمه الله
تعليق: العلاّمة الميرزا أبو الحسن الشعراني رحمه الله
تحقيق: حامد الفدوي الأردستاني
تحرير ووضع العلامات: احمد درايتي
الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية
بالتعاون مع انتشارات مرتضوي
التنضيد والاخراج الفني: كومبيوتر المجتبى عليه السلام
المطبعة: ستارة ـ قم ـ الكميّة: ٢٢٠٠ نسخة
الطبعة: الأولى ـ منقّحة ومصحّحة ـ ١٤٣١ هـ. ق . ١٣٨٩ هـ. ش
ردمك: 8 - 16 - 2965 - 964 - 978 :ISBN
شابك الدورة: 3 - 11 - 2965 - 964 - 978 :ISBN

العنوان: طهران ـ شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١ ـ فاكس ٤٤٨١٤٧٧٢ ـ ٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
للمكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة ايران ـ طهران
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة الناشر خطيّاً

طهران: شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
الطابق الثاني ـ الرقم ١١ ـ هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١

البريد الالكتروني
info@mortazavi-pub.ir
الانترنت
www.mortazavi-pub.ir

سورة التوبة

وهي مدنيّة كلّها. وقال بعضهم: غير آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، نزلت سنة تسع من الهجرة، وفتحت مكّة سنة ثمان، وحجَّ رسول الله ﷺ، حجّة الوداع سنة عشر. وقال قتادة، ومجاهد: وهي آخر ما نزلت على النبيّ ﷺ، بالمدينة.

عَدَدُ آيِهَا: هي مائة وتسع وعشرون آية كوفيّ، وثلاثون في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: ثلاث آيات: ﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بصريّ. ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾: شاميّ. ﴿وعاد وثمود﴾: حجازيّ.

أَسْمَاؤُهَا: عشرة: سورة «براءة»: سمّيت بذلك؛ لأنّها مفتتحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفّار.

التوبة: سمّيت بذلك؛ لكثرة مافيها من التوبة، كقوله: ﴿وَ يَتُوبُ اللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ﴾، ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُم﴾ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

الفاضحة: عن سعيد بن جبير قال: قلت لإبن عباس سورة التوبة، فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل حتى خشينا أن لا يبقى منهم أحد إلاّ ذكر. وسمّيت بذلك؛ لأنّها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

المبعثرة: عن ابن عباس أيضاً سمّاها بذلك؛ لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين،

أي: تبحث عنها.

المقشقشة: عن ابن عبّاس [عمر] سمّاها بذلك؛ لأنّها تبرىء من آمن بها من النفاق والشرك؛ لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص. وفي الحديث: كان يقال لسورتي ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾: المقشقشتان، سمّيتها بذلك؛ لأنّهما تبرئان من الشرك والنفاق. يقال: قشقشه: إذا برأه، وتقشقش المريض من علّته: إذا أفاق وبرىء منها.

البحوث: عن أبي أيّوب الأنصاري سمّاها بذلك؛ لأنّها تتضمّن ذكر المنافقين، والبحث عن سرائرهم.

المدمدمة: ـ عن سفيان بن عيينة ـ أي: المهلكة. ومنه: قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

الحافرة: ـ عن الحسن ـ؛ لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه.

المثيرة: ـ عن قتادة ـ؛ لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم.

سورة العذاب: ـ عن حذيفة بن اليمان ـ؛ لأنّها نزلت بعذاب الكفّار. وروى عاصم بن زرّ بن جيش، عن خذ[حذ]يفة، قال: يسمّونها سورة التوبة، وهي سورة العذاب، فهذه عشرة أسماء.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سورة الأنفال وبراءة، فأنا شفيع له. الخبر بتمامه، وقد مضى ذكره مع ما في معناه في أوّل الأنفال. وقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام، أنّه قال: الأنفال والبراءة واحد. وروي ذلك عن سعيد بن المسيّب. وروى الثعلبي بإسناده عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: ما نزل عليّ القرآن إلاّ آية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة، وقل هوالله أحد، فإنّهما نزلتا عليّ، ومعهما سبعون ألف صفّ من الملائكة، كل يقول: يامحمّد استوص بنسبة الله خيراً.

علّة ترك التسمية، في أوّلها قراءة، وكتابة [كابة]: للعلماء والمفسّرين فيه أقوال:

أحدها: أنّها ضمّت إلى الأنفال بالمقاربة، فصارتا كسورة واحدة؛ إذ الأولى في ذكر العهود، والثانية في رفع العهود، ـ عن أُبيّ بن كعب ـ.

وثانيها: أنّه لم يَنزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة براءة؛ لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف، ـ عن علي عليه السلام[1]، وسفيان بن عيينة ـ إختاره أبوالعباس المبرّد.

وثالثها: ما روي عن ابن عباس أنّه قال: قلت لعثمان بن عفّان: ما حملكم على أن عمدتم إلى براءة، وهي من المئين، وإلى الأنفال، وهي من المثاني، فجعلتموهما في السبع الطوال، ولم تكتبوا بينهما سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ؟ فقال: كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، تنزل عليه الآيات، فبد [فيد] عو بعض من يكتب له، فيقول له: ضع هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوّل ما نزل من القرآن بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة، قصّتها شبيهة بقصّتها، فظنّنا أنّها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يبيّن أنّها منها[2]، فوضعناهما في السبع الطوال، ولم نكتب بينهما سطر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، وكانتا تدعيان القرينتين.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة عن الكفّار،

---

(١) إن قيل: جاء بسم الله في أوّل كثير من السور، وأوّلها ذكر العذاب، مثل: هل أتيك حديث الغاشية، وسئل سائل بعذاب واقع؟ قلنا: على فرض صحّة النسبة، فهذا حكمة عدم نزول التسمية، والحكمة غير مطّردة، والأظهر أنّه مناسبة بعد الوقوع، والعمدة لنا في ترك بسم الله هو التعبّد.

(٢) والمعلوم من حال المسلمين بالضرورة، أنّهم لم يرتّبو السور من الآيات بإرادتهم كيفما إتّفق، بل إتّبعوا فيه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إفتتح هذه السورة بأنّه تعالى ورسوله بريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾

اللغة: معنى البراءة: إنقطاع العصمة. يقال: برأ يَبرأ براءة، وتبرّأ تَبرّأً، وأبرأه إبراءً. والسيح: السير على مهل. يقال: ساح يسيحُ سَيْحاً وسِياحة وسُيُوحاً وسَيَحاناً. والإعجاز: إيجاد العجز. والعجز: ضدّ القدرة عند من أثبته معنى. والإخزاء: الإذلال بما فيه الفضيحة والعار. والخزي: النكال الفاضح.

الإعراب: براءة: ترتفع على أنّها خبر مبتدأ محذوف، وتقديرها: هذه الآيات براءة. ويحتمل أن يكون مبتدأ، وخبره في الظرف، وهو قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾. وجاز أن يكون المبتدأ نكرة؛ لأنها موصوفة. والأوّل أجود؛ لأنّه يدلّ على حضور المدرك، كما تقول لمن تراه حاضراً: حسن والله، أي: هذا حسن.

المعنى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه براءة من الله. ﴿وَرَسُولِهِ﴾. أي: إنقطاع للعصمة، ورفع للأمان، وخروج من العهود.

﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: الخطاب للنبيّ ﷺ، وللمسلمين، والمعنى: تبرّؤوا ممّن كان بينكم وبينهم عهد من المشركين، فإنّ الله ورسوله بريئان منهم. قال الزجّاج: معناه: قد برىء الله ورسوله من إعطائهم العهود، والوفاء لهم

بهما؛ إذ نكثوا.

وإذا قيل: كيف يجوز أن ينقض النبيّ ﷺ العهد؟ فالقول فيه: إنّه يجوز أن ينقض ذلك على أحد ثلاثة أوجه: إمّا أن يكون العهد مشروطاً بأن يبقى إلى أن يرفعه الله تعالى بوحي. وإمّا أن يكون قد ظهر من المشركين خيانة ونقض، فأمر الله سبحانه بأن ينبذ إليهم عهدهم. وإمّا أن يكون مؤجّلاً إلى مدّة، فتنقضي المدّة، وينتقض العهد. وقد وردت الرواية بأنّ النبيّ ﷺ، شرط عليهم ماذكرناه، وروي أيضاً أنّ المشركين كانوا قد نقضوا العهد، أو همّوا بذلك، فأمره الله سبحانه أن ينقض عهودهم.

ثمّ خاطب الله سبحانه المشركين، فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سيروا في الأرض على وجه المهل، وتصرّفوا في حوائجكم آمنين من السيف ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فإذا انقضت هذه المدّة، ولم تسلموا، إنقطعت العصمة عن دمائكم وأموالكم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ أي: غير فائتين عن الله، كما يفوت مايعجز عنه؛ لأنّكم حيث كنتم في سلطان الله وملكه. ﴿وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي: مذلّهم ومهينهم.

وأختلف في هذه الأشهر الأربعة. فقيل: كان إبتداؤها يوم النحر إلى العاشر من شهر ربيع الآخر، ـ عن مجاهد، ومحمّد بن كعب القرظي، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: إنّما إبتداء أجلهم الأشهر الأربعة، من أوّل شوّال إلى آخر المحرّم؛ لأنّ هذه الآية نزلت في شوّال، ـ عن ابن عباس والزهري ـ. قال الفرّاء: كانت المدّة إلى آخر المحرّم؛ لأنّه كان فيهم من كانت مدّته خمسين ليلة، وهو من لم يكن له عهد من النبيّ ﷺ، فجعل الله له ذلك. وقيل: إن من كان له عهد من النبيّ ﷺ، أكثر من أربعة أشهر، حطّ إلى أربعة أشهر، ومن كان له عهد أقلّ منها، رفع إليها، ـ عن الحسن وابن إسحاق ـ. قيل: كان ابتداء الأشهر الأربعة يوم النحر، لعشرين من ذي القعدة إلى عشرين من شهر ربيع الأوّل؛ لأنّ الحجّ في تلك السنة كان في ذلك الوقت، ثمّ صار في السنة الثانية في ذي الحجّة، وفيها حجّة الوداع،

وكان سبب ذلك النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهليّة، على ما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى، ـ عن الجبائي ـ.

﴿القِصّة﴾: أجمع المفسّرون، ونقلة الأخبار، أنّه لمّا نزلت «براءة»، دفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، ثمّ أخذها منه، ودفعها إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وإختلفوا في تفصيل ذلك. فقيل: إنّه بعثه وأمره أن يقرأ عشر آيات من أوّل هذه السورة، وأن ينبذ إلى كل ذي عهد عهده، ثمّ بعث علياً خلفه ليأخذها ويقرأها على الناس، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ، العضباء، حتى أدرك أبا بكر بذي الحليفة، فأخذها منه.

وقيل إنّ أبابكر رجع فقال: هل نزل فيَّ شيء؟ فقال ﷺ: لا إلّا خيراً، ولكن لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا، أو رجل منّي. وقيل: إنّه قرأ عليٌّ عليه السلام «براءة» على الناس، وكان أبوبكر أميراً على الموسم، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: إنّه ﷺ أخذها من أبي بكر قبل الخروج، ودفعها إلى عليّ عليه السلام، وقال: لا يبلغ عنّي إلاّ أنا، أو رجل منّي، ـ عن عروة بن الزبير، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة ـ.

وروى أصحابنا: أنّ النبيّ ﷺ ولاّه أيضاً الموسم، وأنّه حين أخذ «البراءة» من أبي بكر، رجع أبوبكر، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن سماك بن حرب، عن أنس بن مالك: إنّ رسول الله ﷺ بعث بـ«براءَة» مع أبي بكر إلى أهل مكّة، فلمّا بلغ ذا الحليفة، بعث إليه فردّه، وقال: لا يذهب بهذا إلاّ رجل من أهل بيتي! فبعث عليّاً عليه السلام.

وروي الشعبي عن محرز بن أبي هريرة، عن أبي هريرة، قال: كنت أُنادي مع عليّ عليه السلام حين أذن المشركين. فكان إذا صحل صوته[١] فيما ينادي، دعوت مكانه، قال: فقلت يا أبتِ أيُّ شيء كنتم تقولون؟ قال: كنّا نقول: لا يحجُّ بعد عامنا

---

[١] صحل صوته: بَحَّ وخشن.

هذا مشرك، ولايطوفنَّ بالبيت عريان، ولايدخل البيت إلاّ مؤمن، ومن كانت بينه وبين رسول الله ﷺ، مدَّة فإنّ أجله إلى أربعة أشهر، فإذا إنقضت الأربعة الأشهر، فإنّ الله بريء من المشركين ورسوله.

وروى عاصم بن حميد عن أبي بصير، عن أبـي جـعفر عليه السلام، قـال: خـطب علي عليه السلام الناس، وإخترط[١] سيفه، فقال: لايطوفنَّ بـالبيت عـريان، ولايـحجَّنَّ البيت مشرك، ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له مدّة، فمدّته أربعة أشهر، وكان خطب يوم النحر، وكانت عشرون من ذي الحجّة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من شهر ربيع الآخر، وقال: يوم النحر، يوم الحجّ الأكبر.

وذكر أبو عبدالله الحافظ، بإسناده عن زيد بن نفيع، قال: سألنا علياً عليه السلام: بأيّ شيء بعثت في ذي الحجّة؟ قال: بعثت بأربعة: لايدخل الكعبة إلاّ نـفس مـؤمنة، ولايطوف بالبيت عريان، ولايجتمع مؤمن وكافر في المسجد الحرام بـعد عـامه هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ، عهد، فعهده إلى مدّته، ومن لم يكـن له عهد، فأجله أربعة أشهر. وروي أنّه عليه السلام قام عند جمرة العقبة، وقال: ياأيّها الناس إنّي رسول الله إليكم بأن لايدخل البيت كافر، ولايحجّ البيت مشرك، ولايـطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ، فله عهده إلى أربعة أشهر، ومن لا عهد له فله مدّة بقية الأشهر الحرم، وقرأ عليهم سورة بـراءة. وقـيل: قـرأ عليهم ثلاث عشرة آية من أوّل «براءة».

وروي أنّه عليه السلام لمّا نادى فيهم: إنّ الله بريء مـن المشـركين، أي: مـن كـل مشرك، قال المشركون: نحن نتبرّأ من عهدك، وعهد ابن عمّك. ثمّ لمّا كانت السنة المقبلة، وهي سنة عشر، حجّ النـبيّ ﷺ حـجّة الوداع، وقـفل[٢] إلى المـدينة،

---

[١] اخترط سيفه: شهرهُ.

[٢] قفل: أي رجع.

ومكث بقيّة ذي الحجّة الحرام، والمحرّم، وصفر، وليالي من شهر ربيع الأوّل، حتى لحق بالله عزّ وجلّ.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

القراءة: قرأ يعقوب برواية روح وزيد: ﴿وَرَسُولَهُ﴾ ـ بالنصب ـ وهي قراءة الحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو.(١) وقرأ سائر القرّاء: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ ـ بالرفع ـ. وفي الشواذّ، قراءة عكرمة وعطا: ﴿لَمْ يَنْقُضُوكُمْ﴾ ـ بالضاد المعجمة ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ ـ بالرفع ـ فإنّه على الإبتداء، وخبره محذوف، ويدلّ عليه ما تقدّمه، وتقديره: ورسوله أيضاً بريءٌ منهم، ويجوز أن يكون معطوفاً على المضمر في ﴿بَرِيء﴾، وحسن العطف عليه، وإن كان غير مؤكّد؛ لأنّ قوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِين﴾ قام مقام التوكيد. وذكر سيبويه وجهاً ثالثاً، وهو

---

(١) مرّ في المجلّد الرابع ذكر عيسى بن عمر الكوفي، وأنّه غير عيسى بن عمر النحوي الثقفي عن ابن النديم، وللثقفي أيضاً قرائة في أهل البصرة، فاذا أطلق عيسى بن عمر لم يعلم أيّهما هو، والظاهر أنّه هنا هو الثقفي النحويّ، وابن أبي إسحاق أستاده، وإسمه عبدالله من أهل البصرة، أخذ النحو عن أبي الأسود الدئلي، وفيه يقول الفرزدق ولو كان عبدالله مولى هجوته، ولكن عبدالله مولى مواليا.

أن يكون معطوفاً على موضع «أنَّ»؛ وهذا وهم منه؛ لأنّ ﴿أنّ﴾ المفتوحة مع ما بعدها في تأويل المصدر، فقد تغيّرت عن حكم المبتدأ، وصارت في حكم ليت، ولعلّ، وكَأَنَّ، في إحداثها معنى يفارق المبتدأ، فكما لايجوز العطف على مواضعهنّ، فكذا لايجوز العطف على موضع «أنّ». وإنّما يجوز العطف على موضع «إنَّ» المكسورة، كما قال الشاعر[١]:

فَمَنْ يَكُ أمْسىٰ بالْمدِينَةِ رَحْلُهُ ... فَـإنِّي وَقَـيَّارٌ بِـهٰا لَـغَرِيبُ(١)

ولعلّ سيبويه توهّم أنّها مكسورة، فحمل على موضعها، فقد قرىء في الشواذّ: ﴿إِنَّ اللهَ بَرِيءٌ﴾ ـ بالكسر ـ، فلعله تأوَّل على هذه القراءة. ومن نصب عطفه على إسم «الله» تعالى، وعلى هذا فيكون خبره محذوفاً أيضاً. ومن قرأ: ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُم﴾ فمعناه: لم ينقضوا أموركم، وعهودكم.

اللغة: الأذان: الإعلام. يقال: أذنته بكذا فأذن، أي: أعلمته فعلم. وقيل: إنّ أصله من النداء الذي يسمع بالأُذن، ومعناه: أوقعه في أُذنه. وتأذَّن: بمعنى آذن، كما يقال: تيقَّن وأيقن. والمدّة والزمان والحين، نظائر. وأصله من مددت الشيء مدّاً، فكأنّه زمان طويل الفسحة. والمدّة عند المتكلّمين: إسم للمعدود من حركات الفلك، وهو محدث.

الإعراب: ﴿وَأَذَانٌ﴾: عطف على ﴿بَرَاءَةٌ﴾، ـ عن الزّجاج ـ. وقيل: إنّ تقديره: عليكم أذان؛ لأنّ فيه معنى الأمر، فيكون مبتدأ، وخبره محذوف، ـ عن علي بن عيسى ـ. ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبر قوله: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ﴾ على حذف الباء، كأنّه قال: بأنّ الله. وعلى الوجهين الأوّلين، يكون موضع ﴿أَنّ﴾ نصباً

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قائله: ضابي بن الحارث البرجمي، قالها حين حبسه عثمان بالمدينة لجرم اقترفه. وقيار: اسم فرسه.

على أنّه مفعول له، وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتُّم﴾ في موضع نصب على الإستثناء. ﴿وَبَشِّر﴾: معطوف على معنى الأذان، أي: أذن وبَشّر، ـ عن أبي مسلم ـ.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه يجب إعلام المشركين ببراءة منهم؛ لئلاّ ينسبوا المسلمين إلى الغدر، فقال: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ معناه: وإعلام، وفيه معنى الأمر، أي: أذنوا الناس، يعني أهل العهد. وقيل: المراد بالناس، المؤمن والمشرك؛ لأنّ الكلّ داخلون في هذا الإعلام. وقوله: ﴿إِلَى النَّاس﴾ أي: للناس. يقال هذا إعلام لك، وإليك.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّه يوم عرفة، ـ عن عُمَر، وسعيد بن المسيّب، وعطا، وطاووس، ومجاهد ـ، وروي ذلك عن علي عليه السلام. ورواه المسور بن مخر[مخز]مة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال عطا: الحجّ الأكبر: الذي فيه الوقوف، والحجّ الأصغر: الذي ليس فيه وقوف، وهو العمرة.

وثانيها: إنّه يوم النحر، ـ عن علي عليه السلام، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والنخعي، ومجاهد، والشعبي، والسدّي، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. ورواه ابن أبي أوفى، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال الحسن: وسمّي الحجّ الأكبر؛ لأنّه حجّ فيه المشركون والمسلمون، ولم يحجّ بعدها مشرك.

وثالثها: إنّه جميع أيّام الحجّ، ـ عن مجاهد أيضاً، وسفيان ـ، فمعناه: أيّام الحجّ كلّها، كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين ويوم بعاث[١]، يراد به الحين والزمان؛ لأنّ كل حرب من هذه الحروب، دامت أيّاماً.

﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهد المشركين، فحذف المضاف،

---

[١] يوم بُعاث، بضمّ الباء: يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهليّة، ذكره الواقدي وابن إسحاق في كتابيهما. لسان العرب ١: ٤٣٩، بعث.

﴿وَرَسُولِهِ﴾ معناه: ورسوله أيضاً بريء[١] منه. وقيل: إنّ البراءة الأولى لنقض العهد، والبراءة الثانية لقطع الموالاة والإحسان، فليس بتكرار.

﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: فإن تبتم هذه المدّة أيّها المشركون، ورجعتم عن الشرك إلى توحيد الله، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك؛ لأنّكم تنجون به من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿وإِنْ تَوَلَّيْتُم﴾ عن الإيمان، وصبرتم على الكفر، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ أي: لاتعجزونه عن تعذيبكم، ولا تفوتون بأنفسكم من أن يحلَّ بكم عذابه في الدنيا، وفي هذا إعلام بأنّ الإمهال ليس بعجز، وإنّما هو لإظهار الحجّة.

ثمّ أوعدهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم مكان البشارة بعذاب موجع، وهو عذاب النار في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الفرّاء: إستثنى الله تعالى من براءته، وبراءة رسوله، من المشركين قوماً من بني كنانة، وبني ضمرة، كان قد بقي من أجلهم تسعة أشهر، أمر بإتمامها لهم؛ لأنّهم لم يظاهروا على المؤمنين، ولم ينقضوا عهد رسول الله ﷺ وقال ابن عباس: عنى به كل من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد قبل «براءة»، وينبغي أن يكون ابن عباس أراد بذلك: من كان بينه وبينه عقد هدنة، ولم يتعرّض له بعداوة، ولاظاهر عليه عدواً؛ لأنّ النبيّ ﷺ،

---

(١) قيل: إنّ هذه الآية ممّا بعث أبا السود على وضع علائم الحركات في المصحف، فإنّه سمع قارئاً يقرء: من المشركين ورسولِه ـ بكسر لام الرسول ـ، فإختار للفتح نقطة وضعها فوق للحرف وللكسر نقطة تحته، وللضمّ نقطة بين يدي الحرف، واستدعى كاتباً، وأعجم القرآن جميعه كذلك، وقال للكاتب إذا فتحت فمي بحرف، فإجعل النقطة فوقه، وإذا ضممت فمي فانقط بين يديه، وإن كسرت فمي، أي: ملت بجانب الشفة السفلى إلى تحت، فانقط تحت الحرف، وإنّما فعل أبو الأسود ذلك؛ لأنّ الكاتب ربما يشتبه عليه الصوت في السمع ويعين عليه البصارة، فتزيل شبهته، وكان أبو الأسود متعمّداً في تغيير هيئة فمه عند الحركات.

صالح أهل هجر، وأهل البحرين، وإيلة، ودومة الجندل، وله عهود بالصلح والجزية، ولم ينبذ إليهم بنقض عهد، ولاحاربهم بعد، وكانوا أهل ذمّة إلى أن مضى لسبيله ﷺ، ووفى لهم بذلك من بعده.

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ معناه: لم ينقصوكم من شروط العهد شيئاً. وقيل: معناه: لم يضرّوكم شيئاً، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أيّها المؤمنون أحداً من أعدائكم.

﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى انقضاء مدّتهم التي وقعت المعاهدة بينكم إليها ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ لنقض العهود.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

اللغة: الإنسلاخ: خروج الشيء ممّا لابسه. وأصله من سلخ الشاة، وهو نزع الجلد عنها. وسلخنا شهر كذا، نسلخه، سَلْخاً. وسلوخاً. والحصر: المنع من الخروج عن محيط. والحَصر والحبس والأسر، نظائر. والمرصد: الطريق، ومثله: المرقب، والمرباً. ورَصَده يَرصُده رَصْداً.

الإعراب: قال أبوالحسن الأخفش: قوله: ﴿كُلَّ مَرْصَد﴾ المعنى: على كل مرصد، فحذفت «على». وأنشد:

نُغَالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نَيّا وَنَرْخُصُهُ إِذَا نضَجَ الْقُدُورُ[١]

المعنى: نغالي باللحم فخذفت الباء. قال الزجّاج: ﴿كُلَّ مَرْصَد﴾ ظرف، كقولك: ذهبت مذهباً، وذهبت طريقاً، وذهبت كل طريق، قال أبوعليّ: لايحتاج في هذا إلى تقدير «على» إذا كان المرصد إسماً للمكان، كما أنّك إذا قلت: ذهبت مذَهباً، ودخلت مدخلاً، إذا جعلت المذهب والمدخل إسمين للمكان، لم يحتج إلى «عَلى» ولا إلى تقدير حرف جرّ، إلاّ أنّ أباالحسن ذهب إلى أنّ المرصد إسم للطريق، وإذا كان إسماً للطريق، كان مخصوصاً، وإذا كان مخصوصاً، وجب أن لايصل الفعل الذي لا يتعدّي إليه إلاّ بحرف جرّ، نحو: قعدت على الطريق، إلاّ أن يجيء في ذلك إتّساع، نحو ما حكاه سيبويه، من قولهم: ذهبت الشام، ودخلت البيت. وقد غلط أبو إسحاق الزجّاج في قوله: ﴿كُلَّ مِرْصَد﴾ ظرف، كقولك ذهبت مذهباً، وذهبت طريقاً، في أن جعل الطريق ظرْفاً كالمذهب، وليس الطريق بظرف؛ لأنّه مكان مخصوص. وقد نصّ سيبويه على إختصاصه، ألا ترى أنّه حمل قول ساعدة:

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيه كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[٢]

على أنّه قد حذف منه الحرف إتّساعاً، كما حذف من ذهبت الشام، وإذا أثبت ذلك، فالمرصد مثله أيضاً في الإختصاص، وأن لا يكون ظرفاً إذا كان إسماً للطريق. وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ فإعرابه أنّه مرفوع بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، المعنى: وإن إستجارك أحد.

قال الزجّاج: ومن زعم أنّه يرفع «أحداً» بالإبتداء فقد أخطأ؛ لأنّ «إنْ»

---

(١) يعني: لانطعم أضيافنا اللحم نيّا، ولكن إذا نضج.

(٢) يصف الرمح باللدونة، يقول: إذا حرّكته بيدك يرتعش، كأنّه يتحرّك متنه. وعسل الطريق: أي: مشى على الطريق.

الجزاء لايتخطّى مايرفع بالإبتداء، ويعمل فيما بعده، فلو أظهرت المستقبل، لقلت: إنْ أحد يَقُم أُكرِمْهُ، ولايجوز: إن أحد يَقُمْ زيد يقم، لايجوز أن يرفع «زيد» بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، ويجزم، وإنّما جاز في «إنْ» لأنّ «إنْ» يلزمها الفعل، وجواب الجزاء يكون بالفعل وغيره، ولايجوز أن تضمر وتجزم بعد المبتدأ؛ لأنّك تقول هيهنا: إنْ تأتني فزيد يقوم، فالموضع موضع إبتداء. قال أبوعليّ: إعلم أنّ جواب الشرط وإن كان بغير الفعل، فالأصل فيه الفعل، والفاء، وإذا، واقعان موقع الفعل، بدلالة أنّ قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ على قراءة من قرأ بالجزم، محمول على الموضع من قوله: ﴿فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾.

وأمّا قول أبي إسحاق لايجوز أن تضمر وتجزم بعد المبتدأ، ولعمري إنّه لايجوز أن يضمر الفعل فيرفع الإسم الذي يرتفع بالإبتداء بالفعل المضمر في نحو قولك: إن تأتني فزيد يقوم؛ لأنّ الجزم لايقع بعد المبتدأ، ولكن لايمتنع أن يقع الجزم بعد الفاعل في الجزاء، كما يقع في الشرط؛ لأنّ الجزاء موضع فعل، كما أنّ الشرط موضع فعل. فالمسألة التي منع أبو إسحاق إجازتها جائزة لا إشكال في جوازها، وهي قوله: إن يقم أحد زيد يقم، وقد نصّ سيبويه على إجازة ذلك. قال الزجّاج: وإنّما يجوز الفصل في باب «إن»؛ لأنّ «إنْ» أُمُّ الجزاء، ولايزول عنه إلى غيره، فأمّا أخواتها فلايجوز ذلك فيها إلاّ في الشعر، قال:

فَمَتىٰ وَاغِلٌ يَنُبْهُمْ يُحَيُّوه ... وَتُعْطَفْ عَلَيْهِ كَأْسُ السَّاقِي[1]

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه الحكم في المشركين بعد إنقضاء المدّة، فقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾، قيل: هي الأشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، ورجب، ثلاثة سَرد وواحد فرد، ـ عن جماعة ـ. وقيل: هي الأشهر الأربعة التي حرَّم القتال فيها، وجعل الله للمشركين أن يسيحوا في الأرض

---

(١) يصف قوماً بالجود، وأنّهم لايَتقطّبون بنزول الأضياف.

آمنين، على ما ذكرناه من إختلاف المفسّرين فيها.

وعلى هذا فمنهم من قال: معناه: فإذا إنسلخ الأشهر بإنسلاخ المحرّم؛ لأنّ المشركين من كان منهم لهم عهد، أمهلوا أربعة أشهر من حين نزلت برائة، ونزلت في شوّال ومن لاعهد لهم فأجلهم من يوم نزول النداء، وهو يوم عرفة، أو يوم النحر، إلى تمام الأشهر الحرم، وهي بقيّة ذي الحجّة، والمحرّم كلّه، فيكون ذلك خمسين يوماً. فإذا إنقضت هذه الخمسون يوماً، إنقضى الأجلان، وحلّ قتالهم، سواء كان لهم عهد خاصّ، أو عامّ.

ومنهم من قال: معناه: إذا إنسلخ الأشهر الأربعة التي هي عشرون من ذي الحجّة، والمحرّم، وصفر، وشهر ربيع الأوّل، وعشر من شهر ربيع الآخر، إذ حرّمنا فيها دماء المشركين، وجعلنا لهم أن يسيحوا فيها آمنين.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: فضعوا السيف فيهم حيث كانوا في الأشهر الحرم، وغيرها، في الحلّ، أو في الحرم، وهذا ناسخ لكلّ آية وردت في الصلح، والإعراض عنهم.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم، واقتلوهم. وقيل: ليس فيه تقديم وتأخير، وتقديره: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، أو خذوهم واحصروهم على وجه التخيير في إعتبار الأصلح من الأمرين.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ معناه: واحبسوهم، وإسترقّوهم، أو فادوهم بمال. وقيل: وامنعوهم دخول مكّة، والتصرّف في بلاد الإسلام.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: بكل طريق، وبكل مكان تظنُّون أنّهم يمرّون فيه، وضيِّقوا المسالك عليهم؛ لتمكّنوا من أخذهم. وقوله: ﴿لهم﴾ معناه: لقتلهم وأسرهم.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي: رجعوا من الكفر، وإنقادوا للشرع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: قبلوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لأنّ عصمة الدم لاتقف على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فثبت أنّ المراد به القبول.

﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُم﴾ أي: دعوهم يتصرّفون في بلاد الإسلام، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم. وقيل: معناه: فخلُّوا سبيلهم إلى البيت، أي: دعوهم يحجُّوا معكم. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وإستدلُّوا بهذه الآية على أنّ من ترك الصلاة متعمّداً، يجب قتله؛ لأنّ الله تعالى أوجب الإمتناع من قتل المشركين بشرط أن يتوبوا، ويقيموا الصلاة، فإذا لم يقيموها وجب قتلهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ معناه: وإن طلب أحد من المشركين ـ الذين أمرتك بقتالهم ـ منك الأمان من القتل، بعد الأشهر الأربعة؛ ليسمع دعوتك وإحتجاجك عليه بالقرآن، فأمنه، وبيّن له ما يريد، وأمهله حتى يسمع كلام الله ويتدبَّره. وإنّما خصّ كلام الله؛ لأنّ معظم الأدلّة فيه.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ معناه: فإن دخل في الإسلام، نال خير الدارين، وإن لم يدخل في الإسلام، فلا تقتله، فتكون قد غدرت به، ولكن أوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ذلك الأمان لهم بأنّهم قوم لايعلمون الإيمان والدلائل، فآمنهم حتى يسمعوا، ويتدبّروا، ويعلموا. وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضروريّة، وفي الآية دلالة على أنّ المتلوّ والمسموع كلام الله؛ لأنّ الشرع والعرف، جعلا الحكاية كعين المحكي، يقال هذا كلام سيبويه، وشعر إمرىء القيس. ومن ظنّ أنّ الحكاية تفارق المحكي، لأجل هذا الظاهر، فقد غلط؛ لأنّ المراد ما ذكرناه.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة عكرمة: «ايلا» ـ بياء بعد الهمزة ـ.

الحجة: يمكن أن يكون أراد «إلاّ» كقراءة الجماعة، إلاّ أنّه أبدل اللام الأولى ياء؛ لثقل الإدغام، ولكسر الهمزة، كما قالوا دينار وقيراط، والأصل: دنّار وقراط؛ لقولهم: دنانير وقراريط، وقد جاء مع التضعيف وحده. قال:

يا لَيتَنا أُمُّنا شالَتْ نَعامَتُها ... أَيْما إلى جَنَّةٍ، أَيْما إلى نارِ[1]

اللغة: الظهور: العلوّ بالغلبة. وأصله: خروج الشيء إلى حيث يصحّ أن يدرك. الرقبة والإنتظار والمراقبة والمراعاة والمحافظة، نظائر. والرقيب: الحافظ. والإلُّ: العهد، مأخوذ من الأليل، وهو البريق. يقال: أَلَّ يَؤُلُّ أَلًّا: إذا لمع. والآلة: الحربة للمعانها. وأُدُن مُؤَلَّلة: مشبّهة للحربة في تحديدها. قال الشاعر:

وَجَدْناهُمْ كاذِباً إِلُّهُم ... وَذُو الإِلِّ وَالْعَهْدِ لا يَكْذِبُ

والإلُّ: القرابة. قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ ... كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعامِ[2]

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

(٢) السقب: ولد الناقة. والرأل: فرخ النعامة، ولانسب بينهما.

المعنى: لمّا أمر سبحانه بنبذ العهد إلى المشركين، بيّن أنّ العلّة في ذلك ما ظهر منهم من الغدر، وأمر بإتمام العهد لمن إستقام على الأمر، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ أي: كيف يكون لهؤلاء عهد صحيح مع إضمارهم الغدر والنكث، وهذا يكون على التعجّب، أو على الجحد، ويدلّ عليه ما روي أنّ في قراءة عبدالله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ [لِلْمُشْرِكِيْنَ] عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ﴾ ولا ذمّة، فأدخل الكلام «لا»؛ لأنّ معنى الأوّل جحد، أي: لايكون لهم عهد. وقيل: معناه: كيف يأمر الله ورسوله بالكفّ عن دماء المشركين، ثمّ إستثنى سبحانه، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: فإنّ لهم عهداً عند الله؛ لأنّهم لم يضمروا الغدر بك، والخيانة لك.

وأُختلف في هؤلاء مَن هم؟ فقيل: هم قريش، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم أهل مكّة الذين عاهدهم رسول الله يوم الحديبيّة، فلم يستقيموا، ونقضوا العهد بأن أعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر، يختارون أمرهم؛ إمّا أن يسلموا، وإمّا أن يلحقوا بأيّ بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر، ـ عن قتاده، وابن زيد ـ. وقيل: هم من قبائل بكر: بنو خزيمة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة، وبنو الدئل، وهم الذين كانوا قد دخلوا عهد قريش يوم الحديبيّة إلى المدّة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقضها إلاّ قريش وبنو الدئل من بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن له نقض إلى مدّته. وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأنّ هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد، وبعد فتح مكّة.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ معناه: فما إستقاموا لكم على العهد، أي: ما داموا باقين معكم على الطريقة المستقيمة، فكونوا معهم كذلك.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ للنكث والغدر ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: هيهنا

حذف، وتقديره: كيف يكون لهم عهد، وكيف لا تقتلونهم، وإنّما حذفه؛ لأنّ ما قبله من قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يدلُّ على ذلك، ومثله: قول الشاعر يرثي أخاً له قد مات:

وَخَبَّرْتُماني أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرى ... فَكَيْفَ وَهٰاتا هَضْبَةٌ وَقَليبُ

أي: فكيف مات، وليس بقرية؟ ومثله: قول الحطيئة:

فَكَيْفَ وَلَمْ أَعْلَمْهُمُ حَدَلُوكُمُ ... عَلىٰ مُعْظَمٍ، وَلاأَديمَكُمُ قَدُّوا[1]

أي: وكيف تلومونني على مدح قوم، وتذمُّونهم؟ فاستغنى عن ذكر ذلك؛ لأنّه جرى في القصيدة ما يدلُّ على ما أضمره. ومعناه: كيف يكون لهؤلاء عهد عند الله، وعند رسوله، وهم بحال أن يظهروا عليكم، ويظفروا بكم، ويغلبوكم.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لايحفظوا، ولا يراعوا فيكم قرابة، ولا عهداً. والإلّ: القرابة، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ، والعهد، ـ عن مجاهد، والسدّي ـ، والجوار، ـ عن الحسن والحلف عن قتادة، واليمين، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: إنّ الإلّ إسم الله تعالى، ـ عن مجاهد ـ، وروى أنّ أبا بكر قرىء عليه كلام مسيلمة، فقال: لم يخرج هذا من إلّ، فأين يذهب بكم؟ ومن قال: إنّ الإلّ هو العهد، قال: جمع بينه وبين الذمّة، وإن كان بمعناه؛ لاختلاف معنى اللفظين، كما قال: وألفى قولَها كَذباً ومَيْنا وقال: متى أَدنُ منه ينأ عنّي، ويبعد.

﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: يتكلّمون بكلام الموالين لكم لترضوا عنهم، وتأبى قلوبهم إلاّ العداوة، والغدر، ونقض العهد. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: متمرّدون في الكفر والشرك، ـ عن ابن الأخشيد ـ. وقال الجبائي:

---

(١) حدل: مال وظلم. وفي نسخة: خذلوكم ـ بمعجمتين ـ. وقدّ الأديم: كناية هيهنا عن هتك العرض، يعني: كيف تذمّونهم وتمنعوني عن مدحهم، مع أنّهم لم يظلموكم، ولم تهتكوا عرضكم.

أراد كلّهم فاسقون، لكنّه وضع الخصوص موضع العموم. وقال القاضي: معناه: أكثرهم خارجون عن طريق الوفاء بالعهد، وأراد بذلك رؤسائهم.

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة والشام: ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ ـ بهمزتين ـ. وقرأ الباقون: «أيمة» ـ بهمزة واحدة، وياء بعدها ـ. وقرأ ابن عامر: «لا إيمان» ـ بكسر الهمزة ـ، ورواه ابن عقدة بإسناده، عن عريف بن الوضاح الجعفي، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام. والباقون: بفتحها.

الحجة: قال أبو عليّ: أئمّة: أصله: أفعلة، واحدها: إمام، فإذا جمعته على «أفعلة» ففيه همزة هي فاء الفعل، ويزيد عليها همزة «أفعلة» الزائدة، فيجتمع همزتان، وإجتماع الهمزتين في كلمة لايستعمل بحقيقتهما. قال الزجّاج: أصله:

أئممة، ولكن الميمين لمّا إجتمعتا، أُدغمت الأولى في الثانية، وأُلقيت حركتها على الهمزة، فصارت أئمّة، فأَبدل النحويّون من الهمزة المكسورة الياء، قال: ومن قال: هذا أوَمٌّ من هذا[١]، كان أصله اأَم، فجعلها واواً مفتوحة، كما قالوا في جمع آدم: أوادم.

قال أبو عليّ: ومن جمع بين الهمزتين في «أَئِمَّةَ»، فحجّته: أنّ سيبويه قال: زعموا أنّ ابن أبي إسحاق، كان يحقّق الهمزتين في اناس معه، وقد يتكلّم ببعضه العرب، وهو رديء؛ ووجهه من القياس أن تقول: إنّ الهمزة حرف من حروف الحلق، كالعين وغيره، وقد جمع بينهما في نحو كعاعة وكَعَّ يَكِعُّ، فكما جاز إجتماع العينين، جاز إجتماع الهمزتين. قال عليّ بن عيسى: إنّما جاز إجتماع الهمزتين هنا، لئلاّ يجتمع على الكلمة تغيُّران: الإدغام والقلب، مع خفّة التحقيق لأجل ما بعده من السكون، وعلى هذا تقول: هذا أءَم من هذا بهمزتين. قال: وإنّما قلبت الهمزة من «أئمة» على حركتها دون حركة ماقبلها ولم تقل: آمة، لأنّ الحركة إنّما نقلت من الميم إلى الهمزة، لبيان زنة الكلمة، فلو ذهبت [الكسرة] بقلبها [أي: قلب الهمزة ألفاً] على [وفق حركة] ماقبلها، لكنت مناقضاً للغرض فيها.

وأمّا قوله: ﴿لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾: فمن فتح الهمزة قال: هو أشبه بالموضع، فقد قال نكثوا أيمانهم، ومن كسرها جعله مصدر آمنته إيماناً، خلاف خوَّفته، ولا يريد مصدراً من [آمَنَ] الذي هو صَدَّقَ، فيكون تكراراً لدلالة ما تقدّم من قوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ على أنّ أهل الكفر لا إيمان لهم.

(اللغة): الأيمان: جمع يمين، وهو القَسَم. والطعن: الإعتماد بالعيب، وأصله: الطعن بالرمح. والإمام: هو المتقدّم للأتباع، فالإمام في الخير مهتد هاد، وفي الشرّ ضالّ مضلّ. والهمّ: مقارنة الفعل بالعزم من غير إيقاع له، وقد ذمّوا بهذا

---

[١] أي أحسن إمامة منه.

الهمّ، ففيه دليل على العزم، وقد يستعمل الهمّ على مقارنة العزم. والبدء: فعل الشيء من قبل غيره، وهو فعل الشيء أوّلاً. والمرّة: فعل لم يتكرّر، وهي الفعلة من المرّ. والمرّة والدفعة والكرّة، نظائر.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه خصال القوم، فقال: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ومعناه: أعرضوا عن دين الله، وصدّوا الناس عنه بشيء يسير نالوه من الدنيا. وأصل الإشتراء: إستبدال ما كان من المتاع بالثمن، ونقيضه البيع: وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن. ومعنى الفاء هنا: أنّ إشتراءهم هذا أدّاهم إلى الصدّ عن الإسلام، وهذا ورد في قوم من العرب جمعهم أبو سفيان على طعامه ليستميلهم على عداوة النبيّ ﷺ، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ورد في اليهود الذين كانوا يأخذون الرشا من العوام على الحكم بالباطل، ـ عن الجبائي ـ:

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس العمل عملهم. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلّاً وَلَا ذِمَّةً﴾ سبق معناه. والفائدة في الإعادة أنّ الأوّل في صفة الناقضين للعهد، والثاني في صفة الذين إشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً. وقيل: إنّما كرّر تأكيداً. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أي: المجاوزون الحدّ في الكفر والطغيان.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ أي: ندموا على ما كان منهم من الشرك، وعزموا على ترك العود إليه، وقبلوا الإسلام، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي: قبلوهما وأدّوهما عند لزومهما.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، فعاملوهم معاملة إخوانكم من المؤمنين. ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبيّنها، ونميّزها بخاصّة لكل واحدة منها تتميّز بها من غيرها، حتى يظهر مدلولها [مداولها] على أتمّ ما يكون من الظهور فيها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ويتبيّنونه دون الجهال الذين لا يتفكّرون.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ أي: نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ أي: عهودهم، وما حلفوا عليه ﴿مِنْ

﴿بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد أن عقدوه ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه، وقدحوا فيه.

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي: رؤساء الكفر والضلالة، وخصّهم بالأمر بقتالهم؛ لأنهم يضلّون أتباعهم. قال الحسن: وأراد به جماعة الكفّار، وكل كافر إمام لنفسه في الكفر، ولغيره في الدعاء إليه. وقال ابن عباس، وقتادة: وأراد به رؤساء قريش مثل: الحرث بن هشام، وأبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وكان حذيفة بن اليمان يقول: لم يأت أهل هذه الآية بعد. وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم. وقرأ علي عليه السلام، هذه الآية يوم البصرة، ثمّ قال: أما والله! لقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: ياعلي لتقاتلنّ الفئة الناكثة، والفئة الباغية، والفئة المارقة.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ من قرأ بفتح الهمزة، فمعناه: أنّهم لا يحفظون العهد واليمين، كما يقال: فلان لا عهد له، أي: لا وفاء له بالعهد. ومن قرأ بالكسر، فمعناه: لا تؤمنوهم بعد نكثهم العهد، ويحتمل أن يكون معناه: أنّهم إذا آمنوا إنساناً لا يفون به، ويحتمل أن يكون معناه: أنّهم كفروا فلا إيمان لهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ معناه: قاتلوهم لينتهوا عن الكفر، فإنّهم لا ينتهون عنه بدون القتال. وقيل: معناه: ليكن قصدكم في قتالكم انتهاؤهم عن الشرك. فإن قيل: كيف نفى بقوله: ﴿لاَ أَيمانَ لَهُمْ﴾ ما أثبته بقوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؟ قيل له: إنّ الأيمان التي أثبتها، هي ما حلفوا بها، وعقدوا عليها، وإنّما نفاها من بعد؛ لأنّهم لم يفوا بها، ولم يتمسّكوا بموجبها.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: الألف للإستفهام، والمراد به: التحضيض والإيجاب، ومعناه: هلاّ تقاتلوهم، وقد نقضوا عهودهم التي عقدوها. وأُختلف في هؤلاء، فقيل: هم اليهود الذين نقضوا العهد،

وخرجوا مع الأحزاب، وهمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من المدينة، كما أخرجه المشركون من مكّة، ـ عن الجبائي، والقاضي ـ. وقيل: هم مشركوا قريش، وأهل مكّة.

﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بدءوكم بنقض العهد، ـ عن ابن إسحاق والجبائي ـ. وقيل: بدءوكم بقتال حلفاء النبيّ ﷺ من خزاعة، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: بدءوكم بالقتال يوم بدر، وقالوا حين سلم العير: لاننصرف حتى نستأصل محمّداً، ومن معه.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتخافون أن ينالكم من قتالكم مكروه، لفظه إستفهام والمراد به تشجيع المؤمنين، وفي ذلك غاية الفصاحة؛ لأنّه جمع بين التقريع والتشجيع.

﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المعنى: لاتخشوهم، ولا تتركوا قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم، فإنّه سبحانه أحقّ أن تخافوا عقابه في ترك أمره بقتالهم، إن كنتم مصدّقين بعقاب الله وثوابه، أي: إن كنتم مؤمنين فخشية الله أحقُّ بكم من خشية غيره، والله أعلم وأحكم.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة الأعرج[1]، وابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي،

---

(١) الأعرج: قد يطلق على حميد بن قيس المكي المقرى، وعلي عبدالرحمن بن هرمز، الذي ربما نسب إليه وضع علم النحو، والأظهر هنا الأخير؛ بقرينه أنّ ابن أبي إسحاق، وعيسى الثقفي أيضاً من النحاة، ومن أصحابه أو تلاميذه.

وعمرو بن عبيد: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ﴾ بالنصب، ورويت عن أبي عمرو أيضاً.

الحجة: قال ابن جنّي: إذا نصب، فالتوبة داخلة في جواب الشرط، وإذا رفع، فهو إستئناف، وتقديره في النصب: إن تقاتلوهم تكن هذه الأشياء كلّها التي أحدها التوبة من الله على من يشاء، والوجه قراءة الجماعة على الإستئناف؛ لأنّه تمَّ الكلام على قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ثمّ إستأنف فقال: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ لأنّ التوبة منه سبحانه على من يشاء، ليست مسبّبة عن قتالهم.

المعنى: ثمّ أكّد سبحانه ما تقدّم بأن أمر المسلمين بقتالهم، وبشّرهم بالنصر والظفر عليهم، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً وأسراً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾: ويذلّهم ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم أيّها المؤمنون عليهم.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: صدور بني خزاعة الذين بيّت عليهم بنوبكر، ـ عن مجاهد، والسدّي ـ؛ لأنّهم كانوا حلفاء النبيّ ﷺ.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: ويكون ذلك النصر شفاءاً لقلوب المؤمنين التي إمتلأت غيظاً لكثرة ما نالهم من الأذى من جهتهم.

ثمّ إستأنف سبحانه، فقال: ﴿يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ويقبل توبة من تاب منهم مع فرط تعذّبهم [تعدّيهم]، رحمة وفضلاً ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: عليم بتوبتهم إذا تابوا، حكيم في أمركم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا؛ لأنّ أفعاله كلّها صواب وحكمة، وفي هذا دلالة على نبوّة نبيّنا ﷺ؛ لأنّه وافق خبره المخبر.

النظم: والوجه في إتّصال قوله: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ بما قبله شيئان:

أحدهما: البشارة بأنّ فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر إلى الإيمان.

والآخر: بيان أنّه ليس في قتالهم إقتطاع لأحد منهم عن التوبة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(اللغة): الحسبان: قوّة المعنى في النفس، من غير قطع، وهو مشتقّ من الحساب لدخوله فيما يحتسب به. والترك: ضدّ ينافي الفعل المبتدأ في محلّ القدرة عليه، ويستعمل بمعنى: أن لا يفعل، كقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾. والوليجة: الدخيلة في القوم من غيرهم. والبطانة مثله. وليجة الرجل: من يختصّ بدخلة أمره دون الناس، الواحد والجمع فيه سواء، وكل شيء دخل في شيء ليس منه، فهو وليجة، قال طرفة:

فإنَّ القَوا في يَتَّلِجْنَ مَوالِجاً تَضايَقُ عَنْهُ أَنْ تَوِلَّجَهُ الإِبَرُ[1]

(الإعراب): أم: حرف عطف، يعطف به الإستفهام و ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: معطوف على ما تقدّم من قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ وهو من الإستفهام المعترض في وسط الكلام، فجعل بأم ليفرّق بينه وبين الإستفهام المبتدأ «لما يفعل» نفي الفعل مع تقريب لوقوعه، «ولم يفعل» نفي الفعل بعد إطماع في وقوعه.

(المعنى): ثمّ نبّه سبحانه على جلاله موقع الجهاد، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ معناه: أظننتم أيّها المؤمنون أن تتركوا من دون أَنْ تكلّفوا الجهاد في سبيل الله مع الإخلاص ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ معناه: ولمّا يظهر ما علم الله منكم، فذكر نفي العلم، والمراد نفي المعلوم تأكيداً للنفي، وإلاّ فإنّ الله عزّ

---

(١) يصف لطف الشعر، بأنّه يشقّق أموراً دقيقة معنويّة، ممّا لا يمكن أن يشقّ نظيره في المحسوسات الابرة. والإتّلاج من الولوج.

إسمه عالم بما يكون قبل أن كان، وبما لا يكون لو كان، كيف كان يكون، وتقديره: أظننتم أن تتركوا، ولم تجاهدوا.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: ولم يعلم الله الذين لم يتّخذوا سوى الله، وسوى رسوله، والمؤمنين، بطانة وأولياء يوالونهم، ويفشون إليهم أسرارهم. وقال الجبائي: فهو أن يكونوا منافقين، وهو قول الحسن. وفي هذا دلالة على تحريم موالاة الكفّار والفسّاق، والألف بهم. ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بأعمالكم، فيجازيكم عليها.

النظم: وجه إتّصال هذه الآية بما قبلها: أنّه لمّا تقدّم الأمر بالقتال، عطف عليه بهذا الشرط، وهو الإخلاص في الجهاد على وجه قطع العصمة؛ ليظهر الظفر، ويستحقّ الثواب.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ
إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة وابن كثير: «مسجد الله» على الواحد، وهو قراءة ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والباقون: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾.

الحجة: حجّة من أفرد: أنّه عنى به المسجد الحرام، وحجّة من جمع: أنّه عنى به المسجد الحرام وغيره من المساجد، ويحتمل أن يكون أراد المسجد

الحرام. وإنّما جمع؛ لأنّ كل موضع منه مسجد يسجد عليه، فيكون القراءتان بمعنى.

اللغة: الأصل في المسجد: هو موضع السجود في العرف، ويعبَّر به عن البيت المهيّأ لصلاة الجماعة فيه. والعمارة: أن يجدّد منه ما إسترمّ من الأبنية. ومنه: إعتمر إذا زار؛ لأنّه يجدّد بالزيارة ما إسترمّ من الحال.

المعنى: لمّا أمر الله سبحانه بقتال المشركين، وقطع العصمة والموالاة عنهم، أمر بمنعهم عن المساجد، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾ معناه: لاينبغي للمشركين أن يكونوا قوّاماً على عمارة مساجد الله، ومتولّين لأمرها، وينبغي أن يعمرها المسلمون. وقيل: إنّ المراد بذلك المسجد الحرام خاصّة وقيل: هي عامّة في جميع المساجد.

﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أي: حال شهادتهم على أنفسهم بالكفر، أو مع شهادتهم. وأُختلف في العمارة للمسجد، فقيل: هي بدخوله ونزوله، كما يقال: فلان يعمر مجلس فلان: إذا أكثر غشيانه؛ لأنّ المسجد تكون عمارته بطاعة الله، وعبادته. وقيل: هي بإستصلاحه، ورَمِّ ما إسترمّ منه؛ لأنّه إنّما يعمر للعبادة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: هي بأن يكونوا من أهله، أي: لاينبغي أن يترك المشركون فيكونوا أهل المسجد الحرام، ـ عن الحسن ـ.

وأُختلف في شهادتهم على أنفسهم بالكفر كيف هي؟ فقيل: هي أنّ النصرانيّ يسأل ما أنت؟ فيقول: أنا نصرانيّ. واليهوديّ يقول: أنا يهوديّ، وكذلك المشرك إذا سئل ما دينك؟ يقول: مشرك، لايقولها أحد غير العرب، ـ عن السدّي ـ. وقيل: معناه: أنّ كلامهم يدلّ على كفرهم، كما يقال: كلام فلان يدلّ على بطلان دعواه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هي قولهم: لبّيك لاشريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما

ملك. وقيل: شهادتهم سجودهم لأصنامهم، مع إقرارهم بأنّها مخلوقة، ـ عن ابن عباس ـ. ومعناه: أنّهم يشهدون على أنفسهم بأفعالهم وأحوالهم، ومن أظهر شيئاً وبيّنه، يقال قد شهد به.

﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي هي من جنس الطاعة من المؤمنين، أي: بطلت لأنّهم أوقعوها على الوجه الذي لا يستحقّ لأجله الثواب عليها عندالله.

﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: مقيمون مؤبّدون.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ ولفظة «إنّما» لإثبات المذكور، ونفي ما عداه، فمعناه: لا يعمر مساجد الله بزيارتها، وإقامة العبادات فيها، أو ببنائها ورمِّ المسترمّ منها إلاّ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: من أقرّ بوحدانيّة الله، وإعترف بالقيامة، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطاها إن وجبت عليه إلى مستحقّها، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ أي: لم يخف سوى الله أحداً من المخلوقين، وهذا راجع إلى قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ أي: إن خشيتموهم فقد ساويتموهم في الإشراك، كما قال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الآية.

﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى الجنّة، ونيل ثوابها؛ لأنّ عسى من الله واجبة، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ، وفي ذكر الصلاة، والزكاة، وغير ذلك، بعد ذكر الإيمان بالله، دلالة على أنّ الإيمان لا يتناول أفعال الجوارح؛ إذ لو تناولها لما جاز عطف ما دخل فيه عليه. ومن قال. إنّ المراد فيه التفصيل، وزيادة البيان، فقد ترك الظاهر.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة محمّد بن علي الباقر عليه السلام، وابن الزبير، وأبي وجرة السواري، وأبي جعفر السعدي القارىء: أجعلتم سُقاة الحاجّ وعِمَارة [عَمَرَة] المسجد الحرام، وقرأ الضحّاك: سُقَايَة الحاجّ ـ بالضمّ ـ وَعَمَرَة المسجد[1].

الحجة: أمّا سقاة: فهو جمع ساق. وعمرة: جمع عامر. وأمّا سُقاية: فقد قال ابن جنّي: فيه نظر، ووجهه أن يكون جمعاً جاء على «فعال» كعِرق وعُراق، ورِخْل ورُخال، وظِئْر وظُؤار، وتؤأمْ وتُوام، وبريء وبُراء، وانسان وأُناس. ثمّ أنّث كما يؤنّث من الجموع أشياء نحو: حجارة، وعُيُورَة[2]، وكأنّ من عدل عن قراءة الجماعة ﴿سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾ إلى هذا، إنّما هرب من أن يقابل الحدث بالجوهر، وذلك أنّ من آمن جوهر، وسقاية وعمارة مصدران، فلابدّ إذن

---

(١) مضى مراراً أنّ شرط القرائة، التواتر ممّن إتّفق على الأخذ منهم، ولاريب أنّ الشواذّ لم تنقل إلينا متواتراً، ولو كانت منقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أو عن أحد من المعصومين عليهم السلام، أو عبدالله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وأمثالهم ممّن لو كنّا في عصرهم، وأخذنا القرائة منهم بلاواسطة، كان لنا متابعتهم جائزة، لكن المنقول منهم بطريق الآحاد، لايوجب العلم بصحّة نسبة القرائة إليهم.

(٢) الرخل: أنثى الحمل. وعيورة: جمع عير، حمار الوحش.

من حذف المضاف، أي: أجعلتم هذين الفعلين، كفعل من آمن بالله، فلمّا رأى أنّه لابدّ من حذف المضاف، قرأ: سقاة وعمرة، على ما مضى.

(اللغة): السِّقاية: آلة تتّخذ لسَقي الماء. والسِّقاية: مصدر كالسَقْي أيضاً. وقيل: إنّهم كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب، وبيت البشر [البئر] سقاية أيضاً.

والبشارة: الدلالة على ما يظهر به السرور في بشرة الوجه، كما يقال بشّرته، أبشّرُه، بُشرىٰ. ورضوان: هو معنى يستحقّ بالإحسان، ويدعوا إلى الحمد على ما كان، ويضادّ سخط العصيان. والنعيم: مشتقّ من النعمة، وهي اللين. فأمّا النِعمة: ـبكسر النون ـ، فهي منفعة يستحقّ بها الشكر؛ لأنّها كنعمة العيش. وأبداً: للزمان المستقبل من غير آخر، كما أنّ «قطّ» للماضي. يقال: ما رأيته قطُّ، ولا أراه أبداً. وجمع الأبد: آباد، وأُبود. يقال: لا أفعل ذلك أبد الأبيد، وأبد الآبدين. وتأبَّد المنزل: أتى عليه الأبد. والأوابد: الوحش، سمّيت بذلك لطول أعمارها. وقيل: لم يمت وحشي حتف أنفه، وإنّما يموت بآفةٍ. والآبدة: الداهية.

(النزول): قيل: إنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والعباس بن عبدالمطّلب، وطلحة بن شيبة، وذلك أنّهم إفتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وبيدي مفتاحه، ولو أشاء بتّ فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية، والقائم عليها، وقال عليّ عليه السلام: ما أدري ماتقولان، لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، ـ عن الحسن، والشعبي، ومحمّد بن كعب القرنطي [ظى]. وقيل: إنّ عليّاً عليه السلام قال للعباس: ياعمّ! ألا تهاجر، وألا تلحق برسول الله؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام، وأسقي حاجّ بيت الله؟ فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ ـ عن ابن سيرين، ومرة الهمداني ـ.

وروى الحاكم أبوالقاسم الحسكاني: بإسناده عن ابن بريدة، عن أبيه، قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران، إذا مرّ بهما عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاجّ. وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام. فقال عليّ عليه السلام، إستحييت لكما، فقد

أوتيت على صغري ما لم تؤتيا! فقالا: وما أوتيت يا عليّ؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله! فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به علي؟ فقال: أدعوا لي عليّاً، فدعي له، فقال: ما حملك على ما إستقبلت به عمّك؟ فقال يا رسول الله! صدمته بالحقّ فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمّد! إنّ ربّك يقرأ عليك السلام، ويقول أُتل عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيات. فقال العباس: إنّا قد رضينا ثلاث مرّات.

وفي تفسير أبي حمزة أنّ العباس لما أسر يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار، فعيَّروه بالكفر، وقطيعة الرحم، فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا، وتكتمون محاسننا؟ قالوا: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم والله لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاجّ، ونفكّ العاني[١]. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿المعنى﴾: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ هذا إستفهام معناه الإنكار، أي: لا تجعلوا، وفيه حذف يدلّ الكلام عليه، وتقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاجّ، وأهل عمارة المسجد الحرام، كمن آمن بالله، حتى يكون مقابلة الشخص بالشخص، أو يكون تقديره: أجعلتم السقاية والعمارة كإيمان من آمن بالله. حتى تكون مقابلة الفعل بالفعل. وسقاية الحاجّ: سقيهم الشراب. قال الحسن: وكان نبيذ زبيب يسقون الحاجّ في الموسم، فبيّن الله سبحانه أنّه لا يقابل هذه الأشياء بالإيمان بالله واليوم الآخر وبالجهاد في سبيله، فإنّه لا مساواة بين الأمرين ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ﴾ في الفضل والثواب.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى طريق ثوابه ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كما يهدي إليه من كان عارفاً به، فاعلاً لطاعته، مجتنباً لمعصيته.

ثمّ إبتدأ سبحانه، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا، وإعترفوا بوحدانيّة

---

[١] العاني: الأسير، وكل من ذل، واستكان، وخضع.

الله، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أوطانهم التي هي دار الكفر إلى دار الإسلام، ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: تحمّلوا المشاقّ في ملاقاة أعداء الدين، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ﴾ من غيرهم من المؤمنين الذين لم يفعلوا هذه الإشياء.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الظافرون بالبغية. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ برحمة في الدنيا على ألسنة الرسل، وبما بيّن في كتبه من الثواب الموعود على الجهاد ﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ في الآخرة.

﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ أي: دائم لا يزول ولا ينقطع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: دائمين فيها مع كون النعيم مقيماً لهم ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ﴾ أي: جزاء على العمل ﴿عَظِيم﴾ أي: كثير متضاعف لا يبلغه نعمة غيره من الخلق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ
أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن
يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ
فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

القراءة: قرأ أبوبكر عن عاصم: «وعشيراتكم» ـ على الجمع ـ. والباقون: «وعشيرتكم» ـ على التوحيد ـ.

الحجة: من أفرد، فلأنّ العشيرة يقع على الجمع. وقال أبوالحسن: العرب لا تجمع العشيرة عشيرات، وإنّما تقول: عشائر، ومن جمع؛ فلأنّ كل واحد من

المخاطبين له عشيرة.

اللغة: الإستحباب: طلب المحبّة، ويجوز أن يكون إستحبّ بمعنى: أحبّ، كما أنّ إستجاب يكون بمعنى: أجاب، فيكون كأنّه طلب محبّة، فوقع له. والعشير[ة]: الجماعة ترجع إلى عقد واحد، كالعشيرة [كالعشرة]. ومنه: المعاشرة. والإقتراف: إقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره، من قرفت القرحة: إذا قشرتها، والقِرْف: القشر. والتربّص: التثبّت في الشيء حتى يجيء وقته. والتربّص والتثبّت [التثبيت] والتنظّر والتوقّف، نظائر. ونقيضه: التعجّل [التعجيل].

النزول: روي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام: أنّها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حيث كتب إلى قريش يخبرهم بخبر النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أراد فتح مكّة.

المعنى: ثمّ نهى الله سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين، وإن كانوا في النسب الأقربين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا في أمر الدين، فأمّا في أمر الدنيا فلا بأس بمجالستهم ومعاشرتهم؛ لقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ قال ابن عباس: لمّا أمر الله تعالى المؤمنين بالهجرة، وأرادوا الهجرة، فمنهم من تعلّقت به زوجته، ومنهم من تعلّق به أبواه وأولاده، فكانوا يمنعونهم من الهجرة، فيتركون الهجرة لأجلهم، فبيّن سبحانه أنّ أمر الدين مقدّم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الأبوين، فالأجنبيّ أولى.

﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: إن إختاروا الكفر، وآثروه على الإيمان قال الحسن: من تولّى الشرك [المشرك] فهو مشرك، وهذا إذا كان راضياً بشركه.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ فترك طاعة الله لأجلهم، وأطلعهم على أسرار المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم، والباخسون حقّها من الثواب؛ لأنّهم وضعوا الموالاة في غير موضعها؛ لأنّ موضعها أهل الإيمان.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ الذين ولدوكم، ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الذين ولدتموهم، وهم الأولاد الذكور،

﴿وَإِخْوَانُكُم﴾ في النسب، ﴿وَأَزْوَاجُكُم﴾ اللاتي عقدتم عليهنّ عقدة النكاح، ﴿وَعَشِيرَتُكُم﴾ أي: وأقاربكم، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها، واقتطعتموها، وجمعتموها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: تخشون أنّها تكسد إذا اشتغلتم بطاعة الله تعالى، والجهاد، ﴿وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: مساكن إخترتموها لأنفسكم، ويعجبكم المقام فيها.

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ أي: آثر في نفوسكم، وأقرب إلى قلوبكم ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ أي: ومن الجهاد في سبيل الله.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: إنتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بحكمه فيكم. وقيل: بعقوبتكم على اختياركم هذه الأشياء على الجهاد، وطاعة الله، إمّا عاجلاً، وإمّا آجلاً، وفيه وعيد شديد، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وقيل: بفتح مكّة، ـ عن مجاهد ـ. وقال بعضهم: وهذا لا يصحّ؛ لأنّ سورة «براءة» نزلت بعد فتح مكّة. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ مضى تفسيره.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ
أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا
وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم
مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

اللغة: الموطن: الموضع الذي يقيم فيه صاحبه، وهو «مَفْعَل» من الوطن.

وإستوطن بالمكان: إذا إتّخذه وطناً. وحنين: إسم واد بين مكّة والطائف. الإعجاب: السرور بما يتعجّب منه. والعجب: السرور بالنفس. والرحب: السعة في المكان. وضدّه: الضيق. وقولهم: مرحباً: معناه: أتيت سعة. والسكينة: الطمأنينة والأمنة، وهي «فعيلة» من السكون. قال الشاعر:

لِلَّهِ قَبْرٌ غالَها ما أَجَنَّ ... لَقَدْ أَجَنَّ سَكينَةً وَوَقارا[1]

والجنود: الجموع التي تصلح للحروف.

الإعراب: مواطن: لاينصرف؛ لأنّه جمع ليس على مثال الآحاد. ويوم حنين أي: وفي يوم حنين، عطف على مواطن، أي: ونصركم في يوم حنين، وإنّما صرف حنيناً؛ لأنّه إسم لمذكر، وهو وادٍ، ولو ترك صرفه على أنّه اسم للبقعة لجاز. قال الشاعر[1]:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمْ، وَشَدُّوا أَزْرَهُمْ ... بِحُنَيْنَ يَوْمَ تَواكُلِ الأَبْطالِ[2]

و«ما» في قوله: بما رحبت مصدريّة، أي: برحبها وسعتها.

المعنى: لمّا تقدّم أمر المؤمنين بالقتال، ذكرهم بعده بما أتاهم من النصر، حالاً بعد حال، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ الام: للقسم، فكأنّه سبحانه أقسم بأنّه نصر المؤمنين، أي: أعانهم على أعدائهم في مواضع كثيرة، على ضعفهم وقلّة عددهم، حثّاً لهم على الإنقطاع إليه، ومفارقة الأهلين والأقربين في طاعته.

ورد عن الصادقين عليهما السلام أنّهم قالوا: كانت المواطن ثمانين موطناً. وروي أنّ

---

(١) عالها: أي غلب عليها وظفر بها. والنون المفتوحة من «ماذا أجنّ» من المصراع الثاني. وأجنّ: أي ستر.

(٢) الأزر: الظهر، وشدّ الأزر كناية عن الجدّ في الأمر. والتواكل: دفع كل واحد الأمر عن نفسه وإيكاله إلى غيره.

[١] قائله: حسان بن ثابت الأنصاري.

المتوكّل إشتكى شكاية شديدة، فنذر أن يتصدّق بمال كثير إن شفاه الله، فلمّا عوفي سأل العلماء عن حدِّ المال الكثير، فاختلفت أقوالهم، فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن، عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى عليهم السلام، وقد كان حبسه في داره، فأمر أن يكتب إليه، فكتب يتصدّق بثمانين درهماً، ثمّ سألوه عن العلّة في ذلك، فقرأ هذه الآية، وقال: عددنا تلك المواطن فبلغت ثمانين موطناً[1].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي: وفي يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي: سرّتكم، وصرتم معجبين بكثرتكم. قال قتادة: وكان سبب إنهزام المسلمين يوم حنين، أنّ بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين: لن نغلب اليوم عن قلّة! فإنهزموا بعد ساعة، وكانوا إثني عشر ألفاً. وقيل: إنّهم كانوا عشرة آلاف. وقيل: ثمانية آلاف. والأوّل أصحّ وأكثر في الرواية.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي: فلم يدفع عنكم كثرتكم سوءاً، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبتها. والباء بمعنى «مع»، والمعنى: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها، كما يقال: أخرج بنا إلى موضع كذا، أي: معنا، والمراد: لم تجدوا من الأرض موضعاً للفرار إليه.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ولّيتم عن عدوّكم منهزمين، وتقديره: ولّيتموهم أدباركم، وإنهزمتم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي: رحمته التي تسكن إليها النفس، ويزول معها الخوف ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حين رجعوا إليهم وقاتلوهم. وقيل: على

---

(١) ليس المقصود أنّ الكثير وضع في الشرع للثمانين إصطلاحاً مطّرداً، حتى يحمل على الثمانين مطلقاً؛ لأنّ مثل كثير الشكّ وكثير السفر لايطلق على الثمانين، بل المراد: أنّ الكثير في مثل هذا التركيب يصحّ أن يراد به: الثمانون، فيحمل عليه؛ لأنّه أحد أفراد الكثير، وإن جاز إعطاء أزيد أيضاً؛ لصدق الكثير على أكثر من ثمانين بالطريق الأولى.

المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ، وعلي عليه السلام والعباس في نفر من بني هاشم، ـ عن الضحّاك بن مزاحم ـ. وروي الحسن بن عليّ بن فضّال: عن أبي الحسن الرضا، أنّه قال: السكينة ريح من الجنّة تخرج طيّبة، لها صورة كصورة وجه الإنسان، فتكون مع الأنبياء. أورده العياشي مسنداً.

﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ أراد به جنوداً من الملائكة. وقيل: إنّ الملائكة نزلوا يوم حنين بتقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، ولم يباشروا القتال يومئذ، ولم يقاتلوا إلاّ يوم بدر خاصّة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل، والأسر، وسلب الأموال، والأولاد، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وذلك العذاب جزاء الكافرين على كفرهم.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر سبحانه «ثمّ» في ثلاثة مواضع متقاربة: «الأوّل»: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ عطف على ما قبله من الفعل، وهو قوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ﴾. و«الثاني»: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ﴾ عطف على ﴿وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾. و«الثالث»: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ﴾ عطف على ﴿أُنْزِلَ﴾، وإنّما حسن عطف المستقبل على الماضي؛ لأن يشاكله؛ فإنّ الأوّل تذكير بنعمة الله، والثاني وعد بنعمة الله.

والمعنى: ثمّ يقبل الله توبة من تاب عن الشرك، ورجع إلى طاعة الله والإسلام، وندم على ما فعل من القبيح. ويجوز أن يريد: ثمّ يقبل الله توبة من إنهزم من بعد هزيمته. ويجوز أن يريد: يقبل توبتهم عن إعجابهم بالكثرة، وإنما علّقه بالمشيئة لأنّ قبول التوبة تفضّل من الله، ولو كان واجباً على ما قاله أهل الوعيد لما جاز تعليقه بالمشيئة، كما لا يجوز تعليق الثواب على الطاعة بالمشيئة، ومن خالف في ذلك قال: إنّما علّقها بالمشيئة؛ لأنّ منهم من له لطف يصلح به، ويتوب ويؤمن عنده، ومنهم من لا لطف له منه.

﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ أي: ستّار للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده.

﴿القِصَّة﴾: ذكر أهل التفسير، وأصحاب السير، أنّ رسول الله ﷺ لمّا فتح مكّة خرج منها متوجّهاً إلى «حُنَيْن» لقتال هوازن وثقيف، في آخر شهر رمضان، أو في شوّال، من سنة ثمان من الهجرة. وقد إجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصري، وساقوا معهم أموالهم، ونساءهم، وذراريهم، ونزلوا بأوطاس[١]. قال: وكان دريد بن الصمة في القوم، وكان رئيس جُشَمْ، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر، فقال: بأيّ واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم [مجال] الخيل لا حَزْن ضَرِس، ولا سَهْل دَهِس؟[٢]، مالي أَسمع رغاء البعير، ونهيق الحمير، وخوار البقر، وثغاء الشاة، وبكاء الصبيان؟ فقالوا: إنّ مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم، وأموالهم، ونساءهم؛ ليقاتل كل منهم عن أهله وماله. فقال دريد: راعي ضأن وربّ الكعبة.

ثمّ قال: ائتوني بمالك، فلمّا جاءه قال: يا مالك! إنّك أصبحت رئيس قومك، وهذا يوم له ما بعده، ردّ قومك إلى عليا بلادهم، والق الرجال على متون الخيل، فإنّه لا ينفعك إلاّ رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك لحق بك من ورائك، وإن كانت عليك، لا تكون فضحت في أهلك وعيالك.

فقال له مالك: إنّك قد كبرت، وذهب علمك وعقلك، و[عقل] رسول الله ﷺ لواءه الأكبر، ودفعه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكل من دخل مكّة براية، أمره أن يحملها، وخرج بعد أن أقام بمكّة خمسة عشر يوماً، وبعث إلى صفوان بن

---

[١] أوطاس: وادٍ بديار هوازن، جنوبي مكّة بنحو ثلاث مراحل، وهي من النوادر التي جاء بلفظ الجمع.

[٢] الحَزَن: المكان الغليظ الخشن. والضرس: الأكمة الخشنة، والدهس: ما سهل ولان من الأرض.

أميّة، فإستعار منه مائة درع، فقال صفوان: عارية أم غصب؟ فقال ﷺ: عارية مضمونة، مؤداة. فأعاره صفوان مائة درع، وخرج معه، وخرج من مسلمة الفتح ألفا رجل. وكان ﷺ دخل مكّة في عشرة آلاف رجل، وخرج منها في إثني عشر الفاً.

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً من أصحابه، فإنتهى إلى مالك بن عوف، وهو يقول لقومه: ليصيِّر كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، واكمنوا في شعاب هذا الوادي، وفي الشجر، فإذا كان في غبش[1] الصبح، فاحملوا حملة رجل واحد، فهدّوا القوم، فإنّ محمّداً لم يلق أحداً يحسن الحرب.

ولمّا صلّى رسول الله ﷺ بأصحابه الغداة، إنحدر في وادي حنين، فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحية، وإنهزمت بنو سليم، وكانوا على المقدمة، وإنهزم ما وراءهم، وخلّى الله تعالى بينهم وبين عدوّهم؛ لإعجابهم بكثرتهم، وبقى عليّ عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل. ومرّ المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلوون على شيء، وكان العباس بن عبد المطّلب أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ والفضل عن يمينه، وأبو سفيان بن الحرث بن عبدالمطّلب عن يساره، ونوفل بن الحرث، في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن. وقتل يومئذ، وفي ذلك يقول العباس:

نَصَرْنا رَسُولَ اللهِ فِي الْحَرْبِ تِسْعَةً ... وَقَدْ فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عَنْهُ فَاقْشَعُوا

وَقَوْلي إِذا مَا الْفَضْلُ كَرَّ بِسَيْفِهِ ... عَلَى الْقَوْمِ أُخْرىٰ يا بُنَيَّ لِيَرْجِعُوا

وَعاشِرُنا لاٰقَى الحِمامَ بِنَفْسِهِ ... لِما نالَهُ فِي اللهِ لاٰ يَتَوَجَّعُ[1]

---

(١) تسعة: حال من فاعل «نصرنا». وإقشعوا: أي تفرّقوا. وقوله: أخرى يابنيّ، يعني: كروا كرة أخرى ليرجع من فرّ إذا راوكم تكرون. وقولي: مبتدأ. والجملة المبدوئة بأخرى خبره.

[١] الغبش: ظلمة آخر الليل. وقيل: هو مما يلي الصبح.

ولمّا رأى رسول الله ﷺ هزيمة القوم عنه، قال للعباس، وكان جهوريّاً صيّتاً: إصعد هذا الظرب[١] فناد: يامعشر المهاجرين والأنصار! يا أصحاب سورة البقرة! يا أهل بيعة الشجرة! إلى أين تفرّون؟ هذا رسول الله ﷺ. فلمّا سمع المسلمون صوت العباس، تراجعوا وقالوا: لبّيك لبّيك. وتبادر الأنصار خاصّة، وقاتلوا المشركين حتى قال رسول الله ﷺ الآن حمي الوطيس أَنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبدالمطّلب، ونزل النصر من عند الله تعالى، وإنهزمت هوازن هزيمة قبيحة، فمرّوا في كل وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم.

ومرّ مالك بن عوف، فدخل حصن الطائف، وقتل منهم زهاء مائة رجل، واغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم، وأمر رسول الله ﷺ بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة، وولى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي، ومضى ﷺ في أثر القوم، فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف، فحاصر أهل الطائف بقية الشهر. فلمّا دخل ذو القعدة إنصرف، وأتى الجعرانة، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس.

قال سعيد بن المسيّب: حدّثني رجل كان في المشركين، يوم حنين، قال: لمّا إلتقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ، لم يقفوا لنا حلب شاة، فلمّا كشفناهم، جلعنا نسوقهم حتى إذ إنتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء، يعني رسول الله ﷺ، فتلقانا رجال بيّض الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه إرجعوا، فرجعنا، وركبوا أكتافنا فكانوا إيّاها ـ يعني الملائكة ـ قال الزهري: وبلغني أنّ شيبة بن عثمان قال: إستدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين، وأنا أُريد أن أقتله بطلحة بن عثمان، وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحد، فأطلع الله رسوله على ما في نفسي، فإلتفت إليّ، وضرب صدري، وقال: أُعيذك بالله ياشيبة! فأرعدت فرائصي، فنظرت إليه وهو

---

(١) والظرب: التلّ الصغير.

أحبّ إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنّك رسول الله، وأنّ الله أطلعك على ما في نفسي. وقسّم رسول الله الغنائم بالجعرانة، وكان معه من سبي هوازن ستّة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يدري عدّته.

قال أبوسعيد الخدري: قسّم رسول الله ﷺ للمتألّفين من قريش من سائر العرب ما قسّم، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّ هذا الحيّ من الأنصار، قد وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك، وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء! فقال ﷺ: فأين أنت من ذلك ياسعد؟ فقال: ما أنا إلاّ إمرؤ من قومي. فقال رسول الله ﷺ: فأجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فجمعهم، فخرج رسول الله ﷺ، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال: يا معشر الأنصار! أو لم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. ثمّ قال: ألا تجيبوني ما معشر الأنصار؟ فقالوا: وما نقول؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم فصدّقتم: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فآمنّاك، ومخذولاً فنصرناك. فقالوا: المنّ لله ولرسوله. فقال رسول الله ﷺ: وجدّتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[١] من الدنيا، تألفت بها قوماً ليُسْلِموا، وَوَكَلْتُكُم إلى ما قسّم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده! لو أنّ الناس سلكوا شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. ولو لا الهجرة، لكنت إمرأً من الأنصار. أللهمّ إرحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

---

[١] اللعانة: مقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسماً. ثمّ تفرّقوا. وقال أنس بن مالك: وكان رسول الله ﷺ أمر منادياً، فنادى يوم أوطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولاغير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة، ثمّ أقبلت وفود هوازن، وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين، فقام خطيبهم، وقال:

يا رسول الله إنّما في الحظائر من السبايا خالاتك، وحواضنك اللاتي كنَّ يكفّلنك، فلو أنّا ملكنا ابن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثمّ أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك، رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير الكفولين ثمّ أنشد أبياتاً.

فقال ﷺ: أيّ الأمرين أحبّ إليكم، السبي أو الأموال؟ قالو: يارسول الله! خيرتنا الحسب، وبين الأموال، والحسب أحبّ إلينا، ولا نتكلّم في شاة ولا بعير. فقال رسول الله ﷺ: أمّا الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف أكلّم لكم المسلمين، وأشفع لكم، فكلّموهم وأظهروا إسلامكم.

فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الهاجرة، قاموا فتكلّموا، فقال النبيّ ﷺ: قد رددت الذي لبني هاشم، والذي بيدي عليهم، فمن أحبّ منكم أن يعطي غير مكره فليفعل، ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء، وعليَّ فداؤهم. فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلاّ قليلاً من الناس، سألوا الفداء، وأرسل رسول الله ﷺ إلى مالك ابن عوف، وقال: إن جئتني مسلماً، رددت إليك أهلك ومالك، ولك عندي مائة ناقة، فخرج [فرجع] إليه من الطائف، فردَّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وإستعمله على من أسلم من قومه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة ابن السميفع: «أَنجاس» على الجمع، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «وإنْ خفتم عائلة».

الحجة: قال ابن جنّي: هذا من المصادر التي جاءت على «فاعلة»، كالعاقبة، والعافية، واللاغية.

اللغة: كل مستقذر نجس، يقال: رجل نجس، وإمرأة نجس، وقوم نجس؛ لأنّه مصدر. وإذا إستعملت هذه اللفظة مع الرجس، قيل: رجس نجس ـ بكسر النون ـ. والعيلة: الفقر، تقول: عال يعيل: إذا إفتقر. قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

المعنى: لمّا تقدّم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهمّ عن المسجد الحرام، وحظر عليهم دخوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ معناه: إنّ الكافرين أنجاس.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ أي: فامنعوهم عن المسجد الحرام. قيل: المراد به: منعهم من دخول الحرم. عن عطا، قال: والحرم كلّه مسجد وقبلة، والعام الذي أشار إليه هو سنة تسع، الذي نادى فيه عليّ عليه السلام بالبراءة، وقال: لايحجّن بعد هذا العام مشرك. وقيل: المراد به: منعهم من دخول المسجد الحرام على طريق الولاية للموسم والعمرة. وقيل: منعوا من الدخول أصلاً في المسجد، ومنعوا من حضور الموسم، ودخول الحرم، ـ عن الجبائي ـ.

وأُختلف في نجاسة الكافر، فقال قوم من الفقهاء: إنّ الكافر نجس العين، وظاهر الآية يدلّ على ذلك. وروي عن عمر بن عبدالعزيز أنّه كتب: إمنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية[1]. وعن الحسن قال: لا تصافحوا المشركين، فمن صافحهم فليتوضّأ. وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا من أنّ من صافح الكافر، ويده رطبة، وجب أن يغسل يده، وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط. وقال آخرون: إنّما سمّاهم الله نجساً؛ لخبث إعتقادهم، وأفعالهم، وأقوالهم، وأجازوا للذمّي دخول المساجد قالوا: إنّما يمنعون من دخول مكّة للحجّ. قال قتادة: سمّاهم نجساً؛ لأنّهم يجنبون، ولا يغتسلون، ويحدثون ولا يتوضّؤون، فمنعوا من دخول المسجد؛ لأنّ الجنب لا يجوز له دخول المسجد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً وحاجة، وكانوا قد خافوا إنقطاع المتاجر بمنع المشركين عن دخول الحرم.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ أي: فسوف يغنيكم الله من جهة أخرى إن شاء أن يغنيكم، بأن يرغب الناس من أهل الآفاق في حمل الميرة إليكم، رحمة منه، ونعمة عليكم. قال مقاتل: أَسلم أهل نجدة [جدة]، وصنعاء وجرش، من اليمن، وحملوا الطعام إلى مكّة على ظهور الإبل والدوابّ، وكفاهم الله تعالى ما كانوا يتخوّفون. وقيل: معناه: يغنيكم بالجزية المأخوذة من أهل الكتاب. وقيل: بالمطر والنبات. وقيل: بإباحة الغنائم. وإذا سئل عن معنى المشيئة في قوله: ﴿إِنْ

---

(١) كل حكم ثبت للمشركين في هذه الآية ثابت لأهل الكتاب؛ بقرينة مايأتي. فإن كان المشركون نجساً، فأهل الكتاب كذلك، وإن منعوا من المساجد، فأهل الكتاب مثلهم؛ لأنّ سياق الآيات التي تأتي بعد هذه إثبات حكم أهل الشرك لأهل الكتاب. وأمّا قوله تعالى: ﴿وطعام الذين أوتو الكتاب حلّ لكم﴾، فقد مضى في سورة المائدة تأويلها، ومذهب فقهاء أهل البيت، إختيار ما هو أوفق بظاهر القرآن، وهو نجاسته.

﴿شَاءَ﴾، فالقول فيه: إنّ الله تعالى قد علم أَنّ منهم من يبقى إلى وقت فتح البلاد، وإغتنام أموال الأكاسرة، فيستغني، ومنهم من لا يبقى إلى ذلك الوقت، فلهذا علّقه بالمشيئة. وقيل: إنّما علّقه بالمشيئة؛ ليرغب الإنسان إلى الله تعالى في طلب الغنى منه؛ وليعلم أنّ الغنى لا يكون بالإجتهاد.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بالمصالح، وتدبير العباد، وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يأمر، وينهي.

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

اللغة: الدين في الأصل: الطاعة. قال زهير:

لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بني أَسَدٍ في دينِ عَمْرٍو، وَحالَتْ بَيْنَنا فَدَكُ[1]

والجزية: «فعلة» من جزى يجزي، مثل القَعدة والجلسة، وهي عطيّة مخصوصة، وجزاء لهم على تمسّكهم بالكفر؛ عقوبة لهم، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. والصِّغار، والذلّ، والنكال، الذي يصغر قدر صاحبه. يقال صغر يصغر صغاراً، فهو صاغر.

الإعراب: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: في موضع نصب؛ على الحال أي: نقداً، كما يقال: باعه يداً بيد.

النزول: قيل: هذه الآية نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بحرب الروم، فغزا

---

(١) الجوّ: الأرض المطمئنّة، ومواضع بأعيانها. والمراد هنا: موضع معيّن. وجواب الشرط في بيت بعده: ليأتينّك منّي منطق قذع. يعني: لئن نزلت في كل مكان لاتخلص من هجائي بعد.

بعد نزولها غزوة تبوك، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هي على العموم.

المعنى: ثمّ بيّن الله سبحانه، أنّ من الكفّار من يجوز تبقيته بالجزية، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: الذين لا يعترفون بتوحيد الله، ولا يقرّون بالبعث والنشور. وهذا يدلّ على صحّة ما يذهب أصحابنا إليه، من أنّه لا يجوز أن يكون في جملة الكفّار من هو عارف بالله، وإن أقرّ باللسان، وإنّما يكونون معتقدين لذلك إعتقاداً ليس بعلم؛ لأنّه صريح في أنّ أهل الكتاب الذين يؤخذ منهم الجزية، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ومن قال: إنّه يجوز أن يكونوا عارفين بالله، قال: إنّ الآية خرجت مخرج الذمّ لهم؛ لأنّهم بمنزلة من لا يقرّ به في عظم الجرم. قال الجبائي: لأنّهم يضيفون إليه ما لا يليق به، فكأنّهم لا يعرفونه، وإنّما جمعت هذه الأوصاف لهم، ولم يذكروا بالكفّار من أهل الكتاب؛ للتحريض على قتالهم؛ لما هم عليه من صفات الذمّ التي توجب البراءة منهم، والعداوة لهم.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ موسى وعيسى عليهما السلام، من كتمان نعت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: يعني ما حرّمه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وقيل: الحقّ هيهنا هو الله تعالى، أي: دين الله، والعمل بما في التوراة من إتّباع نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: الحقّ هوالله، ودينه الإسلام، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: ولا يطيعون الله طاعة أهل الإسلام، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: معناه: لا يعترفون بالإسلام الذي هو الدين الحقّ.

﴿مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وصف الذين ذكرهم بأنّهم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وقال أصحابنا: إنّ المجوس حكمهم حكم اليهود، والنصارى.

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ أي: نقداً من يده إلى يد من يدفعه إليه، من غير نائب، كما يقال: كلّمته فماً بفم. وقيل: معناه: عن قدرة لكم عليهم وقهر لهم،

كما يقال: كان اليد لفلان. وقيل: يد لكم عليهم، ونعمة تسدّونها إليهم، بقبول الجزية منهم.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: ذليلون مقهورون، يجرون إلى الموضع الذي يقبض منهم فيه بالعنف، حتى يؤدّها. وقيل: هو أن يعطوا الجزية قائمين والآخذ جالس، ـ عن عكرمة ـ.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴿٣١﴾

القراءة: قرأ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وسهل «عزيرٌ» ـ منوّناً ـ. والباقون: «عزيرُ ابن الله» ـ بغير تنوين ـ. وقرأ عاصم وحده: «يضاهئون» ـ بالهمزة ـ. وقرأ الباقون: «يضاهون» ـ بغير الهمزة ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من نوَّن «عزيزاً» جعله مبتدأ، وجعل «إبناً» خبره، وإذا كان كذلك فلابدّ من إثبات التنوين في حال السعة والإختيار؛ لأنّ عزيراً ونحوه ينصرف، عجميّاً كان أو عربيّاً. وأمّا من حذف التنوين، فإنّه حذفه على وجهين:

---

(١) والآية صريحة في أنّ حكم الشرك يشملهم، فهم مثل المشركين في النجاسة وغيرها، إلاّ ما خرج بالنصّ، كالذمّة والجزية.

أحدهما: أنّه جعل الصفة والموصوف بمنزلة إسم واحد، كما جعلهما كذلك في قوله: لا رجل ظريف، وحذف التنوين، ولم يحرّك؛ لالتقاء الساكنين، كما يحرّك في زيد العاقل؛ لأنّ الساكنين كأنّهما إلتقيا في تضاعيف كلمة واحدة، فحذف الأوّل منهما، ولم يحرّك لكثرة الإستعمال. ولا يجوز إثبات التنوين في هذا الباب إذا كان صفة، وإن كان الأصل؛ لأنّهم جعلوه من الأُصول المرفوضة، كما أنّ إظهار الأوّل من المثلين في نحو ظنوا لا يجوز في الكلام. فإذا كانا بمنزلة إسم مفرد، والمفرد لا يكون جملة مستقلّة بنفسها مفيدة في هذا النحو، فلابدّ من إضمار جزء آخر يقدّر إنضمامه إليه، ليتمّ جملة، ويجعل الظاهر إمّا مبتدأ، أو خبر مبتدأ، فيكون التقدير: صاحبنا، أو نسيبنا، أو نبيّنا، عزير ابن الله، إن قدّرت المضمر المبتدأ. وإن قدّرت بعكس ذلك جاز. هذا أحد الوجهين.

والوجه الآخر: أن لا تجعلهما إسماً واحداً، ولكن يجعل الأوّل من الإسمين المبتدأ، والآخر الخبر، فيكون المعنى فيه على هذا، كالمعني في إثبات التنوين، وتكون القراءتان متّفقتين، إلاّ أنّك حذفت التنوين لإلتقاء الساكنين. وعلى هذا ما يروى من قراءة بعضهم ﴿أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾ فحذف التنوين[1] لإلتقاء الساكنين، وقد جاء ذلك في الشعر كثيراً. قال الشاعر:

جَـــميلُ الَّـــذي أَمَـجٌّ دارُهُ أَخُوا الْحَمدْ ذُو الشَّيبَةِ الأَصْلَعُ[2]

وقال: «وَحاتمِ الطَّائيّ وَهَّابُ المِئي [المَئي]».

فأمّا ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ فقد قال الزجّاج: أصل المضاهاة: المشابهة[3]، والأكثر

---

(١) من أحد.

(٢) في نسخة: أخو الخمر. وأمج: شدّة الحرّ، وأراد به كثرة طبخ الغذاء للضيفان.

(٣) وصنّف في عهدنا رجل من الشام كتاباً في مضاهئة أقوال النصارى، وعبّاد الأوثان، وهو كتاب حسن ممتّع، أورد فيه كثيراً من نصوص كتب الوثنيّين، مطابقاً لما يدّعيه النصارى في المسيح عليه السلام.

ترك الهمزة. وإشتقاقه من قولهم: إمرأة ضهياء، وهي التي لا ينبت لها ثدي. وقيل: هي التي لا تحيض، ومعناها: أنّها قد أشبهت الرجال في أنّه لا ثدي لها، وكذلك إذا لم تحض. وضَهْيَاء: «فَعْلاء»، الهمزة زائدة، كما زيدت في شمأل، وغرقىء البضض [البيض]. ولا نعلم الهمزة زيدت غير أوّل إلاّ في هذه الأشياء. ويجوز أَنْ يكون فَعْيالاً، وإن كانت بنية ليس لها في الكلام نظير.

قال أبو عليّ: ليس قوله: يضاهئون من إمرأة ضَهْيَاء؛ لأنّ هذه الهمزة زائدة غير أصليّة، وليس بفِعْيال؛ لأنّه لو كان إيّاه، لكان مكسور الصدر، وإنّما أدخله في هذا ما رامه من إشتقاق ﴿يُضَاهِئُونَ﴾. وقد يجوز أن تجيء الكلمة من غير مشتقّة، وذلك أكثر من أن يحصى.

﴿اللغة﴾: الحبر: العالم الذي صنعته تحبير المعاني بحسن البيان عنها، وهو الحبَر والحَبر ـ بفتح الحاء وكسرها ـ. والرهبان. جمع الراهب، وهو الخاشي الذي يظهر عليه لباس الخشية، وقد كثر إستعماله على متنسّكي النصارى.

﴿المعنى﴾: ثمّ حكى الله سبحانه عن اليهود والنصارى أقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾. وقال ابن عباس: القائل لذلك جماعة منهم جاؤا إلى النبيّ ﷺ، منهم: سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشأس بن قيس، ومالك بن الضيف [الصيف]، فقالوا ذلك. قيل: وإنّما قال ذلك جماعة منهم من قبل، وقد إنقرضوا، وإنّ عزيراً أملى التوراة من ظهر قلبه، وقد علمه جبرائيل عليه السلام فقالوا: إنّه ابن الله، إلاّ أنّ الله تعالى، أضاف ذلك إلى جميعهم، وإن كانوا لا يقولون ذلك اليوم، كما يقال: إنّ الخوارج يقولون بتعذيب أطفال المشركين، وإنّما يقوله الأزارقة منهم خاصّة(١)[١]. ويدلّ على أنّ هذا مذهب اليهود، أنّهم لم ينكروا ذلك لمّا سمعوا هذه

---

(١) كما يقال: العرب أسخى الناس، والنصارى أهل الصنعة.

[١] قال الجوهري: الأزارقة: صنف من الخوارج تنسب إلى نافع بن الأزرق.

الآية، مع شدّة حرصهم على تكذيب الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معناه: إنّهم إخترعوا ذلك القول بأفواههم، لم يأتهم به كتاب، ولا رسول، وليس عليه حجّة، ولا برهان، ولا له صحّة. وقيل: إنّه لم يذكر القول مقروناً بالأفواه، إلاّ إذا كان ذلك القول زوراً، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم﴾.

﴿يُضَاهِئُونَ﴾: يشابهون، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يوافقون، ـ عن الحسن ـ ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: عباد الأوثان في عبادتهم اللات، والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والفرّاء ـ. وقيل: في عبادتهم الملائكة، وقولهم: إنّهم بنات الله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالت النصارى: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود، عزير ابن الله، ـ عن قتادة، والسدّي ـ. وقيل: شبّه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة، ـ عن الحسن ـ

﴿قَاتَلَهُمْ اللهُ﴾ أي: لعنهم الله، ـ عن ابن عباس ـ. قال ابن الأنباري: المقاتلة: أصلها من القتل، فإذا أخبر عن الله بها، كانت بمعنى اللعنة؛ لأنّ من لعنه الله، فهو بمنزلة المقتول الهالك.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحقّ إلى الإفك الذي هو الكذب، فكأنّه قال: لأيّ داع مالوا إلى ذلك القول.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ أي: علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: عُبّادهم ﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾. روي عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام، أنّهما قالا: أما والله! ما صاموا ولا صلّوا [لهم]، ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً، فإتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون.

وروي الثعلبي بإسناده عن عديّ بن حاتم، قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي إطرح هذا الوثن من عنقك! قال:

فطرحته، ثمّ انتهيت إليه، وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً﴾ حتى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم! فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟ قال: فقلت بلى. قال: فتلك عبادتهم.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: إتّخذوا المسيح إلهاً من دون الله. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾ أي: معبوداً واحداً هو الله تعالى.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تحقّ العبادة إلاّ له، ولا يستحقّ العبادة سواه.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن شركهم، وعمّا يقولونه، وعمّا لا يليق به.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

(اللغة): الإطفاء: إذهاب نور النار، ثمّ أستعمل في إذهاب كل نور. والأفواه: جمع فم. وأصله: فو، فحذفت الهاء وأُبدلت من الواو ميم؛ لأنّه حرف صحيح من مخرج الواو، مشاكل لها. والإباء: الإمتناع ممّا طلب من المعنى. قال الشاعر: «وإن أرادوا ظلمنا أبينا».

أي: منعنا [إمتنعنا] من الظلم.

(الإعراب): قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ إنّما دخلت ﴿إِلَّا﴾ لأنّ في «أبيت» ضرباً من الحجد، تقول: أبيت أن أفعل كذا، فيكون معناه: لم أفعل كذا. قال الشاعر:

وَهَلْ لِيَ أُمٌّ غَيْرُهَا إِنْ تَرَكْتُهَا ... أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ لَهَا إِبْناً

قال الزجّاج: في الآية حذف، تقديره: يأبي الله كل شيء إلاّ إتمام نوره، قال: ولا يكون الإيجاب جحداً، ولو جاز ذلك على أن يكون فيه طرف من الجحد، لجاز: كرهت إلاّ أخاك، مثل أبيت، إلاّ أن أبيت الحذف مستعمل معها.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار من اليهود والنصارى، أنّهم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ﴾ وهو القرآن والإسلام، ـ عن أكثر المفسّرين ـ. وقيل: نور الله الدلالة والبرهان؛ لأنّهما يهتدي بهما، كما يهتدي بالأنوار، ـ عن الجبائي ـ. قال: ولمّا سمّى سبحانه الحجج والبراهين أنواراً، سمّى معارضتهم لذلك إطفاء.

ثمّ قال: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنّ الإطفاء يكون بالأفواه وهو النفخ، وهذا من عجيب البيان، مع ما فيه من تصغير شأنهم، وتضعيف كيدهم؛ لأنّ الفم يؤثّر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة.

﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ معناه: ويمنع الله إلاّ أن يظهر أمر القرآن، وأمر الإسلام، وحجّته على التمام. وأصل الإباء: المنع والإمتناع دون الكراهيّة على ما إدّعته المجبرة، ولهذا تقول العرب: فلان يأبى الضيم، وهو أبي الضيم، ولا مدحة في كراهيّة الضيم؛ لأنّه يستوي فيه القوي والضعيف، وإنّما المدحة في الإمتناع أو المنع منه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: على كره من الكافرين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمّداً ﷺ، وحمله الرسالات التي يؤدّيها إلى أمّته ﴿بِالْهُدىٰ﴾ أي: بالحجج، والبيّنات، والدلائل، والبراهين ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلام، وما تضمّنه من الشرائع التي يستحقّ عليها الجزاء بالثواب، وكل دين سواه باطل، يستحقّ به العقاب.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ معناه: ليعلي دين [أهل] الإسلام على جميع الأديان بالحجّة، والغلبة، والقهر لها، حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلاّ

مغلوباً، ولا يغلب أحد [أهل] الإسلام بالحجّة، وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجّة. وأمّا الظهور بالغلبة، فهو أنّ كل طائفة من المسلمين، قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم. وقيل: أراد عند نزول عيسى بن مريم، لا يبقى أهل دين إلاّ أسلم، أو أدّى الجزية، ـ عن الضحّاك ـ. وقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ ذلك يكون عند خروج المهديّ من آل محمّد صلى الله عليه وآله، فلا يبقى أحد إلاّ أقرّ بمحمّد صلى الله عليه وآله، وهو قول السدّي.

وقال الكلبي: لا يبقى دين إلاّ ظهر عليه الإسلام، وسيكون ذلك ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك. وقال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يبقي على ظهر الأرض بيت مدر، ولا وبر، إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام؛ إمّا بعزٍّ عزيز، وإمّا بذلٍّ ذليل. إمّا يعزّهم، فيجعلهم الله من أهله فيعزُّوا به، وإمّا يذلّهم فيدينون له. وقيل: إنّ الهاء في ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ عائدة إلى «الرسول» صلى الله عليه وآله، أي: ليعلمه الله الأديان كلّها حتى لا يخفى عليه شيء منها، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي: وإن كرهوا هذا الدين، فإنّ الله يظهره رغماً لهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

اللغة: الكنز: في الأصل، هو الشيء الذي جمع بعضه إلى بعض، ويقال

للشيء المجتمع: مكتنز. وناقة كناز اللحم: مجتمعته. قال نفطويه: سمّي الذهب ذهباً؛ لأنّه يذهب ولا يبقى، وسمّيت الفضّة فضّة؛ لأنّها تنفضّ، أي: تتفرّق فلا تبقى. وحسبك بالإسمين دلالة على فنائهما. والإحماء: جعل الشيء حارّاً في الإحساس، وهو فوق الإسخان. وضدُّه: التبريد. يقال: حمي يحمي حمّى، وأحماه: غيره. والكيّ: إلصاق الشيء الحارّ بالعضو من البدن.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾: موضعه نصب؛ لأنّه معطوف على إسم «إنّ»، ويكون المعنى: وإنّ الذين يكنزون الذهب والفضّة، ولا يأكلونها، ويجوز أن يكون رفعاً على الإستئناف.

وذكر في قوله: ﴿وَلاَيُنْفِقُونَهَا﴾ وجوه: أحدها: إنّه أراد لا ينفقون الكنوز، فرجع الضمير إلى ما دلّ عليه الكلام. والثاني: إنّه لمّا ذكر الذهب والفضّة، دلّ على الأموال، فكأنّه قال: ولا ينفقون الأموال. والثالث: إنّ الذهب مؤنّث، وهو جمع، واحده: ذهبة، وهذا الجمع الذي ليس بينه وبين واحده إلاّ الهاء، يذكّر ويؤنّث، ثمّ لمّا إجتمعا في التأنيث، وكان كل واحد منهما يؤخذ عن صاحبه في الزكاة على قول جمهور العلماء، جعلهما كالشيء الواحد، وردّ الضمير إليهما بلفظ التأنيث. والرابع: إنّه إكتفى بأحدهما عن الآخر؛ للإيجاز، وردّ الضمير إلى الفضّة؛ لأنّها أقرب إليه، كما قال حسان:

إِنَّ شَرْخَ الشَّبابِ، وَالشَّعَرَ الأَسْوَدَ ... مٰا لَمْ يُعٰاصَ كٰانَ جُنُوناً[1]

وقد مرّ ذكر أمثاله فيما مضى.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال الأحبار والرهبان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: يأخذون

---

(١) شرخ الشباب: أوّله. وقوله: ما لم يعاص: أراد به «يعاصيا» ـ بصيغة التثنية ـ، وإنّما أفرد؛ لضرورة الشعر، أو لرجوعه إلى الشعر الأسود.

الرشى على الحكم، ـ عن الحسن، والجبائي ـ، وأكل المال بالباطل: تملّكه من الجهات التي يحرم منها أخذه، إلاّ أنّه لمّا كان معظم التصرّف والتملّك للأكل، وضع الأكل موضع ذلك. وقيل: إنّ معناه: يأكلون متاع أموال الناس من الطعام، فكأنّهم يأكلون الأموال لأنّها ثمن المأكول، كما قال الشاعر:

ذَرِ الآكِلِينَ الماءَ لَوْماً، فما أرىٰ يَنالُونَ خَيْراً بَـعْدَ أَكْـلِهِمُ الْـماءَ

أي: ثمن الماء. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: يمنعون غيرهم عن إتّباع الإسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم إلى سلوكها، وعن إتّباع محمّد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: يجمعون المال، ولا يؤدّون زكاته. فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: كل مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز، وإن كان ظاهراً، وكل مال أدّيت زكاته، فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وبه قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والسدّي. قال الجبائي: وهو إجماع. وروي عن عليّ عليه السلام: ما زاد على أربعة آلاف، فهو كنز، أدّى زكاته أو لم يؤدّ، وما دونها فهو نفقة.

وتقدير الآية: والذين يكنزون الذهب، ولا ينفقونه في سبيل الله: [ويكنزون الفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله] فحذف المعطوف من الأوّل؛ لدلالة الثاني عليه، كما حذف المفعول في الثاني؛ لدلالة الأوّل عليه، في قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وتقديره: والذاكرات الله. وأكثر المفسّرين على أنّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ على الإستئناف، وأنّ المراد بذلك مانعو الزكاة من هذه الأمّة. وقيل: إنّه معطوف على ما قبله. والأولى أن يكون محمولاً على العموم في الفريقين.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بعذاب موجع.

وروي سالم بن أبي الجعد، أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزلت هذه الآية، قال: تبّاً للذهب، تبّاً للفضّة ـ يكرّرها ثلاثاً ـ فشقّ ذلك على أصحابه، فسأله عمر، فقال: يا

رسول الله! أيّ المال نتّخذ؟ فقال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة مؤمنة، تعين أحدكم على دينه.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوقد على الكنوز، أو على الذهب والفضّة في نار جهنّم، حتى تصير ناراً.

﴿فَتُكْوَى بِهَا﴾ أي: بتلك الكنوز المحماة، والأموال التي منعوا حقّ الله فيها بأعيانها ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وإنّما خصّ هذه الأعضاء، لأنّها معظم البدن. وكان أبو ذرّ الغفاريّ يقول: بشِّر الكافر[نز]ين بكيّ في الجباه، وكيّ في الجنوب، وكيّ في الظهور، حتى يلتقي الحرّ في أجوافهم. وفي هذا المعنى الذي أشار إليه أبو ذرّ خصّت هذه المواضع بالكيّ؛ لأنّ داخلها جوف بخلاف اليد والرجل. وقيل: إنّما خصّت هذه المواضع بالعذاب؛ لأنّ الجبهة محلّ الوسم لظهورها، والجنب محلّ الألم، والظهر محلّ الحدود، وقيل: لأنّ الجبهة محلّ السجود، فلم تقم فيه بحقّه، والجنب يقابل القلب، الذي لم يخلص في معتقده، والظهر محمل الأوزار. قال: يحملون أوزارهم على ظهورهم، ـ عن الماوردي ـ. وقيل: لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته، وزوى عينيه، وطوى عنه كشحه، وولّاه ظهره، ـ عن أبي بكر الورّاق ـ.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يقال لهم في حال الكيّ، أو بعده: هذا جزاء ما كنزتم، وجمعتم المال، ولم تؤدّوا حقّ الله عنها، وجعلتموها ذخيرة لأنفسكم.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكنزون، أي؛ تجمعون وتمنعون حقّ الله منه، فحذف لدلالة الكلام عليه. وقال رسول الله ﷺ: ما من عبد له مال، ولا يؤدّي زكاته، إلاّ جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنّم، فتكوى به جبهته، وجنباه، وظهره، حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون، ثمّ يرى سبيله إمّا إلى الجنّة، وإمّا

إلى النار. أورده مسلم بن الحجّاج في الصحيح.

وروي ثوبان، عن النبيّ ﷺ قال: من ترك كنزاً، مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان[١]، يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده، فيقصمها، ثم يتبعه سائر جسده.

وروي الثعلبي: بإسناده عن الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في ظلّ الكعبة، فلمّا رآني قد أقبلت قال: هم الأخسرون وربّ الكعبة! هم الأخسرون وربّ الكعبة! قال: فدخلني غمّ، وجعلت أتنفّس، وقلت: هذا شيء حدث فيّ! قال، قلت: من هم فداك أبي وأمّي، قال: الأكثرون إلاّ من قال بالمال في عباد الله هكذا وهكذا، عن يمينه، وشماله، ومن خلفه، وقليل ما هم.

وروي عن أبي ذرّ أنّه قال: من ترك بيضاء أو حمراء كوّى به يوم القيامة.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: «اثنا عْشر» و«أَحد عْشر» و«تسعةَ عْشر» ـ بسكون العين ـ. والباقون: بفتحها.

الحجّة: الوجه في ذلك: إنّ الإسمين لمّا جعلا كالإسم الواحد، وبني الأوّل

---

[١] الزبيبتان: هما نقطتان سوداوان فوق عيني الحية.

منهما؛ لأنّه كصدر الإسم، والثاني منهما؛ لتضمّنه معنى واو العطف، جعل تسكين أوّل الثاني دليلاً على أنّهما قد صارا كالإسم الواحد.

اللغة والإعراب: كافّة: بمعنى الإحاطة، مأخوذ من كافّة الشيء، وهي حرفه، وإذا إنتهى الشيء إلى ذلك كفّ عن الزيادة. وأصل الكفّ: المنع، ومنه: المكفوف، وهو الممنوع البصر. وكافّة: نصب على المصدر، ولا يدخل عليها الألف واللام؛ لأنّه من المصادر التي لا تتصرّف؛ لوقوعه موقع «معاً وجميعاً» بمعنى المصدر الذي في موضع الحال المؤكّدة، فهو في لزوم النكرة، نظير «أجمعين» في لزوم المعرفة، هذا قول الفرّاء. وقال الزجّاج: «كافّة» تنصب على الحال، وهو مصدر على «فاعلة»، كالعافية والعاقبة، وهو في موضع: قاتلوا المشركين محيطين بهم باعتقاد [بإعتماد] مقاتلتهم. ولا يثنّى ولا يجمع، فلا يقال: قاتلوهم كافّات، ولا كافين، كما أنّك إذا قلت: قاتلوهم عامّة، لم تثنّ ولم تجمع، وكذلك «خاصّة»، هذا مذهب النحويّين.

المعنى: لمّا ذكر الله سبحانه وعيد الظالم لنفسه بكنز المال، من غير إخراج الزكاة وغيرها، من حقوق الله منه، إقتضى ذلك أن يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الأشهر الحرم الذي يؤدّي إلى مثل حاله، أو شرّ منه في المنقلب، فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾ أي: عدد شهور السنة في حكم الله، وتقديره: إثنا عشر شهراً. وإنّما تعبّد الله المسلمين أن يجعلوا سنيهم على إثني عشر شهراً؛ ليوافق ذلك عدد الأهلّة، ومنازل القمر، دون ما دان به أهل الكتاب[1].

---

(١) اليهود، وبعض الطوائف الأخر، كانوا يعدّون سنتين اثنى عشر شهراً هلاليّة، والسنة الثالثة ثلثة عشر شهراً، وهكذا دأبهم إلى الآن، وغرضهم من ذلك تطبيق الأشهر الهلاليّة على فصول السنة الشمسيّة، بخلاف ما عليه المسلمون من عدّ السنة إثني عشر شهراً أبداً، كما ورد به القرآن بهذا التأكيد؛ دفعاً لمن قد يجعل السنة ثلاثة عشر شهراً.

والشهر: مأخوذ من شهرة الأمر لحاجة الناس إليه في معاملاتهم، ومحلّ ديونهم، وحجّهم، وصومهم، وغير ذلك من مصالحهم المتعلّقة بالشهور.

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ معناه: فيما كتب الله في اللوح المحفوظ، وفي الكتب المنزلة على أنبيائه. وقيل: في القرآن. وقيل: في حكمه وقضائه، ـ عن أبي مسلم ـ.

وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متّصل بقوله: ﴿عِندَ اللهِ﴾ والعامل فيهما: الإستقرار. وإنّما قال ذلك؛ لأنّه يوم خلق السماوات والأرض أجرى فيها الشمس والقمر، وبمسيرهما تكون الشهور والأيّام، وبهما تعرف الشهور.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي: من هذه الإثني عشر شهراً، أربعة أشهر حرم، ثلاثة منها سرد: ذو القعده، وذوالحجّة، والمحرّم، وواحد فرد: وهو رجب. ومعنى حرم: أنّه يعظّم إنتهاك المحارم فيها أكثر ممّا يعظّم في غيرها، وكانت العرب تعظّمها حتى لو أنّ رجلاً لقي قاتل أبيه فيها لم يهجه لحرمتها.

وإنّما جعل الله تعالى بعض هذه الشهور أعظم حرمة من بعض؛ لما علم من المصلحة في الكفّ عن الظلم فيها؛ لعظم منزلتها؛ ولأنّه ربما أدّى ذلك إلى ترك الظلم أصلاً؛ لإنطفاء النائرة، وإنكسار الحميّة في تلك المدّة، فإنّ الأشياء تجرّ إلى أشكالها. وشهور السنة: المحرّم، سمّي بذلك؛ لتحريم القتال فيه. وصفر، سمّي بذلك، لأنّ مكّة تصفر من الناس فيه، أي: تخلو. وقيل: لأنّه وقع وباء فيه، فاصفرت وجوههم. وقال أبو عبيدة: سمّي بذلك؛ لأنّه صفرت فيه أوطابهم عن اللبن[١]. وشهرا ربيع، سمّيا بذلك؛ لإنبات الأرض وإمراعها.

ورجب، سمّي بذلك؛ لأنّهم كانوا يرجبونه، أي: يعظمونه. يقال: رجبته ورجبته ـ بالتخفيف والتشديد ـ. قال الكميت:

---

[١] الوطب: سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما قومه. وصفر الوطب عن اللبن أي: خلا.

وَلاٰ غَـيْرَهُمْ أَبـغي لِـنَفْسِيَ جُـنَّةً وَلاٰغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أُجِـلُّ وَأَرْجُبُ(١)

وقيل: سمّي بذلك؛ لترك القتال فيه، من قولهم: رجل أرجب: إذا كان أقطع لا يمكنه العمل. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ في الجنّة نهراً يقال له: رجب، ماؤه أشدّ بياضاً من الثلج، وأحلى من العسل، من صام يوماً من رجب، شرب منه.

وشعبان، سمّي بذلك؛ لتشعب القبائل فيه، ـ عن أبي عمرو ـ. وروي زياد بن ميمون أَنّ النبيّ ﷺ قال: إنّما سمّي شعبان؛ لأنّه يشعب فيه خير كثير لرمضان. وشهر رمضان، سمّي بذلك؛ لأنّه يرمض الذنوب. وقيل سمّي بذلك؛ لشدّة الحرّ. وقيل: إنّ رمضان من أسماء الله.

وشوّال، سمّي بذلك؛ لأنّ القبائل كانت تشول فيه، أي: تبرح عن أمكنتها. وقيل: لشولان النوق أذنابها فيه.

ذوالقعدة، سمّي بذلك؛ لقعودهم فيه عن القتال. وذو الحجّة؛ لقضاء الحجّ فيه.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الحساب المستقيم الصحيح، لا ما كانت العرب تفعله من النسيء، ومنه: قوله: الكيّس من دان نفسه، أي: حاسبها. وسمّي الحساب ديناً؛ لوجوب الدوام عليه، ولزومه كلزوم الدين والعبادة. وقيل: معناه: ذلك القضاء المستقيم الحقّ، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: معناه: ذلك الدين تعبَّد به وهو اللازم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ أي: في هذه الشهور كلّها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: في هذه الأشهر الحرم الأربعة، ـ عن قتادة ـ. وإختاره الفرّاء قال: لأنّه لو أراد الإثني عشر شهراً لقال فيها «أنفسكم» بترك أو امر الله، وإرتكاب نواهيه، وإذا عاد الضمير إلى جميع الشهور، فإنّه يكون نهياً عن الظلم في جميع [جمع] العمر. وإذا عاد إلى الأشهر الحرم، ففائدة التخصيص: أنّ الطاعة فيها أعظم ثواباً، والمعصية

---

(١) يعني: بالضمائر آل محمّد عليهم السلام.

أعظم عقاباً، وذلك حكم الله في جميع الأوقات الشريفة، والبقاع المقدّسة.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: قاتلوهم جميعاً مؤتلفين غير مختلفين ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعاً كذلك، فتكون كافّة حالاً عن المسلمين، ويجوز أن تكون حالاً من المشركين، أي: قاتلوا المشركين جميعاً، ولا تمسّكوا منهم بعهد ولا ذمّة، إلاّ من كان من أهل الجزية وأعطاها عن صغار، والظاهر هو الأوّل. وقيل: معناه: قاتلوهم خلفاً بعد سلف، كما أنّه يخلف بعضهم بعضاً في قتالكم، ـ عن الأصمّ ـ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة والولاية. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الإعتبار في السنين بالشهور القمريّة لا بالشمسيّة، والأحكام الشرعيّة معلّقة بها، وذلك لما علم الله سبحانه فيه من المصلحة، ولسهولة معرفة ذلك على الخاصّ، والعامّ.

إِنَّمَا النَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: «النسيّء» ـ بالتشديد من غير همز ـ[1]، وقرأ جعفر بن محمّد عليه السلام، والزهري: «النَسْيُ» ـ مخفّفاً في وزن الهَدْي بغير همز ـ، وروي مثل ذلك أيضاً عن شبل، عن ابن كثير. والباقون: «النسيء» ـ بالمدّ، والهمز ـ، وقرأ:

---

(١) وكذلك وقف حمزة على «نسيء» كغنى. وسوء أعمالهم: من إجتماع الهمزتين، فيبدّل الثانية واواً مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو. والنَسْأ ـ بالهمزة بفتح النون وسكون السين ـ مصدر بمعنى التأخير، ومن قرأ: النسى ـ بالياء ـ بدلّ همزته ياء.

«يُضَلّ» ـ بضمّ الياء، وفتح الضاد ـ أهل الكوفة، غير أبي بكر. وقرأ: «يُضِلّ» ـ بضمّ الياء، وكسر الضاد ـ أوقية[١]، من طريق ابن مقسم، عن أبي عمرو، ورويس، عن يعقوب. والباقون: «يَضِلّ» ـ بفتح الياء، وكسر الضاد ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: النسيء: مصدر، كالنذير، والنكير، وعذير الحي، ولايجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، كما قاله بعض الناس؛ لأنّه إن حمل على ذلك كان معناه: إنّما المؤخّر زيادة في الكفر، والمؤخّر: الشهر، وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر، وإنّما الزيادة في الكفر، تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، ليست له تلك الحرمة. فأمّا نفس الشهر فلا.

وأمّا ما روي من «النَسْي» ـ بالياء ـ: فذلك يكون على إبدال الياء من الهمزة، ولا أعلمها لغة في التأخير، كما أنّ «أرجيت لغة في أَرجأت». وما روي من «النسيّ» بتشديد الياء: فعلى تخفيف الهمزة، وليس هذا القلب مثل القلب في النَسْي ـ بالياء ـ؛ لأنّ النسيّ ـ بتشديد الياء ـ، على وزن فعيل، تخفيف قياسيّ، كما أنّ «مقروّة» في «مقروءَة» تخفيف قياسيّ، وليس النسيُ كذلك. وذكر ابن جنّي فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن يكون أراد النسءَ، ثمّ خفّف بأن أبدلت الهمزة ياء كما قال الشاعر: «أهْبَي التُّرابَ فَوْقَهُ إهْبايا»[٢] أراد: إهباء، **والثاني**: أن يكون فَعْلاً من «نسيت»؛ لأنّ الشيء إذا أخّر فكأنّه نسي. **والثالث**: وفيه الصيغة أن يكون أراد النسيء على فعيل، ثمّ خفّف وأدغم، فصار النسيّ، ثمّ قصر فعيلاً بحذف يائه، فصار نسى، ثمّ أسكن عين فَعِل فصار نَسْي، كما قيل في سميح: سمح، وفي رطيب: رطب، وفي جديب: جدب.

فأمّا قوله: يضلّ، فليس في يضلّ إشكال، ولا في يضلّ؛ لأنّ المضلّ لغيره،

---

(١) أوقية: من رواة أبي عمرو، ذكره في المقدّمة.

(٢) أهبى الغبار: أثاره.

ضالّ بفعله إضلال غيره، فأمّا يُضل: فالمعنى فيه: أنّ كبراءهم وأشرافهم يضلّونهم بحملهم على هذا التأخير في الشهور. وقرىء في الشواذّ «يَضَلُّ» ـ بفتح الياء والضاد ـ، وهذه لغة أعنى [أغني]: ضللت أضَلُّ.

اللغة: قال أبو زيد: نسأت الإبل في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك، والمصدر: النسيء. يقال: نسأت الإبل عن الحوض، أنساها نسيئاً: إذا أخّرتها عنه. والمواطأة: الموافقة. يقال: واطأ في الشعر: إذا قال: بيتين على قافية واحدة. وأوطأ، مثله.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ذكر السنة والشهر، عقّبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسي، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني: تأخير الأشهر الحرم عمّا رتّبها الله سبحانه عليه، وكانت العرب تحرّم الشهور الأربعة، وذلك ممّا تمسّكت به من ملّة إبراهيم وإسماعيل، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب، فربما كان يشقّ عليهم أن يمكّثوا ثلاثة أشهر متوالية، لا يغزون فيها، فكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر، فيحرّمونه ويستحلّون المحرم، فيمكثون بذلك زماناً، ثم يُاوّل التحريم إلى المحرّم، ولا يفعلون ذلك إلاّ في ذي الحجّة[1].

قال ابن عباس: ومعنى قوله: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أنّهم كانوا أحلّوا ما حرّم الله، وحرّموا ما أحلّ الله. قال الفرّاء: والذي كان يقوم به رجل من كنانة، يقال له:

---

(١) كلام لايخلو من إجمال، وقول مجاهد الذي ينقله المصنّف أوضح. وأوضح ما ذكر في شرح النسيء، ما قاله أبو ريحان البيروني في الآثار الباقية، وحاصله: أنّ السنة القمريّة تتقدّم على الشمسيّة عشرة أيّام تقريباً في كل عام، فإذا مضى ثلاثة أعوام، صار المتأخّر بمقدار شهر، وكانوا يزيدون على السنة الثالثة شهراً ويجعلون أوّل السنة الرابعة من صفر، ويسمّونه محرّماً، فكان يقع حجّهم في تلك السنة في محرّم، ثمّ بعد سنتين في صفر، وهكذا، وغرضهم من ذلك التشبّه باليهود في تطبيق الشهور على الفصول. وفي تفسير الرازي والنيشابوري، مايعين على فهم ذلك.

نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أُعاب، ولا أخاب، ولا يردّ لي قضاء! فيقولون: نعم صدقت، أنسئنا شهراً، أو أخّر عنّا حرمة المحرّم، واجعلها في صفر، وأحلّ المحرّم، فيفعل ذلك.

والذي كان ينسأها حين جاء الإسلام، جنادة بن عوف بن أميّة الكناني، قال ابن عباس: وأوّل من سنّ النسيء، عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف. وقال أبو مسلم [بن أَسلم]: بل رجل من بني كنانة، يقال له: المفلس [القلمس]، كان يقول: إنّي قد نسأت المحرّم العام، وهما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا فجعلناهما محرمين، قال شاعرهم: ومنا ناسىء الشهر القلمس. وقال الكميت:

وَنَحْنُ النَّاسِؤُنَ عَلىٰ مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُها حَرَاماً

وقال مجاهد: كان المشركون يحجّون في كل شهر عامين، فحجّوا في ذي الحجّة عامين، ثمّ حجّوا في المحرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، حتى وافقت الحجّة التي قبل «حجّة الوداع» في ذى الحجّة [القعدة]، ثمّ حجّ النبيّ ﷺ في العام القابل «حجّة الوداع»، فوافقت في ذى الحجّة، فذلك حين قال النبيّ ﷺ، وذكر في خطبته: ألا وإنّ الزمان قد إستدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، والسنة إثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، ورجب، الذي بين جمادى وشعبان. أراد عليه السلام: الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة، وبطل النسيء.

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يضلّ بهذا النسيء الذين كفروا. ومن قرأ بضم الياء، فمعناه: يضلّون به غيرهم، وإضلالهم أنّهم فعلوا ذلك ليحللّوا للناس الأشهر الحرم التي حرّم الله القتال فيها، وأوجب الحجّ في بعضها، فيستحلّون ترك الحجّ في الوقت الذي هو واجب فيه، ويوجبونه في الوقت الذي لايجب فيه. وجوّزوا ذلك عليه حتى ضلّوا بإتّباعهم.

﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً﴾ أي: يجعلون الشهر الحرام حلالاً إذا إحتاجوا إلى القتال فيه، ويجعلون الشهر الحلال حراماً، ويقولون شهر بشهر. وإذا لم يحتاجوا إلى القتال لم يفعلوا ذلك.

﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ﴾ معناه: إنّهم لم يحلّوا شهراً من الحرم إلاّ حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرّموا شهراً من الحلال، إلاّ أحلّوا مكانه شهراً من الحرم؛ ليكون موافقة في العدد، وذلك المواطأة.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أَي: زيّنت لهم أنفسهم، أو زيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إستحسنوا ذلك بهواهم ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ مرّ تفسيره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

(اللغة): النفر: الخروج إلى الشيء لأمر هيج عليه. ومنه: نفور الدابّة. يقال: نفرت الدابّة نفوراً، ونفر إلى الثغر نفراً ونفيراً. والتثاقل: تعاطي إظهار ثقل النفس، ومثله: التباطؤ. وضدّه: التسرّع. والمتاع: الإنتفاع بما يظهر للحواسّ. ومنه: قولهم: تمتّع بالرياض والمناظر الحسان. ويقال للأشياء التي لها أثمان: متاع؛ تشبيهاً به. والإستبدال: جعل أحد الشيئين بدل الآخر، مع الطلب له.

الإعراب: إثّاقلتم: إفّاعلتم، وأصله: تفاعلتم، أُدغمت التاء في الثاء؛ لمناسبتها لها، ثمّ أُدخلت ألف الوصل؛ ليمكن الإبتداء بها. ومثله: إدّاركوا، وإتّابع في قول الشاعر:

تُولي الضَجيعَ إذا ما اشتاقَهَا خَضِراً عَذْبَ المَذاق إذا مَا اَتابَعَ الْقُبَلُ[1]

النزول: قالوا: لمّا رجع رسول الله ﷺ من الطائف، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك في زمان إدراك الثمار، فأحبّوا المقام في المسكن والمال، وشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان ﷺ قلّما خرج في غزوة إلاّ كنّى عنها، وورّى بغيرها إلاّ غزوة تبوك؛ لبعد شقّتها، وكثرة العدوّ؛ ليتأهّب الناس، فأخبرهم بالذي يريد، فلمّا علم الله سبحانه تثاقل الناس، أنزل الآية.

المعنى: ثمّ عاتب سبحانه المؤمنين في التثاقل عن الجهاد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ أي: إذا دعاكم رسول الله ﷺ وقال لكم: ﴿إِنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: أخرجوا إلى مجاهدة المشركين، وهو هيهنا غزوة تبوك، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ.

﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تثاقلتم وملتم إلى الإقامة في الأرض التي أنتم عليها. قال الجبائي: هذا الإستبطاء مخصوص بنفر من المؤمنين؛ لأنّ جميعهم لم يتثاقلوا عن الجهاد، فهو عموم أريد به الخصوص؛ بدليل ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ هذا إستفهام يراد به الإنكار، ومعناه: آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة في الآخرة الباقية في النعيم الدائم.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما فوائد الدنيا

---

(١) يقال: أوليته معروفاً: أي أعطيت. والإشتياق: إفتعال، من الشوق. ويقال: ماء خصر: أي: بارد، أراد به ريق المرئة. والقبل: جمع قبلة، يقول: إذا إشتاق الضجيع، أعطته المرأة من فمها ماء بارداً عذباً في المذاق، إذا تكرّر منه القبلة.

ومقاصدها في فوائد الآخرة ومقاصدها إلاّ قليل؛ لإنقطاع هذه، ودوام تلك.

ثمّ عقّبه سبحانه بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ ومعناه: إن لاتخرجوا إلى القتال الذي دعاكم إليه الرسول، وتقعدوا عنه، يعذّبكم الله عذاباً أليماً مؤلماً في الآخرة. وقيل: في الدنيا.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم ﴿قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ لايتخلّفون عن الجهاد. وقيل: هم أبناء فارس، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: هم أهل اليمن، ـ عن أبي روق ـ. وقيل: هم الذين أسلموا بعد نزول هذه الآية، ـ عن الجبائي.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ أي: ولا تضرّوا الله بهذا القعود شيئاً؛ لأنّه غني لنفسه، لا يحتاج إلى شيء، ـ عن الحسن، وأبي عليّ ـ. وقيل: معناه: ولا تضرّوا الرسول شيئاً؛ لأنّ الله عصمه من جميع الناس، وينصره بالملائكة، أو بقوم آخرين من المؤمنين.

﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر على الإستبدال بكم، وعلى غير ذلك من الأشياء. قال الزجّاج: وهذا وعيد شديد في التخلّف عن الجهاد.

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ يعقوب وحده كلمة «الله»: بالنصب. والباقون: بالرفع.

﴿الحجة﴾: من نصب، عطفه على قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَجَعَلَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ ومن رفع، إستأنف، وهو أبلغ؛ لأنّه يفيد أنّ كلمة الله هي العليا على كل حال.

﴿الإعراب﴾: ثاني إثنين: نصب على الحال، وللعرب في هذا مذهبان: أحدهما: قولهم: هذا ثاني إثنين، وثالث ثلاثة، ورابع أربعة، وخامس خمسة، أي: أحد إثنين، وأحد ثلاثة، وأحد أربعة، وأحد خمسة. والآخر: قولهم: ثالث إثنين، وخامس أربعة: بمعنى أنّه ثلث إثنين، وخمس أربعة. فالأوّل إضافة حقيقة [حقيقيّة] محضة، والثاني إضافة غير محضة؛ إذ هو في تقدير الإنفصال، «إذ هما في الغار» بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع أحد الزمانين في موضع الآخر؛ لتقاربهما.

﴿المعنى﴾: ثمّ أعلمهم الله سبحانه، أنّهم إن تركوا نصرة رسوله، لم يضرّه ذلك شيئاً، كما لم يضرّه قلّة ناصريه، حين كان بمكّة، وهمّ به الكفّار، فتولّى الله نصره فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ معناه: إن لم تنصروا النبيّ ﷺ، على قتال العدوّ، فقد فعل الله به النصر.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكّة، فخرج يريد المدينة. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ يعني: أنّه كان هو أبوبكر ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ليس معهما ثالث، أي: وهو أحد إثنين، ومعناه: فقد نصره الله منفرداً من كل شيء، إلاّ من أبي بكر. والغار: الثقب العظيم في الجبل، وأراد به هنا: غار ثور، وهو جبل بمكّة.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أي: إذ يقول الرسول ﷺ لأبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أي: لا تخف ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ يريد أنّه مطّلع علينا، عالم بحالنا، فهو يحفظنا وينصرنا.

قال الزهري: لمّا دخل رسول الله ﷺ، أبو بكر الغار، أرسل الله زوجاً من حمام، حتى باضا في أسفل الثقب، والعنكبوت حتى تنسج بيتاً، فلمّا جاء سراقة بن

مالك في طلبهما، فرأى بيض الحمام، وبيت العنكبوت، قال: لو دخله أحد لإنكسر البيض، وتفسخ بيت العنكبوت، فإنصرف. وقال النبيّ ﷺ: أللهمّ أعمِ أبصارهم! فعميت أبصارهم عن دخوله، وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار، وقال أبو بكر: لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا.

وروي عليّ بن إبراهيم بن هاشم، قال: كان رجل من خزاعة فيهم، يقال له أبو كرز، فما زال يقفو أثر رسول الله ﷺ، حتى وقف بهم على باب الغار، فقال لهم: هذه قدم محمّد ﷺ، هي والله أخت القدم التي في المقام، وقال: هذه قدم أبي قحافة، أو إبنه وقال: ما جازوا هذا المكان، إمّا أن يكونوا قد صعدوا في السماء، أو دخلوا في الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس، فوقف على باب الغار، وهو يقول لهم: أطلبوه في هذه الشعاب فليس هيهنا، وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار، ونزل رجل من قريش، فبال على باب الغار، فقال أبوبكر: قد أبصرونا يا رسول الله؟! فقال ﷺ: لو أبصرونا ما إستقبلونا بعوراتهم.

﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: على محمّد ﷺ، أي: ألقى في قلبه ما سكن به، وعلم أنّهم غير واصلين إليه، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وأيّده﴾ أي: قوّاه ونصره ﴿بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: بملائكة يضربون وجوه الكفّار وأبصارهم، عن أن يروه، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: قوّاه بملائكة يدعون الله تعالى له، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: أعانه بالملائكة يوم بدر، وأخبر الله سبحانه أنّه صرف عند كيد أعدائه، وهو في الغار، ثمّ أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، ـ عن مجاهد، والكلبي ـ. وقال بعضهم: يجوز أن تكون الهاء التي في ﴿عَلَيْهِ﴾ راجعة إلى أبي بكر. وهذا بعيد؛ لأنّ الضمائر قبل هذا أو بعده تعود إلى النبيّ ﷺ، بلا خلاف، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ وفي قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، وقوله: ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وقوله فيما بعده: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ فكيف يتخلّلها

ضمير عائد إلى غيره، هذا وقد قال سبحانه في هذه السورة: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال في سورة الفتح: ﴿فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرت الشيعة في تخصيص النبي ﷺ، في هذه الآية بالسكينة، كلاماً رأينا الإضراب عن ذكره أحرى؛ لئلاّ ينسبنا ناسب إلى شيء.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلىٰ﴾ معناه: أنّ الله سبحانه جعل كلمتهم نازلة دنية، وأراد به أنّه سفل وعيدهم للنبيّ ﷺ، وتخويفهم إيّاه، وأبطله بأن نصره عليهم، فعبّر عن ذلك بأنّه جعل كلمتهم السفلى، لا أنّه خلق كلمتهم.

﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي: هي المرتفعة المنصورة بغير جعل جاعل؛ لأنّها لا يجوز أن تدعو إلى خلاف الحكمة. وقيل: إنّ كلمة الكفّار كلمة الشرك، وكلمة الله هي كلمة التوحيد، وهي قوله: لا إله إلاّ الله، فمعناه: جعل كلمة الكفّار السفلى، بأن جعلهم أذلّة أسفلين، وأعلى كلمة الله، بأن أعزّ الإسلام والمسلمين.

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ في إنتقامه من أهل الشرك ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة الأعمش: لوُ استطعنا ـ بضمّ الواو ـ، وقد مضى

الكلام فيه أوائل سورة البقرة.

﴿اللغة﴾: القاصد: السهل المقصد عن غير طول؛ لأنّه ممّا يقصد لسهولته، وسُمّي العدل قصداً؛ لأنّه ممّا ينبغي أن يقصد. والشقّة: القطعة من الأرض التي يشقّ ركوبها على صاحبها لبعدها، ويحتمل أن يكون من الشقّ الذي هو الناحية من الجبل، ويحتمل أن يكون من المشقّة. والشقّة: السفر والمسافة، وقريش يضمّون الشين، وقيس يكسرونها، وقريش يضمّون العين من «بعدت»، وقيس يكسروها.

﴿المعنى﴾: ثمّ أمر سبحانه بالجهاد، وبيّن تأكيد وجوبه على العباد ﴿انفِرُوا﴾ أي: أخرجوا إلى الغزو ﴿خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ أي: شباناً وشيوخاً، ـ عن الحسن، ومجاهد، وعكرمة، والضحّاك، وغيرهم ـ. وقيل: نشاطاً وغير نشاط، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل، ـ عن الحكم ـ. وقيل: أغنياء وفقراء، ـ عن أبي صالح ـ. وقيل: أراد بالخفاف: أهل العسرة من المال، وقلّة العيال، وبالثقال: أهل الميسرة في المال، وكثرة العيال، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: معناه: ركباناً ومشاة، ـ عن أبي عمرو، وعطية العوفي ـ. وقيل: ذا صنعة وغير ذى صنعة، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: عزاباً ومتأهّلين، ـ عن يمان ـ.

والوجه أن يحمل على الجميع، فيقال: معناه: أخرجوا إلى الجهاد خفّ عليكم، أو شقّ على أيّ حالة كنتم؛ لأنّ أحوال الإنسان لا تخلوا من أحد هذه الأشياء.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ الجهاد بالنفس والمال واجب على من إستطاع بهما، ومن لم يستطع على الوجهين، فعليه أن يجاهد بما إستطاع.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: أنّ الخروج والجهاد بالنفس والمال، خير لكم من التثاقل وترك الجهاد إلى مباح.

﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله عزّ إسمه صادق في وعده ووعيده. وقيل: معناه: إن كنتم تعملون [تعلمون] الخير في الجملة، فاعلموا أنّ هذا خير، قال السدّى: لمّا نزلت هذه الآية إشتدّ شأنها على الناس، فنسخها الله تعالى بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءُ وَلاَ عَلَى الْمَرْضى﴾ الآية.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾ معناه: لو كان ما دعوتهم إليه غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَراً قَاصِداً﴾ أي: قريباً هيّناً. وقيل: قاصداً، أي ذا قصد، نحو تأمر ولابن[١]، ـ عن المبرّد ـ. وقيل: سهلاً متوسّطاً غير شاقّ ﴿لاَتَّبَعُوكَ﴾ طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمْ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، يعني: غزوة تبوك أُمروا فيها بالخروج إلى الشام.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ معناه: إنّ هؤلاء سيعتذرون إليك في قعودهم عن الجهاد، ويحلفون لو إستطعنا، وقدرنا وتمكّنّا من الخروج، لخرجنا معكم.

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بما آثروه من الشرك. وقيل: باليمين الكاذبة، والعذر الباطل؛ لما يستحقّون عليها من العقاب ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا الإعتذار والحلف.

وفي هذه دلالة على صحّة نبوّة نبيّنا ﷺ؛ إذ أخبر أنّهم سيحلفون قبل وقوعه، فحلفوا، وكان مخبره على ما أخبر به، وفيه أيضاً دلالة واضحة على أنّ القدرة قبل الفعل؛ لأنّ هؤلاء لا يخلوا إمّا أن يكونوا مستطيعين من الخروج، قادرين عليه، ولم يخرجوا، أو لم يكونوا قادرين عليه، وإنّما حلفوا لو أنّهم قدروا في المستقبل لخرجوا، فإن كان الأوّل فقد ثبت أنّ القدرة قبل الفعل، وإن كان الثاني فقد كذّبهم الله تعالى في ذلك، وبيّن أنّه لو فعل لهم الإستطاعة لما خرجوا.

---

[١] أي ذو تمر، وذو لبن.

وفي ذلك أيضاً وجوب تقدّم القدرة على المقدور، فإن حملوا الإستطاعة على وجود الآلة، وعدّة السفر، فقد تركوا الظاهر من غير ضرورة، فإنّ حقيقة الإستطاعة القدرة، على أنّه لو كان عدم الآلة والعدّة عذراً في التأخّر، فعدم القدرة أصلاً أحرى وأولى أن يكون عذراً فيه.

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ، بما فيه بعض العتاب في إذنه لمن إستأذنه في التأخير عن الخروج معه إلى تبوك، فقال ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلّف عنك. قال قتادة، وعمرو بن ميمون: إثنان فعلهما النبيّ ﷺ، لم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون، وهذا من لطيف المعاتبة، بدأه بالعفو قبل العتاب. وهل كان هذا الإذن قبيحاً أو لا؟ قال الجبائي: كان قبيحاً، ووقع صغيراً؛ لأنّه لايقال في المباح: لم فعلته. وهذا غير صحيح؛ لأنّه يجوز أن يقال فيما غيره أفضل منه لم فعلته، كما يقول القائل لغيره، إذا رآه يعاتب أخاً له: لم عاتبته وكلّمته بما يشقّ عليه. وإن كان يجوز له معاتبته بما يشقّ عليه، وكيف يكون إذنه لهم قبيحاً، وقد قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. وقيل: معناه: أدام الله لك العفو، لم أذنت لهؤلاء في الخروج؛ لأنّهم إستأذنوا فيه تملّقاً، ولو خرجوا لأرادوا الخبال والفساد، ولم يعلم النبيّ ﷺ، ذلك من سريرتهم، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: حتى تعرف من له العذر منهم في التخلّف، ومن لا عذر له، فيكون إذنك لمن أذنت له على علم. قال ابن عباس: وذلك لأنّ رسول الله ﷺ، لم يكن يعرف المنافقين يومئذ. وقيل: إنّه عليه السلام إنّما خيّرهم بين الظعن والإقامة، متوعّداً لهم، ولم يأذن، فإغتنم القوم ذلك. وفي هذا إخبار من الله سبحانه أنّه كان الأولى أن يلزمهم الخروج معه، حتى إذا لم يخرجوا، أظهر نفاقهم؛ لأنّه متى أذن لهم ثمّ تأخّروا، لم يعلم أَلِنفاقٍ كان تأخّرهم أم

لغيره. وكان الذين إستأذنوه منافقين، ومنهم جد بن قيس، ومعتب بن قشير، وهما من الأنصار.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال المؤمنين والمنافقين [فين] في الإستئذان، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: لا يطلب منك الإذن في القعود عن الجهاد معك بالمعاذير الفاسدة. وقيل: معناه: لا يستأذنك في الخروج؛ لأنّه مستغن عنه بدعائك إلى ذلك، بل يتأهّب له، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ والمعنى: في أن يجاهدوا فحذف «في» فافضى الفعل ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: هذا تعيير للمنافقين حين إستأذنوه في العقود عن الجهاد، وعذر للمؤمنين في قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حتّى يَسْتَأْذِنُوه﴾ والمعنى: أنّه لم يخرجهم من صفة المتّقين إلاّ لأنّه علم أنّهم ليسوا منهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُك﴾ في التأخّر عن الجهاد والتخلّف عن القتال معك. وقيل: في الخروج لأنّ المنافق إنّما يستأذنك في الخروج تملّقاً، ولا يتأهّب كما يتأهّب المؤمنون، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي: لا يصدّقون به ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني: بالبعث والنشور ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إضطربت وشكّت.

﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فهم في شكّهم يذهبون ويرجعون. والتردّد هو

التصرّف بالذهاب والرجوع مرّات متقاربة مثل: التحيّر، وأراد به المنافقين، أي: يتوقّعون الإذن لشكّهم في دين الله، وفيما وعد المجاهدين، ولو أنّهم كانوا مخلصين لوثقوا بالنصر، وبثواب الله، فبادروا إلى الجهاد، ولم يستأذنوك فيه.

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]

(اللغة): العدّة والأهبة والآلة، نظائر. والإنبعاث: الإنطلاق بسرعة في الأمر، وفلان لا ينبعث في الحاجة، أي: ليس له نفاذ فيها. والتثبيط: التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه، ومثله: التربيث. والخَبَال: الفساد. والخَبَال: الموت. والخَبَال: الإضطراب في الرأي، والخَبْل، ـ بسكون الباء وفتحها ـ: الجنون. والخَبْل: فساد الأعضاء. قال:

أَبَنِي لُبَيْنىٰ لَسْتُمُ بِيَدٍ ... إِلَّا يَداً مَخْبُولَةَ الْعَضُدِ[2]

---

(١) زادوا ألفاً في كتابة أربع كلمات: لا أوضعوا هنا، ولا إلى الله تحشرون بآل عمران، ولا أذبحنّه بالنمل، ولا إلى الجحيم بالصافّات، والزيادة في النمل إتّفاقيّ.

(٢) لُبينى ـ بضمّ اللام وفتح الياء وآخره ألف مقصورة ـ: علم لبنت إبليس في زعمهم. وبنى لبينى سبّ للمخاطبين، وهمزة النداء دخلت على «بني». يقول: يا أسباط إبليس لاينتفع أحد بكم، كما لاينتفع بيد مخبولة العضد.

والإيضاع: الإسراع في السير. قال امرؤ القيس:

أَرَانَا مُوضِعَيْنِ لِحَتْمِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ، وَبِالشَّرَابِ[١]

وربما قالوا للراكب وضع بغير ألف، ووضعت الناقة تضع وَضْعاً ووُضوعاً، وأوضعتها إيضاعاً، قال دريد بن الصمه:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أُخِبُّ فِيهَا وَأَضَعْ[٢]

خلالكم أي: بينكم، مشتقّ من التخلّل. وفي الحديث: تراضوا بين الصفوف لا يتخلّلكم الشياطين كأنّها بنات حذَفٍ[٣]. والتقليب: تصريف الشيء بجعل أعلاه أسفله، ورجل حُوَّلٌ قُلَّبٌ: كأنّه يقلب الآراء في الأمور، ويحوّلها.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ مع النبيّ ﷺ، نصرة له، أو رغبة في جهاد الكفّار، كما أراد المؤمنون ذلك.

﴿لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لإستعدّوا للخروج عدّة، وهي ما يعدّ لأمر يحدث قبل وقوعه. والمراد: لأخذوا أُهبة الحرب من الكراع والسلاح؛ لأنّ إمارة من أراد أمراً أن يتأهّب له قبل حدوثه.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ معناه: ولكن كره الله خروجهم إلى الغزو؛ ولعلمه أنّهم لو خرجوا، لكانوا يمشون بالنميمة بين المسلمين، وكانوا عيوناً للمشركين، وكان الضرر في خروجهم أكثر من الفائدة.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ عن الخروج الذي عزموا عليه، لا عن الخروج الذي أمرهم به؛

---

(١) أراد بحتم غيب، المنية. يقول: نسرع إلى المنية، ومع ذلك نلهو بالطعام والشراب، كأنّها سحرت أعيننا.

(٢) الجذع: قبل الثنى من أسنان الأنعام. والخبّ والوضع: نوعان من السير.

(٣) أي: صغار الغنم.

لأنّ الأوّل كفر، والثاني طاعة، ولا ينبغي أن يقال: كيف كره إنبعاثهم بعد ما أمر به في الآية الأولى؟ لأنّه إنّما أمر بذلك على وجه الذبّ عن الدين، ونيّة الجهاد، وكره ذلك على نيّة التضريب والفساد، فقد كره غير ما أمر به. ومعنى ثبّطهم: بطأ بهم، وخذلهم لما يعلم منهم من الفساد.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: وقيل لهم: أقعدوا مع النساء والصبيان. ويحتمل أن يكون القائلون لهم ذلك، أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبيّ ﷺ، للجهاد. ويحتمل أن يكون ذلك من كلام النبيّ ﷺ لهم، على وجه التهديد والوعيد، لا على وجه الإذن. ويجوز أن يكون أيضاً على وجه الإذن لهم في القعود الذي عاتبه الله تعالى عليه؛ إذ كان الأولى أن لا يأذن لهم ليظهر للناس نفاقهم. قال أبو مسلم: هذا يدلّ على أنّ الإستئذان كان في الخروج، وأنّ الأذن من النبيّ ﷺ، لهم كان في الخروج؛ لأنّه إذا كره الله سبحانه خروجهم، وأراد قعودهم، وأذن النبيّ ﷺ، في قعودهم، فلا عتب عليه، ولكنّهم إستأذنوا في الخروج تملّقاً، وإرادة للفساد، فأذن النبيُّ ﷺ، لهم فيه، ولم يعلم ضمائرهم، فعلم الله تعالى ذلك من نيّاتهم، ومنعهم من الخروج؛ إذ كره خروجهم.

ثمّ بيّن سبحانه وجه الحكمة في كراهيّة إنبعاثهم، وتثبيطهم عن الخروج، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾ معناه: لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد، ما زادوكم بخروجهم إلاّ شرّاً وفساداً. وقيل: غدراً ومكراً، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: يريد عجزاً وجنباً، ـ عن ابن عباس ـ، أي: إنّهم كانوا يجبّنونكم عن لقاء العدوّ بتهويل الأمر عليكم.

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا في الدخول بينكم بالتضريب، والإفساد، والنميمة، يريد ولسعوا فيما بينكم بالتفريق بين المسلمين، ويكون تقديره: ولأعدوا الإبل وسطكم. وقيل: معناه: لأوضعوا إبلهم خلالكم، يتخلّل

الراكب الرجلين حتى يدخل بينهما، فيقول ما لا ينبغي.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ بعدو الإبل وسطكم، ومعنى يبغونكم: يبغون لكم أو فيكم أي: يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة. وقيل: معناه: يبغونكم أن تكونوا مشركين. والفتنة: الشرك، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: يخوّفونكم بالعدوّ، ويخبرونكم أنّكم منهزمون، وأنّ عدوّكم سيظهر عليكم، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم عيون للمنافقين ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، ـ عن مجاهد، وابن زيد ـ. وقيل: معناه: وفيكم قائلون [بلون] منهم عند سماع قولهم، يريد ضعفة المسلمين، ـ عن قتادة، وابن إسحاق، وجماعة ـ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: بهؤلاء المنافقين الذين ظلموا أنفسهم؛ لما أضمروا عليه من الفساد، منهم عبدالله بن أُبيّ، وجد بن قيس، وأوس بن قبطي.

ثمّ أقسم الله سبحانه، فقال: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ الفتنة: إسم يقع على كل سوء وشرّ، والمعنى: لقد طلب هؤلاء المنافقون إختلاف كلمتكم، وتشتيت أهوائكم، وإفتراق آرائكم، من قبل غزوة تبوك أي: في يوم أُحد، حين إنصرف عبد الله بن أُبيّ بأصحابه، وخذل النبيّ ﷺ، فصرف الله سبحانه عن المسلمين فتنتهم. وقيل: أراد بالفتنة: صرف الناس عن الإيمان، وإلقاء الشبهة إلى ضعفاء المسلمين، ـ عن الحسن ـ. وقيل: أراد بالفتنة: الفتك بالنبيّ ﷺ، في غزوة تبوك ليلة العقبة، وكانوا إثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على الثنية؛ ليفتكوا بالنبيّ ﷺ، ـ عن سعيد بن جبير، وابن جريح ـ.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: إحتالوا في توهين أمرك، وإيقاع الإختلاف بين المؤمنين، وفي قتلك، بكل ما أمكنهم فيه، فلم يقدروا عليه. وقيل: إنّهم كانوا يريدون في كيده وجهاً من التدبير، فإذا لم يتمّ ذلك فيه، تركوه وطلبوا المكيدة في غيره، فهذا تقليب الأمور، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ معناه: حتى جاء النصر والظفر الذي وعده الله به ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ أي: دينه وهو الإسلام، على الكفّار على رغمهم.

﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي: في حال كراهيّتهم لذلك، فهي جملة في موضع الحال.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ (١)
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

القراءة: القراءة المشهورة: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قُلْ هُوَ [هَلْ] يُصِيبَنَا﴾ وكذلك هو في مصحف ابن مسعود[١].

---

(١) يقف حمزة على «تسؤهم» بالإبدال، وإذا إبتدىء بإيذن، فيبدل الهمزة ياءً إتّفاقاً، وفي الوصل يبدل واواً ـ عن أبي عمرو بخلفه، وعن ورش. وأدغم لام «هل» في «التاء» من «تربّصون» حمزة والكسائي. وشدّد «تاء» «تربّصون» مع سكون «اللام»، في رواية، ـ عن البزي ـ ومرّ مثله.

[١] أي بنات الروم، لأن أباهم الأول كان أصفر اللون.

النزول: قيل: إنّ رسول الله ﷺ، لمّا إستنفر الناس إلى تبوك، قال: إنفروا لعلّكم تغنمون بنات الأصفر. فقام جد بن قيس، أخو بني سلمة من [بن] بني الخزرج، فقال: يارسول الله! إئذن لي، ولا تفتِنّي ببنات الأصفر، فإنّي أخاف أن افتتن بهنّ. فقال: قد أذنت لك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ الآيات، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. فلمّا نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ، لبني سلمة: مَنْ سيّدكم؟ قالوا: جدّ بن قيس، غير أنّه بخيل جبان! فقال عليه السلام: وأيّ داء أدوى من البخل، بل سيّدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور. فقال في ذلك حسان بن ثابت:

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ، وَالقَوْلُ لاٰ حِقٌّ ... بِمَنْ قَالَ مِنّا: مَنْ تَعُدُّونَ سَيِّداً

فَقُلْنا لَهُ: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى الَّذِي ... نُبَخِّلُهُ فِينا، وَإِنْ كَانَ أَنْكَدا

فَقَالَ: وَأَيُّ الداءِ أَدْوىٰ مِنَ الَّذِي ... رَمَيْتُمْ بِهِ جَدّاً، وَإِنْ كَانَ أَمْجَدا

وَسَوِّدَ بِشْرُ بْنُ الْبَراءِ لِجُودِهِ ... وَحَقٌّ لِبِشْرٍ ذِي النَّدا أَنْ يُسَوَّدا

إذا مٰا أَتَاهُ الْوَفْرُ أَنْهَبَ مٰالَهُ ... وَقَالَ: خُذُوهُ إِنَّهُ عٰائِدٌ غَدا

المعنى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ببنات الأصفر، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. قال الفرّاء: سمّيت الروم أصفر؛ لأنّ حبشيّاً غلب على ناحية الروم، وكان له بنات قد أخذن من بياض الروم، وسواد الحبشة، فكنّ صفراً لعْساً[١]. وقيل: معناه: لاتؤثمني أي: لاتوقعني في الإثم بالعصيان لمخالفة أمرك بالخروج إلى الجهاد، وذلك غير متيسّر لي، ـ عن الحسن، وقتادة، والجبائي، والزجّاج ـ.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ معناه: ألا في العصيان والكفر وقعوا بمخالفتهم أمرك في الخروج والجهاد. وقيل: معناه: لا تعذّبني بتكليف الخروج في شدّة الحرّ،

---

[١] أي يضرب لونهنّ إلى السواد.

ألا قد سقطوا في حرّ أعظم من ذلك، وهو حرّ نار جهنّم، ـ عن أبي مسلم ـ. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الحُرّ قُلْ نَار جَهَنَّم أَشَدَّ حَرّاً﴾.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ستحيط بهم فلا مخلص لهم منها.

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا خطاب من الله سبحانه للنبيّ ﷺ، ومعناه: إن تنلك نعمة من الله، وفتح وغنيمة يحزن المنافقون.

﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ معناه: وإن تصبك شدة، ونكبة، وآفة في النفس، أو المال ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أخذنا حذرنا، وإحترزنا بالقعود من قبل هذه المصيبة، ـ عن مجاهد ـ. ومعناه: أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة، فسلمنا ممّا وقعوا فيه.

﴿وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي: رجعوا إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المؤمنين من الشدّة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ أي: كل ما يصيبنا من خير أو شرّ، فهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ في أمرنا، وليس على ما تظنّون وتتوهّمون من إهمالنا، من غير أن يرجع أمرنا إلى تدبير، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: لن يصيبنا في عاقبة أمرنا، إلاّ ما كتب الله لنا في القرآن، من النصر الذي وعدنا، وأنا نظفر بالأعداء فتكون النصرة حسنىً لنا، أو نقتل فتكون الشهادة حسنىً لنا أيضاً، أي: فقد كتب الله لنا ما يصيبنا، وعلمنا ما لنا فيه من الحظّ، ـ عن الزجّاج، والجبائي ـ.

﴿هُوَ مَوْلاَنَا﴾ أي: هو مالكنا ونحن عبيده. وقيل: هو وليّنا وناصرنا، يحفظنا ويتولّى حياطتنا، ودفع الضرر عنّا.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بالتوكّل عليه، والرضا بتدبيره وتقديره، فليتوكّل على الله المؤمنون ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المنافقين: ﴿هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ معناه: هل تنتظرون لنا إلاّ احدى الخصلتين الحميدتين، والنعمتين العظيمتين: إمّا الغلبة والغنيمة في العاجل،

وإمّا الشهادة مع الثواب الدائم في الآجل، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم ـ. و﴿هَلْ﴾ وإن كان حرف الإستفهام، فمعناه هنا: التقريع بالتربّص المؤدّي صاحبه إلى كل ما يكرهه من خيبته، وفوز خصمه، ومن هلاكه ونجاة خصمه، ومن شقوته وسعادة خصمه.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: ونحن نتوقّع بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: يوقع الله بكم عذاباً من عنده، يهلككم به، أو بأن ينصرنا عليكم، فيقتلكم بأيدينا.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ صورته صورة الأمر، والمراد به: التهديد، كقوله: ﴿إِعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ﴾ لأنّه لو كان أمراً لهم، لكانوا في تربّصهم بالمؤمنين القتل مطيعين لله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي: منتظرون إمّا الشهادة والجنّة، وإما الغنيمة والأجر لنا، وإمّا البقاء في الذلّ والخزي، وإمّا الموت أو القتل مع المصير إلى النار لكم.

وهذه الآية تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ وقيل: معناه: فتربّصوا هلاكنا، فإنّا متربّصون هلاككم. وقيل: تربّصوا مواعيد الشيطان في إبطال دين الله، ونحن متربّصون مواعيد الله إظهار دينه، ونصرة نبيّه، وإستئصال مخالفيه.

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾
فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: أن يقبل ـ بالياء ـ. والباقون:

بالتاء[١].

الحجة: وجه القراءة بالتاء: أنّ الفعل مسند إلى مؤنّث في اللفظ. ووجه الياء: أنّ التأنيث ليس بحقيقيّ، فجاز أن يذكّر كما جاء ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾.

اللغة: الطوع: الإنقياد بإرادة لم يحمل عليها. والكره: فعل الشيء بكراهة حمل عليها. المنع: أمر يضادّ الفعل وينافيه، وهو على وجهين: منع أن يفعل، ومنع أن يفعل به، فهؤلاء منعوا من أن يفعل بهم قبول نفقتهم. والزهق: الخروج بصعوبة، وأصله: الهلاك، وكل هالك زاهق، زَهَقَ يَزْهَقُ زُهوقاً. والزاهق من الدوابّ: السمين الشديد السمن؛ لأنّه هالك بثقل بدنه في السير، والكرّ والفرّ. وزهق فلان بين أيدي القوم: إذا ذهب سابقاً لهم حتى يهلك منهم. والإعجاب: السرور بما يتعجّب منه، يقال: أعجبني حديثه أي: سرّني.

الإعراب: أنفقوا طوعاً أو كرهاً: لفظه أمر، ومعناه معنى الشرط والجزاء. المعنى: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين، لن يتقبّل منكم، ومثله من الشعر قول كُثَيِّر:

أَسِيئِي بِنا، أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةٌ ... لَدَيْنا، وَلا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[٢]

فلم يأمرها بالإساءة، ولكن أعلمها إن أساءت أو أحسنت، فهو على عهدها، فكأنّه قال: إن أحسنت أو أسأت فلا تلامي. قال الزجّاج: فإن قال قائل: كيف يكون الأمر في معنى الخبر؟ قيل له: إذا كان في الكلام دليل عليه جاز، كما يكون لفظ الخبر في معنى الأمر والدعاء، كقولك: غفر الله لزيد، ورحمه الله، ومعناه: أللهمّ إغفر له وارحمه. وقوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ﴾ في موضع نصب، وتقديره: من أن تقبل. و ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ﴾ في موضع رفع، المعنى: ما منعهم من قبول نفقاتهم

---

(١) وقرأ بضمّ كاف «كُرهاً» حمزة والكسائي.

(٢) مقليّة: مبغوضة. والتقلّي: إظهار العداوة، وفي البيت إلتفات من الخطاب إلى الغيبة، يقول: أنت محبوبة سواء أحسنت أو أسأت، ولانبغضك وإن أظهرت البغض والعداوة.

إلاّ كفرهم، ويجوز أن يكون التقدير: وما منعهم الله منه إلاّ لأنّهم كفروا.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّ هؤلاء المنافقين لا ينتفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على الكفر، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء ﴿أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي: طائعين، أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ معناه: وإنّما لم يتقبّل منكم؛ لأنّكم كنتم متمرّدين عن طاعة الله، والله سبحانه إنّما يتقبّل من المؤمنين المخلصين.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي: وما يمنع هؤلاء المنافقين أن يثابوا على نفقاتهم إلاّ كفرهم بالله وبرسوله ﷺ، وذلك ممّا يحبط الأعمال، ويمنع من إستحقاق الثواب عليها.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: متثاقلين، والمعنى: لم يؤدّوها على الوجه الذي أُمروا أن يؤدّوها على ذلك الوجه.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك؛ لأنّهم إنّما يصلّون وينفقون للرياء والتستّر بالإسلام، لا لإبتغاء مرضاة الله تعالى. وفي هذا دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالشرايع؛ لأنّه سبحانه ذمّهم على ترك الصلاة والزكاة، ولولا وجوبهما عليهم لم يذمّوا بتركهما.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد: جميع المؤمنين. وقيل: يريد لاتعجبك أيّها السامع، أي: لا يأخذ بقلبك ما تراه من كثرة أموال هؤلاء المنافقين، وكثرة أولادهم، ولا تنظر إليهم بعين الإعجاب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قد ذكر في معناه وجوه:

أحدها: إنّ فيه تقديماً وتأخيراً أي: لا يسرّك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، إنّما يريد الله ليعذّبهم بها في الآخرة، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. فيكون

الظرف على هذا متعلّقاً بأموالهم وأولادهم. ومثله: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ والتقدير فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم.

وثانيها: إنّ معناه: إنّما يريد الله أن يعذّبهم بها في الدنيا، بالتشديد عليهم في التكليف، وأمرهم بالإنفاق في الزكاة والغزو، فيؤدُّونها على كره منهم ومشقّة؛ إذ لا يرجون به ثواباً في الآخرة، فيكون ذلك عذاباً لهم، ـ عن الحسن، والبلخي ـ.

وثالثها: إنّ معناه: إنّما يريد الله ليعذّبهم بحفظها، والمصائب فيها مع حرمان المنفعة بها، ـ عن ابن زيد ـ.

ورابعها: إنّ معناه: إنّما يريد الله ليعذّبهم بها في الدنيا، أي: بسبي الأولاد، وغنيمة الأموال عند تمكّن المؤمنين من أخذها، وغنمها، فيتحسّرون عليها، فيكون ذلك جزاء على كفرهم، ـ عن الجبائي ـ.

وخامسها: إنّ المراد: يعذّبهم بجمعها وحفظها وحبّها، والبخل بها، والحزن عليها، وكل هذا عذاب، وكذلك خروجهم عنها بالموت؛ لأنّهم يفارقونها، ولا يدرون إلى ماذا يصيرون. واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى «أنْ»، ويحتمل أن يكون لام العاقبة. والتقدير: إنّما يريد الله أن يملي لهم فيها ليعذّبهم.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تهلك وتذهب بالموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال أي: حال كونهم كافرين، والإرادة تعلّقت بزهوق أنفسهم، لا بالكفر، وهذا كما تقول: أُريد أن أضربه وهو عاص، فالإرادة تعلّقت بالضرب، لا بالعصيان.

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً(١) أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

القراءة: قرأ يعقوب وسهل: أو مَدْخلاً ـ بفتح الميم، وسكون الدال ـ، وهو قراءة ابن أبي إسحاق، والحسن. والباقون: مُدَّخَلا، وفي الشواذّ، قراءة مسلمة بن محارب: مُدْخَلا ـ بضمّ الميم وسكون الدال ـ. وقراءة الأعرج: مُدَّخَّلا ـ بتشديد الدال والخاء ـ. وقراءة أنس: وهم يجمزون، رواه الأعمش عنه.

الحجة: أمّا قوله: مُدَّخَلاً في القراءة المشهورة، فأصله: مدتخلاً، لكن التاء تبدل بعد الدال دالاً؛ لأنّ التاء مهموسة، والدال مجهورة [مهجو]، والتاء والدال من مكان واحد، فكان الكلام من وجه واحد أخفّ. ومن قرأ: مَدْخَلاً، فهو من دخل يدخل مدخلاً. ومن قرأ: مُدْخَلاً: فهو من أدخلته مدخلاً. قال[١]:

أَلْحَمْدُ للهِ مُمْسَانَا وَمُصْبَحَنَا ... بِالْخَيْرِ صَبَّحَنَا رَبِّي وَمَسَّانَا

ومن قرأ: مدَّخَّلاً ـ بتشديد الدال والخاء ـ، جعله متدخّلاً، ثمّ أدغم التاء في الدال. وفي رواية الأعمش: أنّه سمع أنساً يقرأ: يجمزون، فقال: وما يجمزون؟ قال: يجمزون، ويجمعون [يجمحون]، ويشتدّون، واحد.

اللغة: الفَرَق: إنزعاج النفس بتوقّع الضرر. وأصله من مفارقة الأموال حال الإنزعاج. والملجأ: الموضع الذي يتحصّن فيه، ومثله: المعقل، والموئل، والمعتصم، والمعتمد. والمغارات: جمع مغارة مفعلة، من غار الشيء في الشيء يغور: إذا دخل مِنه في موضع يستره. والغار: النقب في الجبل. والمدخل: المسلك

---

(١) وقف حمزة على «ملجأ» بوجه واحد، وهو التسهيل بين بين.

[١] قائله: أُميّة بن أبي الصلت.

الذي يتدسّس بالدخول فيه، وهو مفتعل. والجماح: مضي المارّ مسرعاً على وجهه، لا يردّه شيء عنه. وقيل: هو المشي بين الشيئين. قال مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جِماحاً فِي دِمائِهِمِ حَتّى رأَيْتُ ذَوِي أحْسابِهِمْ خَمَدُوا

والجَموح: الراكب هواه قال:

خَلَعْتُ غُدّارى جامِحاً ما يَرُدُّنِي

عنِ الْبِيضِ أمْثالِ الدُّمىٰ زَجْرُ زاجِرٍ[1]

المعنى: ثمّ أظهر سبحانه سرّاً من أسرار القوم، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي: يقسم هؤلاء المنافقون، إنّهم لمن جملتكم أيّها المؤمنون أي: مؤمنون أمثالكم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: ليسوا مؤمنين بالله كما أنتم كذلك ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون القتل والأسر، إن لم يظهروا الإيمان.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي: لو يجد هؤلاء المنافقون حرزاً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: حصناً، ـ عن قتادة ـ.

﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ أي: غيراناً في الجبال، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: سراديب، ـ عن عطا ـ.

﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ أي: موضع دخول يأوون إليه، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: نفقاً كنفق اليربوع، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: أسراباً في الأرض، ـ عن ابن عباس، وأبي جعفر عليه السلام ـ. وقيل: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله، ـ عن الحسن ـ.

﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي: لعدلوا إليه. وقيل: لأعرضوا عنكم إليه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في الذهاب إليه. ومعنى الآية: إنّهم من خبث دخلتهم، وسوء سريرتهم، وحرصهم على إظهار ما في نفوسهم من النفاق والكفر، لو أصابوا شيئاً

---

(١) خليع الغدار: هو الهتاك غير المبالي بما يفعل. ويقال في الفارسيّة: أفسار گسيخته: والدمى: ـ جمع الدمية ـ الصنم، أراد به النساء الحسان.

من هذه الأشياء، لآووا [ولّوا] إليه ليجاهروا بما يضمرونه، وأعرضوا عنك.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

القراءة: قرأ يعقوب: يلمُزُك ـ بضمّ الميم ـ وهي قراءة الحسن، والأعرج. والباقون: بكسر الميم.

اللغة: يقال: لمزت الرجل أَلمَزُهُ [أَلمُزه]، وألمِزُه: إذا عبته، وكذلك هَمَزْتُه. قال الشاعر:

إِذَا لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً ... وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللُّمَزا[1]

وقيل: الهمز: العيب ـ بكسر العين ـ. وغَمِزها[2] أي: يكثر عيبه إذا غاب. واللمز: العيب على وجه المسارة. وقيل لأعرابي: أتهمز الفارة[3]؟ قال: الهرُّ يهمزها، فأوقع الهمز على الأكل. والهمز، كاللمز.

النزول: عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله ﷺ، يقسّم قسماً، وقال ابن عباس: كانت غنائم هوازن يوم حنين؛ إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميميّ، وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج، فقال: أعدل يا رسول الله! فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: يا رسول الله إئذن لي فأضرب عنقه! فقال النبيّ ﷺ: دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع

---

(١) يعني: إن كنت حاضراً، تجاهرني بالتبسّم، وإن كنت غائباً تغتابني.

(٢) أي: بإشارة الباصرة.

(٣) تتلفّظ بهمزة.

صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قُذَذِه[١] فلا يوجد فيه شيء، ثمّ ينظر في رصافِه، فلا يوجد فيه شيء، ثمّ ينظر في نصله، فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود في إحدى ثدييه، أو قال في إحدى يديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تُدَرْدِرُ، يخرجون على فترة من الناس.

وفي حديث آخر: فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثمّ إذا خرجوا فاقتلوهم، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ الآية. قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنّي سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أنّ عليّاً عليه السلام حين قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته رسول الله ﷺ، رواه الثعلبي بإسناده في تفسيره.

وقال كلبي: نزلت في ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون، قال رجل منهم، يقال له ابن الجواظ: لم يقسم بالسويّة، فأنزل الله الآية. وقال الحسن: أتاه رجل وهو يقسم، فقال: ألست تزعم أنّ الله تعالى أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين؟ قال: بلى. قال: فما لك تضعها في رعاة الغنم؟ قال: إنّ نبيّ الله موسى عليه السلام كان راعي غنم، فلمّا ولّى الرجل، قال عليه السلام: إحذروا هذا. وقال ابن زيد: قال المنافقون ما يعطيها محمّد إلاّ من أحبّ، ولا يؤثر بها إلاّ هواه، فنزلت الآية.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عنهم، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يعيبك، ويطعن عليك في أمر الصدقات.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ أي: من تلك الصدقات ﴿رَضُوا﴾ وأقرّوا بالعدل ﴿وَإِنْ

---

(١) القذذ: ريش السهم. ولايمكن أن يخرج من الصيد ولايتلون.

﴿لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون ويعيبون. وقال أبو عبدالله عليه السلام: أهل هذه الآية أكثر من ثلثي الناس.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ معناه: ولو أنّ هؤلاء المنافقين، الذين طلبوا منك الصدقات، وعابوك بها، رضوا بما أعطاهم الله ورسوله ﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك ﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾ أي: كفانا الله أو كافينا الله.

﴿سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيعطينا الله من فضله وإنعامه، ويعطينا رسوله مثل ذلك، وقالوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يوسّع علينا من فضله، فيغنينا عن أموال الناس. وقيل: يعني: راغبون إليه فيما يعطينا من الثواب، ويصرّف عنّا من العذاب، وجواب «لو» محذوف، وتقديره: لكان خيراً لهم، وأعود عليهم، وحذف الجواب في مثل هذا الموضوع، أبلغ على ما تقدّم بيانه.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿الإعراب﴾: قال الزجّاج: فريضة: منصوب على التوكيد؛ لأنّ قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ لهؤلاء، كقولك: فرض الله الصدقات لهؤلاء.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه لمن الصدقات، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ ومعناه: ليست الصدقات التي هي زكاة الأموال إلاّ لهؤلاء.

وأختلف في الفرق بين الفقير والمسكين على قولين: أحدهما: إنّهما صنف واحد، وإنّما ذكر الصنفان تأكيداً للأمر، وهو قول أبي على الجبائي، وإليه ذهب أبو[سعيد] يوسف، ومحمّد، فقالا: فيمن قال ثلث مالي للفقراء والمساكين، وفلان، إنّ لفلان نصف الثلث، ونصفه الآخر للفقراء والمساكين؛ لأنّهما صنف واحد. والآخر: وهو قول الأكثرين: إنّهما صنفان، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة، فإنّه في المسألة المذكورة، إنّ لفلان ثلث الثلث، وثلثي الثلث للفقراء والمساكين.

ثمّ إختلف هؤلاء على أقوال: فقيل: إنّ الفقير: هو المتعفّف الذي لا يسأل[1]، والمسكين: الذي يسأل، عن ابن عباس، والحسن والزهري، ومجاهد، ذهبوا إلى أنّ المسكين مشتقّ من المسكنة بالمسألة، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: إنّ الفقير الذي يسأل، والمسكين الذي لا يسأل. وجاء في الحديث ما يدلّ على ذلك: فقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: ليس المسكين الذي يردّه الأكلة والأكلتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنيّاً فيغنيه، ولا يسأل الناس شيئاً، ولا يفطن به فيتصدّق عليه. وقيل: الفقير هو الزمن المحتاج، والمسكين: هو الصحيح المحتاج، ـ عن قتادة ـ. وقيل: الفقراء: المهاجرون، والمساكين: غير المهاجرين، ـ عن الضحّاك، وإبراهيم ـ.

ثمّ إختلفوا من وجه آخر، فقيل: إنّ الفقير أسوأ حالاً من المسكين، فإنّ

---

(١) الفقير أو المسكين: من يقصر دخله عن نفقاته، والغنيّ بالعكس، على المشهور بين فقهائنا، وهذا إصطلاح شرعيّ، يناسب حكمة جعل الزكاة، والدليل عليه يجب أن يكون تعبّداً منصوصاً من الحجج عليهم السلام، وأمّا في متعارف الناس، فيطلق الغني على من له مال كثير، ونفقات أكثر، والفقير على من قلّت نفقاته وماله، وإن وفى ماله بنفقته.

الفقير هو الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بلغة من العيش لا تكفيه، وإليه ذهب الشافعي، وابن الأنباري، وإحتجّا بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ وبأنّ الفقير مشتقّ من فقار الظهر، فكأنّ الحاجة قد كسرت فقار ظهره. وقيل: إنّ المسكين أسوأ حالاً من الفقير، فإنّ الفقير: الذي له بغلة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له، وهو قول أبي حنيفة، والقتيبي، وابن دريد، وأئمّة اللغة. وأنشد يونس:

أَما الْفَقِيرُ الَّذي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ ... وَفْقَ العِيال فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ[١]

فسمّاه فقيراً، وجعل له حلوبة. وأجابوا عن السفينة بأنّها كانت مشتركة بين جماعة، ولكل واحد منهم الشيء اليسير. وأيضاً فإنّه يجوز أن يكون سمّاهم مساكين على وجه الرحمة، كما جاء في الحديث: مساكين أهل النار. وقال الشاعر:

مَساكِينُ أَهْلُ الْحُبِّ حَتَّى قُبُورُهُمْ ... عَلَيْها تُرابُ الذُّلِ بَيْنَ المَقابِرِ

وقيل: إنّهم كانوا يعملون عليها إجارة فأضيفت إليهم ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ يعني: سعاة الزكاة وجباتها.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وكان هؤلاء قوماً من الأشراف في زمن النبيّ ﷺ، وكان يعطيهم سهماً من الزكاة؛ ليتألّفهم به على الإسلام، ويستعين بهم على قتال العدوّ. ثمّ أُختلف في هذا السهم، هل هو ثابت بعد النبيّ ﷺ أم لا؟ فقيل: هو ثابت في كل زمان، ـ عن الشافعي، وإختاره الجبائي ـ. وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، إلاّ أنّه قال: من شرطه أن يكون هناك إمام عادل يتألّفهم على ذلك به.

---

[١] قائله: الراعي يمدح عبدالملك بن مروان. والحلوبة: الناقة التي تحلب، ويقال: حلوبة فلان وِفق عياله أي: لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه. والسبد: كناية عن القليل.

وقيل: إنّ ذلك كان خاصّاً على عهد رسول الله ﷺ، ثمّ سقط بعده؛ لأنّ الله سبحانه أعزّ الإسلام، وقهر الشرك، ـ عن الحسن، والشعبي، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ـ.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني: في فكّ الرقاب من العتق، وأراد به المكاتبين. وأجاز أصحابنا أن يشترى منه عبد مؤمن، إذا كان في شدّة، ويعتق، ويكون ولاؤه لأرباب الزكاة، وهو قول ابن عباس، والحسن، ومالك.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾: وهم الذين ركبتهم الديون، في غير معصية ولا إسراف يقضى عنهم الديون.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ﴾: وهو الجهاد بلا خلاف، ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين، وهو قول ابن عمر، وعطا، وهو إختيار البلخي، وجعفر بن مبشر، قالوا: يبني منه المساجد، والقناطر، وغير ذلك.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وهو المسافر المنقطع به، يعطى من الزكاة، وإن كان غنيّاً في بلده ذا يسار، وإنّما سمّي ابن السبيل؛ للزومه الطريق، فنسب إليه، كما قال الشاعر:

أَنا ابْنُ الْحَرْبِ رَبَّتْنِي وَلِيداً ... إلىٰ أنْ شِبْتُ وَاكْتَهَلَتْ لِداتِي[١]

وقيل: هو الضيف، ـ عن قتادة ـ.

﴿فَرِيضَةً مِنْ اللهِ﴾ أي: مقدّرة واجبة قدّرها الله وحتمها ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بحاجة خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض عليهم، وأوجب من إخراج الصدقات، وغير ذلك.

---

[١] اللِّدة: الترب الذي وُلد وتربّىٰ معك.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ
مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

القراءة: قرأ عاصم في رواية الأعمشي [الأعشى]، والبرجمي، عن أبي بكر: قل أذنٌ خير لكم ـ بالضمّ والتنوين فيهما ـ، وهو قراءة الحسن، وقتادة، وعيسى بن عمر، وغيرهم. وقرأ الباقون: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم﴾ ـ بالإضافة ـ. وقرأ نافع: أذْن خير ـ ساكنة الذال في كل القران ـ. وقرأ حمزة وحده: ورحمةٍ للذين آمنوا ـ بالجرّ ـ. والباقون: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ـ بالرفع ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: «أُذن» في الآية، إذا خفّفت أو ثقلت، فإنّه يجوز

---

(١) تمسّك بعض العلماء بهذه الآية على حجّيّة خبر الواحد؛ لأنّ الله تعالى مدح النبيّ ﷺ بقول أخبار المؤمنين، والجواب أنّ الله تعالى مدحه بقبول عذرهم لما أظهروا الندم، لا بالإقتحام على الفتوى والحكم، وتحليل الأموال والفروج بقول واحد، وهذا نظير ماورد من حمل فعل المسلم على الصحّة، ولايدلّ على حجّيّة قوله. وقال بعضهم: إنّ ذلك إذا أفاد قوله الظنّ القويّ، وهو علم في الشرع والعرف، وهو غلط؛ لأنّ العلم هو الإعتقاد الجازم المطابق للواقع، والظنّ القويّ إن لم يلتفت الظانّ إلى إحتمال خطائه، فهو معذور بالغفلة، لا للحجّيّة، وإن إلتفت إلى ضعف سبب إعتقاده، لم يجز أن يطلق عليه العلم، بل لايطلق مع الجزم إلاّ بشبهة، كإطلاق الذهب على الصفر، وقد مضى في الآيات كثيراً نفي العلم عن عقايد الكفّار والمشركين والمقلّدين، مع جزمهم وجهادهم دونه، وقد مرّ.

أن يطلق على الجملة، وإن كانت عبارة عن جارحة منها، كما قال الخليل في الناب من الإبل، إنّه سمّيت به؛ لمكان الناب البازل، فسُمّيت الجملة كلّها به. وقالوا للرئيس: هو عين القوم، وللربيئة[١]: هو عينهم، ويجوز فيه شيء آخر، وهو أنّ الإسم يجري عليه كالوصف له، لوجود معنى ذلك الإسم فيه، كقول جرير:

تَبْدُو فَتُبْدِي جَمالاً زانَهُ خَفَرٌ ... إذا تَرَأْرَأَتِ السُّودُ العَناكِيبُ[١]

فأجرى العناكيب وصفاً عليهنّ، يريد: أنّهنّ من الحقارة والدمامة كالعناكيب.

وقال آخر:

فَلَوْ لاَ اللهُ، وَالْمُهْرُ المُفدَّىٰ ... لأُبْتَ وَأَنْتَ غِرْبالُ الإهابِ[٢]

فجعله غربالاً لكثرة الخروق فيه من آثار الطعن، وكذلك قوله: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أجرى على الجملة إسم الجارحة؛ لما أراد به من كثرة إستعماله لها في الإصغاء بها. ويجوز أن يكون فعلاً من أذن يأذن أذناً: إذا إستمع، ومنه: قوله تعالى: ﴿وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: إستمعت، وقوله: ﴿إِئْذَنْ لِي﴾ أي: استمع لي. وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبيّ يتغنّى بالقرآن». فعلى هذا يكون معناه: إنّه كثير الإستماع مثل أنف وسجح. قال أبو زيد: رجل أُذن: إذا كان يصدّق بكل ما يسمع. وقوله: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ بالإضافة، وهو الأكثر في القراءة، فمعناه: إنّه أذن خير أي: مستمع خير، وصلاح لكم، ومصغ إليه لا مستمع شرّ وفساد.

---

(١) يصف المرأة بالجمال والحيا، وأنّ ساير النساء بالنسبة إليها سود محقّرات.

(٢) الإهاب: الجلد. والاوب: الرجوع، يعني: لولا أنّ مشيّة الله تعلّقت ببقائك، لرجعت من الحرب، وجلدك كالغربال.

[١] الربيئة: الطليعة، وهو الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، والتأنيث باعتبار العين.

من قرأ: أُذن خيرٌ لكم، قال الزجّاج: معناه: من يستمع منكم، فيكون قريباً منكم قابلاً للعذر، خيرلكم. قال أبو عليّ: ومن رفع ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ كان المعنى: هو أُذن خير لكم، ورحمة، جعله الرحمة لكثرة هذا المعنى فيه، وعلى هذا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين﴾، ويجوز أن يقدّر حذف المضاف من المصدر. وأمّا الجرّ في ﴿رَحْمَةٍ﴾؛ فعلى العطف على ﴿خَيْرٍ﴾، كأنّه أُذن خيرٍ ورحمةٍ.

فإن قلت: أفيكون أُذن رحمة، فإنّ هذا لا يمتنع؛ لأنّ الأذن في معنى مستمع في الأقوال الثلاثة التي تقدّمت، فكأنّه مستمع رحمة؟ فجاز هذا، كما جاز مستمع خير، ألاترى أنّ الرحمة من الخير. فإن قلت: فهلاّ إستغنى بشمول الخير للرحمة وغيرها عن تقدير عطف الرحمة عليه؟ فالقول فيه: إنّ ذلك لا يمتنع، كما لا يمتنع ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق﴾ ثمّ خصّ، فقال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَان﴾ وإن كان قوله: ﴿خَلَق﴾ يعمّ الإنسان وغيره، فكذلك الرحمة إذا كانت من الخير، لم يمتنع أن تعطف فتخصّص الرحمة بالذكر من ضروب الخير؛ لغلبة من ذلك في وصفه كثرته، كما خصّص الإنسان بالذكر، وإن كان الخلق قد عمّه وغيره، والبعد بين الجارّ وما عطف عليه لايمنع من العطف، ألاترى أنّ من قرأ: «وقيله ياربّ» إنّما يحمله على «وعنده علم الساعة» وعلم قيله.

﴿اللغة﴾: الفرق بين الأحقّ والأصلح: إنّ الأحقّ: قد يكون من غير صفات الفعل، كقولك: زيد أحقّ بالمال. والأصلح: لا يقع هذا الموقع؛ لأنّه من صفات الفعل. وتقول: الله أحقّ بأن يطاع، ولا تقول: أصلح. والمحادّة: مجاوزة الحدّ بالمشاقّة. وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة، نظائر، وأصله: المنع. والمحادّة: ما يعتري الإنسان من النزق؛ لأنّه يمنعه من الواجب. والخزي: الهوان، وما يستحيي منه.

﴿الإعراب﴾: أُذن خير: خبر مبتدأ محذوف، ومن لم يضف جعل خيراً صفة

لأذن، واللام في قوله: ﴿يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِين﴾ على حدّ اللام في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أو على المعنى؛ لأنّ معنى يؤمن: يصدّق، فعدّى باللام، كما عدّى «مصدّقاً» به في نحو قوله: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقيل: إنّما دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق، وإيمان الأمان.

قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يحتمل أن يكون العامل في «أنَّ» أحد أمرين: إمّا أن يكون على تقدير حذف الجارّ على معنى: فلأنَّ له نار جهنّم، أو فبأنّ له نار جهنّم. وإمّا أن يكون أعاد «أنّ» الأولى على التكرير؛ للتوكيد بسبب طول الكلام، ـ عن الزجّاج ـ.

وأقول: إنّ هذا على مذهب أبي الحسن، وأبي عليّ الفارسيّ، يرتفع قوله: انّ له نار جهنّم، بظرف مضمر محذوف من هذا الموضع؛ لطول الكلام، وتقديره: فله أنّ له نار جهنّم، والمعنى: فله وجوب نار جهنّم. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: فأمره أو وشأنه، أنّ له نار جهنّم. ولا يجوز أن يرتفع بفعل مضمر؛ لأنّ الفعل لا يقع بعد الفاء في جواب الشرط، وإنّما يدخل الفاء في جواب الشرط، إذا كان مبتدأ، أو خبراً، أو جملة فعليّة غير خبريّة، نحو قوله: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ﴾ هذا مذهب سيبويه. قال الزجّاج: ولو قرىء: فإنّ له ـ بكسر الهمزة على وجه الاستئناف ـ، لكان جائزاً، فيكون كقولك: فله نار جهنّم، غير أنّه لم يقرأ به أحد.

﴿النَّزُولِ﴾: قيل نزلت في جماعة من المنافقين، منهم الجلاس بن سويد، وشأس بن قيس، ومخشى بن حمير، ورفاعة بن عبد المنذر، وغيرهم، قالوا ما لا ينبغي، فقال رجل منهم: لا تفعلوا، فإنّا نخاف أن يبلغ محمّداً ما تقولون، فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثمّ نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنّ محمّداً أُذن سامعة، فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت في رجل من المنافقين، يقال له نبتل بن الحرث، وكان

رجلاً أدلم، أحمر العينين، أَسفع الخدّين[١]، مشوّه الخلقة، وكان ينم حديث النبيّ ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل. فقال: إنّما محمّد أُذن، من حدثه شيئاً صدّقه، نقول ما شئنا، ثمّ نأتيه ونحلف له فيصدّقنا، وهو الذي قال فيه النبيّ ﷺ: من أراد أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحرث، ـ عن محمّد بن إسحاق، وغيره ـ.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قيل: إنّها نزلت في رهط من المنافقين، تخلّفوا عن غزوة تبوك، فلمّا رجع رسول الله ﷺ من تبوك، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلّفهم، ويعتلون ويحلفون، فنزلت الآية، ـ عن مقاتل، والكلبي ـ. وقيل: في جلاس بن سويد وغيره من المنافقين، قالوا: لئن كان ما يقول محمّد حقّاً، فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس، فقال: والله! إنّ ما يقول محمّد حقّ، وأنتم شرّ من الحمير، ثمّ أتى النبيّ ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم، فحلفوا أنّ عامراً كذّاب، فنزلت الآية، ـ عن قتادة، والسدّي ـ.

المعنى: ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر المنافقين، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ والأذى قد يكون بالفعل، وقد يكون بالقول، وهو هنا بالقول. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ معناه: إنّه يستمع إلى ما يقال له، ويصغي إليه، ويقبله.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي: هو أُذن خير، يستمع إلى ما هو خير لكم، وهو الوحي. وقيل: معناه: هو يسمع الخير، ويعمل به. ومن قرأ: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ فمعناه: قل كونه أُذناً أصلح لكم؛ لأنّه يقبل عذركم، ويستمع إليكم، ولو لم يقبل عذركم لكان شرّاً لكم، فكيف تعيبونه بما هو خير لكم وأصلح؟

---

[١] الأسفع: أسود اللون إلى حمرة.

﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: إنّه لا يضرّه كونه أُذناً، فإنّه أُذن خير، فلا يقبل إلاّ الخير الصادق من الله، ويصدّق المؤمنين أيضاً فيما يخبرونه، ويقبل منهم دون المنافقين، ـ عن ابن عباس ـ، فإيمانه للمؤمنين تصديقه لهم على هذا القول. وقيل: يؤمن للمؤمنين أي: يؤمنهم فيما يلقي إليهم من الأمان، ولا يؤمن للمنافقين بل يكونون على خوف، وإن حلفوا.

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: وهو رحمة لهم؛ لأنّهم إنّما نالوا الإيمان بهدايته، ودعائه إيّاهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أخبر سبحانه أنّ هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أنّ الذي بلغكم عنهم باطل؛ إعتذاراً إليكم؛ وطلباً لمرضاتكم.

﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ أي: والله ورسوله أحقّ وأولى بأن يطلبوا مرضاتهما ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين بالله، مقرّين بنبوّة نبيّه محمّد ﷺ. وتقديره: والله أحقّ أن يرضوه، ورسوله أحقّ أن يرضوه، فحذف للتخفيف، ولدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا، وَأَنْتَ بِمَا ... عِنْدَكَ رَاضٍ، والرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

والمعنى: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض.

ثمّ قال سبحانه على وجه التقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: وما يعلموا ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: من تجاوز حدود الله التي أمر المكلّفين ألاّ يتجاوزوها، وإنّما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ لمن لا يعلم على وجه الإستبطاء لهم، والتخلّف عن عمله أي: هلّا علموا بعد أن مكّنوا من عمله. وقيل: هو أمر بالعلم أي: يجب أن يعلموا بهذا الخبر، وبالدلائل. وقيل: معناه: ألم يخبرهم النبيّ ﷺ بذلك، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾ أي: دائماً ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ﴾ أي: الهوان والذلّ ﴿الْعَظِيمُ﴾.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا[1] إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

القراءة: قرأ عاصم: «إن نعف ونعذّب» فيهما بالنون، «طائفة» بالنصب. وقرأ الباقون: «أن يُعفَ» ـ بالياء وضمّها وفتح الفاء ـ. «تُعَذَّبْ» ـ بالتاء وضمّها ـ، «طائفة» بالرفع.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ: إن نعف: قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾، ومن قرأ: أن يعف، فالمعنى: معنى نعف. وأمّا تُعذّب ـ بالتاء ـ؛ فلأنّ الفعل في اللفظ مسند إلى مؤنّث ظاهر.

اللغة: الحذر، إعداد ما ينفي الضرر، ورجل حذر؛ متيقّظ متحرّز، ورجل حِذْريان: كثير الحذر، شديد الفزغ. والمنافق: الذي يظهر من الإيمان خلاف ما يبطنه من الكفر، مشتقّ من نافقاء اليربوع؛ لأنّه يخفي باباً، ويظهر باباً؛ ليكون إذا أتي من أحدهما، خرج من الآخر. والخوض: دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء

---

(١) إذا وقف حمزة على «إستهزؤا» ففيه وجوه: الأوّل: حذف الهمزة ونقل ضمّها إلى الزاء، والثاني: تسهيلها كالواو، والثالث: إبدالها ياء. ومضى حكم «يستهزؤن».

والطين، ثمّ كثر حتى أستعمل في غيره. واللعب: فعل ما فيه سقوط المنزلة لتعجل اللذّة، كفعل الصبي، ولذلك قالوا: ملاعب الأسنة أي: إنّه لشجاعته يقدم على الأسنة كفعل الصبي الذي لايفكر في عاقبة أمره. والإعتذار: إظهار ما يقتضي العذر. والإجرام: الإنقطاع عن الحقّ إلى الباطل. يقال: جرم الثمر: إذا صرمه، وتجرّمت السنة: تصرّمت.

النزول: قيل: نزلت في إثنى عشر رجلاً، وقفوا على العقبة؛ ليفتكوا برسول الله ﷺ، عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره أن يرسل إليهم، ويضرب وجوه رواحلهم، وعمّار كان يقود دابّة رسول الله ﷺ، وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: إضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم. فلمّا نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: إنّه فلان وفلان حتى عدّهم كلّهم. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب، لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، ـ عن ابن كيسان ـ. وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله، إلاّ أنّه قال: إئتمروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول إنّا كنّا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن نقتله.

وقيل: إنّ جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يظنّ هذا الرجل أنْ يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات! فأطلع الله نبيّه ﷺ على ذلك، فقال: إحبسوا علي الركب. فدعاهم، فقال لهم: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: يا نبيّ الله إنّما كنّا نخوض ونعلب، وحلفوا على ذلك، فنزلت الآية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ (الخ) ـ عن الحسن، وقتادة ـ.

وقيل: كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة، وكان بين يديه أربعة نفر، أو ثلاثة، يستهزؤون ويضحكون، وأحدهم يضحك ولا يتكلّم، فنزل جبريل، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فدعا عمّار بن ياسر، وقال: إنّ هؤلاء

يستهزؤون بي وبالقرآن، أخبرني جبرائيل بذلك، ولئن سألتهم ليقولنّ كنّا نتحدّث بحديث الركب، فأتبعهم عمّار، وقال لهم: ممَّ تضحكون؟ قالوا: نتحدّث بحديث الركب. فقال عمّار: صدق الله ورسوله، [احترقتم] أحرقكم الله. فأقبلوا إلى النبيّ ﷺ يعتذرون، فأنزل الله تعالى الآيات، ـ عن الكلبي، وعليّ بن إبراهيم، وأبي حمزة ـ.

وقيل: إنّ رجلاً قال في غزوة تبوك: ما رأيت أكذب لساناً، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء ـ يعني رسول الله وأصحابه ـ فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنّك منافق. وأراد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فجاء وقد سبقه الوحي. فجاء الرجل معتذراً، وقال: إنّما كنّا نخوض ونلعب، ففيه نزلت الآية، ـ عن ابن عمر، وزيد بن أسلم، ومحمّد بن كعب ـ. وقيل: إنّ رجلاً من المنافقين قال: يحدّثنا محمّد: أنّ ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يدريه ما الغيب! فنزلت الآية، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: نزلت في عبدالله بن أُبيّ، ورهطه، ـ عن الضحّاك ـ.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عنهم، قال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إنّه إخبار بأنّهم يخافون أن يفشوا سرائرهم، ويحذرون ذلك، ـ عن الحسن، ومجاهد، والجبائي، وأكثر المفسّرين ـ. والمعنى: إنّهم يحذرون من أن ينزّل الله عليهم أي: على النبيّ ﷺ والمؤمنين، سورة تخبر عمّا في قلوبهم من النفاق والشرك. وقد قيل: إنّ ذلك الحذر إنّما أظهره على وجه الإستهزاء، لا على سبيل التصديق؛ لأنّهم حين رأوا رسول الله ﷺ، ينطق في كل شيء، عن الوحي، قال بعضهم لبعض: إحذروا أن لا ينزل وحي فيكم، يتناجون بذلك، ويضحكون، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّهم كانوا يخافون أن يكون عليه السلام، صادقاً، فينزل عليه الوحي، فيفتضحون، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّهم كانوا يقولون القول فيما بينهم، ثمّ يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرّنا، ـ عن مجاهد ـ.

والثاني: إنّ هذا اللفظ، لفظه الخبر، ومعناه الأمر، فهو كقولك: ليحذر

المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تخبرهم بما في قلوبهم من النفاق، وحسن ذلك؛ لأنّ موضع الكلام على التهديد ﴿قُلْ اسْتَهْزِئُوا﴾ معناه: قل يا محمّد لهؤلاء المنافقين: إستهزءوا أي: أطلبوا الهزء، وهو وعيد بلفظ الأمر.

﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: مظهر ما تحذرون من ظهوره. والمعنى: إنّ الله يبيّن لنبيّه باطن حالكم، ونفاقكم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ عن طعنهم في الدين، وإستهزائهم بالنبيّ ﷺ وبالمسلمين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ والكلام للتأكيد والقسم، ومعناه: لقالوا كنّا نخوض خوض الركب في الطريق، لا على طريق الجدّ، ولكن على طريق اللعب واللهو، فكان عذرهم أشدّ من جرمهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ﴾ أي: حججه، وبيّناته، وكتابه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمّد ﷺ ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: فإنّكم بما فعلتموه قد كفرتم بعد أن كنتم مظهرين الإيمان الذي يحكم لمن أظهره بأنّه مؤمن، ولا يجوز أن يكونوا مؤمنين على الحقيقة، مستحقّين للثواب، ثمّ يرتدّون على ما تقرّر بالدليل. وذكر في غير هذا الموضع، أنّ المؤمن لا يجوز أن يكفر.

﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين مصرّين على النفاق. هذا إخبار منه سبحانه، أنّه إن عفا عن قوم منهم إذا تابوا، يعذّب طائفة أخرى لم يتوبوا، وأقاموا على النفاق. والطائفة: إسم للجماعة على الحقيقة؛ لأنّه إسم لما يطيف بغيره، ويحيط به، وقد سمّي الواحد طائفة على معنى أنّها نفس طائفة، وقد ورد القرآن بذلك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد ورد في الآثار عن أئمّتنا عليهم السلام: إنّ أقلّ من يحضر [يحذر] عذابهما واحد من المؤمنين فصاعداً. وروي أنّ هاتين الطائفتين كانوا ثلاثة نفر، فهذا إثنان

وضحك واحد، وهو الذي تاب من نفاقه، وإسمه مخشى بن حمير، فعفا الله عنه.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ
ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟
بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ (١)

(اللغة): الإستمتاع: طلب المتعة، وهي فعل ما فيه اللذّة من المأكل،

---

(١) إذا وقف حمزة على «نبأ» أبدل الهمزة ألفاً، أو سهّلها بين بين مع الروم. وأسكن سين «رسلهم» أبو عمرو.

والمشرب، والمناكح. والخلاق: النصيب. سواء كان عاجلاً أو آجلاً. وقال الزجّاج: النصيب الذي هو عند صاحبه وافر الحظّ. والمؤتفكات: جمع مؤتفكة، قد إئتفكت بهم الأرض أي: إنقلبت.

﴿الإعراب﴾: موضع الكاف من قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ نصب أي: وعدكم الله على الكفر به، كما وعد الذين من قبلكم. والكاف في قوله: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ﴾ و ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾: نصب؛ بأنّه صفة لمصدر محذوف، وتقديره: إستمتعتم إستمتاعاً، مثل إستمتاعهم، وخضتم خوضاً مثل خوضهم، قال جامع العلوم النجوي البصير: كالذي خاضوا، تقديره: على قياس قول سيبويه كالذي خاضوا فيه، فحذف «في»، فصار كالذي خاضوه، ثمّ حذف الهاء. وعلى قول يونس والأخفش: «الذي» مصدري، والتقدير: كالخوض الذي خاضوا فيه، ومثل هذا إختلافهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ على قول سيبويه، تقديره: يبشّر الله به. على قول يونس والأخفش ذلك تبشير الله عباده.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه أحوال أهل النفاق، فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم من جملة بعض، وبعضهم مضاف إلى بعض في الإجتماع على النفاق والشرك، كما تقول: أنا من فلان وفلان منّي، أي: أمرنا واحد، وكلمتنا واحدة. وقيل: معناه: بعضها على دين بعض، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: بعضهم من بعض على لحوق مقت الله بهم جميعاً، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ أي: بالشرك والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الأفعال الحسنة التي أمر الله بها، وحثّ عليها.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكون أموالهم عن إنفاقها في طاعة الله ومرضاته، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: معناه: يمسكون أيديهم عن الجهاد في سبيل الله، ـ عن الجبائي ـ.

﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعته فتركهم في النار، وترك رحمتهم وإثابتهم، ـ عن الأصمّ ـ. وقيل: معناه: جعلوا الله كالمنسيّ، حيث لم يتفكّروا في أنّ لهم صانعاً يثيبهم، ويعاقبهم؛ ليمنعهم ذلك عن الكفر والأفعال القبيحة، فجعلهم سبحانه في حكم المنسيّ عن الثواب، وذكر ذلك لازدواج الكلام؛ لأنّ النسيان لا يجوز عليه تعالى.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وعن طاعته. وقيل: الفاسقون: المتردّدون في الشرك ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أخبر سبحانه أنّه وعد الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، النار، وكذلك الكفّار، وإنّما فصل النفاق من الكفر، وإن كان النفاق كفراً؛ ليبيّن الوعيد على كل واحد من الصنفين.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين فيها. ﴿هِيَ حَسْبُهُم﴾ معناه: نار جهنّم، والعقاب فيها كفاية ذنوبهم، كما يقول عذبتك حسب ما فعلت، وحسب فلان ما نزل به، أي: ذلك على قدر فعله ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي: أبعدهم من جنّته وخيره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم﴾ أي: دائم لا يزول.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: وعدكم على النفاق والإستهزاء، كما وعد الذين من قبلكم من الكفّار الذين فعلوا مثل فعلكم، ـ عن الزجّاج، والجبائي ـ. وقيل: معناه: فعلكم كفعل الذين من قبلكم من كفّار الأمم الخالية.

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وحلّ بهم عذاب الله تعالى.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي: بنصيبهم وحظّهم من الدنيا، بأن صرفوها في شهواتهم المحرّمة عليهم، وفيما نهاهم الله عنه، ثمّ أهلكوا.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي: فإستمتعتم أنتم أيضاً بحظّكم في الدنيا، كما إستمتعوا هُمْ ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: وخضتم في الكفر والإستهزاء بالمؤمنين، كما خوض الأوّلون.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي تقع طاعة من المؤمنين، مثل الإنفاق في وجوه الخير، وصلة الرحم، وغيرها ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إذ لم يستحقّوا عليها ثواباً في الآخرة، ولا تعظيماً وتبجيلاً في الدنيا؛ لكفرهم؛ وشركهم.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا أنفسهم وأهلكوها بفعل المعاصي المؤدّية إلى الهلاك.

ووردت الرواية عن ابن عباس، أنّه قال في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة كالذين من قبلكم، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلاّ أنّه قال: والذي نفسي بيده! لتتبعنّهم حتى لو دخل الرجل منهم حُجر ضبّ لدخلتموه.

وروي مثل ذلك عن أبي هريرة، عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ قال: لتأخذنّ كما أخذت الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتى لو أنّ أحداً من أولئك دخل حجر ضبّ، لدخلتموه! قالوا: يا رسول الله! كما صنعت فارس، والروم، وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلاّ هم؟ وقال عبدالله بن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل، سمتاً وهدياً[١]، تتبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة[٢]، غير أنّي لا أدري أتعبدون العجل أم لا. وقال حذيفة: المنافقون الذين

---

[١] السمت: الهيئة. والهدي: السيرة والطريقة.

[٢] القذة: ريش السهم. قال ابن الأثير في معنى الحديث: يضرب مثلاً للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان.

فيكم اليوم، شرّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. قلنا: وكيف؟ قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم، وهؤلاء أَعلنوه. أَورد ذلك جميعاً الثعلبي في تفسيره.

ثمّ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي: ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خبر من كان قبلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾: ذكر سبحانه الأمم الماضية، والقرون السالفة، وأنّه سبحانه أهلكها، ودمّر عليها؛ لتكذيبها رسلها؛ لئلاّ يأمنوا أن ينزل بهم، مثل ما نزل بأولئك، فأهلك سبحانه قوم نوح بالغرق، وعاداً قوم هود بالريح الصرصر، وثمود قوم صالح بالرجفة، وقوم إبراهيم بسلب النعمة وهلاك نمرود، وأصحاب مدين وهي البلدة التي فيها قوم شعيب بعذاب يوم الظلّة. وقيل: إنّ مدين إسم نسبت البلدة إليه، وقد مرّ ذكره.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي: المنقلبات، وهي ثلاث قرى، كان فيها قوم لوط، ولذلك جمعها بالألف والتاء، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقال في موضع آخر: [المؤتفكة أهوى] ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ فجاء بها على طريق الجنس، أَهلكهم الله بالخسف و [بالخيف]، وقلب المدينة عليهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والمعجزات.

﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ما يظلمهم الله بإهلاكهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ولكن عاقبهم بإستحقاق؛ إذ كذّبوا رسل الله كما فعلتم، فأهلكهم بكفرهم وعصيانهم.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ (١) مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

اللغة: العدن والإقامة والخلود، نظائر. ومنه: المعدن، وقال الأعشى:

فَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إلىٰ حُكْمِهِ ... يُضَافُوا إلىٰ رَاجِحٍ قَدْ عَدَنَ (٢)

والرضوان: مصدر رضي يرضَى رِضىً ورضواناً. والجهاد: ممارسة الأمر الشاقّ. وأصله من الجهد.

المعنى: لمّا ذكر الله تعالى المنافقين، ووصفهم بقبيح خصالهم، إقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين، ويصفهم بضدّ أوصافهم؛ ليتّصل الكلام بما قبله إتّصال النقيض بالنقيض، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: [بعضهم] أنصار بعض، يلزم كل واحد منهم نصرة صاحبه وموالاته، حتى أنّ المرأة

---

(١) رُضوان: بضمّ الراء، عن أبي بكر.

(٢) الإستضافة: رفع الدعوى، يعني: إن رضوا بحكمه، ورفعوا الدعوى إليه، رفعوها إلى رجل عاقل مستقيم راسخ.

تهيّىء أَسباب السفر لزوجها إذا خرج، وتحفظ غيبة زوجها، وهم يد واحدة على من سواهم.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما أوجب الله فعله، أو رغَّب فيه عقلاً أو شرعاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ وهو ما نهى الله عن فعله، وزهد فيه، عقلاً أو شرعاً.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يداومون على فعل الصلاة، وإخراج الزكاة من أموالهم، ووضعها حيث أمر الله تعالى بوضعها فيه، ويمتثلون طاعة الله ورسوله، ويبتغون إرادتهما ورضاهما.

﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللهُ﴾ أي: الذين هذه صفتهم يرحمهم الله في الآخرة ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قادر على الرحمة والعذاب، واضع كل واحد منهما موضعه.

وفي الآية دلالة على أنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الأعيان؛ لأنّه جعلهما من صفات جميع المؤمنين، ولم يخصّ قوماً منهم دون قوم.

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار، والماء فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ يطيب العيش فيها، بناها الله تعالى من اللآلىء، والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر، لا أذى فيها، ولا وصب[١]، ولا نصب، ـ عن الحسن ـ.

﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: في جنّات إقامة وخلد. وقيل: هي بطنان الجنّة، أي: وسطها، ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: هي مدينة في الجنّة، وفيها الرسل، والأنبياء، والشهداء، وأئمّة الهدى، والناس حولهم، والجنان حولها، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: إنّ عدناً أعلى درجة في الجنّة. وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من يوم خلقها الله عزّوجلّ، حتى ينزلها أهلها

---

[١] الوصب: المرض، والتعب، والوجع الدائم.

الأنبياء، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون، ومن شاء الله. وفيها قصور الدرّ، واليواقيت، والذهب، فتهب ريح طيّبة من تحت العرش، فتدخل عليهم كشبان المسك الأبيض، ـ عن مقاتل، والكلبي ـ. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: عدن: دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيّين والصدّيقين، والشهداء، يقول الله عزّوجلّ: طوبى لمن دخلك.

﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ أَكْبَرُ﴾ رفع على الإبتداء، أي: ورضا الله تعالى عنهم أكبر من ذلك كلّه. قال الجبائي: إنّما صار الرضوان أكبر من الثواب؛ لأنّه لا يوجد شيء منه إلاّ بالرضوان، وهو الداعي إليه، الموجب له. وقال الحسن: لأنّ ما يصل إلى القلب من السرور برضوان الله، أكبر من جميع ذلك، وإنّما رفع رضوان؛ لأنّه إستأنفه للتعظيم، كما يقول القائل: أَعطيتك ووصلتك، ثمّ يقول: وحسن رأيي فيك، ورضاي عنك، خير من جميع ذلك.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك النعيم الذي وصفت، هو النجاح العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

ثمّ أمر سبحانه بالجهاد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف، والقتال ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾: وإختلفوا في كيفيّة جهاد المنافقين، فقيل: إن جهادهم باللسان، والوعظ، والتخويف ـ عن الجبائي ـ. وقيل: جهادهم بإقامة الحدود عليهم، وكان نصيبهم من الحدود أكثر. وقيل: هو بالأنواع الثلاثة بحسب الإمكان، يريد باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، فإن لم يقدر فليكفهرّ في وجوههم[١]، ـ عن ابن مسعود ـ. وروي في قراءة أهل البيت: جاهد الكفّار بالمنافقين، قالوا: لأنّ النبيّ ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين، وإنّما كان يتألّفهم؛ لأنّ المنافقين لا يظهرون الكفر، وعلم الله تعالى بكفرهم لا يبيح قتلهم، إذا كانوا

---

[١] اكفهرَّ: عبس.

يظهرون الإيمان.

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ومعناه: وأسمعهم الكلام الغليظ الشديد، ولا ترقّ عليهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: منزلهم ومقامهم ومسكنهم جهنّم، يريد مأوى الفريقين ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المرجع والمأوى.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

اللغة: الهمّ: مقارنة الفعل بتقليبه في النفس. تقول: همَّ بالشيء يهُمّ، همّاً. وليس الهمّ من العزم في شيء، إلاّ أن يبلغ نهاية القوّة في النفس. والنيل: لحوق الأمر. يقال: نال ما إشتهى، أو تمنّى، أي: أدركه. ونقم منه شيئاً أي: أنكر. قال [١]:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

أي: شتموا. والفضل: الزيادة في الخير على مقدار مّا. وأمّا التفضّل: فهو الزيادة من الخير، الذي كان للقادر عليه أَنْ يفعله، وأَنْ لا يفعله.

النزول: أُختلف في من نزلت فيه هذه الآية، فقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان جالساً في ظلّ شجرة، فقال: إنّه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعيني الشيطان. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فإنطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا: فأنزل الله هذه

---

[١] قائله: ابن قيس الرقيات.

الآية، ـ عن ابن عبّاس ـ.

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ، إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض، سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: ما هذا الذي بلغني عنكم؟ فحلفوا بالله ما قالوا شيئاً من ذلك، ـ عن الضحّاك ـ.

وقيل: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أنّ رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً، وعابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول، فنحن شرّ من الحمير! فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل والله! إنّ محمّداً ﷺ لصادق، وأنتم شرّ من الحمير! فلمّا إنصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه عامر بن قيس، فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله، فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند المنبر. فقام الجلاس عند المنبر، فحلف بالله ما قال، ثمّ قام عامر، فحلف بالله لقد قاله، ثمّ قال: أللهمّ أنزل على نبيّك الصادق منّا [مِن الصادق] الصدق. فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين. فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرّقا بهذه الآية، حتى بلغ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ فقام الجلاس، فقال، يا رسول الله! أَسمع الله قد عرض عليَّ التوبة، صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد قلته، وأنا أستغفرالله، وأتوب إليه. فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه، ـ عن الكلبي، ومحمّد بن إسحاق، ومجاهد ـ.

وقيل: نزلت في عبدالله بن أُبيّ بن سلول، حين قال: لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلّ، ـ عن قتادة ـ. وقيل: نزلت في أهل العقبة، فإنّهم إئتمروا في أن يغتالوا رسول الله ﷺ في عقبة عند مرجعهم من تبوك، وأرادوا أن يقطعوا انساع[١] راحلته، ثم ينخسوا به، فأطلعه الله تعالى على ذلك، وكان من

---

[١] النِسع: حبل طويل تشدّ به الرحال.

جملة معجزاته؛ لأن لا يمكن معرفة ذلك إلاّ بوحي من الله تعالى. فسار رسول الله ﷺ في العقبة، وعمّار وحذيفة معه، أحدهما يقود ناقته، والآخر يسوقها، وأمر الناس كلّهم بسلوك بطن الوادي. وكان الذين همّوا بقتله إثني عشر رجلاً، أو خمسة عشر رجلاً، على الخلاف فيه، عرفهم رسول الله ﷺ، وسمّاهم بأسمائهم، واحداً واحداً، ـ عن الزجّاج، والواقدي، والكلبي ـ. والقصّة مشروحة في كتاب الواقدي. وقال الباقر عليه السلام: كانت ثمانية منهم من قريش، وأربعة من العرب.

المعنى: ثمّ أظهر سبحانه أسرار المنافقين، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا﴾ يعني: أنّهم حلفوا كاذبين ما قالوا ما حكي عنهم. ثّم حقّق عليهم ذلك، وأقسم سبحانه بأنّهم قالوا ذلك؛ لأنّ اللام في ﴿لَقَدْ قَالُوا﴾ لام القسم و﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ كل كلمة فيها جحد لنعم الله تعالى. وكانوا يطعنون فى الإسلام.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: بعد إظهار إسلامهم، يعني: ظهر كفرهم بعد أن كان باطناً.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: إنّهم همّوا بقتل النبيّ ﷺ ليلة العقبة، والتنفير بناقته، ـ عن الكلبي، ومجاهد، وغيرهما ـ وثانيها: إنّهم همّوا بإخراج الرسول من المدينة، فلم يبلغوا ذلك، ـ عن قتادة، والسدّي ـ وثالثها: إنّهم همّوا بالفساد والتضريب بين أصحابه، ولم ينالوا ذلك، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ معناه: إنّهم عملوا بضدّ الواجب، فجعلوا موضع شكر النعمة أَنْ نقموها، وبيانه: أنّهم نقموا فيما ليس بموضع للنقمة، فإنّه لم يكن للمسلمين ذنب ينقمونه منهم، بل الله تعالى أباح لهم الغنائم، وأغناهم بذلك، فقابلوا النعمة بالكفران، وكان من حقّهم أن يقابلوها بالشكر. وقد مرّ هذا المعنى عند قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ الآية في سورة المائدة، وإنّما لم يقل من فضلهما؛ لأنّه لا يجمع بين إسم الله وإسم غيره في الكناية؛

تعظيماً لله، ولذلك قال النبيّ ﷺ لمن سمعه يقول: «من أطاع الله ورسوله فقد إهتدى، ومن عصاهما فقد غوى»: بئس خطيب القوم أنت! فقال كيف أقول يا رسول الله ﷺ؟ قال قل: «ومن يعص الله ورسوله»، وهكذا القول في قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقَّ أَنْ يُرْضُوه﴾ وقيل: إنّما لم يقل: من فضلهما؛ لأنّ فضل الله سبحانه منه، وفضل رسول الله من فضل الله.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي: فإن يتب هؤلاء المنافقون، ويرجعوا إلى الحقّ، يكن ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة، فإنّهم ينالون بذلك رضا الله ورسوله والجنّة.

﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أي: يعرضوا عن الرجوع إلى الحقّ، وسلوك الطريق المستقيم ﴿يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ مؤلماً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من الحسرة، والغمّ، وسوء الذكر ﴿وَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس لهم في الأرض ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: محبّ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم، ويدفع عنهم عذاب الله.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

(اللغة): المعاهدة: هي أن تقول: عليَّ عهد الله لأفعلنّ كذا، فإنّه يكون

بذلك قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره؛ لأنّ الله تعالى قد حكم بذلك، وقدّر وجوبه عليه في الشرع. والبخل: منع السائل لشدّة الإعطاء، ثمّ صار في الشرع لمنع الواجب؛ لأنّ من منع الزكاة فهو بخيل. قال الرماني: لا يجوز أَنْ يكون البخل منع الواجب لمشقّة الإعطاء، كمال قال زهير:

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَا ... كِنَّ الْجَوادَ عَلىٰ عَلاّته حَرَمِ[1]

قال: لأنّه يلزم على ذلك أن يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقّة الإعطاء، وكان قضى ديناً من قضى ديناً عليه يكون جواداً؛ لأنّه أدّى الواجب من غير مشقّة، وإنّما قال زهير ما قاله؛ لأنّ البخل صفة نقص. قال: ومن منع ما لا يضرّه بذله، ولا ينفعه منعه، ممّا تدعوا إليه الحكمة، فهو بخيل؛ لأنّه لا يقع المنع على هذه الصفة، إلاّ لشدّة في النفس، وإن لم يرجع إلى ضرّ إذ الشدّة من غير ضرّ معقولة، كما يصفون الجوزة بأنها لئيمة لأجل الشدّة. وأعقبه وأورثه وأدّاه، نظائر، وقد يكون «أَعقبه» بمعنى: جازاه، قال النابغة[1]:

فَمَنْ أَطَاعَ فَأَعْقِبْهُ بِطَاعَتِهِ ... كَمَا أَطَاعَكَ وَادْلُلْهُ عَلَى الرَّشَدِ

وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبْهُ مُعَاقَبَةً ... تَنْهَى الظَّلُومَ، ولاَ تَقْعُدْ علىٰ ضَمَدِ[2]

والنجوى: الكلام الخفيّ، يقال: ناجيته، وتناجوا، وانتجوا، وفلان نجيّ

---

(١) العَلاّت: بفتح العين أو بكسرها ـ يعني: أنّ البخيل، وإن بلغ في ساير صفاته مبلغ الكمال، ملوم. والجواد، وإن كان ناقصاً في سجاياه الأخر، وجيه ذو حرمة.

(٢) يخاطب النعمان بن منذر، ويقول: من أطاعك فاجعل عاقبة طاعته الخير، كما أطاعك، وليكن فعلك مثالاً له على فعل الخير، فيقتدى بفعالك، ومن عصاك فعاقبه بمقدار مايوجب تنبّهه وتركه العصيان، لا بمقدار شفاء الغيظ وإطفاء نائرة الحقد.

[١] النابغة: شاعر مخضرم أقام في بلاط الملوك اللخميين في الحيرة ثم سار على رأس قبيلته فقدم خضوعه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ساهم في فتح فارس وناصر الإمام علي عليه السلام في صفّين توفي في أصفهان سنة (٥٦٥ هـ ـ ٦٨٤ م).

فلان. والجمع: أنجية، قال[١]:

إِنِّـي إذا مـا القَـوْمُ كـانُوا أنْـجِيَة وَاضْطَرَبَ الْقَوْمُ اضْطِرابَ الأرْشِيَة(١)

وأصله من النجوى: وهو البعد، كأنّ المتناجيين قد تباعدا من غيرهما. وقيل: هو من النجوة: أي المكان المترفع الذي لا يصل إليه السيل، فكأنّهما رفعا [رجعا] حديثهما إلى حيث لا يصل إليه غيرهما.

الإعراب: معنى «لمّا» معنى «إذا»؛ لأنّ «لمّا» الغالب عليها الجزاء، وهي إسم يقع في جواب «متى»، يقال: متى كان كذا؟ فيقول السامع: لمّا كان كذا، و«لمّا ولولا» يكونان لما مضى، بخلاف «إنْ وإذا»؛ فإنّهما لما يستقبل، إلاّ أنّ «لولا» على تقدير نفي وجوب الثاني لإنتفاء الأوّل، و«لمّا» يدلّ على وقوع الثاني لوقوع الأوّل. ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ المفعول الثاني محذوف، تقديره: فلمّا آتاهم ما تمنّوه من فضله، «لَنَصَّدَّقَنَّ» أصله: لنتصدّقنّ، أُدغمت التاء في الصاد.

النزول: قيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبيّ ﷺ: أُدع الله أن يرزقني مالاً. فقال: يا ثعلبة! قليل تؤدّي شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أُسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده! لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضّة، لسارت، ثم أتاه بعد ذلك، فقال: يا رسول الله أُدع الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حقّ حقّه! فقال ﷺ: أللهمّ أرزق ثعلبة مالاً. قال: فاتّخذ غنماً، فنمت كما ينموا الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثمّ كثرت نموّاً حتى تباعد عن المدينة، فإشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل، وقال: ما هذه إلاّ أخت الجزية! فقال رسول

---

(١) يعني: إذا تشاور القوم، وإضطربوا كإضطراب الحبل في البئر. وخبر «إنّ» في البيت بعده.

[١] قائله: سحيم بن وثيل اليربوعي.

الله ﷺ: يا ويح ثعلبة! وأنزل الله الآيات، ـ عن أبي أمامة الباهلي ـ وروي ذلك مرفوعاً.

وقيل: إنّ ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار، فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله تصدّقت، وآتيت كل ذي حقّ حقّه، ووصلت منه القرابة فإبتلاه الله، فمات ابن عمّ له، فورثه مالاً، ولم يف بما قال، فنزلت، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة ـ.

وقيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وهما من بني عمرو بن عوف، قالا: لئن رزقنا الله مالاً، لنصَّدَّقنَّ. فلمّا رزقهما الله المال، بخلا به، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ وقيل: نزلت في رجال من المنافقين: نبتل بن الحارث، وجدّ بن قيس، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ـ عن الضحّاك ـ وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، كان له مال بالشام، فأبطأ عليه، وجهد جهداً شديداً، فحلف لئن آتاه الله ذلك المال، ليصدّقنّ. فآتاه الله تعالى ذلك، فلم يفعل، ـ عن الكلبي ـ

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عنهم، فقال: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من جملة المنافقين الذين تقدَّم ذكرهم ﴿مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لئن أعطانا من رزقه ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ أي: لنتصدّقنّ على الفقراء ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ بإنفاقه في طاعة الله، وصلة الرحم، ومؤاساة أهل الحاجة.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: أعطاهم ما إقترحوه، ورزقهم ما تمنّوه من الأموال ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ أي: شحّت نفوسهم عن الوفاء بالعهد، ومنعوا حقّ الله منه ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن فعل ما أمرهم الله به ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن دين الله تعالى.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فأورثهم بخلهم بما أوجبوا الله تعالى على أنفسهم النفاق في قلوبهم، وأدّاهم إلى ذلك، ـ عن الحسن ـ، كأنّهم حصلوا على النفاق بسبب البخل، وهكذا كمن يقول لإبنه: أَعقبك صحبة فلان ترك التعلّم. وقيل:

معناه: أعقبهم الله بذلك حرمان التوبة، كما حرم إبليس، ـ عن مجاهد ـ. وأراد بذلك أنّه لا [دلّنا على أنّه] يتوب، كما دلّنا من حال إبليس على أنّه لا يتوب؛ لاأنّه [لا أنّه] سلب عنه قدرة التوبة.

﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يلقون جزاء البخل، فذكر البخل وأراد به جزاءه كقوله سبحانه: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ وعلى القول الثاني، فمعناه: إلى يوم يلقون الله أي: اليوم لا يملك فيه النفع والضرّ إلاّ الله تعالى.

وهذا إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المنافقين، أنّهم يموتون على النفاق، وكان ذلك معجزة للنبي ﷺ؛ لأنّه خرج مخبره على وفق خبره.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بيّن سبحانه أنّ هذا إنّما أصابهم بفعلهم السيّء، وهو إخلافهم الوعد، وكذبهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ أي: ما يخفون في أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتناجون به بينهم. وهذا استفهام يراد به التوبيخ. المعنى: إنّه يجب عليهم أن يعلموا ذلك ﴿وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ جمع غيب: وهو كل ما غاب عن الإحساس [الأجسام]. ومعناه: يعلم كل ما غاب عن العباد، وعن إدراكهم، من موجود أو معدوم، من كل وجه يصحّ أن يعلم منه؛ لأنّ «علاّم» [فعّالاً] صيغة مبالغة.

وفي قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، دلالة على أنّ بعض المعاصي، قد يدعوا إلى بعض بأنّهم لمّا تهاونوا بأداء هذا الحقّ، دعاهم ذلك إلى الثبات على النفاق إلى الممات، وكذلك يدعو بعض الطاعات إلى بعض، وعلى ذلك ترتيب الشرائع، وفيه دلالة على أنّ الإخلاف، والخيانة، والكذب، من أخلاق أهل النفاق، وقد صحّ في الحديث عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا إئتمن خان».

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

(اللغة): المطّوّع: أصله: المتطوّع، أدغمت التاء في الطاء؛ لأنّها من مخرجها، والطاء أفضل منها، بالإستعلاء والإطباق. والتطوّع: كل فعل يستحقّ المدح بفعله، ولا يستحقّ الذمّ بتركه. ونظيره: النافلة، والفضيلة.

الجَهد والجُهد، بمعنى، وهو الحمل على النفس بما يشقّ. وقيل: بينهما فرق، والجَهد :ـ بالفتح ـ في العمل، وبالضمّ في القوت، ـ عن الشعبي ـ وقيل: الجَهد ـ بالفتح ـ: المشقّة، وبالضمّ: الطاعة، ـ عن القتيبي ـ.

(الإعراب): يجوز أن يكون موضع ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ جرّاً؛ بأن يكون بدلاً من الهاء والميم في قوله: ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله﴾. ويحتمل أن يكون رفعاً؛ على الابتداء، وخبره: ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾. وهذا أولى. وقوله: ﴿فِي الصَّدَقَات﴾ من صلة ﴿يَلْمِزُونَ﴾، ولا يكون من صلة ﴿المُطَّوِّعِينَ﴾؛ لأنّه فصَّل بينهما. قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ ﴿وَالَّذينَ لاَ يَجِدُون﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾.

(المعنى): ثمّ وصفهم الله بصفة أخرى، فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوّعين بالصدقة ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويطعنون عليهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: ويعيبون الذين لا يجدون إلاّ طاقتهم، فيتصدّقون بالقليل. قيل: اتاه عبد الرحمن بن عوف بصُرَّة من دراهم، تملأ

الكفّ، وأتاه عقبة بن زيد الحارثي بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله! عملت في النخل بصاعين، فصاعاً تركته لأهلي، وصاعاً أقرضته ربّي. وجاء زيد بن أسلم بصدقة، فقال معتب بن قشير، وعبدالله بن نبتل: إنّ عبدالرحمن رجل يحبّ الريا، ويبتغي الذكر بذلك، وإنّ الله غنيّ عن الصاع من التمر، فعابوا المكثر بالريا، والمقلّ بالإقلال.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: فيستهزؤون منهم ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُم﴾ أي: جازاهم جزاء سخريّتهم، حيث صاروا إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع مؤلم. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه سئل، فقيل: يا رسول الله! أيّ الصدقة أفضل؟ قال جهد المقلّ[١].

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ صيغته صيغة الأمر، والمراد به: المبالغة في الأياس من المغفرة، بأنّه لو طلبها طلب المأمور بها، أو تركها ترك المنهيّ عنها، لكان ذلك سواء في أنّ الله تعالى لا يفعلها، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ﴾.

﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ الوجه في تعليق الإستغفار بسبعين مرّة: المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل: «لو قلت لي ألف مرّة ما قبلت». والمراد: أنّي لا أقبل منك، فكذلك الآية. والمراد بذلك فيها: نفي الغفران جملة.

وقيل: إنّ العرب تبالغ بالسبعة والسبعين، ولهذا قيل للأسد: السبع؛ لأنّهم تأوّلوا فيه؛ لقوّته أنّها ضوعفت له سبع مرّات. وأمّا ما ورد أنّ النبيّ ﷺ قال: والله لأزيدنّ عن السبعين، فإنّه خبر واحد لا يعوّل عليه، ولا يتضمّن أنّ النبيّ ﷺ يستغفر للكفّار، وذلك غير جائز بالإجماع. وقد روي أنّه قال: لو علمت أنّه لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم، لفعلت.

ويحتمل أن يكون النبيّ ﷺ يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به، فعزم

---

[١] أي قدر ما يحتمله حال القليل المال.

على الإستغفار لهم. فلمّا بيّن الله عزّ إسمه أنّه ليس لهم لطف ترك ذلك[١]. ويحتمل أن يكون قد إستغفر لهم قبل أن يعلم بكفرهم ونفاقهم. ويحتمل أن يكون قد إستغفر لهم قبل أن يخبر بأنّ الكفّار لا يغفر له، أو قبل أن يمنع منه، ويجوز أن يكون إستغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة من الكفر، فمنعه اللّه منه، وأخبره بأنهّم لا يؤمنون أبداً فلا فائدة في الإستغفار لهم، والله أعلم بحقيقة الأمر.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ معناه: إنّ حرمان المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ مرّ معناه.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

اللغة: المُخَلَّف: المتروك خلف من مضى. ومثله: المُؤَخّر عمّن مضى.

---

(١) يتضمّن كلامه أموراً: الأوّل: إنّ خبر الواحد ليس بحجّة في هذه الأمور، وإنّما قال بحجّيّته من قال بها فيما يتعلّق بالعمل، وهذا ممّا يتعلّق بأصول الدين، والعقائد. والثاني: إنّه تمسّك بالإجماع على تأويل مضمون الحديث. والثالث: إنّ اللطف واجب على الله، وإن لم نعلم أنّه لطف، وقد لايكون في شيء لطف، ونحن نتصوّره لطفاً، ولايجب على الله، وهذا كلّه ظاهر. وربما تجد في كلام المعاصرين ما يخالفه.

(٢) ياء «معي» في الموضعين، ممّا إختلفوا في فتحها وسكونها.

والفرح: ضدُّ الغمّ، وهو لذّة في القلب بنيل المشتهى. ومثله: السرور. وقال البصريّون من المعتزلة: إنّ السرور والغمّ يرجعان إلى الإعتقاد، فالسرور: إعتقاد وصول منفعة إليه في المستقبل، أو دفع ضرر مظنون عنه، أو معلوم، والغمّ: إعتقاد وصول ضرر إليه في المستقبل، أو فوت منفعة عنه، وإليه ذهب المرتضى ﷺ. والخلاف: مصدر خالفته مخالفة وخلافاً. وزعم أبو عبيدة أنّ معناه بعد. وأنشد[١]:

عَفَتِ الربوعُ[١] خِلافَهُم، فَكَأَنَّما بَسَطَ الشَّواطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصيراً

والشواطب: النساء يقددن الأديم بعد ما يقدرنه. والخالف: كل من تأخّر عن الشاخص. والمتخلّف بمعناه. والضحك حال تفتح، وإنبساط يظهر في وجه الإنسان عن تعجّب مع فرح. والبكاء: حال تقبض، يظهر عن غمّ في الوجه، مع جري الدموع على الخدّ.

الإعراب: خلاف: نصب على المصدر، بمعنى المفعول له، إذا جعلته بمعنى المخالفة. وإذا جعلته بمعنى خلف، فهو نصب على الظرف. فليضحكوا: إنّما سكنت لا الأمر، ولم تسكن لام الإضافة؛ لأنّها تؤذن بعلمها للجرّ المناسب لها، فلذلك ألزمت الحركة، مع أنّ العوامل في الأسماء، أقوى من العوامل في الأفعال. جزاءً: نصب على المصدر أي: يجزون جزاءً على أفعالهم التي اكتسبوها.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه أنّ جماعة من المنافقين الذين خلّفهم النبيّ ﷺ، ولم يخرجهم معه إلى تبوك، إستأذنوه في التأخّر، فأذن لهم، فرحوا بقعودهم، فقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم عن الجهاد ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللهِ﴾ أي: بعده. وقيل: معناه: لمخالفتهم النبيّ ﷺ.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ظاهر المعنى

---

(١) في نسخة: عقب الربيع.

[١] قائله: الحارث بن خالد المخزومي.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: قالوا للمسلمين ليصدّوهم عن الغزو ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: لا تخرجوا إلى الغزو سراعاً في هذا الحرّ. وقيل: بل معناه: قال بعضهم لبعض ذلك؛ طلباً للراحة والدعة، وعدولاً عن تحمّل المشاقّ في طاعة الله، ومرضاته.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي وجبت لهم بالتخلّف عن أمر الله تعالى ﴿أَشَدُّ حَرّاً﴾ من هذا الحرّ، فهي أولى بالإحتراز والحذر عنها؛ إذ لا يعتدّ بهذا الحرّ في جنب ذلك الحرّ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أوامر الله تعالى، ووعده ووعيده.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ هذا تهديد لهم في صورة الأمر أي: فليضحك هؤلاء النافقون في الدنيا قليلاً؛ لأنّ ذلك يفنى، وإن دام إلى الموت، ولأنّ الضحك في الدنيا قليل؛ لكثرة أحزانهاوهمومها، وليبكوا كثيراً في الآخرة؛ لأنّ ذلك يوم مقداره خمسون ألف سنة، وهم فيه يبكون، فصار بكاؤهم كثيراً.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر، والنفاق، والتخلّف، بغير عذر عن الجهاد، قال ابن عباس: إنّ أهل النفاق ليبكون في النار عمر الدنيا، فلا يرقأ لهم دمع، ولا يكتحلون بنوم. وروي أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ﴾ يا محمّد أي: فإن ردّك الله من غزوتك هذه، وسفرك هذا، ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين الذين تخلّفوا عنك، وعن الخروج معك ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَداً﴾ إلى غزوة ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوّاً﴾.

ثمّ بيّن سبحانه سبب ذلك، فقال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: عن غزوة تبوك.

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ في كل غزوة[1]. وأُختلف في المراد بالخالفين،

---

(١) هذا من أخبار الغيب، ومعجزات القرآن؛ لأنّ غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله ﷺ.

فقيل: معناه: مع النساء والصبيان، ـ عن الحسن، والضحّاك ـ وقيل: مع الرجال الذين تخلّفوا من غير عذر، ـ عن ابن عباس ـ وقيل: مع المخالفين. قال الفرّاء: يقال: عبد خالف: وصاحب خالف: إذا كان مخالفاً. وقيل: مع الخساس والأدنياء، يقال: فلان خالفة أهله: إذا كان أدونهم. وقيل: مع أهل الفساد من قولهم: خلف الرجل على أهله، يخلف خلوفاً: إذا فسد. ونبيذ خالف أي: فاسد. وخلف فم الصائم: إذا تغيّرت ريحه. وقيل: مع المرضى وألزمنى، وكل من تأخّر لنقص، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (١)

﴿الإعراب﴾: «مات»: جملة في موضع جرّ؛ صفة «لأحد»، وتقديره: على أحد ميّت منهم. و«أبداً»: منصوب؛ لأنّه ظرف لقوله: تصلّ، وإنّما كسر «إنّ» من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ وإن كان في موضع التعليل؛ لتحقيق الإخبار بأنّهم على الصفة التي ذكرها.

﴿المعنى﴾: ثمّ نهى سبحانه نبيّه ﷺ عن الصلاة عليهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ

---

(١) الآية تدلّ على أنّ الموتى ينتفعون بدعاء الأحياء لهم، وبالعبادات عنهم تبرّعاً، وغير ذلك، ولكن ذلك تفضّل من الله غير مستحقّ، والثواب أعني: مايستحقّ العبد بفعله إنّما هو للحيّ فقط، بمقتضى قواعد أهل العدل، وإجماع الإماميّة. والحاصل أنّ مايصل إلى الميّت في الآخرة ثلاثة أقسام: ثواب، وعوض، وتفضّل، ومن لم يفرق بينها قال: إنّ ثواب عبادات الأحياء للميّت. وليس كذلك، بل الثواب للحيّ، وما للميّت تفضّل.

يا محمّد ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَاتَ أَبَداً﴾ أي: بعد موته فإنّه عليه السلام، كان يصلّي عليهم، ويجرى عليهم أحكام المسلمين.

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ أي: لا تقف على قبره للدعاء، فإنّه عليه السلام كان إذا صلّى على ميّت، يقف على قبره ساعة، ويدعو له، فنهاه الله تعالى عن الصلوة على المنافقين، والوقوف على قبورهم، والدعاء لهم.

ثمّ بيّن سبحانه سبب الأمرين، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فما صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك على منافق، حتى قبض. وفي هذه الآية دلالة على أنّ القيام على القبر للدعاء، عبادة مشروعة، ولو لا ذلك لم يخصّ سبحانه بالنهي عنه الكافر. وروي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم صلّى على عبدالله بن أُبيّ، وألبسه قميصه قبل أن ينهى عن الصلوة على المنافقين، ـ عن ابن عباس، وجابر، وقتادة ـ.

وقيل: إنّه صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يصلّي عليه، فأخذ جبرائيل بثوبه، وتلا عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ الآية، ـ عن أنس، والحسن ـ.

وروي أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لم وجّهت بقميصك إليه يكفن فيه، وهو كافر؟ فقال: إنّ قميصي لن تغني عنه من الله شيئاً، وإنيّ أُؤمل من الله أن يدخل بهذا السبب في الإسلام خلق كثير. فروي أنّه أسلم ألف من الخزرج، لمّا رأوه يطلب الإستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ذكره الزجّاج، قال: والأكثر في الرواية، أنّه لم يصلّ عليه.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد به: الأمّة. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم، وبما يأخذها منهم المسلمون على وجه الغنيمة، وبما يشقّ عليهم من إخراجها في الزكاة والإنفاق في سبيل الله، مع إعتقادهم بطلان الإسلام، فيشدّ عليهم فيكون ذلك عذاباً لهم.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تهلك بالموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: في حال كفرهم. وقد مضى تفسير مثل هذه الآية، وإنّما كرّر للتذكير في موطنين، مع بعد أحدهما عن الآخر، ويجوز أن يكون الآيتان في فريقين من المنافقين، فيكون كما يقول القائل: لاتعجبك حال زيد، ولاتعجبك حال عمرو، ـ عن الجبائي ـ.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ[1] أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

(اللغة): قال الزجّاج: الخوالف: النساء؛ لتخلّفهنَّ عن الجهاد، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال. والخالف والخالفة: الذي هو غير نجيب، ولم يأت في فاعل، «فواعل» صفة إلاّ في حرفين، قالوا: فارس وفوارس، وهالك وهوالك. والطبع والختم، بمعنى واحد. والخيرات: المنافع التي تسكن النفس إليها، وترتاح لها من النساء الحسان، وغيرهنّ من نعيم الجنان، واحدها: خيرة. قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبِلاتِ ... رَبِلاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكاتِ[2]

---

(١) أدغم «أنزلت سورة» أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وهشام.

(٢) الربلة: اللحم السمين، ولحم أطراف فرج المرأة، وثديها. وهند من أسامي النساء، وكرّر ذكر الربلات؛ إذ أراد فرجها، والطعن فيه معلوم مقتبس وملفّق من أبيات لطرفة في وصف الخيل.

وقال المبرّد: الخيرات: الجواري الفاضلات، جمع خيرة. وقيل: يجوز أن يكون «خيّرة» بالتشديد، فخفّفت نحو: هيّن وهين. والإعداد. جعل الشيء مهيّئاً لغيره، وأصله من العدد؛ لأنّه قد عدّد الله جميع ما يحتاج إلى تقديمه له من الأمور، ومثله إتّخاذ الأعتاد.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ في موضع نصب، بحذف حرف الجرّ، على تقدير: بأن آمنوا أي: بالإيمان، ولا يجوز الحذف مع صريح المصدر.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه تمام أخبار المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على محمّد ﷺ ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللهِ﴾ أي: بأن آمنوا، وهو خطاب للمؤمنين، وأمر لهم، بأن يدوموا على الإيمان، ويتمسّكوا به في مستقبل الأوقات، ويدخل فيه المنافق، ويتناوله الأمر بأن يستألف الإيمان، ويترك النفاق.

﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي: أخرجوا إلى الجهاد معه، فكأنّه قال: آمنوا أنتم وادعوا إلى الإيمان غيركم ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ أي: طلب الإذن منك في القعود ﴿أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ أي: أو لوا المال، والقدرة، والغنى، ـ عن ابن عباس وغيره ـ. ﴿مِنْهُم﴾ أي: من المنافقين.

﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ أي: دعنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: المتخلّفين عن الجهاد من النساء والصبيان، وإنّما لحق هؤلاء الذمّ؛ لأنّهم أقوى على الجهاد.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: رضوا لنفوسهم أن يقعدوا مع النساء، والصبيان، والمرضى، والمقعدين ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ذكرنا معنى الطبع فيما تقدّم، قال الحسن: هؤلاء قوم قد بلغوا الحدّ الذي من بلغه مات قلبه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أوامر الله ونواهيه، ولا يتدبّرون الأدلّة.

ثمّ مدح النبيّ ﷺ والمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ ينفقونها في سبيل الله ومرضاته ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ يقاتلون الكفّار. ثمّ أخبر سبحانه عمّا أعدّ لهم من الجزاء على إنقيادهم لله ورسوله ﷺ

فقال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ من الجنّة ونعيمها. وقيل: الخيرات: المنافع والمدح والتعظيم في الدنيا، والثواب والجنّة في الآخرة.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بالوصول إلى البغية ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ﴾ أي: هيّأ وخلق لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مضى تفسيره في غير موضع.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم ذكره ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز: النجاة من الهلكة إلى حال النعمة، وسميّت المهلكة مفازة، تفاؤلاً لها بالنجاة، وإنّما وصفه بالعظيم؛ لأنّه حاصل على وجه الدوام، وبالإعزاز، والإجلال، والإكرام.

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

القراءة: قرأ يعقوب وقتيبة: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ ـ بسكون العين، وتخفيف الذال ـ وهي قراءة ابن عباس، والضحّاك، ومجاهد. والباقون: بفتح العين، وتشديد الذال.

الحجّة: من قرأ بالتخفيف: أراد الذين يأتون بالعذر. ومن قرأ بالتشديد: إحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون المراد: المتعذّرون كان لهم عذر، أو لم يكن، وإنّما أُدغم التاء في الذال؛ لقرب مخرجهما. والثاني: إنّه أراد المقصّرون من التعذير، فالمعذر: المقصّر الذي يريك أنّه معذور ولا عذر له. والمعذر: المبالغ الذي له عذر. والمعتذر: يقال لمن له عذر، ولمن لا عذر له، قال لبيد: «ومن يبك حولاً كاملاً فقد إعتذر» أي: أتى بعذر.

المعنى: لمّا تقدّم حديث المخلّفين، صنّف الله تعالى الأعراب منهم صنفين، فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أي: المقصّرون الذي يعتذرون، وليس لهم عذر، ـ عن أكثر المفسّرين ـ. وقيل: هم المعتذّرون الذين لهم عذر، وهم نفر من بني غفار، عن ابن عباس قال: ويدلّ عليه قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ

﴿كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فعطف الكاذبين عليهم، فدلّ ذلك على أنّ الأوّلين في إعتذارهم صادقون.

وقيل: معناه: الذين يتصوّرون بصورة أهل العذر، وليسوا كذلك ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلّف، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعدت طائفة من المنافقين من غير أن إعتذروا، وهم الذين كذبوا فيما كانوا يظهرونه من الإيمان ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو عمرو بن العلافي هذه الآية: كلا الفريقين كان مسيئاً، جاء قوم فعذروا، وجنح آخرون فقعدوا، يريد: أنّ قوماً تكلّفوا عذراً بالباطل، وتخلّف آخرون من غير تكلّف عذر، وإظهار علّة؛ جرأة على الله، ورسوله ﷺ.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

اللغة: النصح: إخلاص العمل من الغشّ. والحمل: إعطاء المركوب من

فرس، أو بعير، أو غير ذلك. تقول: حمله يحمله حملاً: إذا أعطاه ما يحمل عليه. قال:

أَلاَ فَتىً عِنْدَهُ حُفانِ يَحْمِلُني ... عَلَيْهِما، إِنّني شَيْخٌ عَلىٰ سَفَرِ

والفيض: الجري عن إمتلاء، وقولهم: فاض الإناء بما فيه. والحزن: ألم في القلب بفوت أمر. مأخوذ من حزن الأرض، وهي الأرض الغليظة المسلك.

الإعراب: حزناً: نصب لأنّه مفعول له، أي: يبكون للحزن. لا يجدوا: منصوب بأنْ، وموضع «أَنْ لا يجدوا» نصب، تقديره: لأن لا يجدوا، حذف الجارّ، فوصل الفعل.

النزول: قيل: إنّ الآية الأولى نزلت في عبدالله بن زائدة، وهو ابن أمّ مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله! إنّي شيخ ضرير، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلّف عن الجهاد؟ فسكت النبيّ ﷺ فأنزل الله الآية، ـ عن الضحّاك ـ وقيل: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه، ـ عن قتادة ـ.

والآية الثانية نزلت في البكّائين، وهم سبعة نفر، منهم: عبد الرحمن بن كعب، وعتبة بن زيد، وعمرو بن غنمة، وهؤلاء من بني النجّار، وسالم بن عمير، وهرم بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو بن عوف، وعبدالله بن معقل، من مزينة، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إحملنا فإنّه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: لا أجد ما أَحملكم عليه، ـ عن أبي حمزة الثمالي ـ.

وقيل: نزلت في سبعة نفر من قبائل شتّى، أتوا النبيّ ﷺ فقالوا له، إحملنا على الخفاف، والبغال [النعال]، ـ عن محمّد بن كعب، وابن إسحاق ـ. وقيل: كانوا جماعة من مزينة، ـ عن مجاهد ـ.

وقيل: كانوا سبعة من فقراء الأنصار، فلمّا بكوا حمل عثمان منهم رجلين،

والعباس بن عبدالمطلب رجلين، ويامين بن كعب النضري ثلاثة، عن الواقدي، قال: وكان الناس بتبوك مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً، منهم عشرة آلاف فارس.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه أهل العذر، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ وهم الذين قوّتهم ناقصة بالزمانة والعجز، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم الذين لا يقدرون على الخروج ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾: وهم أصحاب العلل المانعة من الخروج.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ يعني: من ليست معه نفقة الخروج، وآلة السفر ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق وجناح في التخلّف، وترك الخروج مع رسول الله ﷺ ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن يخلصوا العمل من الغشّ.

ثمّ قال سبحانه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس على من فعل الحسن الجميل، في التخلّف عن الجهاد، طريق للتقريع فى الدنيا، والعذاب في الآخرة. وقيل: هو عامّ فى كل محسن، والإحسان: هو إيصال النفع إلى الغير؛ لينتفع به من تعريه من وجوه القبح، ويصحّ أن يحسن الإنسان إلى نفسه، ويحمد على ذلك، وهو إذا فعل الأفعال الجميلة التي يستحقّ بها المدح والثواب.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: ساتر على ذوي الأعذار بقبول العذر منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم لا يلزمهم ما فوق طاقتهم.

ثمّ عطف عليه، فقال: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: ولا على الذين إذا جاءوك يسألونك مركباً يركبونه، فيخرجون معك إلى الجهاد؛ إذ ليس معهم من الأموال والظهر ما يمكنهم الخروج به في سبيل الله ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد مركباً تركبونه، ولا ما أُسوّي به أمركم.

﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: رجعوا عنك، وأعينهم تسيل بالدمع؛ لحزنهم أَنْ لا يجدوا ما يركبونه من الدوابّ، وينفقونه

في الطريق؛ ليخرجوا معكم، ولحرصهم على الخروج. المعنى: وليس على هؤلاء أيضاً حرج في التخلّف عن الجهاد، وليس عليهم سبيل للذمّ والعقاب.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ والطريق بالعقاب، والحرج ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ أي: يطلبون الإذن منك يا محمّد في المقام، وهم مع ذلك أغنياء، متمكّنون من الجهاد في سبيل الله.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ من النساء، والصبيان، ومن لا حراك به ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قد تقدّم بيانه.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

النزول: قيل: نزلت الآيات في جدّ بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، ولمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة راجعاً من تبوك قال: لا تجالسوهم، ولا تكلّموهم، ـ عن ابن عباس ـ وقيل: نزلت في عبدالله بن أُبيّ، حلف للنبيّ ﷺ أَنْ لا يتخلّف عنه بعدها، وطلب إلى النبيّ ﷺ أَنْ

يرضى عنه، ـ عن مقاتل ـ.

المعنى: ثمّ أخبر الله سبحانه عن هؤلاء القوم، الذين تأخّروا عن الخروج مع النبيّ ﷺ فقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ من تأخّرهم عنكم بالأباطيل والكذب، ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إذا إنصرفتم إلى المدينة من غزوة تبوك.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لسنا نصدّقكم على ما تقولون ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أخبرنا الله وأعلمنا من أخباركم، وحقيقة أمركم ما علمنا به كذبكم. وقيل: إنّه أراد به قوله سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾ الآية.

﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيعلم الله فيما بعد، ورسوله، عملكم، هل تتوبون من نفاقكم؟ أم تقيمون عليه؟ وقيل: معناه: سيعلم الله أعمالكم وعزائمكم في المستقبل، ويظهر ذلك لرسوله، فيعلمه الرسول بإعلامه إيّاه، فيصير كالشيء المرئي؛ لأنّ أظهر ما يكون الشيء أن يكون مرئيّاً، كما علم ذلك في الماضي، فأعلم به الرسول ﷺ.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ترجعون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما غاب وما حضر، وما يخفى عليه السرّ والعلانية.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يخبركم بأعمالكم كلّها، حسنها وقبيحها، فيجازيكم عليها أجمع ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ﴾ أي: سيقسم هؤلاء المنافقون والمتخلّفون فيما يعتذرون به إليكم أيّها المؤمنون ﴿إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أنّهم إنّما تخلّفوا لعذر ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لتصفحوا عن جرمهم، ولا توبّخوهم، ولا تعنفوهم.

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ والمؤمنين، فقال: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: إعراض ردّ وإنكار، وتكذيب، ومقت.

ثمّ بيّن عن سبب الإعراض، فقال: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: نجس، ومعناه: إنّهم كالشيء المنتن الذي يجب الإجتناب عنه، فإجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم ومستقرّهم جهنّم ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصي.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: طلباً لمرضاتكم عنهم أيّها المؤمنون ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ لجهلكم بحالهم ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين من طاعته إلى معصيته؛ لعلمه بحالهم، ومعناه: إنّه لا ينفعهم رضاكم عنهم، مع سخط الله عليهم، وإرتفاع رضاه عنهم، وإنّما قال سبحانه ذلك؛ لئلاّ يتوهّم أنّه إذا رضي المؤمنون، فقد رضي الله، والمراد بذلك: أنّه إذا كان الله لا يرضى عنهم، فينبغي لكم أيضاً أن لا ترضوا عنهم.

وفي هذا دلالة على أنّ من طلب بفعله رضا الناس، ولم يطلب رضا الله سبحانه، فإنّ الله يسخط الناس عليه، كما جاء في الحديث، عن النبيّ ﷺ: أنّه قال من إلتمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن إلتمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟
حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ
عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: دَائِرَةُ السَّوْءِ ـ بضمّ السين ـ وفي سورة

الفتح مثله. والباقون: بفتح السين. وقرأ ورش، وإسماعيل، عن نافع: قُرُبة ـ بضمّ الراء ـ والباقون: قُرْبة ـ بسكون الراء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: «الدائرة» لا تخلو إمّا أن تكون صفة، أو بمنزلة العاقبة، والعافية. والصفة أكثر في الكلام، فينبغي أن يحمل عليها. فالمعنى: عليها أنّها خلة تحيط بالإنسان، حتى لا يكون له منها مخلص، وأُضيفت إلى السَوْء، أو إلى السُوء على الوجهين، على وجه التأكيد، والزيادة فى التبيين، ولو لم تضف لعلم هذا المعنى منها، كما أنّ نحو قوله: شمس النهار كذلك. والسوء: الرداءة والفساد، وهو خلاف الصدق الذي في قولك: ثوب صدق، وليس الصدق من صدق اللسان، كما أنّ السوء ليس من «سُؤْتُهُ» في المعنى، وإن كان اللفظ واحداً، يدلّك على ذلك أنّك أضفته إلى ما لا يجوز عليه الصدق والكذب في الأخبار.

وأمّا «دائرة السُوء» ـ بالضمّة ـ، فكقولك: دائرة الهزيمة، ودائرة البلاء، فاجتمعا في جواز إضافة الدائرة إليهما، من حيث أريد بكل واحد منهما الرداءة والفساد. فمن قال: دائرة السوء، فتقديره: الإضافة إلى الرداءة والفساد. ومن قال: دائرة السوء، فتقديره: دائرة الضرر والمكروه، من قولهم: سُؤْتُهُ مساءة ومسائية. والمعنيان متقاربان، قال أبوالحسن: دائرة السوء، كما تقول: رجل السوء. وأنشد[١]:

وَكُنْتَ كَذِئبِ السُّوْءِ لَمَّا رَأَى دَماً ... بِصاحِبِهِ يَوْماً أَحالَ عَلى الدَّم[١]

وأمّا قوله: قربة، فالأصل: حركة الراء، والإسكان للتخفيف، كما في الرسل،

---

(١) قال العلامة الدميري ماحاصله: إنّ الذئاب إذا إجتمعت على إنسان، وأدمى الإنسان واحداً منها، وثب الباقون على المدمى، فمزقوه، وتركوا الإنسان. وقال بعض الشعراء يعاتب صديقاً له، وكان قد أعان عليه في أمر نزل به، وكنت كذئب البيت، وبهذا يتّضح معنى البيت.

[١] قائله: الفرزدق.

والكتب، والأذن، والطنب. وأمّا قربات: فينبغي أن يثقل؛ لأنّه إذا ثقل ما أصله التخفيف نحو: الظلمات والغرفات، فإن تقرّ الحركة الثابتة في الكلمة الواحدة أَجدر. ومثل قولهم: قُرْبة وقُرُبة، يُسْرة ويُسُرة [يُسُرة]، هُدْنة وهُدُنة، ـ حكاه محمّد بن يزيد ـ.

اللغة: رجل عربيّ: إذا كان من العرب، وإن سكن البلاد، ورجل أعرابي: إذا كان ساكناً في البادية. والعرب صنفان: عدنانيّة وقحطانيّة، والفضل للعدنانيّة برسول الله ﷺ. وأَجدر: مأخوذ من جَدْر الحائط ـ بسكون الدال ـ، وهو أصله وأساسه. والمغرم: الغرم، وهو نزول نائبة بالمال من غير خيانة، وأصله لزوم الأمر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي: لازماً. وحبّ غرام: أي لازم.

والغريم: يقال لكل واحد من المتداينين، للزوم أحدهما الآخر. وغرمته كذا أي: ألزمته إيّاه في ماله. والتربّص: الإنتظار. ومنه: التربّص بالطعام لزيادة الأسعار، وأصله: التمسّك بالشيء لعاقبة. والدائر [الدوائر] : جمع دائرة، هي من حوادث الدهر. وقيل: الحال المنقلبة عن النعمة إلى البليّة. والدائرة: الدولة. والقربة: هي طلب الثواب، والكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة.

الإعراب: ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا﴾ أَنْ: في موضع نصب؛ لأنّ الباء محذوفة. والمعنى: أجدر بترك العلم، تقول: أنت جدير أن تفعل، وجدير بأن تفعل، أي: هذا الفعل ميّسر لك. وإذا حذفت الباء لم يصلح إلاّ بأنْ، وإنْ ثبتت الباء، صلح بـ«أنْ» وغيرها، تقول: أنت جدير بأن تقوم، وجدير بالقيام، وإنّما صلح مع «أَنْ» الحذف؛ لأنّ «أنْ» تدلّ على الإستقبال، فكأنّهما عوض من المحذوف.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على قوله: ما ينفق، وموضعه نصب، وتقديره: ويتّخذ النفقة، وصلوات الرسول قربات. وقيل: «صلوات» معطوف على «قربات» على معنى: يطلبون بالإنفاق قربة الله، وصلوات الرسول، ـ عن الجبائي ـ

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المنافقين، بيّن سبحانه أنّ الأعراب منهم، أشدّ في ذلك وأكثر جهلاً، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ يريد: الأعراب الذين كانوا حول المدينة، وإنّما كان كفرهم أشدّ؛ لأنّهم أقسى وأجفى من أهل المدن، وهم أيضاً أبعد من سماع التنزيل، وإنذار الرسل، ـ عن الزجّاج ـ. ومعناه: أنّ سكّان البوادي إذا كانوا كفّاراً، أو منافقين، فهم أشدُّ كفراً من أهل الحضر؛ لبعدهم عن مواضع العلم، وإستماع الحجج، ومشاهدة المعجزات، وبركات الوحي.

﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى وأولى بأن لا يعلموا حدود الله في الفرائض والسنن، والحلال والحرام ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم به عليهم.

﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً﴾ أي: ومن منافقي الأعراب من يَعُدُّ ما ينفق في الجهاد، وفي سبيل الخير، مغرماً لَحِقَه؛ لأنّه لا يرجو به ثواباً.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ﴾ أي: وينتظر بكم الدوائر أي: صروف الزمان، وحوادث الأيّام، والعواقب المذمومة. قال الزجّاج، والفراء: كانوا يتربّصون بهم الموت، أو القتل، فكانوا ينتظرون موت النبيّ ﷺ، ليرجعوا إلى دين المشركين. وأكثر ما يستعمل الدائرة في زوال النعمة إلى الشدّة، والعافية إلى البلاء، ويقولون كانت الدائرة عليهم، وكانت الدائرة لهم.

ثمّ ردّ سبحانه ذلك عليهم، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: على هؤلاء المنافقين دائرة البلاء، يعني: أن ما ينتظرون بكم هؤلاء حقّ بهم، وهم المغلوبون أبداً ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم لا يخفى عليه شيء من حالاتهم.

ثمّ ميزّ سبحانه من الأعراب المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ومنهم من يرجع إلى سلامه الإعتقاد في التصديق بالله، وبالقيامة، والجنّة والنار.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ﴾ أي: ويريد بنفقته في الجهاد، وغير ذلك من أعمال البرّ. قربات: جمع قربة، وهي الطاعة أي: طاعات عند الله، وتعظيم أمره، ورعاية حقّه. وقيل: معناه: يتقرّب إلى الله بإنفاقه، ويطلب بذلك ثوابه، ورضاه.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعاؤه بالخير والبركة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إستغفاره، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. ومعناه: إنّه يرغب في دعاء النبيّ ﷺ ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ معناه: ألا إنّ صلوات الرسول قربة لهم، تقرّبهم إلى ثواب الله، ويجوز أن يكون المعنى: إنّ نفقتهم قربة لهم إلى الله.

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا وعد منه سبحانه بأن يرحمهم، ويدخلهم الجنّة. وفيه مبالغة بأنّ الرحمة غمرتهم ووسعتهم ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته، وهما من ألفاظ المبالغة في الوصف بالمغفرة، والرحمة.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

القراءة: قرأ يعقوب: والأنصارُ ـ بالرفع ـ، وهي قراءة عمر بن الخطاب، والحسن، وقتادة. والقراءة المشهورة: والأَنصارِ ـ بالجرّ ـ وقرأ ابن كثير وحده: من تحتها ـ بزيادة «من» ـ وكذلك هو في مصاحف مكّة. وقرأ الباقون: تحتها ـ بغير «من» ـ، وعليه سائر المصاحف. والمعنى واحد.

الحجة: من قرأ بالرفع، عطفه على قوله: «السابقون». ومن قرأ بالجرّ، عطفه على «المهاجرين». وأمّا قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ فيجوز أن

يكون معطوفاً على «الأَنصار» في رفعه وجرّه، ويجوز أن يكون معطوفاً على «السابقون» وأن يكون معطوفاً على «الأَنصار» أولى، لقربه منه.

﴿الإعراب﴾: السابقون: مبتدأ. والأوّلون: صفته. من المهاجرين: تبيين لهم. والذين إتّبعوهم: إن حملته على ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ كان مرفوعاً، وإن حملته على ﴿الْأَنصَارِ﴾ كان مجروراً. وخبر الأسماء كلّها ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. وأعدَّ لهم: عطف على ﴿رَضِيَ﴾ فالوقف على قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾.

﴿النزول﴾: قيل: نزلت هذه الآية فيمن صلّى إلى القبلتين، ـ عن سعيد بن المسيّب، والحسن، وابن سيرين، وقتادة ـ. وقيل: نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبيّة، عن الشعبي، قال: ومن أَسلم بعد ذلك وهاجر، فليس من المهاجرين الأوّلين. وقيل: هم أهل بدر، ـ عن عطاء بن رياح [رباح]. وقيل: هم الذين أسلموا قبل الهجرة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر المنافقين والكفّار، عقّبه سبحانه بذكر السابقين إلى الإيمان، فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾[1] أي: السابقون إلى الإيمان، وإلى الطاعات. وإنّما مدحهم بالسبق؛ لأنّ السابق إلى الشيء يتبعه غيره، فيكون متبوعاً، وغيره تابع له، فهو إمام فيه، وداع له إلى الخير بسبقه إليه، وكذلك من سبق إلى الشرّ يكون أَسوء حالاً لهذه العلّة.

﴿مِنْ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة، وإلى الحبشة ﴿وَالْأَنصَارِ﴾ أي: ومن الأنصار الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الإسلام. ومن قرأ: ﴿والأنصارُ﴾ ـ بالرفع ـ، لم يجعلهم من السابقين، وجعل السبق للمهاجرين خاصّة.

---

[١] جاء في شواهد التنزيل ١: ٣٣٥، عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ قال: علي بن أبي طالب، وحمزة، وعمّار، وأبو ذر، وسلمان، ومقداد.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بأفعال الخير، والدخول في الإسلام بعدهم، وسلوك مِنهاجهم، ويدخل في ذلك من يجيء بعدهم إلى يوم القيامة.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أخبر سبحانه أنّه رضي عنهم أفعالهم، ورضوا عن الله سبحانه؛ لمّا أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم، وإيمانهم به، ويقينهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: يبقون ببقاء الله منعمين ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الفلاح العظيم الذي يصغر في جنبه كل نعيم.

وفي هذه الآية دلالة على فضل السابقين، ومزيّتهم على غيرهم؛ لما لحقهم من أنواع المشقّة في نصرة الدين. فمنها: مفارقة العشائر والأقربين، ومنها: مباينة المألوف من الدين، ومنها: نصرة الإسلام، وقلّة العدد، وكثرة العدوّ، ومنها: السبق إلى الإيمان، والدعاء إليه.

وأُختلف في أوّل من أسلم من المهاجرين، فقيل: إنّ أوّل من آمن، خديجة بنت خويلد، ثمّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ـ وهو قول ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأنس، وزيد بن أرقم، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم ـ. قال أنس: بعث النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين، وصلى عليّ عليه السلام، وأسلم يوم الثلاثا. وقال مجاهد، وابن إسحاق: إنّه أسلم وهو ابن عشر سنين، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، أخذه من أبي طالب، وضمّه إلى نفسه، يربّيه في حجره، وكان معه حتى بعث نبيّاً. وقال الكلبي: إنّه أسلم وله تسع سنين. وقيل: إثنتا عشرة سنة، ـ عن أبي الأسود ـ قال السيد أبو طالب الهرويّ: وهو الصحيح.

وفي تفسير الثعلبي: روي إسماعيل بن أياس بن عفيف، عن أبيه، عن جدّه عفيف، قال: كنت إمرءاً تاجراً، فقدمت مكّة أيّام الحجّ، فنزلت على العباس بن عبد المطلّب، وكان العباس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن، يشتري العطر، فيبيعه

أيّام الموسم. فبينما أنا والعباس بمنى، إذ جاء رجل شابّ حين حلقت الشمس في السماء، فرمى ببصره إلى السماء، ثمّ إستقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام، فقام عن يمينه، فلم يلبث أَنْ جاءت إمرأة، فقامت خلفهما. فركع الشابّ، فركع الغلام والمرأة، فخرّ الشابّ ساجداً، فسجدا معه. فرفع الشابّ، فرفع الغلام والمرأة، فقلت: يا عباس! أمر عظيم! فقال: أمر عظيم! فقلت: ويحك ما هذا؟ فقال: هذا ابن أخي محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب، يزعم أنّ الله بعثه رسولاً، وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الغلام عليّ بن أبي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد وزوجة محمّد، تابعاه على دينه. وأيم الله! ما على ظهر الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء! فقال عفيف الكندي بعد ما أسلم ورسخ الإسلام في قلبه: يا ليتني كنت رابعاً.

وروي أنّ أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: أي: بنيّ! ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبه آمنت بالله ورسوله، وصدقته فيما جاء به، وصلّيت معه لله. فقال له: إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لا يدعو إلاّ إلى خير فألزمه. وروي عبدالله بن موسى، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عبادة [عباد] بن عبدالله، قال: سمعت عليّاً عليه السلام: أنا عبدالله، وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لايقولها بعدي إلاّ كذّاب مفتر، صلّيت قبل الناس بسبع سنين.

وفي مسند السيد أبي طالب الهرويّ مرفوعاً إلى أبي أيّوب، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: صلّت الملائكة عَلَيَّ، وعلى عليّ سبع سنين، وذلك أنّه لم يصلّ فيها أحد غيري وغيره. وقيل: إنّ أوّل من أسلم بعد خديجة، أبوبكر، ـ عن إبراهيم النخعي ـ وقيل: أَوّل من أسلم بعدها، زيد بن حارثة، ـ عن الزهري، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير ـ وروي الحاكم أبو القاسم الحسكاني، بإسناده مرفوعاً إلى عبدالرحمن بن عوف، في قوله سبحانه: ﴿وَالسَابِقُوْنَ الأَوَّلُوْنَ﴾ قال: هم عشرة

من قريش، أوّلهم إسلاماً عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

اللغة: حول الشيء: المحيط به. من حال يحول: إذا دار بالإنقلاب. ومنه: الحول للسنة، ولامحالة [المحالة]؛ لأنّها تدور في المحور. والمرد: أصله: الملاسة. ومنه: صرح ممرّد أي: مملّس. والأمرد: الذي لا شعر على وجهه. والمرداء: الرملة التي لا تنبت شيئاً، ـ ذكره عليّ بن عيسى ـ. وقيل: أصله: الظهور. والمارد: الذي ظهر شرّه. وشجرة مرداء: إذا تساقط ورقها، فظهرت عيدانها. ورجل أمرد: لظهور مكان الشعر منه، ـ عن ابن عرفة ـ. ومرد الرجل، يمرد، مروداً: إذا عتا وخرج من الطاعة واعياً خبثاً [خبثا]. ومنه: شيطان مارد ومريد. وفي المثل: «تمرد مارد وعز الأبلق»، وهما حصنان.

الإعراب: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾ أي: قوم مردوا، فحذف الموصوف، ويجوز أن يكون التقدير: ومن أهل المدينة منافقون، مردوا على النفاق، ففصل بين الصفة والموصوف بالظرف. ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا﴾: معطوف على قوله: ﴿مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وكذلك: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾، وإن شئت قدّرت: ومنهم آخرون.

المعنى: ثمّ عاد إلى ذكر المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ أي:

ومن جملة من حولكم، يعني: حول مدينتكم ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم الذين يسكنون البدو، إذا كانوا مطبوعين على العربيّة.

﴿مُنَافِقُونَ﴾ يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر. وقيل: إنّهم جهينة، ومزينة، وأَسلم، وأَشجع، وغفار، وكانت منازلهم حول المدينة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً منافقون. وإنّما حذف؛ لدلالة الأوّل عليه ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مرنوا على النفاق، وتجرؤوا عليه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: معناه: أقاموا عليه لم يتوبوا منه، كما تاب غيرهم، ـ عن ابن زيد، وأبان بن تغلب ـ. وقيل: معناه: لجّوا فيه، وأبوا غيره، ـ عن ابن إسحاق ـ. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: وممّن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة أيضاً مثل ذلك، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يا محمّد أي: لا تعرفهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي: نعرفهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ فيه أقوال: أحدها: إنّ معناه: نعذّبهم في الدنيا الفضيحة، فإنّ النبيّ ﷺ ذكر رجالاً منهم، وأخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته، وقال: أخرجوا فإنّكم منافقون. ويعذّبهم في القبر، ـ عن ابن عباس، والسدّي، والكلبي ـ. وقيل: مرّة في الدنيا بالسبي والقتل، ومرّة في الآخرة بعذاب القبر، ـ عن مجاهد ـ. وروي حصيف عنه: عذّبوا بالجوع مرّتين. وقيل: إحداهما: أخذ الزكاة منهم، والأُخرى: عذاب القبر،ـ عن الحسن ـ. وقيل: إحداهما: غيظهم من أهل الإسلام، والأُخرى: عذاب القبر،ـ عن ابن إسحاق ـ. وقيل: إنّ الأولى: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أَرواحهم، والأخرى: عذاب القبر. وقيل: إنّ الأولى: إقامة الحدود عليهم، والأُخرى عذاب القبر، ـ عن ابن عباس ـ. وكل ذلك محتمل، غير أنّا نعلم أنّ المرّتين معاً، قبل أن يردّوا إلى عذاب النار.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يرجعون يوم القيامة إلى عذاب مؤبّد

في النار.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعنى: من أهل المدينة، أو من الأعراب آخرون أقرّوا بذنوبهم، وليس براجع إلى المنافقين، والإعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة.

﴿خَلَطُوْا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ يعني: إنّهم يفعلون أفعالاً جميلة، ويفعلون أفعالاً سيّئة قبيحة، والتقدير: وعملاً آخر سيّئاً.

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال المفسّرون: عسى من الله واجبه [واجبته]، وإنّما قال: عسى، حتى يكونوا بين طمع وإشفاق، فيكون ذلك أبعد من الإتّكال على العفو، وإهمال التوبة. وفي هذا دلالة على بطلان القول بالإحباط؛ لأنّه لو صحّ الإحباط لكان أحد العملين إذا طرأ على الآخر أحبطه وأبطله، فلم يجتمعا، فلا يكون لقوله: ﴿خَلَطُوْا﴾ معنى. وقال بعض التابعين: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمّة من هذه الآية. وقد يستعمل لفظ الخلط في الجمع من غير إمتزاج. يقال: خلط الدراهم والدنانير. وقيل: إنّه يجري مجرى قولهم: إستوى الماء والخشبة أي: مع الخشبة. وقيل: إنّ «خلْط» ـ بالتخفيف ـ في الخير، «وخلَّط» ـ بالتشديد ـ في الشرّ.

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا تعليل لقبول التوبة من العصاة، أي: لأنّه غفور رحيم.

﴿النُّزُلِ﴾: قال أبو حمزة الثمالي[1]: بلغنا أنّهم ثلاثة نفر من الأنصار، أبو لبابة بن عبد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ، عند مخرجه إلى تبوك، فلمّا بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلّف عن نبيّه ﷺ،

---

(١) قد مرّ أنّ لأبي حمزة الثمالي تفسيراً، ذكره ابن النديم، وكانت نسخته عند المصنّف.

أيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسهم بسواري[١] المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ، فسأل عنهم، فذكر له أنّهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم، حتى يكون رسول الله ﷺ، يحلّهم، وقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم لا أكون أوّل من حلّهم إلاّ أن أؤمر فيهم بأمر، فلمّا نزل ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عمد رسول الله ﷺ، إليهم، فحلّهم، فإنطلقوا، فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا [خلقنا] عنك فخذها، وتصدّق بها عنّا. قال عليه السلام: ما أُمرت فيها. فنزل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآيات.

وقيل: إنّهم كانوا عشرة رهط، منهم: أبو لبابة، ـ عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ وقيل: كانوا ثمانية، منهم: أبو لبابة، وهلال، وكردم، وأبو قيس، ـ عن سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم ـ. وقيل: كانوا سبعة، ـ عن قتادة ـ وقيل: كانوا خمسة.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: أنّها نزلت في أبي لبابة، ولم يذكر غيره معه، وسبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة، حين قال: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح، وبه قال مجاهد. وقيل: نزلت فيه خاصّة، حين تأخّر عن النبيّ ﷺ، في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية على ما تقدّم ذكره الزهري، ثمّ قال أبو لبابة: يا رسول الله! إنّ من توبتي، أن أهجر دار قومي، التي أصبت فيها الذنب، وأنا أنخلع من مالي كلّه! قال: يجزيك يا أبا لبابة الثلث. وفي جميع الأقوال أخذ رسول الله ﷺ، ثلث أموالهم، وترك الثلثين؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ولم يقل: خذ أموالهم.

---

[١] جمع السارية: بمعنى الاسطوانة.

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: أنّ صلاتك، وفي هود: أصلاتك ـ على التوحيد ـ وقرأ الباقون: أن صلواتك، أصلواتك ـ على الجمع ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: الصلاة في اللغة: الدعاء. قال الأعشى في الخمر:

وَقَابَلَهَا الرِّيحُ فِي دَنِّهَا ... وَصَلَّى على دَنِّهَا، وَارْتَسَم[1]

فكان معنى صلِّ عليهم: أُدع لهم، فإنّ دعاءك لهم تسكن إليه نفوسهم، وتطيب به. فأمّا قولهم: صلّى الله على رسوله وملائكته، فلا يقال فيه: أنّه دعاء لهم من الله تعالى، كما لا يقال في: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ونحوه: أنّه دعاء عليهم، ولكن المعني فيه: أنّ هؤلاء ممّن يستحقّ عندكم أن يقال فيهم هذا النحو من الكلام، وكذلك قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ ويُسخرون فيمن ضمّ الياء، وهذا مذهب سيبويه، فإذا كانت الصلاة مصدراً، وقع على الجمع والمفرد على لفظ واحد، كصوت الحمير فإذا اختلف، جاز أن يجمع لإختلاف ضروبه، كما قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ﴾.

فأمّا من زعم أنّ الصلاة أولى؛ لأنّ الصلاة للكثرة، والصلوات للقليل، فلم يكن قوله متّجهاً؛ لأنّ الجمع بالتاء قد يقع على الكثير، كما يقع على القليل، كقوله:

---

(١) صلّى وإرتسم: كلمتان مترادفتان، بمعنى الدعاء.

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ﴾، فقد يقع هذا الجمع على الكثير، كما يقع على القليل.

الإعراب: قوله: تطهّرهم: إنّما إرتفع لأحد أمرين: إمّا أن يكون صفة لصدقة، ويكون التاء للتأنيث، ويكون قوله بها للتبيين، ويكون التقدير: صدقة مطهّرة، وإمّا أن يكون القاء خطاباً للنبيّ ﷺ، والتقدير: فإنّك تطهّرهم بها، فتكون صفة لصدقة أيضا، ويكون الضمير في «بها» للصدقة الموصوفة. وأمّا تزكّيهم فلا يكون إلاّ للخطاب. وقيل: إنّ «تطهّرهم» يجوز أن يكون على الإستئناف، وحمله على الإتّصال أولى.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه النبيّ ﷺ، وأمره بأخذ الصدقة من أموالهم؛ تطهيراً لهم، وتكفيراً لسيّئاتهم، فقال: ﴿خُذْ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أدخل ﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأنّه لم يجب أن يصدق بالجميع، وإنّما قال: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، ولم يقل: من مالهم، حتى يشتمل على أجناس المال كلّها. وهذا يدلّ على وجوب الأخذ من سائر أموال المسلمين؛ لإستوائهم في أحكام الدين، إلاّ ما خصّه الدليل.

﴿صَدَقَةً﴾: قيل: أراد بها: الأمر، بأن يأخذ الصدقة من أموال هؤلاء التائبين؛ تشديداً للتكاليف، وليست بالصدقة المفروضة، بل هي على سبيل الكفّارة للذنوب التي أصابوها، ـ عن الحسن، وغيره ـ. وقيل: أراد بها: الزكاة المفروضة، ـ عن الجبائي، وأكثر أهل التفسّير ـ، وهو الظاهر؛ لأنّ حمله على الخصوص بغير دليل، لا وجه له، فيكون أمراً بأن يأخذ من المالكين للنصاب الزكاة، من الورق إذا بلغ مائتي درهم، ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً، ومن الإبل إذا بلغت خمساً، ومن البقر إذا بلغت ثلاثين، ومن الغنم إذا بلغت أربعين، ومن الغلات والثمار إذا بلغت خمسة، أو ستة [أوسق].

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ معناه: تطهّرهم تلك الصدقة عن دنس الذنوب،

وتزكّيهم أنت بها أي: تنسبهم إلى الزكاة، وتدعو لهم بما يصيرون به أزكياء. وقيل: معناه تطهّرهم أنت، وتزكّيهم أنت بها، فيكون كلا الفعلين مضافاً إلى النبيّ ﷺ.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ هذا أمر من الله تعالى للنبيّ ﷺ، أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة، ومعناه: أُدع لهم بقبول صدقاتهم، كما يقول الداعي: آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت. وروي عن النبيّ ﷺ، أنّه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: أللهمّ صلِّ عليهم. وقال عبدالله بن أبي أوفى، وكان من أصحاب الشجرة[١]، فأتاه ابن أبي أوفى بصدقة فقال: أللهمّ صلِّ على آل أبي أوفى، أورده البخاري، ومسلم في الصحيح. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: إنّ دعواتك [دعائك] ممّا تسكن نفوسهم إليه. وقيل: رحمة لهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: وقار وطمأنينة لهم أنّ الله قد قبل منهم، ـ عن قتادة والكلبي ـ. وقيل: تثبيت لهم، ـ عن أبي عبيدة ـ.

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع دعاءك لهم، ويعلم ما يكون منهم في الصدقات.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إستفهام يراد به التنبيه على ما يجب أن يعلم، فالمخاطب إذا رجع إلى نفسه، وفكّر فيما نبّه عليه، علم وجوبه، وإنّما وجب أن يعلم أنّ الله يقبل التوبة. لأنّه إذا علم ذلك، كان ذلك داعياً له إلى فعل التوبة، والتمسّك بها، والمسارعة إليها. وما هذه صورته يجب العلم به؛ ليحصل به الفوز بالثواب، والخلاص من العقاب. والسبب فيه أنّهم لمّا سألوا النبيّ ﷺ، أن يأخذ من أموالهم ما يكون كفّارة لذنوبهم، إمتنع من ذلك؛ انتظاراً لإذن من الله سبحانه فيه، فبيّن الله أنّه ليس قبول التوبة إلى النبيّ ﷺ، وإنّ ذلك إلى الله عزّ إسمه، فإنّه الذي يقبلها.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يتقبّلها، ويضمّن الجزاء عليها. قال الجبائي: جعل

---

[١] أي أصحاب بيعة الشجرة.

الله أخذ النبيّ والمؤمنين للصدقات، أخذاً من الله على وجه التشبيه والمجاز، من حيث كان بأمره. وقد ورد الخبر عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: إنّ الصدقة تقع في يد الله، قبل أن تصل إلى يد السائل. والمراد بذلك: أنها تنزّل هذا التنزيل؛ ترغيباً للعباد في فعلها، وذاك يرجع إلى تضمّن الجزاء عليها.

﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عطف على ما قبله، ولذلك فتح ﴿أَنّ﴾ وقد مرَّ تفسيره.

﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: هذا أمر من الله سبحانه لنبيّه أن يقول للمكلّفين: إعملوا ما أمركم الله به، عمل من يعلم أنّه مجازيً على فعله، فإنّ الله سيرى عملكم، وإنّما أدخل سين الإستقبال؛ لأنّ ما لم يحدث لا يتعلّق به الرؤية، فكأنّه قال: كل ما تعملونه يراه الله تعالى. وقيل: أراد بالرؤية هيهنا العلم الذي هو المعرفة، ولذلك عدّاه إلى مفعول واحد، أي: يعلم الله تعالى ذلك، فيجازيكم عليه. ويراه رسوله أي: يعلمه فيشهد لكم بذلك عند الله تعالى. ويراه المؤمنون: قيل: أراد بالمؤمنين: الشهداء. وقيل: أراد بهم: الملائكة الذين هم الحفظة الذين يكتبون الأعمال.

وروي أصحابنا: إنّ أعمال الأمّة تعرض على النبيّ ﷺ، في كل إثنين وخميس، فيعرفها، وكذلك تعرض على أئمّة الهدى عليهم السلام، فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وإنّما قال:﴿فَسَيَرَى اللهُ﴾ مع أنّه سبحانه عالم بالأشياء قبل وجودها؛ لأنّ المراد بذلك: أنّه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة، وكونه عالماً بأنّها ستوجد، هو كونه عالماً بوجودها إذا وجدت، لا يتجدّد حال له بذلك.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: سترجعون إلى الله الذي يعلم السرّ والعلانية. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ويجازيكم عليه.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، والكوفة، غير أبي بكر: مرجون ـ بغير همز ـ. والباقون: مرجؤن ـ بالهمز ـ.

الحجة: قال الأزهري: الإرجاء، يهمز ولا يهمز، أرجأت الأمر، وأرجيته: أخّرته، وأرجأت الحامل: دنت لأن يخرج ولدها، فهي مرجىء ومرجئة. وأرجت بغير همز أيضاً.

النزول: قال مجاهد، وقتادة: نزلت الآية في هلال بن أُميّة الواقفي، ومرارة بن الربيع، .كعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج[1]، وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنّما تخلّف توانياً عن الإستعداد، حتى فاته المسير، وإنصرف رسول الله ﷺ، فقال: والله ما لي من عذر، ولم يعتذر إليه بالكذب، فقال ﷺ: صدقت، قم حتى يقضي الله فيك. وجاء الآخران، فقالا مثل ذلك، وصدقا، فنهى رسول الله ﷺ، عن مكالمتهم، وأمر نساءهم بإعتزالهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فأقاموا على ذلك خمسين ليلة، وبنى كعب خيمة على سلع[1] يكون فيها وحده، وقال في ذلك:

أَبَعْدَ دُورِبَنِي الْقَيْنِ الْكِرامِ، وَمَا شادُوا عَلَيَّ، بَنَيْتُ البَيْتَ مِنْ سَعَفِ

ثمّ نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين فى الليل، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى

---

(١) هلال بن أميّة، من بني واقف، قاله في الروض. الانف والقين، جدّ كعب بن مالك. ومرارة بن الربيع أو ربيعة، من بني عمر بن عوف. والسعف للنخل بمنزلة الأغصان.

[١] سلع: جبل بالمدينة.

﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ الآية. فأصبح المسلمون يبتدرونهم ويبشّرونهم. قال كعب: فجئت إلى رسول الله في المسجد، وكانﷺ إذا سرّ يستبشر، كأنّ وجهه فلقة قمر، فقال لي ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم طلع عليك شرقه منذ ولدتك أُمّك! قال كعب فقلت: أمن عند الله، أم من عندك يا رسول الله؟ فقال: من عندالله. وتصدّق كعب بثلث ماله؛ شكراً لله على توبته.

﴿المعنى﴾: ثمّ عطف سبحانه على ما من قوله: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُبِهِمْ﴾ فقال: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ أي: مؤخّرون موقوفون لما يرد من أمر الله تعالى فيهم.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ لفظة ﴿إِمَّا﴾ لوقوع أحد الشيئين، والله سبحانه عالم بما يصير إليه أمرهم، ولكنّه سبحانه خاطب العباد بما عندهم، ومعناه: ولكن كان أمرهم عندكم على هذا أي: على الخوف والرجاء. وهذا يدلّ على صحّة مذهبنا، في جواز العفو عن العصاة؛ لأنّه سبحانه بيّن أنّ قوماً من العصاة، يكون أمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذّبهم، وإن شاء قبل توبتهم، فعفا عنهم، ويدلّ أيضاً[1] على أنّ قبول التوبة تفضّل من الله سبحانه؛ لأنّه لو كان واجباً لما جاز تعليقه بالمشيئة.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بما يؤول إليه حالهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم.

---

(١) فإن قيل: قد ورد: أنّ التائب من الذنب كمن لاذنب له، وورد: أن لاكبيرة مع إستغفار، وأنّ التوبة هي الندم. قلنا: هو كذلك، بشرط قبول التوبة من الله تعالى، وهو غير واجب، ولو كان واجباً لما تأخّر قبول توبة هؤلاء خمسين يوماً بعد الندم، فلايجوز ان يغترّ العاصي؛ لأنّ قبول التوبة ليس بواجب على الله تعالى.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وابن عامر: الذين اتّخذوا ـ بغير واو ـ والباقون: بالواو[1]. وقرأ نافع، وابن عامر: أُسِّس ـ بضمّ الألف ـ، بنيانُه بالرفع في الموضعين ـ وقرأ الباقون: «أَسَّس بنيانَه» فيهما. وفي الشواذّ، قراءة نصر بن

---

(١) والذين إتّخذوا: لم يكتب الواو في مصاحف أهل المدينة والشام، ولذلك لم يقرء ابن عامر ونافع وأبو جعفر بواو. ونظيره: ماسبق قريباً من كتابة مِن، أو تركها من: تجري تحتها الأنهار، فمن قال: نزل جبرئيل بجميع القرآآت، فالأمر واضح، ومن قال: نزل بقرائة واحدة، فالقرآآت مجوّزة من الله ورسوله ﷺ؛ لوجود الإختلاف فيها بين الصحابة وتقرير النبيّ ﷺ إيّاهم، أو تصريحه بجواز قرائة جميعهم، كما روى. ونظيره: الإختلاف في الفتاوى على مذهب المصوّبة، فيصحّ متابعة جميعهم؛ تسهيلاً على الأمّة، ولإمتناع عدم وقوع الإختلاف في شيء مع كمال الجهد، وهذا غير التحريف الذي يدّعيه الحشويّة.

عاصم: أُسُسُ بُنيانِه، على وزن «فُعُل». وقراءة نصر بن علي: أَساس بُنيانه. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وجماد، ويحيى، عن أبي بكر، وخلف: جُرْف ـ بالتخفيف ـ. والباقون: جُرُف ـ بالتثقيل ـ.

وقرأ يعقوب، وسهل: «إلى أنْ»؛ على أنّه حرف الجرّ، وهو قراءة الحسن، وقتادة، والجحدري، وجماعة، رواه البرقي، عن أبي عبدالله عليه السلام. وقرأ الباقون: إلّا أنْ ـ مشدّدة اللام ـ وقرأ أبو جعفر وابن عامر، وحمزة، وحفص، وسهل، ورويس، عن يعقوب: تَقَطَّع ـ بفتح التاء والتشديد ـ وقرأ روح: تُقْطع ـ بضمّ التاء مخفّفاً ـ وقرأ الباقون: تُقَطّع ـ بضمّ التاء مشدّداً[1] ـ.

الحجّة: من أثبت الواو في «الذين» عطفه على ما تقدّم، والتقدير: ومنهم الذين اتّخذوا مسجداً، ومن حذف الواو، إبتدأ الكلام، وأضمر الخبر بعده، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى قوله: «والباد»، والمعنى فيه: ينتقم منهم، أو يعذّبهم، ونحو ذلك. وحسن الحذف في الموضعين؛ لطول الكلام بالمبتدأ، وصلته، ويجوز أن يكون على أن تضمر «ومنهم»، فيكون تقديره،: ومنهم الذين إتّخذوا، كما أضمرت الحرف مع الفعل في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّت وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: فيقال لهم: أكفرتم، ولا يجوز أن يكون «الذين» بدلاً من قوله: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾؛ لأنّ المرجئين لأمر الله غير الذين إتّخذوا مسجداً ضراراً، فلا يجوز أن يبدلوا منهم.

ومن قرأ: ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ بنى الفعل للفاعل، كما أضاف البنيان إليه في قوله: «بنيانه» فالمصدر مضاف إلى الفاعل، والباني والمؤسّس واحد. ومن بنى الفعل للمفعول به، لم يبعد أن يكون في المعنى كالأوّل؛ لأنّه إذا أسّس بنيانه فتولي ذلك غيره بأمره، كان كبنائه هو له. فأمّا من قرأ: أسس بنيانه بالرفع في الموضعين،

---

(١) قرأ «رُضوان» ـ بضمّ الراء ـ أبو بكر، ولم يمل أحد ألف «شفا».

و«أساس بنيانه» بالإضافة، فإنّهما بمعنى واحد. وجمع الأسّ: أساس، كقفل وأقفال، وجمع الأساس: آساس وأُسُس. وأمّا الجُرف: فالأصل فيه: ضمّ العين، والإسكان تخفيف. ومثله: الشُغْل والشُغُل: والطُنْب والطُنُب. ومن قرأ: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: فمعناه: تبلى وتتقطّع بالبلى، أي: لا تثلج قلوبهم بالإيمان أبداً.

ومن قرأ: ﴿تُقَطَّعَ﴾: ـ بضمّ التاء ـ فهو في المعنى مثل الأوّل، إلاّ أنّ الفعل أُضيف إلى القطع المُبلي للقلوب بالموت. وفي الأوّل أُسند إلى القلوب، لما كانت هي البالية، وهذا مثل: مات زيد، وسقط الحائط، ونحو ذلك، ممّا أُسند فيه الفعل إلى من حدث فيه، وإن لم يكن منه وتُقَطَّع، يسند الفعل فيه إلى المقطع المُبْلى، وإن لم يذكر في اللفظ، فأسند الفعل الذي هو لغير القلوب في الحقيقة إلى القلوب. ومن قرأ: «إلى أن تَقَطّع»[1]، فإنّه جعله على الغاية، وزعموا أنّ في حرف «إلى» معني: حتى الممات، وهذا يدلّ على أنّهم يموتون على نفاقهم، فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان، وأخذوا به من الكفر.

اللغة: الضرار، هو طلب الضرر ومحاولته، كمّا أنّ الشقاق محاولة ما يشقّ، يقال: ضارّه مضارّة وضراراً. والإرصاد: الإرتقاب. تقول: رصده يرصده رصداً، وأرصد له إرصاداً. قال الكسائي: رصدته: رقبته، وأرصدته: أعددته. والبنيان: مصدر. قال أبو عليّ: وهو جمع على حدّ شعيرة وشعير؛ لأنّهم قالوا بنيانه في الواحد. قال أوس:

---

(١) وهي القراءة المنسوبة إلى الصادق عليه السلام، رواه البرقي عن محمّد بن سليمان، عن أبيه، عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام. ومحمّد بن سليمان وأبوه سليمان بن عبدالله الديلمي غاليان ضعيفان، على ماصرّح به شيخا هذا الفنّ النجاشي والكشي، فما نقلوه عن الصادق عليه السلام لايعول عليه، مع أنّ القراءة لاتثبت بخبر الواحد، وإن كان صحيحاً، كما مّر مراراً.

كَبُنْيانَةِ الْقَرِيِّ مَوْضِعُ رَحْلِها وَآثارُ نِسْعَيْها مِنَ الدَّفِ أبْلَقُ[١]

وجاء بناء المصدر على هذا المثال في غير هذا الحرف، نحو الغفران، وليس بنيان جمع بناء؛ لأن فُعلاناً إذا كان جمعاً نحو كُثْبان وقُضبان، لم تلحقه تاء التأنيث. وقال أبو زيد: يقال: بنيت أبني بنياً وبنياناً وبناء وبنية. وجمعها: البنى. قال:

بَنَى السَّماءَ فَسَوَّاها بِبُنْيَتِها وَلَمْ تُمَدَّ بِأطْنابٍ وَلا عَمَدِ[١]

فالبناء والبنية، مصدران. ومن ثَمَّ قوبل به الفراش في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فالبناء لما كان رفعاً للمبنيّ، قوبل به الفراش الذى هو خلاف البناء. والتقوى: خصلة من الطاعة، يحترز بها من العقوبة. والتقى: صفة مدح لا تطلق إلاّ على مستحقّ الثواب. وواو «تقوى»: مبدله من الياء؛ لأنّها من «وقيت»، وإنّما أبدلت؛ للفرق بين الإسم والصفة في الأبنية، مثل: خزيا[٢]. وشفا جرف: الشيء وشفيره. وجرفه: نهايته في المساحة، ويثنّى شفوان. وجرف الوادي: جانبه الذي ينحفر بالماء أصله، وهو من الجرف. والإجتراف: هو إقتلاع الشيء من أصله.

وهار: الجرف، يهور هوراً، فهو هائر وتهوّر وانهار. ويقال أيضاً: هار يهار. وهار أصله: هائر، وهو من المقلوب، كما يقال: لاث الشيء به: إذا دار، فهو لاث، والأصل: لائث. وكما قالوا: شاكي السلاح أي: شائك، قال[٢]:

فَتُعَرِّفُوني أنَّني أنا ذاكُمُ شاكِ سِلاحِي فِي الحَوادِثِ مُعْلَمُ

وكما قال العجاج: «لاتٌ [تٌ] بِهِ الأَشاءُ وَالعُبْرِيُّ»[٣].

---

(١) دفّا البعير: جنباه. والنسع: سير يشدّ به الرحل. وموضع الرحل: ظهر الناقة. والقرىّ: مجرى الماء.

(٢) تقوى: إسم بدلت فاؤه. وخزيا: صفة لم يبدل.

(٣) الأشاء: النخل الصغار. والعبريّ: السدر.

[١] الطُّنب والطُّنُب: حبل الخِباء والسرادق ونحوهما.

[٢] قائله: طريف بن مالك العنبري.

أي: مطيف. وقال أبو عليّ: والهمز من «هائر» منقلبّه عن الواو؛ لأنّهم قالوا: تهوّر البناء: إذا تساقط وتداعى. وفي الحديث: ساء الليلة حتى إنهار الليل، ثمّ سار حتى تهوّر. فهذا في الليل كالمثل والتشبيه بالبناء. والإنهيال، والإنهيار، يتقاربان في المعنى، كما يتقاربان في اللفظ.

الإعراب: قد ذكرنا إعراب قوله: ﴿وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا﴾ في الحجة ويجوز أن يكون مبتدأ، وخبره: ﴿لاَتَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ كما تقول: والذي يدعوك إلى الغيّ فلا تسمع الدعاء، وتقديره: فلا تسمع دعاءه، وكذلك التقدير في الآية: ﴿لاتقم في مسجدهم أبداً﴾ فحذف الضمير للإختصار، ويجوز أن يكون خبر «الذين» قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ أي: أفمن أسّس بنيانه من هؤلاء، أم من أسّس من الذين إتّخذوا ضراراً، منصوب على أنّه مفعول له، وكذلك ما بعده. والمعنى: إتّخذوه للضرار، والكفر، والتفريق والإرصاد، فلمّا حذف اللام أفضى الفعل، فنصب. ويجوز أن يكون مصدراً محمولاً على المعنى؛ لأنّ إتّخاذهم المسجد على غير التقوى، معناه: ضارّوا به ضراراً من أوّل يوم دخلت «من» في الزمان، والأصل منذ ومذ، هذا أكثر إستعمالاً في الزمان. و«من» جائز دخولها أيضاً؛ لأنّها الأصل في إبتداء الغاية والتبعيض. ومنه: قول زهير:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ، وَمِنْ شَهْرِ (١)

ويروى من دهر، وقد قيل: إنّ المعنى من مرّ حجج، ومن مرّ شهر. وأن تقوم: في موضع نصب أي: أحقّ بأن تقوم فيه. و«فيه» منصوب الموضع بقوله: تقوم. و«فيه» من قوله: «فيه رجال» في موضع رفع؛ لأنّه خبر مبتدأ مقدّم عليه، والمبتدأ: رجال، ولا يجوز أن يكون مرفوع الموضوع؛ بكونه وصفاً لمسجد، بل هو على الإستئناف والوقف التامّ على قوله: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ ثمّ أستؤنف الكلام،

---

(١) أقوين: أي خربن ودرسن. وقنّة الحجر: موضع.

فقيل: فيه رجال، وإنّما قلنا ذلك؛ لأنك لو جعلت الظرف الذي هو «فيه» وصفاً لمسجد، لكنت فصلت بين النكرة وصفتها، بالخبر الذي هو أحقّ. وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ﴾ قال أبو عليّ: القول فيه أنّه يجوز أن تكون المعادلة وقعت بين البانيين، ويجوز أن يكون بين البنائين، فإذا عادلت بين البانيين، كان المعنى المؤسّس بنيانه متّقياً خير، أم المؤسّس بنيانه غير متّق؛ لأنّ قوله: ﴿عَلَىٰ شَفا جُرُفٍ﴾ يدلّ على أنّ بانيه غير متّق لله تعالى، ولا خاش له، ويجوز أن يقدّر حذف المضاف، كأنّه قال: أَبَنَاءُ مَنْ أسّس بنيانه متّقياً خيرٌ، أم بَنَاءُ من أسّس بنيانه على شفا جرف.

والبنيان: مصدر أوقع على المبنيّ، مثل الخلق إذا عنيت به المخلوق، وضرب الأمير إذا عنيت به المضروب، وكذلك نسج اليمن، يدلّك على ذلك أنّه لا يخلو من أن يراد به إسم الحدث، أو إسم العين، فلا يجوز أن يكون الحدث؛ لأنّه إنّما يؤسّس المبنيّ الذي هو عين، ويبيّن ذلك أيضاً قوله: ﴿عَلَىٰ شَفا جُرُفٍ﴾ والحديث لا يعلو شفا جرف، والجارّ فى قوله: ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ شَفا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: أفمن أسّس بنيانه متّقياً خيراً، أم من أسّس بنيانه غير متّق، أو معاقباً على بنائه. وفاعل «إنْهار» البنيانُ، أي: إنهار البنيان بالباني في نار جهنّم؛ لأنّه معصية، وفعل لما كرهه الله تعالى، من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين.

ومن أمال ﴿هَارٍ﴾ فقد أحسن؛ لما في الراء من التكرير، فكأنّك لفظت برائين مكسورتين، وبحسب كثرة الكسرات تحسن الإمالة، ومن لم يمل؛ فلأنّ ترك الإمالة هو الأصل، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، موضع ﴿أَنْ تَقَطَّعَ﴾ نصب، تقديره: إلاّ على تقطّع قلوبهم، غير أنّ حرف الإضافة يحذف مع «أنْ»، ولا يحذف مع المصدر، ومعنى ﴿إِلَّا﴾ هيهنا ﴿حَتَّى﴾؛ لأنّه إستثناء من الزمان

المستقبل، والإستثناء منه منته إليه، فإجتمعت مع «حتى» في هذا الموضع على هذا المعنىٰ.

النزول: قال المفسّرون: إنّ بني عمرو بن عوف، إتّخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ، أن يأتيهم، فأتاهم وصلّى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، فقالوا: نبني مسجداً، فنصلّى فيه، ولا نحضر جماعة محمّد، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم: ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحرث. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، فلمّا فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ، وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة، والحاجة، و والليلة المطيرة، و الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي فيه لنا، وتدعو بالبركة. فقال ﷺ: إنيّ على جناح سفر، ولو قدمنا آتيناكم إن شاء الله، فصلّينا لكم فيه. فلمّا إنصرف رسول الله ﷺ من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد.

المعنىٰ: ثمّ ذكر سبحانه جماعة أخرى من المنافقين بنوا مسجداً للتفريق بين المسلمين، وطلب الغوائل للمؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً﴾ والمسجد: موضع السجود في الأصل، وصار بالعرف إسماً لبقعة مخصوصة بنيت للصلاة، فالإسم عرفي فيه معنى اللغة.

﴿ضِرَاراً﴾ أي: مضارّة، يعني للضرر بأهل مسجد قباء، أو مسجد الرسول ﷺ، ليقل الجمع فيه ﴿وَكُفْراً﴾ أي: ولإقامة الكفر فيه. وقيل: أراد أنّه كان إتّخاذهم ذلك كفراً بالله. وقيل: ليكفروا فيه بالطعن على رسول الله ﷺ، والإسلام.

﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لإختلاف الكلمة، وإبطال الإلفة، وتفريق الناس عن رسول الله ﷺ.

﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أرصدوا ذلك المسجد، وإتّخذوه، وأعدّوا لأبي عامر الراهب، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل، وكان من قصّته أنّه كان قد ترهب في الجاهليّة، ولبس المسوح، فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة، حسده، وحزّب عليه الأحزاب، ثمّ هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف، فلمّا أسلم أهل الطائف، لحق بالشام، وخرج إلى الروم، وتنصر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، الذي قتل مع النبيّ ﷺ، يوم أُحد، وكان جنباً فغسلته الملائكة، وسمّي رسول الله ﷺ، أبا عامر الفاسق. وكان قد أرسل إلى المنافقين أن إستعدّوا، وابنوا مسجداً، فإنّي أذهب إلى قيصر، وآتي من عنده بجنود، وأُخرج محمّداً من المدينه، فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامر، فمات قبل أن يبلغ ملك الروم.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ معناه: أنّ هؤلاء يحلفون كاذبين: ما أردنا ببناء هذا المسجد إلاّ الفعلة الحسنى، من التوسعة على أهل الضعف، والعلّة من المسلمين، فأطلع الله نبيّه على فساد طويتهم[١]، وخبث سريرتهم، فقال: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وكفى لمن يشهد الله سبحانه بكذبه خزياً، فوجّه رسول الله ﷺ، عند قدومه من تبوك، عاصم بن عوف العجلاني، ومالك بن الدخشم، وكان مالك من بني عمرو بن عوف، فقال لهما: إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فإهدماه، وحرّقاه. وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ووحشيّاً، فحرّقاه، وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقى فيها الجيف.

ثمّ نهى الله سبحانه أن يقوم في هذا المسجد، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ أي: لا تصلّ فيه أبداً، يقال: فلان يقوم بالليل أي: يصلّي. ثمّ أقسم فقال: ﴿لَمَسْجِدٌ

---

[١] الطوية: النية والضمير.

أي: والله لمسجد ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أي: بني أصله على تقوى الله، وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: منذ أوّل يوم وضع أساسه، ـ عن المبرّد ـ ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أولى بأن تصلّي فيه.

وأختلف في هذا المسجد، فقيل: هو مسجد قباء، ـ عن ابن عباس، والحسن، وعروة بن الزبير ـ. وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ، ـ عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري ـ وروي هو عن النبيّ ﷺ، قال: هو مسجدي هذا. وقيل: هو كل مسجد بني للإسلام، وأريد به وجه الله، ـ عن أبي مسلم ـ.

ثمّ وصف المسجد وأهله، فقال: ﴿فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي أُسس على التقوى ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أي: يحبُّون أن يصلُّوا لله تعالى، متطهّرين بأبلغ الطهارة. وقيل: يحبّون أن يتطهّروا من الذنوب، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يحبّون أن يتطهّروا بالماء عن الغائط والبول، وهو المرويّ عن السيّدين الباقر والصادق عليهما السلام، وروي عن النبيّ ﷺ، أنّه قال لأهل قباء: ماذا تفعلون في طهركم، فإنّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل الله فيكم ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي: المتطهّرين.

ثمّ قرّر سبحانه الفرق بين المسجدين، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قد مضى بيانه، والمراد: أنّ الله تعالى شبّه بنيانهم على نار جهنّم، بالبناء على جانب نهر هذا صفته، فكما أنّ من بنى على جانب هذا النهر، فإنّه ينهار بناؤه في الماء، ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء، ينهار ويسقط في نار جهنّم، يعني: أنّه لا يستوي عمل المتّقي، وعمل المنافق، فإنّ عمل المؤمن المتّقي ثابت مستقيم، مبنيّ على أصل صحيح ثابت،

وعمل المنافق ليس بثابت، وهو واهٍ ساقط، والألف في قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ ألف إستفهام يراد به الإنكار هيهنا، وليس معنى ﴿خَيْر﴾ في الآية: أفضل، بل هو كما يقال: هذا خير، وهذا شرٌّ. وقال الشاعر[١]:

وَالْخَيْرُ، وَالشَّرُّ: مَقْرُونانِ فِي قَرَنٍ ... فَالْخَيْرُ مُتَّبَعٌ، والشَّرُّ مَحْذُورٌ

وأمّا قوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فإنّ معناه: وافعلوا الأفضل. وقوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوقعه ذلك البناء في نار جهنّم. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مرّ بيانه. وروي عن جابر بن عبدالله أنه قال: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً، يخرج منه الدخان ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا يزال بناء المبنيّ الذي بنوه، شكّاً في قلوبهم؛ فيما كان من إظهار إسلامهم، وثباتاً على النفاق. وقيل: إنّ معناه: حزازة في قلوبهم. وقيل: حسرة في قلوبهم يتردّدون فيها.

﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: إلاّ أن يموتوا. والمراد بالآية: أنّهم لا ينزعون عن الخطيئة، ولا يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم وكفرهم، فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان، وأخذوا به من الكفر. وقيل: معناه: إلاّ أن يتوبوا توبة تتقطّع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بنيّتهم في بناء مسجد الضرار ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بنقضه، والمنع من الصلاة فيه.

---

[١] قائله: عبدالمسيح بن عمرو بن نُفيلة الغسّاني.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: فيُقتلون ـ بضمّ الياء ـ، ويَقتلون ـ بفتح الياء ـ. والباقون: فيَقتلون ـ بفتح الياء ـ، ويُقتلون ـ بضمّها ـ. وفي قراءة أُبيّ، وعبدالله بن مسعود، والأعمش[1]: التائبين العابدين ـ بالياء ـ، إلى آخرها. وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فقدّم الفعل المسند إلى الفاعل؛ فلأنّهم يَقتلون أوّلاً في سبيل الله، ويُقتَلون إذا قَتلوا. ومن قدّم الفعل

---

(١) إن قيل: لو كانت متابعة القرآء السبعة واجبة، فكيف خالفهم جماعة عظيمة من قرآء الشواذّ، ولم ينكر عليهم أحد، ولم يلعنوهم، ولم يتبرّؤا منهم، بل ذكروهم بالخير والترضية، كالأعمش وأبان بن تغلب من الشيعة، وغيرهم ممّن لايحصى، وهذا سؤال ورد علينا أثناء طبع هذا الكتاب، وإختصرناه بتهذيب. والجواب: إنّ هؤلاء الأعاظم نقل إليهم من الصحابة متواتراً، فقرؤا بما تواتر اليهم، ولم ينقل قرائتهم إلينا متواتراً، حتى يجوز لنا، كما مرّ مراراً.

المسند إلى المفعول به، جاز أن يكون في المعنى مثل الأوّل؛ لأنّ المعطوف بالواو، يجوز أن يراد به التقديم، فإن لم يقدر فيه التقديم، كان المعنى في قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يُقْتَلُونَ﴾ بقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل.

وأمّا الرفع في قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾: فعلى القطع والإستئناف أي: هم التائبون، ويكون على المدح. وقيل: إنّه رفع على الإبتداء، وخبره محذوف بعد قوله: ﴿وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: لهم الجنّة أيضاً، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: إنّه رفع على البدل من الضمير في «يقاتلون» أي: يقاتل التائبون. وأمّا «التائبين العابدين» فيحتمل أن يكون جرّاً، وأن يكون نصباً. أمّا الجرّ، فعلى أن يكون وصفاً للمؤمنين أي: من المؤمنين التائبين، وأمّا النصب، فعلى إضمار فعل بمعنى المدح، كأنّه قال: أعني وأمدح التائبين.

اللغة: السائح: من ساح في الأرض يسيح سيحاً: إذا إستمرّ في الذهاب، ومنه: السيح: الماء الجاري، ومن ذلك يسمّي الصائم سائحاً؛ لإستمراره على الطاعة في ترك المشتهى.

الإعراب: ﴿وَعْداً﴾ نصب على المصدر؛ لأنّ قوله: «اشترى» يدلّ على أنّه وعد، ومثله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، و﴿فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المؤمنين والمنافقين، عقّب سبحانه بالترغيب في الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾ حقيقة الإشتراء لاتجوز على الله تعالى؛ لأنّ المشتري إنّما يشتري ما لا يملكه، وهو عزّ إسمه مالك الأشياء كلّها، لكنّه مثل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ في أنّه ذكر لفظ الشراء والقرض تلطّفاً؛ لتأكيد الجزاء، ولمّا كان سبحانه ضمن الثواب على نفسه، عبّر عن ذلك بالإشتراء، وجعل الثواب ثمناً، والطاعات

مثمناً، على ضرب من المجاز، وأخبر أنّه إشترى من المؤمنين أنفسهم، يبذلونها في الجهاد في سبيل الله، وأموالهم أيضاً ينفقونها إبتغاء مرضاة الله، على أن يكون في مقابلة ذلك الجنّة.

وروي عن الأعمش أنّه قرأ: بالجنّة، وهي قراءة عمر بن الخطاب. والجهاد قد يكون بالسيف، وقد يكون باللسان، وربما كان جهاد اللسان أبلغ؛ لأنّ سبيل الله دينه، والدعاء إلى الدين يكون أوّلاً باللسان، والسيف تابع له، ولأنّ إقامة الدليل على صحّة المدلول أولى، وإيضاح الحقّ وبيانه أحرى، وذلك لا يكون إلاّ باللسان، وقد قال النبيّ ﷺ: يا علي! لئن يهدي الله على يديك نسمة، خير ممّا طلعت عليه الشمس.

وإنّما ذكر سبحانه شراء النفس والمال؛ لأنّ العبادات على ضربين: بدنيّة وماليّة، ولا ثالث لهما. ويروي أنّ الله سبحانه تاجر المؤمنين، فأغلى لهم الثمن، فجعل ثمنهم الجنّة. وكان الصادق عليه السلام يقول: أيا من ليست له همة! إنّه ليس لأبدانكم ثمن إلاّ الجنّة، فلا تبيعوها إلاّ بها. وأنشد الأصمعي للصادق عليه السلام.

أثامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّها ... فَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِم ثَمَنُ
بِهَا نَشْتَرِي الْجَنَّاتِ إنْ أَنَا بِعْتُهَا ... بِشَيْءٍ سِواهَا إِنَّ ذلِكُم غَبْنُ
إذا ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيا أَصَبْتُها ... فَقَدْ ذَهَبَت دُنْيا، وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: هذا بيان للغرض الذى لأجله إشتراهم ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ المشركين ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: ويقتلهم المشركون، يعني: أنّ الجنّة عوض عن جهادهم، سواء قَتلوا أو قُتلوا. ومن قرأ: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهو المختار عن الحسن؛ لأنّه يكون تسليم النفس إلى المشتري أقرب، والبائع إنّما يستحقّ الثمن بتسليم المبيع.

﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾ معناه: إنّ إيجاب الجنّة لهم وعد على الله، حقٌّ لا شكّ

فيه، وتقديره: وعدهم الله الجنّة على نفسه وعداً حقّاً، أي: صدقاً واجباً، لا خلف فيه ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ أهل كل ملّة أُمروا بالقتال وعدوا عليه الجنّة، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللهِ﴾ معناه: لا أحد أوفى بعهده من الله؛ لأنّه يفي، ولا يخلف بحال.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا بهذه المبايعة، حتى ترى آثار السرور في وجوهكم، بسبب هذه المبايعة؛ لأنّكم بعتم الشيء من مالكه، وأخذتم ثمنه؛ ولأنّكم بعتم فانياً بباق وزائلاً بدائم.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الشراء والبيع، الظفر الكبير الذي لا يقاربه شيء.

ثمّ وصف الله سبحانه المؤمنين الذين إشترى منهم الأنفس والأموال، بأوصاف، فقال: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي: الراجعون إلى طاعة الله، والمنقطعون إليه، النادمون على ما فعلوه من القبائح ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: الذين يعبدون الله وحده، ويتذلّلون له بطاعته في أوامره ونواهيه. وقيل: هم الذين أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم، فعبدوا الله في السرّاء والضرّاء، ـ عن الحسن، وقتادة ـ.

﴿الْحَامِدُونَ﴾ أي: الذين يحمدون الله على كل حال، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هم الشاكرون لنعم الله على وجه الإخلاص له.

﴿السَّائِحُونَ﴾ أي: الصائمون، ـ عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد ـ. وروي مرفوعاً عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: سياحة أمّتي الصيام. وقيل: هم الذين يسيحون في الأرض، فيعتبرون بعجائب الله تعالى. وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض لطلبه، ـ عن عكرمة ـ. ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المؤدّون للصلاة المفروضة التي فيها الركوع والسجود.

﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ أدخل الواو هنا؛ لأنّ الأمر بالمعروف يتضمّن النهي عن المنكر، فكأنّهما شيء واحد، ولأنّه قرن النهي عن المنكر بالأمر بالمعروف في أكثر المواضع، فأدخل الواو ليدلّ على المقارنة.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ أي: والقائمون بطاعة الله، ـ عن ابن عباس ـ، يعني: الذين يؤدّون فرائض الله وأوامره، ويجتنبون نواهيه؛ لأنّ حدود الله أوامره ونواهيه، وإنّما أدخل الواو؛ لأنّه جاء وهو أقرب إلى المعطوف ﴿وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا أمر النبيّ ﷺ، أن يبشّر المصدّقين بالله، المعترفين بنبوّته، بالثواب الجزيل، والمنزلة الرفيعة خاصّة، إذا جمعوا هذه الأوصاف. وقد روي أصحابنا أنّ هذه صفات الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ لأنّه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها وكمالها غيرهم. ولقي الزهري عليّ بن الحسين عليه السلام، في طريق الحجّ، فقال له: تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت إلى الحجّ، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية؟ فقال عليه السلام له: أتمّ الآية الأُخرى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخرها، ثمّ قال: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم، فالجهاد معهم أفضل من الحجّ.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

(اللغة): أصل الأوّاه: من التأوّه، وهو التوجّع والتحزّن. يقال: تأوّه تأوُّهاً، وأوَّه تأويهاً. قال المثقب العبدي:

إذا مـا قُـمْتُ أرْحَـلُها بـلَيْلٍ تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَـزِينِ[١]

ولو جاء منه فعل مصرفاً، لكان آهَ يؤوه أوهاً، مثل: قال يقول قولاً، والعرب تقول: أوِّهْ من كذا، ـ بكسر الواو، وتسكين الهاء ـ. قال:

فَأَوِّهْ بِـذِكْراهـا إذا مـا ذَكَـرْتُها وَمِنْ بُعْدِ أرْضٍ دُونَها، وَسَماءِ[٢]

والعامّة تقول: أوَّه، وفيه خمس لغات: أوْهِ ـ بسكون الواو وكسر الهـاء ـ، وأوٍّ، وآهٍ ـ بالتنوين ـ، وأوْهِ، وأوَّه.

المعنى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ومـعناه: ليس للنبيّ والمؤمنين، أن يطلبوا المغفرة للمشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر، والذين لا يوحّدونه، ولا يقرّون بإلهيّته ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُـرْبَى﴾ أي: ولو كـان الذين يطلبون لهم المغفرة أقرب الناس إليهم.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: من بعد أن يعلموا أنّهم كفّار مستحقّون للخلود في النار.

وفي تفسير الحسن: إنّ المسلمين قالوا للنبيّ ﷺ: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهليّة؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وبيّن أنّـه لا يـنبغي لنـبيّ، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له[٣]. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ أبلغ من أن يقول: لا ينبغي للنبيّ؛ لأنّه يدلّ على قبحه، وأنّ الحكمة تمنع منه، ولو قال: لا ينبغي، لم يدلّ على أنّ الحكمة تمنع منه، وإنّما كان يدلّ على أنّه لا ينبغي أن يختاره، ومعناه: لم يجعل الله في دينه، ولا في حكمه أن يستغفروا للـمشركين، ولو دَعَـتْهُم رقّـة

---

(١) تأوّه: أصله: تتأوّه، حذف إحدى التائين.

(٢) يعني: بيني وبينها من البعد، كبعد الأرض من السماء، فلذلك إذا ذكرتها أتأوّه؛ للياس من وصالها.

(٣) والآية تدل على إنتفاع الأموات بدعاء الأحياء، وإستغفارهم، وجواز العبادة عنهم.

القرابة، وشفقة الرحم إلى الإستغفار لهم بعد ما ظهر ﴿أنّ لهم عذاباً عظيماً﴾.

ثمّ بيّن سبحانه الوجه في إستغفار إبراهيم لأبيه، مع كونه كافراً، سواء كان أباه الذي ولده، أو جدّه لأُمه، أو عمّه على ما رواه أصحابنا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أي: لم يكن إستغفاره له إلاّ صادراً عن موعدة وعدها إيّاه.

وأختلف في صاحب هذه الموعدة، هل هو إبراهيم وأبوه، فقيل: إنّ الموعدة كانت من الأب، وعد بها إبراهيم، أنّه يؤمن إن إستغفر له فإستغفر له لذلك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ ولا يفي بما وعد ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وترك الدعاء له، وهو المرويّ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، إلاّ أنّهم قالوا: إنّما تبيّن عداوته؛ لمّا مات على كفره. وقيل: إنّ الموعدة كانت من إبراهيم، قال لأبيه: إنّي أستغفر لك ما دمت حيّاً، وكان يستغفر له مقيّداً بشرط الإيمان، فلمّا آيس من إيمانه تبرّأ منه، وهذا يوافق قراءة الحسن: إلاّ عن موعدة وعدها أباه، ـ بالباء ـ ويقوّيه قوله: إلاّ قول إبراهيم لأبيه، لأستغفرنَّ لك، وما أملك لك من الله من شيء.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: دَعَّاء كثير الدعاء والبكاء، ـ عن ابن عباس، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: الأوّاه: الرحيم بعباد الله، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: هو الذي إذا ذكر النار قال: أوّه، ـ عن كعب ـ. وقيل: الأَوّاه: المؤمن، بلغة الحبشة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الأوّاه: الموقن المستيقن، ـ عن مجاهد، وعكرمة ـ. وقيل: الأوّاه: العفيف ،ـ عن النخعي ـ. وقيل: هو الراجع عن كل ما يكره الله عزّوجلّ، ـ عن عطا ـ. وقيل: هو الخاشع المتضرّع، رواه عبدالله بن شداد، ـ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ. وقيل: هو المسبّح الكثير الذكر للّه سبحانه، ـ عن عقبة بن عامر ـ. وقيل: هو المتأوّه شفقاً وفرقاً، المتضرّع يقيناً بالإجابة، ولزوماً للطاعة، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقال الزجّاج: وقد إنتظم قول أبي عبيدة أكثر ما روي

في الأوّاه.

﴿حَلِيمٌ﴾ يقال: بلغ من حلم إبراهيم عليه السلام، أنّ رجلاً قد أذاه وشتمه، فقال له: هداك الله. وقيل: الحليم: السيّد، ـ عن ابن عباس ـ، وأصله: أنّه الصبور على الأذى، الصفوح عن الذنب.

النَّظْمُ: لمّا تقدّم ذكر الكفّار والمنافقين، والمنع من موالاتهم، والصلاة عليهم، والقيام على قبرهم للدعاء لهم، نهي عن دعائهم بعد موتهم. ولمّا نهى الله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين عن الإستغفار للمشركين، ذكر قصّة إبراهيم وعذره في الإستغفار لأبيه. وأمّا قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾: فإنّما إتّصل بما قبله، بأنّه إذا كان له صفة الرأفة والرحمة، يكون في دعائه أخلص، وعلى إخلاص أقربائه من العذاب أحرص، ومع ذلك تبرّأ منه لمّا يئس من فلاحه.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

النُّزُولُ: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام، قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول الله! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً﴾ الآية، ـ عن الحسن ـ.

المَعْنَى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ أي: وما كان الله ليحكم بضلالة قوم بعد ما حكم بهدايتهم.

﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ من الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، فلا

يتّقون، فعند ذلك يحكم بضلالتهم. وقيل: وما كان الله ليعذّب قوماً فيضلّهم عن الثواب، والكرامة، وطريق الجنّة، بعد إذ هداهم، ودعاهم إلى الإيمان، حتى يبيّن لهم ما يستحقّون به الثواب والعقاب، من الطاعة والمعصية.

وقيل: لمّا نسخ بعض الشرائع، وقد غاب أُناس وهم يعملون بالأمر الأوّل؛ إذ لم يعلموا بالأمر الثاني، مثل: تحويل القبلة، وغير ذلك، وقد مات الأوّلون على الحكم الأوّل، سئل النبّي ﷺ، عن ذلك، فأنزل الله الآية، وبيّن أنّه لا يعذّب هؤلاء على التوجّه إلى القبلة الأُولى، حتى يسمعوا بالنسخ، ولا يعملوا بالناسخ، فحينئذ يعذّبهم، ـ عن الكلبي ـ.

﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يعلم جميع المعلومات حتى لا يشذّ شيء منها عنه؛ لكونه عالماً لنفسه ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملك: إتّساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الجماد، ويميت الحيوان.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لكم سواه حافظ يحفظكم، ووليّ يتولّى أمركم، ولا ناصر ينصركم، ويدفع العذاب عنكم.

النظم: وجه إتّصال الآية الأُولى بما قبلها: إنّ الله سبحانه لمّا حرّم على المؤمنين أن يستغفروا للمشركين، بيَّن سبحانه أنّه لا يأخذهم بذلك، إلاّ بعد أن يدلّهم على تحريمه، ـ عن مجاهد ـ. ووجه إتّصال الآية الثانية بما قبلها: الحضُّ على ما تقدّم ذكره من جهاد المشركين ملوكهم وغير ملوكهم؛ لأنّهم عبيد من له ملك السماوات والأرض، يأمرهم بما يشاء، ويدبّرهم على ما يشاء، ـ عن عليّ ابن عيسى ـ.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ
يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ
وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

القراءة: قرأ حمزة، وحفص، عن عاصم: ـ يزيغ ـ بالياء ـ، وهي قراءة الأعمش. والباقون: تزيغ ـ بالتاء ـ. والقراءة المشهورة: ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وقرأ عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأبو جعفر محمّد بن علي الباقر، وجعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام، وأبو عبدالرحمن السلمي: خالفوا. وقرأ عكرمة، وزر بن حبيش، وعمرو بن عبيد: خَلَفوا ـ بفتح الخاء واللام خفيفة ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: يجوز أن يكون فاعل «كاد» أحد ثلاثة أشياء:

الأوّل: أن تضمر فيها القصّة، والحديث، ويكون «تزيغ» الخبر، وجاز ذلك فيها، وإن كان الأصل في إضمار القصّة إنّما هو في الإبتداء؛ لأنّ الخبر لازم لكاد، فأشبه العوامل الداخلة على الإبتداء، للزوم الخبر له قال: ولا يجوز ذلك في «عسى»؛ لأنّ «عسى» قد يكون فاعله المفرد في كثير من الأمر، فلا يلزمه الخبر، كقوله: ﴿عَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فإذا كان كذلك، لم يحتمل الضمير الذي يحتمله ﴿كَادَ﴾ كما لم يحتمله سائر الأفعال التي تسند إلى فاعليها، ممّا لا يدخل على المبتدأ.

والثاني: أن يضمر في «كاد» ذكر ممّا تقدّم، لمّا كان النبيّ ﷺ، والمهاجرون والأنصار قبيلاً واحداً، وفريقاً واحداً، جاز أن يضمر في «كاد» ما دلّ عليه ما تقدّم ذكره من القبيل، والحزب، والفريق، ونحو ذلك، من الأسماء المفردة الدالّة على الجمع. وقال منهم: فحمله على المعنى مثل قوله: ﴿آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثمّ قال: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فكذلك فاعل «كاد» على هذا الوجه.

الثالث: أن يكون فاعل «كاد» القلوب، وتقديره: من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ، ولكنّه قدّم تزيغ، كما تقدّم خبر «كان»، وجاز تقديمه، وإن كان فيه ذكر من القلوب، ولم يمتنع من حيث يمتنع الإضمار قبل الذكر، لما كان النيّة به التأخير، كما لم يمتنع ضرب غلامه زيد، لما كان التقدير به التأخير.

فأمّا من قرأ: يزيغ ـ بالياء ـ، فيجوز أن يكون قد ذهب إلى أنّ في «كاد» ضمير الحديث، فيرتفع قلوب بيزيغ، فذكر، وإن كان فاعله مؤنّثاً؛ لتقدّم الفعل.

ومن قرأ: تزيغ ـ بالتاء ـ، جاز أن يكون ذهب إلى أنّ القلوب مرتفعة بكاد، وجاز أن يكون الفعل المسند إلى القصّة، أو الحديث، يؤنّث إذا كان في الجملة التي يفسّرها مؤنّث، كقوله: ﴿فَإِذا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجاز تأنيث هي التي هي ضمير القصّة؛ لذكر الأبصار المؤنّثة في الجملة التي هي التفسير، فكذلك يؤنّث الذي في «كاد» لذكر المؤنّث في الجملة المفسّرة، فتقول: كادت، وتدغم التاء التي هي علامة التأنيث في تاء «تزيغ»، وتزيغ على هذا للقلوب، وهي مرتفعة به، ويجوز إلحاق التاء بكاد من وجه آخر، وهي أن ترفع قلوب فريق بكاد، فتلحقه علامة التأنيث، من حيث كان مسنداً إلى مؤنّث. ومن قرأ: خلفوا، فتأويله: أقاموا ولم يبرحوا. ومن قرأ: خالفوا، فمعناه: عائد إلى ذلك؛ لأنّهم إذا خالفوهم، فأقاموا، فقد خلفوا هناك.

(اللغة): الزيغ: ميل القلب عن الحقّ. ومنه: قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وزاغت الشمس إذا مالت. وزاغ عن الطريق: جار [جاز] وعدل. والتخليف: تأخير الشيء عمّن مضى. فأمّا تأخير الشيء عنك في المكان، فليس بتخليف، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه، يقال: خلفه أي: جعله خلفه، فهو مخلف. ورحبت البلاد: إذا إتّسعت. والرحب: السعة. ومنه: مرحباً وأهلاً أي: رحبت بلادك وأهلت. والضيق: ضدّ السعة. والظنّ: هنا بمعنى اليقين، كما في قول دريد بن الصمة:

فقُلْتُ لَهُمْ: ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّج ... سَرَاتُهُم في الفارسيّ المُسَرَّدِ[١]

(النزول): نزلت الآية الأولى في غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همَّ قوم بالرجوع، ثمّ تداركهم لطف الله سبحانه. قال الحسن: كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، يركب الرجل ساعة، ثمّ ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم الشعير المسوس[٢]، والتمر المدود[٣]، والإهالة السنخة[٤]. وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم، أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثمّ يعطيها صاحبه، فيمصها ثمّ يشرب عليها جرعة من ماء، كذلك حتى يأتي على آخرهم، فلا يبقي من التمرة إلاّ النواة.

قالوا: وكان أبو خيثمة عبدالله بن خيثمة، خلَّف إلى أن مضى من مسير رسول الله ﷺ عشرة أيّام، ثمّ دخل يوماً على إمرأتين له، في يوم حارّ في

---

[١] المدجّج: اللابس السلاح. والسراة: الأسد. وسراة القوم: سادتهم. والمسرد: الدرع.

[٢] المسوس: سوس نوع من الدود يأكل الحب.

[٣] المدود أي فيه دود.

[٤] الإهالة: وقيل الدسم الجام. السنخة: الريح الكريهة بعد تلف الدسم والدهن.

عريشين لهما، قد رتّبتاهما، وبردتا الماء، وهيّأتا له الطعام، فقام على العريشين، وقال: سبحان الله! رسول الله قد غفرالله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، في الفتح على الريح والحرّ والقرّ يحمل سلاحه على عاتقه، وأبو خيثمة في ظلال باردة، وطعام مهيَّأ، وإمرأتين حسناوين، ما هذا بالنصف! ثمّ قال: والله لا أكلّم واحدة منكما كلمة، ولا أدخل عريشاً حتى ألحق بالنبيّ ﷺ.

فأناخ ناصحه [ناضحه]، وإشتدّ عليه، وتزوّد، وإرتحل وإمرأتاه تكلمانه، ولا يكلمهما، ثمّ سار حتى إذا دنا من تبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق. فقال النبيّ ﷺ: كن أبا خيثمة أولى لك. فلمّا دنا، قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله. فأناخ راحلته، وسلّم على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أولى لك. فحدّثه الحديث، فقال له خيراً، ودعا له، وهو الذي زاغ قلبه للمقام، ثمّ ثبّته الله.

وأمّا الآية الثانية: فإنّها نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُميّة، وذلك أنّهم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثمّ ندموا. فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة، جاؤوا إليه، وإعتذروا، فلم يكلّمهم النبيّ ﷺ، وتقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلّمهم أحد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله ﷺ، فقلن له: يا رسول الله! نعتزلهم؟ فقال: لا ولكن لا يقربوكنّ. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام، ولا يكلّمونهم، فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس، ولا يكلّمنا أحد منهم، فهلاّ نتهاجر نحن أيضا، فتفرّقوا ولم يجتمع منهم إثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً، يتضرّعون إلى الله تعالى، ويتوبون اليه، فقبل الله تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

المعنى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ أقسم الله تعالى في هذه الآية؛ لأنّ لام ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، بأنّه سبحانه قبل توبتهم

وطاعاتهم، وإنّما ذكر إسم النبيّ ﷺ ؛ مفتاحاً للكلام، وتحسيناً له، ولأنّه سبب توبتهم، وإلاّ فلم يكن منه ما يوجب التوبة. وقد روي عن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام: أنّه قرأ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ فى الخروج معه إلى تبوك ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وهي صعوبة الأمر. قال جابر: يعني عسرة الزاد، وعسرة الظهر، وعسرة الماء. والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة؛ لأنّ الساعة تقع على كل زمان. وقال عمر ابن الخطاب: أَصابنا حرّ شديد، وعطش، فأمطر الله سبحانه السماء بدعاء النبيّ ﷺ، فعشنا بذلك.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عن الجهاد، فهمُّوا بالإنصراف من غزاتهم، من غير أمر، فعصمهم الله تعالى من ذلك، حتى مضوا مع النبيّ ﷺ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد ذلك الزيغ، ولم يرد بالزيغ هيهنا الزيغ عن الإيمان ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تداركهم برحمته، والرأفة أعظم من الرحمة.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال مجاهد: معناه: خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول التوبة ممّن قبل توبتهم من المنافقين، كمال قال سبحانه فيما مضى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ وقال الحسن، وقتادة: معناه: خلّفوا عن غزوة تبوك لمّا تخلّفوا هم. وأمّا قراءة أهل البيت عليهم السلام: ﴿خَالِفُوا﴾ فإنّهم قالوا: لو كانوا خلفوا لما توجّه عليهم العتب، ولكنّهم خالفوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها. و«ما» هيهنا مصدريّة، ومعناه: ضاقت عليهم الأرض مع إتّساعها، وهذه صفة من بلغ غاية الندم، حتى كأنّه لا يجد لنفسه مذهباً، وذلك بأنّ النبيّ ﷺ أمر الناس بأن لا يجالسوهم، ولا يكلّموهم كما مرّ ذكره؛ لأنّه كان نزلت توبة الناس، ولم تنزل توبتهم، ولم يكن ذلك على معنى ردّ توبتهم؛ لأنّهم كانوا مأمورين بالتوبة، ولا يجوز في الحكمة ردّ توبة من يتوب في وقت التوبة، لكنّ الله سبحانه أراد بذلك

تشديد المحنة عليهم في تأخير إنزال توبتهم، وأراد بذلك إستصلاحهم، وإستصلاح غيرهم؛ لئلاّ يعودوا إلى مثله.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه عبارة عن المبالغة في الغمّ، حتى كأنّهم لم يجدوا لأنفسهم موضعاً يخفونها فيه. وقيل: معنى ضيق أنفسهم: ضيق صدورهم بالهمّ الذي حصل فيها.

﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: وأيقنوا أنّه لا يعصمهم من الله موضع يعتصمون، به ويلجأون إليه غيره تعالى، ومعناه: علموا أنّه لا معتصم من الله إلاّ به، وأن لا ينجيهم من عذاب الله إلاّ التوبة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: ثمّ سهّل الله عليهم التوبة حتى تابوا. وقيل: ليتوبوا أي: ليعودوا إلى حالتهم الأولى قبل المعصية. وقيل: معناه: ثمّ تاب على الثلاثة، وأنزل توبتهم على نبيّه ﷺ؛ ليتوب المؤمنون من ذنوبهم؛ لعلمهم بأنّ الله سبحانه قابل التوبة. قال الحسن: أما والله ما سفكوا من دم، ولا أخذوا من مال، ولا قطعوا من رحم، ولكن المسلمين تسارعوا في الشخوص مع رسول الله ﷺ، وتخلّف هؤلاء، وكان أحدهم تخلّف بسبب ضيعة له، والآخر لأهله، والآخر طلباً للراحة، ثمّ ندموا وتابوا، فقبل الله توبتهم.

﴿إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: الكثير القبول للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.

النظم: إتّصلت الآية الأولى بقوله: ﴿التَائِبُوْنَ﴾ الآية، أثنى الله سبحانه عليهم هناك، وبيّن في هذه الآية قبول توبتهم، ورضاه عنهم بإتّباعهم للنبيّ ﷺ في ساعة العسرة، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه سبحانه لمّا ذكر أنّ له ملك السماوات والأرض، ولا ناصر لأحد دونه، بيّن عقيبه رحمته بالمؤمنين، ورأفته بهم، في قبول توبتهم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

القراءة: في مصحف عبدالله، وقراءة ابن عباس: ﴿مِنَ الصَّادِقِين﴾ وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام.

اللغة: الصادق: هو القائل بالحقّ، العامل به؛ لأنّه صفة مدح، ولا يطلق إلاّ على من يستحقّ المدح على صدقه.

المعنى: ثمّ خاطب الله سبحانه المؤمنين المصدّقين بالله، المقرّين بنبوّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ أي: إتّقوا معاصي الله وإجتنبوها. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الذين يصدقون في أخبارهم، ولا يكذبون، ومعناه: كونوا على مذهب من يستعمل الصدق في أقواله وأفعاله، وصاحبوهم ورافقوهم، كقولك: أنا مع فلان في هذه المسألة أي: أقتدي به فيها. وقد وصف الله الصادقين في سورة البقرة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوْا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فأمر سبحانه بالإقتداء بهؤلاء الصادقين المتّقين. وقيل: المراد بالصادقين: هم الذين ذكرهم الله في كتابه، وهو قوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، يعني حمزة بن عبدالمطّلب، وجعفر بن أبي طالب. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يعني: عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وروي الكلبي: عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كونوا مع الصّادقين، مع عليّ وأصحابه. وروي جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: مع النبيّين والصدّيقين في الجنّة بالعمل الصالح في الدنيا، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: مع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، ـ عن نافع ـ. وقيل: مع الذين صدقت نيّاتهم، وإستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

ولم يتخلّفوا عنه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ معنى ﴿مَعَ﴾ هنا معنى «من» فكأنّه أمر بالكون من جملة الصادقين، ويعضده قراءة من قرأ: ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والمعنيان متقاربان هنا؛ لأنّ ﴿مَعَ﴾ للمصاحبة، و«من» للتبعيض، فإذا كان من جملتهم، فهو معهم وبعضهم. وقال ابن مسعود: لا يصلح من الكذب جدّ ولا هزل، ولا أن يعِد أحدكم صبيَّه، ثمّ لا ينجّز له، إقرأوا إن شئتم هذه الآية، هل ترون في الكذب رخصة؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟
عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ (١)

(اللغة): الرغبة: طلب المنفعة، يقال: رغب فيه: إذا طلب المنفعة به، ورغب

(١) إعلم أنّ في مذهب أهل العدل، كل مشقّة تصيب العبد من الله تعالى يجب عليه مكافاتها، فإن كانت المشقّة من غير إختيار العبد، كالمرض والفقر، سمّي جزائه عوضاً، وإن كان فعلاً إختيارياً والسبب فيه أمره تعالى، سمّي ثواباً، ولا فرق فيه بين أن يكون واجباً نفسيّاً، أو مقدّميّاً منع دون الوصول إلى ذي المقدّمة؛ لأنّ كليهما مشقّة، سببها من الله تعالى، والآية تدلّ عليه. وما قيل: من الفرق بينهما، فإنّه غير معقول.

به [عنه]، إذا طلب المنفعة بتركه. والظمأ: شدّة العطش. والنصب: التعب، ومثله: الوصب. قال النابغة:

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبٍ وَلَيْلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ[1]

والمخمصة: المجاعة. وأصله: ضمور البطن للمجاعة. ورجل خميص البطن، وإمرأة خمصانة: ضامرة البطن. والمَوطىء: الأرض. والغيظ: إنتقاض الطبع بما يرى ممّا يسوؤه. يقال: غاظه، يغيظه.

المَعْنَى: لمّا قصّ الله سبحانه قصّة الذين تأخّروا عن الخروج مع النبيّ ﷺ إلى غزوة تبوك، ثمّ إعتذارهم عن ذلك، وتوبتهم منه، وأنّه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفتة بهم، ورحمته عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم، والإزراء على ما كانوا فعلوه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ﴾ ظاهره خبر، ومعناه نهي، مثل قوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ الله﴾ أي: ما كان يجوز، وما كان يحلّ لأهل مدينة الرسول ﷺ، ومن حولهم من سكّان البوادي، أن يتخلّفوا عنه في غزاة تبوك وغيرها، بغير عذر. وقيل: انه مزينة، وجهينة، وأشجع، وغفار، وأسلم.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: ما كان يجوز لهم، ولجميع المؤمنين أن يطلبوا نفع نفوسهم بتوقيتها دون نفسه، وهذه فريضة ألزمهم الله إيّاها لحقّ رسول الله ﷺ فيما دعاهم إليه من الهدى الذي إهتدوا به، وخرجوا من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وقيل: معناه: ولا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدعة، ورسول الله ﷺ في الحرّ والمشقّة. يقال: رغبت بنفسي عن هذا الأمر أي: ترفعت عنه، بل عليهم أن يجعلوا أنفسهم وقاية للنبيّ ﷺ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النهي لهم، والزجر عن التخلّف ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: ولا تعب في أبدانهم ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

أي: ولا مجاعة، وهي شدّة الجوع في طاعة الله ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: لا يضعون أقدامهم موضعاً يغيظ الكفّار وطؤهم إيّاه، يعني دار الحرب، فإنّ الإنسان يغيظه ويغضبه أَنْ يطأ غيره موضعه.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً﴾ أي: ولا يصيبون من المشركين أمراً، من قتل، أو جراحة، أو مال، أو أمر يغمُّهم، ويغيظهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وطاعة رفيعة.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين يفعلون الأفعال الحسنة التي يستحقّ بها المدح والثواب. وفي هذا تحريض على الجهاد وأعمال الخير.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: ولا ينفقون في الجهاد، ولا في غيره من سبل الخير والمعروف، نفقة قليلة ولا كثيرة، يريدون بذلك إعزاز دين الله، ونفع المسلمين، والتقرّب بذلك إلى الله تعالى.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً﴾ أي: ولا يجاوزون [لا يجازون] وادياً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ثواب ذلك.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها بقدر إستحقاقهم، ويزيدهم من فضله، حتى يصير الثواب أحسن وأكثر من عملهم. وقيل: إنّ الأحسن من صفة فعلهم؛ لأنّ الأعمال على وجوه: واجب، ومندوب، ومباح. وإنّما يجازي على الواجب والمندوب، دون المباح، فيقع الجزاء على أحسن الأعمال. وقيل: معناه: ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون. قال ابن عباس: يرضيهم بالثواب، ويدخلهم الجنّة بغير حساب.

والآيتان تدلاّن على وجوب الجهاد مع رسول الله ﷺ، وحظر التخلّف عنه. وقد أختلف في ذلك، فقيل: المراد بذلك: جميع من دعاه النبيّ ﷺ إلى الجهاد، وهو الصحيح. وقيل: المراد به: أهل المدينة، ومن حولها من الأعراب.

ثمّ أختلف فيه من وجه آخر، فقيل: إنّه خاصّ في النبيّ ﷺ، ليس لأحد أن يتخلّف عنه في الجهاد إلاّ لعذر. فأمّا غيره من الأئمّة فيجوز التخلّف عنه، ـ عن

قتادة ـ. وقيل: إنّ ذلك لأوّل هذه الأُمّة وآخرها، من المجاهدين في سبيل الله، ـ عن الأوزاعي، وابن المبارك ـ. وقيل: إنّ هذا كان فى إبتداء الإسلام، وفي أهله قلّة، فأمّا الآن وقد كثر الإسلام وأهله، فإنّه منسوخ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية، ـ عن ابن زيد ـ. وهذا هو الأقوى؛ لأنّه لا خلاف أنّ الجهاد من فروض الكفايات، فلو لزم كل أحد، لصار من فروض الأعيان.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١) ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

(اللغة): التفقّه: تعلّم الفقه. والفقه: العلم بالشيء. وفي حديث سلمان أنّه

---

(١) الآية تدلّ على وجوب الاجتهاد، وتحصيل علوم الدين، ورجوع الناس إلى أقوال المجتهدين، وربما يستدلّ بها على حجّيّة خبر الواحد، وهو ضعيف؛ لأنّ مدلول الآية أنّ المخبر مجتهد، والآخذ غير متفقّه، وأمّا إذا كان المخبر غير مجتهد، والآخذ مجتهداً، فهو خارج عن مورد الآية. والإنذار يصدق على التعليم بالأدلّة، كما في تعليم أصول الدين، فلايدلّ على وجوب قبول الآخذ قول المخبر من غير دليل، بل يدلّ على وجوب التعلّم فقط، والإكتفاء في الفروع بالتقليد يعلم من دليل آخر، وهو السيرة والحرج.

قال لإمرأة فقهت أي: علمت وفهمت. فأمّا فقُهت، ـ بضمّ القاف ـ فمعناه: صارت فقيهة. وقد إختصّ في العرف بعلم الأحكام الشرعيّة[١]، فيقال لكل عالم بها: فقيه.

وقيل: الفقه: فهم المعاني المستنبطة، ولذلك لا يقال: الله سبحانه فقيه. والحذر: تجنّب الشيء بما فيه من المضرّة. قال الزجّاج: يقال: غُلظة وغَلاظة وغِلاظة ثلاث لغات. قال أبو الحسن: قراءة الناس بالكسر، وهي العربيّة، والمراد بالمرض في الآية: الشكّ؛ فإنّه فساد في القلب، يحتاج إلى العلاج، كما أنّ الفساد في البدن يحتاج إلى مداواة. ومرض القلب أعضل، وعلاجه أعسر، ودواؤه أعزّ، وأطبّاؤه أقلّ.

الإعراب: ﴿لَوْلاَ نَفَرَ﴾ بمعنى: هلاّ نفر، وهي للتحضيض إذا دخلت على الفعل، فإذا دخلت على الإسم، فمعناها: إمتناع الشيء لأجل وجود غيره، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: ليتفقّه باقوهم؛ لأنّه إذا نفر طائفة منهم تفقّه من بقي منهم، وإن شئت فمعناه: ليتفقّه كلّهم؛ لأنّه من نفر منهم إذا رجع إستعلم من بقي، فصار كلّهم فقهاء. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: جملة في موضع الحال، وكذلك قوله: ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

النزول: قيل: كان رسول الله ﷺ إذا خرج غازياً، لم يتخلّف عنه إلاّ المنافقون والمعذّرون، فلمّا أنزل الله تعالى عيوب المنافقين، وبيّن نفاقهم في غزاة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلّف عن غزاة يغزوها رسول الله ﷺ، ولا سرية

---

(١) يعني في عرف الناس، وأمّا في القرآن والسنّة، فالتفقّه في الدين يشمل جميع علوم الدين، فالعالم بالقرآآت وأصول الدين، والحديث، والآداب، والسنن، والتفسير، وغيرها أيضاً فقيه، كالعالم بالفروع. والإنذار يشمل التعليم بلادليل في الفروع، والتعليم بالدليل في أصول الدين وما لايكتفي فيه بالظنّ؛ لأنّه يحتاج إلى معلّم أو مذكّر، وإن كان المكلّفون يجب عليهم فيها تحصيل العلم بأنفسهم عن أدلّتها، فإنّه لايحصل بغير معلّم عادة؛ لأنّ كل ذلك يتضمّن الإنذار، ولايختصّ بالوعظ، كما توّهم.

أبداً! فلمّا أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً، وتركوا رسول الله ﷺ وحده، فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا﴾ الآية، ـ عن ابن عباس، في رواية الكلبي ـ. وقيل: إنّها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً وخصبا، ودعوا من وجدوا من الناس على الهدى، فقال الناس: وما نراكم إلاّ وقد تركتم صاحبكم، وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم في ذلك حرجاً، وأقبلوا كلّهم من البادية، حتى دخلوا على النبيّ ﷺ فأنزل الله عزّوجلّ، هذه الآية، ـ عن مجاهد ـ.

المعنى: لمّا تقدّم الترغيب في الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب، وتأنيب من تخلّف عنه بأبلغ أسباب التأنيب، بيّن في هذه الآية موضع الرخصة في تأخير من تأخّر عنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، وهذا نفي، معناه النهي أي: ليس للمؤمنين أن ينفروا، ويخرجوا إلى الجهاد بأجمعهم، ويتركوا النبيّ ﷺ فريداً وحيداً. وقيل: معناه: ليس عليهم أن ينفروا كلّهم من بلادهم إلى النبيّ ﷺ ليتعلّموا الدين، ويضيعوا ما وراءهم، ويخْلُوا ديارهم، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أُختلف في معناه على وجوه:

أحدها: إنّ معناه: فهلاّ خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة، ويبقى مع النبيّ ﷺ جماعة؛ ليتفقّهوا في الدين، يعني الفرقة القاعدين، يتعلّمون القرآن، والسنن، والفرائض، والأحكام، فإذا رجعت السرايا، وقد نزل بعدهم قرآن، وتعلّمه القاعدون، قالوا لهم إذا رجعوا إليهم: إنّ اللّه قد أنزل بعدكم على نبيّكم قرآناً، وقد تعلّمناه. فتعلّمه السرايا، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وليعلّموهم القرآن، ويخوّفوهم به إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ فلا يعملون بخلافه، ـ عن ابن عباس في رواية الوالبي، وقتادة، والضحّاك ـ. وقال

الباقر عليه السلام: كان هذا حين كثر الناس، فأمرهم الله أن تنفر منهم طائفة، وتقيم طائفة للتفقّه، وأن يكون الغزو نوباً.

وثانيها: إنّ التفقّه والإنذار يرجعان إلى الفرقة النافرة، وحثّها الله تعالى على التفقّه؛ لترجع إلى المتخلّفة فتحذرها، ومعنى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾: ليتبصّروا ويتيقّنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين؛ ونصرة الدين، ولينذروا قومهم من الكفّار إذا رجعوا إليهم من الجهاد، فيخبروهم بنصرالله النبيّ، والمؤمنين، ويخبروهم أنّهم لا يدان لهم بقتال النبيّ والمؤمنين، لعلّهم يحذرون أن يقاتلوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفّار، ـ عن الحسن، وأبي مسلم ـ. قال أبو مسلم: إجتمع للنافرة ثواب الجهاد، والتفقّه في الدين، وإنذار قومهم.

وثالثها: إنّ التفقّه راجع إلى النافرة، والتقدير: ما كان لجميع المؤمنين أن ينفروا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ويخلوا ديارهم، ولكن لينفر إليه من كل ناحية طائفة؛ لتسمع كلامه، وتتعلّم الدين منه، ثمّ ترجع إلى قومها، فتبيّن لهم ذلك، وتنذرهم، عن الجبائي قال: والمراد بالنفر هنا: الخروج لطلب العلم، وإنّما سمّي ذلك نفراً؛ لما فيه من مجاهدة أعداء الدين. قال القاضي أبو عاصم: وفي هذا دليل على اختصاص الغربة بالتفقّه، وأنّ الإنسان يتفقّه في الغربة ما لا يمكنه ذلك في الوطن.

ثمّ بيّن سبحانه ما يجب تقديمه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي: قاتلوا من قرب منكم من الكفّار، الأقرب منهم فالأقرب، في النسب والدار. وقال الحسن: كان هذا قبل الأمر بقتال المشركين كافّة. وقال غيره: هذا الحكم قائم الآن، لأنّه لا ينبغي لأهل كل بلد، أن يخرجوا إلى قتال الأبعد، ويدعوا الأقرب والأدنى؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى الضرر، وربما يمنعهم ذلك عن المضي في وجهتهم، إلاّ أن يكون بينهم وبين الأقرب موادعة، فلا بأس حينئذ بمجاورة [بمحاوزة] الأقرب إلى الأبعد، على ما يراه المتولّي لأمور المسلمين. ولو

قال سبحانه: قاتلوا الأبعد، لكان لا يصحّ؛ لأنّه لا حدّ للأبعد يبتدىء منه، كما للأقرب، وفي هذا دلالة على أنّه يجب على أهل كل ثغر، الدفاع عن أنفسهم إذا خافوا على بيضة الإسلام، وإن لم يكن هناك إمام عادل.

وقال ابن عباس: أُمروا أن يقاتلوا الأدنى فالأدنى من عدوّهم، مثل قريظة، والنضير، وخيبر، وفدك. وقال ابن عمر: إنّهم الروم؛ لأنّهم سكّان الشام، والشام أقرب إلى المدينة من العراق، وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم، والترك، والديلم: تلا هذه الآية ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: شجاعة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: شدّة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: صبراً على الجهاد، ـ عن الحسن ـ. والمعنى: وليحسّوا منكم بضدّ اللين، وخلاف الرقّة، وهو العنف والشدّة؛ ليكون زجراً لهم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك أي: معينهم وناصرهم، ومن كان الله ناصره لم يغلبه أحد، فأمّا إذا نصره سبحانه بالحجّة. فإنّه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنة، وشدّة التكليف.

ثمّ عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ في القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَنْ يَقُول﴾ على وجه الإنكار أي: يقول بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَاناً﴾ وقيل: معناه: يقول المنافقون للمؤمنين الذين في إيمانهم ضعف: أيّكم زادته هذه السورة إيماناً أي: يقيناً وبصيرة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ معناه: فأمّا المؤمنون المخلصون فزادتهم تصديقاً بالفرائض مع إيمانهم بالله، ـ عن ابن عباس ـ. ووجه زيادة الإيمان أنّهم كانوا مؤمنين بما قد نزل من قبل، وآمنوا بما أُنزل الآن ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يسرّون ويبشّر بعضهم بعضاً، قد تهلّلت وجوههم، وفرحوا بنزولها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى

رِجْسِهِمْ﴾ أي: نفاقاً وكفراً إلى نفاقهم، وكفرهم؛ لأنّهم يشكّون في هذه السورة، كما شكّوا فيما تقديها من السور، فذلك هو الزيادة. وسمّي الكفر رجساً على وجه الذمّ له، وأنّه يجب تجنّبه كما يجب تجنّب الأرجاس، وأضاف الزيادة إلى السورة؛ لأنّهم يزدادون عندها رجساً. ومثله: كفى بالسلامة داء. وقول الشاعر:

وحسبك داءً أَنْ تصحّ وتسلما[١]

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وأدّهم [أداهم] شكُّهم فيما أنزل الله تعالى من السور، إلى أن ماتوا على كفرهم، وآبوا شرّ مآب.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[١] ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

القراءة: قرأ: أولا ترون ـ بالتاء ـ حمزة، ويعقوب، وهي قراءة أبيّ بن

---

(١) مرّ في سورة البقرة قصر همزة «رؤف» لأبي عمرو، وأبي بكر، وحمزة، والكسائي. ووقف حمزة بالتسهيل بين بين، وضعّف إبدالها واواً.

[١] قائله: حميد بن ثور الهلالي، وصدره: (أرى بصري قد رابني بعد صحة).

كعب. والباقون: بالياء. والقراءة المشهورة: من أنفُسِكم. بضمّ الفاء ـ. وقرأ ابن عباس، وابن علية، وابن محيصن، والزهري: من أَنفَسِكم ـ بفتح الفاء ـ. وقيل: إنّها قرائة فاطمة عليها السلام.

الحجّة: من قرأ بالتاء: فهو خطاب للمؤمنين. ومن قرأ بالياء: فهو تقريع للمنافقين بالإعراض عمّا يجب أن لا يعرضوا عنه، من التوبة والإقلاع عمّا هم عليه من النفاق. ومن قرأ: من أنفَسِكم ـ بفتح الفاء ـ، فمعناه: من أَشرفكم، ومن خياركم، ويقال: هذا أنفس المتاع أي: أجوده وخياره، وإشتقاقه من النفس، وهي أشرف ما في الإنسان.

اللغة: العزيز: الشديد. والعزيز في صفات الله تعالى، معناه: المنيع القادر الذي لا يتعذّر عليه فعل ما يريده. والعزّة: إمتناع الشيء بما يتعذّر معه ما يحاول منه، وهو على ثلاثة أوجه: إمتناع الشيء بالقدرة، أو بالقلّة، أو بالصعوبة. والعنت: لقاء الشدّة والأذى الذي يضيق به الصدر. وعَنت الدابّة يعنَت عنتاً: إذا حدث في قوائمه كسر بعد جبر لا يمكنه معه الجري، فكأنّه شقّ عليه الجري. وأكمة عنوت: شاقّة المصعد. وحسبي الله أي: كافي الله، وهو من الحساب؛ لأنّه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغنى عن غيره، ويزيد من نعمه مالا يبلغ إلى حدّونهاية؛ إذ نعمه دائمة، ومننه متواترة متظاهرة. والتوكّل: تفويض الأمر إلى الله على الثقة، بحسن تدبيره وكفايته.

الإعراب: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ الواو للعطف، دخلت عليها همزة الإستفهام. ويحتمل الرؤية أن تكون المتعدّية إلى مفعولين، وأن تكون من رؤية العين. فإذا كانت المتعدّية إلى المفعولين يسدّان مسدّهما، وإن كانت من رؤية العين يكون أبلغ. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما: مصدريّة، وتقديره: عزيز عليه عنتكم، فهو في موضع رفع بعزيز. وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: جملة في موضع الحال، وتقديره: حسبي الله

مستحقّاً لإخلاص العبادة، والإقرار بالوحدانيّة. وجرّ القراء كلّهم. ﴿الْعَظِيْمِ﴾ على أنّه صفة العرش، ولو قرىء بالرفع على أن يكون صفة لربّ العرش، لجاز.

المعنى: ثمّ نبّه سبحانه على إعراض المنافقين على النظر والتدبّر، لما ينبغي أن ينظروا ويتدبّروا فيه، فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: أولا يعلم هؤلاء النافقون. وقيل: معناه: أولا يبصرون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يمتحنون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: دفعة أو دفعتين بالأمراض والأوجاع، وهو رائد الموت.

﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون عن كفرهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتذكّرون نعم الله عليهم. وقيل: يمتحنون بالجهاد مع رسول الله ﷺ، وما يرون من نصرة الله رسوله، وما ينال أعداؤه من القتل والسبي، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: بالقحط والجوع، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: بهتك أستارهم، وما يظهر من خبث سرائرهم، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: بالبلاء والجلاد، ومنع القطر، وذهاب الثمار، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ معناه: وإذا أنزلت سورة من القرآن، وهم حضور عند النبيّ ﷺ، كرهوا ما يسمعونه، ونظر بعضهم إلى بعض، نظراً يؤمون [يؤمنون] به ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾، وإنّما يفعلون ذلك؛ لأنّهم منافقون يحذرون أن يعلم بهم، فكأنّهم يقول بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد، ثمّ يقومون فينصرفون، وإنّما يفعلون ذلك مخافة أن تنزل آية تفضحهم، وكانوا لا يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن ينظرون نظر من يقول لغيره ذلك القول، فكأنّه يقول ذلك.

وقيل: معناه: إنّ المنافقين كان ينظر بعضهم إلى بعض نظر تعنّت وطعن في القرآن، ثمّ يقولون هل يرانا أحد من المسلمين، فإذا تحقّق لهم أنّه لا يراهم أحد من المسلمين فإذا تحقّق لهم أنّه لا يراهم أحد من المسلمين، بالغوا فيه، وإن علموا أنّهم يراهم واحد منهم، كفوا عنه.

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أي: إنصرفوا عن المجلس. وقيل: إنصرفوا عن الإيمان به ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الفوائد التي يستفيدها المؤمنون والسرور بها، وحرّموا الإستبشار بتلك الحال. وقيل: معناه: صرف الله قلوبهم عن رحمته وثوابه، عقوبة لهم على إنصرافهم عن الإيمان بالقرآن، وعن مجلس النبيّ ﷺ. وقيل: إنّه على وجه الدعاء عليهم أي: خذلهم الله بإستحقاقهم ذلك، ودعاء الله على عباده وعيد لهم، وإخبار بلحاق العذاب بهم، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: ذلك بسبب أنّهم لا يفقهون مراد الله بخطابه؛ لأنّهم لا ينظرون فيه.

ثمّ خاطب الله سبحانه جميع الخلق، وأكّد خطابه بالقسم فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ عني بالرسول محمّداً ﷺ، أي: جاءكم رسول من جنسكم من البشر، ثمّ [من العرب، ثمّ] من بني إسماعيل، ـ عن السدّي ـ. وقيل: إنّ الخطاب للعرب، وليس في العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبيّ ﷺ، وله فيهم نسب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إنّه من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهليّة، ـ عن الصادق عليه السلام ـ. وروي ابن عباس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما ولدني من سفاح أهل الجاهليّة شيء، ما ولدني إلاّ نكاح كنكاح الإسلام. وإنّما منّ الله عليهم بكونه منهم؛ لأنّهم إذا عرفوا مولده، ومنشأه، وشاهدوه صغيراً وكبيراً، وعرفوا حاله في صدقه وأمانته، ولم يعثروا على شيء يوجب نقصاً فيه، فبالحوي أن يكونوا أقرب إلى القبول منه، والإنقياد له.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه: شديد عليه عنتكم أي: ما يلحقكم من الضرر بترك الإيمان. وقيل: معناه: شديد عليه ما أثمتم، ـ عن الكلبي، والضحّاك ـ. وقيل: ما أعنتكم وضرّكم، ـ عن القتيبي ـ. وقيل: ما هلكتم عليه، ـ عن ابن الأنباري ـ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: حريص على من لم يؤمن أن يؤمن، ـ عن

الحسن، وقتادة ـ.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: هما واحد. والرأفة: شدّة الرحمة. وقيل: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين. وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يره. وقال بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين إسمين من أسمائه إلاّ للنبيّ ﷺ؛ فإنّه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: ذهبوا عن الحقّ، وإتّباع الرسول، وما يأمرهم به، وأعرضوا عن قبوله. وقيل: معناه: فإن تولّوا عنك، وعن الإقرار بنبوّتك.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ أي: كافي الله؛ فإنّه القادر على كل شيء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت، وعليه إعتمدت، وأُموري إليه فوّضت.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ خصّ العرش بالذكر؛ تفخيماً لشأنه؛ ولأنّه إذا كان ربّ العرش مع عظمه، كان ربّ ما دونه في العظم، وقيل: إنّ العرش عبارة عن الملك والسلطان، فمعناه: ربّ الملك العظيم في السماوات والأرض، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّ هذه الآية آخر آية نزلت من السماء، وآخر سورة كاملة نزلت سورة براءة. وقال قتادة: آخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان خاتمة براءة.

سورة يونس

هي مكّيّة في قول الأكثرين. وروي عن ابن عباس، وقتادة، إلاّ ثلاث آيات، نزلت بالمدينة: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى آخرهنَّ. وقال ابن المبارك الا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنْ بِهِ﴾ الآية، فإنّها نزلت في اليهود بالمدينة.

عَدَدُ آيِهَا: مائة وتسع آيات عند الجميع، غير الشاميّ، فإنّه يقول: وعشر آيات.

اخْتِلَافُهَا: ثلاث آيات: مخلصين له الدين، وشفاء لما في الصدور، شاميّ. من الشاكرين، غير الشاميّ.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدَّق بيونس، وكذَّب به، وبعدد من غرق مع فرعون. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، كان يوم القيامة من المقرّبين.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سورة البراءة بذكر الرسول ﷺ إفتتح هذه السورة بذكره، وما أُنزل عليه من القرآن، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك ءايت الكتب الحكيم ﴿١﴾ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكفرون إن هذا لسحر مبين ﴿٢﴾

القراءة: قرأ: الر ـ بإمالة الراء ـ أبو عمرو، وأهل الكوفة، غير عاصم، إلاّ يحيى[1]. وقرأ الباقون: بالتفخيم. وقرأ: لساحر بالألف ـ ابن كثير، وأهل الكوفه. وقرأ الباقون: لسِحر ـ بكسر السين، وبغير الف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من أمال، فقال راياً؛ فلأنّها أسماء لما تلفظ بها من الأصوات المنقطعة في مخارج الحروف، كما أنّ «غاق» إسم للصوت الذي يصوته الغراب، فجازت الإمالة فيها من حيث كانت إسماً، ولم تكن كالحروف التي يمتنع فيها الإمالة نحو: ما، ولا، وما أشبههما من الحروف.

فإن قلت: إنّ الأسماء لا تكون على حرفين أحدهما حرف لين، وإنّما يكون على هذه الصفة الحروف نحو ما ولا؟ فالقول: إنّ هذه الأسماء لا يمتنع أن تكون على حرفين: أحدهما حرف لين؛ لأنّ التنوين لا يلحقها فيؤمن لإمتناع

(١) الإمالة، قرائة ابن عامر أيضاً. وأراد بقوله: إلاّ يحيى: أنّ يحيى عن أبي بكر عن عاصم أمال أيضاً، ولم يمل عنه حفص، ولا أبو بكر في رواية، غير يحيى.

التنوين من اللحاق لها أن تبقى على حرف واحد؛ لأنّ التنوين لا يلحقها فيؤمن لإمتناع التنوين من اللحاق لها أنْ تبقى على حرف واحد، فإذا أمن ذلك لم يمتنع أن يكون الإسم على حرفين، أحدهما حرف لين، ألاترى أنّهم قد قالوا: هذا شاة، فجاء على حرفين، أحدهما حرف لين؛ لما أَمن لحاق التنوين له؛ لإتّصال علامة التأنيث به، وكذلك قولك: رأيت رجلاً ذا مال؛ لإتّصال المضاف إليه به، وكذلك قولهم: كسرت فاز يد. قال: ويدلّ على قول من قال: «لسحر»، قوله سبحانه: ﴿قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾. ويدلّ على «ساحر»، قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقد تقدّم قوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ فمن قرأ: ساحر، أراد الرجل، ومن قرأ: سحر، أراد الذي أُوحي سحر.

(اللغة): الآية: العلامة التي تنبىء عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة، والقرآن مفصل بالآيات، مضمن بالحكم النافية للشبهات. والحكيم هيهنا بمعنى المحكم، فعيل بمعنى «مفعل». قال الأعشى:

وَغَرِيبةٍ تَأْتِي المُلُوكَ حَكيمَةٍ ... قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذا قَالَهَا[1]

وأنشد أبو عبيدة لأبي ذؤَيب:

يُواعِدُني عُكَاظ لَنَنْزِلَنه ... وَلَمْ يُشْعِرْ إِذاً أَنى خَلِيفٌ

أي: مخلف من أَخلفته الوعد. وقيل: هو بمعنى الحاكم، ودليله: قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال الأزهري: القدم: الشيء الذي تقدمه قدّامك؛ ليكون عدة لك حتى تقدم عليه. وقيل: القدم: المقدم [المقدوم]، كالنقض والقبض. قال ابن الأعرابي: القدم المتقدّم في الشرف. وقال العجاج:

ذَلَّ بَنُوا الْعَوَّامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ ... وَتَرَكُوا الْمُلْكَ لِمُلْكٍ ذي قِدَمِ[2]

---

(١) يعني: كلمة حكيمة وغريبة نادرة تنقل في المحافل، حتى تصل إلى الملوك.

(٢) يشير إلى غلبة عبدالملك بن مروان بن الحكم، على عبدالله بن الزبير بن العوام، وأخذه الملك عنه، ورجوعه إلى بني أميّة، كما كان.

وقال الأزهري: فلان يمشي اليَقْدُمِيَّة والتَّقْدُمِيَّة: إذا تقدم في الشرف. وقال أبو عبيدة، والكسائي: كل سابق في خير أو شرّ، فهو عند العرب قدم. ويقال لفلان: قدم في الإسلام، وهو مؤنّث. يقال: قدم حسنة. قال حسان:

لَنَا الْقَدَمُ الأولى إِلَيْكَ، وَخَلْفُنَا ... لأَوَّلِنا في طاعةِ اللهِ تابعُ[1]

وقال ذو الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لايُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا ... مَعَ الْحَسَبِ الْعادِيِّ طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ[2]

الإعراب: أضيفت «آيات» إلى «الكتاب»؛ لأنّها أبعاض الكتاب، كما أن سوره أبعاضه. و ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ في موضع رفع؛ بأنّه إسم «كان». و﴿عَجَباً﴾ خبره، واللام في قوله: ﴿لِلنَّاس﴾ يتعلّق بمحذوف، كان صفة لعجب، فلمّا تقدّم، صار حالاً كقوله: «لعزة موحشاً طلل قديم»إن شئت كان ظرفاً لكان. ﴿أَنْ أَنْذِر﴾ في موضع نصب، تقديره: أوحينا بأن أنذر، فحذف الجارّ، فوصل الفعل. و﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ كذلك موضعه نصب بقوله: ﴿وَبَشِّرْ﴾. ولو قرىء: إنّ لهم ـ بالكسر ـ لكان جائزاً؛ لأنّ البشارة في معنى القول، إلاّ أنّه لم يقرأ به، وأُضيف «قدم» إلى «صدق»، كما يقال مسجد الجامع.

المعنى: ﴿الر﴾ قد مضى الكلام في معاني الحروف المعجمة المذكورة في أوائل السور من قبل.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ معناه: إنّ الآيات التي جرى ذكرها، أو الآيات التي أُنزلت على محمّدﷺ، هي آيات القرآن المحكم من الباطل

---

(١) يخاطب النبّي ﷺ، ويمدح الأنصار بمتابعتهم.

(٢) العاديّ: القديم جدّاً، منسوب إلى قوم عاد. والطمّ على البحر، كناية عن العظمة؛ إذ لايملاء البحر شيء.

الممنوع من الفساد، لا كذب فيه ولا إختلاف. وقيل: تلك: أي: هذه السور. آيات الكتاب الحكيم أي: اللوح المحفوظ. وسمّاه محكماً؛ لأنّه ناطق بالحكمة.

وقيل: لأنّه جمع العلوم والحكمة. وقيل: إنّما وصف الكتاب بالحكيم؛ لأنّه دليل على الحقّ، كالناطق بالحكمة، ولأنّه يؤدّي إلى المعرفة التي تميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ هذه ألف إستفهام، المراد به: الإنكار، وقيل: إنّ المراد بالناس هنا: أهل مكّة. قالوا: نعجب أنّ الله سبحانه لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس. إلاّ يتيم أبي طالب، والتقدير: أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس، بأن ينذرهم عجباً، ومعناه: لماذا تعجبون أن أوحينا إلى رجل منهم، وليس هذا موضع التعجّب، بل هو الذي كان يجب فعله عند كل العقلاء، فإنّ الله تعالى لمّا أكمل لعباده عقولهم، وكلّفهم معرفته، وأداء شكره، وعلم أنّهم لا يصلحون، ولا يقومون بذلك إلاّ بداع يدعوهم إليه، ومنبّه ينبّههم عليه، وجب في الحكمة أن يفعل ذلك.

ثمّ بيّن سبحانه الوجه الذي لأجله بعث، وما الذي أوحى إليه، فقال: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: أخبرهم بالعذاب، وخوّفهم به.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عرّفهم ما فيه الشرف والخلود في نعيم الجنّة، على وجه الإكرام والإجلال لصالح الأعمال. وقيل: إنّ لهم قدم صدق أي: أجراً حسناً، ومنزلة رفيعة، بما قدّموا من أعمالهم، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عنه أيضاً، أنّ المعنى: سبقت لهم السعادة في الذكر الأوّل، ويؤيّده قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية. وقيل: هو تقديم الله تعالى إيّاهم في البعث يوم القيامة بيانه قوله عليه السلام: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة. وقيل: إنّ «القدم» إسم للحسنى من العبد. واليد: إسم للحسنى من السيّد، للفرق بين السيّد والعبد. وقيل: إنّ معنى قدم صدق: شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله لهم يوم

القيامة، ـ عن أبي سعيد الخدريّ، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون النبيّ، أي: قالوا هذا ساحر، مظهر للسحر، أوما أتى به سحر بيّن، على إختلاف القراءتين. والسحر: فعل يخفي وجه الحيلة فيه، حتى يتوهّم أنّه معجز، وهذا يدلّ على عجزهم عن معارضة القرآن، ولذلك عدلوا وصفه بالسحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ[1] ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[2] ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر المدنيّ: أنّه يبدأُ ـ بفتح الهمزة ـ، وهو قراءة الأعمش. والباقون: بكسرها.

---

(١) قد مرّ في سورة الأنعام الأدلّة من طريق العقل على حدوث عالم الأجسام، وأنّ لخلق السماء والأرض إبتداء، وأمّا كونه في ستّة أيّام، فأخبر به الصادق، الذي ثبت صدقه بالمعجزة، ويجب قبول قوله بالسمع، والمراد بذلك: الشروع في الخلق لا الفراغ منه، كما قاله اليهود، وإلاّ فكل يوم هو في خلق شيء من السماء والأرض والانسان والحيوان وما قدره من الأقوات.

(٢) قرأ: «تذّكرون» ـ بتشديد الذال ـ جميع السبعة إلاّ حفصاً، وحمزة، والكسائي، فخفّفوا، وكلاهما من باب التفعّل، أحدهما: بحذف إحدى التائين، والآخر: بقلبها ذالاً، وإدغامها، كما هو مقرّر في محلّه.

الحجة: من قرأ: أنّه، فتقديره، وعد الله حقّاً؛ لأنّه يبدأُ الخلق، ثمّ يعيده أي: من قدر على هذا الأمر العظيم، فإنّه غنيّ عن إخلاف الوعد، وإن شئت كان تقديره: وعد الله وعداً حقّاً، أن يبدؤ الخلق، فيكون في محلّ النصب، بالفعل الناصب لقوله: وعداً. قال ابن جنّي: ولا يجوز أن يكون «انّ» منصوبة الموضع بنفس «وعداً»؛ لأنّه قد وصف بقوله: حقّاً، والصفة إذا جرت على موصوفها آذنت بتمامه، وإنقضاء أجزائه، ولا يكون تامّاً إذا كان ما بعد الصفة من صلته. فأمّا قول الحطيئة:

أَزْمَعْتُ يَأساً مُبِيناً مِنْ نَوالِكُمُ ... وَلَنْ تَرَى طارِداً لِلْحُرِّ كالْيَأْسِ[1]

فإنّ قوله: من نوالكم، ليس من صلة «يأس»، بل يتعلّق بفعل يدلّ عليه قوله: يأساً مبيناً، فكأنّه قال فيما بعد: يئست من نوالكم، وقال الفرّاء: من فتح، جعله مفعول «حقّاً»، كما في قول الشاعر:

أَحَقّاً عِبادَ الله أَنْ لَسْتُ زائراً ... بُثَيْنَةَ، أَوْ يَلْقَى الثُّرَيّا رَقِيبُها(١)

اللغة: القسط: العدل. ومنه: القسط: النصيب. والقَسط ـ بفتح القاف ـ: الجور. والقَسَط ـ بفتح القاف والسين ـ: إعوجاج في الرجلين. والحميم: الماء الذي أُسخن بالنار أشدّ إسخان. قال المرقش الأصغر:

في كُلِّ يَوْمٍ لَها مِقْطَرَةٌ ... فيها كِباءٌ مُمَسَّدٌ(٢)، وَحَمِيمُ

الإعراب: جميعاً: نصب على الحال. وعد الله: منصوب على المصدر؛ لأنّ قوله: إليه مرجعكم، معناه: الوعد بالرجوع. وحقّاً: منصوب على أحقّ ذلك حقّاً، ـ عن الزجّاج ـ، وأُضيف المصدر في قوله: وعد الله، إلى الفاعل؛ لما يذكر الفعل،

---

(١) هو الاكليل. ورقيب كل نجم: هو الذي يغرب عند طلوعه، وبينهما بُعد المشرقين، فلايلتقيان أبداً.

(٢) دخان مطويّ.

[١] الزَّمَعُ والزِّماع: المَضاء في الأمر والعزم عليه.

كما في قول كعب بن زهير:

تَسْعَى الوُشاةِ جَنابَيْها[١]، وقِيلَهُمُ: إِنّك يَا ابْـنَ أَبـي سُـلْمىٰ لَـمَقْتُولٌ

أي: ويقولون قيلهم.

المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أي: خالقكم ومنشئكم، ومالك تدبيركم وتصريفكم، من أَمـره ونـهيه. والذي يـجب عـليكم عـبادته ﴿اللهُ الَّـذِي خَـلَقَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: إخترعهما، وأنشأهما على ما فيهما من عجائب الصنعة، وبدائـع الحكمة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بلا زيادة ونقصان، مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة. والوجه فيه: أنّ في ذلك مصلحة للملائكة، وعبرة لهم ولغيرهم؛ إذا أخـبروا عـن ذلك. وكذلك تصريف الإنسان حالاً بعد حال، وإخراج الثمار والأزهار شيئاً بعد شيء، مع قدرته على ذلك في أقلّ من لمح البصر؛ لأنّ ذلك أبعد من توهّم الإتّفاق فيه.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ مرّ تفسيره في سورة الأعراف. وقيل: إنّ العرش المذكور هنا هو السماوات والأرض؛ لأنّهنّ من بنائه و العرش: المعظم الذي تعبد الله سبحانه الملائكة بالحفوف به، والإعظام له، وعناه بقوله: ﴿الَّـذِينَ يَـحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ فهو غير هذا. وقيل: إنّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى «الواو». وقيل: إنّ ﴿ثُمَّ﴾ دخل على التدبير، وتقديره، أي: ثمّ إستوى عليه بإنشاء التدبير من جهته، كما يستوي الملك على سرير ملكه بالإستيلاء على تدبيره، فإنّ تدبير الأمور كلّها ينزل من عند العرش، ولهذا ترفع الأيدي في دعاء الحوائج نحو العرش.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقدّره وينفذه على وجهه، ويرتّبه على مـراتـبه عـلى أحكام عواقبه، وهو مأخوذ من الدبور.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ إنّما قال هذا، وإن لم يجر ذكر للشفعاء؛ لأنّ

---

(١) أي: حوالي المعشوقة.

الكفّار كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله، فبيّن سبحانه أنّ الشفيع إنّما يشفع عنده، إذا أذن له في الشفاعة، وإذا كانت الأصنام لا تعقل، فكيف تكون شافعة، مع أنّه لا يشفع عنده أحد من الملائكة والنبيّين إلاّ بإذنه وأمره.

﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: إنّ الموصوف بهذه الصفات، هو إلهكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده؛ لأنّه لا إلٰه لكم سواه، ولا يستحقّ هذه الصفات غيره، ولا تعبدوا الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حثّهم سبحانه على التذكّر والتفكّر فيما أخبرهم به، وعلى تعرّف صحّته.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ «المرجع» يحتمل معنيين: **أحدهما**: أن يكون بمعنى المصدر، الذي هو الرجوع. **والآخر**: أن يكون بمعنى موضع الرجوع أي: إليه موضع رجوعكم يكوّن [يُكوّنه] إذا شاء.

﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾ أي: وعد الله تعالى ذلك عباده، وعداً حقاً صدقاً.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يبتديء الخلق إبتداء، ثمّ يعيدهم بعد موتهم.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ليؤتيهم جزاء أعمالهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، لا ينقص من أُجورهم شيئاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّ قد إنتهى حرّه في النار ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: جزاء على كفرهم.

[النظم]: وجه إتّصال هذه الآية بما قبلها: أنّه قال: أكان للناس عجباً؟ قالوا: وكيف لا نعجب، ولا علم لنا بالمرسل؟ فقال: إنّ ربّكم الله، ويجوز أن يكون على أنّه لمّا قال: أكان للناس عجباً، وكان هذا حكماً على الله سبحانه، فكأنّه قال: أفتحكمون عليه وهو ربّكم. قال الأصم: ويحتمل أن يكون هذا إبتداء خطاب للخلق جميعاً، إحتجّ الله بها على عباده، بما بيّن من بدائع صنعه في السماوات

والأرض، وفي أنفسهم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة، وابن كثير، وحفص، والعجلي: يفصل ـ بالياء ـ. والباقون: نفصل ـ بالنون ـ[1].

الحجة: من قرأ بالياء: فلأنّه تقدّم ذكر الله سبحانه، فأضمره في الفعل. ومن قرأ بالنون، فمثل قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا﴾.

اللغة: الجعل: إيجاد ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها. والضياء: يجوز أن يكون جمع «ضوء»، كسوط وسياط، وحوض وحياض، ويجوز أن يكون مصدر ضاء يضوء ضياء وضوءاً، مثل: عاذ يعوذ عياذاً وعوذاً، وقام يقوم قياماً، وعلى أيّ الوجهين كان، فالمضاف محذوف، وتقديره: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذانور. ويكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما.

والإختلاف: ذهاب كل واحد من الشيئين في غير جهة الآخر، فإختلاف الليل والنهار: ذهاب أحدهما في جهة الضياء، والآخر في جهة الظلام. والليل: عبارة عن وقت غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني. وليل وليلة، مثل: تمر وتمرة. والنهار: عبارة عن إتسّاع الضياء من طلوع الفجر الثاني، إلى غروب

---

(١) قرء قنبل: ضئاء ـ بهمزتين ـ. قيل: هذا بالقلب، فنقل الياء إلى آخر الكلمة، والهمزة إلى موضع الياء، فصار «ضئاى»، ثمّ بدّلت الياء آخر الكلمة همزة، مثل: كساءٍ

الشمس. والنهار واليوم، بمعنى واحد، إلاّ أنّ في النهار فائدة إتّساع الضياء.

المعنى: ثمّ زاد سبحانه في الإحتجاج للتوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ بالليل، والضياء أبلغ في كشف الظلمات من النور، وفيه صفة زائدة على النور[1] ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: وقدّر القمر منازل معلومة.

﴿لِتَعْلَمُوا﴾ به وبمنازله ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وأوّل الشهر وآخره، وإنقضاء كل سنة وكمّيّتها، وجعل الشمس والقمر آيتين من آيات الله تعالى، وفيهما أعظم الدلالات على وحدانيّته تعالى من وجوه كثيرة: منها: خلقهما وخلق الضياء والنور فيهما، ودورانهما، وقربهما وبعدهما، ومشارقهما ومغاربهما، وكسوفهما، وفي بثّ الشمس الشعاع في العالم، وتأثيرها في الحرّ والبرد، وإخراج النبات، وطبخ الثمار، وفي تمام القمر وسط الشهر، ونقصانه في الطرفين؛ ليتميّز أوّل الشهر وآخره من الوسط، كل واحد من ذلك نعمة عظيمة من الله سبحانه على خلقه، ولذلك قال: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لأنّ في ذلك منافع للخلق في دينهم ودنياهم، ودلائل على وحدانيّة الله وقدرته، وكونه عالماً لم يزل، ولا يزال. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يشرحها ويبيّنها آية آية. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيعطون كل آية حظّها من التأمّل والتدبّر، وقيل: إنّ المعنى في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ التثنية أي: قدّر الشمس والقمر منازل، غير أنّه وحده للإيجاز إكتفاء بالمعلوم، كما مرّ ذكر أمثاله فيما تقدّم، وكما في قول الشاعر:

رماني بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ، وَوالِدي ... بَرِيئاً، ومِنْ جَوْلِ الطَوِي رَمَاني[2]

---

(١) وذلك؛ لأنّ نور القمر مستفاد من الشمس، ويدلّ الآية الكريمة على ثبات مقدار حركاتهما؛ إذ لو لم تكن كذلك لم يعلم عدد السنين، وأحتمل كون ما مضى من السنين والشهور، أو يأتي منها أكثر أو أقلّ ممّا هو الآن، وإرتفع الإطمينان من الآجال، وإختلّ أمور الدين والدنيا، وأحتمل كون شهر رمضان مثلاً في سنة أربعين يوماً، والسنة عشرين شهراً، وإرتفع العلم.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

فإنّ الشمس تقطع المنازل في كل سنة، والقمر يقطعها في كل شهر، فإنّما يتمّ الحساب وتعلم الشهور، والسنون، والشتاء، والصيف، بمقاديرهما، ومجاريهما، في تداويرهما[١].

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فعله فيهما على ما يقتضيه الحكمة في السماوات من الأفلاك، والكواكب، السيارة، وغير السيارة، وفي الأرض من الحيوان، والنبات، والجماد، وأنواع الأرزاق، والنعم ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: حججاً ودلالات على وحدانيّة الله ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ معاصي الله، ويخافون عقابه. وخصّهم بالذكر؛ لإختصاصهم بالإنتفاع بها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّٰهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة ابن محيصن، ويعقوب: أنّ الحمد لله[٢].

---

(١) إن قيل: إذ كان سير الشمس والقمر بمقادير معيّنة، ووصف الله تعالى الناس بالعلم بالمقادير، وعدد السنين والحساب، فلمَ لايكتفي في الأمور الشرعيّة بحساب المنجّمين؟ قلنا: لأنّهم علموا المقادير الوسطيّة على التحقيق، بحيث لايحتمل الزيادة والنقيصة، والمقادير الحقيقيّة تحتملها يسيراً، وإذ إجتمعت مدّة صارت كثيرة محسوسة، وليس مبنى رؤية الهلال، على سير القمر على التحقيق.

(٢) أي: تشديد النون.

الحجة: وهذه القراءة تدلّ على أنّ قراءة الجماعة ـ أنْ الحمدلله ـ، إنّما هو على أنّ «أَنْ» مخفّفة من الثقيلة، كما فى قوله:

في فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ، قَدْ عَلِمُوا ... أَنْ هالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفىٰ، وَيَنْتَعِلُ

فيكون على تقدير: أنّه الحمدلله، ولا يجوز أن تكون «أن» هنا زائدة، كما زيدت في قوله:

وَيَوماً تُوافينا بوَجْهٍ مُقَسَّمٍ ... كَأَنْ ظَبْيَةٍ تَعْطُوا إِلى وَارِقِ السَّلَمِ[١]

أي: كظبية.

اللغة: الغفلة، والسهو من النظائر: وهو ذهاب المعنى عن النفس، ونقيضه: اليقظة. والدعوى: قول يدّعى به إلى أمر. والتحيّة: التكرمة بالحال الجليلة، ولذلك يسمّون الملك التحيّة. قال: مِنْ كُلِّ مٰا نٰالَ الْفَتىٰ قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا التَحِيَّة[٢] . وهو مأخوذ من قولهم: أحياك الله حياة طيّبة.

المعنى: ثمّ إنّه سبحانه أوعد الغافلين عن الأدلّة المتقدّمة، المكذّبين بالمعاد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لقاء جزائنا، ومعناه: لا يطمعون في ثوابنا، وأضافه إلى نفسه؛ تعظيماً له. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يخافون عقابنا، كما يكون الرجآء بمعنى الخوف، كما في قول الهذلي:

إِذٰا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ، لَمْ يَرْجُ لَسْعَهٰا ... وَخٰالَفَهٰا في بَيْتِ نُوبٍ عَوٰاسِلِ[١]

---

(١) النوب: النحل. والرجاء: هيهنا بمعنى الخوف. وخالفها: أي: صار خليفة للنحل، يقول: إذا لسعته النحل لم يخف، ودخل بيتها بعد خروجها.

[١] قائله: باعث بن صريم اليشكري، وقيل هو لكعب بن أرقم اليشكري. يصف امرأة حسنة الوجه، فشبَّهها بظبية مخصبة. والمقسم: بمعنى المحسن. ويقال: رجل مقسم الوجه أي: جميل كله. والعاطية: التي تتناول أطراف الشجر مرتعية. والوارق: المورق. والسّلم: شجر.

[٢] قائله: زهير بن جناب الكلبي. وقبله: (وتركتم أولاد سادات زنادكم ورية) وفي شعر كلام طويل، ذكره في (اللسان) في مادة «حيا» فراجع.

جعل سبحانه ملاقاة ما لا يقدر عليه إلاّ هو، ملاقاة له، كما جعل إتيان ملائكته إتياناً له في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلاَّ أَنْ يأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ تفخيماً للأمر.

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: متّعوا بها وإختاروها، فلا يعملون إلاّ لها، ولا يجتهدون إلاّ لأجلها، مع سرعة فنائها، ولا يرجون ما وراءها.

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: وسكنوا إلى الدنيا بأنفسهم، وركنوا إليها بقلوبهم أي: ذاهبون عن تأمّلها، فلا يعتبرون بها.

﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ﴾ أي: مستقرّهم النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي.

ثمّ وعد سبحانه المؤمنين بعد ما أوعد الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدّقوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحة ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ إلى الجنّة.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: تجري بين أيديهم الأنهار، وهم يرونها من علوٍّ، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتِك سَرِيّاً﴾ ومعلوم أنّه لم يجعل السريّ الذي هو الجدول تحتها، وهي قاعدة عليه، وإنّما أراد أنّه جعله بين يديها. وقيل: معناه: من تحت بساتينهم، وأَسِرَّتهم، وقصورهم، ـ عن الجبائي ـ. وقوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ يعني به: جزاء على إيمانهم.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاء المؤمنين في الجنّة، وذكرهم فيها أن يقولوا: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يقولون ذلك لا على وجه العبادة؛ لأنّه ليس هناك تكليف، بل يلتذّون بالتسبيح. وقيل: إنّهم إذا مرّ بهم الطير في الهواء يشتهونه، قالوا: سبحانك اللّهمّ، فيأتيهم الطير فيقع مشويّاً بين أيديهم، وإذا قضوا منه الشهوة، قالوا: الحمد لله ربّ العالمين، فيطير الطير حيّاً كما كان. فيكون مفتتح كلامهم في كل شيء التسبيح، ومختتم كلامهم التحميد، فيكون التسبيح في الجنّة بدل التسمية في الدنيا،

ـ عن ابن جريج ـ.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحيتهم من الله سبحانه في الجنّة سلام. وقيل: معناه: تحيّة بعضهم لبعض فيها، أو تحيّة الملائكة لهم فيها سلام، يقولون: سلام عليك أي: سلمتم من الآفات والمكاره التي إبتلى بها أهل النار.

وقد ذكرنا معنى قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس المراد: أنّ ذلك يكون آخر كلامهم، حتى لا يتكلّموا بعده بشيء، بل المراد: أنّهم يجعلون هذا آخر كلامهم في كل ما ذكروه، ـ عن الحسن، والجبائي ـ.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، ويعقوب: لَقَضىٰ ـ بفتح القاف ـ، أَجَلَهم ـ منصوب ـ. والباقون: لقُضِي، على ما لم يسمّ فاعله، أَجَلُهم ـ بالرفع ـ

الحجة: قال أبو عليّ: اللام في قوله: لقضي إليهم، جواب «لو» في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ والمعنى والله أعلم: ولو يجعل الله للناس دعاء الشرّ، أي: ما يدعون به من الشرّ على أنفسهم في حال ضجر، أو بطر، إستعجاله إيّاهم بدعاء الخير، فأضاف المصدر إلى المفعول، فحذف الفاعل، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ في حذف ضمير الفاعل،

والتقدير: ولو يعجّل الله للناس الشرّ استعجالاً مثل استعجالهم بالخير، لقضي إليهم أجلهم. قال أبو عبيدة: لقضي إليهم أجلهم: معناه: لفرغ من أجلهم، وأنشد لأبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِما مَسْرودَتان قَضاهُما ... داوُدُ، أَوْصَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[1]

ومثل ما أنشد قول الآخر:

قَضَيْتَ أُموراً ثُمَّ غادَرْتَ بَعْدَها ... بَوائِقَ في أَكْمامِها لَمْ تُفَتَّقِ[2]

والمعنى: لفرغ من أجلهم ومدّتهم المضروبة للحياة. وإذا انتهت مدّتهم المضروبة للحياة هلكوا. وهذا قريب من قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ وقالوا للميّت: مقضيّ، كأنّه قضي إذا مات، وقضى فعل، التقدير: إستوفى أجله، وفرغ منه. قال ذو الرمة:

إِذا الشَّخْصُ فيها هَزَّهُ الآلُ، أَغْمَضَتْ ... عَلَيْهِ كَإِغْماضِ الْمُقَضّىٰ هُجُوْلُها[3]

المعنى: أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها، فلم ير لغرقه في الآل، كاءغماض المقضي، وهو الميّت. وأمّا ما يتعلّق به الجارّ من قوله: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾، فكأنّه لمّا كان معنى قضى: فرغ، وكان قولهم: فرغ، يتعدّى بهذا الحرف في قوله:

الآنَ فقد فَرَغْتُ إِلىٰ نُمَيْر ... فَهٰذا حِينَ صِرْتُ لَهُمْ عَذاباً

---

(١) البيت من قصيدة، قالها في رثاء بنيه، الذين ماتوا بالطاعون، وهي من أبدع القصائد، ومنها: البيتان المعروفان: وإذ المنية أنشبت أظفارها آه، ويقول فيها لاينجو من الموت حتى الأوعال في الجبال. والمسرودة: الدرع، وكذلك السوابغ. وداود وتبّع: معروفان بإحسان الصنعة فيه.

(٢) شبّه المصائب التي تأتي بعد، بزهر في أكمامها، يعني: لم تظهر شدّة هذه المصائب بعد، وسيظهر.

(٣) الهجل: الأرض المستوية. والآل: السراب. والإغماض: كناية عن خفاء الشخص في السراب.

وفي التنزيل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أمكن أن يكون الفعل يعدَّى باللام، كما يعدّى بإلى وباللام في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾. فلمّا كان معنى قضى: فرغ، تعلّق بها «إلى»، كذلك تعلّق بقضي.

ووجه قراءة ابن عامر ـ لقَضى إليهم أجلَهم ـ على إسناد الفعل إلى الفاعل: أنّ الذكر قد تقدّم في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ﴾ فقال: لقضى على هذا. ومن حجّته في ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أجلاً وأجل مُسَمّىً عِندَهُ﴾ فهذا الأجل الذي في هذه الآية، هو الأجل المضروب للمحيا، كما أنّ الأجل في قوله: لقضي إليهم أجلهم، كذلك. فكما أُسند الفعل في الأجل المضروب للحياة إلى الفاعل في قوله: ثمّ قضى أَجلاً عند الجميع، كذلك أسنده ابن عامر في قوله: ﴿لَقَضى إليهم أَجلهم﴾ إلى الفاعل، ولم يسنده إلى الفعل المبنيّ للمفعول. ويدلّ على أنّ «لأجل» في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً﴾ أجل المحيا، أنّ قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ﴾ أَجل البعث يبيّن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: أنتم أيّها المشركون تشكُّون في البعث.

ومن قرأ: لقُضي، فبنى الفعل للمفعول به؛ فلأنّه في المعنى، مثل قول من بنى الفعل للفاعل.

الإعراب: قوله: ﴿لِجَنْبِهِ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: دعانا منبطحاً لجنبه، أو دعانا قائماً. ويجوز أن يكون تقديره: إذا مسّ الإنسان الضرّ لجنبه، أو مسّه قاعداً، أو مسّه قائماً، دعانا. وموضع «الكاف» من ﴿كَذَٰلِكَ﴾: نصب على مفعول ما لم يسمّ فاعله أي: زيّن للمسرفين عملهم مثل ذلك.

المعنى: ثمّ عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا، المطمئنّين إليها، الغافلين عن الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ أي: إجابة دعوتهم في الشرّ، إذا دعوا به على أنفسهم وأهاليهم، عند الغيظ والضجر، وإستعجلوه، مثل قول الإنسان رفعني الله من بينكم، وقوله لولده: أللهمّ العنه، ولا تبارك فيه ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ

﴿بِالْخَيْرِ﴾ أي: كما يعجّل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا إستعجلوها.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لفرغ من إهلاكهم، ولكنّ الله تعالى لا يعجّل لهم الهلاك، بل يمهلهم حتى يتوبوا. وقيل: معناه: ولو يعجّل الله للناس العقاب الذي إستحقّوه بالمعاصي، كما يستعجلونهم خير الدنيا، وربما أُجيبوا إلى ما سألوه، إذا إقتضت المصلحة ذلك، لفنوا؛ لأنّ بنية الإنسان في الدنيا لا تحتمل عقاب الآخرة، بل لا تحتمل ما دونه، والله سبحانه يوصله إليهم في وقته. وسمّي العقاب شرّاً من جهة المشقّة والأذى الذي فيه، وفائدته أنّه لو تعجّلت العقاب، لزال التكليف، ولا يزول التكليف إلاّ بالموت. وإذا عوجلوا بالموت لم يبق أحد.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: فندع الذين لا يخافون البعث والحساب، يتحيّرون في كفرهم، وعدولهم عن الحقّ إلى الباطل، وتمرّدهم في الظلم. والعمه: شدّة الحيرة.

ثمّ أخبر سبحانه عن قلّة صبر الإنسان على الضرر، والشدائد: فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي: المشقّة، والبلاء، والمحنة من محن الدنيا ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ أي: دعانا لكشفه مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ أي: على أيّ حال كان عليها، وإجتهد في الدعاء، وسؤال العافية. وليس غرضه بذلك نيل ثواب الآخرة، وإنّما غرضه زوال ما هو من الألم والشدّة. وقيل: إنّ تقديره: وإذا مسّ الإنسان الضرّ مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً، دعانا لكشفه، وفيه تقديم وتأخير.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ أي: فلما أزلنا عنه ذلك الضرر، ووهبنا له العافية ﴿مَرَّ﴾ أي: إستمرّ على طريقته الأولى، معرضاً عن شكرنا ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي: كأن لم يدعنا قطّ لكشف ضرّه، ولم يسألنا إزالة الألم عنه.

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما زيّن لهم الشيطان،

وأَقرانهم الغواة، ترك الدعاء عند الرخاء، زيّن للمسرفين أي: للمشركين عملهم، ـ عن الحسن ـ. ويحتمل أن يكون زيّن المسرفون بعضهم لبعض، وإن لم يضف التزيين إليهم، فهو كقولهم: فلان معجب بنفسه.

وقد حثّ الله سبحانه بهذه الآية، الذين منحوا الرخاء بعد الشدّة، والعافية بعد البليّة، على أن يتذكّروا حسن صنع الله إليهم، وجزيل نعمته عليهم، ويشكروه على ذلك، ويسألوه إدامة ذلك لديهم، ونبّه بذلك على وجوب الصبر عند المحنة، إحتساباً للأجر؛ وابتغاءً للثواب والذخر.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(اللغة): القرون: جمع قرن، وهو أهل كل عصر، سمّوا بذلك؛ لمقارنة بعضهم لبعض. ومنه: قرن الشاة، لمقارنته آخر بإزائه. والقِرْن ـ بكسر القاف ـ: هو المقاوم؛ لقرينه في الشدّة.

(الإعراب): موضع «كيف»: نصب بقوله: تعملون، وتقديره: لننظر أخيراً تعملون، أم شرّاً، ولا يجوز أن يكون معمول «ننظر»؛ لأنّ ما قبل الإستفهام، لا يعمل في ما بعده.

(المعنى): ثمّ أخبر سبحانه عمّا نزل بالأمم الماضية من المثلات، وحذّر هذه الأمّة عن مثل مصارعهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بأن أشركوا وعصوا ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

أي: بالمعجزات الظاهرة، والدلالات الواضحة.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ هذا إخبار بأنّ هذه الأمم إنّما أُهلكوا؛ لمّا كانوا في المعلوم أنّهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسل الذين أتوهم، والكتب التي جاؤوهم بها، وإستدلّ أبو عليّ الجبائي بهذا، على أنّ تبقية الكافر واجبة، إذا كان المعلوم من حاله أنّه يؤمن فيما بعد.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك نعذّب القوم المشركين في المستقبل، إذا لم يؤمنوا بعد قيام الحجّة عليهم، وعلمنا أنّهم لا يؤمنون، ولا يصلحون

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمّة محمّد ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، ومعناه: أسكناكم الأرض خلفهم.

﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لنرى عملكم أين يقع من عمل أُولئك، أتقتدرون بهم فتستحقّون من العقاب ما إستحقّوه، أم تؤمنون [فتستحقّون] الثواب. وإنّما قال: ﴿لِنَنْظُرَ﴾؛ ليدلّ على أنّه سبحانه يعامل العبد معاملة المختبر الذي لا يعلم الشيء، فيجازيه على ما يظهر منه، دون ما قد علم أنّه يفعله؛ مظاهرة في العدل، والنظر في الحقيقة لا يجوز على الله تعالى؛ لأنّه إنّما يكون بالقلب، وهو التفكّر، وبالعين وهو تقليب الحدقة نحو المرئي؛ إلتماساً لرؤيته مع سلامة الحاسّة. وأَحد هذين لا يجوز عليه سبحانه، وإنّما يستعمل ذلك في صفاته على وجه المجاز والإتّساع، فإنّ النظر إنّما هو لطلب العلم، وهو سبحانه يعامل عباده، معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم؛ ليجازيهم بحسبه.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ (١)
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٢) ﴿١٧﴾

القراءة: في رواية أبي ربيعة، عن البزي، عن ابن كثير: ولأَدْراكم، فجعلها لاماً دخلت على «أدراكم». وأمال الألف في «أدراكم، وأدراك» في جميع القرآن، أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف. وروي في الشواذّ عن ابن عباس والحسن: ولا اَدرَيكم [أَدرَأْتُكُم] به.

الحجة: قال أبو عليّ: حكى سيبويه دريته، ودريت به، والأكثر في

---

(١) ياء «إنّي أخاف ومايكون لي» ممّا إختلفوا في فتحها.

(٢) إتّفقت المصاحف على كتابة الهمزة المكسورة بعد الألف ياء في أربعة مواضع: تلقاىء هنا، وإيتاىء ذي القربى بالنحل، من آناىء الليل بـ «طه»، من وراى حجاب بالشورى. ويجب متابعتهم؛ لأنّ كل ما إلتزم به المسلمون في أمر القرآن، من القرائة والكتابة، ولم ينه عنه الأئمّة عليهم السلام، فالأصل أنّ ما عليه الناس صحيح، وتقريرهم عليهم السلام حجّة قطعاً، وإذا وقف حمزة على «تلقاي» وما كتب بياء مثله، أبدل الهمزة ألفا «بالمدّ أو القصر أو المتوسّط»، أو ياء على الرسم فيها بالسكون «بالمدّ أو القصر أو التوسّط أيضاً»، أو بالروم «بالقصر»، أو سهّلها بين بين «بالقصر أو المُدّ».

الإستعمال بالباء. ويبيّن ذلك قوله: ولا أدراكم، ولو جاء على اللغة الأخرى، لكان «ولا أدراكموه». وقال: الدرية: كالفطنة والشعرة، وهي مصادر يراد بها ضروب من العلم. أمّا الدراية فكالهداية والدلالة، فكأنّ الدراية التأنّي، والتعمّل لعلم الشيء. وعلى هذا المعنى ما تصرف من هذه الكلمة، أنشد أبو زيد:

فإنَّ غَزالَكَ الَّذي كُنْتَ تَدَّرِي إذا شِئْتَ لَيْثٌ خادِرٌ بَيْنَ أَشْبُل[1]

وتدّري: أي: تختل. ومنه: الدرية في قول أكثر الناس: الختل الذي يستتر به الصائد من الوحش، كأنّه يختل به، وداريت الرجل: لاينته وخاتلته، وإذا كان الحرف على هذا، فالداري في وصف القديم سبحانه لا يسوغ. فأمّا قول الراجز: «لا هُمَّ لا أَدْري وَأَنْتَ الدَّارِي» فلا يكون حجّة في جواز ذلك؛ لأنّه إستجاز ذلك لما تقدّم من قوله: لا أدري، كما جاز: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ و﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُم﴾، أيضاً فإنّ الأعراب يذكرون أشياء يمتنع جوازها كما قالوا:[2]

لاٰ هُمَّ إنْ كُنْتَ الَّذي بِعَهْدِي وَلَمْ تُغَيّرْكَ الْأُمُورُ بَعْدِي

وقال الآخر: «لَوْ خافَكَ الله عَلَيْهِ حَرَمه». فأمّا الهمزة على ما حكي عن الحسن وغيره[3]، فلا وجه له؛ لأنّ الدرء: الدفع. قال ابن جنّي: يجوز أن يكون لها وجه، وإن كان فيه ضعف صنعة، وهو أن يكون أراد، ولا أدريتُكم به، ثمّ قلبت الياء

---

(١) الإدّراء: الختل والمكر، يعني: ترى غزالاً ما هو أسد إذا شئت. ويمدّ فتحه لام «غزال» للوزن

(٢) يعني: إنّ أقوال العرب حجّة فيما يتعلّق باللغة، لا في عقائدهم في التوحيد، وعدم جواز إطلاق بعض الأسماء على الله تعالى، إنّما هو لدلالتها على نقص لايجوز فيه تعالى، وإطلاق العرب لايدلّ على جوازه؛ إذ لعلّهم لايعلمونه نقصاً في وجوب الوجود، وكذلك إعتقد الشاعر أنّ الله تعالى يغيره الأمور أو يخاف، وزعم أنّه ليس ذاك نقصاً.

(٣) قرائة الحسن على ماصّرح به في الإتحاف: أدرأتُكم ـ بالهمز بعد الراء، وتاء مضمومة بعدها، بصيغة المتكلّم ـ.

ألفاً؛ لإنفتاح ما قبلها، وإن كانت ساكنة كقولهم في يَيْأَس: يـاأَس، وفـي يَـيْبَسُ: يابَسُ. وقال قطرب: إنّ لغة عقيل في «أَعطيتك» أن يقولوا: أَعـطاتك، ثـمّ هـمز الألف على لغة من قال في الباز: البأز، وفى العالم والخاتم والتابل: العألم والخأتم والتأبل، ومن قرأ: ولأدريكم به، فمعناه: ولأعلمكم الله تـعالى بـه، فـيكون نـفياً للتلاوة، وإثباتاً للعلم، وعلى قراءة الجماعة يكون نفياً للأمرين جميعاً.

﴿اللغة﴾: التلقاء: جهة مقابلة الشيء، إلاّ أنّه قد يستعمل ظرفاً، فيقال: هو تلقاءه، كما يقال: هو حذاءه وقبالته وتجاهه وإزاءه. والعَمْر ـ بفتح العين، وسكون الميم ـ، والعُمُر ـ بضمّهما ـ: البقاء. وإذا أستعمل في القسم، فالفتح لا غير.

﴿النزول﴾: قيل: نزلت في خمسة نفر: عبدالله بن أُميّة المخزومي، والوليد بن مغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم، قالو للنبيّ ﷺ: إئت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى، ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بَدِّله تكلّم به من تلقاء نفسك، ـ عن مـقاتل ـ. وقيل: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمّد! إئت بقرآن غير هذا فيه ما نسألكه [نسلكه]، ـ عن الكلبي ـ.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه عن مشركي قريش، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَـلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ المُنْزَلة في القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في الحلال والحرام، وسـائر الشرائع، وهي نصب على الحال.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث والنشور، فلا يخشون عقابنا، ولا يطمعون في ثوابنا.

﴿إِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ الذي تتلوه علينا، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فاجعله على خلاف ما تقرؤه. والفرق بينهما: أنّ الإيمان [الإتيان] بغيره قد يكون مـعه، وتـبديله: لا يكون إلاّ برفعه. وقيل: معنى قوله: بَدّله: غَيِّر أحكامه من الحلال أو الحرام، أرادوا

بذلك زوال الحظر عنهم، وسقوط الأمر منهم، وأن يخلّي بينهم، وبين ما يريدونه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي: من جهة نفسي، وناحية نفسي؛ ولأنّه معجز فلا أقدر على الإتيان بمثله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أتّبع إلاّ الذي أوحى إليّ.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في إتّباع غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة. ومن إستدلّ بهذه الآية، على أنّ نسخ القرآن بالسنّة لا يجوز، فقد أبعد؛ لأنّه إذا نسخ القرآن بالسنّة، وما يقوله النبيّ ﷺ، فإنّه يقوله بالوحي من الله، فلم ينسخ القرآن، ولم يَبدّله من قبل نفسه، بل يكون تبديله من قبل الله تعالى، ولكن لا يكون قرآناً، ويؤيّد ذلك قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن الكريم، بأن كان لا ينزله عليّ

﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم اللّه به، بأن لا ينزله عليّ، فلا أقرأه عليكم، فلا تعلمونه.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: فقد مكثت، وأقمت بينكم دهراً طويلاً من قبل إنزال القرآن، فلم أقرأه عليكم، فلا تعلمونه، ولا إدّعيت نبوّة، حتى أكرمني الله تعالى بها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكّرون فيه بعقولكم، فتعلموا أنّ المصلحة فيما أنزله الله تعالى دون ما تقرؤونه. قال عليّ بن عيسى: العقل هو العلم الذي يمكن به الإستدلال بالشاهد على الغائب، والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت، فبعضهم أعقل من بعض، إذا كان أقدر على الإستدلال من بعض.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممّن إخترع على الله ﴿كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون، ـ عن الحسن ـ.

فإن قيل: أليس من إدّعى الربوبيّة أعظم ظلماً من المدعي للنبوّة؟ قلنا: إنّ المراد بقوله: ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ من كفر بالله تعالى، فقد دخل فيه من إدّعى الربوبيّة، وغيره من أنواع الكفّار، فكأنّه قال: لا أحد أظلم من الكافر.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ: تشركون ـ بالتاء ـ أهل الكوفة، غير عاصم، وكذلك في «النحل» في موضعين، وفى «الروم». والباقون: كل ذلك بالياء.

الحجة: من قرأ بالتاء؛ فلقوله: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللهَ﴾. ومن قرأ بالياء: إحتمل وجهين: أحدهما: على قل، كأنّه قيل له: قل أنت سبحانه وتعالى عمّا يشركون.

---

(١) الآية التي كانوا يطلبونها هنا، هي من آيات العذاب، وكان رسول الله ﷺ يتوعّدهم بأنّهم إن لم يومنوا ينزل عليهم العذاب، كما أنزل على الأمم السالفة، فطلبوا منه نزوله؛ تعجيزاً، كما قال تعالى: سئل سائل بعذاب واقع للكافرين إلى آخره. وأجاب النبيّ ﷺ بأنيّ لا أعلم الغيب، وهذا ممّا لم يوح إليّ، وينزّله الله العالم بالغيب، ونحن ننتظره، وليس المراد سؤال المعجزة بقرينة الجواب، وقال المصنّف أرادوا آية توجب العلم البديهي بالله تعالى، وصدق الرسول ﷺ. والأوّل أظهر.

والوجه الآخر: أن يكون هو سبحانه نزَّه نفسه عمّا أقرّوه، فقال ذلك.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام، التي لا يضرّهم إن تركوا عبادتها، ولا ينفعهم إن عبدوها. فإن قيل: كيف ذمّهم على عبادة الصنم الذي لا ينفع ولا يضرّ، مع أنّه لو نفع وضرّ، لكان لا يجوز أيضاً عبادته؟ قلنا: عبادة من لا يقدر على أُصول النعم، وإن قدر على النفع والضرّ، إذا كان قبيحاً، فمن لا يقدر على النفع والضرّ أصلاً من الجماد، تكون عبادته أقبح وأشنع، فلذلك خصّه بالذكر.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار أنّهم قالوا: إنّا نعبد هذه الأصنام؛ لتشفع لنا عند الله، وإنّ الله أذن لنا في عبادتها، وإنّه سيشفعها فينا في الآخرة، وتوهّموا أنّ عبادتها أشدّ في تعظيم الله سبحانه، من قصده تعالى بالعبادة، فجمعوا بين قبيح القول، وقبيح الفعل، وقبيح التوهّم. وقيل: معناه: هؤلاء شفعاؤنا في الدنيا لإصلاح معاشها، ـ عن الحسن ـ، قال: لأنّهم كانوا لا يقرُّون بالبعث بدلالة قوله: ﴿وأَقْسَمُوا بِاللهِ﴾ جهد أيمانهم، لا يبعث الله من يموت.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أمر سبحانه نبيّه ﷺ، أن يقول لهم على وجه الإلزام: أتخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الأصنام، وكونها شافعة؛ لأنّ ذلك لو كان صحيحاً، لكان تعالى به عالماً، ففي نفي علمه بذلك نفي المعلوم. ومعناه: إنّه ليس في السماوات، ولا الأرض، إله غير الله، ولا أحد يشفع لكم يوم القيامة. وقيل: معناه: أتخبرون الله بشريك، أو شفيع لا يعلم شيئاً، كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فكذلك وصفهم بأنّهم لا يعلمون في السماوات والأرض شيئاً.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزّه الله تعالى عن أن يكون له شريك

في إستحقاق العبادة. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ الناس كانوا جميعاً على الحقّ، وعلى دين واحد، فإختلفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه، ثمّ قيل: إنّهم إختلفوا على عهد آدم وولده، ـ عن ابن عباس، والسدّي، ومجاهد، والجبائي، وأبي مسلم ـ. ومتى إختلفوا؟ قيل: عند قتل أحد إبنيه أخاه. وقيل: إختلفوا بعد موت آدم عليه السلام؛ لأنّهم كانوا على شرع واحد، ودين واحد إلى زمن نوح، وكانوا عشرة قرون، ثمّ إختلفوا، ـ عن أبي روق ـ.

وقيل: كانوا على ملّة الإسلام من لدن إبراهيم عليه السلام إلى أن غيَّره عمرو بن لحي، وهو أوّل من غيَّر دين إبراهيم، وعبدالصنم في العرب، ـ عن عطاء ـ. يدلّ على صحّة هذه الأقوال قراءة عبدالله: وما كان الناس إلاّ أُمّة واحدة على هدى، فإختلفوا عنه.

وثانيها: إنّ الناس كانوا أمّة واحدة مجتمعة على الشرك والكفر، ـ عن ابن عباس، والحسن، والكلبي، وجماعة ـ، ثمّ إختلف هؤلاء، فقيل: كانت أمّة كافرة على عهد إبراهيم، ثمّ إختلفوا فتفرّقوا، فمنهم مؤمن، ومنهم كافر، ـ عن الكلبي ـ.

وقيل: كانت كذلك منذ وفاة آدم إلى زمن نوح، ـ عن الحسن ـ. وقيل: أراد به العرب الذين كانوا قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّهم كانوا مشركين إلى أن بعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فآمن به قوم، وبقي آخرون على الشرك.

وسئل علي عليه السلام عن هذا، فقيل: كيف يجوز أن يطبق أهل عصر على الكفر، حتى لا يوجد مؤمن يشهد عليهم، والله تعالى يقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؟ وأجيبوا عن ذلك: بأنّه يجوز أن يكون أهل كل عصر، وإن لم يخل عن مؤمنين، يشهدون عليهم، فربما يقلّون في عصر، وإنّما يتبع الإسم الأعمّ، وعلى هذا يقال: دار الإسلام، ودار الكفر. وفي تفسير الحسن: وما كان الناس إلى مبعث نوح، إلاّ ملّة واحدة كافرة الخاصّة، فإنّ الأرض لا تخلو من أن يكون لله تعالى

فيها حجّة.

وثالثها: إنّ الناس خلقوا على فطرة الإسلام، ثمّ إختلفوا في الأديان.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من أنّه لا يعاجل العصاة بالعقوبة، إنعاماً عليهم في التأنّي بهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فصل بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأن يهلك العصاة، وينجي المؤمنين، لكنّه أخّرهم إلى يوم القيمة؛ تفضّلاً منه إليهم، وزيادة في الإنعام عليهم.

ثمّ حكي سبحانه عن هؤلاء الكفّار، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلاّ أنزل على محمّد آية من ربّه، نضطرّ [تضطرّ] الخلق إلى المعرفة بصدقه، فلا يحتاجون معها إلى النظر والإستدلال، ولم يطلبوا معجزة تدلّ على صدقه؛ لأنّه ﷺ قد أتاهم بالمعجزات الدالّة على نبوّته[1]، وإنّما لم يلجئهم الله إلى ما إلتمسوه؛ لأنّ التكليف يمنع من الإضطرار إلى المعرفة، فإنّ الغرض بالتكليف التعريض للثواب، ولو كانت المعرفة ضرورة لما إستحقّوا ثواباً، فكيف وكأن يكون ذلك ناقضاً للغرض؟

﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ معناه: فقل يا محمّد: إنّ الذي يعلم الغيب، ويعلم مصالح الأمور قبل كونها، هو الله العالم لنفسه، يعلم الأشياء قبل كونها، وبعد كونها، لا تخفى عليه خافية، فيعلم ما في إنزاله صلاح فينزله، ويعلم ما ليس في إنزاله صلاح فلا ينزله، ولذلك لا يفعل الآية التي إقترحوها في هذا الوقت؛ لما في ذلك من حسن تدبير.

﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أي: فإنتظروا عقاب الله تعالى بالقهر والقتل في الدنيا،

---

(١) الآية هي العلامة، ولايراد منها معنى واحد فيما أراد الكفّار من النبيّ ﷺ آية، فتارة كانوا يريدون نزول العذاب والهلاك تعجيزاً وهو الغالب، وتارة كانوا يريدون مشاهدة أمور، توجب العلم الحسّي، كرؤية الملائكة والله تعالى، ويتعيّن المراد من القرائن المذكورة.

والعقاب في الآخرة.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لأنّ الله تعالى وعدني النصرة عليكم. وقيل: معناه: فانتظروا إذلال الكافرين؛ فإنّي منتظر إعزاز المؤمنين.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا[1] قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

القراءة: قرأ روح، وزيد، عن يعقوب، وسهل: يمكرون ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وقرأ: ينشركم ـ بالنون والشين ـ من النشر، أبو جعفر، وابن عامر. والباقون: يسيركم ـ بالسين والياء ـ، من التسيير. وقرأ حفص وحده: متاعَ ـ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع.

---

(١) إذا وقف حمزة على «في آياتنا» خفّف الهمزة؛ لأنّ الوقف للاعياء فناسب تسهيل الهمزة لثقلها، وتخفيفها بنقل حركتها إلى الياء وحذفها، أو بالإدغام، فيتلفّظ: فيّا ـ بياء مشدّدة ـ، ويجوز عنده تحقيق الهمزة؛ لأنّها في إبتداء الكلمة.

الحجة: من قرأ: يمكرون ـ بالياء ـ فلقوله: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. ومن قرأ بالتاء؛ فللخطاب أي: قل لهم يا محمّد إنّ رسل الله يكتبون ما تمكرون. ومن قرأ: يسيركم، يقوّيه قوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ويقال: سار الدابّة، وسرته، وسيَّرته. قال:

«فَلا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَها»[1]، وقال لبيد:

فَبُنْيَانُ حَرْبٍ أَنْ تَبُوءَ بِحَرْبَةٍ وَقَدْ يَقْبَلُ الضَيْمَ الذَّلِيلُ الْمُسَيَّرُ

ومن قرأ: ينشركم فحجّته: قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾، وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾. والبثّ: التفريق، والنشر في المعنى.

وأمّا ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُنْيَا﴾: فقد قال الزجّاج: من رفع فعلى وجهين: أحدهما: أن يكون «متاع الحياة الدنيا» خبراً لقوله: ﴿بَغْيُكُمْ﴾. والآخر: أن يكون خبر المبتدأ ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾. و«متاع الحياة»، على إضمار «هو». ومن نصب، فعلى المصدر أي: تتمتّعون متاع الحياة الدنيا.

قال أبو عليّ: قوله: على أنفسكم، يحتمل تأويلين: أحدهما: أن يكون متعلّقاً بالمصدر؛ لأنّ فعله يتعدّى بهذا الحرف، ألاترى إلى قوله: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثمّ بُغي عليه. وإذا كان الجارّ من صلة المصدر، كان الخبر «متاع الحياة الدنيا» فيكون معناه: بغى بعضكم على بعض متاع الحياة في الدنيا. وليس ما يقرّب إلى الله، ويجوز أن يكون «على» متعلّقاً بمحذوف، فيكون خبراً للمصدر، وفيه ذكر يعود إليه، فيكون كقولك: الصلاة في المسجد، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، ومفعوله محذوفاً، والمعنى: إنّما بغي بعضكم على بعض بما يدلّ [عايد] على أنفسكم، ويكون كقوله: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ومن نصب: إحتمل النصب وجهين:

---

(١) بعده: وأوّل راضي سنة من يسيرها، ثابت في بعض النسخ.

أحدهما: أن يكون «على» من صلة المصدر، ويكون الناصب لمتاع هو المصدر الذي هو البغي، ويكون خبر المبتدأ محذوفاً، وحسن حذفه لطول الكلام، ولأنّ «بغيكم» يدلّ على «تبغون»، والجملة الفعليّة لا يحتاج إلى خبر، فيحسن الحذف لذلك، وهذا الخبر لو أظهرته لكان يكون مكروه، أو مذموم، أو منهيّ عنه، ونحو ذلك.

والآخر: أن يكون ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبر المبتدأ. فيكون ﴿مَتَاعَ﴾ منصوباً على وجهين:

أحدهما: تمتّعون متاعاً، فيدلّ إنتصاب المصدر عليه.

والآخر: أن يضمر «تبغون»؛ لأنّ ما يجري مجرى ذكره قد تقدّم، كأنّه لو أظهره لكان تبغون متاع الحياة الدنيا، فيكون مغعولاً له، ولا يجوز أن يتعلّق المصدر بالمصدر في قوله: إنّما بغيكم، وقد جعلت، «على» خبراً لقوله: إنّما بغيكم؛ لفصلك بين الصلة والموصول، المصدر ومفعوله.

اللغة: التسيير: التحريك في جهة تمتدّ، كالسير الممدود. والبرّ: الأرض الواسعة التي تقطع من بلد إلى بلد. ومنه: البرّ لإتّساع الخير به. والبحر: مستقرّ الماء الواسع، حتى لا يرى من وسطه حافتاه[1]. والفلك: السفن، وسمّيت فلكاً؛ لدورانها في الماء. وأصله: الدور. ومنه: فلكة المغزل. وتفلك ثدي الجارية: إذا إستدار. والفلك: يكون جمعاً وواحداً، وهو هيهنا جمع. والعاصف: الريح الشديدة، وعصفت الريح فهي عاصف، وعاصفة. قال:

حَتَّى إذا عَصَفَتْ رِيحٌ مُزَعْزِعَةٌ ... فِيهَا قِطَارٌ، وَرَعْدٌ صَوْتُهُ زَجَلٌ(١)

الإعراب: جواب «إذا» الأولى في «إذا» الثانية، وإنّما جعل «إذا» جواباً؛

---

(١) قطار ككتاب، جمع قطر، أي: المطر. والزجل: الصوت بنشاط.

[1] أي: جانباه.

لكونها بمعنى الجملة؛ لما فيها من معنى المفاجاة، وهي ظرف مكان، وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ومعناه: إن تصبهم سيّئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا، وجرين بهم، إبتداء الكلام خطاب، وبعد ذلك إخبار عن غائب؛ لأنّ كل من أقام الغائب مقام من يخاطبه، جاز له أن يرده إلى الغائب. قال كُثير:

أَسِيئِي بِنا، أَوْ أَحسِني لا مَلُومَةٌ ... لَدَيْنا، وَلا مَقْلِيَةٌ إِنْ تَقَلَّتِ[1]

وقال عنترة:

شَطَّتْ مَزارُ الْعاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ ... عَسِراً عَلَيَّ طِلابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمٍ[2]

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ المعنى: فلمّا أنجاهم بغوا.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن ذميم فعالهم، فقال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ يريد بالناس الكفّار، فهو عموم يراد به الخصوص ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: راحة ورخاء بعد شدّة وبلاء. وحقيقة الذوق إنّما تكون فيما له طعم يوجد طعمه بالفم، وإنّما قال: أذقناهم الرحمة على طريقة المبالغة؛ لشدّة إدراك الحاسّة إيّاها.

﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: فهم يحتالون لدفع آياتنا بكل ما يجدون السبيل إليه من شبهة، أو تخليط في مناظرة، أو غير ذلك من الأمور الفاسدة. وقال مجاهد: مكرهم: إستهزاؤهم وتكذيبهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ أي: أقدر جزاء على المكر، ومعناه:

---

(١) مضى البيت.

(٢) شطّت: أي: بعدت. ومزار: مصدر ميمى، نسب إليه الفعل بالتأنيث، والمصادر يجوز فيها التأنيث أو إسم مكان أنّث بتأويل البقعة، وفي رواية: حلت بأرض الزائرين أي: سكنت المعشوقة بأرض الأعداء. والزائر: العدوّ، مشتقّ من زئير الأسد، وصار طلبها عسراً.

أنّ ما يأتيهم من العقاب أسرع ممّا أتوه من المكر أي: أوقع في حقّه. وقيل: إنّ مَكره سبحانه: إنزاله العقوبة بهم من حيث لا يشعرون.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعني: الملائكة الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي: ما تدبّرون من سوء التدبير. وفي هذا غاية الزجر والتهديد من وجهين: أحدهما: أنّه يحفظ مكرهم. والآخر: أنّه أقدر على جزائهم، وأسرع فيه.

ثمّ إمتنّ الله سبحانه على خلقه، بأن عدَّد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يمكِّنكم من المسير في البرّ والبحر، بما هيّأ لكم من آلات السير، وهي خلق الدوابّ، وتسخيرها لكم؛ لتركبوها في البرّ وتحملوا عليها أثقالكم، وهيّأ السفن في البحر، وإرسال الرياح المختلفة التي تجري بالسفن في الجهات المختلفة.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ خصّ الخطاب براكب البحر أي: إذا كنتم راكبي السفن في البحر ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ أي: وجرت السفن بالناس لما ركبوها، عدل عن الخطاب إلى الإخبار عن الغائب؛ تصرّفاً في الكلام. على أنّه يجوز أن يكون خطاباً لمن كان في تلك الحال، وإخباراً لغيرهم من الناس ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: بريح ليّنة يستطيبونها.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: سَرُّوا بتلك الريح؛ لأنّها تبلغهم مقصودهم، ـ عن أبي مسلم ـ وقيل: فرحوا بالسفينة حيث حملتهم وأمتعتهم.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: جاءت السفينة ريح عاصف، شديدة الهبوب الهائلة.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر. والموج: إضطراب البحر، ومعناه: وجاء راكبي البحر الأمواج العظيمة من جميع الوجوه.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أيقنوا أنّهم دنوا من الهلاك. وقيل: غلب على ظنّهم، أنّهم سيهلكون لما أحاط بهم من الأمواج ﴿دَعَوا اللهَ﴾ عند هذه الشدائد والأهوال، والتجأوا إليه ليكشف ذلك عنهم.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: على وجه الإخلاص في الإعتقاد، ولم يذكروا الأوثان والأصنام؛ لعلمهم بأنّها لا تنفعهم هيهنا شيئاً، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يا ربّ ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الشدّة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من جملة من يشكرك على نعمك. وقوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ جواب قوله: ﴿إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾. وقوله: ﴿دَعَوُا اللهَ﴾ جواب قوله: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ أي: خلصهم الله تعالى من تلك المحن ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يعملون فيها بالمعاصي والفساد، ويشتغلون بالظلم على الأنبياء، وعلى المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بغي بعضكم على بعض، وما ينالونه به متاع في الدنيا، وإنّما تأتونه لحبّكم العاجلة، وإيثارها على ما يقرّب إلى الله تعالىٰ من الطاعات. وقد مرّ بيانه من قبل.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نخبركم بأعمالكم؛ لأنّا أثبتناها عليكم، وهي كلمة تهديد ووعيد.

قيل: إنّما إتّصل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ الآية، بما قبله؛ لأنّه تفسير لبعض ما أجمل الآية المتقدّمة التي هي قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ مسّتهم، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه يتّصل بما تقدّم في السورة من دلائل التوحيد، فكأنّه قال: إلٰهكم الذي جعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، وهو الذي يسيّركم.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة الأعرج، والشعبي، وأبي العالية، ونصر بن عاصم، والحسن بخلاف: وأزْيَنَتْ. وقراءة أبي عثمان: وازيَأَنَّتْ[1].

الحجة: أمّا «إزَّيَنَتَ» فأصله: تزيّنت، فأُدغمت التاء في الزاي، وسكنت الزاي، فإجتلبت لها ألف الوصل. وأمّا أزْيَنَتْ، فإنّه على «أَفْعَلَتْ» أي: جاءت بالزينة. وإزَّيَنَتْ أجود في العربيّة؛ لأنّ «أزْيَنَتْ» الأجود فيه «أزانَت»، مثل: أقال وأباع. وأمّا إزيَأَنَّت، فوزنه «افْعالَّت»، وأصله: إزيانَّت، مثل: إدهامَّت وإسوادَّت، إلاّ أنّه كره إلتقاء الساكنين، فحرّكت الألف، فانقلبت همزة، كقول كثير:

وَلِلْأَرْضُ أَمَّا سُودُهَا فَتَجَلَّلَتْ بَيَاضاً، وأَمَّا بِيضُهَا فَادْهَأَمَّتِ[2]

اللغة: الزخرف: كمال حسن الشيء. ويقال: زخرفته أي: حسّنته. ومنه:

---

(١) الأعرج: عبدالرحمن بن هرمز البصري، أو حميد بن قيس المكّي، والأوّل أشهر كان من مؤسّسي علم النحو، ونصر بن عاصم البصري الدئلي من النحاة، وينسب إليه وضع علم النحو، وعنه أخذ أبو عمرو بن العلاء. وأبو عثمان: إن كان هو المازني النحوي، إسمه بكر بن محمّد بن حبيب، كان شيعيّاً إماميّاً، وأبوه من القرّاء المشهورين.

(٢) تجلّلت: أي: لبست جلالاً، وهو الجلباب. يقول: صارت السود من الأرض بيضاً، والبيض سوداً.

زخرفت الجنّة لأهلها أي: زيّنت بأحسن الألوان. وغَني بالمكان: أقام به. والمغاني: المنازل. قال النابغة:

غَنِيَتْ بِذٰلِكَ إِذْهُمُ لَكَ جِيرَةٌ[١] مِنْهَا بِعَطْفِ رِسَالَةٍ وَتَوَدُّدِ

والدعاء: طلب الفعل بما يقع لأجله. والداعي إلى العمل: خلاف الصارف عنه. والفرق بين الدعاء والأمر: أنّ في الأمر ترغيباً في الفعل، وزجراً عن تركه، وله صيغة تنبىء عنه. والدعاء ليس كذلك، وكلاهما طلب. وأيضاً فإنّ الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الأمر في الرتبة، والدعاء يقتضي أن يكون فوقه.

المعنى: لمّا تقدّم ما يوجب الترغيب في الآخرة، والتزهيد في الدنيا، عقّبه سبحانه بذكر صفة الدارين، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: صفة الحياة الدنيا، أو شبه الحياة الدنيا في سرعة فنائها، وزوالها.

﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: بذلك المطر ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ لأن المطر يدخل في خلل النبات، فيختلط به. وقيل: معناه: فإختلط بسببه بعض النبات بالبعض، فإختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام، وما يقتات بما يتفكّه [يتكفّه].

ثمّ فصّل ذلك، فقال: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب، والثمار، والبقول ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ كالحشيش وسائر أنواع المراعي. وقد قيل: في المشبّه والمشبّه به في الآية أقوال: أحدها: أنّه تعالى شبّه الحياة الدنيا بالماء، فيما يكون به من الإنتفاع، ثمّ الإنتفاع [الإنقطاع]. وثانيها: أنّه شبّهها بالنبات، على ما وصفه من الإغترار به، ثمّ المصير إلى الزوال، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وثالثها: أنّه تعالى شبّه الحياة الدنيا بحياة مقدّرة على هذه الأوصاف.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: حسنها وبهجتها بأنواع الألوان،

---

[١] الجيرة جمع الجار.

وأجناس النبات، وغير ذلك ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزيَّنت في عين رائيها.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ أي: مالكها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الإنتفاع بها، ومعناه: بلغت المبلغ الذي ظنّ أهلها أنّهم يحصدونها، ويقدرون على غلّتها، وإدامتها.

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾ أي: أتاها عذابنا من بَرَدٍ أو بَرْد. وقيل: معناه: أتاها حكمنا وقضاؤنا بإهلاكها، وإتلافها.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ أي: محصودة، ومعناها: مقطوعة، مقلوعة، ذاهبة، يابسة ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأن لم تقم على تلك الصفة بالأمس. ومعناه: كأن لم تكن، ولم توجد من قبل.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: مثل ذلك نميّز الآيات لقوم يتفكّرون فيها، فيعتبرون بها.

ولمّا بيَّن سبحانه أنّ الدنيا تنقطع وتفنى بالموت، كما يفنى هذا النبات بفنون الآفات، ونبَّه على التوقّع لزوالها، والتحرّز عن الإغترار بأحوالها، رغّب عقيبه في الآخرة، فقال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ قيل: إنّ السلام وهو الله تعالى، فإنّ الله تعالى يدعو إلى داره، وداره الجنّة، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: دار السلام: الدار التي يسلم فيها من الآفات، ـ عن الجبائي ـ. والسلام والسلامة واحد، مثل: الرضاع والرضاعة. قال:

تُحَيَّا بِالسَّلامَةِ أُمُّ بَكْرٍ ... وَهَلْ لَكِ بَعْدَ رَهْطِكِ مِنْ سَلامِ

وقيل: سمّيت الجنّة دار السلام؛ لأنّ أهلها يُسلِّم بعضهم على بعض، والملائكة تُسلِّم عليهم، ويُسلِّم ربّهم عليهم، فلا يسمعون إلاّ سلاماً، ولا يرون إلاّ سلاماً، ويعضده قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وما أشبهه.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قيل: يهدي من يشاء إلى الإيمان

والدين الحقّ، بالتوفيق، والتيسير، والإلطاف. وقال الجبائي: يريد به نصب الأدلّة لجميع المكلّفين، دون الأطفال والمجانين. وقيل: معناه: يهدي من يشاء في الآخرة إلى طريق الجنّة، الذي يسلكه المؤمنون، ويعدل عنه الكافرون إلى النار.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، والكسائي، ويعقوب، وسهل: قِطْعاً ـ ساكنة الطاء ـ. والباقون: قطَعا ـ بفتحها ـ.

الحجة: القطع: جمع قطعة من الليل. والقِطع: الجزء من الليل الذي فيه ظلمة.

اللغة: الرهق: لحاق الأمر. ومنه: راهق الغلام: إذا لحق بالرجال. ورهقه في الحرب: أدركه. قال الأزهري: الرهق: إسم من الإرهاق، وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه، ومنه: سأرهقه صعوداً. والكسب: إجتلاب النفع. والجزاء: المكافأة. والقتر: الغبار. والقترة: الغبرة. والقتار: الدخان. ومنه: الإقتار في المعيشة.

الإعراب: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ في إرتفاعه وجهان:

أحدهما: أن يكون مبتدأ، وخبره «بمثلها»، على زيادة الباء في قول أبي الحسن؛ لأنّه وجد في مكان آخر: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. ويجوز أن يكون

الباء متعلّقة بخبر محذوف، تقديره: جزاء سيّئة كائن بمثلها، كما تقول: إنّما أنا بك وأمري بيدك، وما أشبه ذلك.

والآخر: أن يكون فاعلاً بإضمار فعل، تقديره: إستقرّ لهم جزاء سيّئة بمثلها، ثمّ حذف «إستقرّ» فبقي لهم جزاء سيّئة بمثلها، ثمّ حذف «لهم»؛ لدلالة الكلام على أنّ هذا مستقرّ لهم. ويجوز أن يكون ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: لهم جزاء سيّئة بمثلها، أو جزاء سيّئة بمثلها كائن، هذا قد أجازه أبو الفتح. وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ عطف على «كسبوا»، وجاز أن يفصل بينهما بقوله: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ بمثلها؛ لأنّه من الإعتراض الذي يبيّن الأوّل، ويسدّده، ويثبته مظلماً.

قال أبو عليّ: إن أجريته على «قَطْع» ـ ساكنة الطاء ـ، فيحتمل نصبه على وجهين:

أحدهما: أن يكون صفة لقطع على قياس قوله: ﴿وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وصفت الكتاب بالمفرد، بعد ما وصفته بالجملة، وأجريته على النكرة.

والآخر: أن يكون حالاً من الذكر الذي في الظرف يعني قوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾. وإن أجريته على «قَطَع» ـ مفتوحة الطاء ـ لم يكن صفة له، ولا حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾. ولكن يكون حالاً من «الليل». والعامل في الحال ما يتعلّق به من الليل، وهو الفعل المخترل [المختزل]، ومثل ذلك في إرادة الوصف بالسواد، قول الشاعر:

وَدِاوِيَّةٍ مِثْلِ السَّمَاءِ اعْتَسَفْتُهَا ... وَقَدْ صَبَغَ اللَّيْلُ الْحَصىٰ بِسوادِ[1]

أي: سودتها الظلمة. وقال غيره: يجوز أن يكون «مظلماً» صفة لقطع على قول الشاعر:

---

(١) الدوّ والدويّة والداويّة: المفازة يعني: ربّ مفازة سرت فيها على غير الطريق المسلوك في ظلمة الليل، يصف نفسه بالشجاعة.

لَوْ أَنَّ مَدْحَةَ حَيٍّ تُنْشِرَنْ أَحَداً أَحْيَى أَبَاكُنَّ يَا لَيْلَى الأَمَادِيحُ[1]

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أهل دار السلام، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ ومعناه: للذين أحسنوا العمل، وأطاعوا الله تعالى في الدنيا، جزاء لهم على ذلك الحالة الحسنى، والمنزلة الحسنى، وهي الحالة الجامعة للذات والنعيم، على أكمل ما يكون، وأفضل ما يمكن، وهو تأنيث الأحسن.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ ذكر في ذلك وجوه:

أحدها: إنّ الحسنى: الثواب المستحقّ. والزيادة: التفضّل على قدر المستحقّ على طاعاتهم من الثواب، وهي المضاعفة المذكورة في قوله: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة ـ.

وثانيها: الزيادة: هي أنّ ما أعطاهم الله تعالى من النعم في الدنيا، لا يحاسبهم به في الآخرة، ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ.

وثالثها: إنّ الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب، ـ عن عليّ عليه السلام ـ. وقيل: الزيادة: ما يأتيهم في كل وقت من فضل الله مجدّداً.

ورابعها: إنّ الزيادة: هي النظر إلى وجه الله تعالى، وروي ذلك عن أبي بكر، وأبي موسى الأشعري، وغيرهما.

وقد بيّن الله سبحانه الزيادة في موضع آخر بقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يلحق وجوههم سواد، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: غبار ولاذلّة أي: هوان. وقيل: كآبة وكسوف، ـ عن قتادة ـ. وروي الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال

---

(١) يعني: كثر مادحوا أبيك بعد موته، بحيث لو أمكن أن يحيى أحد بمديح الأحياء، لكان ذاك أباك.

رسول الله ﷺ: ما من عين ترقرقت بمائها، إلاّ حرَّم الله ذلك الجسد على النار، فإن فاضت من خشية الله، لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مرّ معناه ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: إكتسبوها وإرتكبوها ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي: لهم جزاء كل سيئة بمثلها، يعني: يجزون بمثل أعمالهم، أي: قدر ما يستحقّ عليها من غير زيادة؛ لأنّ الزيادة على قدر المستحقّ من العقاب ظلم، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحقّ من الثواب؛ لأنّ ذلك تفضّل بحسن فعله إبتداء، فالمثل: هنا مقدار المستحقّ من غير زيادة، ولا نقصان.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: يلحقهم هوان وذلّ؛ لأنّ العقاب يقارنه الإهانة والإذلال.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لهم من حافظ ومانع، يدفع عقاب الله عنهم.

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ أي: كأنّما ألبست وجوههم ظلمة الليل، والمراد: وصف وجوههم بالسواد كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾. ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر المراد.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

القراءة: قرأ: تتلو ـ بالتاء ـ أهل الكوفة، غير عاصم، وروح، وزيد، عن

يعقوب. والباقون: تبلوا ـ بالباء ـ.

(الحجة): قال أبو عليّ: من قرأ: تبلو، فمعناه: تختبر، من قولهم:«البلاء، ثمّ الثناء» أي: الإختبار للمثنى عليه، ينبغي أن يكون قبل الثناء؛ ليكون الثناء عن علم، بقدر ما يوجبه. ومعنى إختبارها ما أسلفت أنّه إن قدم خيراً أو شرّاً، جوزي عليه، كما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخره. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾، وغير ذلك من الآي. ومن قرأ: تتلو: فإنّه من التلاوة التي هي القراءة، دليله قوله: ﴿فَأُولٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ وقوله: ﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ ويكون ﴿تَتْلُو﴾ تتبع، من قولهم: تلا الفريضة النفل: إذا أتبعها النفل. قال:

عَلىٰ ظَهْرِ عادِيٍّ كَأَنَّ أُرُومَهُ ... رِجالٌ يُتَلُّونَ الصَلاٰةَ قِيامُ[1]

فيكون المعنى: تتبع كل نفس ما أسلفت من حسنة، أو سيّئة. قال:

قَدْ جَعَلَتْ دَلْوِي تَسْتَتْلِينِي ... وَلاٰ أُحِبُّ تَبَعَ الْقَرِينِ[2]

أي: تستتبعني من ثقلها

(اللغة): التزييل: التفريق، مأخوذة من قولهم: زلت الشيء عن مكانه، أزيله، وزيلته للكثرة من هذا: إذا نحيته عن مكانه. وزايلت فلاناً: إذا فارقته هنالك أي: في ذلك المكان، وهو ظرف. فهنا للقريب، وهنالك للبعيد، وهناك لما بينهما، قال زهير:

هُنالِكَ إِنْ يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلُوا ... وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا، وَإِنْ يَيْسِرُوا يَغْلُوا[3]

---

(١) أروم: قبور قوم عاد، وكأنّهم كانوا يقيمون عليها أحجاراً قائمة. والعاديّ: كل شيء قديم يشبه الأحجار في تلك المفازة برجال قائمين للصلاة.

(٢) الدلو: مؤنّثة في غالب الإستعمال، يقول: جعلتني الدلو تابعاً لها، مع أنّي لا أحبّ أن أتبع أحداً.

(٣) الإخبال: الإعارة. والإستخبال: الإستعارة. والميسر: القمار، والمراد بإغلاء القمار بالقداح على سمان الجزر، يصف قوماً بالجود.

والإسلاف: تقديم أمر لما بعده، فمن أسلف الطاعة لله جُوزي بالثواب، ومن أسلف المعصية جوزي بالعقاب.

﴿الإعراب﴾: ﴿جَمِيعاً﴾: نصب على الحال ﴿مَكَانَكُمْ﴾ قال الزجّاج: هو منصوب على الأمر، والمعنى: إنتظروا مكانكم حتى يفصل بينكم. والعرب تتوعّد فتقول: «مكانك وانتظرني». وهي كلمة جرت على الوعيد. وأقول: إنّ الصحيح عند المحققّين: أنّ «مكانك ودونك» من أسماء الأفعال، فيكون مكانكم هيهنا: إسماً لأَلْزِموا مبنيّاً على الفتح، وليس بمنصوب نصب الظروف. و«كُمْ»: لا محلّ له من الإعراب؛ إذ هو حرف الخطاب. و«أنتم»: رفع تأكيد للضمير في ﴿مَكَانَكُم﴾. و ﴿شُرَكَاؤُكُم﴾ عطف عليه. وهذا كما تقول في قولهم: عليك زيداً أنّ الكاف حرف الخطاب لا محلّ له من الإعراب.

و﴿عَلى﴾ هيهنا: إسم الفعل، وليس بحرف. و﴿كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾ قال الزجّاج: شهيداً منصوب على التمييز إن شئت، وإن شئت على الحال. ﴿إِنْ كُنَّا﴾ «إنْ» بمنزلة «ما» النفي أي: ما كنّا عن عبادتكم إلاّ غافلين، قاله الزجّاج. وأقول: الصحيح أَنَّ ﴿إنْ﴾ هذه: هي المخفّفة من الثقيلة، وإذا كانت مخفّفة من الثقيلة يلزمها اللام ليفرّق بينها وبين النافية، والتقدير: إنّا كنّا عن عبادتكم غافلين. و«هنالك»:منصوب بتبلو، إلاّ أنّه غير متمكّن، واللام زائدة كسرت لإلتقاء الساكنين.

﴿المَعْنَىٰ﴾: ولمّا تقدّم ذكر الجزاء، بيّن سبحانه وقت الجزاء، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ أي: نحشر [نحصر] الخلائق أجمعين أي: نجمعهم من كل أوب إلى الموقف.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ في عبادتهم مع الله غيره، وفي أموالهم، فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا.

﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي: أثبتوا وألزموا مكانكم أنتم مع شركائكم، يعني الأوثان، فقد صحبتموهم في الدنيا، فأصحبوهم في المحشر. وقيل: معناه:

أثبتوا حتى تسألوا كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فميّزنا وفرّقنا بينهم في المسألة، فسألنا المشركين على حدة؛ لما عبدتم الأصنام؟ وسألنا الأصنام على حدة؛ لما عُبدتم؟ وبأيّ سبب عُبدتم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، ـ عن الحسن ـ. ومثله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وقيل: معناه: فزيّلنا بينهم وبين الأوثان، فتبرّأ منهم الشركاء، وإنقطعت أسبابهم.

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: يحييهم الله وينطقهم، فقالوا: ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إنّ شركاءهم من كانوا يعبدونهم من الشياطين. وقيل: هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، وفي كيفية جحدهم لعبادتهم إيّاه قولان:

أحدهما: إنّهم يقولون ذلك على وجه إهانتهم بالردّ عليهم أي: ما إعتذرنا بذلك لكم.

والآخر: إنّ المراد: أنّكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا، ولم يرد أنّهم لم يعبدوهم أصلاً؛ لأنّ ذلك كذب، لا يجوز أن يقع في الآخرة؛ لكونهم ملجئين إلى ترك القبيح، ـ عن الجبائي ـ.

وهذه الآية نظير قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية.

﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ أي: فاصلاً للحكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ أيّها المشركون ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ مرّ معناه. وهذا إذا كان المراد به الملائكة، فإنّهم عمّا إدّعوه غافلون؛ لأنّهم لم يشعروا بذلك، ولا أمروا به. وإن كان المراد الأصنام، فلم يكن لها حسٌّ، ولا علم. وهذا غاية في إلزام الحجّة، حيث إختاروا للعبادة من لم يدعهم إليها، ولم يشعر بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك المكان، وفي تلك الحال، وفي ذلك الوقت، تجرب وتعلم كل نفس ما قدّمت من خير أو شرّ، وترى جزاءه،

على القراءة بالتاء، معناه: تقرأ كل نفس جزاء عملها، وجزاء ما قدّمته.

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: وردُّوا إلى جزاء الله، وإلى الموضع الذي لا يملك أحد فيه الحكم إلاّ الله الذي هو مالكهم، وسيّدهم، وخالقهم، والحقّ: صفة لله تعالى، وهو القديم الدائم الذي لا يفنى، وما سواه يبطل. وقيل: الحقّ: هو الذي يكون معنى اللفظ حاصلاً له على الحقيقة. فالله جلّ جلاله، وهو الحقّ؛ لأنّ معنى الإلهيّة حاصل له على الحقيقة.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بطل وهلك عنهم ما كانوا يدعونه بإفترائهم من الشركاء مع الله تعالى.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وابن عامر: كلمات، هيهنا، وفي آخرها ـ على

---

(١) النظر في الموجودات، يفضي إلى العلم بصانع حكيم، كما أنّ النظر إلى البناء، يوجب العلم بأنّه فعل بان بنى بالعمد والإختيار، موافقاً لمصالح الساكنين، وليس من فعل الريح والامطار، وذكر في الآية من الحجج، ممّا نرى في خلق الموجودات الرزق من الأمطار، والرياح، والتراب، والماء. ومنها: أنّ العلم والحواسّ ليسا من لوازم المادّة والأجسام، بل هما بأمر زائد، بأمر الله تعالى. ومنها: أنّ الحياة عارضة للمادّة، يدلّ على ذلك صيرورة الميّت حيّاً، والحيّ ميتّاً، فهذا بأمر الله أيضاً. ومنها: أنّ النظر في المخلوقات، يفضى إلى تدبير، وحكمة مرعّية فيها، لايمكن من الطبيعة غير الشاعرة، فهي أربع حجج.

الجمع ـ، وكذلك في سورة المؤمن. والباقون: على التوحيد.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ على التوحيد، إحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون جعل ما أُوعد به الفاسقون كلمة، وإن كانت في الحقيقة كلمات؛ لأنّهم قد يسمُّون القصيدة كلمة، والخطبة كلمة.

والآخر: أن تكون ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ التي يراد بها الجنس، قد أوقعت على بعض الجنس، كما أوقع إسم الجنس على بعضه في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ وقول الشاعر:

«بِبَطْنِ شِرْيَانَ يَعْوِي عِنْدَهُ الذِّيبُ»[١]

فأمّا من جمع، فإنّه جعل الكلم التي توعدوا بها كل واحدة منها كلمة، ثمّ جمع، فقال: كلمات، وكلاهما وجه.

الإعراب: كذلك حقّت: الكاف في موضع نصب أي: مثل أفعالهم جازاهم ربّك. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من كلمة «ربّك» أي: حقيق عليهم، أنّهم لا يؤمنون. ويجوز أن يكون على تقدير حقّت عليهم الكلمة؛ لأنّهم لا يؤمنون، ويكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب.

المعنى: ثمّ قرّر سبحانه أدلّة التوحيد والبعث عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: من يخلق لكم الأرزاق ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر والغيث ﴿وَ﴾من ﴿الْأَرْض﴾ بإخراج النبات، وأنواع الثمار. والرزق: في اللغة هو العطاء الجاري، يقال: رزق السلطان الجند، إلاّ أنّ كل رزق، فإنّ الله هو الرزّاق به؛ لأنّه لو لم يطلقه على يد ذلك الإنسان، لم يجيء منه شيء، فلا يطلق إسم الرزّاق إلاّ على الله تعالى. ويقيّد في غيره، كما لا يطلق إسم الربّ إلاّ عليه، ويقيّد في غيره، فيقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة، ولا يجوز أن يخلق الله

---

[١] قائلته: جنوب أخت عمرو بن ذي الكلب. وصدره (بأنّ ذا الكلب عمراً خَيرهم حَسَباً).

حيواناً يريد تبقيته إلاّ ويرزقه؛ لأنّه إذا أراد بقاءه فلا بدّله من الغذاء.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ معناه: أم من يملك أن يعطيكم الأسماع، والأبصار، فيقوّيها وينوّرها، ولو شاء لسلب نورها وحسّها.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ﴾ قيل: معناه: ومن يخرج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. وقيل: معناه: ومن يخرج الحيوان من بطن أمّه إذا ماتت أمّه، ويخرج غير التامّ، ولا البالغ حدّ الكمال من الحيّ. وقيل: معناه: ومن يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: ومن الذي يدبِّر جميع الأمور في السماء والأرض، على ما توجبه الحكمة ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ أي: فسيعترفون بأن الله تعالى يفعل هذه الأشياء، وأنّ الأصنام لا تقدر عليها.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فقل لهم عند إعترافهم بذلك: أفلا تتّقون عقابه في عبادة الأصنام. وفي الآية دلالة على التوحيد، وعلى حسن المحاجّة في الدين؛ لأنّه سبحانه حاجَّ بها المشركين. وفيها دلالة على أنّهم كانوا يقرُّون بالخالق، وإن كانوا مشركين، فإنّ جمهور العقلاء يقرُّون بالصانع، سوى جماعة قليلة من ملحدة الفلاسفة[1]، ومن أقرّ بالصانع على هذا صنفان: موحّد يعتقد أنّ الصانع واحد لا يستحقّ العبادة غيره. ومشرك، وهم ضربان: فضرب جعلوا لله شريكاً في ملكه، يضادّه ويناوئه، وهم الثنويّة والمجوس.

---

(١) الملاحدة: قوم ناقصوا العقول، معتمدون على دليل لايعتمد عليه أحد في أموره، وهو أنّ عدم الوجدان يدلّ على عدم الوجود، قالوا: إنّا لانجد الله تعالى بحواسّنا، ولانراه بأبصارنا، ولانمسّه بأيدينا، فهو غير موجود، وهذا دليل فاسد؛ إذ لم يدع الموحّدون أنّهم رأو الله تعالى بأبصارهم، ومسّوه بأيديهم، بل إدّعوا أنّهم إستدلّوا بعقولهم، على موجود لايدرك بالحواسّ. وعلّة نقصان الملاحدة توغّلهم في المادّيّات، وكلّما توغّل النفس في شيء، ضعف إدراكه للآخر، وهذا مع وضوحه ثابت في العلوم العقليّة. نبه عليه ابن سينا في الإشارات وغيرها.

ثمّ إختلفوا، فمنهم: يثبت لله شريكاً قديماً كالمانويّة، ومنهم: من يثبت شريكاً محدثاً كالمجوس. وضرب آخر لا يجعل لله شريكاً في حكمه وملكه، ولكن يجعل له شريكاً في العبادة، يكون متوسّطاً بينه وبين الصانع، وهم أصحاب المتوسّطات.

ثمّ إختلفوا: فمنهم: من جعل الوسائط من الأجسام العلويّة، كالنجوم والشمس، والقمر. ومنهم: من جعل المتوسّط من الأجسام السفليّة، كالأصنام ونحوها، تعالى الله عمّا يقول الزائغون عن سبيله علوّاً كبيراً.

﴿فَذَلِكُمُ اللهُ﴾ ذلكم إشارة إلى إسم الله تعالى، الذي وصفه في الآية الأولى، بأنّه الذي يرزق الخلق، ويخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ. والكاف والميم للمخاطبين، وهم جميع الخلق.

أخبر سبحانه أنّ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الذي خلقكم، ومعبودكم الذي له معنى الإلٰهيّة، ويحقّ له العبادة، دون غيره من الأصنام، والأوثان.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ إستفهام يراد به التقرير على موضع الحجّة؛ إذ لا يجد المجيب محيداً عن الإقرار به، إلاّ بذكر ما لا يلتفت إليه. والمراد به ليس بعد الذهاب عن الحقّ إلاّ الوقوع في الضلال؛ لأنّه ليس بينهما واسطة، فإذا ثبت أن عبادته هو الحق ثبت أنّ عبادة ما سواه باطل وضلال.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعدلون عن عبادته، مع وضوح الدلالة على أنّه لا معبود سواه.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إنّ الوعيد من الله تعالى للكفّار بالنار في الصحّة، كالقول بأنّه ليس بعد الحقّ إلاّ الضلال. وقيل: إنّ معناه: مثل إنصرافهم عن الإيمان، وجبت العقوبة لهم أي:

جازاهم ربّهم بمثل ما فعلوا من الإنصراف. وهذا في قوم علم الله تعالى أنّهم لا يؤمنون، ومعناه: سبق علم ربّك في هؤلاء، أنّهم لا يؤمنون. وقيل: معنى قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١] لأنّهم لا يؤمنون أي: وجبت العقوبة عليهم لذلك.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: أمّن لا يَهْدي ـ ساكنة الهاء، خفيفة الدال ـ. وقرأ أهل المدينة، غير ورش: يهْدّي ـ ساكنة الهاء مشددة الدال ـ. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وروح، وزيد، عن يعقوب: يَهَدِّي ـ بفتح الياء والهاء، وتشديد الدال ـ، إلاّ أنّ أبا عمرو أشار إلى فتحة الهاء من غير إشباع. وقرأ عاصم، غير حماد، ويحيى، ورويس، عن يعقوب: يَهِدِّي ـ بفتح الياء، وكسر الهاء، وتشديد الدال ـ. وقرأ حماد، ويحيى، عن أبي بكر، عن عاصم: يهدِّي ـ بكسر الياء، والهاء، والتشديد ـ.

الحجة: قوله: يَهْدِّي وَيَهَدِّي وَيَهِدِّي ويِهِدِّي، أصل جميعها: يهتدي «يفتعل»، وإن إختلفت ألفاظها، أدغموا التاء في الدال لمقاربتها لها، فإنهما من حيزّ واحد. ثمّ إختلفوا في تحريك الهاء: فمن قرأ: يَهَدِّي ألقى حركة الحرف المدغم،

---

[١] بأنهم لايؤمنون.

وهو التاء على الهاء، ومن قرأ: يَهِدِّي ـ بكسر الهاء ـ فإنه حرَّك الهاء بالكسر؛ لإلتقاء الساكنين. ومن سكن الهاء، جمع بين الساكنين، ومن أشمَّ الهاء ولم يسكن، فالإشمام في حكم التحريك. ومن كسر الياء مع الهاء، إتّبع بما بعدها من الكسرة، وهو ردىّ؛ لثقل الكسر في الياء.

الإعراب: قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ : «ما» مبتدأ، و«لكم» خبره، و«كيف»: منصوب بقوله: ﴿تَحْكُمُونَ﴾. ﴿لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يجوز أن يكون قوله: ﴿شَيْئاً﴾ مفعول «يغني»، ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي: لا يغني من الحقّ غناء، وكذا قيل: في قوله: ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ قالوا: هو مفعول «تجزي». وقالوا: هو مصدر أي: جزاء، وكذلك قوله: ﴿وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ قالوا: هو مفعول «تشركوا»، وقالوا: هو مصدر أي: لا تشركوا به إشراكاً، وكذلك قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي وَلاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.

المعنى: ثمّ إحتجّ سبحانه عليهم في التوحيد بإحتجاج آخر، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: هل من هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله في العبادة. وقيل: الذين جعلتموهم شركاء في أموالكم، كما قال وهذا لشركائنا من يبدء الخلق بالإنشاء، بعد أن لم يكن، وهو النشأة الأولى، ثم يعيده في النشأة الثانية .

﴿قُلْ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ معناه: فإن قالوا: ليس من شركائنا من يقدر عليه، أو سكتوا، فقل أنت لهم: الله هو الذي يبدأ الخلق، بأن ينشئه على غير مثال، ثمّ يفنيه، ثمّ يعيده يوم القيامة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن الحقّ، وتقلبون عن الإيمان.

ثمّ إستأنف الحِجاج، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: هل من هذه الأصنام من يهدي الناس إلى الرشد، وما فيه

الصلاح والنجاة والخير، بدلالة ينصبها، وحجّة يظهرها، فلا بدّ من أن يجيبوا بلا.

﴿قُل﴾ أنت لهم: ﴿الله﴾ هو الذي ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ إلى طريق الرشاد. يقال: هديت إلى الحقّ، وهديت للحقّ، بمعنى واحد.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ معناه: أفمن يهدي غيره إلى طريق التوحيد والرشد ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ أمره، ونهيه.

﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي﴾ أحداً ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ أو لا يهتدي هو إلاّ أن يهدى، والأصنام لا تهتدي، ولا تهدي أحداً، وإن هديت؛ لأنّها موات من حجارة ونحوها، ولكن الكلام نزل على أنّها إن هديت إهتدت؛ لأنّهم لما إتّخذوها آلهة، عبّر عنها كما يعبَّر عمّن يعقل، ووصفت بصفة من يعقل، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وإنّما هنَّ موات، ألاترى أنّه قال: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ الآية. وكذلك قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ فأجرى عليه اللفظ، كما يجري على من يعلم، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ «إلّا» بمنزلة «حتى»، فكأنّه قال: أمّن لا يهتدي حتى يهدى، أم من لا يعلم حتى يعلم، ومن لا يستدلّ على شيء حتى يدلّ عليه، وإن كان لو دلّ أو علم لم يستدلّ ولم يعلم، ولو هدى لم يهتد، بيَّن الله سبحانه بذلك جهلهم، وقلّة تمييزهم في تسويتهم من لا يعلم، ولا يقدر بالله القادر والعالم.

وقال البلخي: لا يهدي، ولا يهتدي، بمعنى واحد. يقال: هديتّه فهدى أي: إهتدى. وقيل: إنّ المراد بذلك: الملائكة والجنّ؛ لأنّهم يهتدون إذا هدوا.

وقيل: المراد به: الرؤساء والمضلّون، الذين يدعون إلى الكفر. وقيل: إنّ

المعنى في قوله: ﴿لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، لا يتحرّك إلّا أن يحرّك، ولا ينتقل إلّا أن ينقل، كقول الشاعر: «حيث يهدى ساقَهُ قَدَمُه»[١] أي: يحمل. وقيل: معناه: إلاّ أن يركب الله فيه آله التمييز والهداية، ويرزقه فهماً وعقلاً، فإن هدي حينئذ إهتدى.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ قال الزجّاج: هذا كلام تامّ، كأنّه قال: أيّ شيء لكم في عبادة من لا يضرُّ ولا ينفع ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجيب من حالهم أي: كيف تقضون بأنّ هذه الأصنام آلهة، وأنّها تستحقّ العبادة. وقيل: كيف تحكمون لأنفسكم بما لا توجبه الحجّة، ولا تشهد بصحّته الأدلّة.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ليس يتّبع أكثر هؤلاء الكفّار إلاّ ظنّاً، الظنّ الذي لا يجدي شيئاً من تقليد آبائهم، ورؤسائهم.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ لأنّ الحقّ إنّما ينتفع به من علمه حقّاً، وعرفه معرفة صحيحة، والظنّ يكون فيه تجويز أن يكون المظنون على خلاف ما ظنّ، فلا يكون مثل العلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من عبادة غير الله تعالى، فيجازيهم عليه، وفيه ضرب من التهديد.

وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ
﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ
اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ
يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ

---

[١] قائله: طرفة بن العبد، وهذا عجز بيت قبله. (للفتى عقل يعيش به).

بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ (١)

اللغة: القرآن: عبارة عن هذا الكلام، الذي هو في أعلى طبقات البلاغة، مع حسن النظام والجزالة. والتفصيل، والتقسيم، والتمييز، نظائر. وضدُّه: التلبيس، والتخليط. والسورة: جملة منزلة، محيطة بآيات الله، كإحاطة سور البناء بالبناء. والإستطاعة: حالة للحيّ تنطاع بها الجوارح للفعل، وهي مأخوذة من الطوع. والقدرة مأخوذة من القدر، فهي معنى يمكن أن يوجد بها الفعل، وإلاّ يوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى.

الإعراب: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: لأن يفترى، ويجوز أن يكون المعنى: ما كان هذا القرآن إفتراء، فيكون مصدراً في موضع نصب، بأنّه خبر «كان»، و﴿تَصْدِيقَ﴾ عطف عليه أي: ولكن كان تصديق الذي بين يديه. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: «أم» هذه هي المنقطعة، وتقديره: بل أيقولون. و﴿كَيْفَ﴾: في موضع نصب على أنّه خبر «كان».

المعنى: ثمّ ردّ الله سبحانه على الكفّار قولهم: إئت بقرآن غير هذا، أو بدّله. وقولهم: إنّ النبيّ ﷺ إفترى هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ أي: إفتراءً ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فأقام «أنْ» مع الفعل مقام المصدر، بل هو وحي من الله، ومتلقى منه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، كما قال في موضع آخر: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

---

(١) والآية تدلّ على أنّ السور ترتبت على عهد رسول الله ﷺ بأمره، بل بأمر الله تعالى، ولو كان الأمر كما يتوهّمه بعض الناس، أنّها ترتّبت بعده ﷺ، وأنّ الصحابة رتّبوا الآيات في السور، كيف ما ارادوا لم يكن لقوله تعالى: فأتوا بسورة مثله، أو فأتوا بعشر سور، وأمثال ذلك معنى، بل الجمع بعد رسول الله ﷺ، بمعنى جمع السور في المصحف، لاجمع الآيات في السور.

وهذه شهادة من الله، بأنّ القرآن صدق، وشاهد لما تقدّم من التوراة والإنجيل والزبور، بأنّها حقّ. ومن وجه آخر: هو شاهد لها، من حيث إنّه مصداق لها على ما تقدّمت البشارة به فيها. وقيل: معناه: تصديق الذي بين يديه في المستقبل، من البعث والنشور، والحساب، والجزاء.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي: تبيين المعاني المجملة في القرآن من الحلال، والحرام، والأحكام الشرعيّة. وقيل: معناه: وبيان الأدلّة التي تحتاجون إليها في أمور دينكم.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا شكّ فيه أنّه نازل من عندالله، وأنّه معجز لا يقدر أحد على مثله، وهذا غاية [في] التحدّي.

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرَاهُ﴾: هذا تقرير على موضع الحجّة، بعد مضيّ حجّة أخرى، وتقديره: بل أيقولون إفتراه هذا، فألزمهم على الأصل الفاسد، إمكان أن يأتوا بمثله.

و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثله في البلاغة؛ لأنّكم من أهل لسانه، فلو قدر على ذلك، لقدرتم أنتم أيضاً عليه، فإذا عجزتم عن ذلك، فاعلموا أنّه ليس من كلام البشر، وأنّه منزل من عندالله عزّ إسمه، وقيل: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: بسورة مثل سورة منه. وقال: ﴿مِثْلِه﴾ لأنّه إنّما إلتمس من هذا شبه الجنس.

﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: وأدعوا من قدرتم عليه من دون الله، وإستعينوا به؛ للمعاضدة على المعارضة بسورة مثله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنّ هذا القرآن مفترى من دون الله. وهذا أيضاً غاية في التحديّ والتعجيز[1].

---

(١) إعجاز القرآن ثابت؛ بأنّهم لم يأتوا بمثله، ولو كانوا أتين به، لشاع وذاع، ولم يكن أعداء ←

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي: بما كذَّبوا، ولم يعلموه من جميع وجوهه؛ لأنّ في القرآن ما يعلم المراد منه بدليل، ويحتاج إلى الكفر فيه، والرجوع إلى الرسول ﷺ في معرفة مراده، وذلك مثل المتشابه. فالكفّار لمّا لم يعرفوا المراد بظاهره، كذّبوا به. وقيل: معناه: بل كذّبوا بما لم يحيطوا علماً بكيفيّة نظمه، وترتيبه، وهذا كما أنّ الناس يعرفون ألفاظ الشعر، والخطب، ومعانيها، ولا يمكنهم إبداعها؛ لجهلهم بنظمها وترتيبها. وقال الحسن: معناه: بل كذّبوا بالقرآن من غير علم ببطلانه. وقيل: معناه: بل كذّبوا بما في القرآن من الجنّة والنار، والبعث والنشور، والثواب والعقاب.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: لم يأتهم بعد حقيقة ما وعد في الكتاب ممّا يؤول إليه أمرهم من العقوبة. وقيل: معناه: إنّ في القرآن أشياء، لا يعلموه هم، ولا يمكنهم معرفته، إلاّ بالرجوع إلى النبيّ ﷺ، فلم يرجعوا إليه، وكذّبوا به، فلم يأتهم تفسيره وتأويله. فيكون معنى الآية: بل كذّبوا بما لم يدركوا علمه من القرآن، ولم يأتهم تفسيره، ولو راجعوا فيه رسول الله ﷺ لعلموه.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: إنّ الله خصّ هذه الأمّة بآيتين من كتابه: أَنْ لا يقولوا إلاّ ما يعلمون، وأَنْ لا يردُّوا ما لا يعلمون. ثمّ قرأ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَن لاَيَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلاّ بِالْحَقِّ﴾ الآية. وقرأ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ الآية. وقيل: إنّ من هنا أخذ أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام قوله: «الناس اعداء ما جهلوا». وأخذ قوله: «قيمة كل إمرىء ما يحسنه»، من قوله عزّوجلّ:

← الإسلام محتاجين إلى الحرب والتوسّل بوسائل أخرى لإقحام المسلمين، وتذليلهم، وهذا القدر يكفي في العلم بالإعجاز، وإن لم نعلم بالتفصيل وجه عدم قدرتهم، وعلّة عجزهم، كما نعلم إنّ الشمس تطلع وتغرب، ولا نعلم كيفيّة حركتها وعلّتها، ونعلم أنّ دولة الروم إنقرضت، ولم نعلم علّة إنقراضهم، فعدم علم العجمي بالفصاحة، ونكاتها، لاينافي علمه بعجز الناس جميعاً عن مثله، وفي القرآن وجوه آخر من الإعجاز، مذكورة في محلّه.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ وأخذ قوله «تكلّموا تعرفوا»، من قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل تكذيب هؤلاء، كذّبت الأمم السالفة رسلها ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: كما كان عاقبة أُولئك الهلاك، كذلك يكون عاقبة هؤلاء.

ثمّ أخبر سبحانه أنّ من جملة هؤلاء الذين كذّبوا بالقرآن، ونسبوه إلى الإفتراء، من سيؤمن به في المستقبل، ويصدق بأنّه من عند الله، ومنهم من يموت على كفره، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وأراد سبحانه أنّه إنّما لا يهلكهم في الحال، لما يعلم في تبقيتهم من الصلاح. وقيل: معناه: ومنهم من يؤمن بالقرآن في نفسه، ويعلم صحّته، إلاّ أنّه يعاند ويظهر من نفسه خلاف ما يعلمه، ومنهم من هو شاكّ فيه، فكأنّه قال: ومنهم معاندون، ومنهم شاكوّن.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بمن يدوم على الفساد، ويعلم من يتوب.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد، ولم

---

(١) إذا وقف حمزة على «بريئون»، قلبها ياء، وأدغم، وليس له وجه غير ذلك؛ لأنّ الياء زائدة. وخفّف نون «لكن» حمزة والكسائي.

يصدِّقوك، وردُّوا عليك قولك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿لِي عَمَلِي﴾ فإن كنتُ كاذباً، فوباله عليَّ ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: ولكم جزاء عملكم.

﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ نظيره: قوله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. وهذا وعيد لهم من الله تعالى كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ونحوه. وقيل: إنّ هذه الآية منسوخة بآية القتال. وقيل: إنّه لا تنافي بين هذه الآية، وآية القتال؛ لأنّها براءة ووعيد، وذلك لا ينافي الجهاد.

﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُوْنَ إِلَيْكَ﴾ معناه: ومن جملة هؤلاء الكفّار، من يستمع إليك يا محمّد، والإستماع: طلب السمع، فهم كانوا يطلبون السمع؛ للردِّ لا للفهم، فلذلك لزمهم الذمّ، فإنّهم إذا سمعوه على هذا الوجه، كأنّهم صمّ لم يستمعوه، حيث لم ينتفعوا به. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ هذا خطاب للنبيّ ﷺ بأنّه لم يقدر على إسماع الصمّ ﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾ قال الزجّاج: معناه: ولو كانوا جهّالاً. وهذا مثل قول الشاعر: «أصَمَّ عمَّا ساءَهُ سَميعٌ».

﴿وَمِنْهُم مَن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ومن جملتهم من ينظر إليك يا محمّد، فلم يخبر بلفظ الجمع هنا؛ لأنّه حمله على اللفظ، وقال: ﴿وَمَنْ يَسْتَمِعُون﴾، فأخبر بلفظ الجمع حملاً على المعنى، أي: ينظر إلى أفعالك وأقوالك، لا نظر الحقيقة والعبرة، بل نظر العادة، فلا ينتفع بنظره.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمىَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبصِرُونَ﴾ أي: فكما أنّك لا تقدر أن تبصر العمي فتنفعهم به، كذلك لا تقدر أَنْ تنفع بما تأتي به من الأدلّة من ينظر إليها، ولا يطلب الإنتفاع بها. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ إستفهام، المراد به: النفي. وقيل: إنّ معنى الآيتين: ومنهم من يستمع إلى كلامك إستماع الطعن والتعنّت، وينظر إلى أدلّتك نظر الطاعن القادح فيها، المكذّب بها، الرّاد عليها، فلا تقدر أن تنفعهم بمثل هذا الإستماع، والنظر.

﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قد تمدَّح

سبحانه في هذا الآية، بأنّه لا يظلم أحداً من الناس شيئاً، بأن ينقص من حسناتهم، وجزاء طاعاته، ولكنّهم ينقصون أنفسهم، ويظلمونها بإرتكاب ما نهى الله عنه من القبائح. والمعنى هنا: إنّ الله تعالى لا يمنع أحداً الإنتفاع بما كلّفهم الإنتفاع به من القرآن والأدلّة، ولكنّهم يظلمون أنفسهم بترك النظر فيه، والإستدلال به، وتقويتهم أنفسهم الثواب عليها، وإدخالهم عليها العقاب. ففي الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يفعل الظلم، فبطل قول المجبرة في إضافة كل ظلم إلى خلقه، وإرادته.

النظم: قيل في إتّصال الآية الأولى بما قبلها: إنّه سبحانه لمّا بيّن دلائل التوحيد والنبوّات، فعاندوا وكذّبوا، أمر فيما بعد بقطع العصمة عنهم، والوعيد لهم. وأمّا الآية الأخيرة وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا﴾ فالوجه في إتّصالها بما قبلها، أنّها تتّصل بقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: أنّهم إستحقّوا ذلك الهلاك والعذاب بأفعالهم، وما ظلمناهم. وقيل: إنّها إتّصلت بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فكأنّه قال: إنّ الله لا يمنعهم الإنتفاع بما كلّفهم، بل مكّنهم، وبيّن لهم، وهداهم، وأزاح علّتهم، ولكن ظلموا هم أنفسهم بترك الإنتفاع به، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا تقدّم ذكر الوعد والوعيد، بيّن سبحانه أنّه لا يظلمهم أي: لا ينقص من حسناتهم، ولا يزيد في سيّئاتهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء.

والباقون: بالنون.

الحجة والإعراب: قال أبو عليّ: يحتمل قوله: ﴿كَأَن لَمْ يَلْبَثوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون صفة ليوم. والآخر: أن يكون صفة للمصدر المحذوف. والثالث: أن يكون حالاً من الضمير في «نحشرهم»، فإذا جعلته صفة ليوم إحتمل ضربين من التأويل: أحدهما: أن يكون التقدير: كأن لم يلبثوا قبله إلاّ ساعة، فحذفت الكلمة، لدلالة المعنى عليها، ومثل ذلك في حذف هذا النحو منه قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: أمسكوهنّ قبله. وكذلك قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: يتربّصن بعدهم.

ويجوز أن يكون المعنى: كأن لم يلبثوا قبله، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ثمّ حذفت الهاء من الصفة، كقولك: الناس رجلان: رجل أهنتم، ورجل أكرمتم. ومثل هذا في حذف المضاف، وإقامة الصفة المضاف إليه مقامه، قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وهو واقع بهم، التقدير، وجزاؤه واقع بهم، فحذف المضاف.

وإن جعلته صفة للمصدر، كان على هذا التقدير، الذي وصفناه وبمثله. وان جعلته حالاً من الضمير المنصوب، لم يحتج إلى حذف شيء من اللفظ؛ لأنّ الذكر من الحال قد عاد إلى ذي الحال. والمعنى نحشرهم مشابهة أحوالُهم أحوال من لم يلبث إلاّ ساعة.

وأَمّا «يوم نحشرهم» فإنّه يصلح أن يكون معمولاً لأحد شيئين: أحدهما: أن يكون معمول ﴿يَتَعَارَفُوْنَ﴾. والآخر: أن يكون «يوم نحشرهم» معمولاً لما دلّ عليه قوله: كأن لم يلبثوا، فإذا جعلته معمولاً لقوله: يتعارفون، إنتصب «يوم» على وجهين: أحدهما: أن يكون ظرفاً، معناه: يتعارفون في هذا اليوم. والآخر: أن يكون مفعولاً على السعة على قوله: يا سارق الليلة أهل الدار.

ومعنى «يتعارفون» يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون المعنى: مدّة إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها، وحذف المفعول للدلالة عليه، كما حذف في مواضع كثيرة، وعدّى «تفاعل» كما يعدّي في قوله: تخاطأت النبل أَحشاءه، أو يكون أَعمل الفعل الذي دلّ عليه «يتعارفون»، ألا ترى أنّه قد دلّ على يستعلمون ويتعرفون، وتعرفوا مدّة اللبث هيهنا، كما تعرفوها في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والآخر: في التعارف ما جاء من قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ فتعارفهم يكون على أحد هذين الوجهين.

فعلى هذا يكون قوله: ويوم نحشرهم، معمول «يتعارفون». والآخر: أن يكون «يوم نحشرهم» معمول ما دلّ عليه قوله: كأن لم يلبثوا، ألا ترى أنّ المعنى: تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث، فيعمل في الظرف هذا المعنى، ولا يمتنع المعنى من أن يعمل في الظرف، وإنْ تقدّم الظرف عليه، كقولهم: أكل يوم لك ثوب.

وإذا حملته على هذا، لم يجز أن يكون صفة للمصدر؛ لأنّ الموصوف الذي هو المصدر، موضعه بعد الفعل، تقديره: يوم نحشرهم حشراً، كأن لم يلبثوه، أو لم يلبثوا قبله. والصفة لا يتقدّم عليها ما تعمل فيه، ولا يجوز أيضاً أن تجعله صفة ليوم على هذا؛ لأنّ الصفة لا تعمل في الموصوف. ألا ترى أنّ الصفة شرح للموصوف، كما أنّ الصلة لا تعمل في الموصول، لذلك فإن قلت: فإذا قدرت كأن لم يلبثوا على تقدير الحال من الضمير، هل يجوز أن يكون «يوم» معمولاً له؟ فإنّ ذلك لا يجوز؛ لأنّ العامل في الحال «يحشر أو نحشر»، وقد أُضيف اليوم إليه، ولا يجوز أن يعمل في المضاف المضاف إليه، ولا ما يتعلق بالمضاف إليه؛ لأنّ ذلك يوجب تقديمه على المضاف. ألاترى أنّه لم يجز القتال زيداً حين يأتي.

وإذا جعلت «يتعارفون» العامل في «يوم نحشرهم» لم يجز أن يكون صفة

ليوم، على أنّك كأنّك وصفت اليوم بقوله: كأن لم يلبثوا ويتعارفون، فوصفت «يوم نحشرهم» بجملتين، لم يجز أن يكون معمولاً لقوله: يتعارفون؛ لأنّ الصفة لا تعمل في الموصوف، وجاز وصف اليوم بالجمل، وإن أضيف؛ لأنّ الإضافة ليست بمحضة فلم تعرفه، ويدلّ على النون في «نحشرهم» قوله سبحانه: وحشرناهم، وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ويدلّ على الياء: قوله: ﴿لَجَمْعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وكل واحد منهما يجري مجرى الآخر.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حالهم يوم الجمع، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: يجمعهم من كل مكان إلى الموقف ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ﴾ أي: كأنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار، ومعناه: أنّهم إستقلُّوا أيّام الدنيا، فإنّ المكث في الدنيا وإن طال، كان بمنزلة مكث ساعة في جنب الآخرة، ـ عن الضحّاك، وجماعة ـ. وقيل: إستقلّوا أيّام مقامهم في الدنيا؛ لقلّة إنتقاعهم بأعمارهم فيها، فكأنّهم لم يلبثوا إلاّ يوماً فيها؛ لقلّة فائدتها. وقيل: إنّهم إستقلُّوا مدّة لبثهم في القبور ـ عن ابن عباس ـ. وقد دلّ اللّه سبحانه بذلك، على أنّه لا ينبغي لأحد أن يغترّ بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا، إذا كان عاقبته إلى الزوال.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: إنّ الخلق يعرف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت، كما كانوا في الدنيا كذلك. وقيل: معناه: يعرف بعضهم بعضاً بما كانوا عليه من الخطأ والكفر. قال الكلبي: يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم، ثمّ تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب، ويتبرّأ بعضهم من بعض.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ أي: بلقاء جزاء الله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للحقّ. قال الحسن: معناه: خسروا أنفسهم؛ لأنّهم لم يكونوا مهتدين في الدنيا، ولو كانوا مهتدين في الدنيا، لم يخسروا أنفسهم. ومعناه: أنّهم خسروا الدنيا، حين

صرفوها إلى المعاصي، وخسروا نعيم الآخرة، حين فوتوها على أنفسهم بمعاصيهم.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمّد في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: نعد هؤلاء الكفّار من العقوبة في الدنيا. قالوا: ومنها: وقعة بدر.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نميتنك قبل أن ينزل ذلك بهم، وينزل ذلك بهم بعد موتك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: إلى حكمنا مصيرهم في الآخرة، فلا يفوّتوننا. وقيل: إنّ الله سبحانه وعد نبيّه ﷺ أَنْ ينتقم له منهم إمّا في حياته، أو بعد وفاته، ولم يحدّه بوقت، فقال: إنّ ما وعدناه حقّ لا محالة.

﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بأفعالهم، حافظ لها، فهو يوفّيهم عقاب معاصيهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي: لكل جماعة على طريقة واحدة، ودين واحد، كأمّة محمّد، وأمّة موسى، وعيسى عليهم السلام، رسول بعثه الله إليهم، وحمله الرسالة التي يؤدّيها إليهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ هيهنا حذف، وإضمار، والتقدير: فإذا جاء رسولهم، وبلّغ الرسالة، فكذّبه قومه، وصدّقه آخرون.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فيهلك المكذّبون، وينجو المؤمنون. وقيل: معناه: فإذا جاء رسولهم، يشهد عليهم يوم القيامة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: في الدنيا بما أذن الله له من الدعاء عليهم، قضى بينهم أي: فصل بينهم الأمر على الحتم.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصون عن ثواب طاعاتهم، ولا يزدادون في عقاب سيئآتهم.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ
لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ
عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ
إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا
كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ (١)

(اللغة): الوعد: خبر بما يعطى من الخير، والوعيد: خبر بما يعطى من الشرّ، هذا إذا فصّل. فإن أجمل، وقع الوعد على الجميع، والنفع: هو اللذّة، والسرور، وما أدّى إليهما، أو إلى واحد منهما. والضرر: الألم والغمّ، وما أدّى إليهما، أو إلى واحد منهما. والأجل: هو الوقت المضروب لوقوع أمر، كأجل الدين، وأجل الإنسان.

(الإعراب): متى: سؤال عن الزمان، وأين: سؤال عن المكان. بياتاً: منصوب على الظرف، وقوله: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾: يجوز أن يكون «ما» في موضع رفع، وذلك إذا كان «ذا» بمعنى «الذي». والمعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ فيكون «ما» مبتدأ، و«الذي» خبره. ويجوز أن يكون في موضع نصب، وذلك إذا جعلت «ما» و «ذا» إسماً واحداً. والمعنى: أيّ شيء يستعجل منه المجرمون من

---

(١) مضى الكلام في الهمزتين، من مثل: جاء أجلهم. وقرأ الكسائي: أرَيتم ـ بحذف الهمزة الثانية ـ، وسهّلها نافع، وأبو جعفر، وأبدلها ألفاً ممدودة الارزق. وإتّفقوا على عدم حذف همزة الوصل في «الآن». والكلام في وجوه القرائة فيه طويل.

العذاب، أو من الله؟ فيكون مفعول «يستعجل» ويكون جواب «إن أتاكم» محذوفاً، وتقدير الكلام: أرأيتم ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً، أوقع «إن أتاكم» في وسط الكلام موقع الإعتراض. ومعنى: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ هيهنا الإنكار، أي: ليس في العذاب شيء يستعجل به، وجاء في صيغة الإستفهام؛ لأنّه لا جواب لصاحبه يصحّ له، وقوله: أثُمَّ، دخلت ألف الإستفهام على «ثمّ» التي للعطف؛ لتدلّ على أنّ معنى الجملة الثانية بعد الأولى، مع أنّ للألف صدر الكلام، والعامل في «إذا» قوله: آمنتم به. وقوله: ﴿أَلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَستَعْجِلُونَ﴾ تقديره: الآن به تؤمنون.

المعنى: لمّا وعد سبحانه المكذّبين، بيّن عقيبه أنّهم استعجلوا ذلك على سبيل التكذيب والردّ[1]، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول هؤلاء المشركون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا به من البعث، وقيام الساعة. وقيل: من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد جواباً لهم ﴿لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا أقدر لنفسي على ضرّ أو نفع ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ أن يملكني، أو يقدرني عليه، فكيف أقدر لكم؟ لأنّي إذا لم أقدر على ذلك، كنت عن إنزال العذاب، وعن معرفة وقته، أعجز. أو يكون معناه: إذا لم أملك لنفسي شيئاً من ذلك، إلاّ ما ملّكنيه الله تعالى، فكيف أملك تقديم القيامة، وتعجيل العقوبة قبل الوقت المقدّر له.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكلّ أُمّة في عذابها على تكذيب الرسل، وقت معلوم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يتأخّرون عن ذلك الوقت، ولا يتقدّمون عليه، بل يهلكهم في ذلك الوقت بعينه.

---

(١) هذه الآيات تدلّ على أنّ الآيات التي كانوا يطلبونها، كانت آيات العذاب لا المعجزة؛ لأنّهم رأوا المعجزات، على مادلّت عليه آيات أُخرى.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المكذّبين المستعجلين بالعذاب: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أعلمتم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ أي: عذاب الله ﴿بَيَاتاً﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهذا إستفهام، معناه: التقطيع [التفظيع] والتهويل، كما يقول الإنسان لمن هو في أَمر يستوخم عاقبته: ماذا تجني على نفسك؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾. وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: يريد بذلك عذاباً ينزل من السماء على فسقة أهل القبلة في آخر الزمان، ونعوذ بالله منه.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ هذا إستفهام، معناه: الإنكار، وتقديره: أحين وقع بكم العذاب المقدّر الموقّت، آمنتم به أي: بالله في وقت اليأس. وقيل: بالقرآن. وقيل: بالعذاب الذي كنتم تنكرونه، فيقال لكم: ﴿آلْآنَ﴾ تؤمنون، وقد إضطررتم لحلوله ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من قبل مكذّبين مستهزئين. وقال الحسن: معناه: ثمّ إنّكم ستؤمنون به عند وقوع العذاب، فلا ينفعكم إيمانكم. ونظيره: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: ثمّ يقال يوم القيامة للذين ظلموا أنفسهم: ذوقوا عذاب الدوام في الآخرة، بعد عذاب الدنيا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ معناه: إنّكم قد دعيتم وهديتم، وبيّن لكم الأدلّة، وأُزيحت عنكم العلّة، فأبيتم إلاّ التمادي في الكفر، والإنهماك في الغيّ، فذوقوا جزاء أعمالكم. وإنّما شبّهوا بالذائق: وهو الذي يطلب الطعم الفم؛ لأنه أشدُّ إحساساً. وقيل: لأنّهم يتجرّعون العذاب بدخوله أجوافهم.

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

(١)

اللغة: الإستنباء: طلب النبأ الذي هو الخبر. والإقتداء: إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه به، يقال: فداه يفديه فدية، وفداء وإفتداه إفتداء. وفاداه مفاداة.

الإعراب: ألا: كلمة تستعمل في التنبيه، وأصلها: لا، دخل عليها حرف الإستفهام تقريراً وتذكيراً، فصارت تنبيهاً، وكسرت «إنَّ» بعد «ألا»؛ لأنّ «ألا» يستأنف ما بعدها؛ لينبّه بها على معنى الإبتداء، ولذلك وقع بعدها الأمر والدعاء، كقول إمرىء القيس: سألا أنعم صباحاً أيّها الطلل البالي».

المعنى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ يا محمد أي: يطلبون منك أن تخبرهم ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: أحقّ ما جئت به من القرآن، والنبوّة، والشريعة. وقيل؟ أحقّ ما تعدنا من البعث، والقيامة، والعذاب، ـ عن الجبائي ـ. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِي وَرَبِّي﴾ أي: نعم و حقّ الله ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بسابقين فائتين. وهذا الإستخبار يحتمل أن يكون إنّما وقع منهم على وجه التعريف والإستفهام،

---

(١) يحذف الهمزة في «يستنبؤنك» كتباً، ويقف حمزة عليه بحذفها، كأبي جعفر مطلقاً، ويجوز عند حمزة قلبها ياء عند الأخفش، وتسهيلاً كالواو عند سيبويه، وفتح الياء من «ربّى انّه» نافع وأبو عمرو من السبعة، وأبو جعفر.

ويحتمل أن يكون وقع على وجه الإستهزاء.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركت بالله، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ظلمت بكل ما يسمّي ظلماً. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأموال ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ من هول ما يلحقها من العذاب.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: أخفوا الندامة أي: أسرّ الندامة رؤساء الضلالة من الأتباع والسفلة. وقيل: أسرّوا الندامة أي: أخلصوها. والندامة: الحسرة على ما كان يتمنّى أنّه لم يكن. وقيل: أسروا أي: أظهروا، ـ عن أبي عبيدة، والجبائي ـ. وقال الأزهري: وهذا غلط لأنّ ما يكون بمعنى الإظهار يكون بالشين المنقطّة من فوق.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: فصل بينهم بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما يفعل بهم من العقاب؛ لأنّهم جنوه على أنفسهم. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: إنّما أسّروا الندامة وهم في النار؛ كراهيّة لشماتة الأعداء على أنفسهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملك السماوات والأرض وما فيهما، فلا يقدر أحد على منعه من إحلال العقاب بمملوكه المستحقّ له ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بإحلال العقاب بالمجرمين ﴿حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك لجهلهم به تعالى، وبصحّة ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿هُوَ يُحْيِي﴾ أي: يحيي الخلق بعد كونهم أمواتاً ﴿وَيُمِيتُ﴾ أي: يميتهم بعد أن كانوا أحياء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم. قال الجبائي، وفي هذه الآية دلالة على أنّه لا يقدر الحياة إلاّ الله تعالى؛ لأنّه تعالى تمدح بكونه قادراً على الإحياء، والإماتة.

النظم: وجه إتّصال الآية الأولى بما قبلها أنّ قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ عطف على ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ المعنى: أنّهم يستعجلونك، ويقولون متى تكون

القيامة والعذاب، أو يستخبرونك أحقٌّ ما تقول من كونه. ووجه إتّصال قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما قبله، إتّصال الإثبات بالنفي، وتقديره: ليس للظالم ما يفتدي به، بل جميع الملك له تعالى. وقيل: إنّه يتّصل بما قبله، بمعنى: أنّ من يملك السموات والأرض، يقدر على إيقاع ما توعد به.

ووجه إتّصال قوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ بما قبله، أنّه إذا خلق السموات والأرض لا للعبث، بل لمنافع الخلق، فلا يجوز عليه خلف الوعد. وأيضاً فإنّ من صفة الخالق أن يكون عالماً لذاته، غنيّاً غير محتاج، والخلف كذب قبيح، ولا بدّ للفعل من داع، والداعي إلى القبيح إمّا الجهل بقبحه، أو الحاجة إليه، فإذا لا يجوز الخلف عليه؛ إذ لا داعي له إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر: فليفرحوا ـ بالياء ـ، وتجمعون ـ بالتاء ـ. وقرأ يعقوب برواية رويس: فلتفرحوا، وتجمعون ـ بالتاء فيهما جميعاً ـ. وروي ذلك عن النبيّ ﷺ، وأُبيّ بن كعب، والحسن. وفي رواية زيد، عن يعقوب: فلتفرحوا ـ بالتاء ـ. ويجمعون ـ بالياء ـ، وروي ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وجماعة. والباقون: بالياء فيهما جميعاً.

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: الجارّ فيه يتعلق بمضمر أستغني عن ذكره لدلالة ما تقدّم عليه، وهو قوله ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كما أنّ قوله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ قيل: يتعلّق الظرف فيه بمضمر يدلّ عليه ما تقدّم من الفعل، وكذلك قوله: ﴿أَآلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَستَعْجِلُونَ﴾.

فأمّا قوله: ﴿فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فإنّ الجارّ فى قوله: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ يتعلّق بفليفرحوا؛ لأن هذا الفعل إتّصل بالباء. قال: وفرحوا بها. وقال: «فرحت بما قد كان من سيديكما». فأمّا الفاء في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فزيادة يدلّك على ذلك، أنّ المعنى فافرحوا بذلك، ومثل هذه الآية، قول الشاعر: «وإذا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذٰلِكَ فاجْزَعي» فالفاء في قوله: «فاجزعي» زيادة، كما كانت الفاء في قوله: فليفرحوا زيادة، ولا تكون الزيادة الأولى؛ لأنّ الظرف إنّما يتعلّق بإجزعي.

فأمّا من قرأ: فلتفرحوا ـ بالتاء ـ، فإنّه اعتبر الخطاب الذي قبل، وهو قوله: جاءتكم موعظة، وزعموا أنّها في حرف أبيّ «فافرحوا» قال أبو الحسن:وزعموا أنّها لغة، وهي قليلة نحو لتضرب وأنت تخاطب. فأمّا من قرأ: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء: فعلى أنّه عنى المخاطبين والغيب جميعاً، إلاّ أنّك غلبت المخاطبة على الغيبة.

ومن قرأ بالياء، كان المعنى: فافرحوا بذلك أيّها المؤمنون، أي: إفرحوا بفضل الله ورحمته، فإنّ ما أتاكموه من الموعظة، شفاء لما في الصدور، وثلج النفس بالإيمان، وسكون النفس إليه خير ممّا يجمعه غيركم من أعراض الدنيا، ممّن فقد هذه الحال التي حزتموها.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر القرآن، وما فيه من الوعد والوعيد، عقّبه سبحانه بذكر جلالة موقع القرآن، وعظم محلّه في باب الأدّلة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لجميع الخلق، وتنبيه لهم، ويقال: إنّه خطاب لقريش ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني القرآن، والموعظة: بيان ما تجب أن يحذر عنه، ويرغب فيه. وقيل: هي ما يدعوا إلى الصلاح، ويزجر عن الفساد.

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ الشفاء: معنى كالدواء، لإزالة الداء، فداء الجهل أضرُّ من داء البدن، وعلاجه أعسر، وأطبّاؤه أقلّ، والشفاء منه أجلّ. والصدر:

موضع القلب، وهو أجلّ موضع في البدن؛ لشرف القلب.

﴿وَهُدىً﴾ أي: ودلالة تؤدّي إلى معرفة الحقّ ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ونعمة لمن تمسّك به، وعمل بما فيه، وخصّ المؤمنين بالذكر، وإن كان القرآن موعظة ورحمة لجميع الخلق؛ لأنّهم الذين إنتفعوا به. وصف الله سبحانه القرآن في هذه الآية بأربع صفات: بالموعظة، والشفاء لما في الصور، وبالهدى، والرحمة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ معناه: قل يا محمّد بأفضال الله وبنعمته، فإنّه لايجوز إطلاق الفاضل على الله تعالى، فوضع الفضل في موضع الإفضال، كما وضع النبات في قوله: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾ في موضع الإنبات. وقيل: إنّ إضافة الفضل إلى الله بمعنى الملك، كما يضاف العبد إليه بأنّه مالك له.

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال الزجّاج: قوله: ﴿بِذَلِكَ﴾ بدل من قوله: ﴿بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، وهو يدلّ على أنّه يعني به القرآن أي: فبذلك فليفرح الناس؛ لأنّه خير لكم يا أصحاب محمّد، ممّا يجمعه هؤلاء الكفّار، من الأموال.

ومعنى الآية: قل لهؤلاء الفرحين بالدنيا، المعتدين بها، الجامعين لها، إذا فرحتم بشيء، فافرحوا بفضل الله عليكم، ورحمته لكم، بإنزال هذا القرآن، وإرسال محمّد ﷺ إليكم، فإنّكم تحصلون بهما نعيماً دائماً مقيماً، هو خير لكم من هذه الدنيا الفانية. وقيل: فضل الله: هو القرآن، ورحمته: الإسلام، ـ عن أبي سعيد الخدري، والحسن ـ. وروي أنس عن النبيّ ﷺ أنه قال: من هداه الله للإسلام، وعلّمه القرآن، ثمّ شكا الفاقة، كتب الله عزّوجلّ الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة، ثمّ تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الآية. وقيل: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، ـ عن قتادة، ومجاهد، وغيرهما ـ. قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: فضل الله: رسول الله ﷺ، ورحمته: علي بن أبي طالب عليه السلام، ـ ورواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم
مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ (١)
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

القراءة: قرأ الكسائي: وما يعزِب ـ بكسر الزائ هنا، وفي سبأ ـ، وهو قراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب. وقرأ الباقون: بضمّ الزاي. وقرأ حمزة، وخلف، ويعقوب، وسهل: ولا أصغرُ ولا أكبرُ ـ بالرفع ـ. والباقون: بفتحها.

الحجة: يعزِب ويعزُب: لغتان صحيحتان. ومن فتح الراء من «أصغر وأكبر»؛ فلأنّ «أفعل» في الموضعين في موضع جرٍّ، على تقدير: ما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة، ولا مثقال أصغر من ذلك، ولا أكبر. وإنّما فتح؛ لأنّه غير منصرف. وإنّما منع الصرف؛ لأنّ «أفْعَل» إذا إتّصل به «مِنْ» كان صفة، وإذا كان صفة لم ينصرف في النكرة. ومن رفع، حمله على موضع الجارّ والمجرور، الذي هو من مثقال ذرّة، فإنّه في موضع رفع، كما كان في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ ويجوز رفعه من جهة أخرى على الإبتداء، ويكون الخبر قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

اللغة: الشأن: إسم يقع على الأمر والحال، تقول: ما شأنك؟ وما بالك؟

---

(١) وأدغم «إذ تفيضون» أبو عمرو، وخلف، وحمزة، والكسائي، وهشام.

وما حالك؟ والإفاضة: الدخول في العمل على جهة الإنصباب إليه، مأخوذ من فيض الإناء: إذا انصب الماء من جوانبه. ومنه: قوله: ﴿أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي: تفرّقتم كتفرّق الماء الذي ينصب من الإناء. والعزوب: الذهاب عن المعلوم، وضدُّه: حضور المعنى للنفس. وتعزب: إذا إنفرد عن أهله.

﴿الإعراب﴾: ما في قوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾: في موضع نصب بأنزل، ويكون بمعنى «أيّ» في الإستفهام، ويحتمل أن يكون «ما» بمعنى «الذي»، فيكون نصباً برأيتم.

﴿المعنى﴾: ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يخاطب كفّار مكّة، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ فجعله حلالاً ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً﴾ أي: جعلتم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً، يعني ما حرّموا من السائبة: والبحيرة، والوصيلة، ونحوها ممّا حرّموا من زروعهم. وإنّما قال: ﴿أَنْزَلَ اللهُ﴾ لأنّ أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ ومعناه: إنّه لم يأذن لكم في شيء من ذلك، بل أنتم تكذبون في ذلك على الله سبحانه.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معناه: أي شيء يظنّ الذين يكذبون على الله أنّه يصيبهم يوم القيامة على إفترائهم على الله أي: لا ينبغي أن يظنّوا أن يصيبهم على ذلك إلاّ العذاب الشديد، والعقاب الأليم.

﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بما فعل بهم من ضروب الإنعام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه، ويجحدونها. وهذا الكلام خرج مخرج التقريع على إفتراء الكذب، وإن كان في صورة الإستفهام، وتقديره: أيؤدّيهم إفتراؤهم الكذب إلى خير أم شرٍّ. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أنّه لم يضيق عليهم بالتحريم، كما إدّعيتم ذلك عليه. وقيل: معناه: إنّه لذو فضل على خلقه، بترك

معاجلة من إفترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إيّاهم إلى يوم القيامة.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إمهاله إيّاهم، ليس لجهله بحالهم، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون أنت يا محمّد في حال من الأحوال، وفي أمر من أمور الدين، من تبليغ الرسالة، وتعليم الشريعة، وغير ذلك.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تقرأ من الله من قرآن. وقيل: من الكتاب من قرآن، والقرآن يقع على القليل والكثير منه. وقيل: إنّ الهاء تعود إلى الشأن أي: وما تتلوا من الشأن من قرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ أي: ولا تعمل أنت وأمّتك من عمل إلاّ كنّا عالمين به، شاهدين عليكم به ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تدخلون فيه، وتخوضون فيه.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: وما يبعد، وما يغيب عن علم ربّك، ورؤيته، وقدرته ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ من وزن نملة ﴿وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: في كتاب بيّنه الله فيه قبل أن خلقه، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: أراد به: كتاب الحفظة الذي كتبه الملائكة السفرة، وحفظوه. وقال الصادق عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً!

النظم: قيل: في إتّصال الآية الأولى بما قبلها، أنّها إتّصلت بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإذا قرأوا أنّه الرزّاق، قيل لهم: أجعلتم ما رزقكم بعضه حراماً، وبعضه حلالاً، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: لمّا وصف القرآن بأنّه هدىً ورحمة، وأمرهم بالتمسّك بما فيه، عقّبه بذكر مخالفتهم لما جاء في القرآن، وتحريمهم ما أحلّ الله.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ[1] قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

اللغة: الخوف، والفزع، والجزع، نظائر، وهو إزعاج القلب لما يتوقّع من المكروه، والأمن: ضدّه. والحزن: غلظ الهمّ مأخوذ من الحَزْن: وهي الأرض الغليظة، والسرور: ضدّه. والبشرى: الخبر ممّا يظهر سروره في بشرة الوجه، والبشارة: مثلها. والعزّة: شدّة الغلبة، من عزّه يعزّه: إذا غلبه، ومنه: قولهم: إذا عزّ أخوك فهن، يعني إذا غلبك ولم تقاومه، فلن له. وعزّ الشيء يعَزُّ ـ بفتح العين ـ: إذا إشتدّ، ويعزّ ـ بكسرها ـ: إذا صار عزيزاً لا يوجد، فكأنّه إشتدّ وجوده.

الإعراب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يحتمل موضعه ثلاثة أوجه من الإعراب: **الأول**: النصب على أنّه صفة ﴿أَوْلِيَاءَ الله﴾ **والثاني**: الرفع على المدح. **والثالث**: الرفع على الإبتداء، وخبره: ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ فإن جعلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة، لم تقف على «يحزنون» بل تقف على «يتقون»، وإن جعلته مبتدأ، وقفت على «يحزنون» دون «يتّقون»؛ لأنّ ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ خبر «عنهم». و«البشرى»: يرتفع بالظرف على الأقوال الثلاثة.

﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾ كسرت «إنّ»؛ للإستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن. ولا يجوز أن يكون كسرت، لأنّها وقعت بعد القول؛ لأنّه يصير حكاية عنهم، وإن النبيّ ﷺ يحزن لذلك، وهذا كفر. ويجوز فتحها على تقدير

---

(١) وقرء نافع: «يُحزنك» ـ بضمّ الياء ـ من باب الإفعال.

اللام، كأنّه قال: ولا يحزنك قولهم؛ لأنَّ العزّة لله جميعاً. وقد غلط القتيبي في هذا، فزعم أنّ فتحها يكون كفراً، وليس الأمر كما ظنّه، فإنّها إذا كانت معمولة للقول، لم يجز، وإذا تعلّقت بغير القول جاز، سواء فتحت أو كسرت. ومثل الفتح قول ذي الرمة:

فَمَا هَجَرتْكِ النَّفْسُ يَا مَيُّ أَنَّهَا ... قَلَتْكِ وَلٰكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُهَا
وَلَكِنَّهُمْ يَا أَمْلَحَ النَّاسِ أَوْلَعُوا ... بِقَوْلِ إِذَا مَا جِئْتُ هٰذَا جَنِيبُهَا[1]

وقال القتيبي عند ذكر هذه المسألة: إذا قلت: هذا قاتلٌ أخي، ـ بالتنوين ـ، دلّ على أنّه لم يقتل، وإذا قلت: هذا قاتلُ أخي ـ بحذف التنوين ـ، دلّ على أنّه قتل.

وهذا غلط بإجماع من النحويّين؛ لأنّ التنوين قد تحذف، وأنت تريد الحال والإستقبال. قال الله تعالى: ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ يريد بالغاً الكعبة. و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ستذوق.

﴿المعنى﴾: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بيّن سبحانه أنّ المطيعين لله الذين تولّوا القيام بأمره، وتولاّهم سبحانه بحفظه وحياطته، لا خوف عليهم يوم القيامة من العقاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يخافون.

وأختلف في أولياء الله، فقيل: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير، والإخبات، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: هم المتحابّون في الله، ذكر ذلك في خبر مرفوع. وقيل: هم الذين آمنوا وكانوا يتّقون، وقد بيّنهم في الآية التي بعدها، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: إنّهم الذين أدّوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله ﷺ، وتورّعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل هذه الدنيا،

---

(١) مَيّ: مرخّم مية: علم إمرأة. وقلتك: من قلى، أي: أبغض. والجنيب: أراد به القرين، يعني: إنّي صرت مشهوراً بحبّك، ولذلك هجرتك، لا لأنّي أبغضتك.

ورغبوا فيما عند الله، وإكتسبوا الطيّب من رزق الله لمعائشهم، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثمّ أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما إكتسبوا، ويثابون على ما قدموا منه لآخرتهم، وهو المرويّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام. وقيل: هم الذين توالت أفعالهم على موافقة الحقّ.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا بالله، وإعترفوا بوحدانيّته ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ مع ذلك معاصيه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ البشرى في الحياة الدنيا، هي ما بشّرهم الله تعالى به في القرآن على الأعمال الصالحة، ونظيره: قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ الآية، ـ عن الزجّاج والفرّاء ـ.

وثانيها: إنّ البشارة في الحياة الدنيا، بشارة الملائكة عليهم السلام للمؤمنين عند موتهم، بأن لا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنّة، ـ عن قتادة، والزهري، والضحّاك، والجبائي ـ.

وثالثها: إنّها في الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن لنفسه، أو ترى له، وفي الآخرة بالجنّة، وهي ما يبشّرهم الملائكة عند خروجهم من القبور، وفي القيامة، إلى أن يدخلوا الجنّة، يبشّرونهم بها حالاً بعد حال، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، وروي ذلك في حديث مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وروي عقبة بن خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: يا عقبة! لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلاّ هذا الدين الذى أنتم عليه، وما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقرُّ به عينه، إلاّ أن يبلغ نفسه إلى هذه ـ وأومئ بيده إلى الوريد ـ الخبر بطوله. ثمّ قال: إنّ هذا في كتاب الله وقرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الآية. وقيل: إنّ المؤمن يفتح له باب إلى الجنّة في قبره، فيشاهد ما أُعدَّ له في الجنّة قبل دخولها.

﴿لاَ تَبْدِيْلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ أي: لا خلف لما وعد الله تعالى به من الثواب، ولا خلاف في قوله بوضع كلمة أُخرى مكانها بدلاً منها؛ لأنّها حقٌّ، والحقّ لا [خلاف] خلف فيه بوجه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك الذي سبق ذكره من البشارة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، هي النجاة العظيمة التي يصغر في جنبها كل شيء ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾:ظاهرُه: النهي، والمراد به: التسلية للنبيّ ﷺ عن أقوالهم المؤذية، وهو مثل قولهم، لا رأيتك هيهنا، أي: لاتكن هيهنا، فمن كان هيهنا رأيته، وكذلك المراد بالآية: لا تعبأ بأذاهم، فمن عبأ به أذاه آذاهم.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً﴾ فيمنعهم منك بعزّته، ويدفع أذاهم عنك بقدرته. وقيل: معناه: لا يحزنك قولهم: إنّك ساحر، أو مجنون، فسينصرك الله عليهم، وسيذلّهم، وينتقم منهم لك، فإنّه عزيز قادر عليه ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالهم، ويعلم ضمائرهم فيجازيهم عليها، ويدفع عنك شرّهم، ويردّ كيدهم، وضرّهم.

النظم: وجه إتّصال الآية الأولى ما قبلها، إنّه لمّا تقدّم ذكر المؤمن والكافر، بيّن عقيبه أنّ أولياءه لا خوف عليهم. وقيل: لمّا ذكر أنّه يحصي أعمال خلقه، بشّر من تولاّه، وذكر ما أعدَّلهم. ووجه إتّصال قوله: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ بما تقدّم، أنّه يتّصل بقوله: وإن كذَّبوك ﴿فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ وقل: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

وقيل: إنّه يتّصل بما قبله، فكأنّه قال: إذا كنت من أولياء الله، ومن أهل البشارة، فلا ينبغي أن تحزن بطعن من يطعن عليك. ووجه إتّصال قوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بما قبله: أنّه يسمع قولهم، ويجازيهم، فلا يحزنك ذلك.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ[1] إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

(اللغة): الفرق بين الجعل والفعل: أنّ جعل الشيء يكون بإحداث غيره، كجعل الطين خزفاً، ولا يكون فعله إلاّ بإحداثه. والفرق بين الجعل والتغيير: أنّ تغيير الشيء لا يكون إلاّ بتصييره على خلاف ما كان، وجعله يكون بتصييره على مثل ما كان، كجعل الإنسان نفسه ساكناً على إستدامة الحال. وإنّما قال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ وإنّما يبصر فيه تشبيهاً ومجازاً وإستعارة في صفة الشيء بسببه على وجه المبالغة، كما يقال: سرٌّ كاتم، وليل نائم. ومثله: قول جرير:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أُمّ غَيْلانَ في السَّرى ... وَنِمْتُ ومـا لَـيْلُ الْـمَطِيِّ بِـنائِمِ

وقال رؤبة: «قد نام لَيْلي، وَتَجَلّى هَمِّي».

(المعنى): لمّا سلّى الله سبحانه نبيّه ﷺ بقوله: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فإنّهم لا يفوتونني، بيّن بعد ذلك ما يدلّ على صحّته، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء، وإذا كان له ملك العقلاء، فما عداهم تابع لهم، وإنّما خصّ العقلاء تفخيماً.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ يحتمل «ما» هيهنا وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى «أيُّ شيء»، فكأنّه قال: وأيّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؛ تقبيحاً لفعلهم.

---

(١) شركاء إن: من إجتماع الهمزتين، وسهّل الثانية ياء الحرميان وأبو عمرو.

والآخر: أن يكون نافية أي: وما يتبعون شركاء في الحقيقة.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: وهو أن يكون «ما» بمعنى «الذي»، ويكون منصوباً بالعطف على «مِنْ». ويكون التقدير: والذي يتّبع الأصنام، الذين يدعونهم من دون الله شركاء، فحذف العائد من الصلة، و﴿شُرَكَاءَ﴾ حال من ذلك المحذوف. وإن جعلت «ما» نفياً، فقوله: ﴿شُرَكَاءَ﴾ ينتصب بيدعون، والعائد إلى ﴿الَّذِينَ﴾ الواو في ﴿يَدْعُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مكرّراً لطول الكلام. وتقف في هذا القول على قوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وفي ذلك القول على قوله: ﴿شُرَكَاءَ﴾.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ليس يتّبعون في إتّخاذهم مع الله شركاء، إلاّ الظنّ؛ لتقليدهم أسلافهم في ذلك؛ أو لشبهة دخلت عليهم[1]، بأنّهم يتقرّبون بذلك إلى الله تعالى. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وليسوا إلاّ كاذبين بهذا الإعتماد.

والقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ معناه: إنّ الذي يملك من في السموات، ومن في الأرض، هو الذي خلق لكم الليل لسكونكم؛ ولأنْ يزول التعب والكلال عنكم بالسكون فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي: وجعل النهار مبصراً مضيئاً، تبصرون فيه، وتهتدون به في حوائجكم بالإبصار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لحججاً ودلالات على توحيد الله سبحانه، من حيث لا يقدر على ذلك غيره ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الحجج، سماع تدبّر، وتفهّم، وتعقّل.

---

(١) أطلق الظنّ على التقليد، وهذا يدلّ على أنّ الظانّ إذا لم يلتفت إلى نقيض معتقده، ولم يحصل التردّد له، أو لم يلتفت إلى أنّ مستنده لايوجب اليقين، لايخرج إعتقاده عن كونه ظنّاً، ولذلك ترى أنّ المشركين كانوا جازمين بمعتقدهم تقليداً، وكانوا يبذلون النفس والمال في سبيله، ومع ذلك سمّى إعتقادهم ظنّاً، فالظنّ لايخرج عن كونه ظنّاً بعدم الإلتفات إلى ضعف مستنده.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الإعراب: متاع: خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: ذاك، أو هو متاع. وقوله: «لا يفلحون» وقف تامّ. ويجوز أن يكون «متاع» مبتدأ محذوف الخبر، وتقديره: لهم متاع.

المعنى: ثمّ حكى الله سبحانه عن صنف من الكفّار أنّهم أصافوا إليه إتّخاذ الولد، وهم طائفتان: إحداهما: كفّار قريش والعرب، فإنّهم قالوا: الملائكة بنات الله والأخرى: النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، فقال سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ وإنّما قال: ﴿قالُوا﴾، وإن لم يكن سبق ذكرهم؛ لأنّهم كانوا بحضرة النبيّ ﷺ، وكان يعرفهم. وتصحّ الكناية عن المعلوم كما تصح عن المذكور. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عمّا قالوا. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن إتّخاذ الولد.

ثمّ بيّن سبحانه الوجه فيه، فقال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناه: إذا كان له ما في السموات وما في الأرض مِلكاً، ومُلكا، وخَلقاً، فهو الغنيّ عن إتّخاذ الولد؛ لأنّ الإنسان إنّما يتّخذ الولد؛ ليتقوّى به من ضعف، أو ليستغني به من فقر، والله سبحانه منزّه عن ذلك، وإذ إستحال إتّخاذ الولد حقيقة عليه سبحانه، إستحال عليه إتّخاذ الولد على وجه التبنّي.

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة وبرهان بهذا

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه لهم على قولهم ذلك.

ثمّ بيَّن سبحانه الوعيد لهم على ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون ﴿عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ بإتّخاذ الولد، وغير ذلك ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون بشيء من الثواب. وأصل الإفتراء من القطع، من فريت الأديم أي: قطعته. فمعناه: يقطعون الكذب الذي يكذبون به على الله تعالى.

وقوله: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ معناه: لهم متاع في الدنيا يتمتّعون به أيّاماً قلائل، ثمّ تنقضي، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: ثمّ إلى حكمنا مصيرهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ وهو عذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

القراءة: قرأ يعقوب وحده: وشركاءكم ـ بالرفع ـ، وهو قراءة الحسن، وابن أبي إسحاق، وأبي عبدالرحمن السلمي، وعيسى الثقفي. وقرأ الباقون: وشركاءكم ـ بالنصب ـ. وفي الشواذّ قراءة الأعرج، وعاصم، والجحدري[1]،

---

(١) عاصم الجحدري بالتوصيف، وفي بعض النسخ: عاصم والجحدري بالعطف تصحيف. وقرأ: تنظروني ـ بإثبات الياء ـ يعقوب. وأسكن ياء «إن أجرى» الكوفيّون غير حفص، وابن كثير. وفتحها نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص.

والزهري: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ مفتوحة الميم، موصولة الهمزة من جمع.

الحجة: من قرأ: فَاَجمِعُوا أمركم وشركاؤُكم ـ بالرفع ـ: رفعه على العطف على الضمير في «أجمعوا»، وساغ عطفه على الضمير من غير توكيد؛ من أجل طول الكلام بقوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وإذا جاز في قوله سبحانه: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ أن نكتفي من طول الكلام بلا، وإن كانت بعد حرف العطف، كان الإكتفاء من التوكيد بما هو أطول من «لا»، وهو أيضاً قبل الواو، كما أنّ التوكيد لو ظهر لكان قبلها أحرى. فلو قال قائل: قم وزيد، كان أقبح من أن يقول: قمت وزيد، وذلك لأنّ المعطوف عليه في «قم وزيد»، ضمير مستكن لا لفظ له، فهو أضعف من ضمير المخاطب، أو المتكلّم، في «قمت»؛ لأنّ له لفظاً وهو التاء. وقمت وزيد أضعف من «قمنا وزيد»؛ لأنّ «نا» من «قمنا» أتمّ لفظاً من التاء في «قمت».

وأمّا شركاءكم بالنصب: فقد قيل فيه: إنّه منصوب على إضمار فعل، كأنه قيل: وادعوا شركاءكم قالوا. وكذا هو في مصحف أُبيّ. وقيل: تقديره: فأجمعوا أمركم، وأجمعوا شركاءكم؛ لأنّ «أجمعوا» يدلّ عليه. وذهب المحقّقون إلى أنّه مفعول معه، وتقديره مع: شركائكم، كما أنشد سيبويه:

فَكُونُوا أَنْتُمُ، وَبَني أَبِيكُمْ مَكانَ الكُلْيَتَيْنِ مِنَ الطِّحَالِ

ويقال: أجمعت الأمر، وأجمعت على الأمر، أي: عزمت عليه. قال المؤرج: أجمعت الأمر؛ أفصح من «أجمعت عليه». قال أبو الهيثم: أجمع أمره: إذا جعله جمعاً جمعاً، بعد ما كان متفرّقاً، قال: «هَلْ أَغدُوَنْ يَوْماً وَأَمْري مُجْمَعٌ».

اللغة: الغمّة: ضيق الأمر الذي يوجب الحزن. والغمّة، والكربة، والضغطة، والشدّة، نظائر. ونقيضه: الفرجة. وقيل: غمّة مغطى تغطية، خبره مأخوذ من: غمّ الهلال، إذا حال دون رؤيته غيم.

المعنى: ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يقرأ عليهم أخبار نوح، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ الذين بعث إليهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي: شقّ وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ أي: وعظي وتنبيهي إيّاكم ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي: بحججه وبيّناته على صحّة التوحيد، والعدل، والنبوّة، والمعاد، وبطلان ما تدينون به. وفي الكلام حذف، هو قوله: وعزمتم على قتلي وطردي من بين أظهركم.

﴿فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جعله جواب الشرط، مع أنّه متوكّل عليه في جميع أحواله؛ ليبيِّن لهم أنّه متوكّل في هذا التفصيل، لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه؛ لأنّ الله تعالى يكفيه أمرهم. ومعناه: فإلى الله فوّضت أمري، وبه وثقت أن يكفيني أمركم.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ معناه: فإعزموا على أمركم مع شركائكم، وإتّفقوا على أمر واحد من قتلي وطردي، ولا تضطربوا فيه، فتختلف أحوالكم فيما تلقونني به، وهذا تهديد في صورة الأمر. وقيل: معناه اعزموا على أمركم، وادعوا شركاءكم. فبيّن ﷺ أنّه لا يرتدع عن دعائهم، وعيب آلهتهم؛ مستعيناً بالله عليهم، واثقاً بأنه سبحانه يعصمه منهم. وقيل: أراد بالشركاء، الأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله. وقيل: أراد: من شاركهم في دينهم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا يكن أمركم عليكم غمّاً وحزناً، بأن تردّدوا فيه. وقيل: معناه: ليكن أمركم ظاهراً مكشوفاً، ولا يكوننَّ مغطّى مبهماً مستوراً. عن غممت الشيء، إذا سترته. وقيل: معناه: لا تأتوه من غير أن تتشاوروا، ومن غير أن يجتمع رأيكم عليه؛ لأنّ من حاول أمراً من غير أن يعلم، كيف يتأتّى ذلك، كان أمره غمّة عليه.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِي﴾ أي: إنهضوا إليَّ فاقتلوني، إن وجدتم إليه سبيلاً، ولا تؤخّروني، ولا تمهلوني، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معنى اقضوا إليَّ:

إفعلوا ما تريدون، وأدخلوا إليَّ؛ لأنّه بمعنى: أفرغوا من جميع حيلكم، كما يقال: خرجت إليك من العهدة. وقيل: معناه: توجّهوا إليَّ.

وروي عن بعضهم أنّه قرأ: ثمّ افْضُوا إلىَّ أي: أسرعوا إليّ من الفضاء؛ لأنّه إذا صار إلى الفضاء، تمكّن من الإسراع. وهذا كان من معجزات نوح عليه السلام؛ لأنّه كان وحيداً مع نفر يسير، وقد أخبر بأنّهم لا يقدرون على قتله، وعلى أن ينزلوا به سوءاً؛ لأنّ الله تعالى ناصره، وحافظه عنهم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: ذهبتم عن الحقّ وإتّباعه، ولم تقبلوه، ولم تنظروا فيه ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا أطلب منكم أجراً، على ما أُؤدّيه إليكم من الله، فيثقل ذلك عليكم. وقيل: معناه: إن أعرضتم عن قبول قولي، لم يضرّني؛ لأنّي لم أطلع [أطمع] فيما لكم، فيفوتني ذلك بتوليكم عنّي، وإنّما يعود الضرر عليكم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ أي: ما أجري إلاّ على الله في القيام بأداء الرسالة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أمرني الله بأن أكون من المستسلمين لأمر الله، بطاعته؛ ثقة بأنّها خير ما يكتسبه العباد.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: أنّهم كذّبوا نوحاً أي: نسبوه إلى الكذب فيما يذكره من أنّه نبي الله، وإنّ الله بعثه إليهم؛ ليدعوهم إلى طاعته ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: جعلنا الذين نجوا مع نوح، خلفاء لمن هلك بالغرق. وقيل: إنّهم كانوا ثمانين نفساً. وقال البلخي: يجوز أن يكون أراد جعلناهم رؤساء في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: أهلكنا باقي أهل الأرض أجمع؛ لتكذيبهم لنوح عليه السلام.

﴿فَانْظُرْ﴾ أيّها السامع ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: المخوَّفين بالله وعذابه، أي: كيف أهلكهم الله.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

القراءة: روى حماد، ويحيى، عن أبي بكر، وزيد، عن يعقوب: وَيَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: الوجه في الياء: أنّ تأنيث الكبرياء غير حقيقيّ، وقد فصّل أيضاً بينه وبين الفعل. ومن قرأ بالتاء؛ فلأنّ لفظه لفظ التأنيث.

اللغة: الإجرام: إكتساب السيّئة، وأصله: القطع. واللفت: الصرف عن الأمر، يقال: لَفَته يلفِته لَفْتاً، وإمرأة لفوت: ذات زوج، لها ولد من غيره؛ لأنّها تلفت إلى ولدها عنقها.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه قصّة من بعثه بعد نوح، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح، وإهلاك قومه ﴿رُسُلاً﴾ يريد: إبراهيم، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وشعيباً ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ الذين كانوا فيهم بعد أن تناسلوا، وكثروا.

﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فأتوهم بالبراهين والمعجزات الدالّة على صدقهم، الشاهدة بنبوّتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: لم يكونوا

ليصدّقوا، يعني: أُولئك الأقوام الذين بعث إليهم الرسل، بما كذّبت به أوائلهم الذين هم قوم نوح أي: كانوا مثلهم في الكفر والعتّو. وقيل: معناه لم يكن منهم من يؤمن من بعد هذه الآيات، بما كذّبوا به من قبلها، بل كانت الحالتان سواء عندهم، قبل البيّنات وبعدها، ـ عن أبي مسلم والبلخي ـ.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: نجعل على قلوب الظالمين لنفوسهم، الذين تعدّوا حدود الله؛ سمة وعلامة على كفرهم، يلزمهم الذمّ بها، ويعرفهم بها الملائكة، كما فعلنا ذلك بقلوب هؤلاء الكفّار. وقد مرّ معاني الطبع والختم، فيما تقدّم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرسل، أو من بعد الأُمم ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عليهما السلام نبيّين مرسلين ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ أي: ورؤساء قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلّتنا ومعجزاتنا.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإنقياد لها، والإيمان بها ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ عاصين لربّهم، مستحقّين للعقاب الدائم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء قوم فرعون ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني: ما أتى به موسى من المعجزات والبراهين ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ أي: أتقولون لمعجزاته سحر، والسحر باطل، والمعجز حقّ، وهما متضادّان ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي: لا يظفرون بحجّة، ولا يأتون على ما يدعونه ببيّنة، وإنّما هو تمويه على الضعفة.

﴿قَالُوا﴾ يعني قال فرعون وقومه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي:لتصرفنا عن ذلك ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: الملك، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: العظمة والسلطان. والأصل أنّ الكبرياء: إستحقاق صفة الكبر في أعلى

المراتب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصر. وقيل: أراد إسم الجنس، والمراد به: الإنكار، وإن كان اللفظ لفظ الإستفهام، تعلّقوا بالشبهة في أنّهم على رأي آبائهم، وإنّ من دعاهم إلى خلافه، فظاهر [مظاهر] أمره أنّه يريد التأمرّ عليهم، فلم يطيعوه. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدّقين فيما تدّعيانه من النبوّة.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: بكل سحّار ـ بالتشديد ـ. والباقون: ساحر، على وزن «فاعل». وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو: آلسحر ـ بقطع الألف ومدّها على الإستفهام ـ. والباقون: السحر، موصولة على الخبر.

الحجة: قد بيّنّا الوجه في «سحّار وساحر» في سورة الأعراف. وأمّا قوله: آلسحر، فإنّ «ما» في قوله: ما جئتم به، في موضع رفع بالإبتداء، و«جئتم» في موضع رفع؛ بأنّه خبر المبتدأ، والكلام إستفهام. و«آلسحر» بدل من «ما» المبتدأ، ولزم أن يلحق «السحر» الإستفهام؛ ليساوي المبدل منه في أنّه إستفهام.

ألاترى أنّه ليس في قولك السحر إستفهام؟ وعلى هذا قالوا: كم مالك أعشرون، أم ثلاثون؟ فجعلت العشرون والثلاثون بدلاً من «كم»، وألحقت «أو»؛ لأنّك في قولك: كم درهماً مالك؟ مُدَّعٍ أنّ له مالاً، كما أنّك في قولك: أعشرون أم ثلاثون مالك؟ مُدَّعٍ أحد الشيئين، ولا يلزم أن تضمر للسحر خبراً على هذا؛ لأنّك إذا أبدلت من المبتدأ، صار في موضعه، وصار ما كان خبراً لما أبدلت منه، في

موضع خبر البدل.

ومن قرأ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ كان ﴿مَا﴾ في قوله موصولاً، و﴿جِئْتُمْ بِهِ﴾ الصلة، والهاء المجرورة عائدة على الموصول، وخبر المبتدأ الذي هو الموصول: السحر. وممّا يقوّي هذا الوجه، ما زعموا أنّه في حرف عبدالله[1]: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ فعلى هذا يكون تقديره: الذي جئتم به السحر، وعلى الوجه الأوّل، وهو أن يكون ﴿ما﴾ إستفهاماً، فتقديره: أيُّ شيء جئتم به السحر. وأمّا وجه الإستفهام مع علم موسى عليه السلام أنّه سحر، فإنّه مثل قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ في أنّه للتقرير.

﴿المعنى﴾: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ حكى الله سبحانه عن فرعون، أنّه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى عليه السلام، ولم يكن له في دفعها حيلة، قال لقومه: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر بليغ في عمله، وإنّما طلب فرعون كل ساحر؛ ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى عليه السلام، وحتى لا يفوته شيء من السحر بتأخّر بعضهم.

وإنّما فعل ذلك؛ للجهل بأنّ ما أتى به موسى عليه السلام من عندالله، وليس بسحر، وبعد ذلك علم أنّه ليس بسحر، فعاند كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هٰؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ وقيل: إنّه علم أنّه ليس بسحر، ولكنّه ظنّ أنّ السحر يقاربه مقاربة تشبيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ الذين طلبهم فرعون، وأمر بإحضارهم، وموسى عليه السلام حاضر.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وفي الكلام حذف، يدلُّ عليه الظاهر، وتقديره: فلمّا أتوه بالسحرة، وبالحبال، والعصي، قال لهم موسى ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي: إطرحوا ما جئتم به. وقيل: معناه: إفعلوا ما أنتم فاعلون. وهذا

---

(١) أي: قرائة ابن مسعود.

ليس بأمر بالسحر، ولكنّه قال ذلك على وجه التحدّي والإلزام أي: من كان عنده ما يقاوم المعجزات، فليلقه. وقيل: إنّه أمر على الحقيقة بالإلقاء؛ ليظهر بطلانه، وإنّما لم يقتصر على قوله: ﴿أَلْقُوا﴾؛ لأنّه أراد: ألقوا جميع ما أنتم ملقون في المستأنف، فلو إقتصر على ﴿أَلْقُوا﴾، ما أفاد هذا المعنى. والإلقاء: إخراج الشيء عن اليد إلى جهة الأرض، ويشبّه بذلك قولهم: أَلقى عليه مسألة، وألقى عليه رداءه.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي: فلمّا ألقت السحرة سحرهم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي: الذي جئتم به من الحبال، والعصي، السحر. أدخل عليه الألف واللام للعهد؛ لأنّهم لمّا قالوا لِما أتى به موسى أنّه سحر، قال عليه السلام: ما جئتم به هو السحر، ـ عن الفرّاء ـ.

﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ أي: سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ معناه: إنّ الله لا يهيّىء عمل من قصد إفساد الدين، ولا يمضيه ويبطله حتى يظهر الحقّ من الباطل، والمحقّ من المبطل[1]. ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ﴾ أي: يظهر الله الحقّ، ويحقّقه، ويثبته، وينصر أهله.

﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ قيل: في معناه أقوال: أحدها: إنّ معناه: بوعد موسى عليه السلام، وكان وعده النصر، فأنجز وعده، ـ عن الحسن ـ. وثانيها: إنّ معناه: بكلامه الذي يتبيّن به معاني الآيات التي أتاها نبيّه، ـ عن الجبائي ـ. وثالثها: بما سبق من حكمه في اللوح المحفوظ، بأنّ ذلك سيكون ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ظهور الحقّ، وإبطال الباطل.

---

(١) هذا الكلام، يدلّ على مذهب أهل العدل في اللطف، وأنّه لايجوز على الله تعالى إجراء خوارق العادات، ولو كانت سحراً على يد الكاذب، الاّ أن يبيّن كونه سحراً، ويبطل دعوى مدّعيه بوجه يظهر على عامّة الناس بطلانه، ولو لم يكن ذلك كذلك، لم يدلّ المعجزات على صدق الأنبياء عليهم السلام.

وفي هذه الآية دلالة على أنّه تعالى ينصر المحقّين كلّهم في حقّهم، وذلك على وجهين: أحدهما: بالحجّة، فهذه النصْرة مستمرّة على كل حال. والثاني: بالغلبة والقهر، وهذا يختلف بحسب المصلحة؛ لأنّ المصلحة قد تكون بالتخلية تارة، وبالحيلولة أخرى.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

(اللغة): الذرّيّة: الجماعة من نسل القبيلة، وقد تقدّم القول في أصلها، ووزنها، والفتنة: أصلها: البليّة، وهي معاملة تظهر الأمور الباطنة، يقال: فتنت الذهب: إذا أحرقته بالنار ليظهر الخلاص. وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يحرقون؛ لما فيه من إظهار حالهم في الضلال. وقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ معناه: التعذيب للردِّ عن الدين؛ لما فيه من إظهار النصرة أشدّ.

(الإعراب): ﴿يَاقَوْمِ﴾: حذفت منه ياء الإضافة؛ إجتزاء بالكسرة منها، وهو في النداء أحسن من إثباتها؛ لقوّة النداء على التغيير. والفاء في قوله: ﴿فَقَالُوا﴾: فاء العطف، وجواب الأمر، كما تقول: قال السائل كذا، فقال المجيب كذا. وإنّما جازت الفاء في الجواب، ولم تجز «الواو»؛ لأنّ «الفاء» تترتّب من غير مهلة، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالأوّل، وليس كذلك «الواو».

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه من آمن من قوم موسى عليه السلام، فقال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ أي: لم يصدّق موسى عليه السلام في ما إدّعى من النبوّة، مع ما أظهره من المعجزات الظاهرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: أولاد من قوم فرعون. وقيل: أراد من قوم موسى عليه السلام، وهم بنو إسرائيل، الذين كانوا بمصر.

وأختلف من قال بالأوّل، فقيل: إنّهم قوم كانت أُمّهاتهم من بني إسرائيل، وآباؤهم من القبط، فإتّبعوا أمّهاتهم وأخوالهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم أُناس يسير من قوم فرعون، منهم: إمرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وجاريته، وإمرأة هي مشاطة امرأة فرعون، ـ عن عطية، عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم بعض أولاد القبط، لم يستجب آباؤهم موسى عليه السلام.

وأختلف من قال بالثاني، فقيل: هم جماعة من بني إسرائيل، أخذهم فرعون لتعلم السحر، وجعلهم من أصحابه، فآمنوا بموسى، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: أراد مؤمني بني إسرائيل، وكانوا ستّمائة ألف، وكان يعقوب دخل مصر منهم بإثنين وسبعين، إنساناً، فتوالدوا حتى بلغوا ستّمائة ألف، وإنّما سمّاهم ذرّية، على وجه التصغير؛ لضعفهم، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى ـ. وقال مجاهد: أراد بهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل؛ لطول الزمان هلك الآباء، وبقي الأبناء.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ يعني آمنوا، وهم خائفون من معرة فرعون ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ ومن أشرافهم ورؤسائهم. قال الزجّاج: وإنّما جاز أن يقال: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ لأنّ فرعون ذو أصحاب يأتمرون له. وقيل: إنّ الضمير في ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ راجع إلى الذرّيّة؛ لأنّ أباءهم كانوا من القبط، وكانوا يخافون قومهم من القبط، أن يصرفوهم عن دينهم، ويعذّبوهم.

﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن الدين، يعني أن يمتحنهم بمحنة لا يمكنهم

الصبر عليها، فينصرفون عن الدين. وكان جنود فرعون يعذّبون بني إسرائيل، فكان خوفهم منه، ومنهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مستكبر باغ طاغ في أرض مصر، ونواحيها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: من المجاوزين الحدّ في العصيان؛ لأنّه إدَّعى الربوبيّة، وأسرف في القتل، والظلم. والإسراف: التجاوز عن الحدّ في كل شيء.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لقومه الذين آمنوا به: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ كما تظهرون ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: فاسندوا أُموركم إليه إن كنتم مسلمين على الحقيقة، وإنّما أعاد قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ ليتبيّن المعنى بإجتماع الصفتين: التصديق والإنقياد، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاستسلموا لأمره، وفائدة الآية بيان وجوب التوكّل على الله عند نزول الشدّة، والتسليم لأمره ثقة بحسن تدبيره، وإنقطاعاً إليه.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أخبر سبحانه عن حسن طاعتهم له، وأنّهم قالوا أسندنا أمورنا إلى اللّه، واثقين.

﴿رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تمكّن الظالمين من ظلمنا؛ بما يحملنا على إظهار الإنصراف عن ديننا، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: ربّنا لا تظهر علينا فرعون وقومه؛ فيفتتن بنا الكفّار، ويقولوا: لو كانوا على الحقّ لما ظفرنا عليهم، ـ عن الحسن، وأبي مجلز ـ. وروي زرارة ومحمّد بن مسلم، عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام أنّ معناه: لا تسلّطهم علينا؛ فتفتنهم بنا.

﴿وَنَجِّنَا﴾ وخلّصنا ﴿بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من قوم فرعون، وإستعبادهم إيّانا، وأخذهم جماعتنا بالأعمال الشاقّة، والمهن الخسيسة.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

القراءة: قرأ ابن عامر ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ ـ خفيفة النون ـ. والباقون: بالتشديد[1].

الحجة: من قرأ بالنون الشديدة، كسرها؛ لوقوعها بعد ألف التثنية، فأشبهت نون الإثنين في «رجلان»، ولم يعتدّ بالنون الساكنة قبلها؛ لسكونها وخفّتها، فصارت المكسورة كأنّها وليت الألف.

ومن قرأ بالتخفيف: فإنّه يمكن أن يكون خفّف الثقيلة للتضعيف، كما خفّفوا «ربّ، وإنّ»، ونحوهما، إلاّ أنّه حذف الأولى من المثلين كما أبدلوا الأولى من المثلين، في نحو: قيراط، ودينار. ولزم ذلك في هذا الموضع؛ لأنّ الحذف لو لحق الثانية، للزم إلتقاء الساكنين، وإلتقاء الساكنين على هذا الحدّ، غير مأخوذ به عند العامّة، وإن شئت كان على لفظ الخبر، والمعنى الأمر، كقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ﴿وَلَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أي: لا ينبغي ذلك، وإن شئت جعلته حالاً من «إستقيما»، والتقدير: إستقيما غير متّبعين، ويدلّ على ذلك قول الشاعر:

---

(١) «ليُضلّوا» ـ بضمّ الياء ـ قرائة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. والباقون: بالفتح.

فَلاَ أَسْقي، وَلاَ يَسْقى شَريبي وَيَرْويهِ إِذا أَوْرَدْتُ مائِي[١]

وكقول الفرزدق:

بِأَيْـدِي رِجـالٍ لَـمْ يَشـيمُوا سُـيُوفَهُمْ

وَلَمْ تَكْثُرِ الْـقَتْلىٰ بِـهٰا حـينَ سُـلَّتِ[١]

اللغة: تبوءا أي: إتّخذا، يقال: تبوّأ لنفسه بيتاً أي: إتّخذه، وبوّأت له بيتاً أي: إتّخذته له. ويقال: إنّ «تبوّأ، وبوّأ» بمعنى، أي: إتّخذ بيتاً، مثل: بدّل وتبدّل، وخلَّص وتخلَّص. قال أبو عليّ: تبوّأ، فعل يتعدّي إلى مفعولين، واللام في قوله: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ كالتي في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ ويقوّي ذلك قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فدخلت اللام على غير المطاوع، كما دخلت على المطاوع في قوله: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾. والطمس: محو الأثر، يقال: طمست عينه، أطمسها طمساً وطموساً، وطمست الريح آثار الديار. والطمس: تغيّر إلى الدثور والدروس. قال كعب بن زهير:

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفْرىٰ إِذا عَرِقَتْ عُرْضَتُهٰا طامِسُ الأَعْلامِ مَجْهُولُ[٢]

الإعراب: مِصر: غير منصرف؛ لأنّه مؤنّث معرفة، ولو صرفت؛ لخفّتها ـ كما

---

(١) والشاهد في «يرويه»: حيث إنّه حال، مع أنّ الفعل المضارع إذا كان حالاً إستغنى عن الواو، وكذلك: ولم تكثر القتلى ـ في البيت الثاني ـ ولايجوز كون الواو عاطفة؛ لأنّ المقام مقام مدح، وإن جعلناها عاطفة إنقلب المدح ذمّاً، وناقض «يرويه» قوله: لايسقى؛ لأنّ من لايسقى، لايروى ولايصير ريّان. والبيت الثاني في جامع الشواهد.

(٢) نضّاخة الذفرى: صفة للناقة: والذفرى: خلف الأذن، وشدّة جرى العرق من خلف أذنها، كناية عن الشدّة في السير. والعرضة: المسافة التي تعرضت الناقة لقطعها. وطامس الأعلام: صفة للبرّ الذي تقطعه. وطامس الأعلام أي: ليس فيه علامة يهتدي به من جبل، أو أثر قرية، وطريق، وغير ذلك، ولايقطع مثل هذا البرّ إلاّ الشجاع العارف.

[١] شام السيف شيماً: سلّه وأعمده. قال: الواو في قوله «ولم» واو الحال، أي لم يغمدوها والقتلى بها لم تكثر، وإنّما يغمدونها بعد أن تكثر القتلى بها.

تصرف «هند» ـ لكان جائزاً. وترك الصرف أقيس. وقوله: بيوتاً، مفعول به، وليس بظرف مكان؛ لإختصاصه. والبيوت هنا، كالغرف في قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً فَلاَ يُؤْمِنُوا﴾ يحتمل وجهين من الإعراب: النصب والجزم. فأمّا النصب ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون على جواب صيغة الأمر بالفاء. والآخر: أن يكون عطفاً على «ليضلّوا» أي: ليضلّوا فلا يؤمنوا، وهذا قول المبّرد. وعلى هذا فيكون قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إعتراضاً. وأمّا الجزم، فيكون على وجه الدعاء عليهم، وتقديره: فلا آمنوا، ومثله: قول الأعشى:

فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيكَ مَا انْزَوىٰ وَلاَ تَلْقَني إِلَّا وَأَنْفُكَ راغِمُ[1]

المعنى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ أي: أمرناهما ﴿أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ أي: إتّخذا لمن آمن بكما بمصر، يعني: البلدة المعروفة بيوتاً تسكنونها، وتأوُون إليها.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ اختلف في ذلك، فقيل: لمّا دخل موسى عليه السلام مصر[2] بعد ما أهلك الله فرعون، أُمروا بإتّخاذ مساجد يذكر فيها إسم الله تعالى، وأن يجعلوا مساجدهم نحو القبلة أي: الكعبة، وكانت قبلتهم إلى الكعبة، ـ عن الحسن ـ. ونظيره: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الآية. وقيل: إنّ فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل، ومنعهم من الصلاة، فأُمروا أن يتّخذوا مساجد في بيوتهم، يصلّون فيها؛ خوفاً من فرعون، وذلك قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلّوا في بيوتكم؛ لتأمنوا من الخوف، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والسدّي، وغيرهم ـ. وقيل: معناه: إجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

---

(١) إنزوى عنه: أي: بعد وخفي. يقول: الذي بعد عنك، فليكن بعيداً عنك دائماً، بحيث لاتراه عينك، ولاتكن إلاّ راغم الألف.

(٢) ودخول بني إسرائيل مصر بعد فرعون، غير مشهور.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أديموها، وواظبوا على فعلها. ﴿وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالجنّة، وما وعد الله تعالى من الثواب، وأنواع النعيم. والخطاب لموسى عليه السلام، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: الخطاب لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ أي: أعطيت فرعون وقومه ﴿زِينَةً﴾ يتزيّنون بها من الحليّ والثياب. وقيل: الزينة: الجمال، وصحّة البدن، وطول القامة، وحسن الصورة.

﴿وَأَمْوَالاً﴾ يتعظّمون بها ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإنّما أعطاهم الله تعالى ذلك؛ للإنعام عليهم مع تعرّيه من وجود الإستفساد.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾: اللام للعاقبة، والمعنى: وعاقبة أمرهم، أنّهم يضلّون عن سبيلك، ولايجوز أن يكون لام الغرض؛ لأنّا قد علمنا بالأدلّة الواضحة، أنّ الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال، ولا يريد أيضاً منهم الضلال، وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلّوا. وقيل: معناه: لئلاّ يضلّوا عن سبيلك، فحذفت ﴿لا﴾ كقوله: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لئلاّ تقولوا، وحذف ذلك؛ لدلالة العقل عليه. وقيل: إنّه لا الدعاء، والمعنى: ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال.

وإنّما قال ذلك؛ لعلمه بأنّهم لا يؤمنون من طريق الوحي، وفائدته: إظهار التبرّؤ منهم، كما يلعن إبليس. ويدلّ عليه أنّه أعاد قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ فدلّ ذلك على أنّه أراد به الدعاء عليهم، والمراد بالطمس على الأموال: تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها. قال مجاهد، وقتادة، وعامّة أهل التفسير: صارت جميع أموالهم حجارة حتى السكّر، والفانيذ[١].

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: ثبّتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم،

---

[١] الفانيذ: ضرب من الحلواء، فارسيّ معرّب.

فيكون ذلك أشدّ عليهم. وقيل: معناه: أمتهم بعد سلب أموالهم، وأهلكهم. وقيل: إنّه عبارة عن الخذلان والطبع.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قد ذكرنا وجوهه. وقيل: معناه: إنّهم لا يؤمنون إيمان إلحاء [الجاء] حتى يروا العذاب، وهم مع ذلك لا يؤمنون إيمان إختيار أصلاً.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه أجاب لهما الدعوة، فقال: ﴿قال﴾ أي: قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ والداعي كان موسى عليه السلام؛ لأنّه كان يدعو، وكان هارون يؤمّن على دعائه، فسمّاهما داعيين، ـ عن عكرمة، والربيع، وأبي العالية، وأكثر المفسّرين ـ؛ ولأنّ معنى التأمين: أللهمّ إستجب هذا الدعاء.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: فأثبتا على ما أُمرتما من دعاء الناس إلى الإيمان بالله تعالى، والإنذار والوعظ. قال ابن جريج: مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نهاهما سبحانه عن أن يتّبعا طريقة من لا يؤمن بالله، ولا يعرفه، ولا يعرف أنبياءه عليهم السلام.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: آمنت إنّه ـ بكسر الألف ـ. والباقون:

أنّه ـ بالفتح ـ. وروي عن أبي جعفر، ونافع: الان ـ بإلقاء حركة الهمزة على اللام، وحذف الهمزة[١] ـ. وقرأ: ننجيك ـ خفيفة ـ، قتيبة، ويعقوب، وسهل. والباقون: ننجّيك ـ بالتشديد ـ. وفي الشواذّ قراءة أُبيّ بن كعب، ومحمّد بن السميقع [السميفع]: ننحيك ـ بالحاء ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: من قرأ: آمنت أنه ـ بالفتح ـ فلأنّ هذا الفعل يصل بحرف الجرّ في نحو: يؤمنون بالغيب، فلمّا حذف حرف الجرّ، وصل الفعل إلى «أن»، فصار في موضع نصب، أو جرّ، على الخلاف في ذلك. ومن قرأ: آمنت إنّه ـ بالكسر ـ حمله على القول المضمر، كأنّه قال: آمنت وقلت إنّه. وإضمار القول في هذا النحو كثير. وقال عليّ بن عيسى: من كسر «إنّه» جعله بدلاً من «آمنت»، ومن فتح، جعله معمول «آمنت». وأمّا «الآن»: فإنّ لام المعرفة، إذا دخلت على كلمة أوّلها الهمزة، فخفّفت الهمزة، كان في تخفيفها وجهان: أحدهما: أن يلقي حركتها على اللام، وتقرّ همزة الوصل، فيقال: أَلْحَمَر[٢]، وقد حكى ذلك سيبويه. وحكى أبو الحسن: إنّ أُناساً يقولون: لَحْمَرُ، فيحذفون الهمزة التي للوصل. قال[١]:

فَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْراءَ حِقْبَةً فَبُحْ لانَ مِنْها بِالَّذي أَنْتَ بائحُ[٣]

فأسكن «الحاء» لمّا كانت «اللام» متحرّكة. ولو لم يعتدّ بالحركة، كما لم يعتدّ بها في الوجه الأوّل، لحرّك الحاء بالكسر، كما يحرّك في «بُح اليوم». ونجيك

---

(١) في «الآن» ثلث همزات: الأولى: همزة الإستفهام، وهي همزة قطع مفتوحة. والثانية: همزة «ال»، وهي همزة وصل مفتوحة أيضاً. والثالثة: همزة «آن»، والواقع فيه الأوليان، أي: الإستفهام وأل، ثلث كلمات «الله، وآلان، وآلذكرين» في المشهور. وزاد أبو عمرو كلمة رابعة: آلسحر في يونس، والحكم في جميع ذلك الا تحذف همزة «أل» كساير همزات الوصل، بل تبدل ألفاً، أو تسهل. وفي مدّها، أو قصرها، كلام يطول.

(٢) في «الأحمر».

(٣) حقبة أي: مدّة طويلة. ولان أي: ألان.

[١] قائله: عنترة بن شداد العبسي.

وننجّيك، في معنى واحد أي: نلقيك على النجوة من الأرض. قال أوس بن حجر:

فَمَنْ بِنَحْوَتِهِ كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ وَالمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْواحِ[1]

والقرواح: حيث لا ماء ولا شجر. ومن قرأ: ننحيك ـ بالحاء ـ، فإنّه نفعلك من الناحية أي: نجعلك في ناحية. ومنه: نحّيت الشيء، فتنحّى[2] أي: باعدته فتباعد، فصار في ناحية. قال الحطيئة:

تَنَحّي فَاجْلِسي مِنّي بَعيداً أَرَاحَ اللهُ مِنْكِ الْعالَمينا

اللغة: المجاوزة: الخروج عن الحدّ من إحدى الجهات الأربع. والإتْباع: طلب اللحاق بالأوّل. أتبعه إتباعاً، وتبعه، بمعنى. وحكى أبو عبيدة عن الكسائي، أنّه قال: إذا أُريد أنّه أتبعهم خيراً أو شرّاً، قالوا بقطع الهمزة، وإذا أريد به أنّه إقتدى بهم، وأتبع أثرهم، قالوا بتشديد التاء، ووصل الهمزة. والبغي: طلب الإستعلاء بغير حقّ. والعدوّ والعدوان: الظلم. والنجوة: الأرض التي لا يعلوها السيل، وأصلها من الإرتفاع.

الإعراب: ﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾: مفعول له. وقيل: إنّهما مصدران في موضع الحال، أي: في حال البغي والعدوان الآن، فصل بين الزمان الماضي والمستقبل، مع أنّه إشارة إلى الحاضر، ولهذا بني كما بني «ذا». وعرف «الآن» بالألف واللام.

و«أمس» يتضمّن حرف التعريف؛ لأنّ ما مضى بمنزلة المضمر في المعنى، في أنّه ليس له صورة، والحاضر في معنى المصرّح في صحّة الصورة. والعامل في قوله: «الآن» محذوف، وتقديره: الآن آمنت.

---

(١) إنكار، أي: ليس من في أعلى المكان، كما هو على فناء الدار. والنازل في بيته، كالماشي في الشمس.

(٢) هذه قرائة محمّد بن السيفع، وكان أصله من اليمن، وسكن البصرة آخر أيّامه. ذكره ابن النديم في الشواذّ.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه مآل آل فرعون وقومه، فقال ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: عبرنا بهم البحر، حتى جاوزوه سالمين، بأن يبسنا لهم البحر، وفرقنا لهم الماء إثني عشر فرقاً.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ أي: ليبغوا عليهم، ويظلموهم، وذلك أنّ الله سبحانه لمّا أجاب دعاء موسى، أمره بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً، فخرج، وتبعهم فرعون وجنوده مشرقين، حتى إنتهوا إلى البحر، وأمر الله سبحانه موسى عليه السلام فضرب البحر بعضاه، فإنفلق إثني عشر فرقاً، وصار لكلّ سبط طريق يابس، فإرتفع بين كل طريقين الماء كالجبل، وصار في الماء شبه الخروق، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض.

فلمّا وصل فرعون بجنوده إلى البحر، رأوا البحر بتلك الهيئة، فهابوا دخول البحر، وكان فرعون على حصان أدهم، فجاء جبرائيل عليه السلام، على فرس وديق، وخاض البحر، وميكائيل يسوقهم، فلمّا شمّ أدهم فرعون ريح فرس جبريل عليه السلام، انسل خلفه في الماء، وإقتحمت الخيول خلفه، فلمّا دخل آخرهم البحر، وهمَّ أوّلهم أن يخرج، إنطبق الماء عليهم.

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي: وصل إليه الغرق، أيقن بالهلاك ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ وكان ذلك إيمان إلجاء، لا يستحقّ به الثواب، فلم ينفعه إيمانه.

﴿أَالْآنَ﴾ وقد عصيت قيل: فيه إضمار، أي: قيل له الآن آمنت، حين لا ينفع الإيمان، ولا يقبل؛ لأنّه حال الإلجاء ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ بترك الإيمان في حال ما ينفعك الإيمان، فهلاّ آمنت ﴿قَبْلُ﴾ ذلك ﴿وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بقتل المؤمنين، وإدّعاء الإلهيّة، وأنواع الكفر.

وأختلف في قائل هذا القول، فقيل: قاله جبريل عليه السلام. وقيل: ذلك كلام الله

تعالى، قاله على وجه الإهانة والتوبيخ، وكان ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

وروي عليّ بن إبراهيم بن هاشم: بإسناده عن الصادق عليه السلام، قال: ما أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ كئيباً حزيناً، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلمّا أمر الله سبحانه بنزول هذه الآية، نزل وهو ضاحك مستبشر، فقال له: حبيبي جبريل ما أتيتني إلاّ وبيّنت الحزن في وجهك حتى الساعة؟ قال: نعم يا محمّد، لمّا أغرق الله فرعون قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فأخذت حمأة فوضعتها في فيه، ثمّ قلت له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ثمّ خفت أن تلحقه الرحمة من عندالله، فيعذّبني على ما فعلت، فلمّا كان الآن، وأمرني أن أؤدّي إليك ما قلته أنا لفرعون، آمنت وعلمت أنّ ذلك كان لله رضا.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أختلف في معناه، فقال أكثر المفسّرين: معناه: لمّا أغرق الله فرعون وقومه، أنكر بعض بني إسرائيل غرق فرعون، وقالوا: هو أعظم شأناً من أن يغرق، فأخرجه الله حتى رأوه، فذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نلقيك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع ببدنك أي: بجسدك من غير روح، وذلك أنّه طفا عرياناً. وقيل: معناه: نخلصك من البحر، وأنت ميّت، والبدن الدرع. قال ابن عباس: كانت عليه درع من ذهب يعرف بها، فالمعنى: نرفعك فوق الماء بدرعك المشهورة، ليعرفوك بها.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون نكالاً لمن خلفك، فلا يقولوا مثل مقالتك، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّه كان يدّعي أنّه ربّ، فبيّن الله أمره وأنّه عبد، وفيه من الآية أنّه غرق مع القوم، وأُخرج هو من بينهم، وكان ذلك آية، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يعني: أنّ كثيراً من الناس عن التفكّر في دلالاتنا، والتدبّر لحججنا، وبيناتنا غافلون أي: ذاهبون.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

الإعراب: المبوّأ: يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون مكاناً، ويكون المفعول الثاني من «بوأت» على هذا محذوفاً، كما حذف من قوله: وبوأكم في الأرض. ويجوز أن ينصب «المبوأ» نصب المفعول به على الإتّساع، وإن كان مصدراً، فقد أجاز ذلك سيبويه في قوله: أمّا الضرب فأنت ضارب.

المعنى: ثمّ بين سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أخبر سبحانه عن نعمه عليهم، بعد أن أنجاهم، وأهلك عدوّهم، يقول: مكّنّاهم مكاناً محموداً، وهو بيت المقدس والشام. وإنّما قال: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ لأنّ فضل ذلك المنزل على غيره من المنازل، كفضل الصدق على الكذب. وقيل: معناه: أنزلناهم في موضع خصب وأمن، يصدق فيما يدلّ عليه من جلالة النعمة. وقال الحسن: يريد به مصر، وذلك أنّ موسى عبر ببني إسرائيل البحر ثانياً، ورجع إلى مصر، وتبوّأ مساكن آل فرعون. وقال الضحّاك: هو الشام ومصر.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: مكنّاهم الأشياء اللذيذة. وهذا يدلّ على سعة أرزاق بني إسرائيل.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ﴾ معناه: فما إختلفوا في تصديق محمّد ﷺ، يعني اليهود كانوا مقرّين به قبل مبعثه حتى جاءهم العلم، وهو القرآن الذي جاء به محمّد ﷺ ـ عن ابن عباس ـ. وقال الفرّاء: العلم: محمّد ﷺ؛ لأنّه كان معلوماً عندهم بنعته، فلمّا جاءهم إختلفوا في تصديقه، فكفر به أكثرهم.

وقيل: إنّ معناه: فما إختلف بنو إسرائيل إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بالحقّ، على يد موسى وهارون عليهما السلام، فإنّهم كانوا مطبقين على الكفر قبل مجيء موسى عليه السلام، فلمّا جاءهم، آمن به بعضهم، وثبت على الكفر بعضهم، فصاروا مختلفين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا إخبار منه تعالى، بأنّه الذي يتولّى الحكم بينهم يوم القيامة، في الأمور التي يختلفون فيها، فإنّ مع بقاء التكليف لا يرتفع الخلاف.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

القراءة: قد تقدّم إختلاف القرّاء في «كلمة وكلمات»، والوجه في ذلك[1].

اللغة: الإمتراء: طلب الشكّ مع ظهور الدليل، وهو من مري الضرع، وهو مسحهُ ليدرّ، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحليب.

الإعراب: «النون» في قوله: فلا تكوننّ، نون التأكيد، وهي لا تدخل في غير الواجب؛ لأنّك لا تقول: أنت تكوننّ. ودخلت في القسم على هذا الوجه؛ لأنّه

---

(١) إختلفوا في كتابة التاء من «كلمة» هنا بالتاء أو بالهاء، ووقف عليها أبو عمرو، وابن كثير، والكسائي، بالهاء. والباقون: بالتاء. وقرء فسل بالنقل ابن كثير والكسائي. ومضى إدغام «لقد جاء».

يطلب بالقسم التصديق، وإنّما بنى الفعل مع نون التأكيد؛ لأنّها ركّبت مع الفعل على تقدير كلمتين، كل واحدة مركّبة مع الأخرى، مع أنّ الأولى ساكنة، واقتضت حركة بناء، لإلتقاء الساكنين. ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ قال الأخفش: أنّث «كلّ»؛ لأنّها مضافة إلى مؤنّث، ولفظة «كلّ» للمذكّر والمؤنّث سواء. والرؤية في الآية: رؤية العين؛ لأنّها تعدّت إلى مفعول واحد. والعذاب، وإنْ كان أليماً، وهو لا يصحّ أَنْ يرى، فإنّه تُرى أسبابه، فهو بمنزلة ما يُرى.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه صحّة نبوّة محمّد ﷺ، فقال: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: اختلف المفسّرون في معناه على أَقوال:

أَوّلها: قال الزجّاج: إنّ هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها، وخوضهم فيها، وفي السورة ما يدلّ على بيانها، فإنّ الله سبحانه يخاطب النبيّ ﷺ. وذلك الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: فإن كنتم في شكّ، فاسألوا. والدليل عليه قوله في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِيْنِي فَلاَ أَعْبُدُ الَذِيْنَ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ الله وَلَكِن أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ الآية. فأَعلم الله سبحانه أنّ نبيّه ﷺ ليس في شكّ، ومثل هذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيْ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقال: طلقتم، والخطاب للنبيّ ﷺ وحده. وهذا مذهب الحسن، وابن عباس، وأكثر أهل التأويل. وروي عن الحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير، أنّهم قالوا: إنّ النبيّ ﷺ لم يشكّ، ولم يسأل، وهو المرويّ أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام.

وثانيها: إنّ الخطاب لرسول الله ﷺ، وإن لم يشكّ، وعلم الله سبحانه أنّه غير شاكّ، ولكن الكلام خرج مخرج التقرير والإفهام [الإفحام]، كما يقول القائل لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ولأبيه: إن كنت والدي فتعطف عليّ، ولولده: إن كنت إبني فبرّني، يريد بذلك المبالغة، وربما خرجوا في المبالغة ما يستحيل،

كقولهم: بكت السماء لموت فلان أي: لو كان تبكي سماء على ميّت، لبكت عليه، وكذلك هيهنا يكون المعنى: لو كنت ممّن يشكّ فشككت، ﴿فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ـ عن الفرّاء، وغيره ـ.

وثالثها: إنّ المعنى: فإن كنت أيّها المخاطب، أو أيّها السامع، في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا محمّد ﷺ، فيكون الخطاب لغيره.

ورابعها: ما ذكره الزجّاج، أنّه يجوز أن يكون «إن» في معنى «ما» فيكون المعنى: ما كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك، ﴿فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: لسنا نريد بأمرك أن تسأل لأنكّ شاكّ، ولكن لتزداد إيماناً، كما قال إبراهيم عليه السلام حين قال له: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فالزيادة في التعريف ليست ممّا يبطل صحّة العقيدة، وإنّما أمر سبحانه بسؤال أهل الكتاب، مع جحد أكثرهم لنبوته، فيه قولان:

أحدهما: إنّه أمره بأن يسأل مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وتميم الداري، وأشباههم، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والضحّاك ـ.

والآخر: إنّ المراد: سلهم عن صفة النبيّ ﷺ المبشّر به في كتبهم، ثمّ أنظر فيما وافق تلك الصفة. وهذا القول أقوى؛ لأنّ هذه السورة مكّيّة، وابن سلام، وغيره، إنّما أسلموا بالمدينة. وقال الزهري: إنّ هذه الآية نزلت في السماء، فإن صحّ ذلك فقد كفي المؤونة[1]. ورواه أصحابنا أيضاً، عن أبي عبدالله عليه السلام. وقيل أيضاً: إنّ المراد بالشكّ: الضيق والشدّة بما يعانيه من نعتهم وأذاهم أي: إن ضقت ذرعاً بما تلقى من أذى قومك ﴿فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، فاصبر كذلك.

---

(١) لأنّ الآية، لمّا نزلت في السماء، فالظاهر أنّه أمر بالسؤال ممّن كان هناك من أشباح مؤمني السلف.

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني بالحقّ: القرآن، والإسلام. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكّين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّه﴾ أي: من جملة من يجحد آيات اللّه، ولا يصدق بها ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾ أي: فإنّك إن فعلت ذلك، كنت من الخاسرين. ولم يقل: من الكافرين؛ لأنّ الإنسان قد علم شدّة تحسّره وتأسّفه على خسران ماله، فكيف إذا خسر دينه ونفسه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إنّ الذين أخبر الله عنهم بغير شرط، أنّهم لا يؤمنون، لا يؤمنون فنفى الإيمان عنهم، ولم ينف عنهم القدرة عليه، فإنّ نفي الفعل لا يكون نفياً للقدرة عليه، كمّا أنّ الله سبحانه نفى عن نفسه مغفرة المشركين، ولم يكن ذلك نفياً لقدرته على مغفرتهم. وقيل: معناه: إنّ الذين وجب عليهم سخط ربّك، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: وجب عليهم وعيد ربّك.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أي: كل معجزة ودلالة ممّا يقترحونها ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الموجع، فيصيروا ملجأين إلى الإيمان. وفي هذا إعلام، بأنّ هؤلاء الكفّار لا لطف لهم في المعلوم، يؤمنون عنده إيمان إختيار.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

الإعراب: لولا: بمعنى «هلّا»، وهي تستعمل على وجهين: أحدهما: التحضيض. والآخر: التأنيب، كقولك في التحضيض: هلاّ تأتي زيداً لحاجتك، وفي التأنيب: هلاّ إمتنعت من الفساد الذي دعيت إليه. قال الشاعر:

تَعُدُّونَ عَـقْرَ النـيب أَفْـضَلَ مَـجْدِكُمْ بَني ضَوْطَرىٰ لَوْ الكَمِّي الْـمُقَنَّعا[١][١]

أي: هلاّ تعقرون الكمّي، و﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ «كان» هذه، هي التامّة، لا تحتاج إلى خبر، ﴿آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ صفة لقرية، فإنّ الجُمل قد تقوم مـقام الصـفة للنكرة. و﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ إستثناء متّصل واقع على المعنى، لا على ظاهر اللفظ، فكأنّه قال: هلاّ آمن أهل قرية، والجميع مشـتركون فـي هـذا العـتاب. و﴿قَـوْمَ يُونُسَ﴾: مستثنى من الجميع[٢]، ومثل هذا الإستثناء، في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وقال الزجّاج: إلاّ قوم يونس: إستثناء منقطع، وتقديره: لكن قوم يونس لما آمنوا. ومثله: قول النابغة:

وَقَـــفْتُ فَـــيها أَصَـــيْلاٰلاً أُسَـــائِلُهٰا عَيَّتْ جَوٰاباً، ومَـا بِـالرَّبْعِ مِـنْ أَحَـدِ

إِلَّا اَوٰرِيَّ لأْياً مٰـــــــا أُبَـــــيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ[٣]

وحكى الفرّاء في البيت: «لا إِنْ ما أُبيتها». وقال: جمع الشاعر بين ثـلاثة أحرف في النفي: «لا، وإن، وما». وقرأ بعضهم: يونِس، ويوسِف ـ بكسـر النـون والسين ـ، أراد أن يجعل الإسمين عربيّين مشتقّين من «آسـف، وآنس»، وهـو شاذّ.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

(٢) هذا يدلّ على أنّ الآيات التي كانوا يطلبونها، كانت من آيـات العـذاب، فأجـابهم بأنّـهم لايؤمنون بعد نزولها أيضاً، فإن توهّموا أنّه لايمكن عدم الإيمان عند نزولها، فالجواب: أنّ الأمم السالفة، لم يؤمنوا بعد نزولها إلاّ قوم يونس.

(٣) البيت الأوّل في جامع الشواهد. ولا يا: أي جهداً. وإلاّ وارى: حـيث تـجلس [تـحبس] الدوابّ. والنؤي: نهر يحفر حول الأخبية. والمظلومة: الجلد الأرض الصلبة التي لاينبغي أن يحفر الحوض فيها، يعني: لم يبق من آثار دارها إلاّ هذه الأشياء.

[١] قائله: الفرزدق، يفتخر بكرم أبيه غالب وعقره مائة ناقة مرّة واحـدة. تـعدّون: تـحسبون. النيب: النوق. الضّيْطر والضّوطَر والضّوطرى: الرجل الضخم الذي لا غَناء عنده.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه أنّ إيمان فرعون، لم يقبل عند معاينة العذاب، وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس قبل نزول العذاب، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قيل: إن معناه: فهلاّ كان أهل قرية آمنوا في وقت ينفعهم إيمانهم. أعلم الله سبحانه أنّ الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ولا عند حضور الموت الذي لا يشكّ فيه، ولكن قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم العذاب، عن الزجّاج، قال: وقوم يونس لم يقع بهم العذاب، إنّما رأوا الآية التي تدلّ على العذاب، فمثلهم، مثل العليل الذي يتوب في مرضه، وهو يرجو العافية، ويخاف الموت. وقيل: إنّ معناه: لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم، حتى لا يشذّ منهم أحد إلّا قوم يونس، فهلاّ كانت القرى كلّها هكذا، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، يريد بذلك لم يكن هذا معروفاً لأمّة من الأُمم كفرت، ثمّ آمنت عند نزول العذاب، وكشف عنهم أي: لم أفعل هذا بأمّة قطّ إلاّ قوم يونس.

﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ عند نزول العذاب، كشف عنهم العذاب، بعد ما تدلى عليهم، وهو قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ـ عن قتادة، وابن عباس، وفي رواية عطاء ـ. وقيل: إنّه أراد بقوله: فلو لا كانت قرية آمنت: قوم ثمود؛ فإنّه قد جاءهم العذاب يوماً فيوماً، كما جاء قوم يونس، إلاّ أنّ قوم يونس إستدركوا ذلك بالتوبة، وأُولئك لم يستدركوا، فوصف أهل القرية بأنّهم سوى قوم يونس؛ ليعرفهم به بعض التعريف، إذ كان أخبر عنهم على سبيل الإخبار عن النكرة، ـ عن الجبائي ـ. وهذا الذي ذكره، إنّما كان يصحّ لو كان ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ مرفوعاً، فكان يكون صفة لقرية، أو بدلاً منه على معنى: هلاّ كان قوم قرية آمنوا إلاّ قوم يونس، ولم يقرأ أحد من القرّاء بالرفع.

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ وهو وقت إنقضاء آجالهم.

(القصّة): وكان من قصّة يونس على ما ذكره سعيد بن جبير، والسدّي، ووهب، وغيرهم: إنّ قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، وكان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فأخبرهم أنّ العذاب مصبحهم إلى ثلاث إن لم يتوبوا، فقالوا: إنّا لم نجرّب عليه كذباً، فأنظروا فإن بات فيكم تلك الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أنّ العذاب مصبحكم. فلمّا كان في جوف الليل، خرج يونس من بين أظهرهم، فلمّا أصبحوا يغشاهم العذاب، قال وهب: أغامت السماء غيماً أسود هائلاً، يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشي مدينتهم، وإسودَّت سطوحهم.

وقال ابن عباس: كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ثلثي ميل، فلمّا رأوا ذلك، أيقنوا بالهلاك، فطلبوا نبيّهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابّهم، ولبسوا المسوح، وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النيّة، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام، فحنّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتها، وإختلطت أصواتها بأصواتهم، وتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ، وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم وإستجاب دعاءهم، وكشف عنهم العذاب، بعد ما أظلّهم.

قال عبدالله بن مسعود: بلغ من توبة أهل نينوى، يرادّوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليأتي الحجر، وقد وضع عليه أساس بنيانه، فيقتلعه ويردُّه. وروي عن أبي مخلد، أنّه قال: لمّا غشي قوم يونس العذاب، مشوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم، فقالوا له: لقد نزل بنا العذاب، فما ترى؟ قال: قولوا: «يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيُّ محيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلا أنت». فقالواها، فإنكشف عنهم العذاب.

وروي عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: كان فيهم رجل، إسمه مليخا، عابد، وآخر إسمه

رويبل عالم، وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه ويقول له: لا تدع عليهم، فإنّ الله يستجيب لك، ولا يحبّ هلاك عباده. فقبل يونس قول العابد، فدعا عليهم، فأوحى الله تعالى إليه، أنّه يأتيهم العذاب في شهر كذا، في يوم كذا. فلمّا قرب الوقت، خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيهم. فلمّا كان اليوم الذي نزل بهم العذاب، قال لهم العالم: إفزعوا إلى الله، فلعلّه يرحمكم، ويردّ العذاب عنكم، فاخرجوا إلى المفازة، وفرّقوا بين النساء والأولاد، وبين سائر الحيوان وأولادها، ثمّ إبكوا، وأدعوا. ففعلوا، فصرف عنهم العذاب، وكان قد نزل بهم، وقرب منهم وفرّ [مرّ] يونس على وجهه مغاضباً، كما حكي الله تعالى عنه، حتى إنتهى إلى ساحل البحر، فإذا سفينة قد شحنت[١]، وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه.

فلمّا توسّطوا البحر، بعث الله عليهم حوتاً عظيماً، فحبس عليهم السفينة، فتساهموا، فوقع من بينهم السهم على يونس، فأخرجوه فألقوه في البحر، فإلتقمه الحوت، ومرّ به في الماء، وقيل: إنّ الملاحين قالوا: نقترع، فمن أصابته القرعة ألقيناه في الماء، فإنّ هيهنا عبداً عاصياً آبقاً. فوقعت القرعة سبع مرّات على يونس، فقام وقال: أنا العبد الآبق، وألقى نفسه في الماء، فإبتلعه الحوت، فأوحى الله إلى ذلك الحوت: لا تؤذّ شعرة منه، فإنّي جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك. فلبث في بطنه ثلاثة أيّام، وقيل: سبعة أيّام. وقيل: أربعين يوماً.

وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه؟ فقال له: يا يهوديّ! هو الحوت الذي حبس يونس في بطنه، فدخل في بحر «قلزم» حتى خرج إلى بحر «مصر»، ثمّ سار منها إلى بحر

---

[١] أي ملئت.

«طبرستان»، ثمّ خرج من «الدجلة»[١]. قال عبدالله بن مسعود: إبتلع الحوت حوت آخر، فأهوى به إلى قرار الأرض، وكان في بطنه أَربعين ليلة، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإستجاب الله له، فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ المتمعّط. فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فجعل يستظلّ تحتها، ووكلّ الله به وعلاً[١] يشرب من لبنها، فيبست الشجرة. فبكى عليها، فأَوحى الله تعالى إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون، أردتَ أنْ أُهلكهم؟

فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: إذا رجعت إليهم فأَخبرهم أنّك لقيت يونس، فأَخبرهم الغلام، وردَّ الله عليه بدنه، ورجع إلى قومه، وآمنوا به. وقيل: إنّه عليه السلام أُرسل إلى قوم غير قومه الأوّلين.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

القراءة: قرأ: ونجعل ـ بالنون ـ حمّاد، ويحيى، عن أبي بكر. والباقون: بالياء.

الحجة: من قرأ بالنون، فإنّه إبتداء بالإخبار عن الله. ومن قرأ بالياء، فلأنّه تقدّم ذكر الله تعالى، فكنّي عنه.

---

(١) هذا حديث واحد مرسل، وموصل على شطّ دجلة، وهو غير متّصل ببحر قلزم، ولا ببحر طبرستان، والظاهر أنّ الحوت إلقتمه في دجلة، ثمّ أخرجه على شاطئ دجلة أيضاً بعد ثلاثة أيّام، ومنع الله من هضمه، وقد يوجد سمك في جوف سمك آخر غير مهضوم بعد الصيد، ورأينا مثله مراراً.

[١] الوعل: تيس الجبل.

اللغة: المشيئة، والإرادة والإيثار والإختيار، نظائر. وإنّما يختلف عليها الإسم بحسب مواقعها، على ما بيّن في موضعه. قال عليّ بن عيسى: النفس: خاصّة الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء، ونفسه وذاته واحد، إلاّ أنّه قد يؤكّد بالنفس، ولا يؤكّد بالذات. والنفس: مأخوذة من النفاسة.

الإعراب: كلُّهم: تأكيد لمن. وجميعاً: نصب على الحال.

المعنى: لمّا تقدّم أنّ إيمان الملجأ غير نافع، بيّن سبحانه أنّ ذلك لو كان ينفع، لأكره أهل الأرض عليه، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لآمن أهل الأرض ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ ومعناه: الإخبار عن قدرة الله تعالى، وأنّه يقدر على أَنْ يكره الخلق على الإيمان، كما قال: ﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولذلك قال بعد ذلك: ﴿أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَاس حَتّى يَكُونُو مُؤمِنِينَ﴾ ومعناه: أنّه لا ينبغي أن تريد إكراههم على الإيمان، مع أنّك لا تقدر عليه؛ لأنّ الله تعالى يقدر عليه ولا يريده؛ لأنّه ينافي التكليف[1]. وأراد بذلك تسلية النبيّ ﷺ، وتخفيف ما يحلقه من التحسّر، والحرص على إيمانهم عنه.

وفي هذا أيضاً دلالة على بطلان قول المجبرة، أنّه تعالى لم يزل كان شائباً [ئيا]، وأنّه لا يوصف بالقدرة على أَنْ يشاء، لأنّه تعالى أخبر أنّه لو شاء لقدر، لكنّه لم يشأ، فلذلك لم يوجد. ولو كانت مشيئته أَزليّة لم يصحّ تعليقها بالشرط، فصحّ أنّ مشيئته فعليّة. ألاترى أنّه لا يصحّ أَنْ يقال: لو علم سبحانه، ولو قدر، كما صحّ أنْ يقال: لو شاء، ولو أراد.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ معناه: إنّه لا يمكن أحداً أن يؤمن إلاّ بإطلاق الله تعالى له في الإيمان، وتمكينه منه، ودعائه إليه بما خلق فيه من العقل

---

(١) إنّما يحسن تكليف المختار والإضطرار إلى الإيمان بإجباره تعالى ينافي التكليف، وأراد الله تعالى الإيمان الإختياري من العباد، وإن يؤمنوا بعقولهم، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون.

الموجب لذلك. وقيل: إنّ إذنه هيهنا أمره، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وحقيقة الإذن: إطلاقه في الفعل بالأمر. وقد يكون الإذن بالإطلاق في الفعل برفع التبعة. وقيل: إنّ إذنه هنا: علمه، أي: لا تؤمن نفس إلاّ بعلم الله، من قولهم: أذنت لكذا: إذا سمعته وعلمته. وآذنته: أعلمته، فيكون خبراً من علمه سبحانه لجميع الكائنات. ويجوز أن يكون بمعنى: إعلام الله المكلّفين بفضل الإيمان، وما يدعوهم إلى فعله، ويبعثهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ويجعل العذاب على الذين لا يتفكّرون حتى يعقلوا، فكأنّهم لا عقول لهم، ـ عن قتادة، وابن زيد ـ. وقيل: معناه: ويجعل الكفر عليهم أي: يحكم عليهم بالكفر، ويذمّهم عليه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: الرجس: الغضب والسخط، ـ عن ابن عباس ـ. وقال الكسائي: الرجس: النتن. والرجز، والرجس، واحد. قال أبو عليّ: وكان الرجس على ضربين: أحدهما: أن يكون في معنى العذاب. والآخر: أن يكون بمعنى القذر والنجس، أي: يحكم بأنّهم رجس، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

القراءة: قرأ الكسائي برواية نصير[1]، ويعقوب برواية روح، وزيد: ثمّ

(١) كذا في النسخ التي رأيناها، والأظهر: نصر، وهو ابن يوسف النحويّ الكوفيّ صاحب الكسائي، وكذلك في مقدمة الكتاب ـ بدون الياء ـ. والمشهور في رواية قرائة الكسائي، أبو الحارث الليث بن خالد، وأبو عمرو الدوري.

نُنْجي رسلنا ـ خفيفة ـ. وروي عن روح: التشديد أيضاً فيه. والباقون: نُـنَجّي ـ بالتشديد ـ. وقرأ الكسائي، وحفص عن عـاصم، ويـعقوب، وسـهل[1]: نُـنْجي الْمُؤْمنين ـ خفيفة ـ. والباقون: ننجّي ـ بالتشديد ـ.

الحجة: حجّة من قال: ﴿نُنْجِي﴾، قوله: ﴿فَأَنجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وحجّة من قال: ننجّي، قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكلاهما حسن. قال الشاعر:

ونَجّى ابْنَ هِنْدٍ سابِحٌ ذُو غِلالَةٍ أَجَشُّ هَزِيمٌ، وَالرِّماحُ دَوَانِ[2]

اللغة: النظر: طلب الشيء من جهة الفكر، كما يـطلب إدراكـه بـالعين. والنذر: جمع نذير، وهو صاحب النذارة. الإنتظار: هو الثبات لتوقّع ما يكون من الحال، تقول: إنتظرني حتى ألحقك، ولو قلت: توقّعني، لم تكن قد أمرته بالثبات.

والمثل في الجنس: ما سدّ أحدهما مسدّ صاحبه، فيما يـرجـع إلى ذاتـه. والمثل في غير الجنس: ما كان على معنى يقربه من غيره، كقربة من جنسه، كتشبيه أعمال الكفّار بالسراب. والنجاة: مأخوذة من النجوة، وهي الإرتفاع عن الهلاك، وكذلك السلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة. أسلمته إليه: إذا أعطيته سالماً من غير آفة.

الإعراب: وجه التشبيه في «كذلك»: أنّ نجاة من بقي من المؤمنين، كنجاة من مضى في أنّه حقّ على الله، واجب لهم. ويحتمل أن يكون العامل في «كذلك» ننجي الأوّل، وتقديره: ننجي رسلنا، والذين آمنوا كـذلك الإنـجاء. ويـحتمل أن يكون العامل فيه «ننجي» الثاني. و«حقّاً» نصب على المـصدر أي: يـحقّ حـقّاً.

---

(١) سهل: هو أبو حاتم السجستاني، من قرّاء البصرة.

(٢) الغلالة: شيء يلبسونه الفرس تحت السرج. والأجشّ: عـظيم الصـوت. والهـزيم: سـريع العدو. وجميع ذلك صفات للفرس، يعني: نجاه فرس سابح هذه صفاته، حين قربت الرماح في الحرب.

وقيل: إنّه نصب على الحال، وإن كان لفظه لفظ المصدر، ـ عن أبي مسلم ـ.

قال جامع العلوم النحويّ الضرير: ويجوز أن ينصب «حقّاً» بدلاً من «كذلك»، أو وصفاً، ولا يجوز أن ينصب «كذلك وحقّاً» جميعاً، بقوله: ننجي رسلنا؛ لأنّ الفعل الواحد لا يعمل في مصدرين، ولا في حالين، ولا في إستثناءين، ولا في مفعول معهما. وقد بيّن ذلك في موضعه، فإن جعلت «كذلك» من صلة «ننجي»، وجعلت «حقّاً» من صلة قوله: ﴿نُنْجِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجي المؤمنين حقّاً، كان الوقف على كذلك.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم، وإرشادهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لمن يسألك الآيات ﴿أُنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الدلائل والعبر، من إختلاف الليل والنهار، ومجاري النجوم والأفلاك، وما خلق من الجبال والبحار، وأنبت من الأشجار والثمار، وأخرج من أنواع الحيوانات، فإنّ النظر في أفرادها، وجملتها يدعو إلى الإيمان، وإلى معرفة الصانع، ووحدانيّته، وعلمه، وقدرته، وحكمته.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: وما تغني هذه الدلالات، والبراهين الواضحة، مع كثرتها وظهورها، ولا الرسل المخوفة، عن قوم لا ينظرون في الأدلّة تفكّراً وتدبّراً، ولا يريدون الإيمان. وقيل: ﴿مَا تُغْنِي﴾ معناه: أيّ: شيء تغني عنهم من إجتلاب نفع، أو دفع ضرر، إذا لم يستدلّوا بها، فيكون ﴿مَا﴾ للإستفهام. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية هتف بها، وقال: وما تغني الحجج عن قوم لا يقبلونها.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: لمّا أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله جبريل بالبراق، فركبها، فأتى بيت المقدس، فلقي من لقي من الأنبياء، ثمّ رجع فأصبح يحدّث أصحابه: إنّي أتيت بيت المقدس، ولقيت إخواني من الأنبياء، فقالوا: يا رسول الله! كيف

أتيت بيت المقدس الليلة؟ قال: جاءني جبرائيل بالبراق، فركبتها، وآية ذلك أنّي مررت بعير لأبي سفيان على ماء لبني فلان، وقد أضلّوا جملاً لهم أحمر، وهم في طلبه. فقال القوم بعضهم لبعض: إنّما جاءه راكب سريع، ولكنّكم قد أتيتم الشام وعرفتموها، فاسألوه عن أسواقها، وأبوابها، وتجّارها. فسألوه عن ذلك، وكان ﷺ إذا سئل عن الشيء لا يعرفه، شقّ ذلك عليه، حتى يرى ذلك في وجهه، قال: فبينا هو كذلك، إذا أتاه جبرائيل عليه السلام، فقال: يا رسول الله! هذه الشام قد رفعت لك، فإلتفت رسول الله ﷺ فإذا هو بالشام، فقالوا له: أين بيت فلان؟ ومكان كذا؟ فأجابهم في كل ما سألوه عنه[1]، فلم يؤمن منهم إلاّ قليل، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: فنعوذ بالله أن لا نؤمن بالله، آمنّا بالله ورسوله.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه: فهل ينتظر هؤلاء الذين أُمروا بالإيمان فلم يؤمنوا، وبالنظر في الأدلّة فلم ينظروا، إلاّ العذاب والهلاك في مثل الأيّام التي هلك من قبلهم من الكفّار فيها. قال قتادة: أراد به وقائع الله في عاد، وثمود، وقوم نوح، وعبر عن الهلاك بالأيّام، كما يقال: أيّام فلان، يراد به أيّام دولته، وأيّام محنته، واللفظ لفظ الإستفهام، والمراد به النفي، وتقديره: ليس ينتظرون إلاّ ذاك.

---

(١) لاريب في أنّ رسول الله ﷺ لمّا سافر إلى الشام، لم يتجاوز بصرى، وهي في منتصف الطريق بين الحجاز والشام، من أوّل أرض الشام، ولم ير بيت المقدس، ولا غيره من بلاد الشام. ثمّ لمّا أخبر الله تعالى بالاسراء، وأنّهّ مرّ على بيت المقدس، أقبل كفّار مكّة عليه؛ ليكذبوه ويسئلوه من بيت المقدس؛ تعجيزاً له عن الجواب، فأجاب عن كل ماسألوه، وهذا خبر يشهد بصحّته العقل، وأمّا عدم التدبّر من الكفّار في آيات الله، فمشاهد في زماننا، فإنّ التورية مشتملة على كثير من أخبار الغيب، وهي بأيدي ملاحدة النصارى، لايتأمّلون فيها، ولايؤمنون بالله تعالى، مع وضوح الدلالة.

﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي: قل يا محمّد لهم: فإنتظروا ما وعدنا الله من العذاب، فإنّي منتظر معكم من جميع المنتظرين؛ لما وعد الله به.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من بينهم، ونخلصهم من العذاب وقت نزوله. وقيل: من شرور أعدائهم، ومكرهم.

﴿كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الحسن: معناه: كنّا إذا أهلكنا أمّة من الأُمم الماضية، نجّينا نبيّهم، ونجّينا الذين آمنوا به أيضاً، كذلك إذا أهلكنا هؤلاء المشركين، نجيناك يا محمّد والذين آمنوا بك. وقيل: معناه: كذلك حقّاً علينا أي: واجباً علينا من طريق الحكمة، ننجي المؤمنين من عذاب الآخرة، كما ننجيهم من عذاب الدنيا. وقال أبو عبدالله عليه السلام لأصحابه: ما يمنعكم من أن تشهدوا على من مات منكم على هذا الأمر أنّه من أهل الجنّة؟ إنّ الله تعالى يقول: ﴿كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

(اللغة): الشكّ: وقوف في المعنى. ونقيضه: كمن يشكّ في كون زيد في

الدار، فإنّه لا يكون لإحدى الصفتين عنده مزيّة على الاءخرى فيقف، وهو معنى غير الإعتقاد عند أبي علي الجبائي، وأبي هاشم. ثمّ رجع عنه أبو هاشم، وقال: ليس بمعنى: وهو إختيار القاضي. والتوفّي: قبض الشيء على التمام. والإقامة نصب الشيء. ونقيضه: الإضجاع. وأقام بالمكان: إستمرّ فيه كإستمرار القيام في جهة الإنتصاب. والمماسّة والمطابقة والمجامعة، نظائر. وضدّها: المباينة. والكشف: رفع الساتر المانع من الإدراك، فكأنّ الضرّ هيهنا ساتر يمنع من إدراك الإنسان.

الإعراب: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ شرط، وجوابه في قوله: ﴿لاَ أَعْبُد﴾، وإنّما صحّ ذلك؛ لأنّ معناه: إن كنتم في شكّ، فلا تطمعوا في تشكيكي، حتى أعبد غير الله كعبادتكم.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالبراءة عن كل معبود سواه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أحقٌّ هو أم لا ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ لشكّكم في ديني ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يقدر على إماتتكم. وهذا يتضمّن تهديداً لهم؛ لأنّ وفاة المشركين ميعاد عذابهم. ومتى قيل: كيف قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ مع اعتقادهم بطلان دينه؟ فجوابه من وجوه: أحدها: أن يكون التقدير: من كان شاكّاً في أمري فهذا حكمه. والثاني: إنّهم في حكم الشاكّ للإضطراب الذي يجدونه في أنفسهم عند ورود الآيات. والثالث: إنّ فيهم من كان شاكّاً فغلب ذكرهم.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأمرني ربّي أن أكون من المصدّقين بالتوحيد، وإخلاص العبادة له.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ هذا عطف على ما قبله، فكأنّه قال: وقيل لي: وأقم وجهك ﴿لِلدِّينِ﴾ أي: إستقم في الدين، بإقبالك على ما أُمرت به، من القيام بأعباء

الرسالة، وتحمل أمر الشريعة بوجهك. وقيل: معناه: وأقم وجهك في الصلاة بالتوجّه نحو الكعبة ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مستقيماً في الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نهي عن الإشراك مع الله سبحانه غيره في العبادة.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن أَطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته وتركته أي: لا تدعه إلهاً كما يدعو المشركون الأوثان آلهة، وإنّما قال: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ مع أنّه لو نفع وضرَّ، لم تحسن عبادته أيضاً؛ لأمرين: أحدهما: إنّ معناه: ما لا ينفعك نفع الإله، ولا يضرُّك ضرره. والثاني: أنّه إذا كان عبادة غير الله ممّن يضرُّ وينفع قبيحة، فعبادة من لا يضرّ ولا ينفع أقبح.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ معناه: فإن خالفت ما أُمرت به من عبادة غير الله، كنت ظالماً لنفسك، بإدخالك الضرر الذي هو العقاب عليها. وهذا الخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النبيّ ﷺ في الظاهر، فالمراد به أُمّته.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ معناه: وإن أحلّ الله بك ضرّاً من بلاء، أو شدّة، أو مرض.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يقدر أحد على كشفه غيره، كأنّه سبحانه لمّا بيّن أنّ غيره لا ينفع ولا يضرّ، عقّبه ببيان كونه قادراً على النفع والضرّ.

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من صحّة جسم، ونعمة، وخصب، ونحوها ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا يقدر على منعه أحد، وتقديره: وإن يردك خيراً، ويجوز فيه التقديم والتأخير، يقال: فلان يريدك بالخير، ويريد بك الخير.

﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالخير ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيعطيه على ما تقتضيه الحكمة، ويعلمه من المصلحة. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

المعنى: ثمّ ختم الله سبحانه السورة بالموعظة الحسنة، تسلية للنبيّ ﷺ والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، فقال عزّ إسمه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد مخاطباً للمكلّفين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن ودين الإسلام والأدلّة الدالّة على صحّته. وقيل: يريد بالحقّ النبيّ ﷺ، ومعجزاته الظاهرة.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بذلك، بأن نظر فيه، وعرفه حقّاً وصواباً. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ معناه: فإنّ منافع ذلك من الثواب وغيره، يعود عليه.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عنه، وعدل عن تأمّله، والإستدلال به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه؛ لأنّه يجني عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا بحفيظ لكم عن الهلاك، إذا لم تنظروا أنتم لأنفسكم، ولم تعلموا بما يخلصها، كما يحفظ الوكيل مال غيره. والمعنى: إنّه ليس عليّ إلاّ البلاغ، ولا يلزمني أن أجعلكم مهتدين، وأن أُنجيكم من النار، كما يجب على من وكل على متاع أن يحفظه من الضرر.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ على أذى الكافرين، وتكذيبهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ بينك وبينهم بإظهار دينه، وإعلاء أمره ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنّه لا يحكم إلاّ بالعدل والصواب.

سورة هود

هي مكّيّة كلّها في قول الأكثرين. وقال قتادة: إلاّ آية، وهو قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ فإنّها نزلت بالمدينة.

عَدَدُ آيِهَا: هي مائة وثلاث وعشرون آية كوفيّ، وآيتان شاميّ، والمدني الأول وآية في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: سبع آيات، ﴿بَرِيٌ مِمّا تُشْرِكُون﴾: كوفيّ. ﴿فِي قَوْمِ لُوط﴾: غير البصري. ﴿مِنْ سِجِّيل﴾: مكّيّ شاميّ، والمدني الأخير. ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾: حجازيّ. ﴿مَنْضُود، وَإِنّا عَامِلُون﴾: عراقيّ، شاميّ، والمدنيّ الأوّل. ﴿مُخْتَلِفِين﴾: عراقيّ شاميّ.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب: عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدَّق بنوح، وكذَّب به، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء. وروي الثعلبي بإسناده عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة قال: قيل يا رسول الله! قد أَسرع إليك الشيب" قال: شيّبتني هود، وأخواتها. وفي رواية أُخرى: عن أنس بن مالك، عن أبي بكر قال: قلت يا رسول الله! عجّل إليك الشيب! قال: شيّبتني هود، وأخواتها: الحاقّة،

والواقعة، وعمّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية[١]. وروي العياشي عن الحسن بن علي الوشا، عن ابن سنان، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: من قرأ سورة هود في كل جمعة، بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيّين، وحوسب حساباً يسيراً، ولم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحي، في قوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ إفتتح هذه السورة ببيان ذلك الوحي، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ[١] كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

اللغة: الإحكام: منع الفعل من الفساد. والحكمة: المعرفة بما يمنع الفعل

---

(١) والحديث يدلّ على كون هذه السور مرتّبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، موجودة بأيدي الناس، كانوا يعرفونها إذا طلق الإسم.

(١) مرّ إمالة الراء من «الرآ» في سورة يونس.

من الفساد، والنقص، وبما يميز القبيح من الحسن، والفاسد من الصحيح. والحكيم في صفات الله سبحانه، يحتمل وجهين: **أحدهما**: أَنْ يكون بمعنى: محكم، فهو «فعيل» بمعنى «مفعل»، أي: محكم أفعاله، فيكون على هذا من صفات فعله، فلا يوصف به فيما لم يزل. **والثاني**: أن يكون بمعنى: عليم فيكون من صفات ذاته، فيوصف بأنّه حكيم لم يزل.

الإعراب: قال الزجّاج: «كتاب»، مرفوع بإضمار هذا كتاب. وقال بعضهم: كتاب، خبر «الر». وهذا غلط؛ لأنّ ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ ليس هو ﴿الر﴾ وحدها. و﴿أَنْ لاَ تَعْبُدُوا﴾ في موضع نصب، تقديره: فصّلت آياته؛ لأن لا تعبدوا. ويحتمل أن يكون على تقدير: أمركم بأن لا تعبدوا، فلما حذف الباء، وصل الفعل، فنصبه. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا﴾ معطوف عليه معنىً.

و﴿إِلاَّ﴾ في قوله: ﴿إِلاَّ اللهَ﴾ إيجاب للمذكور بعدها، ما نفي عن كل ما سواه من العبادة، وهي التي تفرغ عامل الإعراب لما بعدها. ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾: جزم، جواب لقوله: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ و﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾: يريد تتولّوا، فحذف إحدى التاءين؛ تخفيفاً. وابن كثير يدغم التاء الأولى في الثانية، ويشدّد.

المعنى: قد بيّنّا تفسير ﴿الر﴾ والأقاويل التي فيها، في أوّل البقرة، فلا معنى لإعادته. ﴿كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن أي: هو كتاب ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ذكر فيه وجوه:

أحدها: إنّ معناه: أُحكمت آياته، فلم ينسخ منها شيء، كما نسخت الكتب والشرائع، ثمّ فصّلت ببيان الحلال والحرام، وسائر الأحكام، ـ عن ابن عباس ـ

وثانيها: إنّ معناه: أُحكمت آياته بالأمر والنهي، ثمّ فصّلت بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ـ عن الحسن، وأبي العالية ـ.

وثالثها: أُحكمت آياته جملة، ثمّ فرقت في الإنزال، آية؛ بعد آية، ليكون المكلّف أمكن من النظر والتدبّر، ـ عن مجاهد ـ.

ورابعها: أُحكمت في نظمها، بأن جعلت على أبلغ وجوه الفصاحة، حتى صار معجزاً، ثمّ فصّلت بالشرع والبيان المفروض، فكأنّه قيل: محكم النظم، مفصّل الآيات، ـ عن أبي مسلم ـ.

وخامسها: أُتقنت آياته، فليس فيها خلل، ولا باطل؛ لأنّ الفعل المحكم، ما قد أَتقنه فاعله حتى لا يكون فيه خلل، ثمّ فصّلت بأن جعلت متتابعة بعضها إثر بعض.

﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أي: إنّ هذا الكتاب أتاكم من عند حكيم في أحواله، وتدابيره. ﴿خَبِيْرٍ﴾ أي: عليم بأحوال خلقه، ومصالحهم. وفي هذه الآية دلالة على أنّ كلام الله سبحانه، محدَث؛ لأنّه وصفه بأنّه ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ والإحكام من صفات الأفعال، وكذلك التفصيل، ثمّ قال: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ وهذه الإضافة لا تصحّ إلاّ في المحدث؛ لأنّ القديم يستحيل أن يكون صادراً من غيره.

وقوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهُ﴾ معناه: أُنزل هذا الكتاب؛ ليأمركم أن لا تعبدوا إلّا الله؛ ولكي لا تعبدوا إلاّ الله، كما يقال: كتبت إليك أَنْ لا تخرج من الدار. و«أن لا تخرج» بالنصب، والجزم.

﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هذا إخبار من النبيّ ﷺ أنّه مخوّف من مخالفة الله وعصيانه، بأليم العقاب، مبشّر على طاعة الله، بجزيل الثواب.

﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ومعناه: أطلبوا المغفرة، وإجعلوها غرضكم، ثمّ توصّلوا إليها بالتوبة. وقيل: معناه: إستغفروا ربّكم من ذنوبكم، ثمّ توبوا إليه في المستأنف، متى وقعت منكم المعصية، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ ﴿ثُمَّ﴾ هيهنا بمعنى «الواو» ،ـ عن الفرّاء ـ. وهذا؛ لأنّ الإستغفار والتوبة، واحد، فتكون التوبة تأكيداً للإستغفار.

﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ يعني: إنّكم متى إستغفرتموه، وتبتم إليه، يمتّعكم في الدنيا بالنعم السابغة في الخفض، والدعة، والأمن والسعة، إلى الوقت الذي قدّر لكم أجل الموت فيه. وقال الزجّاج: يريد يبقيكم، ولا

يستأصلكم بالعذاب، كما إستأصل أهل القرى الذين كفروا.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قيل: إنّ الفضل بمعنى التفضيل والإفضال أي: ويعط كل ذي إفضال على غيره بمال، أو كلام، أو عمل بيد أو رجل، جزاء إفضاله. فيكون الهاء في «فضله» عائداً إلى ذي الفضل. وقيل: إنّ معناه: يعطي كل ذي عمل صالح فضله أي: ثوابه على قدر عمله، فإنّ من كثرت طاعاته في الدنيا، زادت درجاته في الجنّة. وعلى هذا فالأولى أن تكون الهاء في «فضله» عائداً إلى إسم الله تعالى.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عمّا أُمروا به. وقيل: معناه: وإن تتولّوا أنتم أي: تعرضوا، فحذف إحدى التائين. ولذلك شدّد ابن كثير في رواية البزي عنه.

﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: كبير شأنه، وهو يوم القيامة. وهذا الخوف ليس في معنى الشكّ، بل هو في معنى اليقين أي: فقل لهم يا محمّد: إنّي أعلم أنّ لكم عذاباً عظيماً. وإنّما وصف اليوم بالكبير؛ لعظم ما فيه من الأهوال.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: في ذلك اليوم إلى حكم اللّه مصيركم؛ لأنّ حكم غيره يزول فيه. وقيل: معناه: إليه مصيركم بأن يعيدكم للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على الإعادة، والبعث، والجزاء، فإحذروا مخالفته.

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

القراءة: روي عن ابن عباس بخلاف، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وعن عليّ بن الحسين، وأبي جعفر محمّد بن علي، وزيد ابن عليّ، وجعفر بن محمّد عليهم السلام: يَثْنَونى صدورهم على مثال «يفعوعل»[1]. وعن ابن عباس أيضاً: يَثْنَوِنُّ. وعن

---

(١) مارأيت هذه القرائة مرويّة عنهم عليهم السلام في كتب الحديث المعروفة، فكان المصنّف نقلها من كتب القرآت، الشاملة للشواذّ.

مجاهد: يَثْنَئِنُّ، وروي ذلك أيضاً عن عروة الأعشى.

الحجة: أمّا «يثنوني» على مثال يفعوعل، فهو من أَمثلة المبالغة، تقول: أَعشب البلد، فإذا كثر ذلك قلت: إعشوشب. وكذلك إحلولى، وإخشوشب، وإخشوشن. وأمّا «يَثْنَوِنُّ» و«يَثْنَئِنُّ» فقد قال ابن جنّي إنهما من لفظ «الثنّ»، وهو ما هش وضعف من الكلاء. وأَنشد أبو زيد:

تَكْفِي اللَّقُوحُ أَكْلَةٌ مِنْ ثِنِّ[1]

يَثْنَئِنُّ ـ بالهمزة ـ: أَصله: يَثنان، فحرّكت الألف لسكونها، وسكون النون الأولى، فانقلبت همزة. وأمّا «يَثْنَوِنُّ»، فأصله: يَثْنَوْنِنُ، فلزم الإدغام؛ لتكرير العين إذا كان غير ملحق، فأُسكنت النون الأُولى، ونقلت كسرتها إلى الواو، وأُدغمت النون في النون، فصار «يَثْنَوِنُّ».

اللغة: أصل الثني: العطف، تقول: ثنيته عن كذا أي: عطفته. ومنه: الإثنان، لعطف أَحدهما على الآخر في المعنى. ومنه: الثناء؛ لعطف المناقب في المدح. ومنه: الإستثناء؛ لأنّه عطف عليه بالإخراج منه. والإستخفاء: طلب خفاء الشيء، يقال: إستخفى وتخفى بمعنى، وكذلك استغشى وتغشى. قالت الخنساء:

أَرْعَى النُّجُومَ، وَما كُلِّفْتُ رَعْيَتَها[2] وَتارَةً أَتَغَشّىٰ فَضْلَ أَطْمارِي

الإعراب: ﴿أَلَا﴾: معناها: التنبيه، ولا حظّ لها في الإعراب، وما بعدها مبتدأ.

النزول: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان حلو الكلام، يلقى رسول الله ﷺ بما يحبّ، وينطوي بقلبه على ما يكره، ـ عن ابن عباس ـ. وروي العيّاشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أخبرني جابر بن عبدالله، أنّ المشركين إذا

---

(١) اللقوح: الحامل من النوق.

(٢) كناية عن السهر.

مرّوا برسول الله ﷺ طأطأ أحدهم رأسه، وظهره هكذا، وغطّي رأسه بثوبه، حتى لا يراه رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر القرآن، بيّن سبحانه فعلهم عند سماعه، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ يعني: الكفّار والمنافقين.

﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يطوونها على ما هم عليه من الكفر، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: يحنون صدورهم؛ لكيلا يسمعوا كلام الله سبحانه، وذكره، عن قتادة. وقيل: يثنونها على عداوة النبيّ ﷺ، ـ عن الفرّاء، والزجّاج ـ. وقيل: إنّهم إذا عقدوا مجلساً على معاداة النبيّ ﷺ، والسعي في أمره بالفساد، إنضمّ بعضهم إلى بعض، وثنى بعضهم صدره إلى صدر بعض، يتناجون.

﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: ليخفوا ذلك من الله تعالى على القول الأخير؛ فإنّهم كانوا قد بلغ من شدّة جهلهم بالله، أن ظنّوا أنّهم إذا ثنوا صدورهم على سبيل الإخفاء، لم يعلم الله تعالى أَسرارهم. وعلى الأقوال الأُخر، معناه: ليستروا ذلك عن النبيّ ﷺ.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ معناه: أنّهم يتغطّون بثيابهم، ثمّ يتفاوضون فيما كانوا يدبّرونه على النبيّ ﷺ، وعلى المؤمنين، فيكتمونه، ـ عن ابن عباس ـ. فبيّن الله سبحانه أنّه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقت ما يتغطّون بثيابهم، ويجعلونها غشاء فوقهم، لا بمعنى أنّه يتجدّد له العلم في حال إستغشائهم بالثوب، بل هو عالم بذلك في الأزل.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يريد بما في النفوس، ـ عن ابن عباس ـ، وبحقيقة ما في القلوب من المضمرات. وقيل: إنّه كنّي بإستغشاء ثيابهم عن الليل؛ لأنّهم يتغطّون بظلمته، كما يتغطّون بثيابهم.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

اللغة: الدابّة: الحيُّ الذي من شأنه أَنْ يدُبَّ. وقد صار في العرف مختصّاً بنوع من الحيوان، وقد ورد القرآن بها على الأصل في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾.

الإعراب: اللام في قوله: «لئن»، لام القسم، ولا يجوز أَنْ يكون لام الإبتداء؛ لأنّها دخلت على «إن» التي للجزاء، ولام الإبتداء، إنّما هي للإسم أو ما ضارع الإسم في باب «إن»، وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم؛ لأنّه إذا جاء في صدر الكلام، غلب عليه، كما أنّه إذا تأخّر وتوسّط، أُلغي. ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ نصب على الظرف من مصروف أي: ليس يصرف العذاب عنهم يوم يأتيهم العذاب.

المعنى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس من دابّة تدبُّ على وجه الأرض، ويدخل فيه جميع ما خلقه الله تعالى على وجه الأرض، من الجنّ

والإنس، والطير، والأنعام، والوحوش، والهوام.

﴿إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ أي: إلاّ الله سبحانه يتكفّل برزقها، ويوصله إليها على ما تقتضيه المصلحة، وتوجبه الحكمة.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم موضع قرارها، والموضع الذي أَودعها فيه، وهو أصلاب الآباء، وأرحام الأُمّهات، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: مستقرّها: حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعها: حيث تموت وتبعث منه، ـ عن ابن عباس، والربيع ـ. وقيل: مستقرّها: ما يستقرّ عليه عملها. ومستودعها: ما يصير إليه.

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هنا إخبار منه سبحانه، أنّ جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر، وهو اللوح المحفوظ، وإنّما أثبت سبحانه ذلك، مع أنّه عالم لذاته، لا يعزب عن علمه شيء من مخلوقاته؛ لما فيه من اللطف للملائكة، أو لمن يخبر بذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا إخبار منه سبحانه، عن نفسه بأنّه أنشأهما في هذا المقدار من الزمان، مع قدرته على أن يخلقهما في مقدار لمح البصر، والوجه في ذلك: أنه سبحانه أراد أن يبيّن بذلك أنّ الأُمور جارية في التدبير على منهاج الحكمة، منشأة على ترتيب؛ لما في ذلك من المصلحة. والمراد بقوله: ﴿سِتَّةَ أَيَّامٍ﴾: ما مقداره مقدار ستّة أيّام؛ لأنّه لم يكن هناك أيّام بعد، فإن اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس، وغروبها.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ في هذا دلالة على أنّ العرش والماء كانا موجودين، قبل خلق السموات والأرض. وكان الماء قائماً بقدرة الله تعالى على غير موضع قرار، بل كان الله يمسكه بكمال قدرته، وفي ذلك أعظم الإعتبار لأهل

الإنكار[١]. وقيل: إنّ المراد بقوله: ﴿عَرْشُهُ﴾ بناؤه، يدلّ عليه قوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرُشُونَ﴾ أي: يبنون. والمعنى: وكان بناؤه على الماء، فإن البناء على الماء أبدع وأعجب، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ معناه: إنّه خلق الخلق، ودبرّ الأُمور؛ ليظهر إحسان المحسن، فإنّه الغرض في ذلك أي: ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر؛ لئلاّ يتوهّم أنّه سبحانه يجازي العباد على حسب ما في معلومه أنّه يكون منهم، قبل أن يفعلوه. وفي قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ دلالة على أنّه قد يكون فعل حسن، أحسن من حسن آخر؛ لأنّ حقيقة لفظة «أفعل» يقتضي ذلك.

﴿وَلَئِنْ قُلْتَ﴾ يا محمّد لهم ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ليس هذا القول إلاّ تمويهاً ظاهراً، لاحقيقة له. ومن قرأ: ساحر، فالمراد: ليس هذا ـ يعنون النبيّ ﷺ ـ إلاّ ساحراً. قال الجبائي: وفي الآية دلالة على أنّه كان قبل خلق السماوات والأرض الملائكة؛ لأنّ خلق العرش على الماء، لا وجه لحسنه، إلا أن يكون فيه لطف لمكلّف يمكنه الإستدلال به، فلا بدّ إذاً من حيّ مكلّف. وقال عليّ بن عيسى: لا يمتنع أن يكون في الإخبار بذلك مصلحة للمكلّفين، فلا يجب ما قاله الجبائي، وهو الذي إختاره المرتضى، قدس الله روحه.

---

(١) ويعلم من ذلك أنّ قبل هذه الستّة الأيّام أيضاً، خلق الله أجساماً، كما خلق بعدها أيضاً. والمقصود أنّ الستّة الأيّام للشروع في خلق بعض الموجودات، ومذهب تا [ثا] ليس الملطى من الفلاسفة أنّ أصل جميع الأجسام هو الماء، وكأنّه أخذ ذلك عن المليّين، فإنّ زمانه بعد زمان موسى عليه السلام، ولم يتهوّد لكن إستحسنه بعقله. والعرش في إصطلاح الحكما، هو الجسم المحدّد للجهات، ويقولون به عقلاً؛ ليتعيّن به أمكنة الأجسام الآخر، وهو مقدّم عليها، وأمّا عدم تناهي الفضاء كما يلهج به أهل عصرنا، فباطل ألبتّة بالبراهين القاطعة، وإن فنده الجاهلون.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ معناه: ولئن أَخّرنا عن هؤلاء الكفّار عذاب الإستئصال إلى أَجل مسمّى، ووقت معلوم. والأُمّة: الحين، كما قال سبحانه: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وهو قول ابن عباس، ومجاهد. وقيل: إلى أُمّة أي: إلى جماعة يتعاقبون، فيصرّون [فيصيرون] على الكفر، ولا يكون فيهم من يؤمن، كما فعلنا بقوم نوح، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. وقيل: معناه: إلى أُمّة بعد هؤلاء، نكلّفهم فيعصون، فتقتضي الحكمة إهلاكهم، وإقامة القيامة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ الأُمّة المعدودة هم أَصحاب المهديّ عليه السلام في آخر الزمان، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، كعدّة أهل بدر، يجتمعون في ساعة واحدة، كما يجتمع قزع الخريف، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾ على وجه الإستهزاء ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي: أيُّ شيء يؤخرّ هذا العذاب عنّا إن كان حقّاً.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ أي: إنّ هذا العذاب الذي يستبطونه إذا نزل بهم في الوقت المقدور، لا يقدر أحد على صرفه عنهم، إذا أراد الله أن يأتيهم به، ولا يتمكّن من إذهابه عنهم، إذا أراد الله أَن يأتيهم به.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم الذي كانوا يسخرون به من نزول العذاب، ويحققّونه.

النظم: وجه إتّصال الآية الأولى بما قبلها: أنّه لمّا قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال عقيبه: وكيف يخفى على الله سرّ هؤلاء، وهو يرزقهم، وإذا أوصل إلى كل واحد رزقه، ولم ينسه، فليعلم أنّه يعلم سرّه. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ يدلُّ على ما ذكرنا، ثمّ زاده بياناً، بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ الآية. فإنّ أصل الخلق: التقدير، الذي لا يختلّ بالنقصان والزيادة، وذلك لا يتمّ إلاّ من العالم لذاته.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿اللغة﴾: الذوق: تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، وسمّي الله سبحانه إحلال اللذّات بالإنسان: إذاقة؛ لسرعة زوالها، تشبيهاً بما يذاق، ثمّ يزول، كما قيل: «أحلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائلٍ». والنزع: قلع الشيء عن مكانه. واليؤس: فعول، من يئس. واليأس: القطع بأنّ الشيء المتوقّع لا يكون، ونقيضه: الرجاء. والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه. والضرّاء: مضرّة تظهر الحال بها، لأنّهما أُخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة، مثل: حمراء وعيناه، مع ما فيهما من المبالغة. والفرح، والسرور، من النظائر، وهو إنفتاح القلب بما يلتذّ به، وضدُّه: الغمّ. والصحيح: أنّ الغمّ والسرور من جنس الإعتقادات، وليسا بجنسين من الأعراض. ومن الناس من قال: إنّهما جنسان. والفخور: الذي يكثر فخره، وهو التطاول بتعديد المناقب، وهي صفة ذمّ إذا أطلقت؛ لما فيها من التكبّر على من لا يجوز أن يتكبّر عليه.

﴿الإعراب﴾: اللام في ﴿لَئِنْ﴾ لتوطئة القسم، وليست للقسم. والتقدير: والله لئن أذقنا الإنسان منّا رحمة، إنّه ليؤس. فإنّه، جواب القسم الذي هيّأته اللام، إلاّ أنّه مغن عن جواب الشرط، وواقع موقعه. ومثله: قول الشاعر:

لَئِنْ عادَلي عَبْدُ الْعَزِيزِ بِمِثْلِها ... وَ اَمْكَنَنى مِنْهَا إذاً لا أُقيلُها

أي: والله لا أُقيلها ولو كانت جواب «إنْ» لكان لا أقلها. ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾:

في موضع نصب على الإستثناء من «الانسان»؛ لأنّه إسم الجنس، فهو كقوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال الزجّاج، والأخفش: إنّه إستثناء ليس من الأوّل، والمعنى: لكن الذين صبروا. والأوّل قول الفرّاء.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال الإنسان فيما قابل به نعمه من الكفر، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: أحللنا به نعمة من الصحّة والكفاية، والسعة من المال والولد، وغير ذلك من نعم الدنيا ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبنا تلك النعمة عنه إذا رأينا المصلحة فيه.

﴿إِنَّهُ لَيَؤُسٌ﴾ أي: قنوط، وهو الذي سنّته، وعادته، اليأس. ﴿كَفُورٌ﴾ وهو الذي عادته كفران النعمة. ومعنى الآية مصروف إلى الكفّار الذين هذه صفتهم؛ لجهلهم بالصانع الحكيم الذي لا يعطي، ولا يمنع، إلاّ لما تقتضيه الحكمة من وجوه المصالح.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: أحللنا به، وأعطيناه ﴿نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: بعد بلاء أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ عند نزول النعماء به ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: ذهبت الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه عنه، وهو هيهنا بمعنى الشدائد، والآلام، والأمراض عنّي، فلا تعود إليّ، ولا يؤدّي شكراً لله عليها.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ يفرح به، ويفخر به على الناس، فلا يصبر في المحنة، ولا يشكر عند النعمة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ معناه: إلاّ الذين قابلوا الشدّة بالصبر، والنعمة بالشكر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: واظبوا على الأعمال الصالحة ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنّة.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ (١) وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

اللغة: ضائق، وضيق، بمعنى واحد، إلاّ أنّ «ضائق» هيهنا أحسن؛ لوجهين: أحدهما: أنّه عارض(٢) . والآخر: أنّه أشكل بقوله: تارك. والكنز: المال المدفون، سمّي بذلك؛ لإجتماعه، وكل مجتمع من لحم وغيره مكتنز، وصار في الشرع إسم ذمّ لكل مال لا يخرج منه حقّ الله تعالى من الزكاة وغيره، وإن لم يكن مدفوناً. وإفترى، وإختلق، وإخترق، وخلق، وخرص وخرق: إذا كذب. والإستجابة في الآية: طلب الإجابة بالقصد إلى فعلها، ويقال: إستجاب وأجاب، بمعنى واحد. والفرق بين الإجابة والطاعة: أنّ الطاعة: موافقة الإرادة الجاذبة إلى الفعل، برغبة أو رهبة، والإجابة: موافقة الداعي إلى الفعل من أجل أنّه دعا به.

الإعراب: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾: في موضع نصب، بأنّه مفعول له، وتقديره: كراهة

---

(١) الآية تدلّ على أنّ السور كانت مترتّبة على عهد رسول الله ﷺ، حيث تحدّى إلى الإتيان بعشر سور، والسورة مكّيّة، فما ورد من أنّ جمع القرآن وقع على عهد أبي بكر، فالمراد جمع السور في مصحف واحد بين الدّفتين، لاجمع الآيات في السور، كما يتوهّمه من لم يتدبّر.

(٢) أي: معنى حدوثيّ، لاثبوتيّ.

أن يقولوا، فحذف المضاف. وقيل: أَن يقولوا في موضع جرّ، بدلاً من «الهاء» في قوله: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِفْتَرَاهُ﴾: أم هذه منقطعة ليست بالمعادلة، وتقديره: بل أيقولون إفتراه، وهو تقرير بصورة الإستفهام.

النزول: روي عن ابن عباس، إنّ رؤساء مكّة من قريش، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد! إنْ كنت رسولاً، فحوّل لنا جبال مكّة ذهباً، أو إئتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوّة. فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية. وروي العيّاشي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: إنّي سألت ربّي أَنْ يؤاخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربّي أن يجعلك وصييّ ففعل، فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر في شنّ بال، أحبّ إلينا ممّا سأل محمّد ربّه، فهلاّ سأله ملكاً يعضده على عدوّه، أو كنزاً يستعين به على فاقته! فنزلت الآية.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه رسوله ﷺ بالثبات على الأمر، وحثّه على حجاج القوم بما يقطع العذر، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ أي: ولعلّك تارك بعض القرآن، وهو ما فيه سبُّ آلهتهم، ولا تبلغهم إيّاه؛ دفعاً لشرّهم؛ وخوفاً منهم.

﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي: ولعلّك يضيق صدرك ممّا يقولونه. وبما يلحقك من أذاهم، وتكذيبهم. وقيل: باقتراحاتهم ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أي: كراهة أن يقولوا، [أو مخافة أن يقولوا] ﴿لَوْ لاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ من المال ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يشهد له. فليس قوله: ﴿فَلَعَلَّك﴾ على وجه الشكّ، بل المراد به: النهي عن ترك أداء الرسالة، والحثّ على أدائها، كما يقول أحدنا لغيره، وقد علم من حاله أنّه يطيعه، ولا يعصيه، ويدعوه غيره إلى عصيانه، لعلّك تترك بعض ما آمرك به لقول فلان. وإنّما ذلك ليؤيسَ من يدعوه إلى ترك أمره، فمعناه: لا تترك بعض ما يوحى إليك، ولا يضق صدرك بسبب مقالتهم هذه.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ يجلب النفع إليه، ويدفع الضرر عنه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ معناه: بل أيقولون إختلق القرآن وإخترعه، وأتى به من عند نفسه. وقيل: إنّ هيهنا محذوفاً، وتقديره: أيكذبونك فيما أتيتهم به من القرآن، أم يقولون إفتريته على ربّك، وحذف؛ لدلالة ما أُبقي على ما أُلقي. وعلى هذا فيكون ﴿أم﴾ هذه متّصلة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي: إن كان هذا مفترى على الله كما زعمتم، فأتوا أنتم بعشر سور مثله في النظم والفصاحة، مفتريات على زعمكم، فإنّ القرآن نزل بلغتكم، وقد نشأت أنا بين أظهركم، فإن لم يمكّنكم ذلك فإعلموا أنّه من عند الله تعالى. وهذا صريح في التحدّي، وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن، وأنّها هي البلاغة والفصاحة في هذا النظم المخصوص؛ لأنّه لو كان جهة الإعجاز غير ذلك، لما قنع في المعارضة بالإفتراء والإختلاق؛ لأنّ البلاغة ثلاث طبقات: فأَعلى طبقاتها معجز، وأدناها وأوسطها ممكن. فالتحدّي في الآية إنّما وقع في الطبقة العليا منها، ولو كان وجه الإعجاز الصرفة، لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز[1]. والمثل المذكور في الآية لا

---

(١) قد سبق أنّ عدم إطّلاع كثير من الناس على وجوه البلاغة، خصوصاً من لايعرف لغة العرب، لايخلّ بالعلم بإعجاز القرآن؛ فإنّه يعلم عجز العرب عن الإتيان بمثله، وإن لم يعرف جهة عجزهم، والعلم بالجملة كاف في ذلك، كما يعرف أنّ الياقوت أعلى قيمة من الزجاج من لايميز بينهما إذا عرض عليه، ولايجب حصر وجه الاعجاز في الفصاحة، ففي القرآن وجوه آخر مذكورة في محلّه كالاخبار عن الغيب، وأمّا الصرفة، فقد قال بها بعض علمائنا، وهي أيضاً وافية بالغرض. ولكنّ الحقّ ما ذكره المصنّف، فإنّ النبيّ إن إدّعى أنّ معجزتي أنّه لايقدر أحد على رفع رأسه، أو على التكلّم، ووقع ما إدّعاه، دلّت هذه الصرفة على صدقه.

قال المحقّق الطوسي في نقد المحصّل، قالوا: يعني: القائلين بالصرفة: كل أهل صناعة إختلفوا في تجويد تلك الصناعة، فلامحالة يكون فيهم واحد لايبلغ غيره شأوه، وعجز ←

يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس؛ لأنّ مثله في الجنس يكون حكايته، فلا يقع بها التحدّي، وإنّما يرجع ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدّي بعضهم بعضاً، كما إشتهر من مناقضات إمرىء القيس، وعلقمة، وعمرو بن كلثوم، والحرث [الحارث] بن حِلزة، وجرير، والفرزدق، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ معناه: أدعوهم؛ ليعينوكم على معارضة القرآن، إن كنتم صادقين في قولكم، إنّي إفتريته. ويريد بقوله: ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾: من خالف نبيّنا محمّداً ﷺ من جميع الأمم، وهذا غاية ما يمكن في التحدّي والمحاجة، وفيه الدلالة الواضحة على إعجاز القرآن؛ لأنّه إذا ثبت أنّ النبيّ ﷺ تحدّاهم به، وأوعدهم بالقتل والأسر بعد أن عاب دينهم وآلهتهم، وثبت أنّهم كانوا أحرص الناس على إبطال أمره، حتى بذلوا مهجهم وأموالهم في ذلك، فإذا قيل لهم: إفتروا أنتم مثل هذا القرآن، وادحضوا حجّته، وذلك أيسر وأهون عليكم من كل ما تكلّفتموه، فعدلوا عن ذلك، وصاروا إلى الحرب، والقتل، وتكلّف الأمور الشاقّة، فذلك من أدلّ الدلائل على عجزهم؛ إذ لو قدروا على معارضته مع سهولة ذلك عليهم لفعلوه؛ لأنّ العاقل لا يعدل عن الأمر السهل إلى الصعب الشاقّ، مع حصول الغرض بكل واحد منهما، فكيف ولو بلغوا غاية أمانيّهم في الأمر الشاقّ، وهو قتله ﷺ، لكان لا يحصل غرضهم من إبطال أمره، فإنّ المحقّ قد يقتل.

فإن قيل: لم ذكر التحدّي مرّة بعشر سور، ومرّة بسورة، ومرّة بحديث مثله؟

← الباقون عن معارضته، ولايكون ذلك معجزاً له؛ لأنّ ذلك لايكون خرقا للعادة، لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته عن معارضته، يكون خرقاً للعادة، فذلك هو المعجز إنتهى. وعلى هذا ففائدة الفصاحة، تعظيم الكلام، وتقوية تأثيره في النفوس، وسهولة فهم المعنى منه، إنضمّت إلى الصرفة في قول هؤلاء، والعجز حاصل على كل حال، وأمّا المهرة في الصناعات الآخر، فلم يعجز أحد عن معارضتهم، ولو في شيء قليل فاق فيه الأدنى الأعلى.

فالجواب: إنّ التحدّي إنّما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فيجوز أن يتحدّى مرّة بالأقلّ، ومرّة بالأكثر.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ قيل: إنّه خطاب للمسلمين، والمراد: فإن لم يجبكم هؤلاء الكفّار إلى الإتيان بعشر سور مثله، معارضة لهذا القرآن.

﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيّها المسلون ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ﴾ القرآن ﴿بِعِلْمِ اللهِ﴾، ـ عن مجاهد، وإختاره الجبائي ـ. وقيل: هو خطاب للكفّار، وتقديره: فإن لم يستجب لكم من تدعونهم إلى المعاونة، ولم يتهيّأ لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجّة. وقيل: إنّ الخطاب للرسول ﷺ أي: فإن لم يجيبوك. وذكره بلفظ الجمع؛ تفخيماً، والغرض التنبيه على إعجاز القرآن، وأنّه المنزل من عند الله سبحانه على نبيّه ﷺ. وذكر في قوله: ﴿بِعِلْمِ الله﴾ وجوه: أحدها: إنّ معناه: أنّ الله عالم به، وبأنه حقّ منزل من عنده. وثانيها: إنّ معناه: يعلم الله مواقع تأليفه في علوّ طبقته، وأنّه لا يقدر أحد على معارضته. وثالثها: إنّه أنزله الله على علم بترتيبه ونظمه، ولا يعلم غيره ذلك.

﴿وَأَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاّ هُوَ﴾ أي: واعلموا أنّه لا إله إلاّ هو؛ لأنّ مثل هذا المعجز لا يقدر عليه إلاّ الله الواحد الذي لا إله إلاّ هو ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هل أنتم بعد قيام الحجّة عليكم بما ذكرناه من كلام الله، مستسلمون، منقادون له، معتقدون لتوحيده؟ وهذا إستفهام في معنى الأمر، مثل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

القراءة: روي في الشواذّ قراءة أُبيّ، وابن مسعود: ﴿وَبَاطِلاً مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿الحجة﴾: الوجه فيه: أن يكون «باطلاً» منصوباً بيعملون. و«ما»: مزيدة للتوكيد، فكأنّه قال: وباطلاً كانوا يعملون. ومثله: قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿اللغة﴾: الزينة: تحسين الشيء بغيره من لبسة، أو حلية، أو هيئة. يقال: زانه بزينة: زيّنه، وزيَّنه يزيِّنُه تزييناً. والتوفية: تأديه الحقّ على تمام. والبخس: نقصان الحقّ، وكل ظالم باخس؛ لأنّه يظلم غيره بنقصان حقّه، وفي المثل: «تَحسَبُها حَمقاءَ، وهي باخس».

﴿الإعراب﴾: قال الفرّاء: ﴿كَانَ﴾ هذه هنا زائدة، وتقديره: من يرد الحياة الدنيا. وقال غيره: معناه: أن يصحّ أنّه كان كقوله سبحانه: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ ولا يجوز مثل ذلك في غير «كان»؛ لأنّها أمّ الأفعال. قال أبو علي: الشرط والجزاء لا يقعان إلاّ فيما يستقبل، فحرف الجزاء يحيل معنى الماضي إلى الاستقبال لا محالة، ولو جاز وقوع الماضي بعدها على معناها، لما جزمت. ألاترى أنّ «لو» لم تجزم، وإن كان فيها معنى الشرط والجزاء؛ لوقوع الماضي بعدها على بابه، نحو: لو جئتني أمس لأكرمتك.

﴿المعنى﴾: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: زهرتها، وحسن بهجتها، ولا يريد الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفّر عليهم جزاء أعمالهم في الدنيا تامّاً ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون شيئاً منه. وأختلف في معناه، فقيل: إنّ المراد به: المشركون الذين لا يصدّقون بالبعث، يعملون أعمال البرّ كصلة الرحم، وإعطاء السائل، والكفّ عن الظلم، وإغاثة المظلوم، والأعمال التي يحسنها العقل، كبناء القناطير ونحوه، فإنّ الله يعجّل لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بتوسيع الرزق، وصحّة البدن، والإمتناع [الإمتاع] بما خوّلهم، وصرف

المكاره عنهم، ـ عن الضحّاك، وقتادة، وابن عباس ـ. ويقال: إنّ من مات منهم على كفره، قبل إستيفاء العوض، وضع الله عنه في الآخرة من العذاب بقدره، فأمّا ثواب الآخرة، فلا حظّ لهم فيه[1].

وقيل: المراد به: المنافقون الذين كانوا يغزون مع النبيّ ﷺ للغنيمة، دون نصرة الدين، وثواب الآخرة، جازاهم الله تعالى على ذلك، بأن جعل لهم نصيباً في الغنيمة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ المراد به: أهل الرياء، فإنّ من عمل عملاً من أعمال الخير، يريد به الرياء، لم يكن لعمله ثواب في الآخرة، ومثله: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ﴾ وفي الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: بشّروا أمّتي بالسناء، والتمكين في الأرض، ومن عمل منهم عملاً للدنيا، لم يكن له نصيب في الآخرة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ظاهر المراد. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ فلا يستحقّون عليه ثواباً؛ لأنّهم أوقعوه على خلاف الوجه المأمور بإيقاعه عليه.

﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطل أعمالهم التي عملوها لغير الله تعالى. وهذا يحقّق ما ذهبنا إليه من أنّ الإحباط عبارة عن إبطال نفس العمل، بأن يقع على غير الوجه الذي يستحقّ به الثواب.

وذكر الحسن في تفسيره: أنّ رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ، خرج من عند أهله، فإذا جارية عليها ثياب وهيئة، فجلس عندها. فقامت، فأهوى بيده إلى عارضها، فمضت، فأتبعها بصره ومضى خلفها، فلقيه حائط، فخمش وجهه، فعلم أنّه أُصيب بذنبه. فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فقال: أنت رجل عجّل الله عقوبة ذنبك في الدنيا، إنّ الله تعالى إذا أراد بعبد شرّاً، أمسك عنه عقوبة ذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة، وإذا أراد به خيراً، عجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا.

---

(١) فرق بين الثواب والعوض.

النظم: وجه إتّصال الآية بما قبلها: أنّه سبحانه لمّا قال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فكأنّ قائلاً قال: أظهرنا الإسلام لسلامة المال والنفس، يكون ماذا؟ فقال: من أراد الدنيا دون الآخرة سواء أرادها بإظهار الإسلام، أو أرادها بسائر المساعي، فسبيله هذا.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

اللغة: البيّنة: الحجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل. والعرض: إظهار الشيء

بحيث يرى للتوقيف على حاله، يقال: عرضت الكتاب على فلان، وعرضت الجند، ومعنى العرض على الله، أنّهم يقفون في المقام الذي يريه العباد؛ للمطالبة بالأعمال، فهو كالعرض عليه سبحانه. والأشهاد: جمع شاهد، فهو كصاحب، وأصحاب. وقيل: جمع شهيد، كشريف، وأشراف. والعوج: العدول عن طريق الصواب، يقال: في لادين عِوج ـ بالكسر ـ، وفي العصاء عَوج ـ بالفتح ـ، فرقاً بين ما يرى، وما لا يرى، فجعلوا السهل للسهل، والصعب للصعب، أعني الفتح والكسر. والإعجاز: الإمتناع عن المراد بما لا يمكن معه إيقاعه. وحقيقة الإستطاعة: القوّة التي تنطاع بها الجارحة للفعل، ولذلك لا يقال في الله تعالى: إنّه مستطيع. وأصل الجرم: القطع. ولا جرم، تقديره: لا قطع قاطع عن ذا، إلاّ أنّه كثر حتى صار كالمثل. وهو قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضِبُوا

أي: قطعتهم إلى الغضب. فرواية الفرّاء في فزارة النصب. والمعنى: كسبتهم أن يغضبوا. وروي غيره برفعها، بمعنى أنّ الفعل لها.

الإعراب: ﴿مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ خبره محذوف، وتقديره: أفمن كان على بيّنة من ربّه. وعلى الأوصاف التي ذكرتها، كمن لا بيّنة له، ومثله: حذف جواب «لو» في قوله:

وَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ ... سِوَاكَ[1]، وَلٰكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاً

و﴿كِتَابُ مُوسى﴾: عطف على قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: وكان يتلوه كتاب موسى من قبله. ونصب ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ على الحال؛ لأنّ ﴿كِتَابُ مُوسى﴾ معرفة. وقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ كرّر قوله: ﴿هُمْ﴾ مرّتين، كما قال: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ كرّر ﴿أَنَّكُمْ﴾ مرّتين،

---

(١) يعني: لو أتانا رسول سواك، لم نجبه. فحذف الجزاء.

ووجهه: أنّه لمّا طال الكلام، كرّر مرّة أخرى للتوكيد. «لا جرم»: قال سيبويه: جَرم: فعل ماض، ولا ردٌّ لقولهم كقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ قال: لا أي: ليس لهم الجنّة. ثمّ قال: ﴿جَرَمَ﴾ أي: كسبهم قولُهم: إنّ لهم الحسنى، إنّ لهم النار. وقيل: جرم بمعنى: وجب أي: وجب أنّ لهم النار.

المعنى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إستفهام يراد به التقرير، وتقديره: هل الذي كان على برهان وحجّة من الله. والمراد بالبيّنة هنا: القرآن، والمعنى بقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ النبيّ ﷺ. وقيل: المعني به: كل محقّ يدين بحجّة وبيّنة؛ لأنّ ﴿مَنْ﴾ يتناول العقلاء. وقيل: هم المؤمنون من أصحاب محمّد ﷺ، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: ويتبعه من يشهد بصحّته منه.

وأختلف في معناه، فقيل: الشاهد: جبرائيل عليه السلام، يتلوا القرآن على النبيّ ﷺ من الله تعالى، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والزجّاج ـ. وقيل: شاهد من الله تعالى: محمّد ﷺ، وروي ذلك عن الحسين بن عليّ عليهما السلام، وابن زيد، وإختاره الجبائي. وقيل: شاهد منه: لسانه أي: يتلو القرآن بلسانه، ـ عن محمّد بن عليّ، أعني: ابن الحنفيّة، والحسن، وقتادة ـ. وقيل: الشاهد منه: عليّ بن أبي طالب عليه السلام، يشهد للنبيّ ﷺ وهو منه، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وعليّ بن موسى الرضا عليه السلام، ورواه الطبري بإسناده عن جابر بن عبدالله، عن عليّ عليه السلام. وقيل: الشاهد: ملك يحفظه، ويسدّده، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: بيّنه من ربّه: حجّة من عقله. وأضاف «البيّنة» إليه تعالى؛ لأن ينصب الأدلّة العقليّة والشرعيّة، ويتلوه شاهد منه يشهد بصحّته، وهو القرآن، ـ عن أبي مسلم ـ.

و﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: ومن قبل القرآن؛ لأنّه مدلول عليه فيما تقدّم من الكلام. وقيل: معناه: ومن قبل محمّد ﷺ ﴿كِتَابُ مُوسى﴾ يتلوه أيضاً في التصديق؛ لأنّ النبيّ ﷺ بشّر به موسى في التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يؤتمّ به في أمور الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾

أي: ونعمة من الله تعالى على عباده. وقيل: معناه: ذا رحمة أي: سبب الرحمة لمن آمن به.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ معناه: أُولئك الذين هم على بيّنة من ربّهم، يؤمنون بالقرآن. وقيل: بمحمّد ﷺ. وتقدير الآية: أفمن كان على بيّنة من ربّه، وبصيرة، كمن ليس على بيّنة ولا بصيرة، إلاّ أنّه إختصر. وقيل: تقديره: أفمن كان على بيّنة من ربّه، ويتلوه شاهد منه على صدقه، ويتقدّمه شاهد، فآمن بهذا كلّه، كمن أراد الحياة الدنيا وزينتها، ولم يؤمن، ثمّ أخبر عنه، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ معناه: ومن يكفر بالقرآن، أو بمحمّد ﷺ من مشركي العرب، وفرق الكفّار، كاليهود والنصارى وغيرهم، فالنار موعده، ومصيره، ومستقرّه. وفي الحديث: إنّ النبيّ ﷺ قال: لا يسمع بي أحد من الأُمّة، لا يهوديّ ولا نصرانيّ، ثمّ لم يؤمن بي، إلاّ كان من أصحاب النار.

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ ﴿مِنْهُ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد: جميع المكلّفين. وقيل: إنّ تقديره: لا تك أيّها الإنسان، أو أيّها السامع في مرية من ربك، أي: من أمره وإنزاله ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الهاء راجع إلى القرآن. وقيل: إلى محمّد ﷺ. وقيل: معناه: إنّ الخبر الذي أخبرتك به، حقٌّ من عند الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصحته وصدقه؛ لجهلهم بالله تعالى، وجحدهم لنبوّة نبيّه ﷺ. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أي: لا أحد أظلم منه، إلاّ أنّه خرج مخرج الإستفهام؛ ليكون أبلغ ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة أي: يوقفون موقفاً يراهم الخلائق للمطالبة بما عملوا، ويسألون عن أعمالهم، ويجازون عليها.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الملائكة يشهدون على العباد، وهم الحفظة، ـ عن

مجاهد ـ. وقيل: هم الأنبياء، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: هم شهداء كل عصر من أئمّة المؤمنين.

﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: كذبوا على رسل ربّهم، وأضافوا إلى الله ما لم ينزله.

﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هذا إبتداء خطاب من الله تعالى. وقيل: هو من كلام الأشهاد، ومعناه: ألا لعنة الله على الذين ظلموا أنفسهم، بإدخال الضرر عليها وغيرهم، بإحلال الآلام عليهم. ولعنة الله: إبعاده من رحمته.

ثمّ وصف سبحانه الظالمين الذين لعنهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: يغوون الخلق، ويصرفونهم عن دين الله، وقد يكون ذلك بإلقاء الشبهة إليهم، وقد يكون أيضاً بالترغيب، والترهيب، والإطماع، والتهديد، وغير ذلك. وإنّما جاز تمكين الصادّ عن سبيل الله من هذا الفساد؛ لأنّه مكلّف بالإمتناع منه، وليس في منعه لطف، بأن ينصرف عن الفساد إلى الصلاح، فهو كشهوة القبيح الذي به يصحُّ التكليف.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي: ويطلبون لسبيل الله زيغاً عن الإستقامة، وعدولاً عن الصواب. وقيل: إنّ بغيهم العوج: هي زيادتهم ونقصانهم في الكتاب؛ ليتغيّر الأدلّة، ولا يستقيم صفة النبيّ ﷺ، كما كان يفعلها اليهود. وقيل: هي إيرادهم الشبه، وكتمانهم المراد، وتحريفهم التأويل.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالقيامة، والبعث، والنشور، والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: جاحدون، غير مقرّين.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار الذين وصفهم بأنّ عليهم لعنة الله، وأنّهم الذين يصدّون عن سبيل الله، بأنّهم لم يكونوا فائتين في الأرض؛ هرباً فيها من الله تعالى، إذا أراد إهلاكهم، كما يهرب

الهارب من عدوّ قد جدَّ في طلبه، وإنما خصّ الأرض بالذكر، وإن كانوا لا يفوتون الله، ولا يخرجون عن قبضته على كل حال؛ لأنّ معاقل الأرض هي التي يهرب إليها البشر، ويعتصمون بها عند المخاوف، فكأنّه سبحانه نفى أن يكون لهؤلاء الكفّار عاصم منه، ومانع من عذابه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ معناه: إنّه ليس لهم من ولّي ولا ناصر ينصرونهم، ويحمونهم من الله سبحانه، ممّا يريد إيقاعه بهم في الدنيا من المكاره، وفي الآخرة من أنواع العذاب.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ قيل: في معناه وجوه:

أحدها: إنّه لا يقتصر بهم على عذاب الكفر، بل يعاقبون عليه، وعلى سائر المعاصي، كما قال في موضع آخر: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

ثانيها: إنّ معناه: أنّه كلّما مضى ضرب من العذاب، يعقّبه ضرب آخر من العذاب مثله، أو فوقه، كذلك دائماً مؤبّداً، وكل ذلك على قدر الإستحقاق.

وثالثها: إنّه يضاعف العذاب على رؤسائهم لكفرهم، وظلمهم أنفسهم، ولدعائهم الأتباع إليه، وهو عذاب الضلال، وهذا الصدّ عن الدين.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ فيه وجوه:

أحدها: يضاعف لهم العذاب، بما كانوا يستطيعون السمع، فلا يسمعون، وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون، عناداً وذهاباً عن الحقّ، فأُسقطت الباء عن الكلام، كما في قول الشاعر:

نُغالِي اللَّحْمَ لِلأَضْيافِ نيّاً ... وَنَبْذِلُهُ إِذا نَضَحَ القُدُور

أراد: نغالي باللحم، ـ عن الفرّاء، والبلخي ـ. وهذا وجه رابع من معنى قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

وثانيها: إنّه لإستثقالهم إستماع آيات الله، وكراهتهم تذكّرها وتفهّمها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع، وإنّ أبصارهم لم تنفعهم مع إعراضهم عن تدبّر الآيات، فكأنّهم لم يبصروا. وممّا يجري هذا المجرى قول الأعشى:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وِدٰاعاً أَيُّهَا الرَّحُلُ

وقد علمنا أنّ الأعشى كان يقدر على الوداع، وإنّما نفي الطاقة عن نفسه من حيث الكراهيّة والإستثقال.

وثالثها: إنّه إنّما عني بذلك آلهتهم وأوثانهم، وتقدير الكلام: أُولئك الكفّار، وآلهتهم لم يكونوا معجزين في الأرض، يضاعف لهم العذاب.

وقال مخبراً عن الآلهة: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ وروي ذلك عن ابن عباس، وفيه أدنى بُعد.

ورابعها: إنّ ﴿ما﴾ هنا ليست للنفي، بل تجري مجرى قولهم: لأُواصلنّك ما لا [لاح] نجم، والمعنى: أنّهم معذّبون ما داموا أحياء.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ من حيث فعلوا ما إستحقّوا به العقاب، فهلكوا، فذلك خسران أنفسهم، وخسران النفس أعظم الخسران؛ لأنّه ليس عنها عوض.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مضى بيانه مراراً ﴿لاَ جَرَمَ﴾ قال الزجّاج: لا نفي لما ظنّوا أنّه ينفعهم، كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك جرم ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ أي: كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وقال غيره: معناه: لا بدّ ولا محالة أنّهم. وقيل: معناه: حقّاً، ويستعمل في أمر يقطع عليه، ولا يرتاب فيه أي: لاشكّ أنّ هؤلاء الكفّار، هم أخسر الناس في الآخرة.

﴿النظم﴾: إتّصلت الآية الأولى بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرَ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ والمراد: أنّهم إذا لم يأتوا بذلك، فقل لهم: أفمن كان على بيّنة، كمن لا يكون معه بيّنة. وقيل:

إتّصلت بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: من كان مجتهداً في الدين، كمن كان همُّه الحياة الدنيا، وزينتها. ووجه إتّصال الآية الثانية، وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أنّه سبحانه أراد يبيّن حال العاقل والغافل، فكأنّهم قالوا: وما يضرُّنا أن لا نعرف ذلك، فأُجيبوا بأنّ من لا يعرف الله، لا يأمن أن يكذب على الله، ومن أظلم ممّن كذب على الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿اللغة﴾: الإخبات: للطمأنينة، وأصله: الإستواء، من الخبث: وهو الأرض المستوية الواسعة. فكأنّ الإخبات خشوع مستمرّ على إستواء فيه. والمثل: قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأوّل. والعمى: عبارة عن فساد آلة الرؤية، وليس بمعنى يضادّ الإبصار. وكذلك الصمم: عبارة عن فساد آلة السمع؛ لأنّ الصحيح أنّ الإدراك أيضاً ليس بمعنى[1].

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر الكفّار، وما أعدّ الله لهم من العذاب، عقّبه سبحانه بذكر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدّقوا الله ورسوله، وإعتقدوا وحدانيّته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمرهم الله تعالى بها، ورغّبهم فيها.

﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: أنابوا، وتضرعوا إليه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إطمأنّوا إلى ذكره، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: خضعوا له، وخشعوا إليه، ـ عن قتادة ـ، والكلّ متقارب. وقيل: إنّ معناه: وأخبتوا لربّهم، فوضع ﴿إلى﴾ موضع

---

(١) في إصطلاح الكلام هو العرض.

اللام، كما قال سبحانه: ﴿أَوْحىٰ لَهَا﴾ بمعنى: أُوحي إليها. وقال: ينادي للإيمان ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهر المعنى.

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً للمؤمنين والكافرين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ أي: مثل فريق المسلمين، كالبصير والسميع، ومثل فريق الكافرين، كالأعمى والأصمّ؛ لأنّ المؤمن ينتفع بحواسّه لإستعماله إيّاها في الدين، والكافر لا ينتفع بها، فصارت حواسّه بمنزلة المعدوم، وإنّما دخل «الواو» ليبينّ أنّ حال الكافر، كحال الأعمى على حدة، وكحال الأصم على حدة، وحال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أي: هل يتسوي حال الأعمى الأصمّ، وحال البصير السميع، عند عاقل؟ فكما لا تستوي هاتان الحالتان عند العقلاء، كذلك لا تستوي حال الكافر والمؤمن ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكّرون في ذلك؛ فتعلموا صحّة ما ذكرناه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ۖ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

القراءة: قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: إنّي لكم ـ بكسر الهمزة ـ.

---

(١) إنّي أخاف: ممّا إختلفوا في فتح يائه.

والباقون: أنّي ـ بفتحها ـ. وقرأ أبو عمرو، ونصر، عن الكسائي: بادىء الرأي ـ بالهمزة ـ. وقرأ الباقون: بادي الرأي ـ بالياء غير مهموز ـ. وقرأ أهل الكوفه: غير أبي بكر: فعُمِّيت ـ بضمّ العين، وتشديد الميم ـ. والباقون: فعَمِيت ـ بفتح العين مخفّفاً ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: من فتح «أنّي» فإنّه يحملها على «أرسلنا» أي: أرسلناه بأنّي نذير مبين. فإن قيل: لو كان محمولاً عليه، لكان «أنّه»؛ لأنّ نوحاً إسم للغيبة. قيل: هذا لا يمتنع؛ لأنّ الخطاب بعد الغيبة في نحو: هذا سائغ. ألا ترى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ ثمّ قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾. ومن كسر، فالوجه فيه: أنّه حمله على القول المضمر؛ لأنّه ممّا قد أضمر كثيراً في القرآن، قال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ﴾ أي: يقولون سلام، وقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: قالوا ما نعبدهم.

فإن قلت: فهلاّ رجّحت قراءة من قرأ: أنّى، على قراءة من كسر؛ لأنّ قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ محمول على الإرسال، وإذا فتحت «أنّي» كان أشكل بما بعدها؛ لحملها جميعاً على الإرسال يقال لك: إنّ مَنْ كسر قال: يجوز أن يكون قوله: إنّي لكم، وما بعده، محمولاً على الإعتراض بين المفعول، وما يتّصل به ممّا بعده، كما كان في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ إعتراضاً بينهما في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، فكذلك قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ لأنّ التقدير: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أن لا تعبدوا إلاّ الله.

وأمّا قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ فقد حكى أبو عليّ عن الجبائي، أنّه قال: يقال: أنت بادي الرأي، يريد ظاهر الرأي، لا يهمز «بادي». وبادىء الرأي مهموز. فمن لم يهمز، أراد أنت فيما بدا من الرأي أي: أنت ظاهر الرأي. ومن همز أراد أنت في أوّل الرأي، ومبتدأه. قال أبو عليّ: المعنى فيمن قال: بادي الرأي ـ بلا همز ـ،

فجعله من بدا الشيء إذا ظهر أي: ما إتّبعك إلاّ الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي؛ إذ لم يتعقّبوه بنظر فيه، ولا يبيّن لهم. ومن همز أراد إتّبعوك في أوّل الأمر، من غير أن يتّبعوا الرأي بفكر، وروية فيه. وهاتان الكلمتان يتقاربان في المعنى؛ لأنّ الهمزة في اللام معناه: إبتداء الشيء وأوّله. واللام إذا كانت واواً، كان المعنى الظهور، وإبتداء الشيء يكون ظهوراً، وإن كان الظهور قد يكون إبتداء وغير إبتداء، فلذلك يستعمل كل واحد مكان الآخر.

وجاز في إسم الفاعل أن يكون ظرفاً، كما جاز في «فعيل» نحو: قريب ومليء؛ لأنّ «فاعلاً وفعيلاً» يتعاقبان على المعنى، نحو: عالم وعليم، وشاهد وشهيد، وحسن ذلك إضافته إلى الرأي، وقد أجروا المصدر أيضاً في إضافته إليه في قولهم: أمّا جهد رأيي فإنّي منطلق، فهذا لا يكون إلاّ ظرفاً، وفَعَلٌ إذا كان مصدراً، وفاعل قد يتّفقان في أشياء، وقد يجوز في قول من همز فقال: بادي الرأي إذا خفّفت الهمز، أن يقول: بادي الرأي، فيقلب الهمزة ياء؛ لإنكسار ما قبلها، فيكون كقولهم: مير، في جمع ميرة، وذيب، في جمع ذيبة. والعامل في هذا الظرف، هو قولك: إتّبعك. التقدير: ما أتّبعك في أوّل رأيهم، أو فيما ظهر من رأيهم، إلاّ أراذلنا، فأخّر الظرف، وأوقع بعد إلاّ الظرف.

ولو كان بدل الظرف غيره لم يجز. ألا ترى أنّك لو قلت: ما أعطيت أحداً إلاّ زيداً درهماً، فأوقعت بعد «إلاّ» إسمين لم يجز؛ لأنّ الفعل، أو معنى الفعل في الإستثناء، يصل إلى ما إنتصب به بتوسّط الحرف، ولا يصل الفعل بتوسّط الحرف إلى أكثر من مفعول، ألا ترى أنّك إذا قلت: إستوى الماء، والخشبة، فنصبت الخشبة، لم يجز أن تتبعه إسماً آخر تنصبه، فكذلك المستثنى إذا ألحقته «إلاّ» وأوقعت بعدها إسماً مفرداً، لم يجز أن تتبعه آخر. ولو قلت: ما ضرب القوم إلاّ بعضهم بعضاً، لم يجز، وتصحيحها: ما ضرب القوم أحداً إلاّ بعضهم بعضاً، تبدل الإسمين بعد

«إلاّ» من الإسمين قبلها.

قال جامع العلوم البصير النحويّ: إنّ أبا علي حمل ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ هنا على أنّه ظرف لما قبله. ثمّ رجع عن مثله، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فحمله على فعل آخر دلَّ عليه ﴿يُكَلِّمَهُ﴾ على تقدير، أو يكلّمه الله من وراء حجاب. قال: والظرف في الآيتين عندنا محمول على الفعل قبل ﴿إِلَّا﴾ لأنّ الظرف قد يكتفي فيه برائحة الفعل. إنتهى كلامه.

وأقول: إنّ ما قاله فيه نظر؛ لأن أبا علي قال في تلك الآية، لا يعمل ما قبل الإستثناء، إذا كان كلاماً تامّاً فيما بعده، وليس ما قبل ﴿إلّا﴾ في هذه الآية كلاماً تامّاً، فإنّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فاعل لقوله: إتّبعك، فلذلك فرق بين الموضعين. راجع كلام أبي علي».

وأمّا تحقيق الهمزة وتخفيفها في ﴿الرَّأْيِ﴾ فأهل تحقيق الهمزة يحقّقونها، وأهل التخفيف يبدّلون منها الألف، وكذلك ما أشبهه من نحو الباس، والراس، والفاس. ومن قرأ: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بالتخفيف: يقوي قوله: اجتماعهم على التخفيف في قوله سبحانه ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ﴾، وهذه مثلها.

ويجوز في قوله: ﴿فَعُمِيَت﴾ أمران: أحدهما: أن يكون عمواهم عنها الآن، والرحمة لا تعمي، وإنّما يعمى عنها، فيكون كقولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي، ونحو ذلك ممّا يقلب إذا لم يكن فيه إشكال. وفي التنزيل: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه﴾ وقال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ ... وَسَائِرُهُ بَادٍ إِلَىٰ الشَّمْسِ أَجْمَعُ[1]

---

(١) والشاهد في قوله: مدخل الظلّ رأسه، فإنّ «الثور» يدخل رأسه في الظلّ وسائره بدنه باد للشمس، ولايدخل الظلّ في الرأس، فقلب في الكلام، كما في مخلف وعده رسله، وأمّا قوله: أطرافه في مهمه، فتقدير الكلام: في أطرافه مهمه.

والآخر: أن يكون بمعنى خفيت، كقول الشاعر:

وَمَـهْمَهٍ أَطْـرافُـهُ فِـي مَـهْمَهٍ أَعْمى الهُدىٰ بِالحائِرِينَ العُمَّهِ[١]

أي: خفي الهدى؛ لأنّ الهدى ليس بذي جارحة تلحقها هذه الآفة. ومن هذا يقال للسحاب: العماء؛ لإخفائه ما يخفيه، كما قيل له: الغمام. ومن هذا قول الشاعر:

وَلَكِنَّني عَنْ عِلْمِ مٰا فِي غَدٍ عَمِ[(١)]

قال: وقولهم: أتاني صَكَّةَ عُمَيٍّ[(٢)]: إذا أتى في الهاجرة، وشدّة الحرّ، يحتمل عندنا تأويلين:

أحدهما: أن يكون المصدر أُضيف إلى العمى، كما قالوا: ضرب التلف أي: الضرب الذي يحدث عنه التلف.

والآخر: أن يكون عُمَيّ تصغير أعمى على وجه الترخيم، وأُضيف المصدر إلى المفعول به، كقولك: من دعاء الخير، والتقدير: صكّة الحر الأعمى. والمعنى: إنّ الحرّ من شدّته كأنّه يعمي من أصابه[٢] . والمصدر في الوجهين ظرف، نحو: مقدم الحاجّ، وخفوق النجم. ومن قرأ: عُمِّيَتْ، إعتبر قراءة أُبيّ والأعمش، فَعَمّاهُما[(٣)] عليكم، وإسناد الفعل إلى المفعول به في «عُمِّيَتْ» قريب من «عمى» هنا [هُما] في المعنى.

اللغة: الرذل: الخسيس الحقير من كل شيء، والجمع: أرذُل، ثمّ يجمع

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى المزني من المعلّقة. وأوّله: واعلم مافي اليوم والأمس قبله.

(٢) ما ذكر المصنّف في معنى العميّ هو الوجه. وقيل إنّ «عميّ» كان رجلاً من العمالقة، أغار على قوم في شدّة الحرّ، فنسب إليه.

(٣) بيّنة ورحمة.

[١] قائله: رؤبة بن العجاج. والمهمة: المفازة لا ماء فيها.

[٢] وفي هذا المثل أقول أخر ذكرها في (اللسان) في مادة «عم» فراجع.

على أراذل، كقولك: كلب وأكلب وأكالب، ويجوز أن يكون جمع الأرذل، فيكون مثل: أكابر، جمع الأكبر. والرأي: الرؤية، من قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي: رؤية العين. والرأي أيضاً، ما يراه الإنسان في الأمر، وجمعه: آراء.

الإعراب: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾: يحتمل أن يكون موضع ﴿تَعْبُدُوا﴾ من الإعراب نصباً بأنْ، ويحتمل أن يكون جزماً بالنهي. وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾: يجوز أن يكون تقديره: يوم أليم عذابه، فحذف المضاف الذي هو عذاب، وأُقيم المضاف إليه الذي هو الضمير مقامه، فإستكن في «أليم». ويجوز أن يكون وصف اليوم بالألم؛ لأنّ الألم فيه يقع، ويجوز في غير القراءة أليماً، فيكون صفة لعذاب.

وقوله: أتّبعك وفاعله الذي هو ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ في موضع نصب؛ بأنّه مفعول ثان لـ ﴿نَرَاكَ﴾، إن كان بمعنى «نعلمك»، وفي موضع الحال، إن كان من رؤية العين.

وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ فيه ثلاث ضمائر: ضمير المتكلّم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب فجائت على أحسن ترتيب بدأ بالمتكلّم؛ لأنّه أخصّ بالفعل، ثمّ بالمخاطب، ثمّ بالغائب. ولو أتى بالمنفصل لجاز؛ لتباعده من العامل بما فرَّق بينه وبينه، فأشبه ما ضربت إلاّ إيّاك، وما ضربني إلاّ أنت. وأجاز الفرّاء ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ـ بتسكين الميم ـ، جعله بمنزلة عَضْد وعضد، وكَبْد وكبد، ولا يجوز ذلك عند البصريّين، وإنّما يجيزون ذلك في ضرورة الشعر، كقول إمريء القيس:

فَاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْماً مِنَ اللهِ، وَلاَ وَاغِلٍ[1]

وكقول الآخر:

---

(١) بجزم الباء من «أشرب». وقال ذلك إمرؤ القيس، بعد أن أخذ بثار أبيه، يقول: الآن حلّ لي الشراب.

وَنَـــاعٍ يُـخَبِّرْنَا بِـمَهْلِكِ سَـيِّد تَقَطَّعُ مِنْ وَجْدٍ عَـلَيْهِ الأَنَـامِلُ

وقول الآخر:

إذا إعوججن قلت صاحب قوم

يريد: يا صاحب قوم.

المعنى: لمّا تقدَّم ذكر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، عـقّب ذلك سبحانه، بذكر أخبار الأنبياء؛ تأكيداً لذلك، وتخويفاً للقوم، وتسلية للنبيّ ﷺ.

وبدأ بقصّة نوح عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقد مرّ بيانه ﴿أَنْ لَا تَـعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ أي: أنـذركم أن لا تـعبدوا إلاّ الله، ـ عـن الزجّاج ـ، يريد أن توحّدوا الله، وتتركوا عبادة غيره. وبدأ بالدعاء إلى الإخلاص في العبادة. وقيل: إنّه دعاهم إلى التوحيد؛ لأنّه من أهمّ الأُمور؛ إذ لا يصحّ شيء من العبادات إلاّ بعد التوحيد.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إنّما قال ﴿أَخَافُ﴾ مـع أنّ عـقاب الكفّار مقطوع عليه؛ لأنه لم يعلم ما يؤول إليه عاقبة أمرهم، من إيمان أو كفر، وهذا لطف في الإستثناء [الإستدعاء]، وأقرب إلى الإجابة في الغـالب. ﴿فَـقَالَ الْـمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: نوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِـثْلَنَا﴾ ظـنّاً مـنهم أنّ الرسول إنما يكون من غير جنس المرسل إليه. ولم يعلموا أنّ البعثة من الجنس، قد تكون أصلح، ومن الشبهة أبعد.

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: لم يتّبعك الملأ، والأشراف، والرؤساء منّا، وإنّما أتّبعك أخساؤنا الذين لا مال لهم، ولا جاه. ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: في ظاهر الأمر، والرأي، لم يتدبّروا ما قلت، لم يتفكّروا فيه. وقال الزجّاج: معناه: إتّبعوك في الظاهر، وباطنهم على خلاف ذلك. ومن قرأ بـالهمز: فـالمعنى: أنّهم إتّبعوك إبتداء الرأي أي: حين إبتدأوا ينظرون، ولو فكّروا لم يتّبعوك. وقيل:

معناه: إن في مبتدأ وقوع الرؤية عليهم، يعلم أنّهم أراذلنا، وأسافلنا.

﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: وما نرى لك ولقومك علينا من فضل، فإنّ الفضل إنّما يكون في كثرة المال، والمنزلة في الدنيا، والشرف في النسب، وإنّما قالوا ذلك، لأنّهم جهلوا طريقة الإستدلال، ولو استدلّوا بالمعجزات الدالّة على نبوّته، لعلموا أنّه نبيّ، وأنّ من آمن به مؤمن، ومن خالفه كافر. وعرفوا حقيقة الفضل، وهكذا عادة أرباب الدنيا، يستحقرون أرباب الدين إذا كانوا فقراء، ويسترذلونهم، وإن كانوا هم الأكرمين الأفضلين عند الله سبحانه.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هذا تمام الحكاية، عن كفّار قوم نوح، قالوه لنوح، ومن آمن به.

﴿قَالَ﴾ نوح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على برهان وحجّة يشهد بصحّة النبوّة، وهي المعجزة. وقال ابن عباس: على بيّنة أي: على يقين وبصيرة، ومعرفة من ربوبيّة ربّي، وعظمته.

وأختلف في قول نوح عليه السلام هذا أنّه جواب عمّاذا. فقيل: إنّه جواب عن قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فكأنّه قال: إن تظنّوني كاذباً فما تقولون لو كنت على خلافه، وعلى حجّة من ربّي وواضحة الاّ تصدّقونني. وقيل: بل هو جواب قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أي: وإن كنت بشراً، فماذا تقولون إذا أتيكم بحجّة دالّة على صدقي ألاّ تصدّقونني؟

وفيه بيان أنّ الرسالة إنّما تظهر بالمعجزة، فلا معنى لإعتبار البشريّة. وقيل: هو جواب عن قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فكأنّه قال: إنّهم إعتصموا بالله، وبما آتاهم من البيّنة والرحمة، فنالوا بذلك الرفعة والفضل، وأنتم قنعتم بالدنيا الدنيّة الفانية، فأنتم في الحقيقة الأراذل لا هم. وقيل: هو جواب عن قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فكأنّه قال: لا تتّبعوا المال والجاه، فإنّ

الواجب إتّباع الحجّة والدلالة. ويجوز أن يكون جواباً عن جميع ذلك.

﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ ردّ عليهم بهذا جميع ما إدّعوه. والرحمة والنعمة هي هيهنا النبوّة أي: وأعطاني نبوّة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت عليكم؛ لقلّة تدبّركم فيها.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي: أتريدون منّي أن أُكرهكم على المعرفة، وأُلجئكم إليها، على كره منكم؟ هذا غير مقدور لي. والهاء كناية عن الرحمة، فيدخل فيها النبوّة، والدين، وسائر النعم. وقيل: معناه: أنلزمكم قبولها، فحذف المضاف. ويجوز أن يكون الهاء كناية عن البيّنة، ويكون المراد: إنّ عليَّ أَن أدلَّكم بالبيّنة، وليس عليّ أَن أَضطرّكم إلى معرفتها.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ[1] وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(اللغة): الطرد: الإبعاد على جهة الهوان. وتطارد الأقوال: حمل بعضها على بعض. والإزدراء: الإحتقار، إفتعال من الزراية، يقال: زريت عليه: إذا عبته.

---

(١) «ياء» أجري إلاّ، ولكنّي أراكم، وإنّي إذاً، ثلث ياءات ممّا إختلفوا في صحّتها. وقرء بتشديد الذال من «تذّكرون» غير حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

وأرزت به: إذا قصرت به. قال الشاعر:

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ، وَهُوَ خِرْقٌ ... وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ

وَلَمْ يَخْشَوْا مَقَالَتَهُ عَلَيْهِمْ ... وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الصَّرِيحُ[1]

المعنى: ثمّ أنكر نوح عليه السلام إستثقالهم التكليف، والعاقل إنّما يستثقل الأمر إذا ألزمته مؤونة ثقله، فقطع هذا العذر بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ أي: لا أطلب منكم على دعائكم إلي الله أجراً، فتمتنعون من إجابتي؛ خوفاً من أخذ المال.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ أي: ما ثوابي، وما أجري في ذلك، إلاّ على الله ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لست أطرد المؤمنين من عندي، ولا أبعدهم على وجه الإهانة. وقيل: إنّهم كانوا سألوه طردهم؛ ليؤمنوا له أنفه من أن يكونوا معهم على سواء، ـ عن ابن جريح، والزجّاج ـ.

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدلّ على أنّهم سألوه طردهم، فأعلمهم أنّه يطردهم؛ لأنّهم ملاقوا ربّهم، فيجازي من ظلمهم، وطردهم بجزائه من العذاب، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: إنّهم ملاقوا ثواب ربّهم، فكيف يكونون أراذل؟ وكيف يجوز طردهم، وهم لا يستحقّون ذلك؟ ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ الحقّ وأهله. وقيل: معناه: تجهلون أنّ الناس إنّما يتفاضلون بالدين، لا بالدنيا. وقيل: تجهلون فيما تسألون من طرد المؤمنين.

---

(١) الخِرق بكسر الخاء: الجواد الحسن الخلق يعني: احتقروه بقبح صورته مع جوده، وهو كاللعن عليه الرغوة ترى ظاهره وتغفل عن باطنه. وفي نسخة: رأوه فازدروه باحتقار، وينفع أهله الرجل الحقير. وقال الآخر: ترى الرجل النحيف فتزدريه، وفي اثوابه اسد مزير. والمزير ـ كأمير ـ: النافذ في الأمور.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ معناه: من يمنعني من عذاب الله إن أنا طردت المؤمنين، فكانوا خصمائي عندالله في الآخرة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتفكّرون، فتعلمون أنّ الأمر على ما قلته؟ وفرَّق عليّ بن عيسى بين التفكّر والتذكّر، بأنّ التذكّر: طلب معنى قد كان حاضراً للنفس. والتفكّر: طلب معرفة الشيء بالقلب، وإن لم يكن حاضراً للنفس. وليست النصرة المذكورة في الآية من الشفاعة في شيء؛ لأنّ النصرة: هي المنع على وجه المغالبة والقهر. والشفاعة: هي المسألة على وجه الخضوع، فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة للمذنبين، على ما قاله بعضهم.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ هذا تمام الحكاية عمّا قاله نوح لقومه، ومعناه: إنّي لا أرفع نفسي فوق قدرها، فأدّعي أنّ عندي مقدورات الله تعالى، فأفعل ما أشاء، وأُعطي ما أشاء، وأمنع من أشاء، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: خزائن الله: مفاتيح الله في الرزق. وهذا جواب لقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أو قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أدَّعي علم الغيب، حتى أدلّكم على منافعكم، ومضارّكم. وقيل: لا أعلم الغيب، فأعلم ما تسرُّونه في نفوسكم، فيكون جواباً لقولهم إنّ هؤلاء الذين آمنوا بك، إتّبعوك في ظاهر ماترى منهم أي: فسبيلي قبول إيمانهم الذي ظهر لي، ولا يعلم ما يضمرونه إلاّ الله تعالى.

﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأُخبركم بخبر السماء من قبل نفسي، وإنّما أنا بشر لا أعلم الأشياء من غير تعليم الله تعالى. وقيل: معناه: لا أقول إنّي روحانيّ غير مخلوق من ذكر وأُنثى، بل أنا بشر مثلكم، خصَّني الله بالرسالة.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: لا أقول لهؤلاء المؤمنين الذين تستقلُّونهم، وتستخفُّونهم، وتحتقرهم أعينكم؛ لما ترون عليهم من زيِّ الفقراء.

﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ أي: لا يعطيهم الله في المستقبل خيراً على أعمالهم، ولا يثيبهم عليها، بل أعطاهم الله كل خير في الدنيا من التوفيق، ويعطيهم كل خير في الآخرة من الثواب.

﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بما في قلوبهم من الإخلاص، وغيره ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن طردتهم؛ تكذيباً لظاهر إيمانهم، أو قلت فيهم غير ما أعلم.

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ (١)

(اللغة): الجدال، والمجادلة: المقابلة بما يفتل الخصم من مذهبه بحجّة أو شبهة، وهو من الجدل، وهو شدّة الفتل. ويقال للصقر: أجدل؛ لأنّه من أشدّ الجوارح. والجدال والمراء، بمعنى، غير أنّ المراء مذموم؛ لأنّه مخاصمة في الحقّ بعد ظهوره، كمري الضرع بعد دروره. وليس كذلك الجدال. والفرق بين الحجاج والجدال: أنّ المطلوب بالحجاج، ظهور الحجّة، والمطلوب بالجدال، الرجوع عن المذهب.

والإعجاز هو الفوت بالهرب. والفرق بين إفتراء الكذب، وقول الكذب: أنّ

---

(١) ياء «نصحى» ممّا إختلفوا في فتحها. وأدغم «قد جادلتنا» أبو عمر، وحمزة، والكسائي، وهشام، وخلف.

قول الكذب، قد يكون على وجه تقليد الإنسان فيه لغيره. وأمّا إفتراء الكذب، فهو إفتعاله من قبل نفسه. وأَجرم، وجرم، بمعنى. قال:

طَـريدُ عَشـيرَةٍ، وَرَهـينُ ذَنْبٍ بِمَا جَرَمَتْ يَدِي، وَجَنىٰ لِسَاني

المعنى: ثمّ حكى الله سبحانه جواب قوم نوح عمّا قاله لهم، فقال: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا**﴾ أي: خاصمتنا، وحاججتنا.

﴿**فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾ أي: زدت في مجادلتنا على مقدار الكفاية. وفي بعض الروايات، عن ابن عباس: فأكثرت جَدالنا. والمعنى واحد.

﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا**﴾ من العذاب ﴿**إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ**﴾ في أنّ الله تعالى يعذّبنا على الكفر أي: فلسنا نؤمن بك، ولا نقبل منك.

﴿**قَالَ**﴾ نوح ﴿**إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ**﴾ أي: لا يأتي بالعذاب إلاّ الله سبحانه متى شاء، لا يقدر عليه غيره، فإن شاء عجّل، وإن شاء أخّر ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ أي: لا تفوتونه بالهرب.

﴿**وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ**﴾ ذكر في تأويله وجوه:

أحدها: إن كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته، بأن يحرمكم ثوابه، ويعاقبكم لكفركم به، فلا ينفعكم نصحي إنْ أردت أَنْ أنصح لكم. وقد سمَّي الله سبحانه العقاب غيّاً بقوله: ﴿**فَسَوْفَ يُلْقُونَ غَيّاً**﴾ ويشهد بصحة ما قلنا، قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً، يَحمَدِ النَّاسُ أمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ، لاٰ يَعْدَمْ عَلى الْغَيِّ لاٰئِماً

ولمّا خيّب الله سبحانه قوم نوح، من رحمته وثوابه، وأَعلم الله نوحاً عليه السلام بذلك في قوله: ﴿**لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ**﴾ قال لهم: لا ينفعكم نصحي، مع إيثاركم ما يوجب خيبتكم، والعذاب الذي جرّه إليكم قبيح أفعالكم. وإذا طرأ

شرط على شرط، كان الثاني مقدّماً على الأوّل في المعنى، وإن كان مؤخّراً في اللفظ. والتقدير: ولا ينفعكم نصحي، إن كان الله يريد أن يغويكم، إن أردت أَنْ أنصح لكم.

وثانيها: إنّ المعنى: إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق، وإضلالكم إيّاهم أي: يريد عقوبتكم على ذلك. ومن عادة العرب أن تسمّي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقد مرّ فيما مضى أَمثال ذلك.

وثالثها: إنّ معناه: إن كان الله يريد أن يهلكَكم، فلا ينفعكم نصحي عند نزول العذاب بكم، وإنْ قبلتم قولي، وآمنتم؛ لأنّ الله تعالى حكم بأن لا يقبل الإيمان عند نزول العذاب، ـ عن الحسن ـ. وقد حكي عن العرب أنّهم قالوا: أَغويت فلاناً، بمعنى: أهلكته. ويقال: غوي الفصيل: إذا فسد من كثرة شرب اللبن.

ورابعها: إنّ قوم نوح عليه السلام كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى يضلُّ عباده عن الدين، وأنّ ما هم عليه بإرادة الله، ولو لا ذلك لغيَّره، وأجبرهم على خلافه، فقال لهم نوح، على وجه التعجّب من قولهم، والإنكار لذلك: إنّ نصحي لا ينفعكم إنْ كان القول كما تقولون. وهذا هو المحكيّ عن جعفر بن حرب.

وإنّما شرط النصح بالإرادة في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ مع وقوع هذا النصح إستظهاراً في الحجّة عليهم؛ لأنّهم ذهبوا إلى أنّه ليس بنصح، فقال: لو كان نصحاً ما نفع من لا يقبله.، ولا يجوز أن يكون المراد بالإغواء في الآية فعل الكفر، أو الدعاء إلى الكفر، والحمل عليه، على ما يعتقده المجبرة، لقيام الأدلّة على أنّ خلق الكفر، وإرادته من أقبح القبائح، كالأمر به، وكما لم يجز أن يأمر به، فكذلك لا يجوز أَنْ يفعله ويريده، ولأنه لو جاز منه الإضلال، لجاز منه أَنْ يبعث من يدعو إلى الضلال، ويظهر المعجزات على يده، وفي هذا ما فيه.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو خالقكم ورازقكم، وإلى حكمه وتدبيره تصيرون، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قيل: إنّه يعني بذلك محمّداً ﷺ، والمراد: أيؤمن كفّار محمّد ﷺ بما أخبرهم به محمّد ﷺ من نبأ قوم نوح عليه السلام، أم يقولون إفتراه محمّد ﷺ من تلقاء نفسه فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ وإختلقته كما تزعمون ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أَي: عقوبة جرمي، لا تؤخذون به.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: لا أُؤخذ بجرمكم، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: يعني به نوحاً عليه السلام، وأنّه يقول على الله الكذب، ـ عن ابن عباس ـ.

النظم: ووجه إتّصال هذه الآية بما قبلها على القول الأوّل: أنّها تتّصل بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾.

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

اللغة: الإبتئاس: حزن في إستكانة. وأنشد أبو عبيدة:

مَا يَقْسِمِ اللهُ أَقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ ... مِنْهُ، وَأَقْعُدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ[1]

(١) يعني: نفسي قنوع بما قسّمه الله لي، ولا أحزن من قلّته.

وهو إفتعال، من البؤس، وقد يكون «البؤس» بمعنى: الفقر أيضاً. والصنع: جعل الشيء موجوداً بعد أَنْ كان معدوماً، ومثله: الفعل. وينفصلان من الحدوث من حيث إنّ الصنعة يقتضي صانعاً، والفعل يقتضي فاعلاً من حيث اللفظ. وليس كذلك الحدوث؛ لأنّه يفيد تجدّد الوجود، لا غير. والصناعة: الحرفة التي يكتسب بها.

والفلك: السفينة، ويكون واحداً وجمعاً. والسخريّة: إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه إستضعاف العقل. ومنه: التسخير: التذليل يكون إستضعافاً بالقهر. والفرق بين السخريّة واللعب: أنّ في السخريّة خديعة وإستنقاصاً، ولا يكون إلاّ بحيوان. وقد يكون اللعب بجماد.

والحلول: النزول للمقام، وهو من الحلّ، خلاف الإرتحال. وحلول العرض: وجوده في الجوهر، من غير شغل حيز. والمصحّح للحول: التحيز.

﴿الإعراب﴾: سوف: ينقل الفعل من الحال إلى الاستقبال، مثل السين سواء، إلاّ أنّ معنى التسويف، وهو تعليق النفس بما يكون من الأمور.

من يأتيه: قيل في «مَنْ» هذه قولان: أحدهما: أن يكون بمعنى: أيُّ، فكأنّه قال: أيُّنا يأتيه عذاب يخزيه والآخر: أن يكون بمعنى: الذي، والمعنى واحد. و«مَنْ» إذا كانت للإستفهام، إستغنت عن الصلة، كما إستغنت «كيف، وكم» عن الصلة. وإذا كانت بمعنى «الذي»، فلابدّ لها من الصلة؛ لأنّ البيان مطلوب من المسؤول، دون السائل.

﴿المعنى﴾: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾: أَعلم الله سبحانه نوحاً، أنّه لن يؤمن به أحد من قومه في المستقبل.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تغتمّ، ولا تحزن. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ والعقل لا يدلّ على أنّ قوماً لا يؤمنون في المستقبل، وإنّما طريق ذلك السمع، فلمّا علم أنّ أحداً

منهم لا يؤمن فيما بعد، ولا من نسلهم، دعا عليهم، فقال: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

فلمّا أراد الله سبحانه إهلاكهم، أمر نبيّه بإتّخاذ السفينة له، ولقومه، فقال: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ أي: إعمل السفينة لتركبها أنت، ومن آمن بك.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منّا، ـ عن ابن عباس ـ. والتأويل: بحفظنا إيّاك حفظ الرائي لغيره، إذا كان يدفع الضرر عنه. وذكر الأعين؛ لتأكيد الحفظ. وقيل: أراد بالأعين: الملائكة الموكّلين بك، وبحضرتهم، وهم ينظرون بأعينهم إليك. وإنّما أضاف ذلك إلى نفسه؛ إكراماً وتعظيماً لهم.

وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ معناه: وعلى ما أوحينا إليك من صفتها وحالها، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: المراد بوحينا إليك: أنْ إصنعها، وذلك أنّه عليه السلام لم يعلم صنعة الفلك، فعلّمه الله تعالى، ـ عن ابن عباس ـ. أي: فإنّا نوحي إليك بما تحتاج إليه من طوله، وعرضه، وهيأته.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي: لا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك، ولا تشفع لهم؛ فإنّهم مغرقون عن قريب. وهذا غاية في الوعيد، كما يقول الملك لوزيره: لا تذكر حديث فلان بين يدي. وقيل: إنه عنى به إمرأته وإبنه، وإنّما نهاه عن ذلك؛ ليصونه عن سؤال ما لا يجاب إليه؛ وليصرف عنه مأثم الممالأة للطغاة.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ أي: وجعل نوح عليه السلام يصنع الفلك، كما أمره الله تعالى. وقيل: وأخذ نوح في صنعة السفينة بيده، فجعل ينحتها ويسوّيها، وأعرض عن قوله.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: كلّما إجتاز به جماعة من

أشراف قومه، ورؤسائهم، وهو يعمل السفينة، هزؤا من فعله. وقيل: إنّهم كانوا يقولون له: يا نوح! صرت نجّاراً بعد النبوّة؟ على طريق الإستهزاء. وقيل: انما كانوا يسخرون من عمل السفينة؛ لأنّه كان يعملها في البرّ على صفة من الطول والعرض، ولا ماء هناك يحمل مثلها، فكانوا يتضاحكون، ويتعجبون من عمله.

﴿قَالَ﴾ أي: كان يقول لهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ والمراد: إنْ تستجهلونا في هذا الفعل، فإنّا نستجهلكم عند نزول العذاب بكم، كما تستجهلونا، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: فإنّا نجازيكم على سخريّتكم عند الغرق والهلاك، وأراد به تعذيب الله إيّاهم، فسمّي الجزاء بإسم المجزيّ به، ويحتمل أَنْ يريد فإنّا نسخر منكم، بعد الغرق على وجه الشماتة، لا على وجه السفه.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيُّنا أحقّ بالسخريّة، أو تعلمون عاقبة سخريّتكم ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ هذا إبتداء كلام من نوح، والأظهر أن يكون متّصلاً بما قبله أي: فسوف تعلمون أيّنا يأتيه عذاب يهينه، ويفضحه في الدنيا، ويكون «يخزيه» صفة «العذاب».

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي: وينزل عليه عذاب دائم في الآخرة.

[القصّة]: قال الحسن: كان طول السفينة ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستّمائة ذراع. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وإرتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها. وقال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام والدواب، وطبقة للهوام والوحش، وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوام، وأوسطها للدوابّ والأنعام، وركب هو ومن معه في الأعلى، مع ما يحتاج إليه من الزاد، وكانت من خشب الساج.

وروت عائشة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مكث نوح في قومه ألف سنة إلاّ

خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، حتى إذا كان آخر زمانهم، غرس شجرة، فعظمت وذهبت كل مذهب، فقطعها، وجعل يعمل على سفينته، وقومه يمرُّون عليه فيسألونه، فيقول: أَعمل سفينة! فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة على البرّ، فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون. فلمّا فرغ منها، وفار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أُمّ صبي عليه، وكانت تحبُّه حبّاً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلمّا بلغها الماء، خرجت به حتى بلغت ثلثيه، فلمّا بلغها الماء، خرجت به حتى إستوت على الجبل، فلمّا بلغ الماء رقبتها، رفعته بيديها، حتى ذهب بها الماء. فلو رحم الله منهم أحداً، لرحم أمّ الصبي.

وروي عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن صفوان، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لمّا أراد الله إهلاك قوم نوح، عقم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يلد لهم مولود. ولمّا فرغ نوح من إتّخاذ السفينة، أَمره الله تعالى أن ينادي بالسريانيّة، أن يجمع إليه جميع الحيوانات، فلم يبق حيوان إلاّ وقد حضر. فأدخل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين، ما خلا الفأر والسنور. وإنّهم لمّا شكوا إليه سرقين الدوابّ، والقذر، دعا بالخنزير فمسح جبينه، فعطس فسقط من أَنفه زوج فأرة، فتناسل.

فلمّا كثروا، وشكوا إليه منهم، دعا بالأسد، ومسح جبينه، فعطس، فسقط من أنفه زوج سنور. وكان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلاً. وفي حديث آخر: إنّهم شكوا إليه العذرة، فأمر الله الفيل، فعطس، فسقط الخنزير. وروي الشيخ أبو جعفر في كتاب النبوّة، بإسناده عن حنان بن سدير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا[1] وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ
ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ
تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ ـ منوّناً ـ، وفي المؤمنين كذلك. وقرأ الباقون: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ ـ مضافاً ـ. وقرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: ﴿مَجْرَيْهَا﴾ ـ بفتح الميم ـ. والباقون: بضمّ الميم. وإتّفقوا على ضمّ الميم في ﴿مُرْسَيٰهَا﴾ إلاّ ما يروى في الشواذّ عن ابن محيصن، أنّه فتح الميم فيهما. وقرأ عاصم: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ ـ بفتح الياء ـ. والباقون: بالكسر. وروي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأبي جعفر محمّد بن عليّ، وجعفر بن محمّد عليهما السلام،

---

(١) جاء أمرنا: من إجتماع همزتين، قرأ بإسقاط الأولى قالون، والبزي، وأبو عمرو. وقرأ ورش بتحقيق الأولى، وتسهيل الثانية بين بين. والأزرق بإبدال الثانية ألفاً، وأختلف عن قنبل. وقرأ الباقون: بتحقيق الهمزتين.

وعروة بن الزبير: وَنَادَى نُوحٌ إِبْنَهُ[١]. وروي عن عكرمة: إبنها. وعن السدّي: إبناه. وعن ابن عباس: ابنه ـ على الوقف ـ[٢].

الحجة: الوجه في قراءة حفص ما قاله أبو الحسن: إنّ الإثنين زوجان، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ والمرأة زوج الرجل، والرجل زوجها. قال: وقد يقال للإثنين: هما زوج. قال لبيد:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُها[٣]

قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ كان قوله: إثنين، مفعول الحمل، والمعنى: إحمل من الأزواج إذا كانت إثنين، إثنين زوجين، فالزوجان في قوله: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ يراد بهما الشياع، وليس يراد بهما الناقص عن الثلاثة، ومثل ذلك قول الشاعر:

فَاعْمُدْ لِمَا يَعْلُوا فَمَا لَكَ بِالَّذي لاَ تَسْتَطِيعُ مِنَ الأُمُورِ يَدانِ

إنّما يريد: تشديد إنتفاء قوته عنه، وتكثيره. ويبيّن هذا المعنى قول الفرزدق:

وَكُلُّ رفِيقَيْ كُلِّ رَحْلٍ، وَإِنْ هُمَا تَعَاطَى الْقَنَا قَوْماً هُمَا أَخَوَانِ[٤]

فرفيقان إثنان لا يكونان رفيقي كل رحل، وإنّما يريد الرفقاء إذا

---

(١) إبنه: يعني بفتح الهاء، مخفّف «إبنها».

(٢) أمال حفص الألف من «مجريها»، ولم يمل في القرآن العزيز في غير هذه الكلمة، ووافقه في الإمالة حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو عمرو، وابن ذكوان. وأمال «مرسيها» حمزة، والكسائي وخلف. وأدغم الباء من «اركب» في «الميم» من «مَعنا» أبو عمرو، والكسائي من السبعة، وأختلف عن عاصم، وابن كثير، وقالون، وخلاد.

(٣) من كل محفوف: بيان للهودج يعني: إنّه محفوف بالستر؛ وعيد أنّ أطرافه تحت ظلّ الزوج، وهو الثوب على الهودج، وأراد بالقرام: الثوب الرقيق الذي يرسل على جوانبه. وبالكلة: مايستر سقفه.

(٤) الشعر في جامع الشواهد.

كانوا رفيقين.

ومن نوَّن، فقال: ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ فحذف المضاف إليه من «كلّ»، ونوّن، فالمعنى: من كل شيء، ومن كل زوج زوجين [زوج] إثنين، فيكون إنتصاب «إثنين» على أنّه صفة لزوجين. فإن قلت: فالزوجان قد فهم أنّهما إثنان، فكيف جاز وصفهما بقوله: إثنين، فإنّما جاز ذلك للتأكيد والتشديد، كما قال: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ﴾ وقد جاء في غير هذا من الصفات، ما مصرفه إلى التأكيد، كقولهم: أمس الدابر، ونفخة واحدة، ونعجة واحدة. قال: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى﴾.

قال أبوعليّ: ويجوز في قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَيْها وَمُرْسيْها﴾ أَنْ يكون حالاً من شيئين، من الضمير الذي في قوله: إركبوا، ومن الضمير الذي في «فيها»، فإن جعلت قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ خبر مبتدأ مقدماً في قول من لم يرفع بالظرف، أو جعلت قوله: ﴿مَجْرَيْهَا﴾ مرتفعاً بالظرف، لم يكن قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَيْهَا﴾ إلاّ جملة في موضع الحال، من الضمير الذي في «فيها». ولا يجوز أن يكون من الضمير الذي في قوله: ﴿اِرْكَبُوا﴾؛ لأنّه لا ذكر فيها يرجع إلى الضمير.

ألا ترى أنّ الظرف في قول من رفع بالظرف، قد إرتفع به الظاهر، وفي قول من رفع في هذا النحو بالإبتداء، قد جعل في الظرف ضمير المبتداء. فإذا كان كذلك خلت الجملة من ذكر يعود إلى ذي الحال من الحال. وإذا خلا من ذلك لم يكن إلاّ حالاً من الضمير الذي في «فيها».

ويجوز أن يكون ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ حالاً من الضمير الذي في قوله: ﴿اِرْكَبُوا﴾ على أن لا يكون الظرف خبراً عن الإسم الذي هو ﴿مَجْرَيْهَا﴾ على ما كان في الوجه الأوّل.

ويكون حالاً من الضمير على حدّ قولك: خرج بثيابه، وركب في سلاحه، والمعنى: ركب مستعدّاً بسلاحه، ومتلبساً بثيابه. وفي التنزيل ﴿وَقَدْ دخَلُوا بِالْكُفْرِ

وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فكان المعنى: إركبوا متبرّكين بإسم الله، ومتمسّكين بذكر إسم الله، ويكون في ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ ذكر يعود إلى المأمورين. فإن قلت: فكيف يكون إتّصال المصدر الذي هو ﴿مَجْرَيٰهَا﴾ بالكلام على هذا، فإنّه يكون متعلّقاً بما في ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ من معنى الفعل، وجاز تعلّقه به؛ لأنّه يكون ظرفاً على نحو مقدم الحاج، وخفوق النجم، كأنّهم متبرّكين بهذا الإسم، أو متمسّكين به في وقت الجري، أو الإجراء والرسو، أو الإرساء على حسب الخلاف بين القرّاء فيه.

ولايكون الظرف متعلّقاً بإركبوا؛ لأنّ المعنى ليس عليه، ألاترى أنّ المعنى لا يراد إركبوا فيها في وقت الجري والثبات، إنّما المعنى: إركبوا الآن متبرّكين بإسم الله في الوقتين اللذين لا ينفكّ الراكبون فيها من الإجراء والإرساء، ليس يراد إركبوا وقت الجري والرسو. فموضع ﴿مَجْرَيٰهَا﴾ نصب على هذا الوجه، بأنّه ظرف عمل فيه المعنى. وفي الوجه الأوّل رفع بالإبتداء، أو بالظرف. ويدلّ على أنّه في الوجه الأوّل رفع، وإن كان ذلك الفعل الذي كان يتعلّق به لا يعتبر به الآن، قول الشاعر. أنشده الأصمعي:

وا بأبي أنْتِ، وفُوكِ لأشْنَبُ ... كَأَنَّمَا ذُرَّ عَلَيْهِ الزَّرْنَبُ[1]

وحجّة من فتح ﴿مَجْرَيٰهَا﴾ قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ ولو كان «مجريها» لكان: وهي تُجريهم. وحجّة من ضمَّ: أنّ جرت بهم وأجرتهم، يتقاربان في المعنى، يقال: جرى الشيء، وأجريته، وجريت به. وأمّا قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ فقد قال أبو عليّ: الكسر في الياء الوجه في ﴿يَا بُنَيَّ﴾؛ وذلك أنّ اللام من «ابن» ياء أو واو، حذفت في «ابن»، كما حذفت في «إسم، وإثنين». فإذا حقّرت، أُلحقت ياء التحقير، فلزم أن تردّ اللام الذي حذفت؛ لأنّك لو لم تردّها، لوجب أن تحرّك ياء التحقير بحركات الإعراب، وتعاقبها عليها، وهي لا تحرّك أبداً بحركة الإعراب،

---

(١) الزرنب: نبت طيّب الرائحة. والشاهد في إرتفاع «أنت» بالجارّ والمجرور.

ولا غيرها.

ألا ترى أنّ من حذف الهمزة الساكن ما قبلها، في نحو: الخبء، لم يفعل ذلك في الهمز نحو: أُفَيْئِس[1] إنّما يبدّل من الهمزة ياء، ويدغم فيها ياء التحقير (فيقول: افيس)، كما يفعل ذلك مع ياء خطية، وواو مقروة، ونحو ذلك من حروف المدّ التي لا تتحرّك.

فإذا تبيّنت أنّ ياء التحقير أُجريت هذا المجرى، علمت أنّها لا تتحرّك، كما لا تتحرّك حروف المدّ التي أُجريت ياء التحقير مجراها. فلو لم تردّ اللام مع ياء التحقير، وجعلتها محذوفة في التحقير، كما حذفتها في التكبير، «ابن» للزم الياء التي للتحقير الإنقلاب، كما لزم سائر حروف الإعراب، فيبطل دلالتها على التحقير. كما أنّ الألف في التكسير «أبناء»، لو حرّكتها، لبطلت دلالتها على التكسير ولذلك رددت اللام، فإذا رددت اللام وأضفتها إلى نفسك إجتمعت ثلاث ياءات: الأولى منها: التي للتحقير، والثانية: لام الفعل، والثالثة: التي للإضافة، تقول: هذا بُني فإذا ناديت، جاز فيها وجهان: إثبات الياء وحذفها، فمن قال: يا عبادي فأثبت فقياس قوله: ان يقول: بُنيّي، ومن قال: يا عبادِ، قال: يابُنَيّ، فحذف الياء التي للإضافة، وأبقى الكسرة دالّة عليها. وهذا الوجه هو الجيّد عندهم.

ومن قرأ: يابُنَيّ ـ بالفتح ـ، فالقول فيه، إنّه أراد به الاضافة، كما أرادها في قوله: يا بُنيّ إذا كسر الياء التي هي لام الفعل، فكأنّه قال: يا بُنيي بإثبات ياء الإضافة، ثمّ أبدل من الكسرة الفتحة، ومن الياء الألف، فصار يا بنيّا، كما قال الشاعر:

يا بنت عمّا لا تلومي واهجعي

ثمّ حذف الألف، كما كان يحذف الياء في: يا بنيّ، وقد حذفت الياء التي

---

(١) تصغير أفؤس، جمع: فأس.

للإضافة، إذا أُبدلت الألف منها. أنشد أبو الحسن:

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مٰا فٰاتَ مِنّي بِلَهْفٍ، وَلاٰ بِلَيْتَ، وَلاٰ لَوْ أنّي

إنّما هو بلهفا. قال أبو عثمان: ووضع الألف مكان الياء في الإضافة مطّرد، وأجاز يا زيدا أَقبل إذا أردت الاضافة، فقال: وعلى هذا قراءة من قرأ: ﴿يَا أَبَتَ لَمْ تَعْبُدْ﴾ و﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُم﴾ وأنشد:

وهل جزع إن قلت وا أبتاهما

وأمّا من قرأ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ فإنّه أراد إبنها، كما روي عن عكرمة، والمعنى: ابن إمرأته؛ لأنّه قد جرى ذكرها في قوله سبحانه: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ فحذف الألف؛ تخفيفاً، كما قلنا في بَني ـ بالفتح ـ[1]، ويا أبت. وأمّا قراءة السدّي. ابناه، فإنّه يريد به الندبة، وهو على الحكاية أي: قال له: يا إبناه، ووا إبناه! فأمّا إبنه ـ بالسكون ـ، فعلى ما جاء في نحو قوله:

وَمِطْوٰايَ مُشْتَاقٰان لَهْ أَرِقٰان

(اللغة): الفور: الغليان، وأصله: الإرتفاع، فار القدر يفور فوراً، وفؤوراً، وفوراناً: إرتفع ما فيه بالغليان. ومنه: قولهم: فعل ذلك من فوره أي: من قبل أن يسكن. والإرساء: إمساك السفينة بما تقف عليه، يقال: أرساها الله فرست. قال عنترة:

فَصَبَرْتُ نَفْساً عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً تَرْسُو إذٰا نَفْسُ الْجَبٰانِ تَطَلَّعُ[2]

---

(١) وروي فتح الألف، وهذا صريح في أنّ القرائة المنسوبة إلى أهل البيت عليهم السلام إبنهَ ـ بفتح الهاء ـ من ابنه. وروي في تفسير عليّ بن ابراهيم، إنما هو إبنه من زوجته، على لغة طيّ، يقولون لإبن المرأة: إبنه، فالروايات تختلف في أنّ إبنها أي: ابن المرأة تفسير أو قرائة بفتح الهاء، أو بفتح الألف، وهذا يوضح وجه عدم إعتماد العلماء على أخبار الآحاد في القرائة.

(٢) فصبرت: أستعمل متعدّياً، أراد أنّي كنت غير مضطرب عنه المخافة التي تضطرب فيها نفس الجبان.

والموج: جمع موجة، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير. والعصمة: المنع.

﴿الإعراب﴾: ﴿حَتَّى﴾ متعلّقة بقوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿لاَ عَاصِمَ﴾ رُكّب «عاصم» مع «لا» فبني؛ لأنّهما بالتركيب صاراً كإسم واحد، وقيل: إنّه بني؛ لتضمّنه معنى «مِن»؛ لأنّ هذا جواب: هل من عاصم. وحقّ الجواب أن يكون وفق السؤال، فكان يجب أن يقول: لا من عاصم، إلاّ أنّ «من» حذفت، وتضمّن الكلام معناه، فبني الإسم لذلك، وهذا وجه حسن. و«اليوم» خبر، والعامل فيه المحذوف لا قوله: عاصم؛ لأنّه لو عمل فيه «عاصم»؛ لصار من صلته، فكان يجب تنوينه؛ لأنّه يشبه المضاف، كما تقول لا ضارباً زيداً في دارك، ولم يقرأ أحد لا عاصماً اليوم. وقيل: إنّ خبره قوله: ﴿مِنْ أَمرِ الله﴾ والتقدير: لا ذا عصمة كائن من أمر الله في اليوم. واليوم معمول الظرف، وإن تقدّم عليه، كما جاز كل يوم لك ثوب. ولا يجوز أن يتعلّق اليوم بنفس أَمر؛ لأنّ أَمراً مصدر، فلا يتقدّم عليه ما في صلته.

و«من رحم» فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أَن يكون إستثناء منقطعاً؛ لأنّ التقدير: إلاّ من رحمه الله، فيكون «من» مفعولاً وإستثناء من «عاصم»، وعاصم فاعل، فكأنّه قال: لكن من رحمه الله معصوم.

وثانيها: أن يكون المعنى: لا عاصم إلاّ من رحمنا، فكأنّه قال: لا عاصم إلاّ الله.

والثالث: أنّ عاصم هيهنا بمعنى معصوم، وتقديره: لا معصوم من أَمر الله إلاّ من رحمه الله. وقد يأتي فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية، وماء دافق أي: مدفوق. وقال الحطيئة:

دَعِ الْـمَكَارِمَ لاَ تَـرْحَلْ لِـبَغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (١)

أي: المكسو. وعلى القولين الأخيرين يكون الإستثناء متّصلاً. وقال ابن كيسان: لمّا قال: لا عاصم، كان معناه: لا معصوم؛ لأنّ في نفي العاصم نفي المعصوم. ثمّ قال. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فإستثناء على المعنى، فيكون متّصلاً.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن إهلاك قوم نوح، فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ والمعنى: فذلك حاله وحالهم، حتى إذا جاء قضاؤها بنزول العذاب.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ بالماء أي: إرتفع الماء بشدّة إندفاع، وفي التنّور أقوال:

أوّلها: أنّه تنور الخابزة، وأنّه تنور كان لآدم، فار الماء منه علامة لنوح عليه السلام؛ إذ نبع الماء من موضع غير معهود خروجه منه، ـ عن ابن عبّاس، والحسن، ومجاهد ـ. ثمّ أختلف في ذلك، فقال قوم: إنّ التنّور كان في دار نوح عليه السلام بعين وردة من أرض الشام. وقال قوم: بل كان في ناحية الكوفة، وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام.

وروي المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل قال: كان التنّور في بيت عجوز مؤمنة، في دبر قبلة ميمنة مسجد الكوفة، قال قلت: فكيف كان بدء خروج الماء من ذلك التنّور؟ قال: نعم إنّ الله أحبّ أن يري قوم نوح آية، ثمّ إن الله سبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضاً، وفاض الفرات فيضاً، وفاضت العيون كلّها فيضاً، فغرقهم الله، وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة. فقلت: فكم لبث نوح في السفينة، حتى نضب الماء، فخرجوا منها؟ فقال لبث فيها سبعة أيّام بلياليها. فقلت له: إنّ مسجد الكوفة لقديم! فقال: نعم وهو مصلّى الأنبياء، ولقد صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أُسري به إلى السماء، قال له جبرائيل عليه السلام: يا محمّد! هذا مسجد أبيك آدم، ومصلّى الأنبياء، فأنزل فصَلِّ فيه، فنزل فصلّى فيه، ثمّ إنّ

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

جبرائيل عليه السلام عرج به إلى السماء.

وفي رواية أُخرى: إنّ السفينة إستقلّت بما فيها، فجرت على ظهر الماء مائة وخمسين يوماً بلياليها. وروي أبو عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: مسجد كوفان، وسطه روضة من رياض الجنّة، الصلاة فيه بسبعين صلاة، صلّى فيه ألف نبيّ، وسبعون نبيّاً، فيه فار التنّور، وجرت السفينة، وهو سرّة بابل، ومجمع الأنبياء عليهم السلام.

وثانيها: إنّ التنّور وجه الأرض ـ عن ابن عباس، والزهري، وعكرمة، وإختاره الزجّاج ـ. ويؤيّده قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوْناً﴾.

وثالثها: إنّ معنى قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ طلع الفجر، وظهرت أمارات دخول النهار، وتقضي الليل، من قولهم: نوّر الصبح تنويراً، وروي ذلك عن عليّ عليه السلام.

ورابعها: إنّ التنّور أعلى الأرض، وأشرفها، والمعنى: تبع الماء من الأمكنة المرتفعة، فشبهت بالتنانير؛ لعلوّها ـ عن قتادة ـ.

وخامسها: إنّ ﴿فَارَ التَّنُّورُ﴾ معناه: إشتدّ غضب الله عليهم، ووقعت نقمته بهم، كما تقول العرب حمي الوطيس: إذا إشتدّ الحرب، وفار قدر القوم: إذا إشتدّ حربهم. قال الشاعر:

يَفُورُ عَلَيْنا قِدْرُهُمْ فَنُذيمُها ... وَنَفْثَأُها عَنّا إذا حَمْيُها غَلا[1]

يريد بالقِدر: الحرب. ونذيمها: نسكنها. وهذا أبعد الأقوال من الأثر، وحمل الكلام على الحقيقة التي تشهد بها الرواية أولى.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: قلنا لنوح عليه السلام لمّا فار الماء من التنّور: إحمل في السفينة من كل جنس من الحيوان زوجين أي: ذكراً وأنثى، وقد ذكرنا المعنى في حجّة القراءتين. ﴿وأَهلك﴾ أي: وإحمل أهلك وولدك.

---

(١) يقال: فثاء القدر فثوءاً: إذا صبّ عليها الماء البارد؛ ليسكن غليانها.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أيْ: من سبق الوعد بإهلاكه، والإخبار بأنّه لا يؤمن، وهي إمرأته الخائنة، وإسمها واغلة، وإبنها كنعان ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: وإحمل فيها من آمن بك من غير أهلك.

ثمّ أخبر سبحانه، فقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: إلاّ نفر قليل، وهم ثمانون إنساناً في قول الأكثرين. وقيل: إثنان وسبعون رجلاً وإمرأة، وبنوه الثلاثة ونساؤهم، فهم ثمانية وسبعون نفساً. وحمل معه جسد آدمعليه السلام ـ عن مقاتل ـ. وقيل: عشرة أنفس، ـ عن ابن إسحاق ـ. وقيل: ثمانية أنفس، ـ عن ابن جريج، وقتادة، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: سبعة أنفس، ـ عن الأعمش ـ، وكان فيهم بنوه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وثلاث كنائن[1] لهم. فالعرب، والروم، وفارس، وأصناف العجم، ولد سام. والسودان من الحبش، والزنج، وغيرهم، ولد حام. والترك والصين، والصقالبة، ويأجوج ومأجوج، ولد يافث.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي: وقال نوح لمن آمن معه: إركبوا في السفينة. وفي الكلام حذف، تقديره: فلمّا فار التنّور، ووقف نوح على ما دلّه الله عليه من هلاك الكفّار، قال لأهله وقومه: إركبوا فيها ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَيْهَا وَمُرْسَيْهَا﴾ أي: متبرّكين بإسم الله، أو قائلين وبسم الله وقت إجرائها، ووقت إرسائها أي: إثباتها وحبسها.

وقيل: معناه: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، وقد ذكرنا تفسيره في الحجّة. وقال الضحّاك: كانوا إذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا: بسم الله مجريها، فجرت، وإذا أرادوا أن تقف السفينة قالوا بسم الله مرسيها، فوقفت.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا حكاية عمّا قاله نوح لقومه، ووجه إتّصاله بما قبله، أنّه لمّا ذكرت النجاة بالركوب في السفينة، ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة، لتجتلبا بالطاعة، كما إجتلبت النجاة بركوب السفينة.

---

(١) كنائن: جمع كنّة، وهي إمرأة ابن [من] الرجل.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ معناه: إنّ السفينة كانت تجري بنوح ومن معه على الماء، في أمواج كالجبال، في عظمها وإرتفاعها. ودلّ بتشبيهها بالجبال، على أنّ ذلك لم يكن موجاً واحداً، بل كان كثيراً. وروي عن الحسن أنّ الماء إرتفع فوق كل شيء، وفوق كل جبل، ثلاثين ذراعاً. وقال غيره: خمسة عشر ذراعاً. وقيل: إنّ سفينة نوح سارت لعشر مضين من رجب، فسارت ستّة أشهر حتى طافت الأرض كلّها، لا تستقرّ في موضع حتى أتت الحرم، فطافت بموضع الكعبة أسبوعاً، وكان الله سبحانه رفع البيت إلى السماء، ثمّ سارت بهم حتى إنتهت إلى «الجودي» وهو جبل بأرض الموصل، فإستقرّت عليه اليوم العاشر من المحرّم. وروي أصحابنا: عن أبي عبدالله عليه السلام إنّ نوحاً ركب السفينة في أوّل يوم من رجب، فصام، وأمر من معه أن يصوموا ذلك اليوم، وقال: من صام ذلك اليوم، تباعدت عنه النار مسيرة سنة.

﴿وَنَادَى نُوحٌ إِبْنَهُ﴾ كنعان، وقيل: إنّ إسمه: يام ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: في قطعة من الأرض غير القطعة التي كان نوح فيها حين ناداه. وقيل: معناه: كان في ناحية من دين أبيه أي: قد إعتزل دينه، وكان نوح يظنّ أنّه مسلم، فلذلك دعاه. وقيل: كان في معزل من السفينة.

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ دعا إبنه إلى أن يركب معه في السفينة؛ ليسلم من الغرق. قال الحسن: كان ينافق أباه، فلذلك دعاه. وقال أبو مسلم: دعاه بشرط الإيمان، ومعناه: يا بنيّ آمن بالله، ثمّ إركب معنا، ولا تكن على دين الكافرين. وعلى القول الأوّل يكون معناه: لا تتخلّف مع الكافرين؛ فتغرق معهم.

فأجابه إبنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ أي: سأرجع إلى مأوى من جبل ﴿يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ﴾ أي: يمنعني من آفات الماء.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: لا مانع ولا دافع اليوم من عذاب الله، إلاّ من رحمه الله بإيمانه، فآمن بالله يرحمك الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ أي: فصار ﴿مِنْ الْمُغْرَقِينَ﴾.

وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى[1] وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

اللغة: البلع: إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف. والإقلاع: إذهاب الشيء من أصله، حتى لا يرى له أثر. يقال: أقلعت السماء: إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى شيء منه. وأقلع عن الأمر: إذا تركه رأساً.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه الحال بعد إنتهاء الطوفان، فقال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ أي: قال الله سبحانه للأرض: إنشفي ماءك الذي نبعت بالعيون، وإشربي ماءك حتى لا يبقى على وجهك شيء منه. وهذا إخبار عن ذهاب الماء عن وجه الأرض بأوجز مدّة، فجرى مجرى أن قيل لها: إبلعي، فبلعت.

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أي: وقال تعالى للسماء: يا سماء! أمسكي عن المطر. وهذا إخبار عن إقشاع السحاب، وإنقطاع المطر في أسرع زمان، فكأنّه قال لها: أقلعي فأقلعت.

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: ذهب به عن وجه الأرض إلى باطنه، والمعنى: ونشفت الأرض ماءها. ويقال: إن الأرض إبتلعت جميع مائها، وماء السماء، لقوله: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾. ويقال: لم تبتلع ماء السماء؛ لقوله: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ وإنّ ماءَ السماء صار بحاراً وأنهاراً، وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وقع إهلاك الكفّار على التمام، وفرغ من الأمر. وقيل:

---

(١) ياسماء أقلعي: من إجتماع الهمزتين، وبدّل ثانيتها واواً الحرميان، وأبو عمرو.

وقضي الأمر بنجاة نوح ومن معه.

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: إستقرّت السفينة على الجبل المعروف. قال الزجّاج: هو بناحية آمد، وقال غيره: بقرب جزيرة الموصل[١]. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

سُبْحانَهُ، ثُـمَّ سُـبْحاناً يَـعُودُ لَـهُ وَقَبْلَهُ سَبَّحَ الْجُودِيُّ، والْجُمُدُ[٢]

وقال أبو مسلم: الجودي: إسم لكلّ جبل وأرض صلبة. وفي كتاب النبوّة، مسنداً إلى أبي بصير: عن أبي الحسن عليّ بن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: كان نوح لبث في السفينة ما شاء الله، وكانت مأمورة، فخلّي سبيلها، فأوحى الله إلى الجبال: إنّي واضع سفينة نوح على جبل منكنّ، فتطاولت الجبال، وشمخت، وتواضع الجودي، وهو جبل بالموصل. فضرب جؤجؤ السفينة الجبل، فقال نوح عند ذلك: يا ماريا إتقن، وهو بالعربيّة: ياربّ أصلح. وفي رواية أُخرى: يا رهمان إتقن. وتأويله: ياربّ أحسن. وقيل: أرست السفينة على الجودي شهراً.

﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: قال الله تعالى ذلك، ومعناه: أبعد الله الظالمين من رحمته، لا يرادهم أنفسهم مورد الهلاك. وإنّما إنتصب على المصدر، وفيه معنى الدعاء. ويجوز أن يكون هذا من قول الملائكة، أو من قول نوح والمؤمنين.

وفي هذه الآية من بدائع الفصاحة، وعجائب البلاغة، ما لا يقاربه كلام

---

(١) ويقال: هو آرارات. ومن الناس من يزعم أنّ طوفان نوح لم يعمّ جميع البلاد، بل كان في العراق فقط، حيث كان قوم نوح هناك، كما وقع البلاء على قوم لوط في بلادهم فقط، ووجدوا في اطلال آشور كتابة، فيها ذكر الطوفان العظيم، وإنّما خصّوه بالعراق؛ لإنخفاضها جدّاً، ويستبعدون إرتفاع الماء في الأرض جميعها إلى حدّ يعلوا الجبال المرتفعة، ولاينحدر إلى البحار، ولكن لاإستبعاد في أن يعمّ الطوفان، فيهلك قوماً بالسيل في الجبال، وقوماً بوقوف الماء في الوهاد، كأرض العراق، وتلالها.

(٢) الجمد: جبل بنجد.

البشر، ولا يدانيه، منها: أنّه خرج مخرج الأمر، وإن كانت الأرض والسماء من الجماد؛ ليكون أدلّ على الإقتدار. ومنها: حسن تقابل المعنى، وإئتلاف الألفاظ. ومنها: حسن البيان في تصوير الحال. ومنها: الإيجاز من غير إخلال، إلى غير ذلك ممّا يعلمه من تدبّره، وله معرفة بكلام العرب، ومحاوراتهم.

ويروي أن كفّار قريش، أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البرّ، ولحوم الضأن، وسلاف الخمر، أربعين يوماً؛ لتصفو أذهانهم. فلمّا أخذوا فيما أرادوا، سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين. وتركوا ما أخذوا فيه، وإفترقوا.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ
ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ
أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ
أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا
وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ
ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ
فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

القراءة: قرأ الكسائي: ويعقوب، وسهل: إنّه عَمَلَ غير صالح ـ على الفعل ـ،

ونصب «غير». والباقون: عَمَلٌ ـ إسم مرفوع منوّن ـ، «غير» بالرفع. وقرأ ابن كثير: فَلاَ تَسْأَلَنَّ ـ مشدّدة النون مفتوحة ـ. وقرأ أبو عمرو، ويعقوب، وسهل: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ ـ خفيفة النون مثبتة الياء ـ. وقرأ أهل الكوفة: خفيفة النون، بغير ياء. وقرأ أهل المدينة، غير قالون: فَلاَ تَسْأَلْنِيِّ ـ مشدّدة النون، مثبتة الياء ـ. وقرأ ابن عامر، وقالون: ﴿فَلَا تَسْأَلَنِّ﴾ ـ مشدّدة النون، مكسورة بغير ياء ـ[1].

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ﴾، فنوّن، فالمراد: إنّ سؤالك ما ليس لك به علم، عملٌ غير صالح. ويحتمل أن يكون الضمير في «إنّه» لما دلّ عليه قوله: ﴿إِرْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيكون تقديره: إنّ كونك مع الكافرين، وإنحيازك إليهم، وتركك للركوب معنا، والدخول في جملتنا، عملٌ غير صالح.

ويجوز أن يكون الضمير لإبن نوح، كأنّه جعل عملاً غير صالح، كما يجعل الشيء الشيء؛ لكثرة ذلك منه، كقولهم: الشعر زهير. أو يكون المراد: إنّه ذو عمل غير صالح، فحذف المضاف. ومن قرأ: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فيكون في المعنى، كقراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وهو يجعل الضمير لابن نوح، وتكون القراءتان متّفقتين في المعنى، وإن إختلفتا في اللفظ. ومن ضعّف هذه القراءة، بأنّ العرب لا تقول: هو يعمَل غير حسن، حتى يقولوا: عَمِلَ غيرَ حسن: فالقول فيه أنّهم يقيمون الصفة مقام الموصوف، عند ظهور المعنى، فيقول القائل: قد فعلت صواباً، وقلت حسناً، بمعنى: فعلت فعلاً صواباً، وقلت قولاً حسناً. قال عمرو بن أبي ربيعة:

أَيُّها الْقَائِلُ غَيْرَ الصَّوابِ ... أَخِّرِ النُّصْحَ، وَأَقْلِلْ عِتابي

وقال أيضاً:[2]

---

(١) وإتّفقوا على إسكان ياء «ترحمني أكن». وإختلفوا في «إنّي أعظك، وإنّي أعوذ بك».

(٢) وفي نسخة قال آخر. والبيتان يشبهان أشعار عمر بن ربيعة، يصف رجالاً يعشقون بمنى، ←

وكَـمْ مَـنْ قَـتِيلٍ مَـا يُـبَا ءُ بِـه دَمٌ
وَمِـنْ غَـلِقٍ رَهْـناً إذَا لَـفَّهُ مِـنا
وَمِنْ مَـالِيءٍ عَـيْنَيْهِ مِـنْ شَـيءِ غَـيْرِهِ
إذَا رَاحَ نَحْوَ الْـجَمْرَةِ الْبِـيضُ كَـالدُّمىٰ

أرادوكم من إنسان قتيل، ونظائره كثيرة. ومن قرأ: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّ﴾ ـ بفتح اللام، ولم يكسر النون ـ، عدّي السؤال إلى مفعول واحد في اللفظ والمعنى، على التعدّي إلى مفعول ثان. ومن كسر النون هيهنا، فإنّه يدلّ على تعدية السؤال إلى مفعولين: **أحدهما**: إسم المتكلّم، والآخر إسم الموصول. وحذفت النون المتّصلة بياء المتكلّم لإجتماع النونات، كما حذفت النون من قولهم: إنّي كذلك. وكما حذفت النون من قوله: «يسوءُ الفاليات إذا فليني»[1]. وأمّا إثبات الياء في الوصل، فهو الأصل، وحذفها أخفّ، والكسرة تدلّ عليها.

الإعراب: قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يحتمل قوله به في الآية وجهين:

أحدهما: أن يكون كقوله:

وكان جزائي بالعصا أن أُجلدا

إذا قدمت بالعصا، وكقوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ وإِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ وَأَنا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِين﴾ وزعم أبو الحسن أنّ ذلك إنّما يجوز في حروف الجرّ، والتقدير فيه التعليق بمضمر يفسّره هذا الذي ظهر بعد، وإن كان لا يجوز تسلّطه عليه. ومثل ذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ

← بأوصاف، فمنهم: قتيل لايثقل دمهم على أحد، ولايثار لهم، ومنهم: من يرهن قلبه عند محبوبة، ولايفكّ، ومنهم: من يملأ عينه من معاصم النساء، اذا ذهب إلى رمى الجمرة. والدمى: جمع الدمية، وهي الصنم.

(١) مضى البيت.

﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾، فإنتصب ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ بما دلّ عليه، لا بشرى يومئذ. ولا يجوز لما بعد لا هذه أن يتسلّط على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ وكذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ متعلّق بما دلّ عليه النصح المظهر، والتقدير: إنّي ناصح لكما لمن الناصحين، وكذلك به في قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يتعلّق بما يدلّ عليه قوله علم الظاهر، وإن لم يجز أن يعمل فيه.

والوجه الآخر: أن يكون متعلّقاً بالمستقرّ، وهو العامل فيه، كتعلّق الظرف بالمعاني، كما تقول: ليس لك فيه رضا، فيكون به في الآية بمنزلة فيه، والعلم يراد به العلم المتيقّن الذي يعلم به الشيء على الحقيقة، ليس العلم الذي يعلم به الشيء على ظاهره، كالذي في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ ونحو: ما يعلمه الحاكم بشهادة الشاهدين، وإقرار المقرّ بما يدّعي، ونحو ذلك ممّا يعلم به العلم الظاهر، الذي يسع الحاكم الحكم بالشيء معه. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ تلك: مبتدأ، ومن أنباء الغيب: الخبر. ونوحيها إليك: خبر ثان.

وإن شئت كان في موضع الحال، أي: تلك كائنة من أنباء الغيب موحاة إليك. وإن شئت كان «تلك»: مبتدأ، و«نوحيها»: الخبر. والجارّ من صلة نوحيها، أي: تلك نوحيها إليك من أنباء الغيب. ولا يجوز أن يكون من زيادة على تقدير تلك أنباء الغيب؛ لأنّها لا تزاد في الموجب، ويجوز على قول الأخفش.

المعنى: ثمّ حكي سبحانه تمام قصّة نوح عليه السلام، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ نداء تعظيم، ودعاء ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ معناه: يا مالكي، وخالقي، ورازقي! وعدتني بتنجية أهلي، وإنّ إبني من أهلي، وإنّ وعدك الحقّ لا خلف فيه، فنجّه إن كان ممّن وعدتني بنجاته ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ في قولك، وفعلك.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وقد قيل في معناه: أقوال:

أحدها: أنّه كان إبنه لصلبه، والمعنى: أنّه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك؛ لأنّ الله سبحانه قد إستثنى من أهله الذين وعده أن ينجيهم من أراد إهلاكهم بالغرق، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحّاك، وعكرمة، وإختاره الجبائي ـ.

وثانيها أنّ المراد بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أنّه ليس على دينك، فكأنّ كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله، ـ عن جماعة من المفسّرين ـ. وهذا كما قال النبيّ ﷺ: سلمان منّا أهل البيت، وإنّما أراد على ديننا. وروي عليّ بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشا، عن الرضا عليه السلام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ الله تعالى قال لنوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنّه كان مخالفاً له، وجعل من إتّبعه من أهله. ويؤيّد هذا التأويل أنّ الله سبحانه قال على طريق التعليل: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فبيّن أنّه إنّما خرج عن أحكام أهله؛ لكفره وسوء عمله. وروي عن عكرمة أنّه قال: كان إبنه، ولكنّه كان مخالفاً له في العمل والنيّة، فمن ثمّ قيل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وثالثها: إنّه لم يكن إبنه على الحقيقة، وإنّما ولد على فراشه، فقال عليه السلام: إنّه إبني، على ظاهر الأمر، فأعلمه الله تعالى أنّ الأمر بخلاف الظاهر، ونبّهه على خيانة إمرأته، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. وهذا الوجه بعيد؛ من حيث إنّ فيه منافاة القرآن؛ لأنّه تعالى قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ ولأنّ الأنبياء يجب أن ينزّهوا عن مثل هذه الحال؛ لأنّها تعير وتشين، وقد نزّه الله أنبياءه عمّا دون ذلك؛ توقيراً لهم؛ وتعظيماً عمّا ينفر من القبول منهم. وروي عن ابن عباس أنّه قال: ما زنت إمرأة نبيّ قطّ، وكان الخيانة من إمرأة نوح أنّها كانت تنسبه إلى الجنون، والخيانة من إمراة لوط، أنّها كانت تدلّ على أضيافه.

ورابعها: إنّه كان ابن إمرأته، وكان ربيبة، ويعضده قراءة من قرأ: إِبنَهَ ـ بفتح الهاء ـ، والمعتمد المعوّل عليه في تأويل الآية، القولان الأوّلان ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

﴿صَالِحٍ﴾ قد ذكرنا الوجه في القراءتين، وإختار المرتضى ﷺ في تأويله: إنّ التقدير: أنّ إبنك ذو عمل غير صالح، وإستهشد على ذلك بقول الخنساء:

مٰا أُمُّ سَقْبٍ عَلى بَوٍّ تُطيفُ بِهِ ... قَدْ سَاعَدَتْها عَلَى التَّحنانِ أَظْئَارٌ

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حَتَّى إذٰا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّما هِيَ إقْبالٌ، وَإدْبٰارٌ[1]

أرادت فإنما هي ذات إقبال وإدبار. قال: ومن قال إنّ المعني: إنّ سؤالك إيّاي ما ليس لك به علم، عمل غير صالح، فإنّ من إمتنع من أن يقع على الأنبياء شيء من القبائح، يدفع ذلك. فإذا قيل له: فلم قال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وكيف قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ قال: لا يمتنع أن يكون نهي عن سؤال ما ليس لك به علم، وإن لم يقع منه، وأن يكون تعوذ من ذلك، وإن لم يوقعه، كما نهي الله سبحانه نبيّه عن الشرك في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وإن لم يجز وقوع ذلك منه. وإنّما سأل نوح ﷺ نجاة إبنه بشرط المصلحة، لا على سبيل القطع. فلمّا بيّن الله تعالى أنّ المصلحة في غير نجاته، لم يكن ذلك خارجاً عمّا تضمّنه السؤال.

وقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ أي: أُحذّرك، والوعظ: الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح، على وجه الترغيب، والترهيب ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ معناه: لاتكن منهم. قال الجبائي: يعني: إنّي أعظك لئلاّ تكون من الجاهلين، ولا شكّ أنّ وعظه سبحانه يصرف عن الجهل، وينزّه عن القبيح.

﴿قَالَ﴾ نوح عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾

---

(١) السقب: ولد الناقة. والبوّ: الجلد المملوّ من التبن، وإذا مات ولد الناقة، وملىء جلد الولد من التبن، لتسلّي بها الناقة، لم تتمالك من الحنين عليه. وأراد بالأظئار: النوق الآخر، وخبر ما في بيت بعد البيتين تعني: ليست الناقة التي مات ولدها، أحزن وأشدّ نياحة منّي على أخي. والشعر الثاني في جامع الشواهد، والأوّل مرويّ فيه بلفظ آخر.

أي: أعتصم بك أن أسألك ما لا أعلم أنّه صواب، وأنّك تفعله، ومعنى العياذ بالله: الإعتصام به؛ طلباً للنجاة. ومعناه هيهنا: الخضوع والتذليل لله سبحانه؛ ليوفّقه ولا يكله إلى نفسه. وإنّما حذف «يا» من قوله: «ربّ» وأثبته في قوله: يانوح، لأنّ ذلك نداء تعظيم، وهذا نداء تنبيه. فوجب أن يأتي بحرف التنبيه.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ إنّما قال ذلك على سبيل التخشّع والإستكانة لله تعالى، وإن لم يسبق منه ذنب.

ثمّ حكى الله سبحانه ما أمر به نوحاً، حين إستقرّت السفينة على الجبل، بعد خراب الدنيا بالطوفان، فقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ أي: إنزل من الجبل، أو من السفينة ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي: بسلامة منّا ونجاة. وقيل: بتحيّة وتسليم منّا عليك ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: ونعم دائمة، وخيرات نامية ثابتة، حالاً بعد حال، عليك.

﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني: الأمم الذين كانوا معه في السفينة من المؤمنين. والأُمّة: الجماعة الكثيرة المتّفقة على ملّة واحدة. وقيل: معناه: وعلى أُمم من ذرّيّة من معك. وقيل: يعني بالأُمم: سائر الحيوان الذين كانوا معه؛ لأنّ الله تعالى جعل فيها البركة.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: أنّه يكون من نسلهم أمم سنمتعهم في الدنيا بضروب من النعم، فيكفرون ونهلكهم، ثمّ يمسّهم بعد الهلاك عذاب مؤلم. وإنّما إرتفع «أُمم»؛ لأنّه إستأنف الإخبار عنهم. وروي عن الحسن أنّه قال: هلك المتمتّعون في الدنيا؛ لأنّ الجهل يغلب عليهم والغفلة، فلا يتفكّرون إلاّ في الدنيا، وعمارتها، وملاذّها. ثمّ أشار سبحانه إلى ما تقدّم ذكره، من أخبار قوم نوح فقال: تلك أي: تلك الأنباء ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار ما غاب عنك معرفته. ولو قال: ذلك، كان جائزاً؛ لأنّ المصادر قد يكنّي عنها بالتذكير، كما يكنّي بالتأنيث. يقولون: قدم فلا ففرحت بها أي: بقدمته، وفرحت به أي: بقدومه.

﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: إنَّ هذه الأخبار التي أعلمناكها، لم تكن تعلمها أنت، ولا قومك من العرب يعرفونها من قبل إيحائنا إليك؛ لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب وسير. وقيل: من قبل هذا القرآن، وبيان القصص فيه.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على القيام بأمر الله، وعلى أذى قومك يا محمّد، كما صبر نوح على أَذى قومه. وهذا أحد الوجوه التي لأجلها كرَّر الله قصص الأنبياء عليهم السلام، ليصبر النبيّ صلى الله عليه وآله على ما كان يقاسيه من أمور الكفّار الجهّال، حالاً بعد حال.

﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: إنّ العاقبة المحمودة، وخاتمة الخير، والنصرة للمتّقين، كما كانت لنوح عليه السلام.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا

مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟
فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ (١)

[إحدى عشرة آية كوفيّ، وعشر في الباقين، عدّ الكوفيّ «ممّا تشركون» آية].

(اللغة): الفطر: الشقّ عن أمر الله، كما ينفطر الورق عن الشجر، ومنه: فطر الله الخلق؛ لأنّه بمنزلة ما شقّ فظهر. المدرار: الدار الكثير المتابع على قدر الحاجة إليه، دون الزائد المفسد المضرّ. و«مفعال» للمبالغة، كقولهم: مقطار ومقدام. وإعتراك: من قولهم: عراه يعروه: إذا أصابه. قال الشاعر:

مَن القَوْم يَعْرُوهُ اجْتراءُ ومَأثَم

والفرق بين الإنظار والتأخير: أنّ الإنظار: إمهال لينظر صاحبه في أمره.

---

(١) قرء «اله غيره» بجرّ غيره الكسائي وفتح الياء من «أجري» حفص، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر. وأسكنها الباقون من السبعة. وفتح الياء من «فطرني» نافع، والبزي، عن ابن كثير ومن «إنّي أشهد الله» نافع فقط، وإتّفق السبعة على حذف الياء من «تنظرون» وإثباتها في «فكيدوني». وقرأ «صراط» ـ بالسين ـ قنبل، وبالإشمام خلف عن حمزة. ومضى حكم الهمزتين من «جاء أمرنا».

والتأخير: خلاف التقديم. والناصية: قصاص الشعر، وأصله: الإتّصال، من قولهم: مفازة تناصي مفازة: إذا كانت الأخيرة متّصلة بالأولى. قال: «فيء تُناصيها بلاد فيء». وقال أبو النجم:

إنْ يُمْسِ رَأْسِي أشْمَطَ الْعَناصِي كَأَنَّـــمٰا فَـرَّقَهُ المُـناصِي[1]

أي: يجاذب ليتّصل به في مرّة. العنيد: العاتي الطاغي، عَنَد يَعند عنوداً: إذا تجبَّر. وعَنَد عن الأمر: إذا حاد عنه، فهو عاند، وعنود.

﴿الإعراب﴾: أخاهم: نصب بتقدير: أرسلنا، كأنّه قال: وأرسلنا إلى عاد أخاهم. وهوداً: عطف بيان. وعاد: مصروف؛ لأنّ المراد به الحيّ. وقد يقصد به القبيلة، فلا يصرف. قال:

لَوْ شَهْدَ عادَ في زَمانِ عادِ لَأَبْتَزَّهٰا مَبارِكَ الْجِلادِ[2]

غيرُه: مَن ضمَّ الراء، حمل الصفة على الموضع. ومن جرَّه حمله على اللفظ.

قوله: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قال صاحب كتاب كشف الجامع النحوي: إنْ حرف نفي، لحقت «نقول» فنفت جميع القول إلاّ قولاً واحداً، وهو قولهم: ﴿إِعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾. التقدير: ما نقول قولاً إلاّ هذه المقالة. والفعل يدلّ على المصدر، وعلى الظرف، وعلى الحال. ويجوز أن يذكر الفعل، ثمّ يستثنى من مدلوله ما دلّ عليه من المصادر، والظروف، والأحوال، فنقول: ﴿إِعْتَرَاكَ﴾ مستثنى من المصدر الذي دلَّ عليه ﴿نَقُولُ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ فنصب ﴿مَوْتَتَنَا﴾ على الإستثناء؛ لأنّه مستثنى من

---

(١) أشمط: أبيض. والعناصي: جمع عنصوة، الشعر القليل المتفرّق. المناصاة: أن يأخذ الرجل بناصية غيره، يجرّه إليه.

(٢) يعني: لو شهد الممدوح قوم عاد مع قوّتهم، سلب منهم مواضع الحرب. وسكن الهاء من «شهد»: تخفيفاً.

ضروب الموت الذي دلَّ عليه قوله: ﴿بِمَيِّتِينَ﴾.

وممّا جاء من ذلك في الظروف قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهارِ﴾ فساعة: إستثناء ممّا دلّ عليه ﴿يَلْبَثُوا﴾ من الأوقات.

وممّا جاء من ذلك في الحال قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ﴾ التقدير: ضربت عليهم الذلّة في جميع الأحوال، أينما ثقفوا إلاّ متمسّكين بحبل أي: بعهد من الله، إنتهى كلامه. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوا﴾ تقديره: فإن تتولّوا، فحذف إحدى التائين؛ لدلالة الكلام عليه. وقوله: ﴿بُعْداً لِعَاد﴾ منصوب على المصدر أي: أبعدهم الله بعداً، فوقع بعداً موقع إبعاد، كما وقع نبات موقع إنبات. في قوله ﴿وَٱللهُ أَنبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه قصّة هود، على قصّة نوح، فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ أراد أخاهم في النسب، دون الدين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ وحده، وأطيعوه دون الأصنام.

﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دخول «مِن» يفيد التعميم، نفي أن يكون لهم معبود يستحقّ العبادة غير الله عزّ إسمه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم إلاّ كاذبون في قولكم: إنّ الأصنام آلهة.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْرَاً﴾ أي: لست أطلب منكم على دعائي لكم إلى عبادة الله جزاء.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَني﴾ أي: ليس جزائي إلاّ على الله الذي خلقني ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾ عني: ما أقول لكم فتعلمون أنّ الأمر على ما أقوله.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ قد بيّنّا وجه تقديم الإستغفار على التوبة، في أوّل هذه السورة ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً متواتراً دارّاً. وقيل: إنّهم كانوا قد أجدبوا، فوعدهم هود أنّهم إن

تابوا أخصبت بلادهم، وأمرعت وهادهم[١]، وأثمرت أشجارهم، وزكت ثمارهم بنزول الغيث الذي يعيشون به. وهذا مثل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلَ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ من حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةٍ إِلى قُوَّتِكُمْ﴾ فسّرت القوّة هنا بالمال، والولد، والشدّة، وكل ذلك ممّا يتقوّى به الإنسان. قال عليّ بن عيسى: يريد عزّاً إلى عزّكم، بكثرة عددكم وأموالكم. وقيل: قوّة في إيمانكم إلى قوّة أبدانكم.

﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا﴾ عمّا أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِين﴾ أي: مشركين كافرين.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجّة ومعجزة تبيّن صدقك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: لسنا بتاركي عبادة الأصنام؛ لأجل قولك، وقيل: إنّ ﴿عَنْ﴾ جعلت مكان الباء، فمعناه: بقولك.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدّقين. وإنّما حملهم على دفع البيّنة مع ظهورها أشياء. منها: تقليد الآباء والرؤساء. ومنها: إتمامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها. ومنها: أنّه دخلت عليهم الشبهة في صحّتها. ومنها: إعتقادهم لأصول فاسدة دعتهم إلى جحدها. وإنّما حملهم على عبادة الأوثان أشياء. منها: إعتقادهم أنّ عبادتها تقرّبهم إلى الله زلفى. ومنها: أنّ الشيطان ربما ألقى إليهم أنّ عبادتها تحظيهم في الدنيا. ومنها: أنهم: ربما إعتقدوا مذهب المشبهة، فإتّخذوا الأوثان على صورته عندهم فعبدوها.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ هذا تمام الحكاية عن قوم هود، جواباً لهود عليه السلام والمعنى: لسنا نقول فيك إلاّ أنّه أصابك بعض آلهتنا بسوء، فخبل عقلك لشتمك لها، وسبّك إيّاها. ذهب إليه ابن عباس، ومجاهد.

---

[١] مرع المكان: أخصب. ووهاد جمع وهد: المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة.

﴿قَالَ﴾ أي: قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا﴾ أي: وأُشهدكم أيضاً بعد إشهاد الله ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ﴾ أي: إن كنتم تزعمون أنّ آلهتكم عاقبتني لطعني عليها، فإنّي على بصيرة في البراءة ممّا تشركونه مع الله، من آلهتكم التي تزعمون أنّها أصابتني بسوء، وإنّما أشهدهم على ذلك، وإن لم يكونوا أهل شهادة، من حيث كانوا كفّاراً فسّاقاً، إقامة للحجة عليهم، لا لتقوّم الحجّة بهم، فقال هذا القول إعذاراً وإنذاراً. وقيل: إنّه أراد بقوله: إشهدوا وإعلموا، كما قال: شهد الله أي: علم الله.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي﴾ أي: فإحتالوا وإجتهدوا أنتم وآلهتكم في إنزال مكروه بي، ثمّ لا تمهلوني. قال الزجّاج: وهذا من أعظم آيات الأنبياء، أن يكون الرسول وحده، وأمّته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني فلا يستطيع واحد منه ضرّه. وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية. وقال نبيّنا ﷺ: فإن كان لكم كيد فكيدون. ومثل هذا القول لا يصدر إلاّ عمّن هو واثق بنصر الله، وبأنّه يحفظه عنهم، ويعصمه منهم. ثمّ ذكر هود عليه السلام هذا المعنى.

فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: فوّضت أمري إلى الله سبحانه متمسّكاً بطاعته؛ تاركاً لمعصيته. وهذا هو حقيقة التوكّل على الله سبحانه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: ما من حيوان يدبُّ على وجه الأرض، إلاّ وهو مالك لها، يصرفها كيف يشاء، ويقهرها، وجعل الأخذ بالناصية، كناية عن القهر والقدرة؛ لأنّ من أخذ بناصية غيره، فقد قهره، وأذلّه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنّه سبحانه مع كونه قاهراً على عدل فيما يعامل به عباده، والمعنى: أنّه يعدل ولا يجور. وقيل: معناه: إنّ ربّي في تدبير عباده على طريق مستقيم، لا عوج فيه، ولا اضطراب، فهو يجري على سبيل الصواب، ويفعل ما يقتضيه الحكمة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ هذا حكاية عمّا قاله هود عليه السلام لقومه والمعنى: فإن تتولّوا أنتم. ويجوز أن يكون حكاية عمّا قاله سبحانه لهود عليه السلام، والمعنى: فإن تولّواهم، فقل لهم: ﴿قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: ليس ذلك لتقصير منّي في إبلاغكم، وإنّما هو لسوء إختياركم في إعراضكم عن نصحي، فقد أبلغتكم جميع ما أُوحي إليّ.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أي: ويهلككم ربّي بكفركم، ويستبدل بكم قوماً غيركم، يوحّدونه، ويعبدونه ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ يعني: إذا إستخلف غيركم، فجعلهم بدلاً منكم، لا تقدرون له على ضرٍّ. وقيل: معناه: لا تضرّونه بتولّيكم، وإعراضكم شيئاً، ولا ضرر عليه في إهلاككم؛ لأنّه لم يخلقكم لحاجة منه إليكم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظه من الهلاك إن شاء، وقيل: معناه إنّ ربّي يحفظني عنكم، وعن أذاكم. وقيل: معناه: إنّ ربّي على كل شيء من أعمال عباده حفيظ، حتى يجازيهم عليها.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاك عاد ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ من الهلاك. وقيل: إنّهم كانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي: بما أريناهم من الهدى والبيان، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: برحمة منّا أي: بنعمة منّا، وهي النجاة أي: أنجيناهم برحمة؛ ليعلم أنّه عذاب أُريد به الكفّار، لا إتّفاق وقع. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: كما نجيناهم من عذاب الدنيا، نجيناهم من عذاب الآخرة. والغليظ: الثقيل العظيم. ويحتمل أن يكون هذا صفة للعذاب الذي عذبّ به قوم هود.

ثمّ ذكر سبحانه كفر عاد، فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: وتلك القبيلة ﴿عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: معجزات هود الدالّة على صحّة نبوّته. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ إنّما جمع الرسل، وكان قد بعث إليهم هود عليه السلام، لأنّ من كذّب رسولاً واحداً، فقد كفر بجميع الرسل؛ ولأنّ هوداً كان يدعوهم إلى الإيمان به، وبمن تقدّمه من الرسل،

وبما أُنزل عليهم من الكتب، فكذّبوا بهم جميعاً، فلذلك عصوهم.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وإتّبع السفلة والسقاط الرؤساء. وقيل: إنّ الجبّار: من يقتل ويضرب على غضبه، والعنيد: الكثير العناد، الذي لا يقبل الحقّ. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وإتّبع عاداً بعد إهلاكهم في الدنيا بالإبعاد عن الرحمة، فإنّ الله تعالى أبعدهم من رحمته، وتعبد المؤمنين بالدعاء عليهم باللعن. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: وفي يوم القيامة يبعدون من رحمة الله، كما بعدوا في الدنيا منها، ويلعنون بأن يدخلوا النار، فإنّ اللعنة: الدعاء بالإبعاد، من قولك: لعنه: إذا قال: عليه لعنة الله. وأصله: الإبعاد من الخير.

﴿أَلَا﴾ إبتداء وتنبيه ﴿إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أراد بربّهم، فحذف الباء، كما قالوا: أمرتك الخير أي: بالخير ﴿أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: أبعدهم الله من رحمته، فبعدوا بعداً.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾
قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، غير إسماعيل، والكسائي، والبرجمي، والشموني، عن أبي بكر، عن عاصم: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم هيهنا ﴿وَعَذَابِ يَوْمَئِذٍ﴾ في المعارج. والباقون: بكسر الميم على الإضافة. وقرأ حمزة، وحفص، عن عاصم، ويعقوب: ألا إنّ ثمود ـ غير منوّن في جميع القرآن ـ. وقرأ الباقون: ثموداً ـ بالتنوين ـ هيهنا، وفي الفرقان، والعنكبوت، والنجم؛ لأنّه مكتوب بالألف في هذه المواضع. وأبوبكر، عن عاصم يقرأ: وثمود، في النجم ـ بغير تنوين ـ، وينوّن الباقي. وروي عنه البرجمي، ومحمّد بن غالب، عن الأعشى في والنجم، التنوين أيضاً. وقرأ الكسائي وحده: ألا بعداً لثمودٍ ـ بالجرّ والتنوين ـ. والباقون: لثمودَ ـ بفتح الدال ـ[٢].

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يوم في قوله:

---

(١) ثمودا: مكتوب بالألف في المصاحف، وهذا يدلّ على حفظهم خطّ المصحف، حتى أنّ من لا يقرأ بالتنوين، كحمزة، وحفص أيضاً، حفظوا على الألف كتباً.

(٢) وقرأ «من إله غيرِه»: ـ بجرّ «غيره» ـ الكسائي.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف ـ فتحت أو كسرت ـ في المعنى، إلاّ أنّه إتّسع فيه، فجعل إسماً، كما إتّسع في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فأُضيف المكر إليهما، وإنّما هو فيهما، فكذلك العذاب، والخزي، والفزع، في قوله: ﴿مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أضيف إلى «اليوم». والمعنى على أنّ ذلك كلّه في اليوم، كما أنّ المكر في الليل والنهار. يدلّك على ذلك قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، وقوله: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

وأمّا من كسر الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ فلأنّ «يوماً» إسم معرب، فأُضيف إليه ما أُضيف من العذاب، والخزي، والفزع، فإنجرّ بالإضافة، ولم يفتح اليوم، فتبنيه لإضافته إلى المبنيّ؛ لأنّ المضاف منفصل من المضاف إليه، ولا يلزمه الإضافة. فلمّا لم يلزم الإضافة المضاف، لم يلزم فيه البناء، يدلُّك على ذلك أنّك تقول: ثوب خزّ، ودار زيد، فلا يجوز فيه إلاّ الإعراب، وإن كان الإسمان جعلا بمعنى الحرف، فلم يلزمها البناء، كما يلزم ما لا ينفكّ منه معنى الحرف، نحو: أين وكيف ومتى. فلمّا لم يبن المضاف للإضافة، وإن كان قد عمل عمل الحرف، من حيث كان غير لازم، كذلك لم يبن «يوم» للإضافة إلى «إذ»؛ لأنّ إضافته لم تلزم، كما لم يبن المضاف. وإن كان قد عمل في المضاف إليه بمعنى «اللام»، أو بمعنى «من»، لما لم تلزم الإضافة.

وأمّا من فتح، فقال: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ و﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ففتح مع أنّه في موضع جرّ؛ فلأنّ المضاف يكتسي من المضاف إليه التعريف والتنكير. ومعنى الإستفهام والجزاء في نحو: غلام من تضرب، وغلام من تضرب أضربه. والنفي في نحو قولهم: ما أخذت باب دار أحد. فلمّا كان يكتسي من المضاف إليه هذه الأشياء، إكتسى منه الإعراب والبناء أيضاً، إذا كان المضاف من الأسماء

الشائعة نحو: يوم، وحين، ومثل. ويشبه بهذا الشياء [الشياع] الأسماء الشائعة المبنيّة نحو: أين، وكيف، ولو كان المضاف مخصوصاً نحو: رجل وغلام، لم يكتس منه البناء، كما إكتسى منه الأسماء الشائعة، فممّا جاء من ذلك، قوله:

عَلىٰ حِينَ عاتَبْتُ المَشِيبَ عَلَى الصِّبا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ، وَالشَّيْبُ وازِعُ[1]

ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فمثل في موضع رفع، في قول سيبويه، وقد جرى وصفاً على النكرة، إلاّ أنّه فتح؛ للإضافة إلى ﴿مَا﴾. ومن ذلك قول الشاعر:

وَتَدْاعىٰ مَنْخَراهُ بِدَمٍ مِثْلَ مٰا أَثْمَرَ حُمَّاضُ الْجَبَلِ[2]

لمّا أضاف «مثل» إلى المبنيّ، وكان إسماً شائعاً، بناه ولم يعربه. وذهب أبو عثمان إلى أنّه جعل «مِثلاً» مع «ما» بمنزلة إسم واحد، فبني «مثلاً» على الفتح. ولا دلالة قاطعة على هذا القول في هذا البيت، وإن كان ما ذهب إليه مستقيماً.

فأمّا الكسرة في ﴿إِذٍ﴾ فلإلتقاء الساكنين، وذلك أنّ «إذ» من حكمها أن تضاف إلى الجملة من الإبتداء والخبر، فلمّا إقتطعت عنها الإضافة، نوّنت؛ ليدلّ التنوين على أنّ المضاف إليه قد حذف، فكسرت «الذال»؛ لسكونها، وسكون التنوين. وقال في صرف «ثمود»، وترك صرفه: إنّ هذه الأسماء، التي تجري على القبائل والأحياء، على ضروب: **أحدها**: أن يكون إسماً للحيّ والأب. **والآخر**: أن يكون إسماً للقبيلة. **والثالث**: أن يكون الغالب عليه الأب، والحيّ، والقبيلة. **والرابع**: أن يستوي ذلك في الإسم، فيجري على الوجهين، ولا يكون لأحد الوجهين مزيّة على الآخر في الكثرة. فممّا جاء على أنّه إسم الحيّ، قولهم: ثقيف، وقريش، وكل ما لا يقال فيه بنو فلان. وأمّا ما جاء إسماً للقبيلة، فنحو: تميم، قالوا:

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

(٢) الحمّاض: نبت زهره أحمر، شبّه به الدم.

تميم بنت مر. قال سيبويه: سمعناهم يقولون: قيس إينة غيلان، وتميم صاحبة ذلك. وقالوا: تغلب إبنة وائل. قال:

لَوْ لاٰ فَوَارِسُ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ نَزَلَ الْعَدُوُّ عَلَيْكَ كُلَّ مَكَانِ

وأمّا ما غلب عليه إسم الحيّ أو القبيلة، فقد قالوا: باهلة بن أعصر. وقالوا: يعصر وباهلة إسم إمرأة. قال سيبويه: ولكنّه جعل إسم الحيّ، ومجوس لم يجعل إلاّ إسم القبيلة. وتميم، أكثرهم يجعله إسم القبيلة. ومنهم من يجعله إسم الأب. فأمّا ما إستوى فيه أن يكون إسماً للقبيلة، وأن يكون إسماً للحيّ، فقال سيبويه: هو ثمود وسبأ، فهما مرّة للقبيلتين، ومرّة للحيّين، وكثرتهما سواء، قال: وعاداً وثموداً، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُوداَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ وقال: ﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَاقَةَ﴾ فإذا إستوى في ثمود أن يكون مرّة للقبيلة، ومرّة للحيّ، فلم يكن لحمله على أحد الوجهين مزيّة في الكثرة. فمن صرف في جميع المواضع، كان حسناً، ومن لم يصرف في جميع المواضع كان حسناً. وكذلك إن صرف في موضع، ولم يصرف في موضع آخر، إلاّ أنّه لا ينبغي[1] أن يخرج عمّا قرأت به القرّاء، فإنّ القراءة سنّة متّبعة. ومن ذلك قول الشاعر:

كَسَا اللهُ حَيَّ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ مِنَ اللُّؤْمِ أظْفَاراً بَطِيئاً نُصُولُها[1]

فقال: حيّ، ثمّ قال: إبنة وائل، فجمع بين الحيّ والقبيلة. وأمّا قوله:

أُولئِكَ أَوْلىٰ مِنْ يَهُودَ بِمَدْحَةٍ إذا أنْتَ يَوْماً قُلْتَهَا لَمْ تُؤَنَّبِ

فقد قامت الدلالة على أنّ «يهود» أُستعملت على أنّها للقبيلة، وليس للحيّ

---

(١) قد يطلق «لاينبغي»، ويراد منه عدم الجواز، فإنّ مالايجوز فعله، لايليق بأن يرتكبه الإنسان، كما يقال: لاينبغي، للرجل الذي يريد حفظ ماله، وعرضه، أن يسرق مال أخيه، ويهتك عرضه. والدليل عليه قوله: القرائة سنّة متّبعة، وإجماع المسلمين.

[١] النُّصول: الخروج، ونصلت اللحية: خرجت من الخضاب. يريد القول أنّ اللؤم لايفارق أظفارهم.

في قوله: «أُولئك أولى من يهود»؛ لأنّ «يهود» لو كان للحيّ لصرف. وأنشد أبوالحسن:

فَرَّتْ يَهُودُ، وأسْلَمَتْ جِيرانُها صَمّي لِمَا فَعَلَتْ يَهُودُ صَمَامِ[1]

وكذلك جاء في الحديث: تقسم يهود، ومثل يهود في هذا، مجوس، في قول الشاعر:

كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتعِرُ إسْتِعَاراً[2]

ألاترى أنّه لو كان للحيّ دون القبيلة، لإنصرف.

اللغة: الإنشاء: إيجاد إبتداء، من غير إستعانة بشيء من الأسباب. وأنشأ فلان حديثاً أو شعراً. والإستعمار: جعل القادر يعمّر الأرض كعمارة الدار، ومنه: العمرى في الفقه، وهو أن يقول: أعطيتك هذه الدار عمري، أو عمرك. والمس، واللمس بمعنى. وفرّق عليّ بن عيسى بينهما: بأنّ المسّ قد يكون بين جمادين، واللمس لا يكون إلاّ بين حيّين؛ لما فيه من الإدراك. والجثوم: السقوط على الوجه. وقيل: هو القعود على الركبة. وغني بالمكان: إذا أقام به. والمعنى [المغنى]: المنزل. قال النابغة:

غَنِيَتْ بِذٰلِكَ إِذْهُمُ لَكَ جِيرَةٌ مِنْهَا بِعَطْفِ رِسالَةٍ، وَتَوَدُّدِ

وأصل الغنى: الإكتفاء، ومنه: الغنى بالمال. والغناء بالمدّ: الصوت الذي يكتفى به. والغناء: الإكتفاء بحال الشيء، ومنه: غني بالمكان؛ لإكتفائه بالإقامة فيه.

الإعراب: أرأيتم، لا مفعول له هيهنا؛ لأنّه معلّق، كما يعلّق إذا دخل الجملة

---

(١) في المثل: صمّى صمام أي: زيدي ياداهية تبرء من فعل يهود.

(٢) أوّلها: أحار أريك برقاهبَ وَهنْاً. يعني: ياحارث أريك برقاهب في الليل. والوهن: القطعة من الليل.

لام الإبتداء في مثل قوله: قد رأيت لزيد خير منك، فكذلك الجزاء. وجواب أنّ الأولى الفاء، وجواب أنّ الثانية محذوف، وتقديره: إن عصيته فمن ينصرني، إلاّ أنّه إستغنى بالأوّل، فلم يظهر «ومن ينصرني» صورته صورة الإستفهام، ومعناه: النفي، فكأنّه قال: فلا ناصر لي من الله إن عصيته. وإنّما جاز إلغاء «رأيت» هنا؛ لأنّها دخلت على جملة قائمة بنفسها، من جهة أنّها تفيد لو إنفردت عن غيرها، وهو يتعلّق بمعناها دون تفصيل لفظها، وقوله: فيأخذكم، جواب النهي بالفاء، ولذلك نصبه، وتقديره: لا يقع منكم مسّها بسوء؛ فأن يأخذكم عذاب قريب أي: فأخذ عذاب عاجل إيّاكم. وأيّام: أصله: أيوام، قلبت الواو ياء، وأُدغمت الياء الأولى فيها.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ذلك قصّة صالح: فقال. ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وكان ثمود بوادي القرى، ـ بين المدينة والشام ـ، وكان عاد باليمن، ـ عن الجبائي ف﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ مضي تفسيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: إبتدأ خلقكم من الأض؛ لأنّه خلق آدم من الأض، ومرجع نسبكم إليه.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمّار الأرض، بأن مكّنكم من عمارتها، وأحوجكم إلى السكنى فيها. وقيل: معناه: وأعمرها لكم مدّة أعماركم، ـ من العمري، عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: وأطال فيها أعماركم، عن الضحّاك قال: وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة. وقيل: معناه: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه من المساكن، والزراعات، وغرس الأشجار. وفي هذا دلالة على فساد قول من حرّم المكاسب؛ لأنّه سبحانه إمتنّ على عباده، بأن مكّنهم من عمارة الأرض، ولو كان ذلك محرّماً لم يكن لذلك وجه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: فإستغفروه من الشرك والذنوب، ثمّ دوموا

على التوبة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ برحمته لمن وحّده ﴿مُجِيبٌ﴾ لمن دعاه.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنّا نرجو منك الخير، كما[لما] كنت عليه من الأحوال الجميلة قبل هذا القول، فالآن يئسنا منك، ومن خيرك، بإبداعك ما أبدعت. وقيل: معناه: كنّا نرجوك ونظنّك عوناً لنا على ديننا.

﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إستفهام، معناه: الإنكار، كأنّهم أنكروا أن ينهي الإنسان عن عبادة ما عبده آباؤه.

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الدين ﴿مُرِيبٍ﴾ موجب للريبة والتهمة؛ إذ لم يكن آباؤنا في جهالة، وضلالة.

﴿قَالَ﴾ صالح لهم ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ مرّ بيانه فيما قبل ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: وأعطاني الله منه نعمة، وهي النبوّة ﴿فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي: فمن يمنع عذاب الله، عني إن عصيته مع نعمته عليَّ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدونني بقولكم ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ غير نسبتي إيّاكم إلى الخسارة. والتخسير: مثل التفسيق والتفجير، قال ابن الأعرابي: يريد غير تخسير لكم، لا لي. وقال ابن عباس: ما تزيدونني إلاّ بصيرة في خسارتكم. وقيل: معناه: إن أجبتكم إلى ما تدعونني إليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أشار إلى ناقته التي جعلها الله معجزته؛ لأنّه سبحانه أخرجها لهم من جوف صخرة يشاهدونها على تلك الصفة، وخرجت كما طلبوه وهي حامل، وكانت تشرب يوماً جميع الماء فتنفرد به، ولا ترد الماء معها دابّة، فإذا كان يوم لا ترد فيه، وردت الواردة كلّها الماء، وهذا أعظم آية، ومعجزة. وإنتصب ﴿آيَةً﴾ على الحال من ﴿نَاقَةُ اللهِ﴾ فكأنّه قال: إنتبهوا إليها في هذه الحال، والمعنى: إن شككتم في نبوّتي، فهذه الناقة معجزة لي. وأضافها إلى

الله؛ تشريفاً لها، كما يقال: بيت الله.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ أي: فاتركوها في حال أكلها، فتكون ﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال، ويجوز أن يكون مرفوعاً على الإستئناف، والمعنى: فإنّها تأكل في أرض الله من العشب، والنبات.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ أي: لا تصيبوها ﴿بِسُوءٍ﴾ قتل، أو، جرح، أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل فيهلككم.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها بعضهم، ورضي به البعض، وإنّما عقرها أحمر ثمود، وضربت به العرب المثل في الشؤم.

﴿فَقَالَ﴾ صالح. ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تلذّذوا بما تريدون من المدركات الحسنة، من المناظر والأصوات، وغيرها ممّا يدرك بالحواسّ، في بلادكم، ثلاثة أيّام، ثمّ يحلُّ بكم العذاب بعد ذلك. ويقال للبلاد دار؛ لأنّها تجمع أهلها، كما تجمع الدار أهلها. ومنه: قولهم: ديار ربيعة، وديار مضر. وقيل: في داركم، يعني: دار الدنيا.

وقيل: معنى قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ عيشوا في بلدكم. وعبّر عن الحياة بالتمتّع؛ لأنّ الحيّ يكون متمتّعاً بالحواسّ. قالوا: لمّا عقرت الناقة، صعد فصيلها الجبل، ورغا ثلاث مرّات، فقال صالح: لكلّ رغوة أجل يوم، فإصفرّت ألوانهم أوّل يوم، ثمّ إحمرّت في الغد، ثمّ إسودّت اليوم الثالث، فهو قوله: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: إنّ ما وعدتكم به من العذاب، ونزوله بعد ثلاثة أيّام، وعد صدق لا كذب فيه.

وروي جابر بن عبدالله الأنصاري أنّ رسول الله ﷺ، لمّا نزل الحجر في غزوة تبوك، قام فخطب الناس، وقال: يا أيّها الناس! لا تسألوا نبيّكم الآيات، فهؤلاء قوم صال،ح سألوا نبيّهم أن يبعث لهم الناقة، وكانت ترد من هذا الفج،

فتشرب ماءهم يوم وردوها، ويحلبون من لبنها، مثل الذي كانوا يشربون من مائها يوم غبّها[١]. فعتوا عن أمر ربّهم، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وكان وعداً من الله غير مكذوب، ثمّ جاءتهم الصيحة، فأهلك الله من كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم، إلاّ رجلاً كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى، يقال له: أبو رغال. قيل له: يا رسول الله! من أبو رغال؟ قال: أبو ثقيف.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ مرّ تفسيره في قصة عاد.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قال ابن الأنباري: هذا معطوف على محذوف، تقديره: نجّيناهم من العذاب، ومن خزي يومئذ أي: من الخزي الذي لزمهم ذلك اليوم. والخزي: العيب الذي تظهر فضيحته، ويستحيي من مثله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾ أي: القادر على ما يشاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يمنع عما أراده.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ قيل: إنّ الله سبحانه أمر جبرائيل، فصاح بهم صيحة ماتوا عندها. ويجوز أن يكون الله تعالى خلق تلك الصيحة التي ماتوا عندها.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ أي: منازلهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: ميتين واقعين على وجوههم. ويقال: جاثمين أي: قاعدين على ركبهم. وإنّما قال: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ لأنّ العذاب أخذهم عند الصباح. وقيل: أتتهم الصيحة ليلاً، فأصبحوا على هذه الصفة. والعرب تقول عند الأمر العظيم: واسواه[واسوء] صباحاه!

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأن لم يكونوا في منازلهم قطُّ؛ لانقطاع آثارهم بالهلاك، إلاّ ما بقي من أجسادهم الدالّة على الخزي الذي نزل بهم.

---

[١] «الغب» ـ بالكسر ـ: من أوراد الإبل أنْ ترد الماء يوماً، وتدعه يوماً، ثم تعود.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ قد سبق تفسيره.

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ
قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ
أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ (١)
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

سبع آيات عند البصريين، ثمان عند غيرهم، لم يعدّ البصريّ «في قوم لوط» آية.

---

(١) «من وراء إسحق»: من اجتماع همزتين مكسورتين، سهّل الأولى قالون والبزي، وقرأ ورش بتسهيل الثانية، وأبو عمرو بحذف الأولى، وحقّقها الاكثرون، وقرأ «ألد» ورش، وابن كثير بتسهيل الثانية. وقالون، وأبو عمرو: آالد ـ بتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما ـ. وفي رواية عن هشام: بتحقيقهما وإدخال ألف. والأكثرون: بالتحقيق من غير إدخال ألف. وكتبت «رحْمت» هنا بالتاء في المصاحف كلّها، ووقف عليها عاصم، ونافع، وابن عامر، وحمزة. والباقون من السبعة: بالهاء.

القراءة: قرأ حمزة، والكسائي: قال سِلم ـ بكسر السين وسكون اللام ـ، هنا وفي الذاريات. وقرأ الباقون: ﴿قَالَ سَلام﴾. وقرأ «يعقوبَ» ـ بالنصب ـ إبنُ عامر، وحمزة، وحفص، عن عاصم. وقرأ الباقون: يعقوبُ ـ بالرفع ـ. وفي الشواذّ قراءة الأعمش: وهذا بعلي شيخٌ ـ بالرفع ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: أخبر أبو إسحاق، عن محمّد بن يزيد، قال: السلام أربعة أشياء: منها: مصدر سلمت. والسلام: شجر قال:

إلاّ سلام وحرمل[1]

والسلام: جمع سلامة. والسلام: اسم من أَسماء الله تعالى. وقوله: دار السلام: يحتمل أن يكون مضافة إلى الله؛ تعظيماً لها، ويحتمل أن يكون دار السلامة من العقاب، فمن حصل فيها كان على خلاف من وصف بقوله: ﴿وَيَأْتِيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾.

وأمّا إنتصاب قوله: ﴿سلاماً﴾ فلأنّه لم يحك شيئاً تكلّموا به فيحكي كما يحكي الجمل، ولكن هو معنى ما تكلّمت به الرسل، كما أنّ القائل إذا قال: لا إله إلاّ الله فقلت حقّاً، أو قلت إخلاصاً، أعملت القول في المصدرين؛ لأنّك ذكرت معنى ما قال، ولم تحك نفس الكلام الذي هو جملة تحكي، فكذلك نصب سلاماً في قوله: ﴿قَالُوا سَلاَماً﴾ لما كان معنى ما قيل: ولم يكن نفس المقول بعينه.

فأمّا قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُون قَالُوا سَلاَماً﴾ قال سيبويه: زعم أبو الخطاب، أنّ مثله يريد قولك: سبحان الله الذي تفسيره براءة الله من السوء، وقولُك للرجل: سلاماً، تريد مسلماً منك، لا إبتلي بشيء من أَمرك. فعلى هذا المعنى وجّه ما في الآية. قال: وزعم أنّ قول أُميّة:

---

(١) جزء من بيت، وقد سبق.

سَلامَكَ رَبَّنا في كُلِّ فَجْرٍ بَرِياً مَا يُعنِّتُكَ الذُمُومُ[١]

على قوله: براءتك ربّنا من كل سوء. وأمّا قوله: ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ فسلام: مرفوع؛ لأنّه من جملة الجملة المحكيّة، والتقدير فيه: سلام عليكم، فحذف الخبر، كما حذف من قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ﴾ أَمثل. أو يكون المعنى أمري سلام، وشأني سلام. كما أَنَّ قوله: فصبر جميل، يصلح أَن يكون المحذوف منه المبتدأ، ومثل ذلك قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ على حذف المبتدأ، الذي ﴿سَلامٌ﴾ خبره. وأكثر مّا يستعمل ﴿سلام﴾ بغير ألف ولام، وذلك لأنّه في معنى الدعاء، فهو مثل قولهم: خير بين يديك. ولما كان في معنى المنصوب، أستجيز فيه الإبتداء بالنكرة، فمن ذلك قوله:

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وقال ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وقال ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ﴾ ﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِيْنَ إِصْطَفَى﴾. وقد جاء بالألف واللام. قال سبحانه: ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ وزعم أبو الحسن أنّ في العرب من يقول: سلام علكيم، ومنهم: من يقول: السلام عليكم، فالذين ألحقوا الألف واللام، حملوه على المعهود والذين لم يلحقوه، حملوه على غير المعهود، وزعم أنّ منهم من يقول: سلامُ عليكم، فلا ينوّن، وحمل ذلك على وجهين:

أحدهما: أنّه حذف الزيادة من الكلمة، كما يحذف الأصل من نحو قولك: لم يك، ولا أدر، ويوم يأت.

والآخر: أنّه لمّا كثر إستعمال هذه الكلمة، وفيه الألف واللام، حذفا منه؛

---

(١) أي: أسلمك سلاماً أي: السبك إلى التنزّة ياربّ. وأراد بقوله: مايعنّتك: لايوجب ماتكرهه. وفي نسخة: مايعنّتك، أو ما يعيبك.

لكثرة الإستعمال، كما حذفا من «أللهمّ»، فقالوا:

لاَهُــــمَّ إنَّ عَــــامِرَ الْــفجُورِ قَدْ حَبَسَ الْخَيْلَ عَلى يَـعْمُورِ[1]

وأمّا من قال: سلم، فإنّ «سلماً» يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون بمعنى: سلام، فيكون المعنى أمرنا سلم، أو سلم عليكم، ويكون سلم في الآية بمعنى سلام، كقولهم: حل وحلال، وحرم وحـرام. فـيكون على هذا قراءة من قرأ: سلام، وسلم بمعنى واحد، وإن إختلف اللفظان.

والآخر: أن يكون «سلم» خلاف العدوّ والحرب؛ لأنّهم لمّا كفّوا عن تناول ما قدّمه إليهم، فنكرهم، وأوجس الخيفة منهم، قال: أنا سلم ولست بـحرب، ولا عدوّ، فلا تمتنعوا من تناول طعامي، كما يمتنع من تناول طعام العدوّ.

ومن قرأ: ومن وراء إسحاق يعقوبُ ـ بالرفع ـ. كـان رفـعه بـالإبتداء، أو بالظرف في قول من رفع به. ومن فتح، فقال: ﴿يَعْقُوبَ﴾ اُحتمل ثلاثة أضرب:

أحدها: أن يكون «يـعقوب» فـي مـوضع جـرّ أي: فـبشّرناها بـإسحاق، ويعقوب. قال أبو الحسن. وهذا أقوى؛ لأنّها بشرت بهما. قال: وفي إعمالها ضعف؛ لأنّك فصّلت بين الجارّ والمجرور بالظرف.

والآخر: أن تحمله على موضع الجارّ والمجرور، كقوله: «إذا مٰا تلاقينا مِنْ اليَوْم أَوْ غداً». وكقراءة من قرأ: وحوراً عيناً بعد ﴿يُطَافَ عَلَيْهِمْ﴾ بكذا. ومثله:

وَلَسْنَا بِالْجِبٰالِ وَلاَ الْحَديدا

والثالث: أن يحمل على فعل مضمر، كأنّه قال: فبشّرناها بإسحاق، ووهبنا له يعقوب. فأمّا الأوّل[2]: فقد نصّ سيبويه على قُبح مثله، نحو: مررت بزيد أوّلَ مِن

---

(١) يعمور: الجدى، واحد «اليعامير».

(٢) وهو كون «يعقوب» مجروراً لفظاً، وفتح؛ لأنّه غير منصرف، وهذا قبيح؛ إذ لايجوز العطف على المجرور مع الفصل، فيقال: مررت بزيد وأمس عمروٍ ـ بجرّ «عمرو» ـ.

أمس، وأمس عَمروٍ، وكذلك قال أبو الحسن: لو قلت: مررت بزيد اليوم، وأمس عمروٍ، لم يحسن.

وأمّا الحمل على الموضع[١] على حدّ: مررت بزيد وعمرواً، فالفعل فيه أيضاً قبيح، كما قبح الحمل على الجرّ، وذلك أنّ الفعل يصل بحرف العطف، وحرف العطف هو الذي يشرك في الفعل، وبه يصل الفعل إلى المفعول به، كما يصل بحرف الجرّ. ولو قال: مررت بزيد قائماً، بجعل الحال من المجرور، لم يجز التقديم عند سيبويه؛ لأنّ الجارّ هو الموصل للفعل. فكما قبح التقديم عنده، لضعف الجارّ العامل، كذلك الحرف العاطف مثل الجارّ، في أنّه يشرك في الفعل، كما يوصل الجارّ الفعلَ، وليس نَفْسُ الفعل العاملَ في الموضعين جميعاً.

وإذا كان كذلك قبح الفصل بالظرف في العطف على الموضع، وقبح أيضاً الفصل في الرفع والنصب، كما قبح في الجرّ؛ لأنّ العاطف فيهما مثله في الجارّ، وليس العاملُ في نفس الرافع والناصب. كما أنّ العامل فيما بعد حرف العطف، ليس الجارَّ، إنّما يشركه فيه العاطف. وقد جاء ذلك في الشعر، قال الأعشى:

يَوْماً ترٰاهٰا كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ الخِمْـ ... ـسِ، وَيَوْماً أَديـمَهٰا نَـغَلا[٢]

ففصل بالظرف بين المشترك في النصب، وماأَشركه فيه. فإذا قبح الفصل في الحمل على الموضع، كما قبح الفصل في الحمل على الجارّ، فينبغي أن يحمل قراءة

---

(١) وهذا هو الوجه الثاني، وهو كون «يعقوب» منصوباً؛ بالعطف على المحلّ، قالوا: هذا أيضاً قبيح؛ لإشتراكه مع الوجه الأوّل في مناط قبحه، وهو أنّه لايقال: مررت عمرواً بالنصب، ولابدّ من الباء في التعدية، فإذا قيل: مررت بزيد وعمرواً، فالناصب لعمرو ليس «مررت» فقط؛ إذ المرور فعل لازم، بل الناصب هو بشركة حرفي الجرّ والعطف، فإذا لم يجز في الوجه الأوّل إعمال الجارّ بشركة الفعل، فكذلك لايجوز في الثاني إعماله بشركة الفعل والعاطف معاً مع الفصل.

(٢) الخمس: نوع من برود اليمن. والنغل: الأديم الفاسد.

من قرأ «يعقوب» ـ بالنصب ـ، على فعل آخر مضمر، يدلّ عليه بشرنا، كما تقدّم، ولا يحمل على الوجهين الآخرين.

وأمّا الرفع في قوله: شيخُ، ففيه وجوه:

أحدها: أن يكون «بعلي» خبر المبتدأ، و«شيخ» بدل من «بعلي»، فيكون كأنّه قال: هذا شيخ. **والآخر:** أن يكون «شيخ» خبر مبتدأ محذوف، ويكون «هذا بعلي» كلاما تامّاً يحسن الوقف عليه.

والثالث: أن يكون «بعلي» بدلاً من «هذا»، و«شيخ» هو الخبر، فيكون تقديره: بعلي شيخ.

والرابع: أَنْ يكون «بعلي» و«شيخ» جميعاً خبراً عن «هذا»، كقولك: هذا حلو حامض أي: قد جمع الحلاوة والحموضة، فكذلك هيهنا، تقديره: هذا جمع البعولة والشيخوخة.

قال ابن جنّي: وهنا وجه خامس، لكنّه على قياس مذهب الكسائي، وذلك أنّه يعتقد في خبر المبتدأ أبداً أنّ فيه ضميراً، وإن لم يكن مشتقّاً من الفعل، نحو: زيد أخوك، وهو يريد النسب. فإذا كان كذلك، فقياس مذهبه أن يكون «شيخ» بدلاً من الضمير في «بعلي»؛ لأنّه خبر عن «هذا».

اللغة: العجل: ولد البقرة، والعجول لغة فيه، وجمعه: العجاجيل. وسمّي بذلك؛ لتعجيل أَمره بقرب ميلاده. والحنيذ: المشويّ، وهو المحنوذ. فعيل بمعنى مفعول. يقال: حنذه يحنذه حنذاً. قال العجاج:

وَرَهِباً مِنْ حنْذِهِ أَنْ تَهْرَجا

يعني: الحمر الوحشيّة. قال الزجّاج: الحنيذ المشويّ بالحجارة. وقيل: الحنيذ المشويّ حتى يقطر. والعرب تقول: أَحنذ هذا الفرس أي: إجعل عليه الحبل، حتى يقطر عرقاً. وقيل: الحنيذ: المشويّ فقط. وقيل: هو السميط. ويقال:

نكرته وأنكرته، بمعنى واحد، ونكرته أشدّ مبالغة، وهي لغة هذيل والحجاز. وأنكرته لغة تميم. قال الأعشى: وجمع بين اللغتين:

وَأَنْكَرَتْني وَمٰا كٰانَ الَّذي نَكَرَتْ ... مِنَ الْحَوٰادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ، والصَّلَعا

وقال أبو ذؤيب:

فَنَكَرْنَهُ فَنَفَرْنَ فَامْتَرَسَتْ بِهِ ... هَوْ جٰاءُ هٰادِيَةٌ، وَهٰادٍ جُرْشُعٌ[1]

والإيجاس: الإحساس. وأَوجس وتوجس أي: أحسَّ. قال ذو الرمة:

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكْزاً مُغْفِرٌ نَدُسٌ ... بِنَبْأَةِ الصَّوْتِ مٰا في سَمْعِهِ كَذِبُ[2]

ويقال: أوجس خوفاً أي: أضمر. والبعل: الزوج، وأصله: القائم بالأمر.

يقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون: بعل؛ لأنّه قائم بالأمر في إستغنائه عن تكلّف السقي له. ومنه قيل للربّ والصاحب: بعل.

والعجب: يجري على المصدر، وعلى المتعجّب منه، تقول: هذا أمر عجب، ولا يجوز العجب من أمر الله تعالى؛ لأنّه يجب أن يعلم أنّه قادر على كل شيء من الأجناس، لا يعجزه شيء. وما عرف سببه لا يتعجّب منه. والمجيد: الكريم. يقال مجد الرجل يمجد مجادة: إذا كرم. قال الشاعر:

رَفَعْتَ مَجْدَ تَميمٍ يٰا هِلالُ بِهٰا ... رَفْعَ الطِرٰافِ عَلَى الْعَلْيٰاءِ بِالعَمَدِ[3]

والروع: الإفزاع. يقال: راعه يروعه: إذا أفزعه. قال عنترة:

مٰا رٰاعَني إِلَّا حَمُولَةُ أَهْلِها ... وَسْطَ الدِّيٰارِ تَسُفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ[4]

---

(١) الهوجاء: الناقة القويّة. وجرشع: الجمل. وإمترست: أي: احتكت. يصف حمر الوحش، وأنّهنّ نفرن من الصائد.

(٢) العفر ـ بالضمّ ـ: جدي الجبل. والركز: الصوت الخفيّ. وندس: أي: فطن.

(٣) الطراف: البيت من الأديم. يقول: رفعت مجد تميم، كرفع البيت على العمد.

(٤) يعني: راعني تهيّؤهم للسفر. والحمولة: التي كانت تأكل حب الخمخم، وهو حب يعلف به البعير.

وإرتاع إرتياعاً: إذا خاف. والرُوع ـ بضمّ الراء ـ: النفس. يقال: أُلقي في روعي أي: في نفسي، وسمّيت بذلك؛ لأنّها موضع الروع. والردّ والدفع، واحد، ونقيضه الأخذ. والفرق بين الردّ والدفع: أنّ الدفع: قد يكون إلى جهة القدّام، والخلف، والردّ: لا يكون إلاّ إلى جهة الخلف.

الإعراب: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ﴾ أي: ما أقام حتى جاء بعجل. و﴿أَنْ جَاءَ﴾ في موضع نصب، بوقوع ﴿لَبِثَ﴾ عليه، كأنّه قال: فما أبطأ عن مجيئه بعجل. فلمّا حذف حرف الجرّ، وصل الفعل. وقال الفرّاء: ويحتمل أن يكون موضعه رفعاً، بأن نجعل ﴿أَنْ جَاءَ﴾ فاعل ﴿لَبِثَ﴾ فكأنّك قلت: فما لبث مجيئة بعجل وألف ﴿يَا وَيْلَتي﴾ يحتمل أن يكون ألف ندبة، ويحتمل أن يكون ياء الإضافة، فإنقلبت أَلفاً، ومعناه: الإيذان بورود الأمر العظيم، كما تقول العرب: يا للدواهي أي: تعالى فإنّه من احيانك لحضور ما حضر من أشكالك. ويجوز الوقف عليه بغير «هاء». والإختيار في الكلام أن يوقف عليه بالهاء: يا ويلتاه. قال الزجّاج: أمّا المصحف فلا يخالف، ولا يوقف عليه. فإن إضطرّ واقف إلى أن يقف، وقف عليه بغير «هاء» بالإختيار.

وأمّا الهمزتان في قوله: أألد: ففيه ثلاثة أوجه: إن شئت خفّفت الأولى، وحقّقت الثانية، فقلت: يا ويلتي ألد. وإن شئت حقّقت الأولى، وخفّفت الثانية، وهو الإختيار، فقلت: يا ويلتي أألد. وإن شئت حقّقتهما جميعاً فقلت: أألد.

و«شيخاً»: منصوب على الحال. قال الزجّاج: الحال هيهنا نصبها من لطيف النحو، وذلك أنّك إذا قلت: هذا زيد قائماً، فإن كنت تقصد أن تخبر من لا يعرف زيداً أنّه زيد، لم يجز أن تقول: هذا زيد قائماً؛ لأنّه يكون زيداً ما دام قائماً، فإذا زال عن القيام، فليس بزيد. وإنّما تقول للذي يعرف زيداً: هذا زيد قائماً، فيعمل في الحال التنبيه، والمعنى: انتبه لزيد في حال قيامه، أو أُشير لك إلى زيد في حال

قيامه؛ لأنّ هذا إشارة إلى ما حضر.

وقال غيره: إن شئت جعلت العامل في معنى التنبيه، وإن شئت جعلت العامل فيه معنى الإشارة، وإن شئت أعملت فيه مجموعهما. وكذا ما جرى مجراه تقول: هذا زيد مقبلاً، ولا يجوز مقبلاً هذا زيد؛ لأنّ العامل ليس بفعل محض. فإن قلت: ها مقبلا ذا زيد، وجعلت العامل معنى الإشارة، لم يجز، وإن جعلت العامل معنى التنبيه جاز.

«يجادلنا» في موضع نصب؛ لأنّه حكاية حال قد مضت، وإلاّ فالجيّد أن تقول: لمّا قام قمت، ويضعف أن تقول: لمّا قام أقوم. وعلى هذا فيكون جواب «لمّا» محذوفاً؛ لدلالة الكلام عليه، ويكون تقديره. قلنا: إنّ إبراهيم لحليم، أو ناديناه يا إبراهيم أعرض عن هذا. ويجوز أن يكون تقديره: أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا. ويجوز أن يكون «لمّا» كان شرطاً للماضي، وقع المستقبل فيه في معنى الماضي، كما أنَّ «أَنْ» لمّا كان شرطاً للمستقبل، وقع الماضي فيه في معنى المستقبل.

المعنى: ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم [ولوط] فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني الملائكة، وإنّما دخلت اللام لتأكيد الخبر. ومعنى ﴿قَدْ﴾ هيهنا أنّ السامع لقصص الأنبياء يتوقّع قصّة بعد قصّة، و﴿قَدْ﴾ للتوقّع، فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقّع. وأختلف في عدد الرسل، فقيل: كانوا ثلاثة: جبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: كانوا أربعة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: والرابع: إسمه: كروبيل. وقيل: كانوا تسعة، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: أحد عشر، ـ عن السدّي ـ، وكانوا على صور الغلمان أتوا.

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام ﴿بِالْبُشْرَى﴾ أي: بالبشارة بإسحاق ونبوّته، وأنّه يولد له يعقوب، ـ عن الحسن، والسدّي، والجبائي ـ. وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنّ

هذه البشارة كانت بإسماعيل عليه السلام من هاجر. وقيل: البشارة بهلاك قوم لوط.

﴿قَالُوا سَلاماً﴾ هذه حكاية ما قال رسل الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أي: سلّمنا سلاماً، بمعنى الدعاء له. وقيل: معناه: أصبت سلاماً إذا أعطاك الله سلاماً أي: سلامة، كما يقال: أهلاً ومرحباً، وكان تحيّة من الملائكة لإبراهيم عليه السلام.

ف﴿قال﴾ إبراهيم مجيباً لهم: ﴿سَلام﴾ وقد مرّ تفسيره ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: لم يتوقّف حتى جاءهم على عادته في إكرام الأضياف، وتقديم الطعام إليهم، بعجل مشويّ؛ لأنّه توهّم أنّهم أضياف؛ لكونهم على صورة البشر. وكان إبراهيم يحبّ الضيفان، فجاؤوه على أحسن الوجوه إليه، وصار لذلك من السنة أن يعجل للضيف الطعام. وقيل: إنّ معنى حنيذ: نضيج بالحجارة، المحماة في خد من الأرض، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وقيل: إنّ الحنيذ، ما حفرت له في الأرض ثمّ غممته، وهو فعل أهل البادية، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: حنيذ: مشويّ يقطر ماؤه، ـ عن ابن عطيّة ـ.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني: أيدي الملائكة ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى العجل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمر منهم خوفاً.

وأختلف في سبب الخوف، فقيل: إنّه لمّا رآهم شبّاناً أقوياء، وكان ينزل طرفاً من البلد، وكانوا يمتنعون من تناول طعامه، لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء، وذلك أنّ أهل ذلك الزمان، إذا أكل بعضهم طعام بعض، أمنه صاحب الطعام على نفسه وماله. ولهذا يقال: تحرم فلان بطعامنا أي: أثبت الحرمة بيننا بأكله الطعام. وقيل: إنّه ظنّهم لصوماً يريدون به سوءاً، وقيل: إنّه ظنّ أنّهم ليسوا من البشر، وأنّهم جاؤوا لأمر عظيم. وقيل: علم أنّهم ملائكة، فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب، حتى ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم.

﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب والإهلاك، لا إلى قومك. وقيل: إنّهم

دعوا الله، فأحيا العجل الذي كان ذبحه إبراهيم وشواه، فطفر ورعي، فعلم حينئذ أنّهم رسل الله.

﴿وَإِمْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هاران بن ياحور بن ساروع بن ارعوي بن فالغ، وهي إبنة عمّ إبراهيم.

﴿قَائِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلام الرسل، وكلام إبراهيم، ـ عن وهب ـ. وقيل: إنّها كانت بنت خالته. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل، وإبراهيم عليه السلام جالس معهم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: كانت قائمة تصلّي، وكان إبراهيم عليه السلام جالساً. وفي قراءة ابن مسعود: وامرأته قائمة وهو جالس.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ قيل: هو الضحك المعروف الذي يعتري الإنسان للفرح، وقد يكون للتعجّب. فضحكت، تعجّباً من غفلة قوم لوط، مع قرب نزول العذاب بهم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: تعجّباً من إمتناعهم عن الأكل، وخدمتها إيّاهم بنفسها. ولهذا يقال: وشرّ الشدائد ما يضحك.

وقالت: عجباً لأضيافنا، نخدمهم بأنفسنا؛ تكرمة لهم، وهم لا يتناولون من طعامنا. وقيل: ضحكت؛ لأنها قالت لإبراهيم: أضمم لوطاً ابن أُختك إليك، فإنّي أعلم أنّه سينزل بهؤلاء القوم عذاب. فضحكت سروراً، لمّا أتى الأمر على ما توهّمت، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: تعجّباً وسروراً من البشارة بإسحاق؛ لأنّها كانت قد هرمت، وهي إبنة ثمان وتسعين سنة، أو تسع وتسعين سنة، وكان قد شاخ زوجها، وكان ابن تسع وتسعين، أو مائة سنة. وقيل: مائة وعشرين سنة، ولم يرزق لهما ولد في حال شبابهما. وعلى هذا، فيكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: فبشّرناها بإسحاق ويعقوب، فضحكت بعد البشارة، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي: بإبن يسمّي إسحاق نبيّاً.

﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ يعني: ومن بعد إسحاق يعقوب. وقيل: الوراء

ولد الولد، ـ عن ابن عباس ـ أي: فبشّرناها بنبيّ بين نبيّين، وهو إسحاق: أبوه نبيّ، وإبنه نبيّ. وقيل: إن ضحكت بمعنى: حاضت، ـ عن مجاهد ـ. وروي عن الصادق عليه السلام أيضاً. يقال: ضحكت الأرنب أي: حاضت. والضَحْك ـ بفتح الضاد ـ: الحيض، وفي لغة أبي الحرث بن كعب: ضحكت النخلة. إذا أخرجت الطلع أو البسر. والضحك: الطلع. وأنشد بعضهم في الضحك بمعنى الحيض، وقول الشاعر:

وَضِحْكُ الأَرانِبِ فَوْقَ الصَّفا كَمِثْلِ دمِ الْجَوْفِ يَوْمَ اللِّقا

قال الفرّاء: ولم أسمعه من ثقة. والوجه فيه أن يكون على طريق الكناية. قال الكميت:

فَأَضْحَكَتِ السِّباعَ سُيُوفُ سَعْدٍ لِقَتْلىٰ ما دُفِنَّ، وَلاٰوُدِيناٰ

﴿قَالَتَ﴾ سارة ﴿يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أي: هذا شيء عجيب أن ألد وقد شختُ، من زوج شيخ، ولم تشكّ في قدرة الله تعالى، ولكن إنّما قالت ذلك؛ لكونه خارجاً عن العادة، كما ولى موسى مدبراً حين إنقلبت عصاه حيّة، حتى قيل له: ﴿أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ﴾ وإلاّ فهي كانت عارفة بأنّ الله تعالى يقدر على ذلك. ولم ترد بقولها: ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ الدعاء على نفسها بالويل، ولكنّها كلمة تجري على أفواه النساء، إذا طرأ عليهنّ ما يتعجّبن منه. وقيل: إنّها لم تتعجّب من قدرة الله، ولكنّها أرادت أن تعرف: هل تتحوّل شابّة، أم تلد على تلك الحال؟ وكل ذلك عجيب.

﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ أي: هذا الذي تعرفونه بعلي، وهو شيخ ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي بُشِّرتُ به ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا﴾ أي: قالت الملائكة لها حين تعجّبت من أن تلد بعد الكبر.

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ ومعنى الإستفهام هيهنا التنبيه والتوقيف أي: أتعجبين من أن يفعل الله تعالى ذلك بك وبزوجك؟

﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: ليس هذا موضع تعجّب؛ لأنّ

التعجّب إنّما يكون من الأمر الذي لا يعرف سببه، ونعمة الله تعالى، وكثرة خيراته النامية الباقية عليكم. وهذا يحتمل أن يكون إخباراً عن ثبوت ذلك لهم، وتذكيراً بنعمة الله وبركاته عليهم. ويحتمل أن يكون دعاء لهم بالرّحمة والبركة من الملائكة. فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم يا أهل البيت: كما يقال: أتتعجّب من كذا بارك الله فيك، ويرحمك الله؟ ويعني بأهل البيت: أهل بيت إبراهيم عليه السلام. وإنّما جعلت سارة من أهل بيته؛ لأنّها كانت إبنة عمّه. ولا دلالة في الآية على أنّ زوجة الرجل من أهل بيته، على ما قاله الجبائي[1].

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بقوم، فسلّم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ومغفرته ورضوانه. فقال عليه السلام لهم: لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

﴿إِنَّهُ حَمِيد﴾ أي: محمود على أفعاله. وقيل: الحميد: الذي يحمد عباده على الطاعات ﴿مَجِيد﴾ أي: كريم، وهو المبتدىء بالعطيّة قبل الإستحقاق. وقيل: معناه: واسع القدرة والنعمة، ـ عن أبي مسلم ـ. وروي أنّ سارة قالت لجبرئيل عليه السلام: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً، فلوّاه بين أصابعه، فإهتزّ أخضر، ـ عن السدّي ـ.

---

(١) وذلك لأنّ المجاز المشهور مقدّم على الحقيقة. ألا ترى أنّه لو قيل: لاتأكل من هذه الشجرة، ينصرف الذهن إلى النهي عن ثمرها دون خشبها، وإذا قيل: لاتشرب من هذا النهر، فأخذ الماء منه في إناء وشرب فقد خالف، وإذا قيل للضيف: كل عندنا خبزاً وملحاً، وإكتفى في طعامه بالخبز والملح، ضحك منه وصار مثلاً، وليس ذلك إلاّ لأنّ المجاز المشهور أقدم، وكذلك أهل البيت بمفهومه اللغوي يشتمل من هم فيه، وإن لم يكن بينهم نسب ومعارفة، لكن المشهور في إطلاق الكلمة الأقرباء بالنسب، دون الزوجات والأجانب.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: الخوف والفزع الذي دخله من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد.

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: يجادل رسلنا، ويسئلهم في قوم لوط. وتلك المجادلة، أنّه قال لهم: إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. فما زال ينقص ويقولون: لا، حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا، فإحتجَّ عليهم بلوط، وقال: إنّ فيها لوطاً؟! قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّه جادلهم، وقال: بأيّ شيء إستحقّوا عذاب الإستئصال؟ وهل ذلك واقع لا محالة، أم هو تخويف ليرجعوا إلى الطاعة؟ وبأيِّ شيء يهلكون؟ وكيف ينجي الله المؤمنين؟ ـ عن الجبائي ـ. ولمّا سألهم مستقص، سمّي ذلك السؤال جدالاً؛ لأنّه خرج مخرج الكشف عن شيء غامض ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ﴾ مرَّ معناه في سورة براءة.

﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى في جميع أموره، متوكل عليه. وفي هذا إشارة إلى أنّ تلك المجادلة من إبراهيم عليه السلام لم تكن من باب ما يكره؛ لأنّه مدحه بالحلم، وبأنّ ذلك كان في أمر يتعلّق بالرحمة، ورقّة القلب والرأفة، وذلك لأنّه رأى الخلق الكثير في النار، فتأوّه لهم.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ هو حكاية ما قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام فإنّها نادته بأن قالت: يا إبراهيم أعرض عن هذا القول، وهذا الجدال في قوم لوط، وإنصرف عنه بالذكر، والفكر.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب، فهو نازل بهم لا محالة ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يعني: غير مدفوع عنهم أي: لا يقدر أحد على ردّه عنهم.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ
وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

سبع آيات بلا خلاف، وتمام الآية السادسة عند المدني الأخير قوله: سجّيل، وعند الباقين قوله: منضود.

القراءة: في الشواذّ قراءة سعيد بن جبير، والحسن بخلاف، وعيسى الثقفي، ومحمّد بن مروان: هنّ أطهرَ لكم ـ بالنصب ـ. والقراءة المشهورة: أطهرُ ـ بالرفع ـ. وقراءة شيبة: أوْ آويَ ـ بالنصب ـ. والقراءة العامّة: بالرفع. وقرأ أهل الحجاز: فأسر بأهلك، وأنِ اسرِ ـ موصولة الهمز ـ. والباقون: فَاسر، وأَنْ أسر ـ بقطع الهمزة ـ، حيث كان. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: إلاّ إمرأتك ـ بالرفع ـ.

والباقون: بالنصب.

الحجة: أمّا قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ﴾ فإنّ سيبويه ضعّف هذه القراءة، وقال فيها: إجتبى ابن مروان في لحنه. قال ابن جنّي: وإنّما صحّ ذلك عنده؛ لأنّه ذهب إلى أنّه جعل ﴿هُنَّ﴾ فصلاً، وليست بين أحد الجزأين اللذين هما مبتدأ وخبر، نحو ذلك نحو: ظننت زيداً هو خيراً منك، وكان زيد هو العالم. ويجوز أن يكون ﴿بَنَاتِي هُنَّ﴾ جملة من مبتدأ وخبر، في موضع الخبر لهؤلاء، كقولك زيد أخوك هو. وأن يكون ﴿أَطْهَرُ﴾ حالاً من «هنّ، أو من بناتي»، والعامل فيه: معنى الإشارة، كقولك: هذا زيد هو قائماً. ومن قرأ: أو آويَ ـ بالنصب ـ، فيكون تقديره: لو أنّ لي بكم قوّة، أو أُوياً إلى ركن شديد. ويكون منتصباً بإضمار «أن»، وعليه بيت الكتاب:

فَلَوْلا رِجالٌ مِنْ كِرامٍ أَعِزَّةٍ ... وَآلِ سَبيعٍ، أَوْ أَسُوأَكَ عَلْقَماً[1]

والتقدير: أو أن أسوءك، فكأنّه قال: أو مساءتي إيّاك. ومن قرأ: فأسر بأهلك ـ بإثبات الهمزة في اللفظ، أو بغير الهمزة ـ، فإنّ «سرى وأسرى» معناهما: سار ليلاً.

قال النابغة:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوزاءِ سارِيَةٌ ... تُرْجِي الشِّمالُ عَلَيْهِ جامِدَ الْبَرَدِ[2]

ويروي: سرت. وقال إمرؤ القيس:

سَرَيْتُ بِهِمْ حَتَّى تَكِلَّ مَطِيُّهُم ... وَحَتَّى الجِيادُ ما يُقَدْنَ بِأَرسانِ

وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾. ومن قرأ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾

---

(١) المسائة بالعلقم، كناية عن الشدّة والمصيبة. والعلقم: نبت مرّ.

(٢) الجوزا: نوء يمطر به في إعتقاد العرب، وقد نهي عنه في الشرع. يصف راحلته بالسرعة، ويشبهها بثور وحشيّ أصابه الغيم، والمطر، والبرد.

ـ نصباً ـ فإنّه جعل الكلام قبله مستقلاً بنفسه، فنصب مع النفي، كما ينصب مع الإيجاب.

والوجه الأقيس الرفع على البدل من «أحد»؛ لأنّ معنى ما أتاني أحد إلاّ زيد: ما أتاني إلاّ زيد. فكما إتّفقوا فيما أتاني إلاّ زيد على الرفع، وكان ما أتاني أحد إلاّ زيد، بمنزلته وبمعناه، إختاروا الرفع، مع ذكر أحد. وممّا يقوّي ذلك أنّهم في الكلام، وأكثر الإستعمال يقولون: ما جاءني إلاّ إمرأة، فيذكرون حملاً على المعنى، ولا يكادون يؤنّثون ذلك إلاّ في الشعر، كما في قول الشاعر:

فما بقيت إلاّ الضلوع الجراشع[١]

وقول ذي الرمة:

وما بقيت إلاّ النحيرة والألواح والعصب[٢]

وزعموا أنّ في حرف عبدالله، أو أُبيّ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلاّ إِمْرَأَتَكَ﴾ وليس فيه ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ وهذا يقوّي قول من نصب.

(اللغة): أصل سيء بهم: سويء بهم، من السوء، فأُسكنت الواو، ونقلت كسرتها إلى السين. ويقال: سؤته فسيء، كما يقال: شغلته فشغل، وسررته فسرّ. والفرق بين السوء والقبيح: أَنّ السوء: ما يظهر مكروهه لصاحبه. والقبيح: ما ليس للقادر عليه أن يفعله. ويقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً: إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً. والعصيب: الشديد في الشرّ خاصّة، وأصله من الشدّ. يقال: عصبت الشيء أي: شددته، وعصبت فخذ الناقة لتدرّ. وناقة عصوب، ويوم عصيب

---

[١] قائله: ذو الرمة، وقبله: (طوي النخز والاجراز ما في غروضها) والنخز: الدفع والنخس: والاجراز جمع الجرز: الأرض لانبات فيها. والغروض جمع الغرض: الحزام التي يشد به الرحل: والجراشع جمع الجرشع: المنتفخ. يصف ناقته.

[٢] الألواح: مالاح من السلاح كالسيف والسنان. العَصَب: ضربٌ من برود اليمن، سمّي عصباً لأن غزله يُعصب، أي يُدرج ثم يُصبغ ثم يُحاك.

وعصبصب، كأنّه إلتفّ على الناس بالشرّ، أو يكون إلتف شرّه بعضه ببعض. قال الشاعر:

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُرْضِ بَكْرَ بْنَ وائِلٍ ... يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِراقِ عَصيبُ

وقال عديّ بن زيد:

وَكُنْتُ لِزازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ ... وَقَدْ سَلَكُوكَ في يَوْمٍ عَصيبِ[1]

وقال الراجز:

يَوْمٌ عَصيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَالاْ ... عَصْبَ القَوِيِّ السَّلَمِ الطِوالا

والإهراع: الإسراع في المشي، قال مهلهل:

فَجاؤُا يُهْرِعُونَ، وَهُمْ أُسارىٰ ... تَقُودُهُم عَلىٰ رَغْمِ الأُنُوفِ

وقال صاحب «العين»: الأهراع: السوق الحثيث. قال أبو مسلم: والقرآن بالسوق أشبه. والركن: معتمد البناء بعد الأساس. وركنا الجبل: جانباه. قال الراجز:

يَأْوي إِلىٰ رُكْنٍ مِنَ الأَرْكانِ ... في عَدَدٍ طَيْس، ومَجْدِبانٍ[2]

والشدّة: تجمع يصعب معه التفكّك، وقد تكون الشدّة: تقبّضاً يعسر معه التحلّل. والقطع: القطعة العظيمة تمضي من الليل، كأنّه قطع نصفين. والإلتفات، إفتعال، من اللفت، وهو اللّي. يقال: لفت فلاناً عن رأيه أي: صرفته. وإمرأة لفوت: لها ولد من غير زوجها، وكأنّها تلفت إلى ولدها. ومنه الحديث في صفة النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّه كان إذا إلتفت إلتفت معاً أي: كان لا يلوي عنقه يمنة ويسرة. والسجّيل: فارسيّ معرّب أي: سنك، وكل حجارة وطين. وقال أبو عبيدة: هو الحجارة الشديدة. وأنشد لإبن مقبل:

---

(١) التعريد: الفرار. واللزاز: أراد به الملازم.

(٢) يقال: عدد طيس: أي: كثير.

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ الْبيضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تواصي بِهِ الأبْطَالُ سِجّينا[1]

وسجّين وسجّيل، بمعنى واحد. والعرب تعاقب بين النون واللام، فقلبت النون هيهنا لاماً. وقيل: إنّه مشتقّ من أسجلته أي: أعطيته، فتقديره: إنّها من مثل العطيّة في الإدرار. وقيل: إنّه من السَجْل: وهو الدلو العظيمة، فتقديره: إنّها من مثل السجل في الإرسال. وقيل: إنّه من أسجلته إذ أرسلته، وكأنّها مرسلة عليهم.

وقيل: إنّه من السِجل، وهو الكتاب، فكأنّها سجّلت لهم. والمراد: كتب الله عليهم أن يعذبهم بها. والمنضود: من نضدت الشيء بعضه على بعض.

والمسوّمة: من السيماء، وهي العلامة، ومنه: السائمة: وهي المرسلة في المرعى، وذلك أنّ الإبل السائمة تختلط في المرعى، فيجعل عليها السيماء لتمييزها.

الإعراب: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: في موضع نصب على الحال. ﴿وَمِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾: مبنيّان على الضمّ، فإذا أُضيفا أُعربا. ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾: جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، يدلّ الكلام عليه، وتقديره: لَحُلْتُ بينهم وبينكم. ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ الهاء في ﴿إنّه﴾ ضمير الشأن، والحديث، و﴿مُصِيبُهَا﴾ مبتدأ و﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ موصول وصلة، في موضع الرفع؛ بكونه فاعل ﴿مُصِيبُهَا﴾ وقد سدّ مسدّ خبر المبتدأ. ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾: في موضع نصب؛ بكونه صفة «لحجارة» أي: كائنة من سجّيل. مسوّمة: صفة أُخرى «لحجارة». ويجوز أن يكون نصباً، على الحال من الضمير المستكن في «منضود».

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن إتيان الملائكة لوطاً، بعد خروجهم من عند إبراهيم عليه السلام، وما جرى بينهم وبين قوم لوط، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً﴾ أي:

---

(١) رجلة: جمع راجل. وقال في الصحاح: ضرب سجّين أي: شديد. قال ابن مقبل: ضرباً تواصت به الأبطال سجّيناً.

لمّا جاؤوه في صفة الآدميّين ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم؛ لأنّه خاف عليهم من قومه.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أي: ضاق بمجيئهم ذرعه أي: قلبه؛ لمّا رأى لهم من جمال الصورة، وحسن الشارة، وقد دعوه إلى الضيافة، وقومه كانوا يسارعون إلى أمثالهم بالفاحشة. وقيل: معناه: ضاق بحفظهم من قومه ذرعه، حيث لم يجد سبيلاً إلى حفظهم، وكان قد علم عادة قومه من الميل إلى الذكور، وقد أتوه في صورة الغلمان المرد. وأصله: أنّ الشيء إذا ضاق ذرعه، لم يتّسع له ما إتّسع، فإستعار ضيق الذرع عند تعذّر الإمكان، كما إستعار الإتّساع.

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: هائل، شديد، كثير الشرّ، إلتفّ الشرّ فيه بالشرّ. وإنّما قال ذلك؛ لأنّه لم يعلم أنّهم رسل الله، وخاف عليهم من قومه أن يفضحوهم. وقال الصادق عليه السلام: جاءت الملائكة لوطاً، وهو في زراعة قرب القرية، فسلموا عليه، ورأى هيئة حسنة، عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض، فقال لهم: المنزل. فتقدَّمهم، ومشوا خلفه، فقال في نفسه: أيّ شيء صنعت آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فإلتفت إليهم، فقال: إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله! وكان قد قال الله لجبرائيل: لا تهلكهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرّات، فقال جبرائيل: هذه واحدة.

ثمّ مشى لوط، ثّم إلتفت إليهم فقال: إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله! فقال جبرائيل عليه السلام: هذه إثنتان. ثمّ مشى، فلمّا بلغ باب المدينة، إلتفت إليهم فقال: إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله! فقال جبرائيل: هذه الثالثة. ثمّ دخل ودخلوا معه، حتى دخل منزله، فلمّا رأتهم إمرأته، رأت هيئة حسنة، فصعدت فوق السطح، فصفقت فلم يسمعوا، فدخنت. فلمّا رأوا الدخان، أقبلوا يهرعون، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون في المشي لطلب الفاحشة، ـ عن قتادة ومجاهد والسدّي ـ. وقيل: معناه: يساقون، وليس هناك سائق غيرهم، فكأنّ

بعضهم يسوق بعضاً، ـ عن أبي مسلم ـ. والهاء في ﴿إِلَيْه﴾ كناية عن لوط.

﴿وَمِنْ قَبْل﴾ أي: ومن قبل إتيان الملائكة. وقيل: ومن قبل مجيء قوم لوط إلى ضيفانه. وقيل: من قبل مجيئهم إلى داره، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّه من قبل بعثة لوط إليهم. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون الفواحش مع الذكور.

﴿قَالَ﴾ لوط ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ معناه: انّ لوطا لمّا همُّوا بأضيافه. وجاهروا بذلك، فألقوا جلباب الحياء فيه، عرض عليهم نكاح بناته، وقال: هنَّ أحلّ لكم من الرجال، فدعاهم إلى الحلال. وأختلف في ذلك، فقيل: أراد بناته لصلبه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أراد النساء من أُمّته؛ لأنّهنّ كالبنات له، فإنّ كلّ نبي [بني] أبو أُمّته، وأزواجه أُمّهاتهم، ـ عن مجاهد، وسعيد بن جبير ـ. وأختلف أيضاً في كيفيّة عرضهنّ، فقيل: بالتزويج، وكان يجوز في شرعه تجويز المؤمنة من الكافر، وكذا كان يجوز أيضاً في مبتدأ الإسلام، وقد زوَّج النبيّ ﷺ بنته أبي العاص بن الربيع، قبل أن يسلم، ثمّ نسخ ذلك. وقيل: أراد التزويج بشرط الإيمان، ـ عن الزجّاج ـ، وكانوا يخطبون بناته، فلا يزوّجهنّ منهم لكفرهم. وقيل: إنّهم كان لهم سيّدان مطاعان فيهم، فأراد أن يزوّجهما بنتيه: زعوراء ورتياء.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي: فإتّقوا عقاب الله في مواقعة الذكور ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: لا تلزموني عاراً، ولا تلحقوا بي فضيحة، ولا تخجلوني بالهجوم على أضيافي، فإنّ الضيف إذا نزل به معرة، لحق عارها للمضيف.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد، فيعمل بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم؟ ويجوز أن يكون «رشيد» بمعنى مرشد أي: يرشدكم إلى الحقّ.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ هذا جواب قوم لوط، حين

عرض عليهم بناته، ودعاهم إلى النكاح المباح[١] أي: ما لنا في بناتك من حاجة؛ لأنّ ما لا يكون للإنسان فيه حاجة، فإنّه يرغب عنه، كما يرغب عمّا لا حقّ له فيه. فلذلك قالوا: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾. وقيل: معناه: ما لنا فيهنّ من حقّ؛ لأنّا لا نتزوّجهنّ. وكانوا يقرّون بأنّ من لم يتزوّج بإمرأة، فإنّه لا حقّ له فيها، ـ عن الجبائي، وابن إسحاق ـ. فالقول الأوّل محمول على المعنى، والقول الثاني على ظاهر اللفظ.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: تعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء. فلمّا لم يقبلوا الموعظة، تأسّف لوط على فقد تمكّنه من دفاعهم، بأن ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: منعة، وقدرة، وجماعة، أتقوّى بها عليكم، فأدفعكم عن أضيافي.

﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو أنضمّ إلى عشيرة منيعة تنصرني، وشيعة تمنعني؛ لدفعتكم، ولكن لا يمكنني أن أفعل ذلك. قال الصادق عليه السلام: فقال جبرئيل: لو يعلم أيُّ قوّة له! قال: فكابروه حتى دخلوا البيت، فصاح به جبرئيل، أن يا لوط دعهم يدخلوا. فلمّا دخلوا، أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم، فذهبت أَعينهم، وهو قوله: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنّ الله تعالى لم يبعث نبيّاً بعد لوط، إلاّ في عزٍّ من عشيرته، ومنعة من قومه. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: رحم الله أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد، وهو معونة الله تعالى! ولمّا رأت الملائكة ما لقيه لوط من قومه.

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا لهلاكهم، فلا تغتمّ ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي: لا ينالونك بسوء أبداً.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سر بأهلك ليلاً. وقال السدّي: لم يؤمن بلوط إلاّ إبنتاه.

﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في ظلمة الليل، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: بعد طائفة

---

(١) وربما يسئل، ويقال: كيف عرض بناته على عدد كثير من قومه بالنكاح؟ والجواب: إنّ المهاجمين كانوا مثل بناته في العداد أو أقلّ.

من الليل، ـ عن قتادة ـ. وقيل: في نصف من الليل، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ قيل في معناه وجوه:

أحدها: لا ينظر أحد منكم ورائه، ـ عن مجاهد ـ كأنّهم تعبدوا بذلك؛ للنجاة بالطاعة في هذه العبادة.

والثاني: لا يلتفت أحد منكم إلى ماله، ولا متاعه بالمدينة، وليس معنى يلتفت من الرؤية، ـ عن الجبائي ـ. كأنّه أراد في أنّ النظر إليهم عبرة، فلم ينهوا عنها. والثالث: إنّ معناه: ولا يتخلّف منكم أحد، ـ عن ابن عباس ـ. والرابع: إنّه أمرهم أن لا يلتفتوا، إذا سمعوا الوجبة والهدة.

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ وقيل: إنّها إلتفت حين سمعت الوجبة، فقالت: يا قوماه! فأصابها حجر فقتلها. وقيل: إلاّ إمرأتك معناه: لا تسر بها.

﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: يصيبها من العذاب ما أصابهم، أمروه أن يخلفها في المدينة.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لمّا أخبر الملائكة لوطاً، بأنّهم يهلكون قوم لوط، قال لوط لهم: أهلكوهم الساعة لضيق صدورهم بهم، وشدّة غيظه عليهم، فقالوا: إنّ موعد إهلاكهم الصبح. لم يجعل الصبح ظرفاً، وجعله خبر ﴿إنّ﴾؛ لأنّ الموعد هو الصبح. وإنّما قالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تسلية له. وقيل: إنّه إنّما قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا ذلك. وفي هذا دلالة على أنّ الله سبحانه، إنّما يهلك من يهلكه عند إنقضاء مدّته، وإن ضاق صدر الغير به. ويجوز أن يكون قد جعل الصبح ميقات إهلاكهم؛ لأن النفوس فيه أودع، والناس فيه أجمع.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فيه أقوال: أحدها: جاء أمرنا الملائكة بإهلاك قوم لوط. والثاني: جاء العذاب، كأنّه قيل: كن على التعظيم على طريق المجاز. كما قال الشاعر:

فَقالت لَهُ الْعَيْنانِ: سَمْعاً وَطاعةً وَحُـدِّرَتا كَـالدُّرِ لَـمَّا يُـثَقَّبِ

وعلى هذا فالأمر هو نفس العذاب. والثالث: جاء أَمرنا بالعذاب.

﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبنا القرية أسفلها أعلاها[1]، فإنّ الله تعالى أمر جبرئيل عليه السلام فأدخل جناحه تحت الأرض، فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، ثمّ قلبها، ثمّ خسف بهم الأرض، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة. فعلى هذا يكون معنى ﴿جَعَلْنَا﴾ جعل بأمرنا، وإنّما أضافه إلى نفسه لأنّه أمره به.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ أي: وأمطرنا على القرية أي: على الغائبين منها حجارة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: أُمطرت الحجارة على تلك القرية حين رفعها جبرائيل. وقيل: إنّما أُمطرت عليهم الحجارة بعد أن قلبت قريتهم؛ تغليظاً للعقوبة. وقيل: كانت أربع مدائن، وهي المؤتفكات: سدوم، وعاموراء، ودوما، وصبوايم. واعظمها سدوم. وكان لوط يسكنها. قال أبو عبيدة: يقال: مطر، في الرحمة، وأمطر، في العذاب.

﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: سنگ گل، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير ـ. بيّن بذلك صلابتها، ومباينتها للبرد، وأنّها ليست من جنس ما جرت به عادتهم في سقوط البرد من الغيوم. وقيل: إنّ السجّين: الطين، ـ عن قتادة، وعكرمة ـ. ويؤيّده قوله: ﴿لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِيْنٍ﴾.

وروي عن عكرمة أيضاً: أنّه بحر معلّق في الهواء، بين الأرض والسماء، منه أُنزلت الحجارة. وقال الضحّاك: هو الآجر. وقال الفرّاء: هو طين قد طبخ، حتى

---

(١) ويمكن أن يكون عبارة عن الخراب.

صار بمنزلة الأَرحاء، وقال: كان أصل الحجارة طيناً، فشدّت، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ السجّيل سماء الدنيا، ـ عن ابن زيد ـ، فكانت تلك الحجارة منزلة من السماء الدنيا.

﴿مَنْضُودٍ﴾ هو من صفة سجّيل أي: نضد بعضها على بعض، حتى صار حجراً، ـ عن الربيع ـ. وقيل: مصفوف في تتابع: أي كان بعضها في جنب بعض، ـ عن قتادة ـ. وقيل: يتبع بعضها بعضاً، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿مُسَوَّمَةً﴾ هي من صفة الحجارة أي: معلمة، جعل فيها علامات تدلّ على أنّها معدّة للعذاب. وقيل: مطوّقة بها نضج من حمرة [حمزة]، ـ عن قتادة وعكرمة ـ. وقيل: كان مكتوباً على كل حجرة منها إسم صاحبها، ـ عن الربيع ـ. وقيل: عليها سيماء لا تشاكل حجارة الأرض، ـ عن ابن جريج ـ. وقيل: مختومة، ـ عن الحسن، والسدّي ـ. وقيل: مشهورة.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في علم ربّك. وقيل: في خزائن ربّك التي لا يملكها غيره، ولا يتصرّف فيها أحد إلاّ بأمره.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما تلك الحجارة من الظالمين من أُمّتك يا محمّد ببعيد، أراد بذلك إرهاب قريش. وقال قتادة: ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فإتّقوا الله، وكونوا منه على حذر. وقيل: يعني بذلك قوم لوط، يريد أنّها لم تكن تخطئهم. وذكر أنّ حجراً بقي معلّقاً بين السماء والأرض أربعين يوماً، يتوقّع به رجلاً من قوم لوط، كان في الحرم، حتى خرج منه فأصابه. قال قتادة: وكانوا أربعة آلاف ألف.

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم
بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ

ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: أَصلاتك ـ بغير واو على التوحيد ـ. والباقون: أَصلواتك ـ بالواو على الجمع ـ. وفي الشواذّ قراءة السلمي: بعُدت ثمود ـ بضمّ العين ـ.

الحجة: أمّا «بُعْد» فيكون في الخير والشرّ، ومصدره: البُعد. وبعد: في الشرّ خاصّة، ومصدره: البَعَدُ. ومنه: أبعده الله، فإنّه منقول من بعد؛ لأنّه دعاء عليه.

وقراءة السلمي متّفقة الفعل مع مصدره، وإنما السؤال عن قراءة الجماعة: ﴿أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وطريق ذلك أن يكون البعد بمعنى اللعنة، فيكون «أبعده الله» بمعنى: لعنه الله. ومنه: قوله:

---

(١) فتح الياء من «إنّي أراكم» نافع، وابن كثير برواية البزي، وأبو عمرو، وكذلك من «إنّي أخاف». وإتّفقوا على كتابة «بقيت الله» بالتاء، ووقف على التاء أيضاً حمزة، وعاصم، وابن عامر، ونافع من السبعة. والباقون منهم بالهاء. وكتبوا «نشؤا انك» بشين، ثمّ واو، ثمّ ألف، وحفظوا على الرسم؛ حفظاً لخطّ القرآن عن التغيير. ووقف حمزة عليه كوقفه على «انُبؤا» في سورة الأنعام. وإختلفوا في فتح ياء توفيقي وشقاقي، وأرهطي أعز. وأظهر ذال «إتّخذتموه» حفص، وابن كثير، وقرأ أبو بكر: مكاناتكم ـ بالجمع ـ.

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطا، وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعينِ[1]

أي: المبعد. فالإبعاد للشيء نقص له. فقد إلتقى معنى «بعُد» مع معنى: «بَعدَ» هنا.

اللغة: الوزن: تعديل الشيء بغيره في الخفّة والثقل بآلة التعديل. وإذا قيل: شعر موزون، فمعناه: معدل بالعروض. والتوفيق من الصواب، إلاّ أنّه إختصَّ بهذا الإسم ما إتّفق وقوع الصواب عنده، وليس ذلك جنساً بعينه، وإنما هو بحسب ما يعلم الله تعالى، وإنّما لم يكن الموفق للطاعة إلاّ الله تعالى؛ لأنّ أحداً لا يعلم ما يتّفق عنده الطاعة، من غير تعليم سواه سبحانه. والشقاق، والمشاقّة: المباعدة بالعداوة إلى جانب المباينة وشقّها.

والفقه: فهم الكلام على ما تضمّنه من المعنى، وقد صار علماً لضرب من علوم الدين، وهو علم بمدلول الدلائل السمعيّة. وأُصول الدين: علم بمدلول الدلائل العقليّة. والرهط: عشيرة الرجل وقومه، وأصله: الشدّ. والترهيط: شدّة الأُكُل. ومنه: الراهطاء: جحر اليربوع لشدّته، وتوسيعه؛ لينجي فيه ولده. والرجم: الرمي بالحجارة. والأعزّ: الأقوى، الأمنع. والأعزّ: نقيض الأذلّ. والظهري: جعل الشيء وراء الظهر حتى ينساه، ويقال لكل من لا يعبأ بأمر: قد جعل فلان هذا الأمر بظهر. قال:

تَميمَ بْنَ قَيْسٍ لاٰ تَكُونَنَّ حاجَتي بِظَهْرٍ فَلاٰ يَعْيا عَلَيَّ جَوابُها

الإعراب: أو أن نفعل: موضع «أن» نصب، على معنى: أو تأمرك أن نترك، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، فهو معطوف على ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ والتقدير: أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة آبائنا، أو فعل ما نشاء في أموالنا. ولا يجوز أن

---

(١) الرجل اللعين: ما يصنع في صورة الرجل، على الزروع؛ ليطرد الطيور وغيرها عن الزرع. والذعر: الدفع.

يكون قوله: ﴿أَنْ نَفْعَلَ﴾ معطوفاً على قوله: أن نترك؛ لأنّ المعنى يصير فاسداً. و«أو» هنا بمنزلتها في قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين. وقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ ولم يقل: به.

وموضع ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ له وجهان من الاعراب: أحدهما: أن يكون معلّقاً بقوله: تعلمون، فيكون إستفهاماً، وتقديره: فسوف تعلمون من المخزي، ومن الكاذب. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ على هذا، بمعنى: الذي هو كاذب، ويكون معطوفاً على الهاء من ﴿يخزيه﴾ أي: ويخزي الذي هو كاذب. والثاني: أن يكون «من» في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيه﴾ بمعنى «الذي»، ويكون ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطفاً عليه، وأدخلوا ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾؛ لأنّهم لا يقولون: من قائم ولا من قاعد، وإنّما يقولون: من قام ومن يقوم، ومن القائم ومن القاعد. وقد ورد ذلك في الشعر. قال الشاعر:

مَنْ شَارِبٌ مُرْبِحٌ بِالْكَأْسِ نَادَمَنِي ... لاٰ بِالحَصُورِ، وَلاٰ فِيها بِسَوَّارِ[1]

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون «كأن» مخفّفة من الثقيلة أن يضمر فيها، كما يضمر في «أنْ» من قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾. ويجوز أن يكون «أن» التي تنصب الفعل، ويكون مع الفعل بمعنى المصدر.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه قصّة شعيب، على ما تقدّمها من قصص الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ فحذف «أهل»، وأقام «مدين» مقامه. ومدين: إسم القبيلة، أو المدينة التي كانوا فيها، فلذلك لم ينصرف، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: مدين ابن إبراهيم نسبوا إليه.

---

(١) أربح على سلعته أرباحاً: أعطاه ربحاً على متاعه، يريد لايماكس في شراء الخمر، وجاء هذا البيت في موضع آخر، وفي كلمة «مربح» إختلاف في النسخ. والحصور: الممتنع من الشرب لبخله. والسوار: المعربد.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قد سبق تفسيره ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوا حقوق الناس، بالتطفيف عند الكيل والوزن.

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: برخص السعر والخصب، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. والمعنى: إنّه حذَّرهم الغلاء؛ وهو زيادة السعر، وزوال النعمة، وحلول النقمة إن لم يتوبوا. وقيل: أراد بالخير: المال، وزينة الدنيا، ـ عن قتادة، وابن زيد، والضحّاك ـ. والمعنى: إنّي أراكم في كثرة الأموال، وسعة الأرزاق، فلا حاجة بكم إلى نقصان الكيل والوزن.

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، بمعنى أنّه يحيط عذابه بجميع الكفّار، ولا يفلت منه أحد منهم، وأراد يوم القيامة، ـ عن الجبائي ـ. وهو من صفة العذاب على الحقيقة؛ لأنّ اليوم محيط بعذابه، بدلاً من إحاطته بنعمته، وذلك أظهر في الوصف، وأهول في النفس.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أوفوا حقوق الناس في المكيلات والموزونات، بالمكيال، والميزان، بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: أموالهم في معاملاتهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا بالفساد، ولا تضربوا في الأرض.

﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ البقية بمعنى الباقي أي: ما أبقى الله تعالى لكم من الحلال، بعد إتمام الكيل والوزن، خير من البخس والتطفيف. وشرط الإيمان في كونه خيراً لهم؛ لأنّهم إن كانوا مؤمنين بالله عرفوا صحّة هذا القول، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إبقاء الله النعيم عليكم، خير لكم ممّا يحصل من النفع بالتطفيف، ـ عن ابن جبير ـ. وقيل: معناه: طاعة الله خير لكم من جميع الدنيا؛ لأنّها يبقى ثوابها أبداً، والدنيا تفني، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. ويؤيّده قوله:

﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ الآية. وقيل: بقيّة الله رزق الله، ـ عن الثوري ـ.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: وما أنا بحافظ نعم الله تعالى عليكم إن يزيلها عنكم، وإنّما يحفظها الله عليكم، فاطلبوا بقاء نعمه بطاعته. وقيل: معناه: وما أنا بحافظ لأعمالكم، وإنّما يحفظها الله فيجازيكم عليها. وقيل: معناه: وما أنا بحافظ عليكم كيلكم ووزنكم، حتى توفّوا الناس حقوقهم، ولا تظلموهم، وإنّما عليَّ أن أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إنّما قالوا ذلك؛ لأنّ شعيباً عليه السلام كان كثير الصلاة، وكان يقول إذا صلّى: إنّ الصلاة رادعة عن الشرّ، ناهية عن الفحشاء والمنكر، فقالوا: أصلاتك التي تزعم أنّها تأمر بالخير، وتنهي عن الشرّ، أمرتك بهذا، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: أدينك يأمرك بترك دين السلف، عن الحسن، وعطا، وأبي مسلم، قالوا: كنّي عن الدين بالصلاة؛ لأنّها من أجلّ أُمور الدين، وإنّما قالوا ذلك على وجه الإستهزاء.

﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ معناه: أَصلاتك تأمرك بترك عبادة ما يعبد آباؤنا، أو بترك فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطفيف؟

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قيل: إنّهم قالوا ذلك على وجه الهزؤ والتهكّم، وأرادوا به ضدّ ذلك أي: السفيه الغاوي، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم قالوا ذلك على التحقيق أي: إنّك أنت الحليم في قومك، فلا يليق بك أن تخالفهم. والحليم: الذي لا يعاجل بالعقوبة مستحقّها. والرشيد: المرشد.

﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ مرَّ تفسيره ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ قيل: إنّ الرزق الحسن هيهنا: النبوّة. وقيل: معناه: هداني لدينه، ووسَّع عليَّ رزقه، وكان كثير المال، ـ عن الحسن ـ. وقيل: كل نعمة

من الله سبحانه، فهو رزق حسن. وفي الكلام حذف أي: أفأعدل مع ذلك عمّا أنا عليه من عبادته، وإنّما حذف، لدلالة ما أبقاه على ما ألقاه.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لست أنهاكم عن شيء، وأدخل فيه، وإنّما أختار لكم ما أختاره لنفسي. ومعنى ما أُخالفكم إليه أي: ما أقصده بخلافكم إلى إرتكابه، ـ عن الزجّاج ـ. وهذا في معنى قول الشاعر[١]:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ، وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عظِيمٌ

وقيل: معناه: وما أُريد إجترار منفعة إلى نفسي بما أنهاكم عنه أي: لا آمركم بترك التطفيف في الكيل والوزن؛ لتكون منفعة ما يحصل بالتطفيف لي.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ أي: لست أُريد بما آمركم به، وأنهاكم عنه، إلاّ إصلاح أُموركم في دينكم، ودنياكم ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما قدرت عليه، وتمكّنت منه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ معناه: وليس توفيقي في إمتثال ما آمركم به، والإنتهاء عمّا أنهاكم عنه، إلاّ بالله، فلا يوفّق غيره أي: وليس ما أفعله بحولي وقوّتي، بل بمعونة الله، ولطفه، وتيسيره.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والتوكّل على الله: الرضا بتدبيره، مع تفويض الأمور إليه، والتمسّك بطاعته ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: وإليه أرجع في المعاد، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إليه أرجع بعملي ونيّتي، ـ عن الحسن ـ. ومعناه: أنّي أعمل أعمالي كلّها؛ لوجه الله.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: يكسبنّكم خلافي، ومعاداتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ عذاب العاجلة، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: لا تحملنّكم عداوتي على مخالفة ربّكم، فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب من قبلكم، ـ عن الحسن ـ.

---

[١] قائله: أبو الأسود الدؤلي.

وكان سبب هذه العداوة دعاؤه لهم إلى مخالفة الآباء والأجداد في عبادة الأوثان، وما يثقل عليهم من الإيفاء في الكيل والميزان.

﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الهلاك بالغرق، ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريح العقيم ﴿أَوْ قَوْمِ صَالِحٍ﴾ بالرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ أي: هم قريب منكم في الزمان الذي بينه وبينكم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إنّ دارهم قريبة من داركم، فيجب أن تتّعظوا بهم.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أطلبوا المغفرة من الله، ثمّ توصلوا إليها بالتوبة. وقيل: معناه: استغفروا للماضي، وأعزموا في المستقبل. وقيل: إستغفروا ثمّ دوموا على التوبة. وقيل: إستغفروا في العلانية، ثمّ أضمروا الندامة في القلب عن الماضي.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بعباده، فيقبل توبتهم، ويعفو عن معاصيهم ﴿وَدُودٌ﴾ أي: محبّ لهم، ومعناه: مريد لمنافعهم. وقيل: معناه: متودّد إلى عباده بكثرة إنعامه عليهم. وقيل: ودود بمعنى الواد أي: يودُّهم إذا أطاعوه. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: كان شعيب خطيب الأنبياء.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال قوم شعيب له، حين سمعوا منه الوعظ والتخويف: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم عنك معنى كثير من كلامك. وقيل: معناه: لا نقبل كثيراً منه، ولا نعمل به، وهذا كقولك إذا أمرك انسان بشيء لا تريد أن تفعله: لا أعلم ما تقول، وأنت تعلم ذلك أي: لا أفعله. وإنّما قالوا ذلك بعد ما ألزمهم الحجّة.

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ أي: ضعيف البدن، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: ضعيف البصر، ـ عن سفيان ـ. وقيل: أعمى. وكان شعيب أعمى، ـ عن قتادة، وسعيد بن جبير ـ. قال الزجّاج، وحِمْيَر: تسمي المكفوف ضعيفاً. وهذا كما قيل ضرير أي:

قد ضرَّ بذهاب بصره، وكذلك قد ضعف بذهاب بصره، وكفّ عن التصرّف، وهذا القول ليس بسديد؛ لأنّ قوله: ﴿فِينَا﴾ يردُّه، ألاترى أنّه لو قيل: إنّا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأنّ الأعمى قد يكون أعمي فيهم، وفي غيرهم. وقيل: ضعيفاً أي: مهيناً، ـ عن الحسن ـ.

وأختلف في أنّ النبيّ ﷺ هل يجوز أن يكون أعمي، فقيل: لا يجوز؛ لأنّ ذلك ينفر. وقيل: يجوز أن لا يكون فيه تنفير، ويكون بمنزلة سائر العلل والأمراض.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: لولا رحمة عشيرتك وقومك؛ لقتلناك بالحجارة. وقيل: معناه: لشتمناك وسببناك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لم ندع قتلك لعزّتك علينا، ولكن لأجل قومك. قال الحسن: وكان شعيب في عزّ من قومه، وكان من أشرافهم، وما بعث نبيّ بعد لوط إلاّ في عزٍّ من قومه.

﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ﴾ أي: أعشيرتي وقومي أَعظم حرمة عندكم من الله، فتتركون أذاي لأَجل عشيرتي، ولا تتركونه لله الذي بعثني إليكم.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ أي: إتّخذتم الله وراء ظهوركم، يعني: نسيتموه. فالهاء عائدة إلى الله، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: الهاء عائدة إلى ما جاء به شعيب، ـ عن مجاهد ـ. والمعنى: ونبذتم ما أُرسلت به إليكم وراء ظهوركم. وقيل: الهاء عائدة إلى أمر الله، ـ عن الزجّاج ـ، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، وتركتموه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: محصٍ لأعمالكم، لا يفوته شيء منها. وقيل: معناه: خبير بأعمالكم فيجازيكم بها، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: إعملوا على حالتكم هذه. والمكانة:

الحال التي يتمكّن بها صاحبها من عمل. وهذا تهديد في صورة الأمر، وتقديره. كأنّكم إنّما أُمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر، والطغيان. وفي هذا نهاية الخزي والهوان. وقيل: معناه: اعملوا على ما يمكنكم أي: إعملوا أنتم على ما تقولون، وأَعمل أنا على ما أقول. وقيل: معناه: إعملوا على ما أنتم عليه من دينكم ونحوه قوله: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وفي هذا دلالة على أنّه آيس من قومه.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما أمرني ربّي. وقيل: إنّي عامل على ما أنا عليه من الإنذار ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أينا المخطىء الجاني على نفسه. وقيل: معناه: سوف يتبيّن لكم، وتعلمون في عاقبة الأمر.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه ويفضحه، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ ويظهر الكاذب من الصادق، وتقديره: ومن هو كاذب يخزى بعذاب الله فحذف.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: إنتظروا ما وعدكم ربّكم من العذاب، إنّي معكم منتظر حلول العذاب بكم. وقيل: معناه: إنتظروا العذاب واللعنة، وأنا أنتظر الرحمة والثواب والنصرة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إنتظروا مواعيد الشيطان، وأنا أنتظر مواعيد الرحمن. وروي عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، أنّه قال: ما أحسن الصبر وإنتظار الفرج، أما سمعت قول العبد الصالح: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ مضى تفسيره ﴿وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبرئيل صيحة، فماتوا ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ مضى تفسيره قبل.

﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ألا بعدوا من رحمة الله بعداً، كما بعدت ثمود. وقيل: ألا هلاكاً لهم، كما هلكت ثمود، وتقديره: ألا أهلكهم الله فبعدوا بعداً. قال البلخي: يجوز أن تكون الصيحة صيحة على الحقيقة، كما روي. ويجوز أن تكون ضرباً من العذاب، أَهلكهم الله به، وإصطلمهم. تقول العرب: صاح الزمان

بهم: إذا هلكوا. وقال إمرؤ القيس:

فَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فـي حُـجُراتِـهِ وَلَكِنْ حَديثٌ مٰا حَديثُ الرَّواحِلِ[1]

ومعنى «صيح في حجراته»: أذهب وأهلك. قالوا: وإنّما شبّه حالهم بحال ثمود خاصّة؛ لأنّهم أُهلكوا بالصيحة، كما أُهلكت ثمود بمثل ذلك مع الرجفة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

(اللغة): يقال: قدمت القوم أقدمهم قدماً: إذا مشيت أمامهم وإتّبعوك. والأزهري: قَدَمَ يَقْدُمُ وتَقَدَّم وَقَدَّمَ وأَقْدَم وإستقدم، بمعنى. والورد: ورود الماء،

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[والماء:] الذي يورد. والإبل: الواردة[١]: والجمع أَوراد. والإيراد: إيجاب الورود في الماء، أو ما يقوم مقامه. قال الشاعر:

يَرِدُ المياهُ حَضيرَة ونَفيضَةٍ ... وِرْدَ الْقَطَاةِ إذا اسْمَأَلَّ التُّبَّعُ[٢]

وقال لبيد:

فَوَرَدْنا قَبْلَ فُرَّاطِ القَطَا ... إنَّ مِنْ وِرْدَيَ تَغْلِيسَ النَّهلَ[٣]

وأصل الورد: الإشراف على الدخول، وليس بالدخول. قال عنترة:

فَلَمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ الْمَتَخيِّمِ[١]

والرفد: العون على الأمر، يقال: رفده يرْفده رَفداً، ورِفدا ـ بفتح الراء وكسرها ـ. قال الزجّاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء، أو أسندت به شيئاً، فقد رفدته به. يقال: عمدت الحائط، وأسندته، وأرفدته، ورفدته، بمعنى واحد. ويقال: رفده وأرفده: إذا أعطاه، والإسم الرفد؛ لأنّ العطاء عون المعطي. والحصيد: بمعنى المحصود. والحصد: قطع الزرع من الأصل، وهذا زمن الحصاد ـ بفتح الحاء وكسرها ـ. ويقال: حصدهم بالسيف: إذا قتلهم. وتتبيب: من تبّت يده أي: خسرت، قال جرير:

عِرابَةُ مِنْ بقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ ... ألا تَبّاً لِما فَعَلُوا تَبابا

والفرق بين العذاب والألم: أنّ العذاب: إستمرار الألم. وقال عبيد:

---

(١) فهي ثلثة معان.

(٢) النفيضة: الجماعة من الناس المرسلة؛ لتجسّس العدوّ. والحضيرة: الجماعة أيضاً. ويقال: إنّ القطا تطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة، ويصفون من سرعة طيرانها، أنّها تطير من طلوع الفجر الى طلوع الشمس سبع مراحل، وهو مثل في الإهتداء.

(٣) وفرّاط القطا: أسبق إلى الماء. والتغليس: من غلس، وهو الظلمة. والنهل: الشرب الثاني، يعني: إنّ وردى الثاني في غلس الظلام، فكيف بالأوّل.

[١] جمام الماء: معظمه. معناه لما بلغن الماء أقمن عليه. وقد نسب الشعر في (اللسان) في «جمم» و«ورد» إلى زهير.

والمَـرْءُ مـا عـاشَ فـي تَكْـذِيبٍ طُـولُ الحَـيَاةِ لَـهُ تَـعْذِيبُ[1]

المعنى: ثمّ عطف سبحانه قصّة موسى عليه السلام، على ما تقدّم من قصص الأنبياء، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ومعجزاتنا الدالّة على نبوّته.

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: وحجّة ظاهرة مخلصة من تلبيس وتمويه، على أتمّ ما يمكن فيه، والسلطان وإن كان في معنى الآيات، فإنّما عطفه عليها؛ لأنّ الآيات حجج من وجه الإعتبار العظيم بها. والسلطان حجّة من جهة القوّة العظيمة على المبطل، وكل عالم له حجّة يقهر بها شبهة من نازعه من أهل الباطل، فله سلطان. وقد قيل: إنّ سلطان الحجّة أنفذ من سلطان المملكة. والسلطان متى كان محقّاً حجّة، وجب إتّباعه، وإذا كان بخلافه لا يجب إتّباعه. قال الزجّاج: السلطان إنّما سمّي سلطاناً؛ لأنّه حجّة الله في أرضه، وإشتقاقه من السليط الذي يستضاء به.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ﴾ أي: قومه. وقيل: أشراف قومه الذين تملاء الصدور هيبتهم ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وتركوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد. ومعناه: ما هو بهاد لهم إلى رشد، ولا قائد إلى خير. فأمر فرعون كان على ضدّ هذه الحال؛ لأنّه داع إلى الشرّ، وصادّ عن الخير. وفي هذا دلالة على أنّ لفظة الأمر مشتركة بين القول والفعل. والمراد هيهنا: وما فعل فرعون برشيد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: إنّ فرعون يمشي بين يدي قومه يوم القيامة على قدميه، حتى يهجم بهم على النار، كما كان يقدمهم في الدنيا، يدعوهم إلى طريق النار. وإنّما قال ﴿فَأَوْرَدَهُمْ﴾ على لفظ الماضي، والمراد به المستقبل؛

---

(١) عبيد بن الأبرص، من شعراء الجاهليّة، والبيت من قصيدة بائية في الحكم، يقول فيها: والله ليس له شريك، علاّم ما أخفت القلوب، يقول المرء مادام حيّاً في تكذيب؛ لأنّ الحيوة كذب كلّها.

لأنّ ما عطفه عليه من قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يدلّ عليه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّه معطوف على قوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الماء الذي يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم ﴿النَّارَ﴾ إنّما أطلق سبحانه على النار، إسم ﴿الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾؛ ليطابق ما يرد عليه أهل الجنّة من الأنهار والعيون. وقيل: معناه: بئس المدخل المدخول فيه النار. وقيل: بئس الشيء الذي يرده النار. وقيل: بئس النصيب المقسوم لهم لنار. وإنّما أطلق بلفظ «بئس»، وإن كان عدلاً حسناً؛ لما فيه من البؤس والشدّة ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ يعني أُلحقوا في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ وهي الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني، ولعنة يوم القيامة، وهي عذاب الآخرة. وقيل: معناه: أتبهم الله في الدنيا لعنة بإبعادهم من الرحمة، وأتبعهم الأنبياء والمؤمنون بالدعاء عليهم باللعنة، ويتبعهم الله اللعنة في القيامة، حتى لا تفارقهم اللعنة حيث كانوا، قال ابن عباس: من ذكرهم لعنهم.

﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العطاء المعطي النار واللعنة، وإنّما سمّاه رفداً؛ لأنّه في مقابلة ما يعطي أهل الجنّة من أنواع النعيم. وقال قتادة: ترافدت عليهم لعنتان من الله: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة. وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس، عن قوله: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال: هو اللعنة بعد اللعنة. وقال الضحّاك: اللعنتان اللتان أصابتهم، رفدت إحداهما الأخرى.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك النبأ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي: من أخبار البلاد ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: نذكره لك، ونخبرك به، تذكرة وتسلية لك يا محمّد.

﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: من تلك الديار معمور وخراب، قد أتى عليه الإهلاك، ولم يعمر فيما بعد. وقيل: معناه: منها قائم على بنائه لم يذهب أصلاً، وإن كان خالياً من أهله، وحصيد قد خرب وذهب، وإندرس أثره، كالشيء المحصود،

ـ عن قتادة، وأبي مسلم ـ. وقيل: منها قائم ينظرون إليها، وحصيد قد هلك وباد أهله، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن كفروا، وإرتكبوا ما إستحقّوا به الهلاك، فكان ذلك ظلمهم لأنفسهم.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أي: أوثانهم ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذاب ربّك. وقيل: أمر ربّك بإهلاكهم.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. والمعنى: لم يزيدوهم شيئاً غير الهلاك والخسار. وإنّما أضاف الإهلاك إلى الأصنام؛ لأنّها السبب في ذلك، ولو لم يعبدوها لم يهلكوا.

وإنّما قال: ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ لأنّهم كانوا يسمُّونها آلهة، ويطلبون الحوائج منها، كما يطلبها الموحّدون من الله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي: وكما ذكر من إهلاك الأُمم، وأخذهم بالعذاب، أَخذ ربك.

﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: أخذ أَهلها، وهو أَنْ ينقلهم إلى العقوبة والهلاك ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ من صفة القرى، وهو في الحقيقة لأهلها، وسكّانها. ونحوه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ وفي الصحيحين، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الله تعالى يمهل الظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثمّ قرأ هذه الآية.

﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ معناه: إنّ أخذ الله سبحانه الظالم، مؤلم شديد الألم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إنَّ فيما قصصنا عليك، من إهلاك من ذكرناه على وجه العقوبة لهم على كفرهم، لعبرة وتبصرة، وعلامة عظيمة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة. وخصَّ الخائف بذلك؛ لأنّه هو الذي ينتفع به بالتدبّر، والتفكّر فيه.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: يجمع فيه الناس كلّهم، الأوّلون

والآخرون منهم؛ للجزاء والحساب. والهاء في ﴿لَهُ﴾ راجعة إلى «اليوم».

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده الخلائق كلّهم من الجنّ والإنس، وأهل السماء، وأهل الأرض، أي: يحضره ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه. وفي هذا دلالة على إثبات المعاد، وحشر الخلق.

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

القراءة: قرأ يعقوب: وما يؤخِّره ـ بالياء ـ. والباقون: بالنون. وقرأ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ـ بغير ياء ـ ابن عامر، وأهل الكوفة، غير الكسائي. والباقون: يأتي ـ بإثبات الياء ـ. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: سُعدوا ـ بضمّ السين ـ. والباقون: سَعدوا ـ بالفتح ـ.

الحجة: من قرأ: يؤخّره ـ بالياء ـ، فإنّه ردَّه إلى قوله: ﴿أَخْذَ رَبِّكَ﴾. ومن قرأ بالنون فإنّه إبتداء، والياء في المعنى كالنون، وقوله: «يوم يأت»: قال الزجّاج: الذي يختاره النحويّون «يوم يأتي». وهذيل يحذف هذه الياءات كثيراً. وقد حكى سيبويه والخليل أنّ العرب تقول: لا أدر، فتحذف الياء، وتجتزىء بالكسرة، إلاّ أنّهم يزعمون أنّ ذلك لكثرة الإستعمال.

قال أبو عليّ: من أثبت الياء في الوصل والوقف، فهو القياس البيّن. وأمّا من

حذفها في الوقف إذا قال: يوم يأت؛ فلأنّها وإن لم تكن في فاصلة، أمكن أن تشبهها بالفاصلة؛ لأنّ هذه الياء تشبه الحركات المحذوفة في الوصل، بدلالة أنّهم حذفوها، كما حذفوا الحركة، فكما أنّ الحركة تحذف في الوقف، فكذلك ما أشبهها من هذه الحروف كان في حكمها. فأمّا من حذفها في الوصل والوقف، فلأنّه جعلها في الوصل والوقف بمنزلة ما أستعمل محذوفاً ممّا لم يكن ينبغي في القياس أن يحذف، نحو: لم يك، ولا أدر، ومثله: قول الشاعر:

كَفّاكَ كَفٌّ لا تُبَقّي دِرْهَماً جُوداً، وأُخْرىٰ تُعْطِ بِالسَّيْف الدَّما[1]

حذف الياء من «تعطي»، وليس هنا ما يوجب حذفها. وأمّا قوله: سعدوا: فقد قال أبو عليّ: حكى سيبويه سعد يسعد سعادة، فهو سعيد. وينبغي أن يكون غير متعدّ، كما أنّ خلافه الذي هو شقيّ كذلك، وإذا كان كذلك، كان ضمّ السين مشكلاً، إلاّ أن يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس، أو يكون من باب فعل وفعلته، نحو: غاض الماء وغضته، وحزن وحزنته.

ولعلّهم إستشهدوا على ذلك بقولهم مسعود، وأنّه يدلّ على سعد، ولا دلالة قاطعة في ذلك؛ لأنّه يجوز أن يكون مثل: أجَنَّه الله فهو مجنون، وأحبَّه فهو محبوب. فالمفعول جاء في هذا على أنّه حذفت الزيادة عنه، كما حذف من إسم الفاعل في نحو قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ يعني: ملاقح، فجاء على حذف الزيادة. فعلى هذا يكون أصله أسعد، فحذف الزائد. ومن الحذف، قول الشاعر:

يَخْرُجْنَ مِنْ أجْوَازِ لَيْلٍ غَاضٍ

يريد مُغْضٍ[2].

---

(١) يعني: أنت جواد وشجاع، ولك كفّان، تجود بإحديهما الدراهم، وبالأخرى تضرب بالسيف.

(٢) الجوز: معظم الشيء ووسطه، ويقال: ليل غاض: أي مظلم. وفي الحقيقة، إنّه مغض: أي ساتر للأشياء بظلمته.

اللغة: الشقاء والشقاوة والشقوة، بمعنى. والياء في ﴿شَقِيٌّ﴾ منقلبة عن «واو». والسعادة: ضدّ الشقاوة. والزفير: أوّل نهاق الحمار. والشهيق: آخر نهاقه. قال رؤبة:

حَشْرَجَ الْجَوْفِ صَهِيلاً، أَوْ شَهَقَ ... حَتَّى يُقَالَ: نَاهِقٌ وَمَا نَهَقَ[1]

والزفير: ترديد النفس مع الصوت من الحزن، حتى تنتفخ الضلوع. وأصل الزفير: الشدّة، من قولهم للشديد الخلق: مزفور. والزفر: الحمل على الظهر خاصّة لشدّته. والزفر: السيد؛ لأنّه يطيق حمل الشدائد. وزفرت النار: إذا سمع لها صوت من شدة توقدها. والشهيق: صوت فظيع يخرج من الجوف بمدّ النفس، وأصله الطول المفرط، من قولهم: جبل شاهق. والخلود: الكون في الأمر أبداً.

والدوام: البقاء أبداً. ولهذا يوصف سبحانه بأنه دائم، ولا يوصف بأنه خالد. والجذ: القطع، يقال: جذّه يجذّه، وجذّ الله دابرهم. قال النابغة:

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ[2]

ويقال: جذّها جَذَّ البَعيرُ الصليانَة، وهي نبت.

الإعراب: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: لا يخلو أن يكون فاعل ﴿يَأْتِ﴾ ضمير اليوم المضاف إلى «يأتي»، واليوم المتقدم ذكره فلا يجوز أن يكون فاعله ضمير اليوم الذي أُضيف إلى «يأتي»؛ لأنّك لاتقول: جئتك يوم يسرّك سروره وإيّاك، ويكون الهاء عائدة إلى «يوم» فيصير اليوم مضافاً إلى الفعل المسند إلى ضميره. وإنّما تعرف الفعل فيه بالفاعل، فيكون كأنّك إنّما عرفت اليوم بنفسه. ونظير ذلك قولك:

---

(١) الحشرجة صوت الحمير في حلقها. وقوله: وما نهق «ما» نافية.

(٢) السلوقي: الدرع، منسوب إلى سلوقيّة، بلد باليمن. والصفّاح: حجارة عراض. ونار الحباحب: شرر النار من تصادم الحجرين، ومثله. يصف سيوفهم في البيت السابق: «ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم». ويقول: إنّها تقد الدرع المضاعف النسج، واذا وقعت على الحجر أخرجت منه النار.

هذا يوم حرّه ويوم برده. والهاء لليوم. وهذا غير جائز.

وكذلك لا يجوز أن تضيف الظرف إلى جملة معرفة بضميره، وإن كانت من مبتدأ وخبر، مثل أن تقول: آتيك يوم ضحوته باردة، وليلة أوّلها مطير. فإن نوّنت فقلت: آتيتك يوماً ضحوته باردة أو ليلةً أوّلها مطير جاز؛ لأنّه خرج بالتنوين عن حدِّ الإضافة، وهذا قول أبي عثمان المازني. وإذ قد ثبت ذلك، فقد ثبت أن في ﴿يَأْتِي﴾ ضمير اليوم المتقدّم ذكره في قوله: ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: يوم يأتي هذا اليوم الذي تقدّم ذكره، لا تكلّم نفس. فاليوم في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ يراد به الحين والبرهة، وليس على وضح النهار. وقوله: ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يجوز أن يكون هذه الجملة حالاً من الضمير في ﴿يَأْتِي﴾ ويجوز أن يكن صفة ليوم المضاف إلى «يأتي»؛ لأنّ «يوم» مضاف إلى يأتي، والفعل نكرة، فلا تتعرّف «يوم» بالإضافة إليه. فجاز أن يوصف بالجملة، كما توصف النكرات بالجمل.

والمعنى: لا تكلّم فيه نفس، فحذف فيه، أو حذف الحرف، وأوصل الفعل إلى المفعول، ثمّ حذف الضمير من الفعل الذي هو صفة، كما يحذف من الصلة. ومثل ذلك قولهم: الناس رجلان رجل أكرمت ورجل أهنت. وإذا جعلته حالاً من الضمير في «يأتي» وجب أن تقدّر فيه أيضاً ضميراً يعود إلى ذي الحال، وتقديره غير متكلّم فيه، هذا كلّه قول أبي عليّ.

وأقول: إنّ الأظهر أنّ قوله: يوم يأتي، ظرف لقوله: ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ومعمول له، وهذا الوجه لا يحتاج فيه إلى تقدير محذوف، كما في الوجهين الذين ذكرناهما، فيكون أولى. وإنّما يضاف ﴿يوم﴾ إلى الفعل؛ لأنّه إسم زمان. والفعل يناسب الزمان من حيث إنّه لا يخلو منه، وإنّما يتصرّف بتصرّفه، وأنّه لا يكون حادثاً إلاّ وقتاً، كما أنّ الزمان لا يبقى.

وقوله: لا تكلّم أي: لا تتكلّم، فحذف إحدى التائين، كما في قول الشاعر:

وَالْـعَيْنُ سَاكِنَةٌ عَلىٰ أَطْلائِهَا عُوذاً تَأَجَّلَ بِالْفَضاءِ بِهامُهَا[1]

أي: تتأجّل. وعطاء منصوب بما دلّ الكلام عليه، فكأنّه قال: أعطاهم النعيم عطاء.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن اليوم المشهود، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: وما نؤخّر هذا اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ وهو أجل قد عدَّه الله تعالى لعلمه، أنّ صلاح الخلق في إدامة التكليف عليهم إلى ذلك الوقت. وفيه إشارة إلى قربه؛ لأنّ ما يدخل تحت العدّ فكأنّ قد نفد.

وإنّما قال: ﴿لِأَجَلٍ﴾، ولم يقل: إلى أجل؛ لأنّ اللام يدلّ على الغرض، وأنّ الحكمة اقتضت تأخيره، وإلاّ لا يدلّ على ذلك ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي: حين يأتي القيامة والجزاء.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا يتكلّم أحد فيه إلاّ بإذن الله تعالى وأمره، ومعناه: إنّه لا يتكلّم فيه إلاّ بالكلام الحسن المأذون فيه؛ لأنّ الخلق ملجأون هناك إلى ترك القبائح، فلا يقع منهم فعل القبيح.

وأمّا ما هو غير قبيح، فإنّه مأذون فيه، ـ عن الجبائي ـ. والأظهر أن يقال: معناه: إنه لا يتكلّم أحد في الآخرة بكلام نافع من شفاعة ووسيلة، إلاّ بإذنه. فإن قيل: كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿هٰذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ على أنّه سبحانه

---

(١) العين: جمع عيناء، أي: واسعات العين، أراد بها بقر الوحش. والطلا: ولدها. وعائذ: حديثة النتاج. والأجل: القطيع منها. والبهام: جمع بهم أولاد الضأن. وبقر الوحش بمنزلة الضان عند العرب.

قال في موضع آخر: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾، وهل هذا إلاّ ظاهر التناقض؟ فالجواب: إنّ يوم القيامة يشتمل على مواقف، قد أذن لهم في الكلام، في بعض تلك المواقف، ولم يؤذن لهم في الكلام في بعضه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿لاَ يَنْطِقُون﴾ أنّهم لا ينطقون لحجّة، وإنّما يتكلّمون بالإقرار بذنوبهم، ولؤم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض.

وهذا كما يقول القائل لمن تكلّم بكلام كثير فارغ عن الحجة: ما تكلّمت بشيء، ولا نطقت بشيء. فسمّي من يتكلّم بما لا حجّة فيه: غير متكلّم، كما قال سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ وهم كانوا يسمعون ويتكلّمون ويبصرون، إلاّ أنّهم في أنّهم لا يقبلون الحقّ، ولا يتأمّلون، بمنزلة الصمّ البكم العمي. وكلا الوجهين حسن. وأمّا قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ فمعناه: أنّهم لا يسألون عن ذنوبهم للتعرّف، من حيث إنّ الله سبحانه علم أعمالهم، وإنّما يسألون سؤال توبيخ، وتقريع، وتقرير؛ لإيجاب الحجّة عليهم، كما في قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ فأثبت سبحانه سؤال التقريع في آية، ونفي سؤال التعرّف والإستعلام في أُخرى فلا تناقض.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ إخبار منه سبحانه بأنّهم قسمان: أشقياء، وهم المستحقّون للعقاب. وسعداء، وهم المستحقّون للثواب. والشقاء: قوّة أسباب البلاء. والسعادة: قوّة أسباب النعمة. والشقيّ: من شقي بسوء عمله في معصية الله والسعيد: من سعد بحسن عمله في طاعة الله. والضمير في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ يعود إلى الناس في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ﴾. وقيل: إنّه يعود إلى ﴿نَفْسٌ﴾ في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ لأنّ النفس إسم الجنس.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ يعني: إنّ الذين شقوا بإستحقاقهم؛ العذاب جزاء على أعمالهم القبيحة، داخلون في النار. وإنّما وصفوا بالشقاوة قبل دخولهم

النار؛ لأنّهم على حالٍ تؤدّيهم إلى دخولها.

وأمّا ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: الشقيّ من شقي في بطن أُمّه. فإنّ المراد بذلك: أنّ المعلوم من حاله أنّه سيشقي بإرتكاب القبائح التي تؤدّيه إلى عذاب النار، كما يقال لإبن الشيخ الهرم: إنّه يتيم، بمعنى أنّه سييتم.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال الزجّاج: الزفير والشهيق، من أصوات المكروبين المحزونين. والزفير: من شديد الأنين وقبيحه، بمنزلة إبتداء صوت الحمار. والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جدّاً، بمنزلة آخر صوت الحمار. وعن ابن عباس قال: يريد ندامة. ونفساً عالياً، وبكاء لا ينقطع.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إختلف العلماء في تأويل هذا في الآيتين، وهما من المواضع المشكلة في القرآن[1]، والإشكال فيه من وجهين: **أحدهما**: تحديد الخلود بمدّة دوام السماوات والأرض. **والآخر**: معنى الإستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. فالأوّل فيه أقوال:

أحدها: إنّ المراد: ما دامت السماوات والأرض مبدلتين أي: ما دامت سماء الآخرة وأرضها، وهما لا يفنيان إذا أُعيدا بعد الإفناء، ـ عن الضحّاك، والجبائي ـ.

وثانيها: إنّ المراد: ما دامت سماوات الجنّة والنار وأرضهما، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء. وكل ما إستقرّ عليه قدمك فهو أرض. وهذا مثل الأوّل، أو قريب منه.

---

(١) ولذلك روي العياشي عن أبي جعفر عليه السلام حذف كلمة «إلاّ ما شاء ربّك» من ذكر أهل الجنّة قال في ذكر أهل النار إستثناء، وليس في ذكر أهل الجنّة إستثناء، وأمّا الذين سعدوا ففي الجنّة خالدين فيها ما دامت السموات و الأرض عطاء غير مجذوذ، ولم ينقل ذلك المصنّف في الأقوال التي يحتملها الآية؛ لأنّه يتضمّن تغيير لفظ القرآن، وإحتمال التحريف في الحديث أولى من القرآن؛ لوحدة الأوّل، وكثرة تداول القرآن. وفي رواية أخرى: التخلّص عن التناقض، بقرائة غير مجدود «بالدال المهملة».

وثالثها: إنّ المراد: ما دامت الآخرة وهي دائمة أبداً، كما أنّ دوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدّة بقائها، ـ عن الحسن ـ.

ورابعها: إنّه لا يراد به السماء والأرض بعينها، بل المراد: التبعيد، فإنّ للعرب ألفاظاً للتبعيد في معنى التأبيد، يقولون: لا أفعل ذلك ما إختلف الليل والنهار، وما دامت السماء والأرض، وما نبت النبت، وما أطّت الإبل، وما إختلف الجِرَّة والدِرَّة، وما ذَرَّ شارق، وفي أشباه ذلك كثرة، ظنّاً منهم أنّ هذه الأشياء لا تتغيّر، ويريدون بذلك التأبيد لا التوقيت، فخاطبهم سبحانه بالمتعارف من كلامهم، على قدر عقولهم، وما يعرفون. قال عمرو بن معد يكرب [بكر]:

وَكُلُّ أَخٍ مُفارِقُهُ أَخُوهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ إلّا الْفَرْقَدانِ(١)

وقال زهير:

أَلا لا أَرَىٰ عَلىٰ الْحوادِثِ بَاقِياً ... وَلا خَالِداً إلّا الْجِبالَ الرَّواسِيا[١]

وَإِلَّا السَّماءَ، وَالنُّجُومَ، وَرَبَّنا ... وَأَيّامنا مَعْدُودَةً، وَاللَّيالِيا

لأنّه توهّم أنّ هذه الأشياء لا تفنى وتخلد.

وأمّا الكلام في الإستثناء: فقد إختلف فيه أقوال العلماء على وجوه:

أحدها: أنّه إستثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار، والزيادة من النعيم لأهل الجنّة. والتقدير: إلاّ ما شاء ربّك من الزيادة على هذا المقدار، كما يقول الرجل لغيره: لي عليك ألف دينار إلاّ الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا. فالألفان زيادة على الألف بغير شكّ؛ لأنّ الكثير لا يستثنى من القليل، ـ عن الزجّاج، والفرّاء، وعليّ بن عيسى، وجماعة ـ. وعلى هذا فيكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «سوى» أي: سوى ما شاء ربّك، كما يقال ما كان معنا رجل إلاّ زيد أي: سوى زيد.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] رسا الشيء يرسو رُسُوّاً: ثبت. والرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ.

وثانيها: إنّ الإستثناء واقع على مقامهم في المحشر والحساب؛ لأنّهم حينئذ ليسوا في جنّة، ولا نار، ومدّة كونهم في البرزخ الذي هو ما بين الموت والحياة؛ لأنّه تعالى لو قال خالدين فيها أبداً، ولم يستثن؛ لظنّ الظانّ أنّهم يكونون في النار والجنّة، من لدن نزول الآية، أو من بعد إنقطاع التكليف. فحصل للإستثناء فائدة، ـ عن المازني[1] وغيره ـ، وإختاره البلخي. فإن قيل: كيف يستثنى من الخلود في النار ما قبل الدخول فيها؟ فالجواب: إنّ ذلك جائز إذا كان الإخبار به قبل دخولهم فيها.

وثالثها: إنّ الإستثناء الأوّل يتّصل بقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وتقديره: إلاّ ما شاء ربّك من أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضربين، ولا يتعلّق الإستثناء بالخلود، وفي أهل الجنّة يتّصل بما دلّ عليه الكلام، فكأنّه قال: لهم فيها نعيم إلاّ ما شاء ربّك من أنواع النعيم. وإنّما دلّ عليه قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ـ عن الزجّاج ـ.

ورابعها: أن يكون «إلاّ» بمعنى «الواو» أي: وما شاء ربّك من الزيادة، ـ عن الفرّاء ـ. وإستشهد على ذلك بقول الشاعر:

وَأرىٰ لَهٰا دٰاراً بِأَغْدِرَة السِّيـ ... ـدانِ لَمْ يَدْرُسْ لَهٰا رَسْمٌ

إِلَّا رِمٰاداً هٰامِداً رَفَعَتْ ... عَنْهُ الرِّيٰاحَ خَوَالِدُ سُحْمٌ[2]

قال: والمراد بإلاّ: الواو هيهنا، وإلاّ كان الكلام متناقضاً. وهذا القول قد ضعفه محقّقو النحويّين.

---

(١) المازني: النحويّ، إسمه: بكر بن محمّد بن حبيب، من أعاظم علماء الشيعة، كان معاصراً للعسكريّين عليهما السلام.

(٢) أغدرة السيدان: موضع، ومعنى البيت الثاني اني أرى أيضاً رماداً باقياً، ولم تقدر الرياح ان تذهب به، لأنّ الأحجار منعت من إثارتها إيّاه. والخوالد: الأثافي. والسحم: السود. والشاهد في «إلاّ» وإنّها بمعنى «الواو»؛ لأنّ الشاعر رأى الرماد ثابتاً.

وخامسها: إنّ المراد بالذين شقوا: من أُدخل النار من أهل التوحيد الذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعتهم إرتكاب الماضي، فقال سبحانه: إنّهم معاقبون في النار إلاّ ما شاء ربّك من إخراجهم إلى الجنّة، وإيصال ثواب طاعاتهم إليهم. ويجوز أن يريد بالذين شقوا، جميع الداخلين إلى جهنّم، ثمّ إستثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أهل الطاعات منهم، ممّن إستحقّ الثواب. ولابدّ أن يوصل إليه، وتقديره: إلاّ ما شاء ربّك أن يخرجه بتوحيده من النار، ويدخله الجنة.

وقد يكون ﴿مَا﴾ بمعنى ﴿مَنْ﴾ قال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ﴾ وقالت العرب عند سماع الرعد: سبحان ما سبَّحت له. وأمّا في أهل الجنّة فهو إستثناء من خلودهم أيضاً لما ذكرناه؛ لأنّ من ينقل إلى الجنّة من النار وخلّد فيها، لابدّ في الإخبار عنه بتأبيد خلوده أيضاً من إستثناء ما تقدّم فكأنّه قال: خالدين فيها إلاّ ما شاء ربّك من الوقت الذي أدخلهم فيه النار قبل أن ينقلهم إلى الجنّة. فما في قوله: ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هيهنا على بابه، والإستثناء من الزمان، والإستثناء في الأوّل من الأعيان. والذين شقوا على هذا القول، هم الذين سعدوا بأعيانهم. وإنّما أجرى عليهم كل لفظ في الحال الذي تليق به. فإذا أُدخلوا النار، وعوقبوا فيها، فهم من أهل الشقاء. وإذا نقلوا منها إلى الجنّة، فهم من أهل السعادة. وهذا قول ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبي سعيد الخدري، وقتادة، والسدّي. والضحّاك، وجماعة من المفسّرين.

وروى أبو ورق [روق] عن الضحّاك، عن ابن عباس، قال: الذين شقوا ليس فيهم كافر، وإنّما هم قوم من أهل التوحيد، يدخلون النار بذنوبهم، ثمّ يتفضّل الله عليهم، فيخرجهم من النار إلى الجنّة، فيكونون أشقياء في حالٍ، سعداء في حال أخرى.

وقال قتادة: الله أعلم بمشيئته ذكر لنا أنّ ناساً يصيبهم سَفْع من النار بذنوبهم،

ثمّ يدخلهم الله الجنّة برحمته، يسمُّون الجهنّميّين، وهم الذين أنفذ فيهم الوعيد، ثمّ أُخرجوا بالشفاعة. قال، وحدّثنا أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ قال: يخرج قوم من النار، قال ولا نقول ما يقوله أهل حروراء. وهذا القول هو المختار المعوَّل عليه.

وسادسها: أنّ تعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود والتبعيد للخروج؛ لأنّ الله تعالى لا يشاء إلاّ تخليدهم على ما حكم به، فكأنّه تعليق لما لا يكون بما لا يكون؛ لأنّه لا يشاء أن يخرجهم منها.

وسابعها: ما قاله الحسن: إنّ الله سبحانه إستثنى، ثمّ عزم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أنّه أراد أن يخلدهم. وقريب منه ما قاله الزجّاج وغيره: إنّه إستثناء تستثنيه العرب، وتفعله، كما تقول: والله لأَضربنّ زيداً إلاّ أن أرى غير ذلك، وأنت عازم على ضربه. والمعنى في الإستثناء على هذا: أنّي لو شئت أن لا أضربه لفعلت.

وثامنها: قال يحيى بن سلام البصري: إنّه يعني بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم من الفريقين، وإحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَسِيْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمُرَاً وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً﴾ قال: إنّ الزمرة تدخل بعد الزمرة، فلابدّ أن يقع بينهما تفاوت في الدخول، والإستثنائان على هذا من الزمان.

وتاسعها: إنّ المعنى: خالدون في النار دائمون فيها مدّة كونهم في القبور، ما دامت السماوات والأرض في الدنيا. وإذا فنيتا وعدمتا، إنقطع عقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: إستثناء وقع على ما يكون في الآخرة. أورده الشيخ أبو جعفر ﷺ وقال: ذكره قوم من أصحابنا في التفسير.

وعاشرها: إنّ المراد إلا ما شاء ربك أَن يتجاوز عنهم، فلا يدخلهم النار.

والإستثناء لأهل التوحيد، عن أبي مجلز قال: هي جزاؤهم، وإن شاء سبحانه تجاوز عنهم. والإستثناء يكون على هذا من الأعيان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ أي: سعدوا بطاعة الله، وإنتهائهم عن المعاصي ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ يكونون في الجنّة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مدّة دوام السماوات والأرض.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يتأتّى فيه جميع ما ذكرناه في الإستثناء من الخلود في النار، إلاّ ما مضى ذكره من جواز إخراج بعض الأشقياء من تناول الوعيد لهم، وإخراجهم من النار بعد دخولهم فيها. فإنّ ذلك لا يتأتّي هيهنا لإجماع الأُمّة على أن من إستحقّ الثواب، فلابدّ أن يدخل الجنّة، وأنّه لا يخرج منها بعد دخوله فيها ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، وحمزة، وحفص: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَمَّا﴾ ـ بتشديد النون والميم ـ. وقرأ أهل البصرة، والكسائي، وخلف: ﴿وَإِنَّ كُلاً﴾

ـ بتشديد النون ـ، ﴿لَمَّا﴾ ـ بتخفيف الميم ـ. وقرأ نافع، وابن كثير. ﴿وَإِنَّ كُلاً﴾ ـ خفيفة النون ـ ﴿لَمَّا﴾ خفيفة الميم. وقرأ أبوبكر، عن عاصم: وإن كلاً ـ خفيفة النون ـ «لَمّا» ـ مشددة الميم ـ. وفي الشواذّ قراءة الزهري، وسليمان بن أرقم: لمَّا ـ بالتنوين ـ وقراءة ابن مسعود: وإن كلٌّ ـ بالرفع ـ إلاّ ليوفينّهم.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَمَا﴾ ـ بتشديد «إنَّ» وتخفيف «لمّا»، فوجهه بَيِّنٌ، وهو أنّه نصب «كلًا» بأنّ. و«أنّ» يقتضي أن يدخل على خبرها أو إسمها «لام»، فدخلت هذه اللام، وهي لام الإبتداء على الخبر في قوله: لما، وقد دخلت في الخبر لام أخرى، وهي التي تلقي بها القسم، ويختصّ بالدخول على الفعل، ويلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين. فلمّا إجتمعت اللامان، وإتّفقتا في تلقي القسم، وإتّفقتا في اللفظ، فصِّل بينهما بما، كما فَصّلوا بين إنَّ واللام، فدخلت «ما» لهذا المعنى، وإن كانت زائدة لتفصل كما جلبت النون. وإن كانت زائدة في نحو: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً﴾ وكما صارت عوضاً من الفعل، في قولهم: «إمَّا لا»[1]، وفي قوله:

أَبَا خُرَاشَةَ إِمَّـا أَنْتَ ذا نَـفَرٍ ... فَإِنَّ قَوْمِيَ لَمْ يَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ

ويلي هذا الوجه في البيان قول من خفف: «إنَّ»، ونصب «كُـلًا» وخـفّف «لمّا». قال سيبويه: حدّثنا من نثق به، أنّه سمع من العرب مـن يـقول: إن عـمراً لمنطلق. قال: وأهل المدينة يقرأون: ﴿وَإِن كُلاً لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يخفّفون وينصبون، كما قالوا:

كَأَنْ ثَدْيَيْهِ حقان

---

(١) أي: إن كنت لاتفعل غيره. والشعر في جامع الشواهد، وكل ذلك يدلّ عـلى تأثـير «مـا» الزائدة.

ووجه النصب بها مع التخفيف، من القياس أَنّ «إِنَّ» مشبّهة في نصبها بالفعل. والفعل يعمل محذوفاً، كما يعمل غير محذوف، وذلك في نحو: لم يك زيد منطلقاً ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة﴾ وكذلك لا أدر. فأمّا من خفّف «أنّ» ونصب «كلًا» وثقل «لمّا»: فقراءته مشكلة، وذلك أن «إِنَّ» إذا نصب بها، وإن كانت مخفّفة كانت بمنزلتها مثقّلة. ولمّا: إذا شددت كانت بمنزلة «إِلاّ»، وكذلك قراءة من شدَّد «لمّا» وثقّل «أنّ» مشكلة، وذلك أنّ «إِنَّ» إذا ثقّلت، وإذا خفّفت، ونصب بها، فهي في معنى الثقيلة، فكما لا يحسن تثقيل: إنّ زيداً إلاّ منطلق، كذلك لا يحسن تثقيل «إِنَّ»، وتثقيل «لمّا».

فأمّا مجيء، «لما» في قولهم: نشدتك الله لما فعلت، وإلاّ فعلت، فقال الخليل: الوجه لتفعلنّ كما تقول: أقسمت عليك لتفعلنّ. وأمّا دخول إلاّ ولمّا: فلأنّ المعنى الطلب، فكأنّه أراد: ما أسألك إلاّ فعل كذا. ولم يذكر حرف النفي في اللفظ، وإن كان مراداً كما جاء في قولهم: شرّ أهرَّ ذا ناب أي: ما أهرَّه إلاّ شرّ.

وليس في الآية معنى نفي، ولا طلب. فإن قال قائل: لمن ما، فأَدغم النون في الميم، بعد قلبها ميماً، فإنّ ذلك لا يسوغ. ألاترى أنّ الحرف المدغم إذا كان قبله ساكن، نحو: قوم مالك، لم يقو الإدغام فيه على أن يُحَرِّكَ الساكن الذي قبل الحرف المدغم. فإذا لم يجز ذلك فيه، وكان التغيير أسهل من الحذف، فأن لا يجوز الحذف الذي هو أذهب في باب التغيير من تحريك الساكن أجدر، على أنّ في هذه السورة ميمات إجتمعت في الإدغام، أكثر ممّا كان يجتمع في «لمن ما»، ولم يحذف منها شيء، وذلك قوله: ﴿عَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ﴾. فإذا لم يحذف شيء من هذا، فأنْ لا يحذف ثَمَّ أجدر.

وقد روي أنّه قد قرأ: ﴿وَإِنَّ كُلّاً لَمَّا﴾ منوّناً، كما قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ

﴿أَكْلاً لَمّاً﴾ فوصف بالمصدر. فإن قال: إنّ «لمّا» ـ فيمن ثقل ـ، إنّما هو لما هذه وقف عليها بالألف، ثمّ أُجري في الوصل مجرى الوقف. فذلك ممّا يجوز في الشعر، ووجه الإشكال فيه أبين من هذا الوجه.

وقد حكي عن الكسائي أنّه قال: لا أعرف وجه التثقيل في «لمّا»، ولم يُبْعِد فيما. قال: ولو خفّف مخفّف «إنّ»، ورفع «كلاً» بعدها، لجاز تثقيل «لمّا» مع ذلك، على أن يكون المعنى: ما كُلٌّ إلّا ليوفَينّهم، فيكون ذلك كقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولكان ذلك أبين من النصب في «كل» والتثقيل لِلَمّا. وينبغي أن يقدر المضاف إليه «كلٌّ»، نكرةً؛ ليحسن وصفه بالنكرة، ولا يقدر إضافته إلى معرفة، فيمتنع أن يكون «لمّا» وصفاً له، ولا يجوز أن يكون حالاً؛ لأنّه لا شيء في الكلام عاملاً في الحال. هذا كلّه كلام أبي عليّ. وقال غيره: في معنى ﴿لَمَّا﴾ ـ بالتشديد ـ أربعة أوجه:

أحدها: قول الفرّاء: إنّها بمعنى «لمن ما»، فحذفت إحدى الميمات الثلاث على ما تقدّم ذكره. وأنشد الفرّاء:

وإنّي لَـمَّا أَصْـدَرَ الْأَمْـرَ وَجْـهَهُ ... إذا هُوَ أَعْيَا بِالسَبِيلِ مَصادِرُه[1]

والثاني: إنّها بمعنى «إلاّ»، كقولهم: سألتك لمّا فعلت، بمعنى: إلاّ فعلت، ـ عن الزجّاج ـ. وقال الفرّاء: هذا لا يجوز إلاّ في اليمين، كما قاله أبو عليّ.

والثالث: إنّها مخفّفة شدّدت للتأكيد، ـ عن المازني ـ. قال الزجّاج: هذا لا يجوز؛ لأنّه إنّما يجوز تخفيف المشدّد عند الضرورة. فأمّا تشديد المخفّف، فلا يجوز بحال.

---

(١) يصف نفسه بالحذق، ونفاذ الأمر، يعني: إنّي ممّن يهتدى للمخلص من الأمور التي يخفى سبيل الخروج منها على غيري.

والرابع: إنّها من لممت الشيء: إذا جمعته، إلاّ أنّها بنيت على «فَعْلَى»، فلم تصرف مثل: تترى. فكأنّه قال: وإن كلًّا جميعاً ليوفّينّهم. ويدلّ عليه قراءة الزهري: لماً ـ بالتنوين ـ. وقال ابن جنّي: تقدير هذا: وإن كلاً ليوفّينّهم ربّك أعمالهم لمّاً أي: توفية جامعة لأعمالهم جميعاً، ومحصّلاً لأعمالهم تحصيلاً، فهو كقولك: قياماً لأقومنّ.

وذكر الشيخ عليّ ابن أبي الطيّب ﷺ فيه وجهاً آخر، فقال: هيهنا محذوف، وتقديره: وإن كلًّا لمّا عملوا ليوفّينّهم ربّك أعمالهم. والحذف في الكلام كثير. قال الشاعر:

إِذا قُلْتُ سِيرُوا إِنَّ لَيْلىٰ لَعَلَّهٰا جَرىٰ دُونَ لَيْلىٰ مائِلُ الْقَرْنِ أَعْضَبُ[1]

والمراد: لعلّها تصلني، أو تصلني، أو نحو هذا. فهذا وجه خامس.

فأمّا إذا خفّفت «إنّ»، فإنتصاب «كلًّا» مع حمل «إنّ» على النفي مشكل. وقد ذكر فيه أن يكون التقدير: وإن هم إلاّ ليوفّينّهم كلًّا، أو: وإن هم، أعني كلًّا إلاّ ليوفّينّهم. وهذان الوجهان مرغوب عنهما. وعلى الجملة، فإنّ تشديد الميم من «لمّا» مع تشديد «إنّ»، وتخفيفه[2] مشكل عند المحقّقين؛ إذ لا يتأتّي في «لمّا» هذه معنى «لم». ولا معنى «الحين»، ولا معنى «إلاّ»، ولا يعرف لها معنى سوى هذه. ومن قرأ: ﴿وَإِنَّ كُلاّ لَمَّا [كُلٌّ إِلاَّ] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ فمعناه: ما كلّ إلاّ والله ليوفّينّهم، كقولك: ما زيد إلاّ لأضربنّه أي: ما زيد إلاّ مستحقّ لأن يقال فيه هذا. ويجوز أن يكون مخفّفة من الثقيلة، و«إلاّ» زائدة. كما في قول الشاعر:

---

(١) كبش أعضب: مقطوع الأذن. ومائل القرن: أي أعوج القرن، يتطيّر بمثله إذا مرّ بين يدي الرجل. يستدلّ به على عدم قضاء الحاجة.

(٢) ونصب «كلاّ».

أَرَى الدَّهْـرَ إِلَّا مَـنْجَنُوناً بِأَهْـلِهِ وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ إِلَّا مُـعَلَّلا[١]

أي: أرى الدهر منجوناً بأهله. وعلى ذلك تأولوا بيت ذي الرمة:

حَـرَاجِـيجُ مَـا تَـنْفَكُّ إِلَّا مُـنَاخَةً عَلَى الْخَسْفِ أَوْ يُرْمى بِهَا بَلَداً قَفْراً[١]

أي: ما تنفكّ مناخة و«إلاّ» زائدة.

اللغة: المِرْية: ـ بكسر الميم وضمّها ـ: الشكّ مع ظهور الدلالة للتهمة، وهي مأخوذة من مرى ضرع الناقة ليدرّ بعد دروره. والنصيب: الحظّ، وهو القسم المجعول له، ومنه: أنصباء الورثة. والإختلاف: ذهاب كل واحد إلى جهة غير الآخر، وهو على وجهين إختلاف النقيضين. وهذا لا يجوز أن يصحّا معاً، فإنّ أحدهما مبطل لصاحبه. والآخر إختلاف الجنسين كإختلاف المجتهدين في جهة القبلة. فهذا يجوز أن يصحّا معاً. والإستقامة: الإستمرار في جهة واحدة، وأن لا يعدل يميناً وشمالاً. والطغيان: تجاوز المقدار في الفساد.

الإعراب: ومن تاب: موصول وصلة، في موضع رفع؛ بالعطف على الضمير المستكن في «استقم». ويجوز أن يكون معطوفاً على التاء من «أُمرت»، ويكون التقدير في الأوّل: إستقم أنت ومن تاب معك. وفي الثاني: كما أُمرت أنت ومن تاب معك. ويجوز أن يكون «من تاب» منصوب الموضع؛ بكونه مفعولاً معه.

المعنى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من دون الله تعالى، أنّه باطل، وأنّهم يصيرون بعبادتهم إلى عذاب النار ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: ما يعبدون غير الله تعالى إلاّ على جهة التقليد، كما كان

---

(١) البيتان في جامع الشواهد.

[١] المنجنون: الدولاب التي يُستقىٰ عليها، كناية عن انّ الدهر لايستقيم لأهله كما أنّ الدولاب لايستقيم.

آباؤهم كذلك.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: إنّا لمعطوهم جزاء أعمالهم، وعقاب أعمالهم وافياً ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ عن مقدار ما إستحقّوه. آيَسَهم سبحانه بهذا القول عن العفو. وقيل: معناه: أنا نعطيهم ما يستحقّونه من العقاب، بعد أن نوفّيهم ما حكمنا لهم به من الخير في الدنيا، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يريد أنّ قومه إختلفوا فيه أي: في صحّة الكتاب الذي أُنزل عليه، وأراد بذلك تسلية النبيّ ﷺ عن تكذيب قومه إيّاه، وجحدهم للقرآن المنزل عليه. فبيّن أنّ قوم موسى عليه السلام كذلك فعلوا بموسى، فلا تحزن لذلك، ولا تغتمّ له.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لو لا خبر الله السابق بأنّه يؤخّر الجزاء إلى يوم القيامة، لما علم في ذلك من المصلحة.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجّل الثواب والعقاب لأهله. وقيل: معناه: لفصل الأمر على التمام بين المؤمنين والكافرين بنجاة هؤلاء، وهلاك أُولئك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ يعني: إنّ الكافرين لفي شكّ من وعد الله ووعيده، مريب. والريب: أقوى الشكّ. وقيل: معناه: إنّ قوم موسى لفي شكّ من نبوّته.

﴿وَإِنَّ كُلاًّ﴾ من الجاحدين والمخالفين. وقيل: إنّ كلاً من الفريقين المصدّق، والمكذّب جميعاً ﴿لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: يعطيهم ربّك جزاء أعمالهم، وافياً تامّاً إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: إنّه عليم بأعمالكم، وبما إستحققتم من الجزاء عليها، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿فَاسْتَقِمْ﴾ يا محمّد ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: إستقم على الوعظ والإنذار،

والتمسّك بالطاعة، والأمر بها، والدعاء إليها. والإستقامة هو أداء المأمور به، والإنتهاء عن المنهيّ عنه. كما أُمرت في القرآن.

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: وليستقم من تاب معك من الشرك كما أُمروا، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: ومن رجع إلى الله، وإلى نبيّه، فليستقم أيضاً أي: فليستقم المؤمنون. وقيل: إستقم أنت على الأداء، وليستقيموا على القبول.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تجاوزوا أمر الله بالزيادة والنقصان، فتخرجوا عن حدّ الإستقامة. وقيل: معناه: ولا تطغينّكم النعمة، فتخرجوا عن حدّ الإستقامة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: لا تعصوا الله، ولا تخالفوه.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عليم بأعمالكم، لاتخفى عليه منها خافية.

وروي الواحدي بإسناده عن إبراهيم بن أدهم، عن مالك بن دينار، عن أبي مسلم الخولاني، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: لو صلّيتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتاد، ثمّ كان الاثنان [إثنان] أحبّ إليكم من الواحد، لم تبلغوا حدّ الإستقامة. وقال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية كانت أشدّ عليه، ولا أشقّ من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه، حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول الله!: شيّبتني هود، والواقعة.

النظم: وجه إتّصال الآية الأولى بما قبلها: إنّه لمّا قصّ نبأ الأُمم، وإهلاكهم؛ بكفرهم، أخبر عقيب ذلك، عن بطلان ما كانوا عليه، وأنّه يوفّيهم جزاء أعمالهم.

وقيل: إنّه سبحانه بيّن فيما قبل إختلاف الأُمم على أنبيائهم، تكذيباً لهم، ثمّ بيّن في هذه الآية، أنّ خلاف هؤلاء كخلاف أُولئك، خلاف كفر، لا خلاف إجتهاد، ـ عن أبي مسلم ـ. وكذلك إتّصال الآية الثانية، فإنّه بيّن فيها أنّ تكذيب هؤلاء الكفّار بالذي آتيناك، كتكذيب أُولئك بالكتاب الذي آتيناه موسى.

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ
أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ
أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: وَزُلَفاً ـ بضمّ اللام ـ. والباقون: بفتح اللام.

الحجة: من قرأ: زلَفاً ـ بفتح اللام ـ، فإنّه جمع زلفة: وهي المنزلة. قال العجاج:

نَاجٍ طَواهُ الأَيْنُ مِمَّا وَجَفا ... طَيَّ اللَّيالِي زُلَفاً فَزْلَفا[1]

ومن قرأ بضمّ اللام، فإنّه واحد مثل الحلم، وجائز أن يكون جمعاً على زليف من الليل، فيكون مثل: قريب وقرب. قال الزجّاج: والزلَف ـ بالفتح ـ أجود

---

(١) تاج: الجمل السريع. والأين: الاعياء. والوجيف: نوع من السير، يصف جمله بالسير، والهزال، من كثرة المشى. وأراد بالطوى: الهزال. وقوله: طيّ الليالي: مصدر مضاف الى الفاعل، وتمام المعنى في شطر بيت بعده: «سماوة الهلال حتى إحقوقفا» يعني: كما يطوي ويهزل الليالي جسم الهلال، حتى يصير محقوقفاً. وسماوة الهلال أي: شخصه، مفعول طي الليالي.

في الجمع، وما علمت أنّ زليفاً يستعمل في الليل، وهو منصوب على الظرف.

اللغة: الركون إلى الشيء: هو السكون إليه بالمحبّة له، والإنصات إليه. ونقيضه: النفور عنه. والصبر: حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحقّ. وضدُّه: الجزع. قال:

فَإِنْ تَصْبِرا فَالصَّبْرُ خَيْرٌ مَغَبَّةً وَإِنْ تَجْزَعا فَالأَمْرُ ما تَرَيانِ

وهو مأخوذ من الصبر المرّ؛ لأنّه يجرع مرارة الحقّ بحبس النفس عن الخروج إلى المشتهى. وممّا يعين على الصبر شيئان: **أحدهما**: العلم بما يعقّب من الخير في كل وجه، وعادة النفس له. **والثاني**: إستشعار ما في لزوم الحقّ من العزّ والأجر بطاعة الله. والبقيّة: ما بقي من الشيء بعد ذهابه، وهو الإسم من الإبقاء، ويقال في فلان بقيّة أي: فضل ممّا يمدح به وخير، كأنّه قيل بقيّة خير من الخير الماضي.

و«أُترفوا» أي: عوّدوا الترفّه بالنعيم، واللذّة، وذلك إنّ الترفّه عادة النعمة، قال:

تُهدىٰ رُؤُوسُ الْمُتْرَفِينَ الضُّدَّاد إِلىٰ اَميرِ الْمُؤْمِنِينَ المُمْتاد[1]

أي: المسؤول. وإنّما قيل للمتنعّم: مترف؛ لأنّه مطلق له، لا يمنع من تنعّمه.

الإعراب: ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾: منصوب؛ لأنّه جواب النهي بالفاء. وتقديره: لايكن منكم ركون إلى الظالمين فتمسّ النار إيّاكم. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: إرتفع «تنصرون» على الإستئناف. «طرفي النهار»: منصوب على الظرف. «وزلفاً»: معطوف عليه.

«إلاّ قليلاً»: إستثناء منقطع، بمعنى «لكن»، ـ عن الزجّاج ـ. تقديره: لكن قليلاً ممّن أنجينا منهم نهوا عن الفساد.

المعنى: ثمّ نهي الله سبحانه عن المداهنة في الدين، والميل إلى الظالمين،

---

(١) الممتاد أي: المستعطي المسؤول منه العطاء، وهو يائى من الميد.

فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ولا تميلوا إلى المشركين في شيء من دينكم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لا تداهنوا الظلمة، ـ عن السدّي، وابن زيد ـ. وقيل: إنّ الركون إلى الظالمين المنهيّ عنه، هو الدخول معهم في ظلمهم، وإظهار الرضا بفعلهم، وإظهار موالاتهم. فأمّا الدخول عليهم، أو مخالطتهم ومعاشرتهم؛ دفعاً لشرّهم، فجائز، ـ عن القاضي ـ. وقريب منه ما روي عنهم عليهم السلام: إنّ الركون: المودّة، والنصيحة، والطاعة.

﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: فيصيبكم عذاب النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ما لكم سواه من أنصار يدفعون عنكم عذاب الله. وفي هذا بيان أنّهم متى خالفوا هذا النهي، وسكنوا إلى الظالمين، نالتهم النار، ولم يكن لهم ناصر يدفع عنهم؛ عقوبة لهم على ذلك.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تنصرون في الدنيا على أعدائكم؛ لأنّ نصر الله نوع من الثواب، فيكون للمطيعين.

﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ أي: أدِّها، وائت بأعمالها على وجه التمام في ركوعها، وسجودها، وسائر فروضها. وقيل: معناه: إعملها على إستواء. وقيل: أَدِمْ فعلها.

﴿طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ﴾ قيل: أراد بطرفي النهار: صلاة الفجر، والمغرب. وبزلف من الليل: صلاة العشاء الآخرة. والزلف: أول ساعات الليل، عن ابن عباس، وابن زيد قالوا: وترك ذكر الظهر والعصر لأحد أمرين: إمّا لظهورهما في أنهما صلاتا النهار، فكأنّه قال: وأَقم الصلاة طرفي النهار، مع المعروفة من صلاة النهار. وإمّا لأنّهما مذكورتان على التبع للطرف الأخير؛ لأنّها بعد الزوال، فهما أقرب إليه. وقد قال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ إلى غسق الليل. ودلوك الشمس: زوالها، وهذا القول هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.

وقيل: صلاة طرفي النهار: الغداة والظهر، والعصر. وصلاة زلف الليل:

المغرب والعشاء الآخرة، عن الزجّاج، وبه قال مجاهد، والضحّاك، ومحمّد بن كعب القرظي، والحسن قالوا: لأنّ طرف الشيء من الشيء، وصلاة المغرب ليست من النهار. قال الحسن، قال رسول الله ﷺ: المغرب والعشاء زلفتا الليل. وقيل: أراد بطرفي النهار: صلاة الفجر وصلاة العصر.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قيل: في معناه إلى الصلوات الخمس تكفِّر ما بينها من الذنوب؛ لأنّه عرف الحسنات بالألف واللام، وقد تقدّم ذكر الصلاة، عن ابن عباس، وأكثر المفسّرين. وذكر الواحدي بإسناده عن حمّاد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن أبي عثمان، قال: كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصناً يابساً منها، فهزَّه حتى تحات ورقه[١]، ثمّ قال: يا أبا عثمان! ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: هكذا فعله رسول الله ﷺ، وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً، فهزَّه حتى تحات ورقه، ثمّ قال: ألا تسألني يا سلمان لمَ أفعل هذا؟ قلت: ولمَ فعلته؟ قال: إنّ المسلم إذا توضّأ فأحسن الوضوء، ثمّ صلّى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه، كما يتحات هذا الورق، ثمّ قرأ هذه الآية ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها.

وبإسناده عن أبي إمامة. قال: بينما رسول الله ﷺ، في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إنّي أصبت حدّاً فأقمه عليَّ. فقال: هل شهدت الصلاة معنا؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: فإنّ الله قد غفر لك حدَّك، أو قال: ذنبك.

وبإسناده عن الحرث، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كنّا مع رسول الله ﷺ، في المسجد، ننتظر الصلاة، فقام رجل، فقال: يا رسول الله! إنّي أصبت ذنباً. فأَعرض عنه. فلمّا قضى النبيّ ﷺ، الصلاة، قام الرجل فأعاد القول، فقال

---

[١] أي: تساقط.

النبيّ ﷺ: أليس قد صلّيت معنا هذه الصلاة، وأحسنت لها الطهور؟ قال: بلى. قال: فإنّها كفّارة ذنبك.

وروي أصحابنا عن ابن محبوب، عن إبراهيم الكرخي، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، إذ دخل عليه رجل من أهل المدينة، فقال له: من أين جئت؟ ثمّ قال له: تقول جئتك من هيهنا وهيهنا لغير معاش تطلبه. ولا لعمل آخر [آخِرَةٍ] تكسبه، أُنظر بماذا تقطع يومك وليلتك، واعلم أنّ معك ملكاً كريماً، موكّلاً بك، يحفظ عليك ما تصْنع، ويطّلع على سرّك الذي تخفيه من الناس، فاستحيي لا تستحقرنّ سيّئة، فإنّها ستسوؤك يوماً، ولا تحقرنّ حسنة، وإن صغرت عندك، وقلّت في عينك، فإنّها ستسرّك يوماً، واعلم أنّه ليس شيء أضرّ عاقبة، ولا أسرع ندامة من الخطيئة، وأنّه ليس شيء أشدّ طلباً، ولا أسرع دركاً للخطيئة من الحسنة، أما إنّها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسي عند عامله، فتجتذبه وتسقطه، وتذهب به بعد إثباته، وذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

ورووا عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت أحدهما عليه السلام يقول: إنّ عليّاً عليه السلام، أقبل على الناس فقال: أيّة آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. فقال: حسنة، وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾. قال: حسنة، وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قال: حسنة، وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية. قال: حسنة، وليست إيّاها. قال: ثمّ أحجم الناس. فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: لا والله ما عندنا شيء.

قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ وقرأ الآية كلّها. قال: يا عليّ! والذي بعثني بالحقّ بشيراً

ونذيراً! إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه، فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل، وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أُمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين، كان له مثل ذلك، حتى عدَّ الصلوات الخمس. ثمّ قال: يا عليّ! إنّما منزلة الصلوات الخمس لأُمّتي، كنهر جار على باب أحدكم، فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن، ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأُمّتي.

وقيل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ معناه: إنّ الدوام على فعل الحسنات، يدعو إلى ترك السيّئات، فكأنّها يذهبن بها. وقيل: إنّ المراد بالحسنات: التوبة، فإنّها تذهب السيّئات بأن تسقط عقابها؛ لأنّه لا خلاف في أنّ العقاب يسقط عند التوبة.

﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يعني: إنّ ما ذكره من أنّ الحسنات تذهب السيئات، فيه تذكار، وموعظة لمن تذكَّر به، وفكَّر فيه.

﴿وَاصْبِرْ﴾ قيل: معناه: واصبر على الصلاة، كما قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المصلّين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إصبر يا محمّد على أذى قومك، وتكذيبهم إيّاك، وعلى القيام ما افترضته عليك، وعلى أداء الواجبات، والإمتناع عن المقبحات، فإنّ الله لا يهمل جزاء المحسنين على إحسانهم، ولا يبطله، بل يكافيهم عليه أكمل الثواب.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي: هلّا كان، وإلّا كان، ومعناه: النفي، وتقديره: لم يكن من القرون من قبلكم قوم باقون.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كان يجب أن يكون منهم قوم بهذه الصفة، مع إنعام الله تعالى عليهم، بكمال العقل، وبعثة الرسل إليهم، وإقامة الحجج

لهم. وهذا تعجيب، وتوبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من قبلهم في الفساد نحو عاد، وثمود، والقرون التي عدّها القرآن، وأخبر بهلاكها أي: إنّ العجب منهم، كيف لم تكن من جملتهم بقية في الأرض، يأمرون فيها بالمعروف، وينهون عن المنكر، وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب وأنواع العقوبات؛ لكفرهم بالله، ومعاصيهم له. وقيل: ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾ معناه: ذوو دين وخير. وقيل: معناه: ذوو بركة. وقيل: ذوو تمييز وطاعة.

﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ المعنى: إنّ قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد، وهم الأنبياء والصالحون، الذين آمنوا مع الرسل، فأنجيناهم من العذاب الذي نزل بقومهم. وإنّما جعلوا هذا الإستثناء منقطعاً، لأنّه إيجاب لم يتقدّم فيه صيغة النفي، وإنّما تقدّم تهجين خرج مخرج السؤال، ولو رفع لجاز في الكلام.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: واتّبع المشركون ما عوّدوا من النعم والتنعّم، وإيثار اللذّات على أُمور الآخرة، واشتغلوا بذلك عن الطاعات.

﴿وَكَانُوا﴾ أي: وكان هؤلاء المتنعّمون البطرون ﴿مُجْرِمِين﴾ مصرّين على الجرم. وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر؛ لأنّه سبحانه ذمّهم بترك النهي عن الفساد، وأخبر بأنّه أنجى القليل منهم لنهييهم عن ذلك، ونبّه على أنّه لو نهي الكثير كما نهي القليل، لما هلكوا. ثمّ أخبر سبحانه أنّه لم يهلك إلّا بالكفر والفساد، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وذكر في تأويله وجوه:

أحدها: إنّ المعنى: وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم منه لهم، ولكن إنّما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم، كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ الآية. وثانيها: إنّ معناه: لا يؤاخذهم بظلم واحدهم، مع أنّ أكثرهم مصلحون، ولكن إذا عمّ الفساد، وظلم الأكثرون، عذّبهم. وثالثها: إنّه لا يهلكهم بشركهم، وظلمهم لأنفسهم، وهم

يتعاطون الحقّ بينهم أي: ليس من سبيل الكفّار إذا قصدوا الحقّ في المعاملة أن يهلكهم الله بالعذاب، ـ عن ابن عباس في رواية عطاـ. و«الواو» في قوله: ﴿وأهلها﴾ واو الحال. وروي عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: وأهلها مصلحون ينصف بعضها بعضهم.

النظم: وجه اتّصال قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية. بما قبلها: إنّه تعالى لمّا ذكر إهلاك الأُمم الماضية، والقرون الخالية، عقّب ذلك بأنّهم أتوا في إهلاكهم من قبل نفوسهم، ولو كان فيهم مؤمنون يأمرون بالصلاح، وينهون عن الفساد، لما استأصلناهم رحمة منّا، ولكنّهم لمّا عمّهم الكفر، إستحقُّوا عذاب الإستئصال.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

أربع آيات كوفيّ وبصريّ ستّ آيات عند غيرهم، والخلاف في ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ و﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾.

القراءة: قرأ ﴿يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ ـ بضمّ الياء، وفتح الجيم وكسرها ـ نافع وحفص. والباقون: ﴿يَرجع﴾ ـ بفتح الياء ـ. وقرأ: عمّا تعملون ـ بالتاء ـ هنا، وفي آخر النمل، أهل المدينة، والشام، ويعقوب، وحفص. والباقون: بالياء.

الحجة: من ضمّ الياء من «يرجع»؛ فلقوله: ثمّ ردُّوا إلى الله مولاهم الحقّ، والمعنى: ردّ أمرهم إلى الله. ومن فتح الياء؛ فلقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ والمعنيان متقاربان. ومن قرأ بالتاء في «تعملون» جعل الخطاب للنبيّ ﷺ، وأُمّته، وهو أعمّ فائدة. ومن قرأ بالياء، وجهه إلى من تقدّم ذكره من الكفّار، وفيه ضرب من التهديد.

اللغة: القصص: الخبر عن الأمور بما يتلوا بعضه بعضاً؛ لأنّه من قصّه يقصّه: إذا أتبع أثره، لأنّه يتبع أثر من يخبر عنه. والنبأ: الخبر بما فيه من عظم الشأن، يقولون لهذا الأمر: نبأ. والتثبيت: تمكين إقامة الشيء من الثبوت، يقال: ثبته بتسكينه، وثبته بتمكينه، وثبته بالدلالة على ثبوته، وثبته بالخبر عن وجوده. والفؤاد: القلب، مأخوذ من المفتأد، وهو المُشوي: قال:

كَأَنَّهُ خارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِه سُفُّودَ شَرْبٍ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادِ[1]

والمكانة: الطريقة التي يتمكّن من العمل عليها، وله مكانه عند السلطان أي: جاه وقدر. والإنتظار: طلب الإدراك لما يأتي من الأمر؛ لأنّه من النظر. والفرق بين الإنتظار والترجّي: إنّ الترجّي للخير خاصّة، والإنتظار في الخير والشرّ.

الإعراب: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ قال الزجّاج: هو إستثناء على معنى «لكن»، وتقديره: لكن من رحم ربّك، فإنّه غير مختلف. وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾:

---

(١) وفي مفردات الراغب: الفؤاد كالقلب، لكن يقال له: فؤاد: إذا اعتبر فيه معنى التفؤّد أي: التوقّد. يقال: فادت اللحم شويته إنتهى. والشرب: جمع شارب. والمفتاد ـ بصيغة إسم الفاعل ـ : صانع الشوا، وبائعه.

جواب القسم، وتقديره: يميناً لأملأنّ كما تقول: حلفي لأضربنك، وبدا لي لأضربك. وكل فعل كان تأويله كتأويل بلغني، أو قيل لي، أو انتهى إليّ، فإنّ «اللام وإن» يصلحان فيه. فتقول: بدا لي لأضربنّك، وبدا لي أضربك. ولو قيل وتمت كلمة ربّك أن يملأ جهنّم، كان صواباً. ﴿وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نصب على المصدر، وتقديره: وكل القصص نقصّ عليك. وقيل: إنّه نصب على الحال، فقدّم الحال قبل العامل، كما تقول: كلّاً ضربت القوم. ويجوز أن يكون نصباً؛ على أنّه مفعول به، وتقديره: وكل الذي يحتاج إليه نقص عليك، ويكون ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدلاً منه، قاله الزجاج. وقوله: ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لو دخلت الفاء فقال: فإنا، لأفاد أن الثاني لأجل الأول، وحيث لم يدخل، لم يفد ذلك.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملّة واحدة، ودين واحد، فيكونون مسلمين صالحين، ـ عن قتادة ـ. وذلك بأن يلجئهم إلى الإسلام، بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو راموا غير ذلك لمنعوا منه، لكن ذلك ينافي التكليف، ويبطل الغرض بالتكليف؛ لأنّ الغرض به إستحقاق الثواب، والإلجاء يمنع من إستحقاق الثواب، فلذلك لم يشأ الله ذلك، ولكنه شاء أن يؤمنوا بإختيارهم؛ ليستحقّوا الثواب. وقيل: معناه: لو شاء ربّك لجعلهم أُمّة واحدة في الجنّة، على سبيل التفضّل، لكنّه إختار لهم أعلى الدرجتين، فكلّفهم ليستحقّوا الثواب، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: لو شاء لرفع الخلاف فيما بينهم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الأديان بين يهوديّ، ونصرانيّ، ومجوسيّ، وغير ذلك، ـ عن مجاهد، وقتادة، وعطا، والأعمش، والحسن في إحدى الروايتين عنه ـ. وفي الرواية الأُخرى عنه: أنهم مختلفون في الأرزاق، والأحوال، ولتسخير بعضهم لبعض. وقيل: معناه يخلف بعضهم بعضاً في الكفر؛ تقليداً من غير نظر، فإنّ

قولك: خلف بعضهم بعضاً، وقولك: اختلفوا، سواء، كما أنّ قولك: قتل بعضهم بعضا، وقولك: إقتتلوا، سواء، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ من المؤمنين، فإنّهم لا يختلفون، ويجتمعون على الحقّ، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: لا يزالون مختلفين بالباطل، إلّا من رحمهم الله بفعل اللطف لهم، الذي يؤمنون عنده، ويستحقّون به الثواب، فإنّ من هذه صورته ناج من الإختلاف بالباطل.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أختلف في معناه: فقيل: يريد وللرحمة خلقهم، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحّاك ـ. وهذا هو الصحيح.

وأعترض على ذلك، بأن قيل: لو أراد الله ذلك. لقال: ولتلك خلقهم؛ لأنّ الرحمة مؤنّثة. وهذا باطل؛ لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقيّ، فإذا ذكّر، فعلى معنى التفضّل والإنعام. وقد قال سبحانه: ﴿هٰذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾ و﴿إِنَّ رَحْمَةَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ومثله: قول إمرىء القيس:

بَسَرَهْرَهَةُ، رُؤْدَةٌ، رَخْصَةٌ كَخُرْعُوبَةِ الْبانَةِ الْمُنْفَطِرِ[1]

ولم يقل: المنفطرة [المتفطّرة]، لأنّه ذهب إلى الغصن، وقال:

قَامَتْ تُبَكِّيهِ[1] عَلىٰ قَبْرِهِ مَنْ لِيَ مِنْ بَعْدِكَ يا عامِرُ
تَرَكْتَني فِي الدَّارِ فِي غُرْبَةٍ قَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ

ولم يقل: ذات غربة؛ لأنّه أراد شخصاً ذا غربة. وقالت الخنساء:

فَذٰلِكَ يا هِنْدُ الرَّزِيَّةُ فَاعْلَمِي وَنِيرانُ حَرْب حِينَ شَبَّ وَقُودُهٰا

أراد الرزء: وفي أمثال ذلك كثرة على أنّ قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ كما

---

(١) يصف إمرأة وبرهرهة: رقيقة الجلد، ورودة الرخصة الناعمة. وخرعوبة: القضيب الغض. والبانة: شجر. والمنفطر: المنشقّ، وهو صفة لخرعوبة، ومع ذلك ذكرها على معنى القضيب.
[١] البَكيّ: الكثير البُكاء.

يدلّ على الرحمة، يدلّ أيضاً على أن يرحم، فلا يمتنع أن يكون المراد: لأن يرحموا خلقهم. وقيل: إنّ المعنى: ولإختلاف خلقهم. واللام: للعاقبة، يريد: أنّ الله خلقهم، وعلم أنّ عاقبتهم تؤول إلى الإختلاف المذموم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ ـ عن الحسن، وعطا، ومالك ـ. ولا يجوز على هذا أن يكون اللام للغرض؛ لأنّه تعالى لا يجوز أن يريد منهم الإختلاف المذموم؛ إذ لو أراد ذلك منهم، لكانوا مطيعين له في ذلك الإختلاف؛ لأنّ الطاعة حقيقتها موافقة الإرادة والأمر، ولو كانوا كذلك لما إستحقُّوا عقاباً. وأمّا إذا حمل معنى الإختلاف على ما قاله أبو مسلم، فيجوز أن تكون اللام للغرض. وقيل: إنّ ذلك إشارة إلى إجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أُمّة واحدة، ولا محالة أنّ الله سبحانه لهذا خلقهم، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال المرتضى ﷺ: قد قال قوم إنّ معنى الآية: ولو شاء ربّك أن يدخل الناس بأجمعهم الجنّة، فيكونوا في وصول جميعهم إلى النعيم، أُمّة واحدة، لفعل، وأجروا هذه الآية مجرى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في أنّه أراد هديها إلى طريق الجنّة فعلى هذا التأويل يمكن أن يكون لفظة ذلك إشارة إلى إدخالهم أجمعين الجنّة؛ لأنّه تعالى إنّما خلقهم للمصير إليها، والوصول إلى نعيمها.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: وصل وحيه، ووعيده الذي لا خلف فيه بتمامه إلى عباده. وقيل: تمّت كلمة ربّك (صدقاً)، بأن وقع مخبرها على ما أخبر به، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: وجب قول ربّك، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: مضى حكم ربّك، ـ عن الحسن ـ.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بكفرهم.

﴿وكُلّاً﴾ أي: وكلّ القصص ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي: من أخبارهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: ما نقوّي به قلبك، ونطيب به نفسك، ونزيدك به

ثباتاً على ما أنت عليه من الإنذار، والصبر على أذى قومك الكفّار.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد ـ. وقيل: في هذه الدنيا، ـ عن قتادة ـ. وقيل: في هذا الأنباء، ـ عن الجبائي ـ. والحقّ: الصدق من الأنباء، والوعد، والوعيد. وقيل: معناه: وجاءك في ذكر هذه الآيات، التي ذكرت قبل هذا الموضع الحقّ، في أنّ الخلق يجازون بإنصبائهم في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ﴿وَإِنْ كُلّاً لَمّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾. وقد جاء في القرآن كلّه الحقّ، ولكنّه ذكرها هنا توكيداً، وليس إذا قيل: قد جاءك في هذا الحقّ، وجب أن يكون لم يأتك الحقّ إلّا فيه. ولكن بعض الحقّ أوكد من بعض، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وجاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله، وتزجر الناس عن المعاصي ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكرهم الآخرة.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ هذا مثل قوله: ﴿إِعْمَلُوا مَا شِئْتُم﴾.

﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على ما أمرنا الله تعالى به. وقد مرّ تفسير هذه الآية فيما مضى.

﴿وَانتَظِرُوا﴾ أي: توقّعوا ما يعدكم ربّكم على الكفر، من العقاب ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يعدنا على الإيمان من الثواب. وقيل: إنتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور، إنّا منتظرون ما يعدنا ربّنا من النصر والعلوّ، ـ عن ابن جريج ـ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: ولله علم ما غاب في السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء منه، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: معناه: والله مالك ما غاب في السماوات والأرض. وقيل: معناه: ولله خزائن السماوات والأرض،

ـ عن ابن عباس ـ. ووجدت بعض المشايخ، ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيع، قد ظلم الشيعة الإماميّة في هذا الموضع من تفسيره، فقال: هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه يختصّ بعلم الغيب، خلافاً لما تقول الرافضة: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب! ولا شكّ أنّه عني بذلك من يقول بإمامة الإثني عشر، ويدين بأنّهم أفضل الأنام بعد النبيّ ﷺ، فإنّ هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم إستجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، فإنّما يستحقّ الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات، لا بعلم مستفاد. وهذه صفة القديم سبحانه. العالم لذاته، لا يشركه فيها أحد من المخلوقين. ومن إعتقد أنّ غير الله سبحانه يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملّة الإسلام.

فأمّا ما نقل عن أميرالمؤمنين عليه السلام، ورواه عنه الخاصّ والعامّ، من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها، مثل قوله: يؤمى به إلى صاحب الزنج: كأنّي به يا أحنف، وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار، ولا لجب، ولا قعقعة لجم، ولا صهيل خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنّها أقدام النعام[1]. وقوله يشير إلى مروان: أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأُمّة منه ومن ولده موتاً أحمر.

---

(١) وممّا أخبر به عليه السلام خبر الترك، وانقراض ملك بني العباس، ووقعة هولاكو، وهو خبر مرويّ في نهج البلاغة، وتأليفه أكثر من مائتي سنة قبل الوقعة، وذكر في تاريخ الوصاف، وكذلك العلامة في نهج الحقّ، أنّ ثلاثة نفر من فقهاء حلّة أحدهم والد العلامة، رحمهم الله ذهبوا إلى معسكر هلاكو، يطلبون التأمين للمشهدين والحلّة، فسئل هولاكو من ترجمانه من أين علموا أنّي سأظفر بالعرب، فسئلهم، فقالوا: أخبرنا بذلك إمامنا، فأمنهم، وكان زمان المصنّف قبل الوقعة، ولذلك لم يذكره.

وما نقل من هذا الفنّ عن أئمّة الهدى عليهم السلام، من أولاده، مثل ما قاله أبو عبدالله عليه السلام لعبد الله بن الحسن، وقد اجتمع هو وجماعة من العلويّة والعباسيّة، ليبايعوا ابنه محمّداً: والله ما هي إليك، ولا إلى إبنيك، ولكنّها لهم ـ وأشار إلى العباسيّة ـ وإنّ ابنيك لمقتولان. ثمّ نهض وتوكأ على يد عبدالعزيز بن عمران الزهري، فقال له: أرأيت صاحب الرداء الأصفر ـ يعني أبا جعفر المنصور ـ قال: نعم. فقال: إنّا والله نجده يقتله! فكان كما قال.

ومثل قول الرضا عليه السلام: بورك قبر بطوس، وقبران ببغداد! فقيل له: قد عرفنا واحداً فما الآخر؟ فقال: ستعرفونه. ثمّ قال: قبري وقبر هارون هكذا ـ وضمّ إصبعيه ـ.

وقوله في القصّة المشهورة لأبي حبيب النباحيّ، وقد ناوله قبضة من التمر: لو زادك رسول الله صلى الله عليه وآله، لزدناك!

وقوله في حديث عليّ بن أحمد الوشّاء، حين قدم مرو من الكوفة: معك حلّة في السفط الفلاني، دفعتها إليك إبنتك، وقالت إشتر لي بثمنها فيروزجاً. والحديث مشهور. إلى غير ذلك ممّا روي عنهم عليهم السلام، فإنّ جميع ذلك متلقي عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ممّا أطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة من روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنّه يعتقد كونهم عالمين للغيب. وهل هذا إلّا سبب قبيح، وتضليل لهم، بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير، والله يحكم بينه وبينهم، وإليه المصير.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: إلى حكمه يرجع في المعاد كل الأمور؛ لأنّ في الدنيا قد يملك غيره بعض الأمر والنهي، والنفع والضرّ.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ يريد أنّ من له ملك السماوات والأرض، وإليه

يرجع جميع الأمور، فحقيق أن يعبد ويتذلّل له، ويتوكّل عليه، ويوثق بـه ﴿وَمَـا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ أي: بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عن أعمال عباده، بل هو عالم بـها، ومجاز كلاً منهم عليها ما يستحقّه من ثـواب وعـقاب، فـلا يـحزنك يـا مـحمّد إعراضهم عنك، وتركهم القبول منك. وروي عن كعب الأحبار أنّه قـال: خـاتمة التوراة خاتمة هود.

سُورَةُ يُوسُفَ

مكّيّة. وقال المعدل، عن ابن عباس: غير أربع آيات نزلن بالمدينة، ثلاث من أوّلها، والرابعة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

عَدَدُ آيِهَا: مائة وإحدى عشرة آية؛ بالإجماع.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنّه أيّما مسلم تلاها، وعلمها أهله، وما ملكت يمينه، هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً. وروي أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: من قرأ سورة يوسف في كل يوم، أو في كل ليلة، بعثه الله يوم القيامة، وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين. وقال فيها: إنّها كانت في التوراة مكتوبة. وروي إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبدالله، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تنزلوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، ولا تعلّموهنّ سورة يوسف، وعلّموهنّ الغَزْل، وسورة النور.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سبحانه سورة هود بذكر قصص أنباء الرسل، إفتتح هذه السورة بأنّ من تلك القصص، قصّة يوسف عليه السلام وإخوته، وأنّها من أَحسن القصص، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين ﴿١﴾ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴿٢﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴿٣﴾

الإعراب: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ فيه وجهان: أحدهما: قرآناً: إنتصب؛ بأنّه بدل من «الهاء» في «أنزلناه» فكأنّه قال: إنّا أنزلنا قرآناً والثاني: إنّه توطئة للحال؛ لأنّ «عربيّاً» حال، وهذا كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، فتنصب «صالحاً» على الحال، وتجعل «رجلاً» توطئة للحال. وقوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ﴾ القرآن: نصب، وإنّه وصف لمعمول «أوحينا» وهو هذا أو بدل، أو عطف بيان. قال الزجّاج: ويجوز الجرّ والرفع جميعاً في الكلام، وإن لم يقرأ بهما. أما الجرّ، فعلى البدل ممّا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بهذا القرآن. وأمّا الرفع، فعلى ترجمة ﴿مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ كأنّ قائلاً قال: ما هو؟ فقيل: هذا القرآن.

المعنى: ﴿الر﴾ قد سبق الكلام فيه في أوّل البقرة، وإنّما لم يعدّ آية؛ لأنّه على حرفين، ولا يشاكل رؤوس الآي. وعدّ طه آية؛ لأنّه يشبه رؤوس الآي.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قيل: في معنى الإشارة بتلك وجوه: أحدها: أنّه

إشارة إلى ما سيأتي من ذكرها على وجه التوقّع لها. والثاني: إنّه إشارة إلى السورة أي: سورة يوسف آيات الكتاب المبين. والثالث: إنّ معناه: هذه الآيات، تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة، كما قال: الم ذلك الكتاب، ـ عن الزجّاج ـ و ﴿الْمُبِيْنِ﴾ المظهر لحلال الله وحرامه، والمعاني المرادة فيه، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. والمبين والمبيِّن، واحد. والبيان هو الدلالة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن أي: أنزلنا هذا الكتاب. وقيل: أنزلنا خبر يوسف وقصّته، ـ عن الزجّاج ـ، قال؛ لأنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمّداً لِمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصّة يوسف عليه السلام. فقال: إنّا أنزلناه ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ على مجاري كلام العرب في محاوراتهم. وروى ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: أُحبُّ العرب لثلاث: لأنّي عربيّ، والقرآن عربيّ، وكلام أهل الجنّة عربيّ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعلموا جميع معانيه، وتفهموا ما فيه. وقيل: معناه: لتعلموا أنّه من عند الله إذ كان عربيّاً، وعجزتم عن الإتيان بمثله. وفي هذه الآية دلالة على أنّ كلام الله سبحانه محدث، وأنّه غير الله؛ لأنّه وصفه بالإنزال، وبأنّه عربيّ، ولا يوصف بذلك القديم سبحانه.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي: نبيِّن لك أحسن البيان، ـ عن الزجاج ـ. وهذا كقولهم: صمت أحسن الصيام، وقمت أحسن القيام، ممّا يكون إنتصابه على أنّه قائم مقام المصدر. فالمعنى: نبيِّن لك أحسن تبيين، وأحسن إيضاح.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا إليك ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ودخلت الباء لتبيين القصص، إذ القصص؛ تكون قرآناً، وغير القرآن. والقصص هيهنا بوحي القرآن. وقيل: إنّما سمّي القرآن أحسن القصص؛ لأنّه بلغ النهاية في الفصاحة، وحسن المعاني، وعذوبة الألفاظ مع التلاؤم المنافي للتنافر، والتشاكل بين المقاطع والفواصل. وقيل: لأنّه ذكر فيه أخبار الأمم الماضية وأخبار الكائنات الآتية،

وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة، بأعذب لفظ وتهذيب، في أحسن نظم وترتيب. وقيل: أراد بأحسن القصص: قصّة يوسف وحدها؛ لأنّها تتضمّن من الفوائد، والنكت، والغرائب، ما لا يتضمّنه غيرها؛ ولأنّها تمتدّ إمتداداً لا يمتدّ غيرها مثله.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يدلّ على أنّ الحسن يتفاضل ويتعاظم؛ لأنّ لفظة «أفعل» حقيقتها ذلك، وإنّما يتعاظم بكثرة استحقاق المدح عليه، ويسأل عن هذا، فيقال: هل يجوز أن يسمّي الله سبحانه قاصّاً؟ فيقال: لا؛ لأنّه في العرف إنّما يستعمل فيمن تمسّك بطريقة مخصوصة، وهذا كما أنّه سبحانه لا يسمّى مُعَلّماً، ولا مُفْتياً، وإن وصف نفسه بأنّه علم القرآن، وبأنّه يفتيكم في النساء.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾ معناه: وما كنت من قبل أن أوحينا إليك هذا القرآن، أو من قبل نزول القرآن عليك، إلّا من الغافلين عن الحِكم التي في القرآن، لا تعلم شيئاً منها. وقيل: من الغافلين عن قصّة يوسف، وعن الحِكم التي فيها.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ
عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا
عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر: «يا أبتَ» ـ بفتح التاء ـ. والباقون:

بكسرها. وابن كثير وقف على الهاء: ـ يا أبه ـ. والباقون: بالتاء. وروي في الشواذّ، عن أبي جعفر، ونافع، وطلحة بن سليمان: أحدَ عْشَر ـ بسكون العين ـ، والقراءة بفتحها.

وقرأ الكسائي، إلّا أبا الحرث، وقتيبة: بإمالة «رؤياك»، والرؤيا في جميع القرآن. وروى أبو الحرث عنه: فتح «رؤياك» وإمالة الباقي. وقتيبة أمال «للرؤيا تعبرون» فقط. وقرأ خلف في إختياره، بإمالة ما فيه ألف ولام. والباقون: بالتفخيم. وخفّف الهمزة في جميع ذلك أبو جعفر، وورش، وشجاع، والترمذي إلّا أنّ أبا جعفر يدغم الواو في الياء فيجعلها ياء مشدّدة.

الحجة: قال الزجّاج: من قرأ: يا أبتِ ـ بكسر التاء ـ، فعلى الإضافة إلى نفسه، وحذف الياء؛ لأنّ ياء الإضافة تحذف في النداء. وأمّا إدخال تاء التأنيث في «الأب»، فإنّما دخلت في النداء خاصّة، والمذكّر قد يسمّى بإسم فيه علامة التأنيث، ويوصف بما فيه تاء التأنيث: فالإسم نحو نفس وعين، والصفة نحو: غلام يفعة، ورجل ربعة. فلزمت التاء في الأب؛ عوضاً من ياء الإضافة. والوقف عليها، «يا أبه» ـ بالهاء ـ. وإن كانت في المصحف بالتاء. وزعم الفرّاء أنّك إذا كسرت، وقفت بالتاء لا غير، وإذا فتحت، وقفت بالتاء والهاء، ولا فرق بين الكسر والفتح.

وأمّا «يا أبت» ـ بالفتح ـ: فعلى أنّه أُبدل من ياء الإضافة ألفاً، ثمّ حذفت الألف، كما يحذف ياء الإضافة، وبقيت الفتحة. قال أبو عليّ: من فتح، فله وجهان:

أحدهما: أن يكون مثل: يا طلحةَ أقبل، ووجه قول من قال: يا طلحة؛ أنّ هذا النحو من الأسماء التي فيها تاء التأنيث، أكثر ما يدّعى مرخّماً. فلمّا كان كذلك ردّ التاء المحذوفة في الترخيم إليه، وترك الآخر يجري على ما كان يجري عليه في الترخيم من الفتح، فلم يعتدّ بالهاء، وأقحمها.

والوجه الآخر: أن يكون أراد «يا أبتا»، فحذف الألف، كما يحذف التاء،

فتبقى الفتحة دالّة على الألف، كما أنّ الكسرة تبقى دالّة على الياء. والدليل على قوّة هذا الوجه؛ كثرة ما جاءت هذه الكلمة على هذا الوجه، كقول الشاعر:

وهل جزع ان قلت وا أبتاهما

وقول الأعشىٰ:

وَيْـا أَبَـتَا لاٰ تَـزَلْ عِـنْدَنٰا فَـإِنّا نَـخٰافُ بِأَنْ تَـخْتَرِم

وقول رؤبة:

يا أبتا عليك [علّك] أَوعساكا

فلمّا كثرت هذه الكلمة في كلامهم، أَلزموها القلب والحذف. على أنّ أبا عثمان قد رأى ذلك مطّرداً في جميع هذا الباب.

وأمّا وقف ابن كثير على الهاء، فلأنّ التاء التي للتأنيث، يبدل منها الهاء في الوقف، فيغيّر الحرف بذلك في الوقف، كما غير التنوين إذا إنفتح ما قبله، بأن أبدل منه الألف.

ومن قرأ: أحدَ عْشر ـ بسكون العين ـ، قال ابن جنّي: سبب ذلك عندي: أنّ الإسمين لمّا جعلا كالإسم الواحد، وبني الأوّل منهما؛ لأنّه كصدر الإسم من عجزة، جعل تسكين أوّل الثاني، دليلاً على أنّهما قد صارا كالإسم الواحد، وكذلك بقيّة العدد إلى تسعة عشر، إلّا إثني عشر، وإثنتي عشر، فإنّه لا يسكن العين؛ لسكون الألف والياء قبلها. قال الزجّاج: الرؤيا فيها أربع لغات: رؤيا ـ بالهمزة ـ، ورويا ـ بالواو من غير همز ـ، ورُيّا ـ على الإدغام ـ، ورِيّا ـ بكسر الراء.

قال أبو عليّ: الرؤيا: مصدر كالبشرى، والسقيا، والبقيا، والشورى، إلّا أنّه لمّا صار إسماً لهذا التخيّل في المنام، جرى مجرى الأسماء، كما أنّ «دَرًّا» لمّا كثر في كلامهم في قولهم: لله دَرُّك، جرى مجرى الأسماء، وخرج من حكم الأعمال، فلا يعمل واحد منهما أعمال المصادر. وممّا يقوّي خروجه عن أحكام المصادر،

تكسيرهم لها رؤى، فصار بمنزلة ظلم. والمصادر في الأكثر لا تكسر. والرؤيا ـ على تحقيق الهمز ـ، فإن خفّفت، قلبتها في اللفظ واواً، ولم تدغم الواو في الياء. وإن كانت قد تقدّمتها ساكنة، كما تقلب في نحو: طيّ ولي؛ لأنّ «الواو» في تقدير الهمزة، فهي لذلك غير لازمة، فلا يقع الإعتداد بها. وقد كسر أوَّلَها قوم، فقالوا: ريا، فهؤلاء قلبوا الواو قلباً، على غير وجه التخفيف، ومن ثَمّ كسروا الفاء، كما كسروا من قولهم: قَرْنٌ ألْوى، وقُرُونٌ لِيٌّ.

اللغة: الرؤيا: تصوّر المعنى في المنام على توهّم الإبصار، وذلك أنّ العقل مغمور بالنوم، فإذا تصوّر الإنسان المعني، توهّم أنّه يراه. والكيد: طلب الحيلة.

واللام في «يكيدوا لك» لام التعدية، كما تقول: قدمت لك طعاماً، وقدمت إليك طعاماً، وشكرت لك، وشكرتك. يقال: كاده يكيده كيداً، وكاد له. والإجتباء: إختيار معالي الأُمور للمجتبي، وأصله، من جبيت الماء في الحوض: إذا جمعته.

الإعراب: تقدير العامل في «إذ» يجوز أن يكون أذكر، كأنّه قال: أذكر إذ قال يوسف. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون على نقص عليك، إذ قال. وقد غلط في هذا؛ لأنّ الله تعالى لم يقصّ على نبيّه ﷺ هذا القصص في وقت قول يوسف عليه السلام. وكوكباً: منصوب على التمييز. وقوله: رأيتهم: كرّر الرؤية توكيداً؛ ولأنّ الكلام قد طال، والمعنى: رأيت أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر لي ساجدين. ولم يقل: ساجدات؛ لأنّه لمّا وصف هذه الأشياء بالسجود، كما يوصف الآدميّون بذلك. أجري فعلها مجرى فعل العقلاء، وكما قال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُم﴾. وموضع الكاف من قوله: وكذلك نصب. والمعنى: ومثل ما رأيت يجتبيك ربّك، ويعلّمك.

المعنى: ثمّ ابتدأ سبحانه بقصّة يوسف عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب عليه السلام وهو إسرائيل الله، ومعناه: عبدالله الخالص، ابن إسحاق نبيّ الله ابن

إبراهيم خليل الله. وفي الحديث: إنّ النبيّ ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي: رأيت في منامي. قال ابن عباس: إنّ يوسف عليه السلام رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر، أحد عشر كوكباً نزلن من السماء، فسجدن له، ورأى الشمس والقمر نزلا من السماء، فسجدا له. قال: فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر. وقال السدّي: الشمس أبوه، والقمر خالته، وذلك أنّ أُمّه راحيل قد ماتت. وقال ابن عباس: الشمس أُمّه، والقمر أبوه.

وقال وهب: كان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين، أنّ أحد عشر عصاً طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة تثبّ عليها، حتى اقتلعتها [وغلبتها]، فوصف ذلك لأبيه، فقال له: إيّاك أن تذكر هذا لإخوتك! ثمّ رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة، أنّ أحد عشر كوكباً، والشمس، والقمر، سجدت له، فقصّها على أبيه فقال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ الآية. وقيل: إنّه كان بين رؤياه وبين مصير أبيه وإخوته إلى مصر، أربعون سنة، ـ عن ابن عباس، وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: ثمانون سنة، عن الحسن[1]. ولمّا طال الكلام، كرّر رؤيتهم، وأعاده للتأكيد. وقيل: أراد بالرؤيا الأولى: رؤية الأعيان والأشخاص، وبالرؤية الثانية: رؤية سجودهم.

وأُختلف في معنى هذا السجود، فقيل: إنّه السجود المعروف على الحقيقة

---

(١) الرؤية بالحسّ المشترك لا بالعين، وإنّما العين واسطة للإحساس، ولذلك ترى الشعلة الجوّالة دائرة، وليس في العين دائرة من النار، والحسّ المشترك متّصل من الخارج بالعين، ومن الداخل بالخيال، فإن كانت العين مدركة، كما في اليقظة، فالحسّ المشترك متوجّه إليها، ولاينقش فيه من الداخل شيء، وإذا نامت العين، فرغ الحسّ المشترك عنها، وتوجّه الى الباطن، وانتقش فيه الصور من الباطن، فيراها في النوم، والصور الباطنة قد تكون بإلهام الله تعالى، والملائكة، وهي الرؤيا الصادقة.

لتكرمته، لا لعبادته. وقيل: معناه: الخضوع له، ـ عن الجبائي ـ. كما قال الشاعر:

ترى الأُكْمَ فيهِ سُجّداً لِلْحوافِرِ[١]

وهذا ترك الظاهر. ويقال: إنّ إخوته لمّا بلغهم رؤياه قالوا: ما رضي أن يسجد له اخوته، حتى يسجد له أبواه.

﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ أي: لا تخبرهم بذلك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ أي: فيحسدوك، أو يقابلوك بما فيه هلاكك، وذلك أنّ رؤيا الأنبياء وحي، وعلم يعقوب أنّ إخوة يوسف يعرفون تأويلها، ويخافون علوّ يوسف عليهم، فيحسدونه، ويبغونه الغوائل.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فيلقي بينهم العداوة، ويحملهم على إنزال المكروه بك.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما أُريك هذه الرؤيا تكرمة لك، وبيّن أنّ إخوتك يخضعون لك، أو يسجدون لك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ربّك، ويختارك للنبوّة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: لحُسن الخَلْق والخُلُق.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قيل: معناه: ويعلّمك من تعبير الرؤيا؛ لأنّ فيه أحاديث الناس عن رؤياهم، وسمّاه تأويلاً؛ لأنّه يؤول أمره إلى ما رأى في المنام، ـ عن قتادة ـ. وقال ابن زيد: كان أعبر الناس للرؤيا. وقيل: معناه: ويعلّمك عواقب الأُمور بالنبوّة، والوحي إليك، فتعلّم الأشياء قبل كونها، معجزة لك؛ لأنّه أضاف التعليم إلى الله، وذلك لا يكون إلّا بالوحي، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: تأويل أَحاديث الأنبياء والأُمم، يعني: كتب الله؛ ودلائله على توحيده، والمشروع من شرائعه، وأمور دينه، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. والتأويل في الأصل: هو المنتهى الذي يؤول إليه المعنى. وتأويل الحديث: فقهه الذي هو حكمه؛ لأنّه إظهار ما

---

[١] الأكم جمع الأكمة: التل. والحوافر جمع الحافر: الدابة. وكثيراً مايراد به الفرس.

يؤول إليه أمره ممّا يعتمد عليه، وفائدته.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوّة، لأنّها منتهى نعيم الدنيا. وقيل: إتمام النعمة: هو أن يحكم بدوامها على تخليصها من شائب بها، فهذه النعمة التامّة وخلوصها ممّا ينقصها، ولا يطلب ذلك إلّا من الله تعالى؛ لأنّه لا يقدر عليها سواه. وقيل: معناه: ويتمّ نعمته عليك، بأن يحوج إخوتك إليك حتى تنعم عليهم بعد إسائتهم إليك.

﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: وعلى إخوتك بأن يثبتهم على الإسلام، ويشرفهم بمكانك، ويجعل فيهم النبوّة. وقيل: يتمّ نعمته عليهم، بإنقاذهم من المحن على يديك.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ أي: كما أتمّ النعمة على إبراهيم، بالخلّة، والنبوّة، والنجاة من النار. وعلى إسحاق، بأن فداه عن الذبح بذبح عظيم، ـ عن عكرمة ـ. وقال إنّه الذبيح. وقيل: بإخراج يعقوب وأولاده من صلبه، عن أكثر المفسّرين، قالوا: وليس هو الذبيح، وإنّما الذبيح إسماعيل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للرسالة ﴿حَكِيمٌ﴾ في إختيار الرسل. وقيل: عليم بأحوال خلقه، حكيم في قضاياه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: آية للسائلين. والباقون: آيات. وقرأ أهل المدينة:

غيابات الجبّ. وفي الشواذّ قراءة الأعرج: غَيّابات ـ مشدّدة ـ. وقراءة الحسن: غِيْبَةِ الجبّ. وقرأ أهل المدينة، والكسائي: مبينٌ اقتُلُوا ـ بضمّ التنوين ـ. والباقون: بالكسر.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: آية ـ على الإفراد ـ، جعل شأنه كله آية، ويقوّيه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ فكل واحد منهما على إنفراده، يجوز أن يقال فيه: آية، فأفرد مع ذلك. ومن جمع، جعل كل حال من أحواله آية، على أنّ المفرد المنكر في الإيجاب، يقع دالاً على الكثرة، كما يقع كذلك في غير الإيجاب. قال الشاعر:

فَقَتْلاً بِتَقْتِيلٍ، وَضَرْباً بِضَرْبِكُمْ جَزَاءَ العِطاش لا يَنَامُ مِنَ الثَّأْرِ[1]

وأمّا الغيابة: فكل شي غيّب شيئاً، ـ عن أبي عبيدة ـ. وأنشد:

فَإِنْ أَنَاً يَوْماً غَيَّبَتْني غِيابَةٌ فَسِيرُوا بِسَيْري في العَشِيرَةِ، والأَهْلِ

والجبّ: الركية التي لم تطو. فمن أفرد، فالوجه فيه أنّ الجبّ لا يخلو من أن يكون له غيابة واحدة، أو غيابات. وغيابة المفرد يجوز أن يعني به الجمع، كما يعني به الواحد. ومن جمع، فإنّه يجوز أن يكون له غيابة واحدة، فجعل كل جزء منها غيابة، كقولهم: شابت مفارقه، وبئر ذو غيابتين. ويجوز أن يكون للبئر عدّة غيابات، فجمع لذلك.

وأمّا «غيّابات» ـ بالتشديد ـ، فيكون إسماً جاء على «فعالة»، كما جاء التيار للموج، والفياد للبوم الذكر، والفخار للخزف، وغير ذلك. وأمّا «غيبة»، فيجوز أن يكون حدثاً على «فعلة»، من «غاب»، فيكون بمعنى الظلمة. ويجوز أن يكون موضعاً على «فعلة»، وأمّا من ضمّ التنوين؛ فلأنّه إلتقى الساكنان التنوين والقاف في أقتلوا، ولزم تحريك الأوّل منهما، فحرّكه بالضمّ ليتبع الضمة الضم، كما

---

(١) الثأر: المنيم.

قيل سُرٌّ ومُدٌّ. ومن كسر التنوين فإنّه لم يتبع الضم. كما أنّ من قال: مُدٍّ، لم يتبع، وكسَرَ الساكنَ على ما يجري عليه أمرُ تحريكِ الساكن في الأمر الشائع.

اللغة: الآية، والعلامة، والعبرة، نظائر. والعصبة: الجماعة التي يتعصّب بعضها لبعض، ويقع على جماعة من عشرة إلى خمس عشر. وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين، ولا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط، والنفر. والفرق بين المحبّة والشهوة: أنّ الإنسان يحبّ ولده، ولا يشتهيه بأن يميل طبعه إليه، ويرقّ عليه، ويريد له الخير. والشهوة: منازعة النفس إلى ما فيه اللذّة. وإنّما سمّي البئر جبّاً؛ لأنّه قطع عنها ترابها، حتى بلغ الماء من غير طيّ، ومنه: المجبوب. قال الأعشى:

وَإِنْ كُنْتَ فِي جُبٍّ ثَمانِينَ قامَةً ... وَرَقَّيْتَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وكل ما غيَّب شيئاً عن الحسّ بكونه فيه، فهو غيابة. فغيابة البئر: شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر. والسيارة: الجماعة المسافرون؛ لأنّهم يسيرون في البلاد.

وقيل: هم مارّة الطريق. والإلتقاط: تناول الشيء من الطريق، ومنه: اللقطة، واللقيط، ومعناه: أن يجده من غير أن يحسبه. يقال: وردت الماء إلتفاطاً: إذا وردته من غير أن تحسبه.

الإعراب: العامل في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أذكر، وتقديره: أذكر إذ قالو ليوسف. ويحتمل أن يكون العامل فيه ما في الآية التي قبله، من قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ إذ قالوا. واللام في قوله: ﴿لَيُوسُفُ﴾ جواب القسم، تقديره: والله ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا «يخل لكم» جواب الأمر، «وتكونوا» جزم؛ لأنّه معطوف عليه. وروي عن الحسن ﴿تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ـ بالتاء ـ. وهذا كما يقال: ذهبت بعض أصابعه. وقال الشاعر:

طُولُ اللَّيالِي أَسْرَعَتْ فِي نَقْضِي ... طَوَيْنَ طُولِي، وَطَوَيْنَ عَرْضِي

فقال: أسرعَتْ وَطَوَيْنَ، لتأنيث الليالي، ولم يحمله على «طول»، وهو مذكّر.

المعنى: ثمّ أنشأ سبحانه في ذكر قصّة يوسف، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ ومعناه: لقد كان في حديث يوسف وإخوته، عِبر للسائلين عنهم، وأعاجيب. فمنها: أنّهم نالوه بالأذى، ودبَّروا في قتله، واجتمعوا على إلقائه في البئر للحسد، مع أنّهم أولاد الأنبياء، فصفح عنهم عليه السلام، لمّا مكَّنه الله منهم، وأحسن إليهم، ولم يعيّرهم بما كان منهم، وهذا خارج عن العادة. وفيه عبرة لمن اعتبر فيها، في منافع الدين. ومنها: الفرج بعد الشدّة، والمنحة بعد المحنة [المنحة]. ومنها: الدلالة على صحّة نبوّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه عليه السلام لم يقرأ كتاباً، فعلم أنّه لم يأته ذلك إلّا من جهة الوحي، فهو بصيرة للذين سألوه أن يخبرهم بذلك، ومعجزة دالّة على صدقه.

وإخوته: هم أولاد يعقوب، وكان ليعقوب إثنا عشر ولداً لصلبه، وكانوا أولاد علّة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: أسماؤهم روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهودا، وريالون، [وزبالون] ويشجر، وأُمّهم ليا بنت ليان، وهي إبنة خالة يعقوب، ثمّ توفّيت ليا، فتزوَّج يعقوب أُختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين. وقيل: ابن يامين، وولد له من سريتين له إسم إحداهما زلفة، والأُخرى بلهة، أربعة بنين: دان، ونفتالي، وجاد، وآشر. وكانوا إثني عشر.

ثمّ أخبر سبحانه عمّا قالت إخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف، وتأويل يعقوب إيّاه، فقال: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ لأبيه وأمّه بنيامين،

﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا﴾ يعقوب ﴿مِنَّا﴾ وذلك أنّ يعقوب عليه السلام كان شديد الحبّ ليوسف، وكان يوسف من أحسن الناس وجهاً، وكان يعقوب يؤثره على أولاده، فحسدوه. ثمّ رأى الرؤيا، فصار حسدهم له أشدّ. وقيل: إنّه عليه السلام كان يرحمه وأخاه، ويقرّ بهما لصغرهما، فاستثقلوا ذلك.

وروي أبو حمزة الثمالي، عن زين العابدين عليه السلام: إنّ يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً، فيتصدَّق به، ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً، إعتر ببابه عشيّة جمعة، عند أوان إفطاره، وكان مجتازاً غريباً، فهتف على بابه، واستطعمهم وهم يسمعون، فلم يصدّقوا قوله. فلمّا يئس أن يطعموه، وغشيه الليل، إسترجع، واستعبر، وشكا جوعه إلى الله تعالى، وبات طاوياً، وأصبح صائماً، صابراً، حامداً لله، وبات يعقوب، وآل يعقوب بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلة من طعامهم، فابتلاه الله سبحانه بيوسف عليه السلام، وأوحى إليه: أن استعدّ لبلائي، وارض بقضائي، واصبر للمصائب! فرأى يوسف الرؤيا في تلك الليلة. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة، وروي ذلك عن ابن عباس، أو قريب منه.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ معناه: ونحن جماعة يتعصّب بعضنا لبعض، ويعين بعضنا بعضاً، أي: فنحن أنفع لأبينا. وقيل: يعني: ونحن عصبة لا يعجزنا الإحتيال عليه.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب الذي هو التعديل بيننا في المحبّة. وقيل: معناه: إنّه في خطأ من الرأي في أُمور أولاده، والتدبير الدنيويّ، ونحن أقوم بأُمور مواشيه، وأمواله، وسائر أعماله. ولم يريدوا به الضلال عن الدين؛ لأنّهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفّاراً، وذلك خلاف الإجماع. ولأنّهم بالاتّفاق كانوا على دينه، وكانوا يعظّمونه غاية التعظيم، ولذلك طلبوا محبّته. وأصل الضلال: العدول، وكل من ذهب عن شيء، وعدل عنه، فقد ضلَّ. وأكثر المفسّرين على أنّ إخوة يوسف كانوا أنبياء. وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء؛ لأنّ الأنبياء لا يقع منهم القبائح.

وقال المرتضى رحمه الله: لم يقم لنا الحجّة بأنّ إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوه، كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء، غير هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بيوسف، ما قصَّه الله تعالى عنهم، وليس في ظاهر الكتاب أنّ جميع

إخوة يوسف، وسائر الأسباط فعلوا بيوسف، ما حكاه الله من الكيد. وقيل: يجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال، لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجّه إليهم التكليف، وقد يقع ممّن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال، ويعاتب على ذلك ويلام، ويضرب، وهذا الوجه قول البلخي، والجبائي. ويدلّ عليه قوله: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾.

وروى أبو جعفر ابن بابويه رحمه الله في كتاب النبوّة، بإسناده عن محمّد بن إسماعيل بن بزيع، عن حنان بن سدير، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنّهم كانوا أسباطاً، وأولاداً لأنبياء، ولم يفارقوا الدنيا إلّا سعداء، تابوا وتذكّروا ما صنعوا. وقال الحسن: كانوا رجالاً بالغين، ووقعت ذلك منهم صغيرة.

ثمّ أخبر سبحانه عنهم، أنّهم قال بعضهم لبعض: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ أي: إطرحوه في أرض بعيدة عن أبيه، فلا يهتدي إليه. وقيل: معناه: في أرض تأكله السباع، أو يهلك بغير ذلك.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن يوسف، وتخلص لكم محبّته، والمعنى: إنّكم متى قتلتموه، أو طرحتموه في أرض أُخرى، خلا لكم أبوكم، وحنّ عليكم.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ أي: وتكونوا من بعد قتل يوسف، أو غيبته، قوماً تائبين، والمعنى: إنّكم إذا فعلتم ذلك، وبلغتم أغراضكم، تبتم ممّا فعلتموه، وكنتم من جملة الصالحين الذين يعملون الصالحات. وهذا يدلّ على أنّهم رأوا ذلك ذنباً يصحّ التوبة منه، ـ عن جماعة من المفسّرين ـ. وقيل: معناه: وتكونوا قوماً صالحين في أمر دنياكم أي: يعود حالكم مع أبيكم إلى الصلاح، ـ عن الحسن ـ.

ومتى يسأل هيهنا على قول من جعلهم غير بالغين فقال: أليس يدلّ هذا

القول منهم على بلوغهم لعلمهم بالوعيد؟ فالجواب: إنّ المراهق قد يجوز أن يعلم ذلك خاصّة، إذا كان مربّي في حجر الأنبياء ومن أولادهم.

وأُختلف فيمن قاله ذلك من إخوته، فقال وهب: قال شمعون. وقال مقاتل: قاله روبين.

ثمّ أخبر سبحانه عن واحد من جملة القوم بقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من إخوة يوسف عليه السلام ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: إلقوه في قعر البئر، يتناوله بعض مارّة الطرق، والمسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى. والقائل لذلك: روبين: وهو ابن خالة يوسف، ـ عن قتادة ـ. وابن إسحاق. وكان أحسنهم رأياً فيه، فنهاهم عن قتله. وقيل: هو يهوذا، وكان أقدمهم في الرأي والفضل، وأسنّهم، ـ عن الأصم، والزجّاج ـ. وقيل: هو لاوي، ـ رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره ـ.

واختلفوا في ذلك الجبّ، فقيل: هو بئر بيت المقدس، ـ عن قتادة ـ. وقيل: بأرض الأردن، ـ عن وهب ـ. وقيل: بين مدين ومصر، ـ عن كعب ـ. وقيل: على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب، ـ عن مقاتل ـ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ معناه: إن كنتم فاعلين شيئاً ممّا تقولون في يوسف، فليكن هذا فعلكم، فإنّه دون القتل الصريح. وقال ابن عباس: يريد إن أضمرتم ما تريدون. وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك حديث بني يعقوب.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، والحلواني، عن قالون: لا تأمنّا ـ مشدّدة النون بلا شمة ـ. وقرأ الباقون، بالإشمام، وهو الإشارة إلى النون المدغمة بالضمّة، وهو

اختيار أبي عبيدة[١].

وقرأ أبو جعفر، ونافع: يرتع ويلعب ـ بالياء فيهما وكسر العين من «يرتع» ـ. وقرأ ابن كثير: نرتعِ ونلعب ـ بالنون فيهما وكسر العين ـ. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: نرتع ونلعب ـ بالنون فيهما، وجزم العين ـ. وقرأ أهل الكوفة ورويس، عن يعقوب: يرتع ويلعب ـ بالياء فيهما وجزم العين ـ. وقرأ روح وزيد، عن يعقوب: نرتعْ ـ بالنون، وجزم العين ـ، ويلعب ـ بالياء ـ. وقد روي ذلك عن أبي عمرو، وهو قراءة الأعرج، وإبراهيم النخعي. وفي الشواذّ، قراءة العلاء بن سيابة: يرتعِ ـ بالياء وكسر العين ـ، و«يلعبُ» رفعاً. وقراءة أبي رجا: يُرتع ويلعب.

الحجة: قال الزجّاج: يجوز في «تأمنّا» أربعة أوجه: إشمام النون الضمّ مع الإدغام. وهو الذي حكاه ابن مجاهد، عن الفرّاء. والإشعار بالضمّة[١] والإدغام من غير إشمام؛ لأنّ الحرفين من جنس واحد. وتأمنُنا بالإظهار ورفع النون الأولى؛ لأنّ النونين من كلمتين. وتِئمنّا ـ بكسر التاء ـ. لأنّ ماضيه على «فَعلَ»، كما قالوا: تِعلم ونعلم، وهي قراءة يحيى بن وثاب. وهذه القراءة مخالفة للمصحف، وإن كانت في العربيّة جائزة.

وأمّا قوله: نرتع ويلعب، فقد قال أبو عليّ: قراءة من قرأ نرتعِ ـ بالنون وكسر

---

(١) لأنّ الإشعار بالضمّة معناه: الإشمام. واتّفقت السبعة على ترك الإظهار، وعلى عدم الإدغام التامّ من غير إشارة. قال الشاطبي: غيابات بالحرفين بالجمع نافع، وتامننا للكل يخفى مفصّلاً، وأدغم مع إشمامه البعض عنهم، ويرتع ويلعب ياء حصن تطوّلاً، وحصن رمز الكوفيّين، ونافع. وعلى هذا فالإختلاف عن السبعة بين الإدغام مع الإشمام، وبين الإخفاء مع الروم لافكّ الادغام. أمّا الإدغام التامّ من غير إشمام، فنقله عن السبعة في شرح الشاطبية. والصواب في القرائة: إختيار ما اختاره من الإخفاء، لا الإدغام التامّ، فإنّه أقرب إلى الأصل أعني الفكّ.

[١] بلاشمّة: أي من غير إشارة إلى حركة الحرف الأول المدغم، فقد كان أبو جعفر يقرأه بإدغامه إدغاماً محضاً بلفظ النون مفتوحةً مشدّدة.

العين ـ، ويلعب ـ بالياء ـ حسن؛ لأنّه جعل الإرتعاء والقيام على المال لمن بلغ وجاوز الصغر، وأسند اللعب إلى يوسف لصغره، ولا لوم على الصغير في اللعب. والدليل على صغر يوسف، قول إخوته: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولو كان كبيراً لم يحتج إلى حفظهم. ويدلّ على ذلك قول يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وإنّما يخاف الذئب على من لا دفاع به من شيخ كبير، أو من صبيّ صغير. قال:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ، وَلا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
والذِّئْبُ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ وَحْدِي، وَأَخْشَى الرِّيَاحَ، وَالْمَطَرَا[1]

وأمّا الإرتعاء: فهو افتعال، من رعيت، مثل: شويت واشتويت، وكل واحد منهما متعدّ إلى مفعول به. قال الأعشى:

تَرْتَعِي السَّفْحَ فَالكَثِيبَ، فَذَاقَارٍ فَرَوْضَ الْقَطَا، فَذَاتَ الرِّمَالِ[2]

وقال آخر:

رَعَتْ بَارِضَ الْبُهْمَى جَمِيعاً، وَبُسرةً
وَصَمْعَاءَ، حَتّى آنَفَتْهَا نَصَالُهَا[3]

وقد يستقيم أن يقال [تر]نرتع: وإنّما ترتع إبلهم فيما قال أبو عبيدة، ووجه ذلك أنّه كان الأصل: يرتع إبلنا، ثمّ حذف المضاف، وأسند الفعل إلى المتكلّمين، فصار: نرتع. وكذلك «نرتعي» على: يرتعي إبلنا، ثمّ حذف المضاف، فيكون نرتع. وقال أبو عبيدة: نرتع نلهو، وقد يكون هذه الكلمة على غير معنى اللهو، ولكن على معنى النيل من الشيء، كقولهم في المثل: الصيد [القيد] والرتعة. وكان هذا النيل والتناول، ممّا يحتاج إليه الحيوان. وقد قال الأعشى: «صدر النهار يراعي

---

(١) يصف الكبر والضعف.

(٢) مواضع.

(٣) البهمى. نبت. وبارض: أوّل ما ينبت، وسائر الألفاظ لمراتب هذا النبت في النماء.

ثيرة رُتُعاً».

وعلى هذا القول قالوا: رأيتِ مرتع إبلك، لمرادك الذي أنت فيه. فهذا لا يكون على اللهو؛ لأنّه جمع ثور راتع، أو رتوع.

فأمّا من قرأ: ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ ـ بالنون ـ، فيكون «نرتع» على: يرتع إبلنا، أو على أنّنا ننال ممّا نحتاج إليه، وينال معنا. أمّا «ونلعب»، فحكي أنّ أبا عمرو قيل له: كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء. فلو صحّت هذه الحكاية عنه، وصحّ عنده هذا التاريخ، وإلّا فقد قال الشاعر:

جَدَّتْ جِدَادُ بِلاٰعِبٍ، وَتَقَشَّعَتْ غَمَرَاتُ، قَالَتْ: لَيْتَهُ حَيْرَانُ

فكان اللاعب هيهنا الذي لم يتشمّر في أهله، فدخله بعض الهوينا. فهذا أسهل من الوجه الذي قوبل به الحقّ. وقد روي عن النبيّ ﷺ، أنّه قال لجابر: فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك! فهذا كأنّه يتشاغل بمباح، وتنفّس وجمام من الجد. وقد روي عن بعض السلف أنّه كان إذا أكثر النظر في مسائل الفقه، قال: إحمضوا، فليس هذا اللعب كاللعب في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وأمّا من قرأ بالياء فيهما: فإن كان يرتع من اللهو، كما فسّره أبو عبيدة، فلا يمتنع أن يخبر به عن يوسف لصغره، كما لا يمتنع أن ينسب إليه اللعب لذلك. لا وإن كان يرتع من النيل من الشيء، فذلك لا يمتنع عليهم أيضاً، فوجههما بيّن. وهذا أبين من قول من قال: ونلعب ـ بالنون ـ؛ لأنّهم سألوا إرساله ليتنفّس بلعبه، ولم يسألوا إرساله ليلعبوا هم.

وأمّا من قرأ: ويلعبُ ـ بالرفع ـ، فإنّه جعله إستئنافاً أي: هو ممّن يلعب كقولك: زرني أحسن إليك، أي: أنا ممّن يحسن إليك. وأمّا من قرأ: ويرتع، فمعناه: يرتع إبله، فحذف المفعول كما قال الحطيئة:

مُـنَعَّمَةٌ تَـصُونُ إلَـيْكَ مِـنْها كَصَوْنِكَ مِنْ رِداءٍ شَرْعَبِيّ[١]

أي: تصون الحديث: وقال الشنفرى:

كأَنَّ لَـهٰا فِـي الأَرْضِ نِسْـياً تَـقُصُّهُ عَـلىٰ أُمِّـها، وَإِنْ تُكَـلِّمْكَ تَـبْلِتِ[٢]

أي: تقطع حديثها خفراء وحياء.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّهم عند اتّفاق آرائهم، فيما تآمروا فيه من أمر يوسف، كيف سألوا أباهم فـ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: ما لك لا تثق بنا، ولا تعتمدنا في أمر يوسف.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أي: مخلصون في إرادة الخير به. وفي هذا دلالة على أنّه عليه السلام، كان يأبى عليهم أي يرسله معهم.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً﴾ أي: إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ الجزم على جواب الأمر. والمعنى: ان ترسله معنا نرتع ونلعب أي: نذهب ونجيء، وننشط ونلهو، ـ عن الكلبي، والضحّاك ـ. وقيل: نتحافظ، فيحفظ بعضنا بعضنا، ونلهو، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: نرعي ونتصرّف. والرتع، هو التردّد يميناً وشمالاً، ـ عن ابن زيد ـ. وأرادوا به اللعب المباح، مثل الرمي، والإستباق بالأقدام. وقد روي أنّ كل لعب حرام إلّا ثلاثة: لعب الرجل بقوسه، وفرسه، وأهله.

﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ أي: ليوسف ﴿لَحَافِظُونَ﴾ أي: نحفظه لنردّه إليك. وقيل: نحفظه في حال لعبه. وقال مقاتل: هيهنا تقديم وتأخير، وذلك إنّ إخوة يوسف قالوا له: أرسله، فقال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ الآية. فحينئذ قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾. وإذا صحّ الكلام من غير تقديم

---

(١) أي: واسع يصف المرأة بالجلالة والهيبة، بحيث لايقدر أحد على التكلّم معه. ومضى البيت بلفظ آخر.

(٢) تنظر إلى الأرض، كأنّها تطلب ضالّة. والأمّ: الطريق.

وتأخير، فلا معنى لحمله عليه. قال الحسن: جعل يوسف في الجبّ، وهو ابن سبع عشرة سنة. وكان في البلاد إلى أن وصل إليه أبوه ثمانين سنة. ولبث بعد الإجتماع ثلاثاً وعشرين سنة. ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: إنّه كان ليوسف يوم ألقي في الجبّ عشر سنين. وقيل: كان له إثنتا عشرة سنة. وقيل: كان ابن سبع سنين، أو تسع. وجمع بينه وبين أبيه، وهو ابن أربعين سنة، ـ عن ابن عباس، وغيره ـ. وفي الآيات دلالة على ظهور حسدهم ليوسف؛ لأنّه كان يحرسه منهم، ويمنعه عن الخروج معهم، ولا يأمنهم عليه.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ(١) وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(اللغة): الذئب: أصله: الهمز، وإن خفّفت جاز. وقراءة الكسائي، وخلف،

(١) إتّفقوا على ترك الألف كتباً بعد واو الجمع، من «جاؤ، وباؤ، وفاؤ».

وأبوجعفر، وورش، والأعشى، واليزيدي، بتخفيف الهمزة في المواضع الثلاث. والباقون: بالهمز. وجمع الذئب: أذؤب، وذئاب، وذؤبان. وتذاءبت الريح: أتت من كل جهة. وحزنت، وأحزنت، لغتان. والحزن: ألم القلب بفراق المحبوب. والشعور: إدراك الشيء بمثل الشعرة في الدقّة، ومنه: المشاعر في البدن. والمجيء والمصير إلى الشيء واحد، وقد يكون المصير بالإنقلاب كمصير الطين خزفاً، وقد يكون بمعنى الإنتقال.

والعشاء: آخر النهار، ومنه: اشتقّ الأعشى؛ لأنّه يستضيء ببصر ضعيف. ويقال: العشاء: أوّل ظلام الليل. ويقال: من زوال الشمس إلى الصباح. والعشاء: من صلاة المغرب إلى العتمة.

والإستباق: افتعال، من السبق. واستبقا: تبادرا حتى يظهر الأقوى، ومنه: المسابقة، وهو على ثلاثة أوجه: سباق بالرمي، وذلك جائز بالإتّفاق. وسباق على الخيل، والإبل، وذلك جائز عندنا. وسباق على الأقدام، وذلك غير جائز بعوض، وبه قال الشافعي. وعند أبي حنيفة يجوز بعوض، وبلا عوض، وبه قال قوم من أصحابنا. وكذلك القول في الصراع.

ودم كذب: أي مكذوب فيه، وهو مصدر وصف به. وقيل: إنّ تقديره: بدم ذي كذب. قال الفرّاء: يجوز أن يقع المصدر موقع المفعول، كما يقع المفعول موقع المصدر، في مثل قول الشاعر:

حَتّى إِذا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظامِهِ ... لَحْماً، وَلا لِفُؤادِهِ مَعْقُولاً

ولم يجزه سيبويه، وقال: المفعول لا يكون مصدراً، ويتأوّل قولهم: خذ ميسورة ودع معسورة. وقال: يعني به: خذ ما يسر له، ودع ما عسر عليه. وكذلك ليس لفؤاده معقول أي: ما يعقل به. وروي عن عائشة أنّها قرأت: بدم كدب ـ بالدال ـ، أي: دم طري. والتسويل: تزيين النفس ما ليس بحسن. وقيل: هو تقدير

معنى في النفس على الطمع في تمامه.

﴿الإعراب﴾: اللام في قوله: لئن، هي اللام التي يتلقّى بها القسم ﴿إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾: جواب القسم. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾: جواب لما محذوف، وتقديره: عظمت فتنتهم، أو كبر ما قصدوا له. والكوفيّون يقولون الواو في ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ مقحمة، وتقديره: أجمعوا. ولا يجيز البصريّون إقحام الواو، وقالوا: لم يثبت ذلك بحجّة ولا قياس. وممّا أنشده الكوفيّون في ذلك، قول الشاعر:

حَتّى إِذا قَمِلَتْ بُطُونُكُم[١] ... وَرَأَيْتُمُ أَبْنَاءَكُمْ شَبُّوا

وَقَلَبْتُمْ ظَهْرَ المِجَنِّ لَنا ... إِنَّ اللَّئِيمَ الْعَاجِزُ الْخَبُّ(١)

وقول امرىء القيس:

فَلَمّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ، وَانْتَحىٰ

بِنا بَطْنَ خَبْتٍ ذِي حِقافٍ عَقَنْقَلِ(٢)

قالوا: أراد إنتحى. والبصريّون يحملون الجميع على حذف الجواب. وقوله: يبكون، في موضع نصب على الحال. و«عشاء»، منصوب على الظرف. وجائز أن يكون ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من صلة قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ وجائز أن يكون من صلة: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: نبّأناه بالوحي، وهم لا يشعرون أنّه نبيّ قد أُوحي إليه. و﴿نَسْتَبِقُ﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مرفوع على أحد وجهين: على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: فشأني صبر جميل، أو فصبري صبر جميل، وهو قول قطرب. أو على أنّه مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: فصبر

---

(١) قملت أي: سمنت. والخبّ اللئيم: الجربز.

(٢) البيت من المعلّقات. والحقاف: التلّ من الرمل. وعقنقل: مثله. وانتحى أي: قصد نحوه. والخبت: الأرض الواسعة. والشاهد في دخول «الواو» على جواب «لمّا» وهو قوله: وانتحى.

[١] أي كثر عددكم.

جميل أمثل. وأنشد:

شكا إلَيَّ جَمَلي طُولَ السُّرىٰ يا جَمَلِي لَيْسَ إليَّ المُشْتَكىٰ
صَبْرٌ جمِيلٌ فَكِلانا مُبْتَلىٰ[١]

ويجوز في غير القرآن: فصبراً جميلاً، وروي ذلك عن أُبيّ، ويكون معناه: فاصبري يا نفس صبراً جميلاً، قال ذو الرمة:

أَلا إنَّما مَيٌّ فَصَبْراً بَلِيَّةٌ وَقَدْ يَبْتَلِي الحُرُّ الْكَرِيمُ فَيَصْبِرُ(١)

وقال الآخر:

أَلَى اللهُ أَنْ يَبْقىٰ لِحَيٍّ بِشاشَةُ فَصَبْراً عَلىٰ ما شاءَهُ اللهُ لي صبراً

المعنىٰ: ثمّ أخبر سبحانه أنّهم لمّا أظهروا النصح، والشفقة على يوسف، همَّ يعقوب أن يبعثه معهم، وحثّهم على حفظه فـ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ أي: يغمُّني ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وتغيّبوه عنّي. وقيل: معناه: يحزنني مفارقته إيّاي.

﴿وَأَخَافُ﴾ عليه إذا ذهبتم به إلى الصحراء ﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ فهذه جملة في موضع الحال، وتقديره: أخاف أن يأكله الذئب في حال كونكم ساهين عنه، مشغولين ببعض أشغالكم، قالوا: وكانت أرضهم مذابة، وكانت الذئاب ضارية في ذلك الوقت. وقيل: إنّ يعقوب رأى في منامه، كأنّ يوسف قد شدّ عليه عشرة أذؤب ليقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، فكأنّ الأرض انشقّت فدخل فيها يوسف، فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيّام، فمن ثمّ قال: فلقّنهم العلّة، وكانوا لا يدرون.

وروي عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: لا تلقنوا الكذب فتكذبوا، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان، حتى لقّنهم أبوهم. وهذا يدلّ على أنّ الخصم لا

---

(١) ميّ: مرخّم مية، للضرورة، وهي مبتدء. بلية: خبره. وقوله: فصبراً، معترض.

[١] أي: صبر جميل أمثل: والسرى: سير الليل كله.

ينبغي أن يلقّن حجّة. وقيل: إنّه خاف عليه أن يقتلوه، فكنّي عنهم بالذئب، مسايرة لهم. قال ابن عباس: سمَّاهم ذئاباً.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة متعاضدون، متناصرون، نرى الذئب قد قصده، ولا نمنعه منه ﴿إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُوْنَ﴾ أي: نكون كالذين تذهب عنه رؤوس أموالهم على رغم منهم. وقيل: معناه: إنّا إذاً عجزة ضعفة. قال الحسن: والله لقد كانوا أخوف عليه من الذئب. وقيل: معناه: إنّا إذاً لمضيعون بلغة قيس عيلان، عن المؤرج. وهيهنا حذف، والتقدير: أنّه أرسله معهم إجابة لما سألوه؛ ليؤدّي ذلك إلى الألفة والمحبّة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا جميعاً ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ أي: قعر البئر، واتّفقت دواعيهم عليه، فإنّ من دعاه داع واحد إلى الشيء لا يقال فيه أنّه أجمع عليه، فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي. ويدلّ الألف واللام على أنّه كان بئراً معروفة معهودة عندهم. تجيئها السيّارة. وقيل: إنّهم طلبوا بئراً قليلة الماء تغيبه، ولا تغرقه، فجعلوه فيها. وقيل: بل جعلوه في جانب منها. وقيل: إنّ يعقوب أرسله معهم، فأخرجوه مكرماً، فلمّا وصلوا إلى الصحراء، أظهروا له العداوة، وجعلوا يضربونه، وهو يستغيث بواحد واحد منهم، فلا يغيثه، وكان يقول: يا أبتاه! فهمُّوا بقتله، فمنعهم يهوذا منه. وقيل: منعهم لاوي، رواه بعض أصحابنا عنهم عليهم السلام، فانطلقوا به إلى الجبّ، فجعلوا يدلّونه في البئر، وهو يتعلّق بشفير البئر، ثمّ نزعوا قميصه عنه، وهو يقول: لا تفعلوا، ردُّوا عليَّ القميص أتوارى به! فيقولون: أدع الشمس والقمر، والأحد عشر كوكباً يؤنسنك.

فَدَلُّوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها، ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءٌ، فسقط فيه، ثمّ آوى إلى صخرة، فقام عليها. وكان يهوذا يأتيه بالطعام، ـ عن السدي ـ. وقيل: إنّ الجبّ أضاء له، وعذب ماؤه حتى أغناه عن الطعام والشراب.

وقيل: كان الماء كدراً، فصفا وعذب، ووكل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: إنّ جبرائيل كان يؤنسه. وقيل: إنّ الله تعالى أمر بصخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر، فوقف يوسف عليها، وهو عريان. وكان إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلقي في النار، جرد من ثيابه، وقذف في النار عرياناً، فأتاه جبرائيل عليه السلام بقميص من حرير الجنّة، فألبسه إيّاه، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام.

فلمّا مات، ورثه إسحاق. فلمّا مات إسحاق، ورثه يعقوب. فلمّا شبّ يوسف، جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ، وعلّقه في عنقه، فكان لا يفارقه. فلمّا أُلقي في البئر عرياناً، جاءه جبرئيل، وكان عليه ذلك التعويذ. فأخرج منه القميص فألبسه إيّاه. وروى ذلك مفضّل بن عمر، عن الصادق عليه السلام قال: وهو القميص الذي وجد يعقوب ريحه. ولمّا فصلت العير من مصر، وكان يعقوب بفلسطين، فقال: إنّي لأجد ريح يوسف.

وفي كتاب النبوّة، عن الحسن بن محبوب، عن الحسن بن عمارة، عن مسمع أبي سيّار، عن الصادق عليه السلام، قال: لمّا ألقي إخوة يوسف يوسف عليه السلام في الجبّ، نزل عليه جبرائيل، فقال له: يا غلام! من طرحك هنا؟ فقال: إخوتي؛ لمنزلتي من أبي حسدوني، ولذلك في الجبّ طرحوني! فقال: أتحبّ أن تخرج من هذا الجبّ؟ قال: ذلك إلى آله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. فقال له جبرائيل: فإنّ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويقول لك: قل: «أللهمّ إنّي أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلّا أنت، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أن تصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب»، فجعل الله له من الجبّ يومئذ فرجاً ومخرجاً، ومن كيد المرأة مخرجاً، وآتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب. وروى عليّ بن إبراهيم: أنّ يوسف عليه السلام قال في الجب: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إرحم ضعفي، وقلّة

حيلتي، وصغري.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ يعني: إلى يوسف عليه السلام، قال الحسن: أعطاه الله النبوّة، وهو في الجبّ، والبشارة بالنجاة والملك.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ أي: لتخبرنّهم بقبيح فعلهم بعد هذا الوقت، يريد ما ذكره سبحانه في آخر السورة من قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّك يوسف. وكان الوحي إليه كالوحي إلى سائر الأنبياء. وقال مجاهد، وقتادة: أوحى الله إليه، ونبّأه وهو في الجبّ. وكان فيما أوحي إليه: أن أكتم حالك، واصبر على ما أصابك، فإنّك ستخبر إخوتك بما فعلوا بك، في وقت لا يعرفونك. وقيل: يريد «وهم لا يشعرون»: بأنّه أُوحي إليه. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾: لتجازينهم على فعلهم. تقول العرب للرجل، يتوعّده بمجازاة سوء فعله: لأنبّئنّك، ولأعرفنّك أي: لأجازينك. وقيل أراد بذلك أنّهم لمّا دخلوا مصر، عرفهم يوسف، وهم له منكرون، فأخذ الصاع، ونقره، فطنّ[١].

فقال: إنّ هذا الجام ليخبرني أنّه كان لكم أخ من أبيكم، ألقيتموه في الجبّ، وبعتموه بثمن بخس، فهذا معنى قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ﴾ هذا عن ابن عباس.

ثمّ بيّن سبحانه حالهم حين رجعوا إلى أبيهم، فقال: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ﴾ يعني: وانقلب إخوة يوسف إلى أبيهم ﴿عِشَاءً﴾ أي: ليلاً، أو في آخر النهار؛ ليلبسوا على أبيهم؛ وليكونوا أجراً على الإعتذار ﴿يَبْكُونَ﴾ وإنّما أظهروا البكاء؛ ليوهّموا أنّهم صادقون. وفي هذا دلالة على أنّ البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي في دعواه.

قال السدّي: لمّا سمع بكاءهم، فزع فقال: ما بالكم؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نشتدّ ونعدو على الأقدام؛ لننظر أيّنا أعدى وأسبق لصاحبه، ـ عن الجبائي، والسدّي ـ. وقيل: معناه: ننتصل ونترامى، فننظر أيّ السهام أسبق إلى

---

[١] الصاع: المكيال. ونقره: ضربه ليصوت. وطن: أي صوت.

الغرض، ـ عن الزجّاج ـ. وفي قراءة عبدالله: ننتصل.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أي: تركناه عند الرحل؛ ليحفظه.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي: ما أنت بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف أي: ولو كنّا صادقين ما صدّقتنا؛ لاتّهامك لنا في أمر يوسف، ودلّ الكلام عليه. ولم يصفوه بأنّه لا يصدّق الصادق؛ لأنّ المعنى: لا يصدقهم لاتّهامه لهم، وسوء ظنّه بهم، لما ظهر له من إمارات حسدهم ليوسف، وشدّة محبّته ليوسف.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ معناه: إنّ إخوة يوسف جاؤوا أباهم ومعهم قميص يوسف ملطّخاً بدم، فقالوا له: هذا دم يوسف حين أكله الذئب. وقيل: إنّهم ذبحوا سخلة، وجعلوا دمها على قميصه، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: ظبياً، ولم يمزقوا ثوبه، ولم يخطر ببالهم أنّ الذئب إذا أكل إنساناً، فإنّه يمزق ثوبه.

وقيل: إنّ يعقوب عليه السلام قال لهم: أروني القميص؟ فأروه إيّاه، فقال لهم، لمّا رأى القميص صحيحاً: يا بنيّ! والله ما عهدت كاليوم ذئباً أحلم من هذا. أكل إبني، ولم يمزق قميصه، ـ عن الحسن ـ.

وروي أنّه ألقى ثوبه على وجهه، وقال: يا يوسف! لقد أكلك ذئب رحيم، أكل لحمك، ولم يشقّ قميصك. ومعنى قوله: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: مكذوب عليه، أو فيه، كما يقال: ماء سكب أي: مسكوب، وشراب صبّ أي: مصبوب. قال الشاعر:

تَظِلُّ جِيادُهُمْ نَوْحاً عَلَيْهِم ... مُقَلَّدة أعِنَّتَها صُفُوناً[1]

أراد: نائحة عليهم. وقيل: إنّه كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قدَّ من دبر، وحين أُلقي على وجه أبيه، فارتدّ بصيراً، وحين جاؤوا عليه بدم كذب.

فتنبّه يعقوب على أنّ الذئب لو أكله، لمزّق قميصه، ـ عن الشعبي ـ. وقيل: إنّه لمّا قال لهم يعقوب ذلك، قالوا: بل قتله اللصوص! فقال عليه السلام: فكيف قتلوه،

---

(١) يقال: صفن الفرس صفوناً: إذا قام على ثلث أرجل، وأقام الرابعة على طرف الحافر.

وتركوا قميصه، وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله؟

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: قال يعقوب لهم إذ اتّهمهم في يوسف: لم يأكله الذئب، ولم يقتله اللصوص، ولكن زيّنت لكم أنفسكم أمراً علمتموه [فعلتموه]، ـ عن قتادة ـ. وقيل: سهل بعضكم لبعض أمراً في يوسف، غير الذي فعلتموه، حتى سهل عليكم ما فعلتموه، ـ عن أبي مسلم، والجبائي ـ. وإنّما ردَّ يعقوب عليهم بوحي من الله عزّ إسمه. وقيل: كان ذلك حدساً بصائب رأيه، وصادق ذهنه.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فصبري صبر جميل، لا جزع فيه، ولا شكوي إلى الناس. وقيل: فصبر جميل أحسن وأولى من الجزع الذي لا يغني شيئاً. وقيل: إنّما يكون الصبر جميلاً، إذا قصد به وجه الله تعالى، وفعل للوجه الذي وجب. فلمّا كان الصبر في هذا الموضع واقعاً على الوجه المحمود، صحَّ وصفه بذلك، ذكره المرتضى ﷺ. وقيل: إنّ البلاء نزل بيعقوب على كبره، وبيوسف على صغره، بلا ذنب كان منهما، فأكبَّ يعقوب على حزنه، وانطلق يوسف في رقّه، وكل ذلك بعين الله، يرى ويسمع، حتى أتى بالمخرج، وكل ذلك امتحان.

﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: بالله أستعين على دفع ما تصفون، أو به أستعين على تحمُّل مرارة الصبر عليه. ومكث يوسف في الجبّ ثلاثة أيّام.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: يا بشرى ـ بألف بغير ياء ـ، إلّا أنّ حمزة،

والكسائي، وخلف، يميلون الراء، وعاصم لا يميل. والباقون: يا بشرايَ ـ بفتح الياء، وإثبات الألف ـ. وفي الشواذّ قراءة الجحدري، وابن أبي إسحاق، والحسن: يَا بُشرَيَّ(١).

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: يا بشراي، فأضاف إلى الياء التي للمتكلّم، كان للألف التي هي حرف الإعراب عنده موضعان من وجهين: **أحدهما**: إنّ الألف في موضع نصب، من حيث كان نداء مضافاً. والآخر: أن يكون في موضع كسر، من حيث كان بمنزلة حرف الإعراب الذي في غلامي. والدليل على استحقاقها لهذا الموضع: قولهم: كَسَرتَ فيَّ، فلولا أنّ حرف الإعراب الذي ولي ياء الإضافة في موضع كسر، ما كسرت الفاء من «فيَّ» فلمّا كسرت كما كسرت من قولهم: «بفيك»، وكما فتحت من قولهم: رأيت فاك، لما كانت في موضع الفتحة التي في قولك: رأيت غلامَك، وانضمّت في قولك: هذا فوك، لاتّباعه الضمّة المقدّرة فيها، كالتي في قولك: هذا غلامُك، كذلك كُسِرَت في قولهم: كَسَرتَ فِيَّ. وهذا يدلّك على أنّه ليس يعرب من مكانين، ألاترى أنّها تبعت حركة غير الإعراب في قولك: كَسَرتَ فِيَّ يا هذا، كما تبعت حركة الإعراب في «رأيت فاك».

ومن قال: يا بُشرى، احتمل وجهين: **أحدهما**: أن يكون في موضع ضمّ، مثل: يا رجلُ لإختصاصه بالنداء.

والآخر: أن يكون في موضع نصب، وذلك لأنّك أشَعتَ النداء، ولم تختصّ به، كما فعلت في الوجه الأوّل، فصار كقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ﴾ إلّا أنّ التنوين لم يلحق «بُشْرى»؛ لأنّها لا تنصرف. فأمّا من قرأ: يا بُشْرَيَّ، فإنّ تلك لغة هذيل. قال أبو ذؤيب:

---

(١) أدغم تاء «جائت» في سين «سيّارة» أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف، وهشام.

سَبَقُوا هَوَيَّ، وأعْنَقُوا لِسَبِيلِهِم فَتُخُرِّمُوا، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَهْجَعُ[١]

وقال آخر:

يُطَوِّف بِي عِكَبٌّ فِي مَعَدٍّ وَيَطْعَنُ بِالصُّمُلَّةِ فِي قَفَيّا

فَإِنْ لَمْ تَثْأَرا لِيَ مِنْ عِكَبٍ فَلاَ رُوِّيتُما أَبَداً صَدِيّا[٢]

وأمثاله كثيرة.

اللغة: الوارد: الذي يتقدّم الرفقة إلى الماء؛ ليستقي. وتقول: أدليت الدلو: إذا أرسلتها في البئر لتملأها. ودلوتها: إذا أخرجتها ملأى. والبضاعة: قطعة من المال تجعل للتجارة، من بضعت الشيء: إذا قطعته، ومنه: المبضع؛ لأنّه يبضع به العرق. والشري: البيع. قال الشاعر:

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَه[٣]

والثمن: بدل الشيء من العين أو الورق، ويقال في غيرهما أيضاً مجازاً.

والبخس: النقص من الحقّ، يقال: بخسه في الكيل، أو الوزن: إذا نقصه من حقّه فيهما.

الإعراب: قال الزجّاج: معنى النداء في ﴿يَا بُشْرَى﴾ وما في معناها ممّا لا يجيب، ولا يعقل، فإنّه على تنبيه المخاطبين، وتوكيد القصّة إذا قلت: ﴿يَا عَجَبَاهُ﴾ فكأنّك قلت إعجبوا يا أيّها العجب هذا من حينك. وكذلك إذا قلت: ﴿يَا بُشْرَى﴾ فكأنّك قلت: أبشروا يا أيّتها البشرى هذا من أبانك. و﴿بِضَاعَةً﴾: منصوب على

---

(١) من القصيدة التي قالها في رثاء بنيه لمّا ماتوا بالطاعون. والإعناق: نوع من السير. وتخرّمت المنية القوم: استاصلهم.

(٢) هما للمنتخل الهذلي، وعكبّ ـ بتشديد الباء ـ صاحب سجن النعمان بن المنذر. ومعدّ: قبيلة، وأيضاً هو الجنب، ولحم المنكب. والصملّة في اللغة: الرجل القصير الضخم. والشاهد في «قفيّا» أراد به: قفاى.

(٣) والبرد: اسم عبد باعه، فندم.

الحال، وتقديره: وأسروه جاعليه بضاعة. و﴿دَرَاهِمَ﴾: في موضع جرّ؛ بأنّه بدل من ثمن. و﴿مَعْدُودَةٍ﴾: صفة الدراهم. ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ﴾ فيه. ليست من صلة ﴿الزَّاهِدِينَ﴾ والمعنى: وكانوا من الزاهدين. ثمّ بيّن في أيِّ شيء زهدوا، فقال: فيه، فكأنّه قال: زهدوا فيه. وهذا في الظروف جائز، ولا يجوز ذلك في المفعولات لو قلت كنت زيداً من الضاربين، لم يجز؛ لأنّ زيداً من صلة الضاربين، ولا تقدّم الصلة على الوصول.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه في الجبّ، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: جماعة مارّة، قالوا: وإنّما جاءت من قبل ﴿مَدْيَنَ﴾ يريدون مصر، فأخطأوا الطريق، فانطلقوا يهيمون على غير الطريق، حتى نزلوا قريباً من الجبّ، وكان الجبّ في فقره بعيدة عن العمران، وإنّما هو للرعاة والمجتازة. وكان ماؤه ملحاً فعذب. وقيل: كان الجبّ بظهر الطريق.

﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: فبعثوا من يطلب لهم الماء، يقال: بعثوا رجلاً يقال له مالك بن زعر؛ ليطلب لهم الماء.

﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي: أرسل دلوه في البئر؛ ليستقي، فتعلق يوسف عليه السلام بالحبل. فلمّا خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان. قال النبيّ صلى الله عليه وآله: أُعطي يوسف شطر الحسن، والنصف الآخر لسائر الناس. وقال كعب الأحبار: وكان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والعضدين، خميص البطن، صغير السرّة، وكان إذا تبسّم، رأيت النور في ضواحكه، وإذا تكلّم، رأيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن ثناياه، ولا يستطيع أحد وصفه، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله عزّ وجل، وصوّره، ونفخ فيه من روحه، قبل أن يصيب المعصية. ويقال: إنّه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أُعطيت سدس الحسن.

فلمّا رآه المدلي ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ ـ عن قتادة، والسدّي ـ. وقيل: إنّه نظر في البئر لمّا ثقل عليه الدلو، فرأى يوسف عليه السلام، فقال: هذا غلام! فأخرجوه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ «بشرى» رجل من أصحابه ناداه، عن السدي.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: وأسرَّ يوسف الذين وجدوه من رفقائهم من التجّار؛ مخافة أن يطلبوا منهم الشركة معهم في يوسف، فقالوا: هذا بضاعة لأهل الماء، دفعوه إلينا لنبيعه لهم، ـ عن مجاهد، والسدّي ـ. وقيل: معناه وأسرَّ إخوته يكتمون أنّه أخوهم، فقالوا: هو عبد لنا قد أبق، واختفى منّا في هذا الموضع، وقالوا له بالعبرانيّة: لئن قلت أنا أخوهم قتلناك! فتابعهم على ذلك؛ لئلّا يقتلوه، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يعمل إخوة يوسف ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه بثمن ناقص قليل، ـ عن عكرمة، والشعبي ـ. وقيل: حرام، لأنّ ثمن الحرّ حرام، ـ عن الضحّاك، ومقاتل، والسدّي ـ. وسمّي الحرام بخساً؛ لأنّه لا بركة فيه، فهو منقوص البركة.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: قليلة، وذكر العدد عبارة عن القلّة. وقيل: إنّهم كانوا لا يزنون من الدراهم ما دون الأوقية، وكانوا يزنون الأوقية: وهي الأربعون، فما زاد عليها، وكانت الدراهم عشرين درهماً، ـ عن ابن عباس، وابن مسعود، والسدّي ـ، وهو المرويّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: وكانوا عشرة، فاقتسموها درهمين درهمين. وقيل: كانت اثنتين وعشرين درهماً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: كانت أربعين درهماً، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: ثمانية عشر درهماً، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

وأُختلف فيمن باعه، فقيل: إنّ إخوة يوسف باعوه، وكان يهوذا منتبذاً ينظر

إلى يوسف، فلمّا أخرجوه من البئر، أخبر إخوته فأتوا مالكاً، وباعوه منه، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: باعه الواجدون بمصر، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّ الذين أخرجوه من الجبّ، باعوه من السيّارة، ـ عن الأصم ـ. والأصحّ الأوّل.

وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره قال: فلم يزل مالك بن زعر وأصحابه يتعرّفون من الله الخير في سفرهم ذلك، حتى فارقوا يوسف، ففقدوا [فقدوا] ذلك، قال: وتحرّك قلب مالك ليوسف، فأتاه فقال: أخبرني من أنت؟ فانتبه [فإنتسب] له وسف، ولم يكن مالك يعرفه، فقال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. فألزمه [فإلتزمه] مالك وبكي. وكان مالك رجلاً عاقراً، لا يولد له، فقال ليوسف: لو دعوت ربّك أن يهب لي ولداً. فدعا يوسف ربّه أن يجعل له ولداً، ويجعلهم ذكوراً، فولد له إثنا عشر بطناً، في كل بطن غلامان.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ﴾ قيل: يعني به: إنّ الذين اشتروه، كانوا من الزاهدين في شرائه؛ لأنّهم وجدوا علامة الأحرار، وأخلاق أهل البرّ والنُبْل، فلم يرغبوا فيه؛ مخافة أن يلحقهم تبعة في إستعباده. وقيل: معناه: وكانوا من الزاهدين في نفس يوسف، لم يشروه للفجور، وإنّما إشتروه للربح. وقيل: المراد به: الذين باعوه من إخوته، كانوا غير راغبين في يوسف، ولا في ثمنه، ولكنّهم باعوه حتى لا يظهر ما فعلوا به، وكان قصدهم تبعيده. وقيل: كانوا من الزاهدين في يوسف؛ لأنّهم لم يعرفوا موضعه من الله سبحانه، وكرامته عليه. ولا تنافي بين هذه الأقوال، فيجوز حمل الآية على جميعها. وقيل: إنّ الذين باعوه بمصر، كانوا من الزاهدين في ثمنه؛ لأنّهم علموا أنّه لقطة، وليست ببضاعة.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

اللغة: الثواء: الإقامة، والمثوى: موضع الإقامة. والإكرام: إعطاء المراد على جهة الإعظام، وهو يتعاظم فأعلاه منزلة، ما يستحقّ بالنبوّة، وأدناه، ما يستحقّ بخصلة من الطاعات. وأَشُدّ: جمع، لا واحد له. وقيل: هو واحد، وإن كان على وزن الجمع، فهو مثل: الآنك: وهو الرصاص. وقيل: إنّه جمع، واحده: شدّ، كما أنّ واحد الأشر: شرّ. قال الشاعر:

هَلْ غَيْرَ أَنْ كَثُرَ الْأَشُرُّ، وَأَهْلَكَتْ حَرْبُ الْمُلُوكِ أَكَاثِرَ الْأَمْوَالِ

الإعراب: مصر: لا ينصرف؛ لأنّه مؤنّث معرفة. وأن ينفعنا: في موضع رفع؛ لكونه فاعل «عسى». و«عسى» هذه تامّة؛ لأنّها تمّت بفاعلها. واللام في قوله: ولنعلّمه، محمولة على تقدير: دبّرنا ذلك؛ لنمكّنه، ولنعلّمه.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن حال يوسف، بعد أن بيع، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ أي: اشترى يوسف ﴿مِنْ مِصْرَ﴾ أي: من أهل مصر ﴿لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: مقام يوسف، وموضع نزوله أي: هيّئي له موضعاً كريماً شريفاً، وتقدير الآية، فحملوه إلى مصر، وباعوه. وحذف ذلك للدلالة عليه. وكان المشتري خازن فرعون مصر، وخليفته، وصاحب جنوده، وإسمه قطفير، وكان لا يأتي النساء.

وقيل: إنّ إسمه أظفير، وكان يلقّب بالعزيز. ومن كان بمكانه يسمّى بالعزيز،

ومن يسمّي بالعزيز ممّن لم يكن بمكانه نزع لسانه. فلمّا عبّر يوسف رؤيا الملك سمّي العزيز، وجعل مكان العزيز. وكان باعه مالك بن زعر منه أربعين ديناراً، وزوج نعل، وثوبين أبيضين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّه عرضه على البيع في سوق مصر، فتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه ورقاً، ومسكاً، وحريراً، ـ عن وهب ـ. فاشتراه العزيز بهذا الثمن. وقال لامرأته راعيل، ولقّبها زليخا: أكرمي مثواه ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا﴾ أي: عسى أن نبيعه، فنربح على ثمنه.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ فإنّه لا ولد لنا. وإنّما قال ذلك؛ لما رأى على يوسف من الجمال، والعقل، والهداية في الأُمور، وعلى هذا، فالعزيز هو خازن الملك، وخليفته، والملك، هو الريان بن الوليد، رجل من العماليق. وقيل: إنّ هذا الملك لم يمت حتى آمن، واتّبع يوسف على دينه، ثمّ مات، ويوسف بعده حيٌّ، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام، فأبى أن يقبل. وقال ابن عباس: العزيز ملك مصر، وكذلك هو في حديث عليّ بن الحسين عليه السلام.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما أنعمنا على يوسف بالسلامة والخروج من الجبّ، مكّنّاه في الأرض بأن عطفنا عليه قلب الملك الذي اشتراه، حتى صار بذلك متمكّناً من الأمر والنهي في الأرض، التي كان يستولي عليها الملك، وهي أرض مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد مضى معناه في أوّل السورة ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي: على أمر يوسف، يحفظه ويرزقه حتى يبلغه، ما قدر له من الملك والنبوة، ولا يكله إلى غيره. وقيل: معناه: والله غالب على أمر نفسه، لا يعجزه شيء من تدابيره، وأفعاله، فهو الفاعل لما يشاء كيف يشاء.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنّ الله غالب على أمر نفسه، أو أمر يوسف. وقيل: معناه: لا يعلمون ما يصنع الله بيوسف، وما يؤول إليه حاله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: منتهى شبابه، وقوّته، وكمال عقله. وقيل:

الأشدّ: من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ أقصى الأشدّ أربعون سنة. وقيل: ستّون سنة، وهو قول الأكثرين. ويؤيّده الحديث: من عمره الله ستّين سنة، فقد أعذر إليه. وقيل: إنّ ابتداء الأشدّ، من ثلاث وثلاثين سنة، ـ عن مجاهد، وكثير من المفسّرين ـ. وقيل: من عشرين سنة، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً﴾ أي: أعطيناه القول الفصل، الذي يدعوا إلى الحكمة ﴿وَعِلْماً﴾: وهو تبيين الشيء على ما هو به، بما يحلّ في القلب، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. وقيل: الحكم: النبوّة، والعلم: الشريعة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الحكم: الدعاء إلى دين الله، والعلم: علم الشرع[1]. وقيل: أراد الحكم بين الناس، والعلم بوجوه المصالح، فإنّ الناس كانوا إذا تحاكموا على العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله، وإصابته في الرأي. وقيل: هو العلم والعمل به، وهو الحكم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل ما جزينا يوسف بصبره، نجزي كل من أحسن أي: فعل الأفعال الحسنة من الطاعات. وقيل: إنّ المحسنين: الصابرون على النوائب، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: هم المؤمنون، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أراد محمّداً ﷺ أي: كما فعلنا بيوسف، وأعطيناه الملك بعد مقاساته البلاء والشدّة، كذلك نفعل بك يا محمّد، ـ عن ابن جريج ـ.

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾[2]

القراءة: قرأ أهل المدينة والشام: هيتَ لك ـ بكسر الهاء وفتح التاء ـ. وقرأ

---

(١) ومن ذلك، الحقيقة الدينيّة لإصطلاحات أصول الدين، والحقيقة الشرعيّة لإصطلاحات الفقه.

(٢) وياء «ربّي» ممّا اختلفوا في فتحها.

ابن كثير: هَيتُ لك ـ بفتح الهاء وضمّ التاء ـ. وقرأ الباقون: هَيْتَ لك ـ بفتح الهاء والتاء ـ. وروي عن عليّ عليه السلام، وأبي رجاء، وأبي وائل، ويحيى بن وثاب: هئتُ لك ـ بالهمزة وضمّ التاء ـ. وروي ذلك على خلاف فيه عن ابن عباس، وعن عكرمة، ومجاهد، وقتادة. وروي عن ابن عباس أيضاً: هَيْتِ لك ـ بفتح الهاء وكسر التاء ـ. وروي ذلك عن أبي الأسود، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وعيسى الثقفي. وروي أيضاً عن ابن عباس: هَيِّئْت لك، أيضاً.

الحجة: قال الزجّاج: في «هيت لك» لغات، أجودها: هَيْتَ لك ـ بفتح الهاء والتاء ـ. قال الشاعر:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنينَ أَخَا الْعِراقِ إِذا أَتَيْتا
إِنَّ الْعِراقَ، وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ، فهَيْتَ هَيْتا[1]

أي: فأقبل، وتعال. وحكي قطرب أنّه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة:

لَيْسَ قَوْمي بِالأَبْعَدينَ إِذا ما قالَ داعٍ مِنَ الْعَشِيْرَةِ: هَيْتَ
هُمْ يُجِيبُونَ ذا: هَلُمَّ سِراعاً كَالأَبابِيل، لا تُغادِرُ بَيْتا

فهذا شاهد لابن كثير، وكلّها أسماء سمّي بها الفعل بمنزلة: صه، ومه، وأيه، والحركات في أواخرها لإلتقاء الساكنين. وأمّا الفتح؛ فلأنّ قبل التاء ياء، فهو كما قيل: أين، وكيف. والكسر؛ لأنّ الأصل في التقاء الساكنين حركة الكسر. وأمّا؛ الضم فلأنّها في معنى الغايات، كأنّها قالت دعائي لك. فلمّا حذفت الإضافة، وتضمّنت «هيت» معناها، بنيت على الضمّ، كما بنيت «حيث، ومنذ». وأمّا هئتُ [هئتُ] ـ بالهمزة وضمّ التاء ـ: ففعل، تقول: هئت أهيء هيئة أي: تهيّأت. وقالوا أيضاً: هئت أهاء، كخفت أخاف. وأمّا هَيَّئْت لك: ففعل صريح، كقولك: أصلحت

---

[1] قائله: رجل من أهل العراق يخاطب عليّ بن أبي طاب عليه السلام. وجاء القوم عنقاً عنقاً: أي طوائف.

لك. واللام تتعلّق بنفس «هيتَ، وهيتُ، وهيتِ، وهئت»، كما يتعلّق بنفس «هلم» في قولك: هلم لك.

اللغة: المراودة: المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به، ومنه: المرود؛ لأنّه يعمل به. ولا يقال في المطالبة بدين: راوده، وأصله من راد يرود: إذا طلب المرعى. وفي المثل: الرائد [لايكذِب] أهله، وهو في الآية كناية عمّا تريده النساء من الرجال. والتغليق: إطباق الباب بما يعسر فتحه، وإنّما شدّد ذلك؛ لتكثير الإغلاق، أو للمبالغة في الإيثاق.

الإعراب: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾: نصب على المصدر، على تقدير: أعوذ بالله معاذاً، تقول: عذت بالله عوذاً، ومعاذاً، وعياذاً، ومعاذة.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن امرأة العزيز، وما همّت به، فقال: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: وطالبت يوسف المرأة التي كان يوسف في بيتها عن نفسه، وهي زليخا. والمعنى: طلبت منه أن يواقعها.

﴿وَغَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ﴾ على نفسها وعليه، باباً بعد باب. قالوا: وكانت سبعة أبواب. وقيل: أراد باب الدار، وباب البيت ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلّم لك، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. ومعناه: أقبل وبادر إلى ما هو مهيّأ لك.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ أي: أعتصم بالله، وأستجير به، ممّا دعوتني إليه، وتقديره: عياذاً بالله أن أُجيب إلى هذا. فكان عليه السلام أظهر الإباء، وسأل الله سبحانه أن يعيذه، ويعصمه من فعل ما دعته إليه.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ الهاء: عائدة إلى زوجها، عند أكثر المفسّرين. ومعناه: إنّ العزيز زوجك مالكي، أحسن تربيتي وإكرامي، وبسط يدي، ورفع منزلتي، فلا أخونه. وإنّما سمّاه ربّاً؛ لما كان ثبت له عليه من الرقّ في الظاهر. وقيل: إنّ الهاء عائد إلى الله سبحانه. والمعنى: إنّ الله ربّي رفع من محلّي، وأحسن إليَّ،

وجعلني نبيّاً، فلا أعصيه أبداً.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ دلَّ بهذا على أنّه لو فعل ما دعته إليه، لكان ظالماً. وفي هذه الآية دلالة على أنّ يوسف عليه السلام لم يهمّ بالفاحشة، ولم يردّها بقبيح؛ لأنّ من همَّ بالقبيح، لا يقول مثل ذلك.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة والكوفة: المخلَصين ـ بفتح اللام ـ. الباقون: بكسر اللام في جميع القرآن.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من كسر اللام قوله: ﴿أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾. ومن فتح اللام، فيكون بني الفعل للمفعول به، ويكون معناه، ومعنى من كسر اللام واحداً. فإذا أخلصوا دينهم فهم مخلصون. وإذا أخلصوا فهم مخلَصون.

اللغة: الهمّ في اللغة على وجوه، منها: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أرادوا ذلك، وعزموا عليه. ومنه: قول ضابىء البرجمي.

هَمَمْتُ، وَلَمْ أَفْعَلْ، وَكِدْتُ، وَلَيْتَني ... تَرَكْتُ على عُثْمانَ، تَبْكي حَلائِلُهُ

وقول حاتم طيء:

وَللهِ صُعْلُوكٌ يُشَاوِرُ هَمَّه ... وَيَمْضي عَلَى الأيّامِ، وَالدَّهْرِ مُقْدِماً

وقول الخنساء:

وَفَضَّل مِرْداساً عَلَى النَّاسِ جُمْلَةً ... وَإِنْ كُلُّ هَمٍّ هَمَّهُ فَهْوَ فَاعِلُهُ

ومنها: خطور الشيء بالبال، وإن لم يقع العزم عليه كقوله: ﴿إِذْ هَمَّت

﴿طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني: إنّ الفشل خطر ببالهم، ولو كان الهمّ هيهنا عزماً؛ لما كان الله وليهما؛ لأنّ العزم على المعصية، معصية، ولا يجوز أن يكون الله وليُّ من عزم على الفرار عن نصرة نبيّه، عليه وآله السلام. ويقوّي ذلك قول كعب بن زهير:

فَكَمْ فيهِم مِنْ فَارِسٍ مُتَوسِّعٌ وَمِنْ فَاعِلٍ لِلْخَيْرِ إِنْ هَمَّ، أَوْ عَزَمَ

ففرَّق بين الهمّ والعزم. ومنها: أن يكون بمعنى المقاربة. قالوا: همَّ فلان أن يفعل كذا أي: كاد يفعله. قال ذو الرمة.

أَقُولُ لِمَسْعُودٍ بِجَرْعَاءَ مَالِكٍ وَقَدْ هَمَّ دَمْعي أَنْ تَلِجَّ أَوَائلُه

والدمع لا يجوز عليه العزم. ومعناه: كاد وقارب. وقال أبو الأسود الدئلي:

وَكُنْتَ مَتىٰ تَهْمَمْ يَمينُكَ مَرَّةً لِتَفْعَلَ خَيْراً تَقْتَفيها شِمَالُكا

وعلى هذا جاء قوله: ﴿جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يكاد. وقال الحارثي:

يُريدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاء بَني عَقِيلٍ

ومنها: الشهوة ونيل الطباع، يقول القائل فيما يشتهيه، ويميل طبعه إليه: هذا أهمُّ الأشياء إليَّ، وفي ضدِّه ليس هذا من همّي. وإذا كانت معاني الهمّ في اللغة مختلفة، يجب أن ينفي عن نبيّ الله يوسف عليه السلام، ما لا يليق به، وهو العزم على القبيح؛ لأنّ الدليل قد دلَّ على أنّ الأنبياء لا يجوز المعاصي والقبائح عليهم، وأجزنا عليهم ما سواه من معاني الهم؛ لأنّ كل واحد من ذلك يليق بحاله.

المعنى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ إختلف العلماء فيه على قولين: أحدهما: إنّه لم يوجد من يوسف ذنب كبير، ولا صغير. والآخر: إنّه وجد منه العزم على القبيح، ثمّ انصرف عنه. فأمّا الأوّلون، فإنّهم اختلفوا في تأويل الآية على وجوه:

أحدها: إنّ الهمّ في ظاهر الآية قد تعلّق بما لا يصحّ تعلّق العزم به على

الحقيقة؛ لأنّه قال. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فعلّق الهمّ بهما، وذاتهما لا يجوز أن يرادا، ويعزم عليهما؛ لأنّ الموجود الباقي لا يصحّ أن يراد ويعزم عليه، فإذا حملنا الهمّ في الآية على العزم، فلا بدّ من تقدير أمر محذوف، يتعلّق العزم به. وقد أمكن أن نعلّق عزمه عليه السلام بغير القبيح، ونجعله متناولاً لضربها، أو دفعها عن نفسه، فكأنّه قال: ولقد همّت بالفاحشة منه، وأرادت ذلك، وهمَّ يوسف عليه السلام بضربها، ودفعها عن نفسه، كما يقال: هممت بفلان أي: بضربه، وإيقاع مكروه به.

وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان: إنّ الله سبحانه أراده برهاناً على أنّه إن أقدم على ما همَّ به، أهلكه أهلكها، أو قتلوه، أو ادّعت عليه المراودة على القبيح، وقذفته بأنّه دعاها إليه، وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنّه صرف عنه السوء والفحشاء، اللذين هما القتل، وظنّ اقتراف الفاحشة به. ويكون التقدير: لو لا أن رأى برهان ربّه، لفعل ذلك. ويكون جواب ﴿لَوْ لاَ﴾ محذوف، كما حذف في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه وَإِنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقوله: ﴿كَلّا لَوْ تَعْلَمُوْنَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ﴾ أي: لولا فضل الله لهلكتم، ولو تعلمون علم اليقين لم يهلككم التكاثر. ومثله: قول امرىء القيس:

وَلَوْ أَنَّها نفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً ... وَلٰكِنَّها نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُساً[1]

يريد: فلو أنّها نفس تموت سوية لنقضت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً على أنّ الكلام يقتضيه. وعلى هذا يكون جواب «لو لا» محذوفاً يدلّ عليه قوله: وهمَّ بها. و لا يجوز أن يكون قوله «وهمَّ بها» جواباً للولا؛ لأنّ جواب «لو لا» لا يتقدّم عليه.

وثانيها: أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون التقدير: ولقد همَّت

---

(١) قيل: معناه: ليت لي نفساً تموت دفعة واحدة، لكنّها تموت تدريجاً؛ لطول المرض. وقيل: معناه: يموت بموتى نفوس كثيرة.

به، ولو لا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها. ولمّا رأى برهان ربّه لم يهمّ بها. ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أنّي تداركتك. وقد كنت قُتِلت لو لا أنّي خلصتك. والمعنى: لو لا تداركي لهلكت، ولو لا تخليصي إيّاك لقتلت، وإن كان لم يقع هلاك وقتل. ومثله: قول الشاعر:

فَلاْ يَدْعُني قَوْمي لِيَوْمِ كَريهَةٍ لَئِنْ لَمْ أُعَجِّلْ ضَرْبَةً، أَوْ أُعَجَّلِ

وقال آخر:

فَلَا يَدْعُني قَوْمي صَرِيعاً لِحُرَّةٍ لَئِنْ كُنْتُ مَقْتُوْلاً وَيَسْلَمُ عَامِرُ[1]

وفي القرآن: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ و هذا الوجه اختاره أبو مسلم، وهو قريب من الأوّل.

وثالثها: إنّ معنى قوله: همَّ بها إشتهاهاً، ومال طبعه إلى ما دعته إليه. وقد يجوز أن تسمّي الشهوة همّاً على سبيل التوسّع والمجاز، ولا قبح في الشهوة؛ لأنّها من فعل الله تعالى، وإنّما يتعلّق القبح بالمشتهي. وقد روي هذا التأويل عن الحسن قال: أما همّها فكان أخبث الهمّ. وأما همُّه، فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء. وروي الضحّاك، عن ابن عباس: أنّه قال: همّها: القصد، وهمّه: أنّه تمنّاها أن تكون زوجة له. وعلى هذا الوجه فيجب أن يكون قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ متعلّقاً بمحذوف أيضاً، كأنّه قال: لو لا أن رأى برهان ربّه، لعزم أو فعل.

سؤال قالوا: إنّ قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ خرجا مخرجاً واحداً، فلم جعلتم همّها به متعلّقاً بالقبيح، وهمّه بها متعلّقاً بغير القبيح؟ وجوابه: إنّ الظاهر لا يدلّ على ما تعلّق به الهمّ فيهما جميعاً، وإنّما أثبتنا همّها به متعلقاً بالقبيح؛ لشهادة

---

(١) فلايدع: نهي. وأراد بالصريح، صريح النسب. وقال لحرّة: لأنّ العرب كانوا يفتخرون بكونهم أبناء حرّة لا أمة. ويسلم عامر: رواية الشعر برفع «يسلم» على الإستيناف، لا بالنصب بإضمار «أن» على ما في الكتاب.

القرآن والآثار به؛ ولأنّها ممّن يجوز عليه فعل القبيح. والشاهد لذلك من الكتاب قوله: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَفْسِهِ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ظَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقوله حكاية عنها: ﴿ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ والشاهد من الآثار: اجماع المفسرين على أنّها همَّت بالمعصية والفاحشة.

وأمّا يوسف عليه السلام: فقد دلّت الأدلّة العقلية التي لا يتطرّق إليها الإحتمال والمجاز[1]، على أنّه لا يجوز أن يفعل القبيح، ولا يعزم عليه. فأمّا الشاهد من القرآن على أنّه ما همّ بالفاحشة، فقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وقوله: ﴿ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ وغير ذلك من قوله: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ والعزم على الفاحشة من أكبر السوء. وأمّا الفرقة الأخرى فإنّهم قالوا فيه ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء، فقال بعضهم: إنّه قعد بين رجليها، وحلّ تكة سراويله، وقال بعضهم: حلّ السراويل حتى بلغ الثنن، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، وقد نزّهه الله سبحانه عن ذلك كلّه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وأمثال ذلك ممّا عددناه.

فأمّا البرهان الذي رآه، فقد اختلف فيه على وجوه: **أحدها**: إنّه حجّة الله سبحانه في تحريم الزنا، والعلم بالعذاب الذي يستحقّه الزاني، ـ عن محمّد بن كعب، والجبائي ـ.

وثانيها: إنّه ما آتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء، وأخلاق الأصفياء، في العفاف، وصيانة النفس عن الأدناس، ـ عن أبي مسلم ـ.

وثالثها: إنّه النبوّة المانعة من ارتكاب الفواحش، والحكمة الصارفة عن

---

(١) بخلاف النقلية.

القبائح، ـ روي ذلك عن الصادق عليه السلام ـ.

ورابعها: إنّه كان في البيت صنم، فألقت المرأة عليه ثوباً، فقال عليه السلام: إن كنت تستحيين من الصنم، فأنا أحقّ أن أستحي من الواحد القهار! ـ عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ـ.

وخامسها: إنّه اللطف الذي لطف الله تعالى به في تلك الحال، أو قبلها، فاختار عنده الإمتناع عن المعاصي، وهو ما يقتضي كونه معصوماً؛ لأنّ العصمة هي اللطف الذي يختار عنده التنزّه عن القبائح، والإمتناع من فعلها. ويجوز أن يكون الرؤية هيهنا بمعنى العلم، كما يجوز أن يكون بمعنى الإدراك.

فأمّا ما ذكر في البرهان من الأشياء البعيدة بأن قيل: إنّه سمع قائلاً يقول: يابن يعقوب! لا تكوننّ كالطير له ريش، فإذا زنا ذهب ريشه! وقيل: إنّه رأى صورة يعقوب عاضّاً على أنامله. وقيل: إنّه رأى كفاً بدت فيما بينهما مكتوباً عليها النهي عن ذلك، فلم ينته، فأرسل الله سبحانه جبريل عليه السلام، وقال: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة. فرآه عاضّاً على إصبعه. فكل هذا سوء ثناء على الأنبياء، مع أنّ ذلك ينافي التكليف، ويقتضي أن لا يستحقّ على الامتناع من القبيح مدحاً ولا ثواباً. وهذا من أقبح القول فيه عليه السلام.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي: كذلك أريناه البرهان، لنصرف عنه السوء أي: الخيانة ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: ركوب الفاحشة. وقيل: السوء: الإثمّ، والفحشاء: الزنا.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: المصطفين المختارين للنبوّة. وبكسر اللام: المخلصين في العبادة والتوحيد، أي: من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله، وأخلصوا أنفسهم له. وهذا يدلّ على تنزيه يوسف، وجلالة قدره عن ركوب القبيح، والعزم عليه.

(١)
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، ونوح القارىء: ﴿مِن قُبُلُ، ومِن دُبُرُ﴾ ـ بثلاث ضمّات من غير تنوين ـ.

الحجّة: قال ابن جنّي: ينبغي أن يكونا غايتين كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ كأنّه يريد: وقدَّت قميصه من دبره، وإن كان قميصه قدّ من قبله. فلمّا حذف المضاف إليه أعني الهاء، وهي مرادة، صار المضاف غاية، بعد ما كان المضاف إليه، غاية له.

اللغة: القدُّ: شقُّ الشيء طولاً، مثل: قدّ الأديم، يقال: قَدَّه يقُدُّه قدّاً فهو مقدود: إذا كان ذاهباً في الطول على إستواء. وفي الحديث: «كانت ضربات عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ابكاراً، كان إذا اعتلىٰ قدَّ، وإذا اعترض قطَّ». والقِدّ ـ بكسر القاف ـ: السير المقطوع طولاً. والإلفاء: المصادفة. قال ذو الرمة:

---

(١) لدا: مكتوب بالألف في المصاحب، كلبا.

وَمُــطْعِمُ الصَّــيْدِ هَــبَّالٌ لِـبُغْيَتِهِ أَلْفىٰ أَبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يَكْتَسِبُ[1]

أي: وجد أباه. والكيد: طلب الشيء بما يكرهه، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه، ويأباه. والخطيئة: العدول عما تدعو إليه الحكمة إلى ما تزجر عنه.

ويقال لصاحبه: خطأ يخطأ خطأ، فهو خاطىء، إذا وقع ذلك منه عن قصد، فإذا وقع من غير قصد، قيل: أخطأ المقصد، فهو مخطىء. فأصل الخطأ: العدول عن الغرض الحكمي بقصد، أو غير قصد. قال أُميّة:

عِــبَادُكَ يَــخْطَأُونَ، وَأَنْتَ رَبٌّ بِكَــفَّيْكَ الْــمَنَايَا، وَالْــحُتُومُ[1]

الإعراب: إنّما عطف قوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيم﴾ عـلى الفـعل؛ لأنّ تـقديره: إلّا السجن أو عذاب. و«مِنْ» في قوله: ﴿قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ومِن قبل﴾: لابتداء الغاية؛ لأنّ ابتداء القدّ كان منها. و«مِنْ» في قوله: ﴿مِنَ الْكَـاذِبِين﴾ للـتبعيض؛ لأنّـه بـعض الكاذبين، ولم يقل: وشهد شاهد أنّه كان؛ لأنّه ذهب مذهب القول في حكاية، كما أنّ قوله: ﴿يُوْصِيْكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُم﴾ كذلك. والتقدير: يـوصيكم الله أنّ المـال ﴿لِلذَّكَرِ مَثْلُ حَظِّ ٱلأُنْثَيَيْنِ﴾ وقوله: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصَهُ﴾ قال أبو العـباس المـبرّد؛ معناه: إن يكن، وجاز ذلك في «كان»؛ لأنّها أُمّ الباب، كما جاز في التعجّب: ما كان أحسن زيداً، ولم يجز: ما أصبح أحسنه. وقال أبو بكر السراج: إنْ يكن بمعنى: إن يصبح قدَّ قميصه من دبر.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ الرؤية هيهنا تحتمل أمرين: **أحدهما**: أن تكون بمعنى رؤية العين، فلا تكون رؤية العين رؤية للقدّ، ويكون قوله: ﴿قُدَّ مِنْ دُبُـرٍ﴾ فـي موضع الحال، وإنّما يكون رؤية للقميص. **والآخر**: أن يكون بمعنى العلم، وتكون رؤية للقدّ. وإنّما قال: ﴿مِنْ الْخَاطِئِينَ﴾، ولم يقل: من الخاطئات؛ لتغليب المذكّر

---

(١) هبّال: أي هو محتال في الصيد، وإطعامه كيد.

[١] الحَتْم: ايجاب القضاء.

على المؤنّث.

المعنى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ يعني تبادرا الباب أي: طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز السبق إلى الباب. أمّا يوسف، فإنّه كان يقصد أن يهرب منها، ومن ركوب الفاحشة. وأمّا هي، فإنّما كانت تطلب يوسف؛ لتقضي حاجتها منه، وتقصد أن تغلق الباب، وتمنعه من الخروج، وتراوده ثانياً عن نفسه.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: لحقت يوسف، فجذبت قميصه، وشقّته طولاً من خلفه؛ لأنّ يوسف كان هارباً، وهي تعدو من خلفه. وقيل: إنّ يوسف رأى الأبواب قد انفتحت، فعلم أنّ الصواب هو الخروج، فخرج هارباً. وقيل: بل أخذ بفتح الأبواب، وأدركته، فتعلّقت بقميصه من خلفه، فشقّته.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي: فلمّا خرجا، وجدا زوجها عند الباب، وسمّاه سيّدها؛ لأنّه مالك أمرها.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: إنّ المرأة سبقت بالكلام؛ لتورك الذنب على يوسف، فقالت لزوجها: ليس جزاء من أراد بأهلك خيانة إلّا أن يسجن، أو أن يضرب بالسياط، ضرباً وجيعاً، عن ابن عباس. قالوا: ولو صدق حبها، لم تقل ذلك، ولآثرته على نفسها، ولكن حبّها إيّاه كان شهوة.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ لمّا ذكرت المرأة ذلك، لم يجد يوسف بدّاً من تنزيه نفسه بالصدق، ولو كفَّت عن الكذب عليه، لكفَّ عليه السلام، عن الصدق عليها، فقال: هي التي طالبتني بالسوء، نسبتني إليه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس، وسعيد ابن جبير: إنّه صبيّ في المهد. وقيل: كان الصبي ابن أُخت زليخا، وهو ابن ثلاثة أشهر، وروي عن ابن عباس أيضاً في رواية أُخرى، وعن الحسن، وقتادة، وعكرمة: إنّه شهد رجل

حكيم من أهلها بتبرئة يوسف، واختاره الجبائي، قال: لو كان طفلاً؛ لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه إلى البيان. وقيل: كان الرجل ابن عمّ زليخا، وكان جالساً مع زوجها عند الباب، ـ عن السدّي ـ.

﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ أي: شقّ ﴿مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ المرأة ﴿وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما قال يعني: يوسف؛ لأنّه كان هو القاصد، وهي الدافعة.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ المرأة ﴿وَهُوَ﴾ أي: يوسف ﴿مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ لأنّه الهارب، وهي الطالبة. وهذا أمر ظاهر، واستدلال صحيح.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: فلمّا رأى زوجها قميص يوسف شقّ من خلف، عرف خيانة المرأة.

ف﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وقيل: هو من قول الشاهد. وإنّما وصف كيدهنّ بالعظم؛ لأنّها حين فاجأت زوجها عند الباب، لم يدخلها دهش، ولم تتحيّر في أمرها، ووركت الذنب على يوسف عليه السلام؛ ولأنّ قليل حيل النساء أسبق إلى قلوب الرجال، من كثير حيل الرجال.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني: إنّ الشاهد قال ليوسف: يا يوسف أمسك عن هذا الحديث أي: عن ذكرها، حتى لا يفشو في البلد، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّما قاله زوجها. وقيل: معناه: لا تلتفت يا يوسف إلى هذا الحديث، ولا تذكره على سبيل طلب البراءة، فقد ظهرت براءتك، ـ عن أبي مسلم والجبائي ـ.

ثمّ أقبل على زليخا، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أي: سلي زوجك أن لا يعاقبك على ذنبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ﴾ أي: من المذنبين. وقيل: إنّه لم يكن غيوراً، سلبه الله الغيرة لطفاً منه بيوسف، حتى كفي شرّه، ولذلك قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ واقتصر على هذا القدر. وقيل: معناه: إستغفري الله من ذنبك،

وتوبي إليه، فإنّ الذنب كان منك، لا من يوسف، فإنّهم كانوا يعبدون الله تعالى مع عبادتهم الأصنام.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

القراءة: روي عن عليّ عليه السلام، وعن عليّ بن الحسين، ومحمّد بن علي، وجعفر بن محمّد عليهم السلام، وعن الحسن بخلاف، ويحيى بن يعمر، وقتادة بخلاف،

---

(١) كتبت «إمرات العزيز» بالتاء، في المصاحف كلّها، ووقف عليها بالتاء جميع السبعة، إلّا ابن كثير وأبو عمرو، والكسائي. وأدغم «قد شغفها» أبو عمرو، وهشام، وحمزة، والكسائي، وخلف.

ومجاهد بخلاف، وابن محيصن: قد شعفها ـ بالعين ـ.

وروي عن أبي جعفر: متّكاً ـ بغير همز مشدّد التاء ـ. والباقون: متّكأً ـ بالهمزة والتشديد ـ. وروي في الشواذّ قراءة مجاهد: متْكا ـ خفيفة ساكنة التاء ـ. وروي ذلك عن ابن عباس. وقرأ أبو عمر: وحاشى الله[1] والباقون: حاش لله. وروي عن ابن مسعود، وأبي كعب: حاش الله. وعن الحسن: حاش الإله. وفي رواية أُخرى عنه: حاشْ لله ـ بسكون الشين ـ. وقرأ يعقوب وحده: السَجن أحبّ إليّ ـ بفتح السين ـ. والباقون: بكسرها.

الحجة: قال الزجّاج: معنى «شعفها» ـ بالعين ـ: ذهب بها كل مذهب، مشتقّ من شعفات الجبال أي: رؤوس الجبال، يقال: فلان مشعوف بكذا أَي: قد ذهب به الحبّ أقصى المذاهب. وقال ابن جنّي: معناه: وصل حبّه إلى قلبها، فكاد يحرقه لحدّته. وأصله من البعير يهنأ بالقطران، فتصل حرارة ذلك إلى قلبه. قال امرؤ القيس:

أيَقْتُلُنِي، وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا ... كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوَّةَ الرَّجُلُ الطَّالي[2]

وأمّا القراءة المشهورة: «شغفها» ـ بالغين ـ، فمعناه: إنّه خرق شغاف قلبها، وهو غلافه، فوصل إلى قلبها. وأمّا «المتكأ»: فهو ما يتّكأ عليه لطعام، أو شراب، أو حديث، وأصله: موتكأ: مفتعل، من وكأت، مثل: مؤتزن، من الوزن. وأمّا من قرأ: مُتَّكأً، فيجوز أن يكون مفتعلاً، من قوله:

إذَا شَرِبَ الْمُرِضَّةَ قَالَ أَوْكِي ... عَلَىٰ مَا فِي سِقَائِكَ قَدْ رَوِينَا[3]

---

(١) يعني: بألف بعد الشين وصلاً فقط، وإذا وقف أسقط الألف بغير خلاف.

(٢) يصف امرئة لها بعل عشقته، ويقول: كيف يستجيز بعلها أن يقتلني، ولست مقصّراً آثماً إن عشقت هي. والمهنُوّة: الناقة المطليّة بالقطران. شبّه تأثير عشقه في قلبها بتأثير القطران في الناقة، ويقال: إنّ تلك الناقة إذا نحرت، وجد طعم القطران من لحمها.

(٣) المرضّة: كل شراب أو طعام معرّق، واللبن الخاثر.

يقال: أو كيت السقا: إذا شددته. وأمّا مُتكأً فإنّهم قالوا المتك الاترج، واحدته: متكة. وقيل: هو الزُّماوَرْد(١). وأمّا حجّة أبي عمرو في قوله: حاشى لله فقول الشاعر:

حَاشىٰ أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ضَنّاً عَنِ المُلْحَاةِ، وَالشَّتَمِ(٢)

وقال أبو عليّ: لا يخلو قولهم: حاشى لله، من أن يكون الحرف الجارّ في الإستثناء كما ذكرناه في البيت، أو فاعَلَ من قولهم حاشى يحاشي، ولا يجوز أن يكون حرف الجرّ؛ لأنّ حرف الجرّ لا يدخل على مثله؛ ولأنّ الحرف لا يحذف إذا لم يكن فيها تضعيف، فإذا بطل ذلك ثبت أنّها فاعَلَ مأخوذ من الحشاء الذي هو الناحية. والمعنى: إنّه صار في حشاء أي: في ناحية ممّا قذف به، وفاعله يوسف، والمعنى بعد عن هذا الذي رمي به، لله أي: لخوفه من الله، ومراقبته أمره. ومن حذف الألف: فكما حذف من «لم يك، ولا أدر»، وإذا أريد به حرف الجرّ يقال: حاشا وحاش وحشا، ثلاث لغات. قال الشاعر:

حَشَا رَهْطِ النَّبِيّ فإنّ فيهِم بُحوراً تُعَطِّعُها الدِلاءُ[١]

وأمّا من قرأ: حاش الله، فعلى أصل اللغة يكون حرف جرّ، كما جاء في البيت:

«حاشى أبي ثوبان»

وأمّا حاش الإله: فمحذوف من حاشا؛ تخفيفاً، وهو كقولك: حاش المعبود. ومنه: قول الشاعر:

---

(١) طعام البيض واللحم.

(٢) الملحاة الذم.

[١] الحشىٰ: الناحية، وحاشىٰ من القوم فلاناً: استثنيتُه.

لَـــعَنَ الإلَـــهُ وَزَوجَـــها مَـــعَهما هِـــنْدَ الْـــهُنُودِ، طَـــويلَةَ الثَـــعْل[1]

وأمّا حاش الله: فضعيف؛ لالتقاء الساكنين فيه؛ ولإسكان الشين بعد حذف الألف، ولا موجب لذلك. وأمّا من فتح السين من «السَّجن»: فجعله مصدراً، ومعناه: أن أُسجن أحَبّ إليَّ. ومن كسر: فعلى إسم المكان. والمعنى: نزول السجن أحبّ إليّ.

(اللغة): العزيز: المنيع بقدرته عن أَن يضام في أمره، وسمّي بذلك؛ لأنّه كان ملكاً ممتنعاً بملكه، واتّساع مقدرته. وقال أبو داود [دُواد]:

دُرَّةٌ [عـا]غـاصَ عَـلَيْهَا تـا جِـرٌ جُـلِبَتْ عِـنْدَ عَـزيزٍ يَـوْمَ طَـلٍّ

والفتى: الغلام الشابّ. والمرأة: فتاة. قال أبو مسلم، والزجّاج: وتسمّي العرب العبد: فتى. والمكر: الفتل بالحيلة إلى ما يراد من الطلبة. وجارية ممكورة الساقين أي: مفتولة الساقين. وأعتدت: مأخوذة من العتاد، ومثله: أعدت.

والمتّكأ: الوسادة، وهو النمرق الذي يتّكأ عليه. وقيل: هو الأترج. وأنكر ذلك أبو عبيدة قال: ولا يمتنع أن يقال: قد كان في ذلك المجلس فواكه وأترج. فأمّا أن يعرف ذلك من هذا القول، فلا. والإكبار: الإعظام والإجلال. وقال قوم: معنى «أَكبرْنَه»: إنّهن حضن حين رأينه. وأنشدوا قول الشاعر:

يَأْتـي النِّسـاءَ عَـلىٰ أَطْـهارِهِنَّ، وَلاٰ يَأْتِـي النِّسـاءَ إِذا أَكْـبَرْنَ إِكْـباراً

وأنكر ذلك أبو عبيدة، وقال: لا نعرف ذلك في اللغة، ولكنّه يجوز أن يكن قد حضن من شدّة إعظامهن إيّاه. والبيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر. والسجن: المنع عن التصرّف بالحبس. سجنَ يسجُن سجناً. والإعتصام: الإمتناع عن طلب المعصية. والإستعصام: طلب العصمة من الله تعالى. والصاغرين: من الصغار، صَغِر يَصْغُر صَغاراً: وهو الذلّ والهوان. والصبا: رقّة القلب. يقال: صبا يصبو صباً، فهو

---

(١) أي: الثدي.

صاب. قال[١]:

إلىٰ هِـــنْدٍ صَـــبًا قَـــلْبي وَهِـــنْدٌ مِـــثْلُها يُـــصْبىٰ

وقال:

صَـــبًا صَـــبْوَةً بَـلْ لَـجَّ وَهَـولَجُوجٌ وَزالَتْ لَـهُ بِـالأنعُمَينِ حُـدُوجُ[١]

الإعراب: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ إنّما حذف فيه حرف التأنيث؛ لأنّه تأنيث جمع، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى؛ لأنّه لا يجتمع في إسم واحد تأنيثان، وكذلك يبطل تذكير المعنى في رجال. وإذا صار كذلك، جاز فيه الحمل على اللفظ، والحمل على المعنى. فيؤنّث ويذكّر. وقوله: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ نصب «بشراً» على مذهب أهل الحجاز في إعمال «ما» عمل «ليس» في رفع الإسم، ونصب الخبر. فأمّا بنو تميم، فلا يعملونها. قال:

لَشَتّانَ مـا أَنْـوي، وَيَـنْوي بَـنُو أَبـي جَـميعاً، فَـمـا هٰـذانِ مُسْـتَوِيانِ

تَمَنَّوا لِيَ الْمَوْتَ الَّذي يَشْعَبُ الفَتى وَكُـلُّ فَـتىً وَالْـمَوْتُ يَـلْتَقِيانِ

وروي عن الحسن أنّه قرأ: ﴿مَا هَذَا بشراء﴾ أي: ليس هو بمملوك، وهو شاذّ، وذلكنّ: كنّ: للخطاب، لا للضمير، فلا موضع له من الإعراب، والإسم ﴿ذَا﴾ وهو في موضع رفع على الإبتداء. و﴿ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: موصول وصلة، في موضع خبره.

﴿وَلَيَكُوناً مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ﴾ هذه النون الخفيفة التي يتلقّى بها القسم، وإذا وقفت عليها وقفت بالألف، تقول: وليكونا، وهي بمنزلة التنوين الذي يوقف عليه بالألف في نحو قولك: رأيت رجلاً. قال الأعشى:

---

(١) الأَنعمان ـ بفتح الهمز وضمّ العين ـ : واديان. والحدوج: جمع حدج، من مراكب النساء.

[١] قائله: زيد بن ضُبّة.

وَصَلِّ عَلىٰ حِينِ العَشِيَّاتِ، وَالضُّحىٰ وَلاٰ تَعْبُدِ الشَّيْطٰانَ، وَاللهَ فَاعْبُدا[1]

أي: فاعبدن. فأبدل في الوقف من النون ألفاً. ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ فاعله مصدر مضمر على تقدير: بدا لهم بداء. وقد أظهره الشاعر في قوله:

لَعَلَّكَ، وَالْمَوْعُودُ حَقٌّ لِقَاؤُهُ بَدَا لَكَ مِنْ تِلْكَ الفُلُوصِ بَدَاءُ[2]

ولا يجوز أن يكون «ليسجننّه» في موضع الفاعل؛ لأنّ الجملة لا تكون فاعلاً.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه شياع هذه القصّة، فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: جماعة من النساء في المصر الذي كان فيه الملك، وزوجته، ويوسف ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: امرأة العزيز تدعو مملوكها إلى نفسها؛ ليفجر بها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ أي: أحبّته حبّاً دخل شغاف قلبها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في خطأ بيّن، وذهاب عن طريق الرشد بدعائها مملوكها إلى الفجور بها. قال الكلبي: هنّ أربع نسوة: امرأة ساقي الملك، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدوابّ، وامرأة صاحب السجن. وقال مقاتل: كن خسماً، وزاد امرأة الحاجب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: لمّا سمعت المرأة بتعييرهنّ إيّاها، وقصدهنّ إشاعة أمرها. وسمّاه مكراً؛ لأنّ قصدهنّ من هذا القول كان أن تريهن يوسف لما

---

(١) هذا البيت من قصيدة لأعشى، يصف فيها دين الإسلام، وذكر كثيراً من أحكامه ويقال: إنّه جاء إلى مكّة ليسلم، فمنعه أبو سفيان، وصرفه بمأة من الإبل، جمعها له من قريش، ويقول فيها في ناقته فآليت لا إرثى لها من كلالة، ولا من حفي حتى تزور محمّداً، نبيّ يرى ما لا ترون، وذكره، اغار لعمري في البلاد وانجدا.

(٢) والموعود حقّ لقاؤه: جملة معترضة. وخبر «لعلّك» قوله: بدا لك، يعني: يجب الوفاء بالوعد، ولعلّك بدا لك.

وصف لهنّ من حسنه، فخالف ظاهر الكلام باطنه، فسمّي ذلك مكراً. وقيل: لأنّها أظهرت لهنّ حبّها إيّاه، واستكتمتهنّ ذلك، فأظهرنه فسمّي ذلك مكراً.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ فاستضافتهنّ. قال وهب: اتّخذت مأدبة، ودعت أربعين امرأة منهنّ.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: وأَعدَّت لهنّ وسائد يتّكين عليها، ـ عن ابن عباس ـ. والاتّكاء: الميل إلى أحد الشقّين. وقيل: أراد بقوله: ﴿مُتَّكَأً﴾ الطعام، من قول العرب. إتّكأنا عند فلان أي: أُطعمنا عنده. وأصله، إنّ من دعي إلى طعام، يعدُّ له المتّكأ على الإستعارة. وقال الضحّاك: كان كذلك الطعام الزماورد. وقال عكرمة: هو كلّ ما يجز بالسكين؛ لأنّه يؤكل في الغالب على متّكأ. وقال سعيد بن جبير: إنّه كل طعام وشراب على عمومه، وبه قال الحسن. وأمّا ﴿المتك﴾: فقد قيل فيه: إنّه الأترج، على ما تقدّم بيانه. وقال السدّي: بل هو المجلس، وكل شيء يجز بالسكين يقال له: متك.

﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ أي: وأعطت كل واحدة من تلك النسوة سكّيناً؛ لتقطع به الفواكه والأترج، على ما هو العادة بين الناس.

﴿وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: وقالت امرأة الملك ليوسف عليه السلام، وكانت قد أجلسته غير مجلسهنّ، فأمرته بالخروج عليهنّ في هيأته إمّا للخدمة، وإمّا للسلام، أو ليرينّه، ولم يكن يتهيّأ له أن لا يخرج؛ لأنّه بمنزلة العبد لها، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: أَعظمنه، وتحيَّرن في جماله؛ إذ كان كالقمر ليلة البدر.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين على جهة الخطأ، بدل قطع الفواكه،

فما أحسسن إلّا بالدم، ولم يجدن ألَم القطع لإشتغال قلوبهنّ بيوسف عليه السلام، ـ عن مجاهد ـ. والمعنى: جرحن أَيديهنّ، وهذا مستعمل في الكلام، تقول للرجل: قد قطعت يدي، تريد: قد خدشتها. وقيل: إنّهنّ أبنَّ أَيديهنّ حتى ألقينها، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ وحاشى لله أي: صار يوسف في حشا أي: ناحية ممّا قذف به أي: لم يلابسه، والمعنى: بعُد يوسف عن هذا الذي رمى به الله أي: لخوفه ومراقبته أمر الله، هذا قول أكثر المفسّرين، قالوا: هذا تنزيه ليوسف عمّا رمته به امرأة العزيز. وقال آخرون: هذا تنزيه له من شبه البشر؛ لفرط جماله. ويدل على هذا سياق الآية.

﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي: رفع الله منزلته عن منزلة البشر، فنعوذ بالله أن نقول إنّه بشر، ومعناه: إنّه منزّه أَنْ يكون بشراً، وليس صورته صورة البشر، ولا خلقته خلقة البشر، ولكنّه ملك كريم؛ لحسنه ولطافته. وروي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصف يوسف، حين رآه في السماء الثانية: رأيت رجلاً صورته صورة القمر ليلة البدر، قلت: يا جبريل! من هذا؟ قال: هذا أخوك يوسف. وقيل: معناه: ليس هذا إلّا ملك كريم في عفّته.

قال الجبائي: وهذا يدلّ على أنّ الملك أفضل من بني آدم؛ لأنّهنّ ذكرن من هو في نهاية الفضل، ولم ينكر الله تعالى ذلك عليهنّ. وهذا من ركيك الإستدلال؛ لأنّه سبحانه إنّما حكي عن النساء إعظامهنّ ليوسف حين رأين جماله وبعده عن السوء، فشبَّهنه بالملك، ولم يقصدن كثرة الثواب الذي هو حقيقة الفضل، وإنّما لم ينكره سبحانه عليهنّ؛ لأنّه علم أنّهنّ لم يقصدن في كلامهنّ ما حمله عليه الجبائي. على أنّ الظاهر يقتضي أنّهنّ نفين أَنْ يكون يوسف من البشر، وقطعن على أنّه ملك، وهذا كذب، ولم ينكره الله سبحانه عليهنّ لما علم من أنّهنّ يقصدن بذلك تشبيه

حاله بحال الملائكة.

﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز للنسوة التي عذلنها على محبّتها ليوسف ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي: هذا هو ذلك الذي لمتنّني في أمره، وحبّه، وشعفي به، جعلت إعظامهنّ إيّاه عذراً لها. والمعنى: هذا الذي أصابكنّ في رؤيته مرّة واحدة ما أصابكنّ من ذهاب العقل، فكيف عذلتنّني في حبّي إيّاه، وأنا أنظر إليه آناء ليلي ونهاري؟

ثمّ اعترفت ببراءة يوسف، وأقرّت على نفسها فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع عنه. وقيل: معناه: امتنع بالله، وسأله العصمة من فعل القبيح. وفي هذا دلالة على أنّ يوسف عليه السلام لم يقع منه قبح.

ثمّ توعّدته بإيقاع المكروه به، إنْ لم يطعها فيما تدعوه إليه، فقالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَاً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: وإن لم يجبني إلى ما أدعوه إليه، ليحبس في السجن، وليكون من الأذلّاء.

فلمّا رأى يوسف إصرارها على ذلك، وتهديدها له، إختار السجن على المعصية فـ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ معناه: يا ربّ! إنّ السجن أحبّ إليّ، وأسهل عليّ ممّا يدعونني إليه من الفاحشة. وفي هذا دلالة على أنّ النسوة دعونه إلى مثل ما دعته إليه امرأة العزيز. وفي حديث أبي حمزة الثمالي: عن عليّ بن الحسين عليه السلام: إنّ النسوة لمّا خرجن من عندها، أرسلت كل واحدة منهنّ إلى يوسف سرّاً من صاحبته، تسأله الزيارة. وقيل: إنّهنّ قلن له: أطع مولاتك، واقض حاجتها، فإنّها المظلومة، وأنت ظالم. وقيل: إنّهنّ لمّا رأين يوسف، إستأذنّ امرأة العزيز بأن تخلوا كل واحدة منهنّ به، وتدعوه إلى ما أرادته منه إلى طاعتها. فلمّا خلون به، دعته كل واحدة منهنّ إلى نفسها، فلذلك قال: ﴿مِمَّا

﴿يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ويسأل، فيقال: كيف قال يوسف ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ولا يجوز أن يراد السجن الذي هو المكان، وإن عني به السجن الذي هو المصدر فإنّ السجن معصية، كما أنّ ما دعونه إليه معصية، فلا يجوز أن يريده؟ فالجواب: إنّه لم يرد المحبّة التي هي الإرادة، وإنّما أراد أنّ ذلك أَخفّ عليّ وأسهل. ووجه آخر: إنّ المعنى: لو كان ممّا أريده، لكان إرادتي له أَشدّ. وقيل: إنّ معناه: توطيني النفس على السجن أحبّ إليَّ، من توطيني النفس على الزنا، ـ عن أبي علي الجبائي ـ.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ بأَلطافك؛ لأنّ كيدهنّ قد وقع وحصل ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهنّ، أو إلى قولهنّ بهواي. والصبوة: لطافة الهوى.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: المستحقّين لصفة الذمّ بالجهل. وقيل: معناه: أَكن بمنزلة الجاهلين في فعلي.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أي: فأجاب له ربّه فيما دعاه. فعصمه من مكرهنّ. فإن قيل: ما معنى سؤال يوسف اللطف من الله، وهو عالم بأنّ الله يفعله لا محالة؟ فالجواب: إنّه يجوز أن تتعلّق المصلحة بالألطاف عند الدعاء المجدّد، ومتى قيل: كيف علم أنّه لو لا اللطف لركب الفاحشة، وإذا وجد اللطف امتنع؟ قلنا: لمّا وجد في نفسه من الشهوة، وعلم أنّه لو لا لطف الله لارتكب القبيح، وعلم أنّ الله سبحانه يعصم أنبياءه بالألطاف، وأنّ من لا يكون له لطف، لا يبعثه الله نبيّاً.

قال الجبائي: في الآية دلالة على جواز الدعاء بما يعلم الله تعالى أنّه يكون لأنّ يوسف كان عالماً بأنّه إنّ كان له لطف، فلابدّ أن يكون الله يفعل ذلك به، ومع

هذا سأله ذلك. ولا تدلّ الآية على ما قاله؛ لما قلناه من أنّه يجوز أن يكون سأله لتجويزه أن يكون له لطف عند الدعاء، ولو لم يدع لم يكن ذلك لطفاً، فما سأل إلّا ما جوز أَنْ لا يكون لو لم يدع.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لدعاء الداعي، العليم بإخلاصه في دعائه، وبما يصلحه من الإجابة، أو يفسده.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ وإنّما لم يقل لهنّ مع تقدّم ذكر النسوة؛ لأنّه أراد به الملك. وقيل: أراد به: زليخا وأَعوانها، فغلب المذكّر، وأراد بالآيات: العلامات الدّالة على براءة يوسف، وهي: قدّ القميص من دبره، وجزّ الأيدي، ـ عن قتادة، وغيره ـ. وقيل: يريد بالآيات: العلامات الدّالة على الأياس منه. وقوله: ﴿بَدَا﴾ فاعله مضمر، وتقديره: ثمّ بدا لهم بداء.

﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ودلّ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ عليه، فإنّ السجن هو الذي بدا لهم.

قال السدّي: وذلك أنّ المرأة قالت لزوجها: إنّ هذا العبد قد فضحني في الناس من حيث إنّه يخبرهم أنّي راودته عن نفسه، ولست أُطيق أن أعتذر بعذري، فإمّا إنّ تأذن لي فأخرج وأَعتذر، وإما أَن تحبسه كما حبستني. فحبسه بعد علمه ببرائته. وقيل: ان الغرض من الحبس، أن يظهر للناس أنّ الذنب كان له؛ لأنّه إنّما يحبس المجرم. وقيل: كان الحبس قريباً منها، فأرادت أن يكون بقربها حتى إذا أشرفت عليه، رأته. وقوله: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ قيل: إلى سبع سنين، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: إلى خمس سنين، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إلى وقت ينسي حديث المرأة معه، وينقطع فيه عن الناس خبره، ـ عن الجبائي ـ.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ (١)

(اللغة): قال الزجّاج: كانوا يسمّون المملوك: فتى، فجائز أن يكون الفتيان: حدثين، أو شيخين، وقال غيره: يقال العبد: فتى، وللأمة: فتاة. وفي الحديث: لا يقولنّ أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن فتاي وفتاتي. والتأويل: الخبر عمّا حضر بما يؤول إليه أمره فيما غاب، ولذلك قال: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ وتأويل القرآن: ما يؤول إليه من المعنى أي: يرجع إليه. والتعليم: تفهيم الدلالة المؤدّية إلى العلم بالمعنى، وقد يكون الإعلام بالمعنى في القلب. والإتّباع: اقتفاء الأثر، وهو طلب اللحاق بالأوّل.

(الإعراب): «هم» الثانية، دخلت للتوكيد؛ لأنّه لمّا دخل بينهما قوله: بالآخرة، صارت الأولى كالملغاة، وصار الإعتماد على الثانية، كما قال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ

(١) أُختلف في فتح ياء «إنّي» في الموضعين من «إنّي أراني» وكذلك «آبائي إبراهيم».

يُوقِنُونَ﴾ وكما قال: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن حال يوسف عليه السلام في الحبس، فقال: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ والتقدير: فسجن يوسف، ودخل معه السجن فتيان أي: شآبان حدثان. وقيل: إنّهما مملوكان لملك مصر الأكبر، وإسمه: وليد بن ريان، وكان أحدهما صاحب شرابه، والآخر صاحب طعامه، فنمى إليه أنّ صاحب طعامه يريد أن يسمّه، وظنّ أنّ الآخر ساعده على ذلك، ومالأه عليه، ـ عن قتادة، والسدّي ـ.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ هو من رؤيا المنام كان يوسف عليه السلام لمّا دخل السجن، قال لأهله: إنّي عبّر الرؤيا. فقال أحد العبدين لصاحبه: هلم فلنجرّبه.

فسألاه من غير أَنْ يكونا رأيا شيئاً، ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: بل رؤياهما على صحّة وحقيقة، ولكنّهما كذبا في الإنكار، ـ عن مجاهد، والجبائي ـ. وقيل: إنّ المصلوب منهما كان كاذباً، والآخر صادقاً، ـ عن أبي مجلز، ورواه عليّ بن إبراهيم أيضاً في تفسيره عنهم عليهم السلام ـ. والمعنى: قال أحدهما، وهو الساقي: رأيت أصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب، فجنيتها. وعصرتها في كأس الملك، وسقيته إيّاها. وتقديره: أعصر عنب خمر أي: العنب الذي يكون عصيره خمراً، فحذف المضاف.

قال الزجّاج، وابن الأنباري: العرب تسمّي الشيء بإسم ما يؤول إليه إذا وضح المعنى ولم يلتبس، يقولون: فلان يطبخ الآجر، ويطبخ الدبس. وإنّما يطبخ اللبن والعصير. وقال قوم: إنّ بعض العرب يسمون العنب خمراً. حكى الأَصمعي عن المعتمر بن سليمان، أنّه لقي أَعرابيّاً معه عنب، فقال له ما معك؟ قال: خمر. وهو قول الضحّاك. فيكون معناه: إنّي أَعصر عنباً. وروي في قراءة عبدالله، وأُبيّ جميعاً: إنّي رأيتني أَعصر عنباً.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ معناه: وقال صاحب الطعام: إنّي رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز، وألوان الأطعمة، وسباع الطير تنهش منه.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتعبيره، وما يؤول إليه أمره.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تؤثر الإحسان والأفعال الجميلة. قال الضحّاك: كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع له، وإن احتاج جمع له، وإن مرض قام عليه، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام. وقال الزجّاج: جاء في التفسير أنّه كان يعين المظلوم، وينصر الضعيف، ويعود العليل. قال: وقيل ﴿مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ممّن يحسن تأويل الرؤيا. قال: وهذا دليل على أنّ أمر الرؤيا صحيح، وأنّها لم تزل في الأمم السالفة. وفي الحديث: إنّ الرؤيا جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة، وتأويله: أنّ الأنبياء يخبرون بما سيكون. والرؤيا تدلّ على ما سيكون، فيكون المعنى في الآية: إنّا نعلمك، أو نظنّك ممّن يعرف تعبير الرؤيا، ومن ذلك قول أميرالمؤمنين عليه السلام: قيمة كل إمرىء ما يحسنه.

وقال أبو مسلم: نراك من المحسنين إلينا إن فسّرت لنا الرؤيا، وهو قول ابن أبي إسحاق. ثمّ ذكر لهما يوسف عليه السلام ما يدلّ على أنّه عالم بتفسير الرؤيا ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ في منامكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ في اليقظة ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ التأويل، وذلك أنّه كره أَنْ يخبرهما بالتأويل لما على أحدهما فيه من البلاء، فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره، ـ عن السدّي، وابن إسحاق ـ. وقيل: إنّه إنّما قدم هذا ليعلما ما خصّه الله تعالى به من النبوّة، وليقبلا عنه، فقال: لا يأتيكما طعام من منزلكما إلّا أخبرتكما بصفة ذلك الطعام، وكيفيّته، قبل أَنْ يأتيكما، كما قال عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ـ عن الحسن، والجبائي ـ.

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ كأنّهما قالا له: كيف عرفت تأويل الرؤيا، ولست بكاهن، ولا عراف؟ فأخبرهما أنّه رسول الله، وأنّه تعالى علّمه ذلك. وتعليمه تعالى قد يكون بأن يفعل العلم في قلبه، وقد يكون بالوحي، وقد يكون بنصب الأدلّة التي يدرك بها العلم.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ معناه: إنّه لا يستحقّ هذه الرتبة الخطيرة إلّا المؤمنون المخلصون، وإنّي تركت طريقة قوم لا يؤمنون، فلذلك خصّني الله بهذه الكرامة.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ أي: شريعة آبائي ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لا ينبغي لنا ونحن معدن النبوّة، وأهل بيت الرسالة، أن ندين بغير التوحيد.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: التمسك بالتوحيد، والبراءة من الشرك. وقيل: النبوّة والعلم ﴿مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا﴾ بأن خصّنا بها، وعلى الناس أيضاً بإرسالنا إليهم، واتّباعهم إيّانا، واهتدائهم بنا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى. وقد كان يوسف عليه السلام فيما بينهم زماناً. ولم يحك الله سبحانه أنّه دعا إلى الدين، وكانوا يعبدون الأصنام؛ لأنّه لم يطمع منهم في الإستماع والقبول. فلمّا رآهم عارفين بإحسانه، مقبلين عليه، رجا منهم القبول منه، فدعاهم إلى التوحيد على ما أمر الله سبحانه له في قوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. وقد روي أنّ صاحبي السجن قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك. فقال: لا تحبّاني، فوالله ما أَحبّني أحد إلّا دخل عليَّ من حبّه بلاء، أحبّتني عمّتي، فنسبت إليَّ السرقة، وأَحبَّني أبي، فأُلقيت في الجبّ. وأحبّتني امرأة العزيز، فأُلقيت في السجن.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ[1] مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(اللغة): الصاحب: الملازم لغيره على وجه الإختصاص، وهو خلاف ملازمة الاتّصال، ومنه أصحاب الشافعي، وأصحاب أبي حنيفة وأصحاب النبيّ ﷺ؛ لملازمتهم له، وكونهم معه في حروبه، وصاحبا السجن: هما الملازمان له بالكون فيه. والقيّم: المستقيم، وأصله من قام يقوم. والإستفتاء: طلب الفتيا. والبضع: القطعة من الدهر، وأصله من القطع. والبضعة: القطعة من اللحم. ومنه الحديث: فاطمة بضعة منّي يؤذيني من آذاها[2].

---

(١) «ءأرباب متفرّقون»: من اجتماع همزتين، إحديهما: إستفهام، فسهّل الثانية مع إدخال ألف بينهما قالون، وأبو عمرو، وهشام. وسهّلها من غير ألف ورش، وابن كثير. ولهشام وجه ثان: بإدخال ألف بين همزتين محقّقتين، وثالث: بالتحقيق بغير ألف، كسائر القرّاء من السبعة.

(٢) روي مضمون هذا الحديث البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد ابن حنبل.

المعنى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ هذا حكاية نداء يوسف للمستفتين له عن تأويل رؤياهما أي: يا ملازمي السجن ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: أأملاك متباينون من حجر وخشب، لا تضرُّ ولا تنفع، خير لمن عبدها، أم الله الواحد القهّار الذي إليه الخير والشرّ، والنفع والضرّ؟ وهذا ظاهره: الإستفهام، والمراد به: التقرير، وإلزام الحجّة. والقاهر: هو القادر الذي لا يمتنع عليه شيء.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إبتدأ بخطاب إثنين، ثمّ خاطب بلفظ الجمع؛ لأنّه قصد جميع من هو في مثل حالهما. وقيل: إنّه خطاب لجميع من في الحبس، ومعناه، إنّ هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وسمّيتموها بأسماء يعني الأرباب والآلهة، هي أسماء فارغة عن المعاني لا حقيقة لها، ما أنزل الله من حجّة بعبادتها.

﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ﴾ أي: ما الحكم والأمر إلّا لله، فلا يجوز العبادة، والخضوع، والتذلّل، إلّا لله.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: وقد أمركم أَن لا تعبدوا غيره ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذي بيّنت لكم من توحيده وعبادته، وترك عبادة غيره ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الدين المستقيم الذي لا عوج فيه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: ما للمطيعين من الثواب، وللعاصين من العقاب. وقيل: لا يعلمون صحّة ما أقوله لعدولهم عن النظر والاستدلال.

ثمّ عبّر عليه السلام رؤياهما فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ بدأ بما هو الأهمّ، وهو الدعاء إلى توحيد الله وعبادته، وإظهار معجزته. ثمّ بتعبير رؤيا الساقي، فروي أنّه قال: أمّا العناقيد الثلاثة: فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في

السجن، ثمّ يخرجك الملك اليوم الرابع، وتعود إلى ما كنت عليه، وأجزى على مالكه صفة الربّ؛ لأنّه عبده، فأضافه إليه كما يقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ يريد بالآخر: صاحب الطعام. روي أنّه قال: بئس ما رأيت. أما السلاسل الثلاث، فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن، ثمّ يخرجك الملك، فيصلبك، فتأكل الطير من رأسك. فقال عند ذلك: ما رأيت شيئاً، وكنت أَلعب!!

فقال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: فرغ من الأمر الذي تسألان وتطلبان معرفته، وما قلته لكما، فإنّه نازل بكما، وهو كائن لا محالة. وفي هذا دلالة على أنّه كان يقول ذلك على جهة الإخبار عن الغيب، بما يوحى إليه، لا كما يعبّر أحدنا الرؤيا على جهة التأويل.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ معناه: للذي علم من طريق الوحي، أنّه ناج أي: متخلّص، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ هذا قول الأكثرين، واختيار الجبائي. وقال قتادة: للذي ظنّه ناجياً؛ لأنّه لا يحكم بصدقه فيما قصّة من الرؤيا. والأوّل أصحّ.

﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: أذكرني عند سيّدك، بأنّي محبوس ظلماً ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ يعني: أنسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال، حتى إستغاث بمخلوق، فالتمس من الناجي منهما أن يذكره عند سيّده، وكان من حقّه أن يتوكّل في ذلك على الله سبحانه.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أي: سبع سنين، ـ عن ابن عباس. وروي ذلك، عن عليّ بن الحسين عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: معناه: فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عند الملك، فلم يذكره حتى لبث في السجن، ـ عن الحسن، ومحمّد بن إسحاق، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وعلى هذا فتقديره: فأنساه الشيطان

ذكر يوسف عند ربّه. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: عجبت من أخي يوسف عليه السلام كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق! وروي أنّه عليه السلام قال: لو لا كلمة، ما لبث في السجن طول ما لبث! يعني قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ثمّ بكي الحسن، وقال: أنّا إذا أُنزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء جبرائيل عليه السلام فقال: يا يوسف! مَن جعلك أحسن الناس؟ قال: ربّي. قال: فمن حبَّبك إلى أبيك دون إخوانك؟ قال: ربّي. قال فمن ساق إليك السيّارة؟ قال: ربّي. قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي. قال: فمن أنقذك من الجبّ؟ قال: ربّي. قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي. قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك إلى أَن تنزل حاجتك بمخلوق دوني، إلبث في السجن بما قلت بضع سنين.

وعنه في رواية أخرى قال: فبكى يوسف عند ذلك، حتى بكى لبكائه الحيطان، فتأذّى ببكائه أهل السجن، فصالحهم على أَنْ يبكي يوماً، ويسكت يوماً. فكان في اليوم الذي يسكت أَسوأَ حالاً.

والقول في ذلك: إنّ الإستعانة بالعباد في دفع المضارّ، والتخلّص من المكاره، جائز غير منكر، ولا قبيح، بل ربما يجب ذلك. وكان نبيّنا ﷺ يستعين فيما ينوبه بالمهاجرين والأنصار وغيرهم، ولو كان قبيحاً لم يفعله. فلو صحّت هذه الروايات فإنّما عوتب يوسف عليه السلام، في ترك عادته الجميلة في الصبر، والتوكّل على الله سبحانه في كل أُموره، دون غيره، وقتاً ما إبتلاء وتشديداً. وإنّما كان يكون قبيحاً، لو ترك التوكّل على الله سبحانه، واقتصر على غيره. وفي هذا ترغيب في الإعتصام بالله تعالى، والإستعانة به دون غيره، عند نزول الشدائد، وإن جاز أيضاً أن يستعان بغيره.

وأُختلف في البضع، فقال بعضهم: البضع ما بين الثلاث إلى الخمس، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: إلى السبع، ـ عن قطرب ـ. وقيل: إلى التسع، ـ عن الأصمعي، ذكره الزجّاج ـ. وقول قطرب مرويّ عن مجاهد. وقول الأصمعي مرويّ عن قتادة. وقال ابن عباس: هو ما دون العشرة. وأكثر المفسّرين: على أنّ البضع في الآية سبع سنين. قال الكلبي: وهذه السبع سوى الخمسة التي كانت قبل ذلك.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: علَّم جبرائيل عليه السلام يوسف في حبسه، فقال: قل في دبر كل صلاة فريضة: «أللهمّ اجعل لي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب». وروي شعيب العقرقوفي عنه عليه السلام قال: لمّا انقضت المدّة، وأذن له في دعاء الفرج، وضع خدَّه على الأرض، ثمّ قال: أللهمّ إن كانت ذنوبي قد أَخلقت وجهي عندك، فإنّي أتوجّه إليك بوجوه آبائي الصالحين، إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ففرَّج الله عنه. قال: فقلت له: جعلت فداك أَندعو نحن بهذا الدعاء؟ فقال: أدعوا بمثله: اللهم إن كانت ذنوبي قد أُخلقت عندك وجهي فإنّي أتوجّه إليك بوجه نبيّك، نبيّ الرحمة، وعليّ وفاطمة، والحسن، والحسين، والأئمة عليهم السلام.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ

فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ (١)

القراءة: قرأ حفص: دأباً ـ بفتح الهمزة ـ. والباقون: بسكونها. وقرأ: تعصرون ـ بالتاء ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: بالياء.

وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس، وابن عمر بخلاف، والضحّاك، وقتادة، وزيد ابن عليّ عليه السلام: وادَّكر بعد أمه ـ بالهاء ـ. وقراءة الأشهب العقيلي: بعد إمة ـ بكسر الهمزة ـ. وقرأ جعفر بن محمّد عليهما السلام: وسبع سنابل. وقرأ أيضاً: ما قربتم. وقرأ هو، والأعرج، وعيسى ابن عمر: وفيه يُعصَرون ـ بياء مضمومة، وصاد مفتوحة ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: انتصب «دأباً» بما دلَّ عليه «تزرعون»، وفيه علاج ودؤوب، فكأنّه قال: تدءبون، فانتصب دأباً به، لا بالمضمر، ولعلّ الفتح لغة فيه، فيكون كشَمْع وشَمَع، ونَهْر ونَهَر.

ويعصرون: يحتمل أمرين: أحدهما:

---

(١) اختلفوا في فتح الياء من «إنّي أرى» و«الملأ أفتوني» من اجتماع همزتين. أبدل الثانية واواً نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. ولم يمل أحد الألف من «نجا»؛ لأنّه واويّ ثلاثيّ مرسوم بالألف. وأمال «للرؤيا» الكسائي فقط. واختلفوا في فتح الياء من «لعلّي أرجع».

أن يكون من العصر، الذي يراد به الضغط الذي يلحق ما فيه دهن، أو ماء، نحو: الزيتون، والسمسم، والعنب؛ ليخرج ذلك منه، وهذا يمكن أن يكون تأويل الآية عليه؛ لأنّ من المتأوّلين من يحكي أنّهم لم يعصروا أربع عشرة سنة، زيتاً ولا عنباً، فيكون المعنى تعصرون للخصب الذي أتاكم، كما كنتم تعصرون أيّام الخصب من قبل الجدب الذي دفعتم إليه.

وأن يكون «يعصرون» من العصر الذي هو الإلتجاء إلى ما يقدر به من النجاة. قال ابن مقبل:

وَصاحِبِي صَهْوةٌ مُسْتَوْهِلٌ زَعِلٌ ... يَحُولُ بَيْنَ حِمارِ الوَحْشِ، والْعَصَرِ[1]

أي: يحول بينه وبين الملجأ الذي يقدر به النجاة. وقال أبو زبيد [زيد] الطائي:

صادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغاثٍ ... وَلَقَدْ كانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ[2]

قال أبو عبيدة: يعصرون: ينجون. وأنشد لبيد:

فَبَاتَ وَأَسْرَى الْقَوْمُ آخِرَ لَيْلِهِم ... وَمَا كانَ وقّافاً بِدارٍ مُعصَّرُ

فأمّا من قال: يعصرون ـ بالياء ـ، فإنّه جعل الفاعلين الناس؛ لأنّ ذكرهم قد تقدّم. ومن قرأ بالتاء، وجّه الخطاب إلى المستفتين الذين قالوا أفتنا. ويجوز أن يريدهم وغيرهم، إلّا أنّه غلب الخطاب على الغيبة، كما يغلب التذكير على التأنيث.

وأمّا الأمه: فهو النسيان. يقال أمه يأمه: إذا نسي. أَنشد أبو عبيدة:

أَمَهْتُ، وَكُنْتُ لا أَنْسىٰ حَدِيثاً ... كَذٰاكَ الدَّهْرُ يُؤذِي بِالعُقُولِ

والأُمّة: النعمة، فيكون المراد بعد أن أنعم عليه بالنجاة.

وأمّا يُعصرون ـ بضمّ الياء ـ، فيجوز أن يكون من العصرة، والعصر للنجاة. ويجوز أن يكون من عصرت السحابة ماءها عليهم. وفي كتاب عليّ بن إبراهيم

---

(١) مستوهل: فرس فزع. وزعل: نشيط.

(٢) المنجود: المغموم المكروب، والصادي: العطشان. والعُصرة ـ بضمّ العين ـ: الملتجا.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قرأ رجل على أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه الآية، فقال: يَعصِرون ـ بالياء وكسر الصاد ـ، فقال: ويحك وأيُّ شيء يعصرون؟ أيعصرون الخمر؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! فكيف أقرأها؟ قال: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ مضمومة الياء مفتوحة الصاد أي: يمطرون بعد سني المجاعة. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾.

(اللغة): الملك: القادر: الواسع المقدور، الذي إليه السياسة والتدبير. والرؤيا: ما يراه النائم ويرجع إلى الإعتقاد، ثمّ يكون على وجوه: منها: ما يكون من الله تعالى وملائكته، وهو الذي له تعبير وتأويل. ومنها: ما يكون من الشيطان، ولا تأويل له. ومنها: ما يكون من جهة النائم، واعتقاداته، أو يكون بقيّة اعتقاد كان اعتقده.

والعجف: ذهاب السمن، والذكر: أعجف، والأُنثى: عجفاء، وجمعها: عجاف، ولا يجمع «أَفعل» على «فعال» إلّا هذا. والعبر والتعبير: تفسير الرؤيا، وهو من عبور النهر ونحوه. والأضغاث: الأحلام الملتبسة. والضغث: الحزمة من كل شيء. وقال الترمذي: الضغث: ملء اليد من الحشيش، ومنه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ أي: قبضة، والفعل منه: أضغث. وقيل: الضغث: خلط قشّ المد كذا، وهو غير متشاكل، ولا متلائم، فشبّهوا به تخليط المنام. والأَحلام: جمع حلم، وهو الرؤيا في النوم، ويقال حلم يحلم حلماً، واحتلم فهو حالم. والحِلم: ـ بكسر الحاء ـ: ضدّ الطيش، وهو الإناة. وكأنّ أصل حلم النوم من هذه؛ لأنّه حال إناة، وسكون. وتأويل الرؤيا: تفسير ما يؤول إليه معناه. وتأويل كل شيء: تفسير ما يؤول إليه معنى الكلام.

والإدّكار: افتعال، من الذكر، وأصله: إذتكار، لكنّ «التاء» أُبدل منها الدال، وأُدغمت الذال في الدال، ويجوز إذّكر ـ بالذال ـ أَيضاً، إلّا أنّ الأَجود الدال، وهو طلب الذكر، ونظيره: الإستذكار والتذكّر. والأُمّة: الجماعة تؤمّ أمراً، والأُمة: المدّة،

وهي الجملة من الحين. والصديق: الكثير التصديق للحقّ. وقيل: هو الكثير الصدق. وفعيل: بناء المبالغة والكثرة. والفتيا: الجواب عن حكم المعنى. وقد يكون الجواب عن نفس المعنى، فلا يكون فتيا.

والزرع: إلقاء البذر في الأرض للنبات، ومنه: المزارعة بالثلث والربع، وتسمّي المخابرة أيضاً، وهي مأخوذة من فعل أهل خيبر. والدأب: العادة. يقال: دأب يدأَب دأباً، ويقال دأب في عمله يدأب دءوباً: إجتهد. وأدأبته أَنا إِدآباً.

وذَرْ، ودعْ، بمعنى، لم يجىء منهما لفظة الماضي، استغني عن ذلك بِـتَرَكَ. والشدّة والصلابة والصعوبة، نظائر. وقيل: الشدّة: تكون في سبعة أصناف: في العقد: والمد، والزمان، والغضب، والألم، والشراب، والبدن. والإحصان: مثل الإحراز، أَحصنه إحصاناً: جعله في حرز.

والغوث: هو نفع يأتي على شدّة حاجة ينفي المضرّة. ومنه: الغيث: المطر الذي يأتي في وقت الحاجة. قال الأزهري: غاث الله البلاد يغيثها، وقد غيثت الأرض فهي مغيثة ومغيوثة، والغيث: الكلأ ينبت من ماء السماء، وجمعه غيوث. والغياث: أصله: الواو. ومنه: الغوث. وغوث تغويثاً: إذا قال: واغوثاه، من يغيثني، ويغاث: يحتمل أن يكون من «الواو»، ويحتمل أن يكون من «الياء».

﴿الإعراب﴾: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هذه اللام دخلت للتبيين. والمعنى: إن كنتم تعبّرون. ثمّ بيّن باللام، فقال: للرؤيا، ـ عن الزجّاج ـ. وهذه اللام تزاد في المفعول به إذا تقدّم على الفعل، تقول: عبرت الرؤيا، وللرؤيا عبرت. وقد جاء مثله في قوله: ﴿الَّذِيْنَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وقد جاء فيما ليس بمقدّم من المفعول نحو قوله: ردف لكم.

و«آخر»: لا ينصرف؛ لأنّه صرف عن جهة صواحبها التي جاءت بالألف واللام، وهذه جاءت خاصّة بغير ألف ولام، فكأنّها عدلت عن وجهها، تقول هذه

النسوة الوسط والكبر، ولا تقول: وسط وكبر. وتقول: نسوة أُخر، فلمّا خالفت أخواتها، ترك صرفها. وموضعها في الآية الرابعة جرٌّ، تقديره: وفي أخر.

أَضغاث أحلام: تقديره: هي أضغاث أَحلام.

يوسف: المراد به: يا يوسف! ويجوز حذف حرف النداء في المنادى المفرد العلم، تقول: يا زيد أَقبل، وزيد أَقبل. قال:

مُحَمَّد تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إذا مٰا خِفْتَ مِنْ أَمْرٍ وبٰالاً

ويروى: تبالا، أراد: يا محمّد!

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن سبب نجاة يوسف من السجن، وهو أنّه لمّا قرب الفرج، رأى الملك رؤيا هالته، وأشكل تعبيرها على قومه، حتى عبَّرها يوسف، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ يعني: وقال ملك مصر، وهو الوليد بن ريان، والعزيز وزيره ـ فيما رواه الأكثرون ـ: إنّي أرى في منامي سبع بقرات سمان.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع بقرات أخر ﴿عِجَافٌ﴾ أي: مهازيل، فدخلت السمان في بطون المهازيل، حتى لم أر منهنّ شيئاً.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ أي: وأرى في منامي سبع سنبلات، قد انعقد حبّها ﴿وَأُخَرْ﴾ أي: وسبعاً أُخر ﴿يَابِسَاتٍ﴾ قد احتصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأ﴾ أي: جمع الأشراف. وقيل: جمع السحرة والكهنة، وقصَّ رؤياه عليهم، وقال: يا أيّها الأشراف، أو الجماعة ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ أي: عبروا ما رأيت في منامي، وبيّنوا لي الفتوى فيه، وهو حكم الحادثة.

﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ معناه: إن كنتم عابرين للرؤيا. وقيل: إنّ «اللام» تفيد معنى «إلى» أي: إن كنتم توجّهون العبارة إلى الرؤيا ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾

أي: هذه أباطيل أَحلام، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: تخاليط أَحلام، عن قتادة. والمعنى: هذا منامات كاذبة لا يصح تأويلها.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ التي هذه صفتها ﴿بِعَالِمِينَ﴾ وإنّا نعلم تأويل ما يصحّ، وكان جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك، سبب نجاة يوسف؛ لأنّ الساقي تذكر حديث يوسف، فجثا بين يديه، وقال: يا أيّها الملك! إنّي قصصت أنا وصاحب الطعام على رجل في السجن منامين، فخبَّر بتأويلهما، وصدق في جميع ما وصف، فإن أذنت مضيت إليه، وأتيتك من قبله بتفسير هذه الرؤيا، فذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي﴾ ـ عن الكلبي ـ.

وقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ معناه: تذكر شأن يوسف، وما وصّاه به، بعد حين من الدهر، وزمان طويل، ـ عن ابن عباس، [والحسن]، ومجاهد، وقتادة ـ. وهيهنا حذف يدل الكلام عليه، وهو: فأرسلون إلى يوسف، فأُرسل فأتى يوسف في السجن، وقال له: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي: الكثير الصدق فيما تخبر به.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَابِسَاتٍ﴾ فإنّ الملك رأي هذه الرؤيا، واشتبه تأويلها ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني: الملك، وأصحابه، والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك وعلمك، فيخرجوك من السجن. وقيل: لعلّهم يعرفون تأويل رؤيا الملك ﴿قَالَ﴾ يوسف في جوابه معبّراً ومعلّماً: أمّا البقرات السبع العجاف، والسنابل السبع اليابسات، فالسنون الجدبة. وأمّا السبع السمان، والسنابل السبع الخضر: فإنّهنّ سبع سنين مخصبات، ذوات نعمة، وأنتم تزرعون فيها: فذلك قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ أي: فازرعوا سبع سنين متوالية، ـ

عن ابن عباس ـ، أي: زراعة متوالية في هذه السنين، على عادتكم في الزراعة سائر السنين. وقيل: دأباً أي: بجدّ واجتهاد في الزراعة. ويجوز أن يكون حالاً فيكون معناه تزرعون دائبين.

﴿فَمَا حَصَدْتُم﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ﴾ أتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ لا تذروه ولا تدوسوه ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وإنّما أمرهم بذلك؛ ليكون أبقى وأبعد من الفساد، يعني: إن ما أردتم أكله فدوسوه، واتركوا الباقي في السنبل. وقيل: إنّما أمرهم بذلك لأنّ السنبل لا يقع فيه سوس، ولا يهلك، وإن بقي مدّة من الزمان. وإذا صفي أسرع إليه الهلاك.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين مجدبات صعاب، تشدّ على الناس.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ معناه: تأكلون فيها ما قدّمتم في السنين المخصبة لتلك السنين. وإنّما أضاف الأكل إلى السنين؛ لأنّه يقع فيها، كما قال الشاعر:

نَهارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ، وَالرَّدَىٰ لَكَ لازِمٌ

وَسَعْيُكَ فِيما سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذٰلِكَ فِي الدُّنْيا تَعيشُ الْبَهائِمُ

وقيل: أراد بالأكل الإفناء والإهلاك، كما يقال: أكل السير لحم الناقة أي: ذهب به. قال زيد بن أسلم: كان يوسف يصنع طعام إثنين، فيقربه إلى رجل، فيأكل نصفه، حتى كان ذات يوم قربه إليه، فأكله كلّه، فقال: هذا أوّل يوم من السبع الشداد.

﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ معناه: إلّا شيئاً قليلاً ممّا تحرزون، وتدّخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ معناه: ثمّ يأتي من بعد هذه السنين الشداد، عام فيه يمطر الناس من الغيث. وقيل: يغاثون من الغوث، والغياث أي: ينقذون وينجون من القحط ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الثمار التي تعصر في الخصب،

كالعنب والزيت والسمسم، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وقيل: معناه: ينجون من الجدب من العصرة والعصر. والإعتصار: الإلتجاء. قال عديّ بن زيد:

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كالغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَاري[1]

وهذا القول من يوسف، اخبار بما لم يسألوه منه، ولم يكن في رؤيا الملك، بل هو ممّا أَطلعه الله تعالى عليه من علم الغيب؛ ليكون من آيات نبوّته عليه السلام. قال البلخي: وهذا التأويل من يوسف، يدلّ على بطلان قول من يقول: إنّ الرؤيا على ما عبّرت أوّلاً، لأنّهم كانوا قالوا: هي أَضغاث أَحلام، فلو كان ما قالوه صحيحاً؛ لكان يوسف لا يتأوّلها.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

القراءة: قرأ: مَا بَالُ النِّسْوَةِ ـ بضمّ النون ـ الأعشى، والبرجمي، عن أبي

---

(١) يعني: لو علّق في حلقي غير الماء، كان العلاج شرب الماء، وإذا غصّ رجل بالماء، فما العلاج. والغصّان: من الغصّ، كالشبعان والريان.

بكر، عن عاصم. والباقون: بكسر النون، وهما لغتان. وقد تقدّم ذكر قراءة أبي عمر، و﴿حَاشَا لِلّٰهِ﴾ بالألف، ومرّ بيانه[١].

اللغة: الخطب: الأمر الذي يعظم شأنه، فيخاطب الإنسان فيه صاحبه. يقال: هذا خطب جليل. قال الزجّاج: حصحص الحقّ: اشتقاقه من الحصّة أي: بانت حصّة الحقّ، وجهته من حصة الباطل. وقال غيره: هو مكرّر من قولهم: حصّ شعره: إذا استأصل قطعه، وأزاله عن الرأس، فيكون معناه، انقطع الحقّ عن الباطل بظهوره وبيانه، ومثله: كبوا وكبكبوا، وكفّ الدمع وكفكفه، فهو زيادة تضعيف دلّ عليه الاشتقاق. قال:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رأسي فَمَا أطْعَمُ يَوْماً غَيْرَ تَهْجَاعِ[٢]

وحصحص البعير بثفناته في الأرض: إذا حرّك حتى تستبين آثارها فيه. قال حميد:

وَحَصْحَصَ في صُمّ الحَصَا ثَفَنَاتُهُ وَرَامَ الْقِيَامَ سَاعَةً، ثُمَّ صَمَّما[١]

والكيد: الإحتيال سرّاً لإيصال الضرر إلى الغير.

الإعراب: ﴿ذَلِكَ﴾ مرفوع بالإبتداء، وإن شئت على خبر الإبتداء، كأنّه قال: أمري ذلك. وموضع ﴿مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ نصب على الاستثناء.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن إخراج يوسف من السجن، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ وفي الكلام حذف، يدلّ ظاهره عليه، وهو: فلمّا رجع صاحب الشراب، وهو رسول الملك، إلى الملك، بجواب يوسف وتعبيره رؤياه، قال الملك:

---

(١) يبدّل الهمزة الثانية من «ائتوني» ياء، عند القرّاء كلّهم، إذا ابتدأ بكلمة «ايتوني». ونقل فتحة همزة «فسئله» إلى السين ابن كثير، والكسائي. واختلفوا في فتح الياء من «نفسي ان» وكذلك «ربّي إنّ».

(٢) التهجاع: النوم الخفيف. والبيضة: الخود.

[١] الحصحصة: الحركة في شيء حتّى يستقرّ فيه ويستمكن منه.

ائتوني به أي: بيوسف الذي عبَّر رؤياي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ أي: لما جاء يوسف رسول الملك، فقال له: أجب الملك. أبى يوسف أن يخرج مع الرسول، حتى تبيّن براءته ممّا قذف به.

و﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: سيّدك، وهو الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أي: ماحالهنّ وما شأنهنّ؟ والمعنى: فاسأل الملك أن يتعرّف حال النسوة.

﴿اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ليعلم صحّة براءتي، ولم يفرد امرأة العزيز بالذكر حسن عشرة منه، ورعاية أَدب؛ لكونها زوجة الملك، أو زوجة خليفة الملك، فخلطها بالنسوة. وقيل: إنّه أرادهنَّ دونها؛ لأنّهنّ الشاهدات له عليها. ألا ترى أنّها قالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾. هذا يدلّ على أنّ النسوة كنَّ ادّعين عليه نحو ما ادّعته امرأة العزيز.

قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه، ما زالت في نفس العزيز منه حالة يقول: هذا الذي راود امرأتي. وقيل: أَشفق يوسف من أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره، متّهم بفاحشة، فأحبّ أن يراه بعد أن يزول عن قلبه ما كان فيه. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لقد عجبت من يوسف، وكرمه، وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني من السجن! ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه، ولبثت في السجن ما لبث؛ لأسرعت الإجابة، وبادرتهم الباب، وما ابتغيت العذر، إنه كان لحليماً ذا أناة.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنّ الله عالم بكيدهنّ، قادر على إظهار براءتي. وقال: إنّ سيّدي الذي هو العزيز، عليم بكيدهنَّ، استشهده فيما علم من حاله، ـ عن أبي مسلم ـ. والأوّل هو الوجه.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ معناه: إنّ الرسول رجع إلى

الملك، وأخبره بما قاله يوسف عليه السلام. فأرسل إلى النسوة، ودعاهن وقال لهنّ: ما شأنكنّ، وما أمركنّ إذا طلبتنّ يوسف عن نفسه، ودعوتنّه إلى أنفسكنّ.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ هذه كلمة تنزيه أي: نزهّن يوسف ممّا اتّهم به، فقلن: معاذ الله، وعياذاً بالله من هذا الأمر، وما علمنا عليه من سوء وخيانة، وما فعل شيئاً ممّا نسب إليه، واعترفن ببراءته، وبأنّه حبس مظلوماً.

﴿قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبيّن، وحصل على أمكن وجوهه، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وكأنّ معناه:، انقطع الحقّ عن الباطل بظهوره وبيانه.

﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَفْسِي﴾ إعترفت بالكذب على نفسها فيما اتّهم يوسف به، وإنّما حملها على الصدق انقطاع طمعها منه، فجمع الله ليوسف في إظهار براءته ونزاهته، عمّا قذف به بين الشهادة والإقرار، حتى لا يبقى موضع شكّ.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ هذا من كلام يوسف أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه في شأن النسوة، ليعلم الملك، أو العزيز.

﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ في زوجته أي: في حال غيبته عنّي، ـ عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحّاك، وأبي مسلم ـ. واتّصل كلام يوسف بكلام امرأة العزيز؛ لظهور الدلالة على المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بسحره وهو من كلام الملأ. ثمّ قال: فماذا تأمرون، وهو حكاية عن قول فرعون. قال الفرّاء. وهذا من أغمض ما يأتي في الكلام أن يحكي عن واحد، ثمّ يعدل إلى شيء آخر، من قول آخر، لم يجر له ذكر. وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الإقرار ليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته بتوريك الذنب عليه، وإن خنته بحضرته، وعند مشاهدته، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لا يهديهم في كيدهم، ومكرهم ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ هذا من كلام يوسف، عند أكثر المفسّرين. وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز، ـ عن الجبائي ـ، أي: ما أُبرّىء نفسي عن السوء والخيانة في أمر يوسف.

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: كثيرة الأمر بالسوء، والشهوة قد تدعو الإنسان إلى المعصية. والألف واللام للجنس. فيكون المعنى: إنّ كل النفوس كذلك. ويجوز أن يكون للعهد، فيكون المعنى: إنّ نفسي بهذه الصفة.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلّا من رحمه الله تعالى، فعصمه بأن لطف له، فيكون ﴿مَا﴾ بمعنى «مَن» كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾. ويجوز أن يكون معناه: إلّا مدّة ما عصم ربّي. ومن قال: إنّه من كلام يوسف، قال: إنّه أراد الدعاء، والمنازعة، والشهوة، ولم يرد العزم على المعصية أي: لا أُبرّىء نفسي ممّا لا تعرى منه طباع البشر، وإنّما امتنعت عن الفاحشة بحول الله ولطفه وهدايته، لا بنفسي. قال الحسن: إنّما قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ لأنّه كره أن يكون قد زكّى نفسه ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ بعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: حيث نشاء ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالياء، فيشاء مسند إلى الغائب، كما أنّ «يتبوّأ» كذلك، ويقوّي ذلك قوله: وأورثنا الجنة نتبوّأ منها حيث نشاء، فكما أنّ قوله: نشاء، وفق لفعل المتبوّئين، كذلك قوله: حيث يشاء، وفق لقوله: يتبوّأ. ومن قرأ بالنون، فإنّه على أحد وجهين:

إمّا أن يكون أسند المشيئة إليه، وهو ليوسف في المعنى؛ لأنّ مشيئته لمّا كانت بقوّته وإقداره عليها، جاز أن ينسب إلى الله. وإن كانت ليوسف في المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأُضيف الرمي إلى الله؛ لمّا كان بقوّته، وإن كان الرمي للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

والآخر: أن يكون الموضع المتبوّأ موضع نسك وقرب. فالمكث فيه قربة إلى الله تعالى، فهو يشاؤه ويريده. فأمّا اللام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُف﴾ وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيجوز أن يكون على حدّ التي في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم وَلِلرُّؤْيَا تَعْبِرُون﴾ يدلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾. وقوله: ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ في موضع نصب على الحال، تقديره: مكّناه متبوّءاً حيث يشاء.

وأمّا قوله: ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ فيحتمل موضعه أمرين: أحدهما: أن يكون في موضع نصب؛ بأنّه ظرف. والآخر: أن يكون في موضع نصب؛ بأنّه مفعول به. ويدلّ على جواز هذا الوجه قول الشماخ:

وَحَلَّاءَها عَنْ ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرٌ أَخُو الحَضْرِ يَرْضَىٰ حَيْثُ تَكْبُو النَّوَاجِزُ(١)

اللغة: الإستخلاص: طلب خلوص الشيء من شائب الإشتراك، كأنّه

---

(١) بيت من قصيدة، مطلعها: عفا بطن قو من سليمى فعالز، فذأت الصفا فالمشرفات النواشز. ووصف فيها القوس، واحسن إذا أنبض الرامون عنها ترنّمت ترنّم ثكلى أوجعتها الجنائز. والكبوة: في الفرس أن يضطرب نفسه، ويسقط. والنحاز: داء يوجب ضيق النفس فيه. وفي بعض كلمات البيت اختلاف في النسخ، ومنها: اخو الحضر يرمى حيث، في نسخة معتمدة.

يريد أن يكون خالصاً له. وفي حديث سلمان الفارسيّ ﷺ: إنّه كاتبه أهله على أربعين أوقية خلاص أي: ما أخلصته النار من الذهب. وكذلك الخلاصة، والمكين: من المكانة، وأصله: التمكّن في الأمر، يقال: مكن مكانة، فهو مكين: إذا كان له قدر وجاه يتمكّن بهما ممّا يروم. والتبوّء: اتّخاذ منزل يرجع إليه، وأصله من باء يبوء: إذا رجع.

المعنى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ معناه: إنّ الملك لمّا تبيّن له أمانة يوسف، وبراءته من السوء، وعلمه، أمر بإحضاره، فقال: ائتوني به ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: إجعله خالصاً لنفسي، أرجع إليه في تدبير مملكتي، وأعمل على إشارته في مهمّات أُموري.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ هيهنا حذف معناه. فلمّا جاء الرسول يوسف، ودعاه، خرج من السجن، ودخل على الملك، وكلّمه، وعرف فضله، وأمانته، وعقله؛ لأنّه إستدلّ بكلامه على عقله، وبعفّته على أمانته.

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا ذو مكانة: متمكّن في المنزلة والقدر، نافذ القول والأمر، ظاهر الأمانة، مأمون ثقة.

قال ابن عباس: يريد مكنتك من ملكي، وجعلت سلطانك فيه كسلطاني، وائتمنتك فيه. قال الكلبي: إنّ رسول الملك جاءه فقال له: قم فإنّ الملك يدعوك، وألق ثياب السجن عنك، والبس ثياباً جدداً. فأقبل يوسف، وتنظّف من درن السجن، ولبس ثيابه، وأتى الملك وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة. فلمّا رآه الملك شاباً حدث السنّ، قال: يا غلام هذا تأويل رؤياي. ولم يعلمه السحرة، ولا الكهنة. قال: نعم. فأقعده قدّامه، وقصّ عليه رؤياه[1].

---

(١) يعني أخبار الحكومة والسياسة، وما يتعلّق بعامّة الناس؛ لأنّ غالب الأمر أنّ في الفتن والوقائع الهامّة يسجن بعض أهلها، ويعاشر المسجونين، فيطّلعون على دخلة الأمور، وما لا يمكن أن يطّلع عليه غيرهم، وخلاف ذلك قليل.

وروي أنّ يوسف لمّا خرج من السجن، دعا لأهله وقال: أللهمّ اعطف عليهم بقلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار. فلذلك يكون أصحاب السجن أعرف الناس بالأخبار في كل بلدة. وكتب على باب السجن: هذا قبور الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء. قال وهب: ولمّا وقف بباب الملك، قال: حسبي ربّي من دنياي، وحسبي ربّي من خلقه، عزّ جاره، وجلّ ثناؤه، ولا إله غيره. ولمّا دخل على الملك قال: اللهمّ إنّي أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره. ولمّا نظر إليه الملك، سلّم عليه يوسف بالعربيّة، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل. ثمّ دعا له بالعبرانيّة، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. قال وهب: وكان الملك يتكلّم بسبعين لساناً، فكلّما كلّم يوسف بلسان، أجابه بذلك اللسان. فأعجب الملك ما رأي منه، فقال له: إنّي أُحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً.

فقال يوسف: نعم أيّها الملك. رأيت سبع بقرات سمان شهب، غرّ حسان، كشف لك عنهنّ النيل، فطلعن عليك من شاطئه، وتشخب أخلافهنّ لبناً، فبينا تنظر إليهنّ، ويعجبك حسنهنّ؛ إذ نضب النيل فغار ماؤه، وبدا يبسه، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف، شعث غبر مقلّصات البطون، ليس لهنّ ضروع، ولا أخلاف. ولهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكفّ الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع.

فاختلطن بالسمان فافترستهن افتراس السبع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهن، وحطمن عظامهنّ، وتمششن مخهنّ. فبينا أنت تنظر وتتعجّب، إذا سبع سنابل خضر، وأُخر سود في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أنّى هذا وهؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأُصولهنّ في الماء؟ إذ هبّت ريح، فذرت الأرفات من اليابسات السود

على الثمرات الخضر، فاشتعلت فيهنّ النار، وأحرقتهنّ، وصرن سوداً متغيّرات. فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثمّ انتبهت من نومك مذعوراً.

فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا، وإن كانت عجباً بأعجب ممّا سمعته منك، فماترى في رؤياي أيّها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتبني الأَهراء والخزائن، فتجمع الطعام فيها بقصبه وسنبله؛ ليكون قصبه وسنبله علفاً للدوابّ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر، ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي، فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك. فقال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه ويبيعه ويكفي الشغل فيه؟ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الألف واللام في «الأرض» للعهد دون الجنس، يعني: إجعلني على خزائن أرضك، حافظاً ووالياً، واجعل تدبيرها إِليَّ.

ف﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لما استودعتني لحفظه، عن أن تجري فيه خيانة.

﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقّ منها شيئاً، ومن لا يستحقّ، فأضعها مواضعها، ـ عن قتادة ـ: وابن إسحاق، والجبائي ـ. وقيل: حفيظ عليم أي: كاتب حاسب، ـ عن وهب ـ. وقيل: حفيظ للتقدير في هذه السنين الجدبة، عليم بوقت الجوع حين يقع، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: حفيظ للحساب عالم بالألسن، وذلك أنّ الناس يفدون من كل ناحية، ويتكلّمون بلغات مختلفة، ـ عن السدّي ـ. وفي هذا دلالة على أنّه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، فإنّه عرف الملك حاله، ليقيمه في الأُمور التي في إيالتها صلاح العباد والبلاد، ولم يدخل بذلك تحت قوله سبحانه: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

قالوا: فقال الملك: ومن أحقّ به منك؟ فولاه ذلك. وقيل: إنّ الملك الأكبر فوّض إليه أمر مصر، ودخل بيته، وعزل قطفير، وجعل يوسف مكانه. وقيل: إنّ قطفير هلك في تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة قطفير العزيز، فدخل بها يوسف، فوجدها عذراء. ولمّا دخل عليها قال: أليس هذا خيراً ممّا كنت تريدين؟ وولدت له أفرائيم وميشا. واستوثق ليوسف ملك مصر. وقيل: إنّه لم يتزوّجها يوسف، وإنّها لمّا رأته في موكبه، بكت وقالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً. فضمّها إليه، وكانت من عياله، حتى ماتت عنده، ولم يتزوجها.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم بن هاشم، قال: لمّا مات العزيز، وذلك في السنين المجدّبة، افتقرت امرأة العزيز، واحتاجت حتى سألت الناس، فقالوا لها: ما يضرّك لو قعدت للعزيز، وكان يوسف يسمّى العزيز، وكل ملك كان لهم سمّوه بهذا الإسم. فقالت: أستحيي منه. فلم يزالوا بها حتى قعدت له. فأقبل يوسف عليه السلام في موكبه، فقامت إليه زليخا، وقالت: سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً، والعبيد بالطاعة ملوكاً. فقال لها يوسف: أأنت تيك؟ قالت: نعم. وكان إسمها زليخا. فقال لها: هل لك فيَّ؟ قالت: دعني بعدما يئست. أتهزأ أبي! قال: لا.

قالت: نعم. قال: فأمر بها فحوّلت إلى منزله، وكانت هرمة. فقال لها يوسف: ألست فعلت بي كذا وكذا؟ قالت: يا نبيّ الله! لا تلمني، فإنّي بليت في بلاد لم يبل به أحد! قال: وما هو؟ قالت: بليت بحبّك، ولم يخلق الله لك نظيراً في الدنيا، وبليت بأنّه لم تكن بمصر امرأة أجمل منّي، ولا أكثر مالاً منّي، وبليت بزوج عنين.

فقال لها يوسف: فما حاجتك؟ قالت: تسأل الله أن يرد عليَّ شبابي. فسأل الله فردَّ عليها، فتزوّجها وهي بكر.

وروي عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: إجعلني على خزائن الأرض؛ لولّاه من ساعته، ولكنه أخّر ذلك سنة. قال ابن عباس: فأقام في بيت الملك سنة. فلمّا انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الأمير، فتوّجه ورداه بسيفه، وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب، مكلّل بالدرّ والياقوت، ويضرب عليه كلّة من استبرق، ثمّ أمره أن يخرج متوّجاً لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه. فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك. فعدل بين الناس، فأحبّه الرجال والنساء، وذلك قوله عزّ إسمه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه، أقدرنا يوسف على ما يريد في الأرض، يعني: أرض مصر.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: يتصرّف فيها حيث يشاء، وينزل منها حيث يشاء ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي: نخصُّ بنعم الدين والدنيا من نشاء.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المطيعين. وقيل: الصابرين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّه دعا الملك إلى الإسلام فأسلم، عن مجاهد، وغيره. قالوا: وأسلم أيضاً كثير من الناس. فهذا في الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لخلوصه عن الشوائب والأقذار. وفي هذه إشارة إلى أنّه سبحانه يؤتي يوسف في الآخرة من الثواب والدرجات، ما هو خير ممّا آتاه الله في الدنيا، من الملك والنعمة.

سؤال: قالوا كيف جار ليوسف أن يطلب الولاية من قبل الكفرة الظلمة؟

وجوابه: لأنّه علم أنّه يتمكّن بذلك من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووضع الحقوق مواضعها. وقد جعل الله سبحانه جميع ذلك له، من جهة كونه نبيّاً

إماماً. وكان يفعل ذلك من قبل الله تعالى. وإنّما سأل الولاية؛ ليتمكن من الأمور التي له أن يفعلها. وأيضاً فإنّه علم أنّه سبب يتوصّل به إلى الدعاء إلى الخير، وإلى رؤية والديه وإخوته.

وفي الآية دلالة على أنّ ذلك التمكين، والملك، والتدبير، كان بلطف الله سبحانه وفضله. وفيها دلالة أيضاً على جواز تولّي القضاء من جهة الباغي والظالم، إذا تمكّن بذلك من إقامة أحكام الدين.

وفي قوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ دلالة على أن تصرّفه كان باختياره، من غير رجوع إلى الملك. وأنّه صار بحيث لا أمر عليه. وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن الحسن بن عليّ ابن بنت إلياس، قال: سمعت الرضاعليه السلام يقول: وأقبل يوسف على جمع الطعام، فجمع في السبع السنين المخصبة، فكبسه في الخزائن.

فلمّا مضت تلك السنون، وأقبلت المجدبة، أقبل يوسف على بيع الطعام، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير، حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم، إلّا صار في مملكة يوسف. وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جوهر، إلّا صار في مملكته. وباعهم في السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي، حتى لم يبق بمصر وما حولها، دابّة، ولا ماشية، إلّا صارت في مملكته. وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق بمصر عبد ولا أمة، إلّا صار في مملكته. وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار، حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار، إلّا صار في مملكته. وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار، حتى لم يبق بمصر وما حولها، نهر ولا مزرعة، إلّا صار في مملكته. وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق بمصر وما حولها، عبد ولا حرّ، إلّا صار عبد يوسف. فملك أحرارهم، وعبيدهم،

وأموالهم[١].

وقال الناس: ما رأينا، ولا سمعنا بملك، أعطاه الله من الملك، ما أعطاه هذا الملك، حكماً وعملاً وتدبيراً. ثمّ قال يوسف للملك: أيّها الملك! ما ترى فيما خوّلني ربّي من ملك مصر وأهلها، أشر علينا برأيك، فإنّي لم أُصلحهم لأُفسدهم، ولم أنجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم، ولكنّ الله تعالى أنجاهم على يدي. قال له الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: إنّي أُشهد الله وأُشهدك أيّها الملك أنّي قد أعتقت أهل مصر كلّهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك أيّها الملك خاتمك، وسريرك، وتاجك، على أن لا تسير إلّا بسيرتي، ولا تحكم إلّا بحكمي قال له الملك: ذلك لزيني وفخري أن لا أسير إلّا بسيرتك، ولا أحكم إلّا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه، ولا اهتديت له، ولقد جعلتك سلطاناً عزيزاً لا يرام، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأنّك رسوله: فأقم على ما ولّيتك، فإنّك لدينا مكين أمين. وقيل: إنّ يوسف عليه السلام كان لا يمتلي شبعاً من الطعام في تلك الأيّام المجدبة! فقيل له: تجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال عليه السلام: أخاف أن أشبع، فأنسى الجياع!

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ

(١) ولايصحّ في شرعنا بيع الحرّ نفسه، حتى يصير عبداً، ولايدلّ ثبوت حكم في شرعهم على ثبوته في شرعنا. وابن بنت إلياس: هو الحسن بن عليّ الوشاء: الثقة المشهور.

وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾[1]

القراءة: قرأ أهل الكوفه غير أبي بكر: لفتيانه. والباقون: لفتيته.

الحجة: قال أبو عليّ: الفتية: جمع فتى، في العدد القليل. والفتيان في الكثير. ومثل: فتية إخوة وولدة، في جمع: أخ وولد. ونيرة وقيعة، في جمع نار، وقاع. ومثل فتيان: برقان وخربان، في جميع: برق وخرب. وجيران وتيجان في جمع: جار وتاج. وقد يقوم البناء الذي للقليل، مقام الذي للكثير، وكذلك يقوم الكثير مقام القليل، حيث لا قلب ولا إعلال، وذلك نحو: أرجل وأقدام وأرسان، وفي الكثير قولهم: ثلاثة شسوع. فإذا فعل ذلك فيما لا إعلال فيه، فأن يرفض فيما يؤدّي إلى الإعلال والقلب أولى.

اللغة: جهاز البيت: متاعه. وجهزت فلاناً: هيأت جهاز سفره، ومنه: جهاز المرأة. والرحال: أراد به: الأوعية، واحدها: رحل، وجمعها القليل: أرحل. قال ابن الأنباري: يقال للوعاء: رحل، وللمسكن: رحل. وأصله: الشيء المعدّ للرحيل، من وعاء المتاع، ومركب البعير، وحلس، ورسن.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه أنّه لما تمكّن يوسف بمصر، وأصاب الناس ما أصابهم من القحط، وقصدوا مصر، نزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، فجمع يعقوب بنيه، وقال لهم: بلغني أنّه يباع الطعام بمصر، وأنّ صاحبه رجل صالح، فاذهبوا إليه، فإنّه سيحسن إليكم، إن شاء الله. فتجهّزوا وساروا، حتى وردوا مصر، فدخلوا على

---

(١) «جاء اخوة»: من اجتماع همزتين من كلمتين، سهّل ثانيتهما كالياء الحرميان، وأبو عمرو من السبعة. وفتح ياء الإضافة من «أنّي أوف». وأثبت يعقوب فقط ياء «تقربون» في الوصل، والوقف هو جائز في العربيّة، غير جائز في القرآن، إلّا عند من يرى قرائة يعقوب متواترة.

يوسف، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاؤوا ليمتاروا من مصر، كما إمتار غيرهم، ودخلوا عليه، وهم عشرة. وأمسك ابن يامين أخا يوسف لأُمّه، فعرفهم يوسف، وأنكروه.

قال ابن عبّاس: وكان بين أن قذفوه في الجبّ، وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة، فلذلك أنكروه. ولأنّهم رأوه ملكاً جالساً على السرير، عليه ثياب الملوك، ولم يكن يخطر ببالهم أنّه يصير إلى تلك الحالة. وكان يوسف ينتظر قدومهم عليه، فكان أثبت لهم. فلمّا نظر إليهم يوسف، وكلّموه بالعبرانية، قال لهم: ومن أنتم؟ وما أمركم؟ فإنّي أنكر شأنكم؟

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: فلمّا جهّزهم، وأعطاهم، وأحسن إليهم في الكيل[1]، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم من أرض الشام، رعاة، أصابنا الجهد، فجئنا نمتار. فقال: لعلّكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادي؟ فقالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، وإنّما نحن إخوة بنوا أب واحد، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ولو تعلم بأبينا لكرمنا عليك، فإنّه نبيّ الله، وابن أنبيائه، وإنّه لمحزون! قال: وما الذي أحزنه، فلعلّ حزنه إنّما كان من قبل سفهكم وجهلكم؟ قالوا: يا أيّها الملك! لسنا بسفهاء، ولا جهّال، ولا أتاه الحزن من قبلنا، ولكنّه كان له ابن، كان أصغرنا سنّاً، وإنّه خرج يوماً معنا إلى الصيد، فأكله الذئب، فلم يزل بعده حزيناً كئيباً باكياً، فقال لهم يوسف: كلّكم من أب وأُمّ؟

---

(١) ويدلّ الآية على جواز البيع بالليل، ولاريب فيه. فإن قيل: ثبوت حكم في شرعهم لايدلّ على ثبوته في شرعنا. قلنا: استدلّ الفقهاء في موارد كثيرة بمثله، حيث حكي الله تعالى حكماً من غير تصريح باختصاصه بهم؛ لأنّ ذلك يدلّ على رضاه تعالى به حين الحكاية والكيل، تقدير لما يكون قوام ماليّته بالمساحة أصالة، ولما يكون قوامه بغزارة مادّته بدلاً عن الوزن والأموال على ثلاثة أقسام، ماليس للوزن والمساحة دخل فيه، كالحيوان والقيميّات، وما للمساحة دخل فيه دون الوزن، كالماء والثوب والأراضي، وما هو بالوزن أصلا والكيل بدلاً كالحنطة.

قالوا: أبونا واحد، وأُمّهاتنا شتّى. قال: فما حمل أباكم على أن سرحكم كلّكم، ألا حبس واحداً منكم يستأنس به؟ قالوا: قد فعل، حبس منّا واحداً، وهو أصغرنا سنّاً؛ لأنّه أخو الذي هلك من أُمّه، فأبونا يتسلّى به. قال: فمن يعلم أنّ الذي تقوله حقّ؟ قالوا: يا أيّها الملك! إنّا ببلاد لا يعرفنا أحد. فقال يوسف: فائتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك، قالوا: إنّ أبانا يحزن على فراقه، وسنراوده عنه. قال: فدعوا عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم. فاقترعوا بينهم، فأصابت القرعة شمعون. وقيل: إنّ يوسف اختار شمعون؛ لأنّه كان أحسنهم رأياً فيه، فخلفوه عنده، فذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني: حمل لكلّ رجل منهم بعيراً بعدّتهم.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني: ابن يامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي: لا أبخس الناس شيئاً، وأتمّ لهم كيلهم.

﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ أي: المضيفين، مأخوذ من النزل، وهو الطعام. وقيل: خير المنزلين للأمور منازلها، فتدخل فيه الضيافة وغيرها. مأخوذ من المنزل: وهو الدار.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي: ليس لكم عندي طعام أكيله عليكم. والمراد بالكيل: المكيل ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: ولا تقربوا داري وبلادي. خلط عليه السلام، الوعد بالوعيد ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا. قال ابن عباس: معناه: نستخدعه عنه حتى يخرجه معنا.

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ما أمرتنا به. قال: وكان يوسف أمر ترجماناً يعرف العبرانيّة أن يكلّمهم، وكان لا يكلّمهم بنفسه، ليشبه عليهم، فإنّهم لو عرفوه ربما كانوا يهيمون في الأرض حياء من أبيهم، فيتركون خدمته، وكان في معرفتهم إيّاه مفسدة.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: قال يوسف لعبيده

وغلمانه، الذين يكيلون الطعام، ـ عن قتادة وغيره ـ. وقيل: لأعوانه: إجعلوا ثمن طعامهم، وما كانوا جاؤا به في أوعيتهم. وقيل: كانت بضاعتهم النعال والأدم. وقيل: كانت الورق، ـ عن قتادة ـ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ أي: لعلّهم يعرفون متاعهم إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بعد ذلك لطلب الميرة مرّة أُخرى.

وإنّما فعل ذلك؛ ليعرفوا أنّ يوسف إنّما فعل ذلك إكراماً لهم؛ ليرجعوا إليه. وقيل: إنّه خاف أن لا يكون عندهم من الورق ما يرجعون به مرّة أخرى، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّه رأى لؤماً أخذَ ثمن الطعام من أبيه وإخوته، مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون؛ تفضّلاً وكرماً. وقيل: فعل ذلك؛ لأنّه علم أنّ ديانتهم، وأمانتهم، تحملهم على ردّ بضاعتهم إذا وجدوها في رحالهم، ولا يعرفون أنّ الملك أمر بذلك، فيرجعون ليردّوا ذلك عليه. ومتى قيل: كيف لم يعرفهم يوسف نفسه، مع علمه بشدّة حزن أبيه، وقلقه واحتراقه على ألم فراقه؟ فالجواب: إنّه لم يؤذن له في التعريف إستتماماً للمحنة عليه، وعلى يعقوب، ولما علم الله تعالى من الحكمة والصلاح في تشديد البليّة، تعريضاً للمنزلة السنيّة. وقيل: إنّما لم يعرفهم بنفسه؛ لأنّهم لو عرفوه، ربما لم يرجعوا إليه، ولم يحملوا أخاه إليه. والأوّل هو الوجه الصحيح.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا

مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ (١) مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا
أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

القراءة: قرأ: يكتل ـ بالياء ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: بالنون.

وقرأ: خير حافظاً ـ بالألف ـ أهل الكوفة، غير أبي بكر. والباقون: حفظاً ـ بغير ألف ـ. وفي الشواذّ، قراءة علقمة، ويحيى: رِدّت إلينا ـ بكسر الراء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: يدلّ على النون في «نكتل» قوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ألا ترى أنّهم إنّما يميرون أهلهم بما يكتالون، فيكون نكتل مثل نمير. وأيضاً فإذا قالوا نكتل، جاز أن يكون أخوهم داخلاً معهم، وإذا كان بالياء لم يدخلوا هم فيه. وزعموا أنّ في قراءة عبدالله نكتل ـ بالنون ـ. وكان النون لقولهم منع منّا الكيل لغيبَة أخينا، فأرسله نكتل ما منعناه لغيبته.

ووجه الياء: أنّه يكتال حمله، كما نكتال نحن أحمالنا. ووجه من قرأ: ﴿خَيْرٌ حفظاً﴾: أنّه قد ثبت من قوله: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أنّهم قد أضافوا إلى أنفسهم حفظاً. فالمعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى أنفسهم، وإن كان منهم تفريط في حفظهم ليوسف كما أنّ قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ لم يثبت لله شريكاً، وإنّما المعنى على الشركاء الذين نسبتموهم إليّ.

فكذلك المعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى أنفسهم، وإن كان منهم تفريط

---

(١) «تؤتون موثقاً»: أثبت الياء أبو عمرو، وأبو جعفر وصلا، وابن كثير، ويعقوب، في الحالين. وأثبتوها في «ما نبغي» إتّفاقاً.

فيه، فإذا كان كذلك، كان المعنى: فالله خير حفظاً من حفظكم الذي نسبتموه إلى أنفسكم، وإن كان منكم فيه تفريط. وإضافة «خير» إلى «حفظ» محال، ولكن تقول: حفظ الله خير من حفظكم.

ومن قرأ: ﴿حَافِظاً﴾ فيكون حافظاً منتصباً على التميز، دون الحال، كما كان «حفظاً» كذلك. ولا يستحيل الإضافة في فالله خير حافظ، وخير الحافظين، كما يستحيل في «خير حفظاً». فإن قلت: فهل كان ثمّ حافظ، كما ثبت أنّه كان حفظ لما قدمته؟ فالقول: إنّه قد ثبت أنّه كان ثمّ حافظ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. فتقول: حافظ الله خير من حافظكم، كما كان حفظ الله خير من حفظكم؛ لأنّ الله سبحانه حافظه، كما أنّ له حفظاً، فحافظه خير من حافظكم، كما كان حفظه خيراً من حفظكم. وتقول: هو أحفظ حافظ، كما تقول: هو أرحم راحم؛ لأنّه سبحانه من الحافظين، كما كان من الراحمين.

وأمّا قوله: ﴿رُدَّتْ﴾ فإنّ «فُعِلَ» من المضاعف والمعتل العين، يجيء على ثلاثة أوجه: عندهم لغة فاشية، وأُخرى تليها، وثالثة قليلة. فأقوى اللغات في المضاعف ضمّ أوّله، كشُدَّ وعُدَّ، ورُدَّ. ثمّ يليه الإشمام: وهو بين ضمّ الأوّل وكسره. ثمّ قوله: شِدَّ، ورِدَّ، بإخلاص الكسرة، وهو الأقلّ. وأقوى اللغات في المعتلّ العين كسر أوّله، نحو: قيل، وبيع. ثمّ يليه الإشمام بين الضمّة والكسرة:، والثالثة: إخلاص الضمّة نحو: قول وبوع. وأنشد لذي الرمة:

دَنَا الْبَيْنُ مِنْ مَيٍّ فَرِدَّتْ جِمَالُها وَهَاجَ الَهوىٰ تَقْويضُها وَاحْتِمالُها[1]

اللغة: يقال: كِلت فلاناً أي: أعطيته الشيء كيلاً. واكتلت عليه: أخذت منه. والأمن: إطمئنان القلب إلى سلامة الأمر. يقال: أمنه يأمنه أمناً. والميرة:

---

(١) تقويض الخيام: نقصها ورفعها: واحتمالها: حملها على المراكب للظعن. وهما من آيات الفراق، يهيجان الهوى.

الأطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد. ويقال: مرتهم أميرهم ميراً: إذا أتيتهم بالميرة، ومثله: إمترتهم إمتياراً، قال:

بَعَثْتُكَ مائِراً فَمَكَثْتُ حَوْلاً مَتى يَأْتِي عِيالَكَ مَنْ يُغِيثُ

الإعراب: قال الزجّاج: حفظاً: منصوب على التميز، وحافظاً: على الحال. ويجوز أن يكون ﴿حَافِظًا﴾ على التميز. و«ما» في قوله: ﴿مَا نَبْغِي﴾ إستفهام، موضعه نصب. والمعنى: أيُّ شيء نريد. ويكون المراد به: الجحد. ويجوز أن يكون «ما» أيضاً نفياً، كأنّهم قالوا: ما نبغ شيئاً. وموضع ﴿أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ نصب. والمعنى: إلّا الإحاطة بكم أي: تمتنعوا من الإتيان به، إلّا لهذا. وهذا يسمّى مفعولاً له. قال الزجّاج: و«إلّا» هذه بمعنى تحقيق الجزاء، تقول: ما تأتينا إلّا لأخذ الدراهم، وإلّا أن تأخذ الدراهم.

المعنى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قيل: إنّهم لمّا دخلوا على يعقوب، وسلّموا عليه سلاماً ضعيفاً، فقال لهم: يا بنيّ! ما لكم تسلمون سلاماً ضعيفاً، وما لي لا أسمع فيكم صوت شمعون؟ فقالوا يا أبانا! إنّا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً، ولم ير الناس مثله حكماً، وعلماً، وخشوعاً، وسكينة، ووقاراً، ولئن كان لك شبيه، فإنّه يشبهك، ولكنّا أهل بيت خلقتنا [خلفنا] للبلاء. إنّه اتّهمنا، وزعم أنّه لا يصدّقنا حتى ترسل معنا ابن يامين، برسالة منك إليه؛ ليخبره من حزنك، وما الذي أحزَنك، وعن سرعة الشيب إليك، وذهاب بصرك.

وقوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ معناه: منع منّا فيما يستقبل، إن لم نأته بأخينا، لقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ ابن يامين ﴿نَكْتَلْ﴾ أي: نأخذ الطعام بالكيل، إن أرسلته أكتلنا، وإلّا فمنعنا الكيل. ومن قرأ: ﴿يكتل﴾ ـ بالياء ـ: فالمعنى: يأخذ أخونا ابن يامين وقر بعير، يكتال له.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يصيبه سوء ومكروه ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: لا آمنكم على ابن يامين في الذهاب به، إلّا كأمني على يوسف، ضمنتم لي حفظه، ثمّ ضيّعتموه، أو أهلكتموه، أو غيّبتموه عنّي. وإنّما قرعهم بحديث يوسف، وإلّا فقد كان يعلم أنّهم في هذه الحال لا يفعلون ما لا يجوز.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ أي: حفظ الله خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يرحم ضعفي، وكبر سنّي، ويردّه عليَّ. وورد في الخبر: إنّ الله سبحانه قال: فبعزّتي لأردّنّهما إليك، من بعد ما توكّلت عليَّ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ يعني: أوعية الطعام ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ما نطلب في منع أخينا عنه. وقيل: معناه: ما نطلب بما أخبرناك عن ملك مصر الكذب. وقيل: معناه: أيُّ شيء نطلب وراء هذا، أوفي لنا الكيل، وردَّ علينا الثمن، ـ عن قتادة ـ. وأراد أن تطيب نفس يعقوب، فيبعث إبنه معهم. وتمَّ الكلام، ثمّ قالوا ابتداء ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي: فلا ينبغي أن نخاف على أخينا ممّن قد أحسن إلينا هذا الإحسان. وقيل: المراد: ما نريد منك دراهم تعطيناها نرجع بها إليه، بل تكفينا في الرجوع إليه بضاعتنا هذه، فإنّ الملك إذا فعلنا ما أمرنا به في أخينا، يفي بما وعدنا، وأرسله معنا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نجلب إليهم العطام.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ في السفر حتى نردّه إليك. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأجله؛ لأنّه كان يكال لكلّ رجل وقر بعير.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: كيل سهل أي: يسهل على الذي يمضي إليه، ـ عن الزجّاج ـ. والمعنى: إنّه هيّن على الملك لا يصعب عليه، ولا يظهر في ماله. وقيل:

معناه: إنّ الذي جئناك به كيل قليل، لا يقنعنا، فنحتاج أن نضيف إليه كيل بعير أخينا، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يسير على من يكتاله، لا مؤنة فيه، ولا مشقّة، ـ عن الحسن ـ. وهذا كلّه تنبيه منهم على وجه الصواب في إرساله معهم. فلمّا رأى يعقوب عليه السلام ردَّه البضاعة، وتحقّق عنه إكرام الملك إيّاهم، وعزم على إرسال ابن يامين معهم.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ أي: تعطونني ما يوثق به من يمين، أو عهد من الله ﴿لَتَأْتُونَنِي بِهِ﴾ أي: لتردّنّه إليَّ. قال ابن عباس: يعني: حقّ تحلفوا لي بحقّ محمّد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، وسيّد المرسلين أي: لا تغدروا بأخيكم، ولتأتنّني به. اللام فيه لجواب القسم.

﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلّا أن تهلكوا جميعاً. ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إلّا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك، ـ عن قتادة ـ. والمعنى: إلّا أن يحال بينكم وبينه، حتى لا تقدروا على الإتيان به، ـ عن الزجاج ـ.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه عهودهم، وحلفوا له بحقّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومنزلته من ربّه، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شاهد حافظ إن أخلفتم إنتصب [انتصف] لي منكم.

وفي هذا دلالة على وجوب التوكّل على الله سبحانه في جميع المهمّات، والتفويض إليه في كل الأمور. وفيها دلالة أيضاً على أنّ يعقوب عليه السلام إنّما أرسل ابن يامين معهم؛ لأنّه علم أنّهم لمّا كبروا ندموا على ما كان فرّط منهم في أمر يوسف، ولم يصرُّوا على ذلك، ولهذا وثّق بهم. وإنّما عيَّرهم بحديث يوسف؛ حثّاً لهم على حفظ أخيهم.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ
مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا
لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿اللغة﴾: الغنى: الكفاية في المال؛ لأنّه اكتفى به، وربما مدّ؛ لضرورة الشعر. والغِناء ـ بكسر الغين ـ: المدّ من الصوت. يقال منه: غنى يغني غناء. والغَناء ـ بالفتح والمد ـ: الكفاية. وغني عن كذا فهو غان، وغني القوم في دارهم: أقاموا. والمغاني: المنازل؛ لأنّهم اكتفوا بها. والغانية: المرأة؛ لأنّها تكتفي بزوجها عن غيره، أو بجمالها عن التزيّن.

﴿المعنى﴾: ﴿وَ﴾ لمّا تجهّزوا للمسير ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف عليهم العين؛ لأنّهم كانوا ذوي جمال وهيئة، وكمال، وهم إخوة أولاد رجل واحد، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، وأبي مسلم ـ. وقيل: خاف عليهم حسد الناس إيّاهم، وأن يبلغ الملك قوّتهم وبطشهم، فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه، ـ عن الجبائي ـ.

وأنكر العين، وذكر أنّه لم يثبت بحجّة، وجوّزه كثير من المحقّقين، ورووا فيه الخبر عن النبيّ ﷺ: إنّ العين حقّ، والعين تستنزل الحالق. والحالق: المكان المرتفع من الجبل وغيره. فجعل عليه السلام العين كأنّه تحطّ ذروة [ذورة] الجبل من قوّة

أخذها، وشدّة بطشها. وورد في الخبر أنّه عليه وآله السلام، كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام، بأن يقول: أُعيذكما بكلمات الله التامّة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة. وروي أنّ إبراهيم عليه السلام عوّذ إبنيه، وأنّ موسى عوّذ إبني هارون بهذه العوذة.

وروي أنّ بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله! إنّ العين إليهم سريعة، أفأسترقي لهم من العين؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم. وروي أنّ جبرائيل عليه السلام رقى رسول الله، وعلّمه الرقية، وهي: «بسم الله أرقيك، من كل عين حاسد، الله يشفيك». وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنّه قال: لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين.

ثمّ اختلفوا في وجه الإصابة بالعين: فروي عن عمرو بن بحر الجاحظ، أنّه قال: لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن، أجزاء لطيفة، متّصل به، وتؤثّر فيه، فيكون هذا المعنى خاصيّة في بعض الأعين، كالخواصّ في الأشياء.

وقد اعترض على ذلك: بأنّه لو كان كذلك لما اختصّ ذلك ببعض الأشياء دون بعض؛ ولأنّ الأجزاء تكون جواهر، والجواهر متماثلة، ولا يؤثر بعضها في بعض. وقال أبو هاشم: إنّه فعل الله بالعادة لضرب من المصلحة، وهو قول القاضي.

ورأيت في شرح هذا، للشريف الأجلّ الرضيّ الموسويّ رحمه الله، كلاماً أحببت إيراده في هذا الموضع[1] قال: إنّ الله تعالى يفعل المصالح بعباده على حسب ما

---

(١) كلام الجاحظ في توجيه سببيّة العين الصائبة، وكيفيّة تأثيرها، وكلام الرضي رحمه الله في معنى آخر، وهو المصلحة التي أوجبت اضرار المعيون. أمّا الأوّل فما قاله الجاحظ كلام خال عن التحصيل مبنيّ على أصل فاسد توهّمه، وهو أنّ المؤثّر يجب أن يكون شيئاً ماديّاً، والحقّ ما أورده الشيخ أبو عليّ بن سينا في النمط الأخير من كتاب الإشارات، وهو إنّ لبعض النفوس تأثيراً في الخارج من بدنه بتعلّق روحانيّ، كتعلّقه ببدنه. وأمّا قول السيد رحمه الله فصحيح لاغبار عليه.

يعلمه من الصلاح لهم، في تلك الأفعال التي يفعلها، فغير ممتنعٍ أن يكون تغييره نعمةَ زيد؛ مصلحة لعمرو إذا كان يعلم من حال عمرو، أنّه لو لم يسلب زيداً نعمته، أقبل على الدنيا بوجهه، ونآى عن الآخرة بعطفه، وإذا سلب نعمة زيد للعلّة التي ذكرناها، عوضه فيها، وأعطاه بدلاً منها عاجلاً أو آجلاً، فيمكن أن يتأوّل قوله ﷺ: العين حقّ، على هذا الوجه.

على أنّه قد روي عنه ﷺ ما يدلّ على أنّ الشيء إذا عظم في صدور العباد، وضع الله قدره، وصغره أمره. وإذا كان الأمر على هذا، فلا ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه، وإستحسانه له، وعظمه في صدره وفخامته في عينه، كما روي أنّه قال، لمّا سُبقت ناقته العضباء. وكانت إذا سوبق بها لم تُسبَق: ما رفع العباد من شيء إلاّ وضع الله منه. ويجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشيء عند رؤيته من تعويذه بالله، والصلاة على رسول الله ﷺ، قائماً في المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسن، فلا يغير عند ذلك، لأنّ الرائي لذلك قد أظهر الرجوع إلى الله تعالى، والإعاذة به، فكأنّه غير راكن إلى الدنيا، ولا مغترّ بها. إنتهى كلامه ﷺ.

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما أدفع من قضاء الله من شيء، إن كان قد قضي عليكم الإصابة بالعين، أو غير ذلك.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فهو القادر على أن يحفظكم من العين، أو من الحسد، ويردكم على سالمين ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: وليفوّضوا أُمورهم إليه، وليثقوا به.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من أبواب متفرّقة، كما أمرهم يعقوب. وقيل: كان لمصر أربعة أبواب، فدخلوا من أبوابها الأربعة متفرّقين.

﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾

أي: لم يكن دخولهم مصر كذلك يغني عنهم، أو يدفع عنهم شيئاً، أراد الله تعالى إيقاعه بهم، من حسد، أو إصابة عين، وهو عليه السلام كان عالماً أنّه لا ينفع حذر من قدر، ولكن كان ما قاله لبنيه حاجة في قلبه، فقضي يعقوب تلك الحاجة أي: أزال به إضطراب قلبه؛ لأن لا يحال على العين مكروه يصيبهم. وقيل: معناه إنّ العين لو قدر أن تصيبهم، لأصابتهم وهم متفرّقون، كما تصيبهم مجتمعين، عن الزجّاج قال: و«حاجة» استثناء ليس من الأوّل، بمعنى: لكن حاجة.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: ذو يقين ومعرفة بالله ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لأجل تعليمنا إيّاه، ـ عن مجاهد ـ. مدحه الله سبحانه بالعلم. والمعنى: إنّه حصل له العلم بتعليمنا إيّاه. وقيل: وإنّه لذو علم لما علّمناه أي: يعلم ما علّمناه فيعمل به، لأن من علم شيئاً ولا يعمل به، كان كمن لا يعلم. فعلى هذا يكون اللام في قوله: ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ كاللام في قوله: ﴿لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مرتبة يعقوب في العلم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه، ـ عن ابن عباس ـ.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ
أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ

(١) فتح الياء من «إنّي أنا» الحرميان، وأبو عمرو. ومدّ ألف «أنا» في الوصل نافع. وإذا وقف حمزة على «مؤذّن» بدّل همزتها واواً.

لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة أبي رجاء: صَواع الملك ـ بفتح الصاد ـ. وقراءة [أبي] عبدالله بن عوف: صُوع ـ بضمّ الصاد بغير ألف ـ. وقراءة يحيى بن يعمر: صَوغ ـ بفتح الصاد والغين معجمة ـ. وقراءة أبي هريرة، ومجاهد بخلاف: صاع الملك. والقراءة المشهورة: ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾.

وقراءة الحسن: من وُعاء أخيه ـ بضمّ الواو ـ. وقراءة سعيد بن جبير: أعآء أخيه ـ بالهمزة ـ. وقرأ يعقوب، وسهل: يرفع ويشاء ـ بالياء. والباقون: بالنون.

وقرأ أهل الكوفه: درجات ـ بالتنوين ـ. والباقون: بغير تنوين. وفي الشواذّ قراءة ابن مسعود: فوق كل ذي عالم عليم.

الحجة: الصُواع والصاع والصَوْع والصُوْع، واحد، وهو مكيال. وأمّا الصوغ، فمصدر وضع موضع إسم المفعول أي: المصوغ، وهو مثل الخلق والصيد، بمعنى: المخلوق والمصيد. ومن قرأ: أعآء، فأصله: وعاء، أُبدلت الواو المسكورة همزة، كما قالوا في وسادة: أسادة، وفي وجاح للستر: أجاح. ومن قرأ: وُعاء ـ بالضمّ ـ، فإنّه يكون لغة. والهمزة فيه أقيس، كما قالوا: أعد [الِدَ] في وعدوا [وُلِدَ]،

وأجوه، في وجوه[١].

ومن قرأ: درجات ـ بالتنوين ـ، فإنّ «مَن» يكون في موضع نصب، على معنى: نرفع من نشآء درجات. ومن قرأها بغير تنوين، فإنّ «مَن» يكون في موضع جرّ؛ بالإضافة.

وقال ابن جنّي: إنّ قراءة من قرأ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عَالِمٍ عَلِيمٌ﴾: يحتمل ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن يكون من باب إضافة المسمّى إلى الإسم أي: وفوق كل شخص يسمّي عالماً، أو يقال له عالم عليم، مثل قول الكميت:

إِلَيْكُمْ ذَوِي آلِ النَّبِي تَطَلَّعَتْ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِي ظِمَاءٌ وَأَلْبُبُ[٢]

أي: إليكم يا آل النبيّ أي يا أصحاب هذا الإسم الذي هو آل النبيّ، وعليه قول الأعشى:

فَكَذَّبُوهَا بِمَا قَالَتْ، فَصَبَّحَهُمْ ذُو آلِ حَسَّانَ يُزْجِي الْمَوْتَ، والشِرَعا[٣]

أي: صبحهم الجيش الذي يقال له آل حسان.

والوجه الثاني: أن يكون «عالم» مصدراً، كالباطل وغيره.

والثالث: أن يكون على مذهب من إعتقد زيادة «ذي»: فكأنّه قال: وفوق كل عالم عليم.

اللغة: يقال: آوى إلى منزله، يأوي أوياً: إذا صار إليه. وأويته أنا إيواء. والإبتئاس: الإغتمام، وإجتلاب البؤس والحزن. والسقاية: الإناء التي يسقي منها، وهو من السقي. وقيل: السقاية والصواع، واحد. والأذان والتأذين، واحد، وهو

---

(١) كذا في كتاب سيبويه.

(٢) ظماء: جمع ظمآن. وألبب. جمع اللبّ.

(٣) يصف جارية نظرت من بعيد، فأخبر قومها بمجيء جيش، فكذّبوها حتى وافاهم الجيش. ورأيت في نسخة صحيحة يزجي السمر والسلعا، مكان الموت والشرعا. والسمر والسلع: نوعان من الشجر فيهما شوك ومرارة، وأمّا الشرع: فكأنّه جمع شرعة، وهي فخ يصاد به.

النداء يسمع بالأذن. ويقال: أذنته بالشيء أي: أعلمته. وأذنته أكثرت إعلامه. والعير: القافلة من الحمير. وقيل: هو القافلة التي فيها الأجمال. والأصل للحمير، ثمّ كثر، فسمّي كل قافلة عيراً. وقيل: العير: الإبل اسائرة المركوبة. والجمع: عيران.

والحِمل، ـ بالكسر ـ: لما إنفصل. وبالفتح: لما إتّصل، وجمعه: أحمال وحمول. والزعيم والكفيل والضمين، نظائر. والزعيم، أيضاً القائم بأمر القوم، وهو الرئيس. قالت ليلى الأخيلية:

حَتّى إِذا رُفِعَ اللِواءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللِواءِ عَلى الْخَميسِ زَعيماً

الإعراب: تالله معناه: والله، إلاّ أنّ التاء تختصّ بإسم الله، لا يجوز: تالرحمن وتربّي، وهو بدل من الواو، كما أبدل من الواو في «تراث، وتجاه، وتخمة». قالوا: ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ ذكر في إعرابه وجهان:

أحدهما: أن يكون ﴿جَزَاؤُهُ﴾ مبتدأ، و﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ الخبر، ويكون المعنى: جزاء السرق الإنسان الموجود في رحله، السرق، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ جملة أُخرى ذكرت زيادة في الإبانة، كما يقال: جزاء السارق القطع، فهذا جزاؤه. و«فهذا جزاؤه» زيادة في البيان. وعلى هذا تكون ﴿مَنْ﴾ موصولة، ويكون تقديره: إسترقاق الذي وجد في رحله السرق، فحذف المضاف.

والآخر: أن يكون «جزاؤه» مبتدأ، و«من وجد في رحله فهو جزاؤه»، جملة شرطيّة في موضع الخبر. والعائد على المبتدأ الأوّل من الجملة الأولى «جزاؤه» من قوله: فهو جزاؤه، فكأنّه قال: فهو هو أي: فهو الجزاء. الإظهار هيهنا أحسن؛ لئلاّ يقع في الكلام لبس. قال الزجّاج: إنّ العرب إذا فخمت أمر الشيء، جعلت العائدة إليه إعادة اللفظ بعينه. وأنشد:

لا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَصَ الْمَوْتُ ذَا الغِنىٰ وَالفَقِيرا

وعلى هذا فيكون المعنى: قالوا: جزاء السرق إن وجد في رحل رجل منّا، فالموجود في رحله السرق، جزاؤه إسترقاق. وقال صاحب الكشف: تقديره:

وجزاء المسروق من وجد في رحله أي: إنسان وجد الصاع في رحله. فمَن: نكرة، وهو: مبتدأ ثان. وقوله: ﴿وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ صفة لمَن. وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ خبر لمَن. والجملة خبر قوله: ﴿جَزَاؤُه﴾. والتقدير: جزاؤه إنسان وجد في رحله الصاع فهو هو، إلاّ أنّه وضع الظاهر موضع المضمر. قال: وليس في التنزيل «مَن» نكرة إلاّ في هذا الموضع.

وموضع الكاف من ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا﴾ نصب؛ بأنّه صفة مصدر محذوف. وموضع ﴿أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ نصب؛ لما سقطت الباء أفضى [أفضى] الفعل إليها، فنصب، والتقدير: إلاّ بمشيئة الله.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن دخولهم عليه، فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: لمّا دخل أولاد يعقوب على يوسف، ضمّ إليه أخاه من أبيه وأُمّه ابن يامين، وأنزله معه، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: إنّهم لمّا دخلوا عليه، فقالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقال: أحسنتم. ثمّ أنزلهم وأكرمهم، ثمّ أضافهم، وقال: ليجلس كل بني أُمّ على مائدة، فجلسوا، فبقي ابن يامين قائماً فرداً، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال: إنّك قلت ليجلس كل بني أُمّ على مائدة، وليس لي فيهم ابن أُمّ. فقال يوسف: أفما كان لك ابن أُمّ؟ قال: بلى. قال يوسف: فما فعل؟ قال زعم هؤلاء أن الذئب أكله! قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ قال: ولد لي أحد عشر إبناً، كلّهم إشتققت له إسماً من إسمه. فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء، وشممت الولد من بعده! قال ابن يامين: إنّ لي أباً صالحاً، وقد قال لي: تزوّج، لعلّ الله يخرج منك ذرّيّة تثقل الأرض بالتسبيح. فقال له يوسف: تعال، فاجلس معي على مائدتي. فقال إخوة يوسف: لقد فضّل الله يوسف وأخاه، حتى أنّ الملك قد أجلسه معه على مائدته، روي ذلك عن الصادق عليه السلام.

﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ أي: إطّلعه على أنّه أخوه. وقيل: إنّه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، ولم يعترف له بالنسبة، ولم يطّلعه على أنّه أخوه، ولكنّه أراد

أن يطيب نفسه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تسكن، ولا تحزن لشيء سلف من إخوتك إليك، ـ عن وهب، والشعبي ـ.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: فلمّا أعطاهم ما جاؤا لطلبه من الميرة، وكال لهم الطعام الذي جاؤا لأجله، وجعل لكل منهم حمل بعير، ويسمّي حمل التاجر جهازاً.

﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ معناه: أمر حتى جعل الصاع في متاع أخيه، وإنّما أضاف الله تعالى ذلك إليه؛ لوقوعه بأمره. وقيل: إنّ السقاية هي المشربة التي كان يشرب منها الملك، ثمّ جعل صاعاً في السنين الشداد القحاط، يكال به الطعام. وقيل: كان من ذهب، ـ عن ابن زيد، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: كان من فضّة وذهب، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: كان من فضّة مرصّعة بالجواهر، ـ عن عكرمة ـ.

ثمّ إرتحلوا وإنطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى مناد مسمعاً معلماً ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ أي: القافلة، والتقدير: يا أهل العير! وقيل: كانت القافلة من الحمير، ـ عن مجاهد ـ.

﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قيل: إنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف، من غير أمره، ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع في رحالهم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنّما عني به: إنّكم سرقتم يوسف عن أبيه، وألقيتموه في الجبّ، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّ الكلام يجوز أن يكون خارجاً مخرج الإستفهام، كأنّه قال: أئنّكم لسارقون؟ فأسقط همزة الإستفهام، كما في قول الشاعر:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ، أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلاٰمِ مِنَ الرَّبَابِ خِيالاً[1]

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

ويؤيّده: ما روي هشام بن الحكم، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: ما سرقوا، ولا كذب. ومتى قيل: كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يحزن والده وإخوته بهذا الصنيع، ويجعلهم متّهمين بالسرقة؟ فالجواب: إنّ الغرض فيه التسبّب إلى إحتباس أخيه عنده. ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى. وروي أنّه أعلم أخاه بذلك؛ ليجعله طريقاً إلى التمسّك به. وإذا كان إدخال هذا الحزن سبباً مؤدّياً إلى إزالة غموم كثيرة عن الجميع، ولا شكّ أنّه يتعلّق به المصلحة، فقد ثبت جوازه.

فأمّا التعريض للتهمة بالسرقة، فغير صحيح؛ لأنّ وجود السقاية في رحله، يحتمل أُموراً كثيرة غير السرقة. فعلى هذا من حمله على السرقة، مع علمه بأنّهم أولاد الأنبياء، توجّهت اللائمة عليه.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال أصحاب العير ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أصحاب يوسف ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي: ما الذي فقدتموه من متاعكم ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي: صاعه وسقايته ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: وقال المنادي: من جاء بالصاع، فله حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل ضامن[1].

---

(١) يستدلّ بها على مشروعيّة الجعالة والضمان للجعل قبل العمل، وربما يستشكل: بأنّه ضمان ما لم يجب. والجواب: إنّ الضمان يقتضي ثبوت الدين على الضامن، على نحو ما كان ثابتاً على المضمون عنه، ولايقتضي مفهومه ازيد من ذلك، فإن كان الأصل متزلزلاً أو مراعى، فالضمان كذلك. وقال الجصّاص: هذا يدلّ على إستيجار المؤذّن، لا على ضمانه دين غيره، وهو ضعيف؛ لأنّ المستأجر أوّلاً هو يوسف عليه السلام ولاية عن الحكومة، والمؤذّن ضامن عنه عليه السلام، ثمّ إنّ صيغة الضمان هنا الجملة الإسمية.

وربّما يتوهّم منه أنّ الجملة الإسميّة مجزية في العقود. وفيه: إنّ الجمل حقيقة في الأخبار، ومجاز في الإنشاء، والمجاز عند مهرة الأصوليين ممّن لهم تتبّع في الأدب غير مطّرد حتّى أنّهم عدّوا عدم الإطّراد من علائم المجاز، وإنّما قال بخلافه من لابصيرة له في الأدب، فيجوز أن يستعمل الجملة الإسميّة في الإنشاء في الطلاق والعتق والضمان، دون البيع والنكاح، كما يطلق العين على الجاسوس دون البصر، ويفيد قولنا: هذا الدرهم لك، التمليك، ولا يفيده: أنا عبدك، إلى غير ذلك ممّا لايتناهي. وقال بعض المتأخّرين: ليس المجاز بالوضع، فلايقيّد بالمسموع، وهو غلط.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أيّها القوم ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قطُّ، وإنّما أضافوا العلم إليهم بذلك، مع أنّهم لم يعلموه؛ لأنّ معنى هذا القول: أنّكم قد ظهر لكم من حسن سيرتنا، ومعاملتنا معكم، مرّة بعد أُخرى، ما تعلمون به، أنّه ليس من شأننا السرقة. وقيل: إنّهم قالوا ذلك؛ لأنّهم ردُّوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم؛ مخافة أن يكون قد وضع ذلك بغير إذن يوسف أي: فإذا كنّا تحرجنا عن هذا، فقد علمتم أنّا لا نسرق؛ لأنّ من ردَّ ما وجد، لا يكون سارقاً، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّهم لمّا دخلوا مصر، وجدوهم قد شدُّوا أفواه دوابّهم، كي لا تتناول الحرث والزرع. وفي هذا دلالة على أنّ ما فعله إخوة يوسف به، إنّما كان في حال الصغر، وعدم كمال العقل؛ لنفيهم عن أنفسهم الفساد الذي هو ضدّ الصلاح.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: قال الذين نادوهم: فما جزاء السرقة ﴿إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في قولكم: إنّا لم نسرق، وظهرت السرقة؟ وقيل: معناه: فما جزاء من سرق ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: قال إخوة يوسف جزاء السرق السارق، وهو الإنسان الذي وجد المسروق في رحله. وقد بيّنّا تقديره فيما قبل، ومعناه، إنّ السنّة في بني إسرائيل، وعند الملك، كان إسترقاق السارق، ـ عن الحسن، والسدّي، وابن إسحاق، والجبائي ـ. وكان يسترقّ سنة. وقيل: كان حكم السارق في آل يعقوب: أن يستخدم ويسترقّ على قدر سرقته. وفي دين الملك: الضرب والضمان، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: إنّ يوسف سألهم ما جزاء السارق عندكم؟ فقالوا: أن يؤخذ بسرقته.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: مثل ما ذكرنا من الجزاء نجزي السارقين. يعني: إذا سرق استرقّ. وقيل: إنّ ذلك جواب يوسف عليه السلام لقول إخوته: إنّ جزاء السارق إسترقاقه.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: بدأ يوسف في التفتيش بأوعيتهم

لإزالة التهمة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ يعني: السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وإنّما بدأ بأوعيتهم؛ لأنّه لو بدأ بوعاء أخيه، لعلموا أنّه هو الذي جعلها فيه. وإنّما قال: إستخرجها؛ لأنّه أراد به السقاية، وحيث قال: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ﴾ أراد به: الصاع. وقيل إنّ الصاع يذكّر ويؤنّث، قالوا: فأقبلوا على ابن يامين، وقالوا له: فضحتنا، وسوّدت وجوهنا، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: وضع هذا الصاع في رحلي، الذي وضع الدراهم في رحالكم.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: مثل ذلك الكيد أمرنا يوسف؛ ليكيد بما يتهيّأ له أن يحبس أخاه؛ ليكون ذلك سبباً لوصول خبره إلى أبيه، أي: ألهمنا يوسف هذا الكيد والحيلة، فجازيناهم على كيدهم بيوسف أي: كما فعلوا في الإبتداء، فعلنا بهم. وقيل: إنّ معنى كدنا: صنعنا ليوسف، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ألهمنا، ـ عن الربيع ـ. وقيل: دبرنا ليوسف؛ بدلالة قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ على أنّه سبحانه علم من صلاح هذا التدبير، ما لم يعلمه غيره، ـ عن القتيبي ـ.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ أي: ما كان يمكنه أن يأخذ أخاه في حكم الملك وقضائه، وأن يحبسه؛ إذ لم يكن ذلك من حكم ملك مصر وأهله، ـ عن قتادة ـ. وقيل: في دين الملك: في سلطانه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: في عادته في جزاء من سرق أن يستعبد. وقيل: إنّه كان عادلاً، ولو لا هذه الحيلة، لما كان يمكنه من أخذ أخيه، إلاّ أن يشاء الله أن يجعل ليوسف عذراً فيما فعل. وقيل: إلاّ أن يشاء الله، أن يأمره بذلك؛ لأنّه كان لا يمكنه أن يقول: هذا أخي، وكان لا يمكنه حبسه من غير حيلة؛ لأنّه كان يكون فعله ظلماً، وكان من سنّة آل يعقوب أن يسترقّ، وفي حكم الملك، وأهل مصر، أن يضرب ويغرم، وحبسه يوسف على قولهم، وإلتزم حكمهم الذي جرى على لسانهم؛ مبالغة في نفي السرقة عن أنفسهم، وكان ذلك مراده. وقد شاء الله؛ لأنّه بأمره، ـ عن الحسن ـ. وإنّما سمّاه كيداً؛ لأنّه لولا هذا السبب لم يتهيّأ له أخذه، والكيد: ما يفعله فاعله ليوصل به إلى

غيره ضرراً من حيث لا يعلمه، أو لينال منه شيئاً من غير أن يعلمه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالعلم والنبوّة، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. وقيل: بالتقوى، والتوفيق، والعصمة، والألطاف الجميلة.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعني: إنّ كل عالم، فإنّ فوقه عالماً أعلم منه، حتى ينتهي إلى الله تعالى العالم بجميع المعلومات لذاته، فيقف عليه، ولا يتعدّاه. وفي هذا دلالة على بطلان قول من يقول: إنّ الله سبحانه عالم بعلم قديم؛ لأنّه لو كان كذلك، لكان فوقه عليم، على ما يقتضيه الظاهر.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ (١)

(اللغة): اليأس: قطع الطمع من الأمر. يقال: يئس ييأس، وأيس يأيس، لغة. وإستفعل، مثل: إستيأس، وإستأيس. وروي أبو ربيعة، عن البزي، عن ابن

(١) «لي أبي» ممّا إختلفوا في فتح يائه، وكذلك «أبي أو».

كثير: إستيأسوا منه، وإستيأس الرسل، ويئس وإستيأس، بمعنى، مثل: سخر وإستسخر، وعجب وإستعجب. والنجي: القوم: يتناجون، الواحد والجمع فيه سواء، قال سبحانه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾. وإنّما جاز ذلك؛ لأنّه مصدر وصف به. والمناجاة: المسارة، وأصله من النجوة، وهو المرتفع من الأرض، فإنّه رفع السرّ من كل واحد إلى صاحبه في خفيّة. والنجوى: يكون إسماً ومصدراً، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي: يتناجون. وقال في المصدر: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وجمع النجي: أَنجية. قال:[١]

إنّي إذا ما القَوْمُ كانُوا أَنْجِيَهْ

وبرح الرجل براحاً: إذا تنحّى عن موضعه.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ قال الزجّاج: هذا إضمار على شريطة التفسير؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ بدل من ﴿ها﴾ في ﴿أَسَرَّهَا﴾ والمعنى: فأسرّها يوسف في نفسه. قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ قال أبو عليّ: إنّ الإضمار على شريطة التفسير، يكون على ضربين:

أحدهما: أن يفسّر بفرد نحو: نعم رجلاً زيد. فقولك: رجلاً تفسير للرجل الذي هو فاعل «نعم»، وقد أُضمر.

والآخر: أن يفسّر بجملة، وأصل هذا يقع في الإبتداء كقوله: ﴿فَإِذا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ المعنى: القصّة، أبصار الذين كفروا شاخصة. والأمر، الله أحد، ثمّ تدخل عوامل المبتدأ عليه، نحو: كان وأخواتها، وإنّ وأخواتها، فينتقل هذا الضمير من الإبتداء بها، كما ينتقل سائر المبتدآت، كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾، ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ﴾، وقول الشاعر:

---

[١] قائله: سحيم بن وثيل اليربوعي.

وَلَيْسَ مِنْها شِفاءُ الداءِ مَبْذُولُ[١]

والذي ذهب أبو إسحاق فيه، إلى أنّه مضمر على شريطة التفسير، ليس بمبتدأ، فيلزمه التفسير بالجملة، ألاترى أنّها فصلة مذكورة بعد فعل وفاعل وهو قوله: أسرّ، فإذا كان مبايناً لما أصله المبتدأ، لم يجز أن يفسّر تفسيره. وأيضاً فإنّ المضمر على شريطة التفسير، لايكون إلاّ متعلّقاً بالجملة التي يفسّرها، ولايكون منقطعاً عنها، ولا متعلّقاً بجملة غيرها، وما ذكره أبو إسحق، فالتفسير فيه منفصل عن الجملة التي فيها الضمير الذي زعم أنّه إضمار على شريطة التفسير، فخرج بذلك عمّا يكون عليه الإضمار قبل التفسير.

فإن قلت: فعلى م تحمل الضمير في ﴿أَسَرَّها﴾؟ قلنا: يحتمل أَنْ يكون إضماراً للإجابة، كأنّهم لمّا قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أسرّ يوسف إجابتهم في نفسه، ولم يبدها لهم في الحال، وجاز إضمار ذلك؛ لأنّه دلّ ما تقدّم من مقالتهم عليه، وجاز أن يكون إضماراً للمقالة، كأنّه أسرّ يوسف مقالتهم؛ لأنّ القول والمقالة واحد. ويكون معنى المقالة: المقول، كما أنّ الخلق عبارة عن المخلوق: أي: أكنّها في نفسه، وأَوعاها ولم يطرحها؛ إرادة للتوبيخ عليها، والمجازاة بها. إنتهى تلخيص كلام أبي علي.

وقوله: ﴿شَيْخاً﴾ صفة الأب. و«الكبير» صفة الشيخ. و﴿مَعَاذَ الله﴾: منصوب على المصدر. والعرب تقول: معاذ الله، ومعاذة الله، وعوذ[نا] الله، وعوذة الله، وعياذ الله. ويقولون أللهمّ عائذاً بك أي: أدعوك عائذاً بك. و«أن نأخذ» في موضع نصب. والمعنى: أعوذ بالله من أخذ أَحد، إلاّ من وجدنا متاعنا عنده. فلمّا سقطت «من» أفضى الفعل، فنصب، ـ عن الزجّاج ـ. وقوله: ﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُوْنَ﴾ فيه معنى الجزاء أي: إن أخذنا غيره، فنحن ظالمون. و﴿نَجِيّاً﴾: نصب على الحال.

---

[١] البَذْل: ضد المنع. والبذل الإعطاء والجود عن طيب خاطر.

و«ما» في قوله: ﴿مَا فَرَّطْتُم﴾ لغو أي: ومن قبل فرّطتم. ويجوز أن تكون مصدريّة في موضع رفع، بمعنى: تفريطكم واقع من قبل، فيكون ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ في موضع رفع؛ بالإبتداء، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ خبره. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ عطفاً على «أنّ»، فيكون المعنى: ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً، وتفريطكم في يوسف. و«يحكم» عطف على «يأذن». ويجوز أن يكون بمعنى «إلاّ أَنْ» أي: لن أَبرح الأرض إلاّ أن يحكم الله لي.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن إخوة يوسف أنّهم ﴿قَالُوا﴾ ليوسف ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ ابن يامين (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ﴾ من أُمّه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فليست سرقته بأمر بديع، فإنّه إقتدى بأَخيه يوسف. وأختلف فيما وصفوه به من السرقة على أقوال: فقيل: إنّ عمّة يوسف كانت تحضنه بعد وفاة أُمّه، وتحبّه حبّاً شديداً. فلمّا ترعرع، أَراد يعقوب أن يستردّه منها، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر. فاحتالت وجاءت بالمنطقة، وشدّتها على وسط يوسف، وإدّعت أنّه سرقها. وكان من سنّتهم إسترقاق السارق، فحبسته بذلك السبب عندها، ـ عن ابن عباس، والضحّاك، والجبائي، وقد روي ذلك عن أئمّتنا عليهم السلام ـ. وقيل: إنّه سرق صنماً لجدّه من قبل أُمّه، فكسره، وألقاه على الطريق، ـ عن سعيد بن جبير، وقتادة، وابن زيد ـ. وقيل: إنّه سرق دجاجة كانت في بيت يعقوب، أو بيضة، فأعطاها سائلاً، فعيَّروه بها، ـ عن سفيان بن عيينة، ومجاهد ـ.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي: فأخفي يوسف تلك الكلمة التي قالوها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يظهرها ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ في السرق؛ لأنّكم سرقتم أخاكم من أبيكم.

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: والله أعلم أسرق أخ له، أم لا، ـ عن الزجاج ـ. ويكون المعنى: أنتم أَسوأ حالاً من يوسف؛ فإنّه لم يكن له صنيع في

المنطقة، وكان يتصدّق بإذن أبيه، ولم تكونوا براء ممّا عاملتموه به. وقيل: معناه: أنتم شرّ صنيعاً بما أقدمتم عليه من [نا] ظلم أخيكم، وعقوق أبيكم، فأنتم شرٌّ مكاناً عندالله منه أي: أسرَّ هذه المقالة في نفسه، ثمّ جهر بقوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قال الحسن: لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، وإنّما أعطوا النبوّة بعد ذلك. والصحيح عندنا: إنّهم لم يكونوا أنبياء؛ لأنّ النبيّ عندنا لا يجوز أن يقع منه فعل القبيح أصلاً. وقال البلخي: إنّهم كذبوا في هذا القول، ولم يصحّ أنّهم كانوا أنبياء. جوّز أن يكون الأسباط غيرهم، أو أن يكونوا من أولادهم.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدلاً عنه، إنّما قالوا هذا؛ لما علموا أنّه إستحقّه، فسألوه أن يأخذ عنه بدلاً؛ شفقة على والدهم، ورقّقوا في القول على وجه الإسترحام، ومعناه: كبيراً في السنّ. وقيل: كبيراً في القدر، لا يحبس ابن مثله.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الناس. وقيل: من المحسنين إلينا في الكيل، وردِّ البضاعة، وفي الضيافة، ونحن نأمل هذا منك؛ لإحسانك إلينا. وقيل: إن فعلت هذا، فقد أحسنت إلينا.

فأجابهم يوسف بأن ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي: أعوذ بالله أن آخذ البريء بجرم السقيم، وقال: من وجدنا متاعنا عنده. ولم يقل: من سرق؛ تحرّزاً من الكذب.

﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ أي: لو فعلنا ذلك لكنّا ظالمين. وفي هذا دلالة على أنّ أخذ البريء بالمجرم ظلم، ومن فعله كان ظالماً، والله يتعالى ويجلّ عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ﴾ أي: فلمّا يئس إخوة يوسف من يوسف، أن يجيبهم إلى ما سألوه، من تخلية سبيل ابن يامين معهم.

﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ أي: إنفردوا عن الناس، من غير أن يكون معهم من ليس منهم، يتناجون فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم، ويتدبّرون في أنّهم يرجعون أَم يقيمون. وتلخيصه إعتزلوا عن الناس متناجين. وهذا من ألفاظ القرآن التي هي في الغاية القصوى من الفصاحة، والإيجاز في اللفظ، مع كثرة المعنى.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبين، وكان أسنّهم، وهو ابن خالة يوسف، وهو الذي نهي إخوته عن قتله، ـ عن قتادة، [والسدّي]، والضحّاك، وكعب ـ. وقيل: شمعون، وهو كبيرهم في العقل والعلم، لا في السنّ، وكان رئيسهم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: يهوذا، وكان أعقلهم، ـ عن وهب والكلبي ـ. وقيل: لاوي، ـ عن محمّد بن إسحاق، وعن عليّ بن إبراهيم بن هاشم ـ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ أراد به: الوثيقة التي طلبها منهم يعقوب، حين قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ فذكرهم ذلك.

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: قصّرتم في أمره، وكنتم قد عاهدتم أباكم أن تردّوه إليه سالماً، فنقضتم العهد.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ أي: لا أزال بهذه الأرض، ولا أزول عنها وهي أرض مصر.

﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في البراح والرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ بالخروج، وترك أخي هيهنا. وقيل: بالموت. وقيل: بما يكون عذراً لنا عند أبينا، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: بالسيف، حتى أُحارب من حبس أخي، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا يحكم إلاّ بالحقّ، قالوا: إنّه قال لهم، أَنا أكون هيهنا، واحملوا أنتم الطعام إليهم. فأخبروهم بالواقعة.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١) ﴿٨٧﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة ابن عباس سُرِّقَ ـ بضمّ السين وتشديد الراء وكسرها ـ. وقراءة الحسن، وقتادة، وعمر بن عبدالعزيز ﴿مِنْ رُوْحِ الله﴾ ـ بضمّ الراء ـ.

---

(١) نقل حركة همزة «وسئل» إلى «السين»، وحذفها الكسائي، وابن كثير. وأدغم «بل سوّلت» حمزة، والكسائي، وهشام. وإذا وقف حمزة على «تفتؤا» قال: تفتا ـ بالألف، وبإبدال الهمزة واواً، وبالتسهيل كالواو.

الحجة: معنى «سُرِّق» ـ بضمّ السين ـ: نسب إلى السرقة، فيكون من باب فسَّقه وفجَّره وشَجَّعه، إذا نسبه إلى هذه الخلال. وأمّا ﴿رَوْحِ اللهِ﴾ فيمكن أن يكون من الروح الذي هو من عند الله، وبلطفه، وهدايته، ونعمته.

اللغة: القرية: الأرض الجامعة لمساكن كثيرة، وأصله من القري، وهو الجمع. يقال: قريت الماء في الحوض، ونظيره: البلدة والمدينة. والعير: قد مضى ذكر معناه. والكظم: إجتراع الحزن، وهو أن يمسكه في قلبه، ولا يبثّه إلى غيره.

ويقال: ما زِلت أَفعل كذا، وما فَتِئْتُ أَفعله، افتاء فَتْأً. قال أوس بـه حـجر، يصف حرباً:

فَـمـا فَـتَأَتْ خَـيْلٌ تَـثُوبُ وتَـدَّعي وَيَـلْحَقُ مِـنْهَا لاحِـقٌ وَتُـقَطَّعُ(١)

والحرض: المشرف على الهلاك. يقال: رجل حرض وحارض أي: فاسد في جسمه وعقله. ومنه: حرَّضته على كذا: أمرته به؛ لأنّه إذا خالف الأمر، فكأنّه هلك. وأحرضه أي: أفسده، قال العرجي:

إِنِّـي امْـرُؤٌلَجَّ بِـي حُبٌّ فأَحْـرَضَني حَتّى بَـلَيْتُ، وحَـتّى شَـفَّنِي السَّـقَمُ(٢)

والحرض: لا يثنّى ولا يجمع؛ لأنّه مصدر. والشكوى: صفة ما عـنده مـن البلوى. يقال: شكوته إلى فلان شكوى وشكاية وشكواه، فأشكاني أي: أعتبني من شكواي. وأشكاني أيضاً: أَخرجـني إلى الشكـوى. والبثّ: الهـمّ الذي لا يـقدر صاحبه على كتمانه فيبثّه أي: يفرقه. وكل شي فرقته فقد بثثته. ومنه: قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾. والتحسّس: طلب الشيء بالحاسّة. والتجسّس: نظيره. وفـي الحديث: لا تحسّسوا ولا تجسّسوا. وقيل: إنّ معناهما واحد، ونسق أحدهما على

---

(١) تثوب أي: تصرخ. وتدّعى أي: يدعى بعضهم بعضاً مستنصراً، يلحق المنهزم بمن لم ينهزم. وتقطّع أي: يقطع بعضهم عن بعض.

(٢) بليت: من البلى. وشفّني: أستعمل متعدّياً، وشفّ يشفّ جسمه: نحل [نخل].

الآخر؛ لإختلاف اللفظين، كقول الشاعر:

مَتى أدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنّي وَيَبْعُدِ[١]

وقيل: التجسّس ـ بالجيم ـ: البحث عن عورات الناس. وبالحاء: الإستماع لحديث قوم. وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما، قال: لايبعد أحدهما عن الآخر. التحسّس في الخير، والتجسّس في الشرّ. والروح: الراحة. والروح: الرحمة. وأصل الباب من الريح، التي تأتي بالرحمة.

﴿الإعراب﴾: ﴿اسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية، و«العير» أي: وأهل العير، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه. ﴿يَا أَسَفىٰ﴾ معناه: يا حسرتى، والأصل: يا أسفي. إلاّ أنّ ياء الإضافة، يجوز أن يبدّل ألفاً؛ لخفّة الألف، والفتحة. ويجوز أن يكون ألف الندبة، ويكون معناه لبيان أنّ الحال حال حزن، فكأنّه قال: يا أسف هذا من أَوانك.

وقوله: ﴿عَلى يُوسُف﴾ من صلة المصدر. «تفتأ» معناه: لاتفتأ، حذف حرف النفي؛ لعلم السامع به، كما في قول إمرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً وَلَوْ ضَرَبُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصالي[١]

وإنّما جاز ذلك؛ لأنّه لا يجوز في القسم: تالله تفعل، حتى تقول: تالله لتفعلنّ، أو تقول: لا تفعل.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه أنّه قال كبيرهم في السنّ، أو في العلم ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ في الظاهر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عندك بهذا ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي: بما شهدنا من أنّ الصاع إستخرج من رحله في الظاهر، وبيّن بهذا

---

(١) يمين الله: يجوز فيه الرفع على الإبتداء، وخبره محذوف أي: يمين الله قسمي، أو النصب بإضمار الفعل على المصدر نحو: سبحان الله. ويروى «ولو قطعوا رأسي لديك».

[١] قائله: طرفة بن العبد، وصدره فيه (فما لي أراني وابن عمي مالكاً).

أنّهم لم يكونوا قاطعين على أنّه سرق. وقيل: معناه: ما شهدنا عند يوسف أنّ السارق يسترقّ إلاّ بما علمنا أنّ الحكم ذلك، ولم نعلم أنّ إبنك سرق أم لا، إلاّ أنّه وجد الصاع عنده، فحكم بأنّه السارق في الظاهر، وإنّما قالوا ذلك حين قال يعقوب عليه السلام لهم: ما يدري الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته، ويسترقّ، وإنّما علم ذلك بقولكم.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ أي: إنا لم نعلم الغيب حين سألناك أن تبعث ابن يامين معنا، ولم ندر أنّ أمره يؤول إلى هذا. وإنّما قصدنا به الخير، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به، ـ عن مجاهد، وقتادة، والحسن ـ. وقال عليّ بن عيسى: علم الغيب هو علم من لو شاهد الشيء لشاهده بنفسه، لا بأمر يستفيده. والعالم بهذا المعنىٰ هو الله وحده جلّ إسمه. وقيل: معناه: ما كنّا لسرّ هذا الأمر حافظين، وبه عالمين، فلا ندري أنّه سرق، أم كذبوا عليه، وإنّما أخبرناك بما شاهدنا، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: معناه: ما كنّا لغيب إبنك حافظين. أي: إنّا كنّا نحفظه في محضره، وإذا غاب عنّا ذهب عن حفظنا، يعنون أنّه سرق ليلاً وهم نيام. والغيب: هو الليل بلغة حمير، عن ابن عباس، قال: أي: إنّا لم نعلم ما كان يصنع في ليله ونهاره، ومجيئه وذهابه.

﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية ﴿الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ والقرية: مصر، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ. ومعناه: سل من شئت من أهل مصر عن هذا الأمر؛ فإنّ هذا الأمر شائع فيهم، يخبرك به من سألته. وإنّما قالوا ذلك؛ لأنّ بعض أهلها كانوا قد صاروا إلى الناحية التي كان فيها أبوهم. والعرب تسمّي الأمصار والمدائن قري.

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: وسل أهل القافلة التي قدمنا فيها، وكانوا من أرض كنعان من جيران يعقوب، وإنّما حذف المضاف للإيجاز؛ ولأنّ المعنى مفهوم. وقيل: إنّه ليس في الكلام حذف؛ لأنّ يعقوب عليه السلام نبيّ، صاحب معجز، يجوز

أن تكلّمه القرية، والعير على وجه خرق العادة. وإنّما قالوا ذلك؛ لأنّهم كانوا أهل تهمة عند يعقوب.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ هيهنا حذف كثير، يدلّ الحال عليه، تقديره: فلمّا رجعوا إلى أبيهم، وقصّوا عليه القصّة بطولها، قال لهم: ما عندي إنّ الأمر على ما تقولونه، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فيما أظن.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل، لا جزع معه ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ أي: عسى الله أن يأتيني بيوسف، وابن يامين، وروبيل، أو شمعون، أو لاوي، أو يهوذا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بعباده ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبير الخلق.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: إنصرف وأعرض عنهم؛ بشدّة الحزن؛ لمّا بلغه خبر حبس ابن يامين، وهاج ذلك وجده بيوسف؛ لأنّه كان يتسلّى به.

﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: يا طول حزني على يوسف، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عن سعيد بن جبير أنّه قال: لقد أُعطيت هذه الأُمّة عند المصيبة، ما لم يُعطَ الأنبياء قبلهم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولو أُعطيها الأنبياء لأُعطيها يعقوب؛ إذ يقول: يا أسفىٰ على يوسف.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ والبكاء، ولمّا كان البكاء من أجل الحزن، أضاف بياض البصر إليه. وسئل الصادق عليه السلام: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: حزن سبعين حرى ثكلى. قيل: كيف وقد أُخبر أنّه يردّ عليه؟ فقال: أُنسي ذلك[1]. وقيل: إنّه عمي ستّ سنين، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: إنّه أشرف على العمى، فكان لا يرى إلاّ شيئاً يسيراً.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ والكظم [الكظيم] هيهنا بمعنى الكاظم: وهو المملوء من الهمّ

---

(١) نسياناً لايوجب الخطاء في الفعل والقول، حتى يخلّ بالعصمة.

والحزن، الممسك للغيظ، لا يشكوه لأهل زمانه، ولا يظهره بلسانه. ولذلك لقّب موسى بن جعفر عليه السلام الكاظم؛ لكثرة ما كان يتجرّع [يتحرّج] من الغيظ والغمّ، طول أيّام خلافته لأبيه في ذات الله تعالى. وقال ابن عباس: هو المغموم المكروب.

﴿قَالُوا﴾ أي: قال ولد يعقوب لأبيهم ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي: دنفاً فاسد العقل، ـ عن ابن عباس، وابن إسحاق ـ. وقيل: قريباً من الموت، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هرماً بالياً، ـ عن قتادة: والضحّاك ـ.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ﴾ أي: الميّتين، وإنّما قالوا ذلك؛ إشفاقاً عليه وتعطّفاً ورحمة له. وقيل: إنّهم قالوا ذلك؛ تبرّماً ببكائه؛ إذ تنغص عيشهم بذلك.

﴿قَالَ﴾ يعقوب في جوابهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ أي: همّي ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: حاجتي ـ عن الحسن ـ ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ المعنى: إنّما أشكو حزني، وحاجتي، وإختلال حالي، وإنتشارها، إلى الله في ظلم الليالي، وأوقات خلواتي، لا إليكم. وقيل: البثّ: ما أبداه. والحزن: ما أخفاه. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ جبرائيل أتاه فقال: يا يعقوب! إنّ الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر، وليفرح قلبك، فوعزّتي لو كانا ميّتين لنشرتهما لك. إصنع طعاماً للمساكين؛ فإنّ أحبَّ عبادي إليَّ المساكين. أوتدري لم أذهبت بصرك، وقوّست ظهرك؟ لأنّكم ذبحتم شاة، وأتاكم مسكين وهو صائم، فلم تطعموه شيئاً. فكان يعقوب بعد ذلك، إذا أراد الغذاء أمر منادياً ينادي: ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذّ مع يعقوب. وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى: ألا من كان صائماً، فليفطر مع يعقوب، رواه الحاكم أبو عبدالله الحافظ في صحيحه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم صدق رؤيا يوسف، وأعلم أنّه حيّ، وأنكم ستسجدون له، كما إقتضاه رؤياه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أَعلم من

رحمة الله وقدرته ما لا تعلمون، ـ عن عطاء ـ. وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن سدير الصيرفي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنّ يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابه، فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرني هل مرَّ بك روح يوسف في الأرواح؟ فقال: لا. فعلم أنّه حيٌّ.

فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ابن يامين. وقيل: إنّهم لمّا أخبروه بسيرة الملك، قال: لعلّه يوسف، ـ عن السدّي ـ. فلذلك قال: يا بنيّ إذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ابن يامين أي: إستخبروا من شأنهما، وأطلبوا خبرهما، وأنظروا أنّ ملك مصر ما إسمه؟ وعلى أيّ دين هو؟ فإنّه أُلقي في روعي، أنّ الذي حبس ابن يامين هو يوسف، وإنّما طلبه منكم، وجعل الصاع في رحله، إحتياطاً [إحتيالاً] في حبس أخيه عند نفسه.

﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ أي: لا تقنطوا من رحمته، ـ عن ابن عباس، وقتادة، والضحّاك ـ. وقيل: من الفرج من قبل الله، ـ عن ابن زيد ـ. والمعنى، لاتيأسوا من الروح الذي يأتي به الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يريد أنّ المؤمن من الله على خير، يرجوه في الشدائد والبلاء، ويشكره ويحمده في الرخاء، والكافر ليس كذلك. وفي هذا دلالة على أنّ الفاسق المليّ، لا يأس عليه من رحمة الله، بخلاف ما يقوله أهل الوعيد.

سؤال: كيف خفي أخبار يوسف على يعقوب في المدّة الطويلة، مع قرب المسافة؟ وكيف لم يعلمه يوسف بخبره؛ لتسكن نفسه، ويزول وجده.

الجواب: قال الجبائي: العلّة في ذلك: أنّه حمل إلى مصر فبيع من عزيز، فألزمه داره. ثمّ لبث في السجن بضع سنين، فإنقطعت أَخبار الناس عنه. فلمّا تمكّن إحتال في إيصال خبره بأبيه على الوجه الذي أمكنه، وكان لا يأمن لو بعث

رسولاً إليه أَن لا يمكنه إخوته من الوصول اليه. وقال المرتضى، قدس الله روحه. يجوز أن يكون ذلك له ممكناً، وكان عليه قادراً، لكن الله سبحانه أوحى إليه بأن يعدل عن إطلاعه على خبره؛ تشديداً للمحنة عليه، ولله سبحانه أن يصعب التكليف، وأن يسهله.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن كثير: إنّك لأنت يوسف ـ بكسر الهمزة ـ. وقرأ نافعٌ، ويعقوبٌ غير زيدٍ، وسهلٌ: أنّك ـ بفتح الهمزة غير ممدود ـ. وقرأ أبو عمرو وقالون، عن نافع، وزيد، عن يعقوب: آأنّك ـ بالمدّ ـ. وقرأ الباقون: أأنّك

ـ بهمزتين[١] ـ. وفي الشواذّ قراءة أُبيّ: أنّك أو أنت يوسف وقرأ ابن كثير وحده: من يتّقي ـ بياء في الوصل والوقف ـ. والباقون: بغير ياء فيهما.

الحجّة: يدلّ على الإستفهام قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾، وإنّما أجابهم عمّا إستفهموا عنه. قال أبو الحسن في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ إنّه على الإستفهام، كأنّه قال: أو تلك نعمة. فيجوز أن يكون من قرأ «أنّك» على هذا، فيكون القراءتان متّفقتين، وقلّما يحذف حرف الإستفهام. فأمّا باقي القراءات، فإنّه يجري على مذهبهم في إجتماع الهمزتين، وقد تقدّم القول في ذلك. وأمّا قراءة أُبيّ، فيكون على حذف خبر «إنّ»، كأنّه قال: إنّك لغير يوسف، أو أنت يوسف. قال ابن جنّي: فكأنّه قال: بل أنت يوسف، فلمّا خرج مخرج التوقّف، قال: أنا يوسف.

وقد جاء عنهم حذف خبر «إنّ». قال الأعشى:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلاً وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلاً[٢]

أراد: إنّ لنا محلاً، وإنّ لنا مرتحلاً.

قال أبو عليّ: قوله: من يتّقي: لا يحمل على نحو قول الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تُنْمي[١]

لأنّ هذا ونحوه إنّما يجيء في الشعر، ولكن تجعل «من» موصولة، فيكون

---

(١) في كلمة ائنك خمس قراآت: الأولى: ترك همزة الإستفهام، والإكتفاء بهمزة «إنّ» مكسورة، وهي قرائة ابن كثير، وأبي جعفر. الثانية: إثبات الهمزتين، لكن بتسهيل الثانية مع الفصل بألف، وهي قرائة قالون عن نافع، وزيد عن يقعوب. والثالثة: إثبات الهمزتين، وتسهيل الثانية بلا فصل بألف، وهي قرائة نافع غير قالون، وقرائة سهل ويعقوب من طرقه غير طريق زيد. والرابعة: قرائة هشام بتحقيق الهمزتين مع الفصل بألف ولم يذكرها المصنّف. والخامسة: تحقيق الهمزتين بلا فصل، وهي قرائة الباقين. وعبارة الكتاب لاتخلو من إجمال.

(٢) الشعر في جامع الشواهد، وكذا الواهب الخ.

[١] قائله: قيس بن زهير، وبعده (بما لاقت لبون بني زياد).

بمنزلة: الذي يتّقي. ويحمل المعطوف على المعنى؛ لأنّ «مَنْ يتّقي»، إذا كان «مَنْ» بمنزلة «الذي»، بمنزلة الجزء الجازم، بدلالة أنّ كل واحد منهما يصلح دخول الفاء في جوابه، فإذا إجتمعا في ذلك، جاز أن يعطف عليه، كما يعطف على الشرط المجزوم؛ لكونه بمنزلته فيما ذكرناه. ومثل ذلك قوله: فأصدَّق وأكن، حملت «وأكن» على موضع الفاء.

ومثله: قول من قرأ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ جزماً. ويجوز أن تقدّر الضمّة في قوله: ويصبر، وتحذفها للإستخفاف، كما يخفّف نحو: عضد وسبع. وجاز هذا في حركة الإعراب، كجوازه في حركة البناء. وزعم أبو الحسن أنّه سمع ﴿رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ بإسكان اللام من ﴿رُسُلُنَا﴾. ويقوي ذلك قراءة من قرأ: ﴿ويَتْقِهِ﴾ ألاترى أنّه جعل «تَقِه» بمنزلة: كتف، وعَلِم، فأسكن. فكذلك يسكن على هذا «ويصبر».

(اللغة): الإزجاء في اللغة: السوق والدفع قليلاً قليلاً. ومنه: قوله: يزجي سحاباً. قال النابغة:

وَهَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذِي أُرُلٍ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَّادِها صِرَماً[1]

وفلان يزجي العيش أي: يدفع بالقليل، ويكتفي به. قال الأعشى:

الوَاهِبِ الْمِائَةَ الهِجَانَ، وَعَبْدَها عُوذاً يُزَجِّي خَلْفَها أَطْفَالَها[2]

أي: يدفع. وقال آخر:

وَحَاجَةً غَيْرِ مُزْجَاةٍ مِنَ الحَاجِ

---

(١) أرل: جبل بأرض غطفان. وصرم: جمع صرمة، قطع السحاب. وصرّاد: شدّة البرد. وضمير «صرّادها» للريح، وهذا من إحدى القصائد المبدوّة ببانت سعاد، ومطلعها: بانت سعاد وامسى حبلها انجذها.

(٢) الشعر في جامع الشواهد، وكذا الواهب إلخ.

وإنّما قيل: بيضاعة مزجاة؛ لأنّها يسيرة ناقصة. وإنّما يجوز ذلك على دفع من أخذها. والمن: النعمة، وأصله القطع؛ لأنّها تقطع المنعم عليه من حال بؤسه. والإيثار: تفضيل أحد الشيئين على الآخر، ونظيره الإختيار، والإجتباء ونقيضه: الإيثار عليه، وأصله من الأثر، فإنّه يؤثر من له أثر جميل. والأثر: الاخبار، يقال: أثر يأثر. والمأثرة، المكرمة؛ لأنّها تؤثر. والخطأ: ضدّ الصواب [الثواب]، يقال: خطأ الرجل يخطأ خطأ، وخطاءً فهو خاطيء، وأخطىء يخطِيءُ إخطاء، فهو مخطىء. قال إمرؤ القيس:

بُـا[يا] لَـهْفَ هِـنْدٍ إذْ خَـطِئْنَ كَـاهِلاً القَـاتِلِينَ الْـمَلِكَ الْـحُلاحِلا[1]

التثريب: التوبيخ. يقال: ثرب وأثرب وثرّب، ـ عن ابن الأعرابي ـ. وقيل: التثريب: اللوم، والإفساد والتقرير بالذنب. قال أبو عبيدة: وأصله: الإفساد. وأنشد:

فَـعَفَوْتُ عَـنْهُمْ عَـفْوَ غَـيْرِ مُـثَرِبٍ وَتَـرَكْـتُهُمْ لِـعِقَابِ يَـوْمٍ سَـرْمَدِ

وقال ثعلب: ثرب وأثرب فلان على فلان أي: عدَّد عليه ذنوبه. وقال أبو مسلم: هو مأخوذ من الثرب. وهو شحم الجوف، فكأنّه موضوع للمبالغة في اللوم، والتعنيف، والبلوغ بذلك إلى أقصى غاياته.

﴿الإعراب﴾: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾: إستفهام، والمراد به التقرير ما فعلتم بيوسف. تقديره: أيُّ شيء فعلتم بيوسف، فكأنّ ﴿مَا﴾ في موضع نصب، والجملة معلّقة بعلمتم. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في موضع الجزم؛ بأنّه جواب الشرط. وذكر ﴿الْمُحْسِنِين﴾ ناب عن الضمير العائد إلى ﴿مَنْ﴾؛ لأنّ الإتّقاء

---

(١) الحلاحل: السيّد العظيم، يريد به أباه. وكاهل: بطن من أسد، شركوا في دم أبيه. وهند: يقال هي أخته، ويقال هي زوجة أبيه. وفاعل «خطئن» ضمير يرجع إلى الخيل، يعني: تتأسّف أختي من أنّ الخيل لم يدركن من بني كاهل ثار أبي.

والصبر في معنى الإحسان، فكأنّه قال: لا يضيع جزاءه. ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: هذا لام الإبتداء. وأنت: مبتدأ. ويوسف: خبره. والجملة خبر «إنّ». ويجوز أن يكون «أنت» فصلاً، كما علمت فيما تقدّم.

وقوله: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ تثريب: نكرة مفردة مبنيّة ـ مع «لا» ـ على الفتح، ولا يجوز أن يتعلّق ﴿عَلَيْكُم﴾ به؛ إذ لو كان كذلك، لكان مشتبهاً بالمضاف من حيث يكون عاملاً فيما بعده، ويكون ﴿عَلَيْكُم﴾ من تمامه. وكان يجب أن يكون منصوباً منوّناً، كما تقول: لا مروراً بزيد عندك، وإذا عرفت هذا، فإنّ ﴿عَلَيْكُم﴾ هيهنا فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون في موضع الخبر على تقدير: لا تثريب يثبت عليكم، أو ثابت عليكم، ثمّ حذف ذلك، وإنتقل الضمير منه إلى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حيث سدَّ مسدّه.

والآخر: أن يتعلّق بمضمر ذلك المضمر وصف لتثريب.

وعلى هذا فيجوز فيه وجهان: **أحدهما**: أن يكون في محلّ رفع، تقديره: لا تثريب ثابت عليكم، كما تقول: لا رجل ظريف. والآخر: أن يكون في محلّ نصب، تقديره: لا تثريب ثابتاً عليكم، كما تقول: لا رجل ظريفاً. ثمّ حذفت الصفة، وقام الظرف مقامه. ويكون ﴿الْيَوْم﴾ على هذا الوجه خبر «لا». وعلى الوجه الأوّل يجوز أن يكون خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون متعلّقاً بالضمير الذي في الخبر. ويجوز أن يكون قد تمَّ الكلام عند قوله: ﴿عَلَيْكُم﴾ وتعلّق ﴿الْيَوْم﴾ بما بعده، فيكون تقديره: اليوم يغفر الله لكم، وهذا إختيار الأخفش. وهكذا الكلام في قوله: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

المعنى: ولمّا قال يعقوب لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ خرجوا إلى مصر ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي: أصابنا، ومن يختصّ بنا الجوع، والحاجة، والشدّة من السنين

الشدائد القحاط. وقيل: إنّهم شكوا ما نالهم من هلاك مواشيهم، والبلاء الذي أصابهم.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي: ندافع بها الأيّام ونتقوّتها، وليست ممّا يتّسع به. وقيل: رديئة لا تؤخذ إلاّ بوَكس[١]، ـ عن ابن عباس، والجبائي ـ. وقيل: قليلة، ـ عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأبي مسلم ـ.

وأختلف في تلك البضاعة، فقيل: كانت دراهم رديئة زبو[يو]فاً، لا تنفق في ثمن الطعام، ـ عن عكرمة، عن ابن عباس ـ. وقيل: كانت خلق الغرارة والحبل، ورثّ المتاع، عن ابن أبي مليكة عنه ـ. وقيل: كانت متاع الأَعراب الصوف والسمن، ـ عن عبدالله بن الحرث ـ. وقيل: الصنوبر، والحبّة الخضراء، ـ عن الكلبي، ومقاتل ـ. وقيل: دراهم فسول[٢]، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: كانت أَقطاً، ـ عن الحسن ـ. وقيل: النعال والأدم، ـ عن الضحّاك ـ، وعنه أيضاً: أنّها سويق المقل.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ كما كنت توفي في السنين الماضية، ولا تنظر إلى قلّة بضاعتنا في هذه السنة.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: سامحنا بما بين النقدين، وسعّر لنا بالرديء، كما تسعّر بالجيّد. وقيل: معناه: تصدّق علينا بردّ أخينا، ـ عن ابن جريج والضحّاك ـ.

﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي: يثيبهم على صدقاتهم بأفضل منها. وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن الحسن بن محبوب، عن أبي إسماعيل الفرّاء، عن طربال، عن أبي عبدالله عليه السلام في خبر طويل: إنّ يعقوب كتب إلى يوسف:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى عزيز مصر، ومظهر العدل، وموفي الكيل، من

---

[١] الوَكْس: النقص.

[٢] الفِسل: المزيّف الرديء. وهي هنا الدراهم السوداء.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صاحب نمرود، الذي جمع له النار ليحرقه بها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأنجاه منها. أُخبرك أيّها العزيز: إنّا أهل بيت، لم يزل البلاء إلينا سريعاً من الله؛ ليبلونا عند السرّاء والضرّاء، وأنّ المصائب تتابعت على عشرين سنة، أوّلها أنّه كان لي ابن سمّيته يوسف، وكان سروري من بين ولدي، وقرّة عيني، وثمرة فؤادي، أَنّ إخوته من غير أُمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع ويلعب، فبعثته معهم بكرة، فجاؤني عشاءً يبكون، وجاؤا على قميصه بدم كذب، وزعموا أنّ الذئب أكله. فإشتدّ لفقده حزني، وكثر عن فراقه بكائي، حتى إبيضّت عيناي من الحزن، وإنّه كان له أخ، وكنت به معجباً، وكان لي أنيساً، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري، فسكن بعد [بعض] ما أجد في صدري، وأنّ إخوته ذكروا لي أنّك سألتهم عنه، وأمرتهم أن يأتوك به، فإن لم يأتوك به منعتهم الميرة، فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً، فرجعوا إليَّ، وليس هو معهم، وذكروا أنّه سرق مكيال الملك، ونحن أهل البيت لا نسرق، وقد حبسته عنّي وفجعتني به، وقد إشتدّ لفراقة حزني، حتى تقوّس لذلك ظهري، وعظمت به مصيبتي، مع مصائب تتابعت عليَّ، فَمنَّ عليّ بتخلية سبيله، وإطلاقه من حبسك، وطيّب لنا الفتح [القمح]، وإسمع لنا في السعر، وأوف لنا الكيل، وعجّل سراح آل إبراهيم.

قال: فمضوا بكتابه، حتى دخلوا على يوسف في دار الملك، وقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ إلى آخر الآية. وتصدّق علينا بأخينا ابن يامين، وهذا كتاب أبينا يعقوب إليك في أمره، يسألك تخلية سبيله، فمُنَّ به علينا. فأخذ يوسف كتاب يعقوب، وقبّله ووضعه على عينيه، وبكى وانتحت [إنتحب]، حتى بلّت دموعه القميص الذي عليه.

ثم أقبل عليهم و﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ومعناه: أنّه قال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف من إذلاله، وإبعاده عن أبيه، وإلقائه في البئر،

والإجتماع على قتله، وبيعه بثمن وكس، وما فعلتم بأخيه من إفراده عن يوسف، والتفريق بينهما، حتى صار ذليلاً فيما بينكم، لا يكلّمكم إلاّ كما يكلّم الذليل العزيز؟ وإنّما لم يذكر أباه يعقوب، مع عظم ما دخل عليه من الغمّ لفراقه؛ تعظيماً له، ورفعاً من قدره، وعلماً أنّ ذلك كان بلاء له؛ ليزداد به علوّ الدرجة، ورفعة المنزلة عند الله تعالى.

قال ابن الأنباري: هذا إستفهام، يعنى به تعظيم القصّة، ومعناه: ما أعظم ما إرتكبتم، وما أقبح ما أتيتم من قطيعة الرحم، وتضييع حقّه، كما يقول الرجل: هل تدري من عصيت. وفي هذه الآية مصداق قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُون﴾ أي: صبيان، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: شُبّان، ـ عن الحسن ـ، ومعناه: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين جاهليّة الصبي في عنفوان الشباب، حين يغلب على الإنسان الجهل، ولم ينسبهم إلى الجهل في حال الخطاب؛ لأنّهم كانوا تائبين نادمين في تلك الحال، وكان هذا تلقيناً لهم يعتذرون به إليه وهذا هو الغاية في الكرم؛ إذ صفح عنهم، ولقنهم وجه العذر، وقالوا: أإنّك لأنت يوسف؟ قيل: إنّ يوسف لمّا قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ الآية. تبسّم، فلمّا أبصروا ثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم، شبّهوه بيوسف، و﴿قَالُوا﴾ له ﴿أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفَ﴾ ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: رفع التاج عن رأسه، فعرفوه.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُف﴾ أظهر الإسم، ولم يقل: أنا هو؛ تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته، فكأنّه قال: أنا المظلوم المستحلّ منه المحرّم، المراد، قتله، فكفي ظهور الإسم من هذه المعاني، ـ عن ابن الأنباري ـ قال: ولهذا قال ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ لأن قصده، وهذا الظلوم [المظلوم] كظلمي.

﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بالإجتماع بعد طول الفرقة. وقيل: منَّ الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي: يتّق الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على المصائب،

وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أجر من كان هذا حاله. والضياع: ذهاب الشيء من غير عوض.

﴿قَالُوا تَاللهِ﴾ أي: أقسموا بالله سبحانه ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك وإختارك الله علينا بالحلم، والعلم، والعقل، والحسن، والملك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أي: ما كنّا إلاّ مخطئين آثمين فيما فعلنا. وهذا يدلّ على أنّهم ندموا على ما فعلوا، ولم يصرُّوا عليه.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا تعيير، ولا توبيخ ولا تقريع عليكم الآن فيما فعلتم.

﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، فإنّي أستغفر الله لكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في عفوه عنكم ما تقدّم من ذنبكم. وقيل: في صنيعه بي، حتى جعلني ملكاً. وقيل: أراد باليوم: الزمان، فتدخل فيه الأوقات كلّها، كما قال الشاعر:

فَالْيَومَ يَرْحَمُنا مَنْ كَانَ يَغْبِطُنا وَالْيَوْمَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوا لَنا تَبَعاً

وقيل: إنّ الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ ثمّ إبتدأ بقوله: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ وهو دعاء لهم.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ قيل: إنّه عليه السلام لمّا عرفهم نفسه، سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه. فقال: إذهبوا بقميصي هذا، وإطرحوه على وجهه، يعدّ مبصراً، كما كان من قبل. قال ابن عباس ﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾: يرتدّ بصيراً، ويذهب البياض الذي على عينيه.

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إذا عاد بصيراً، وهذا كان معجزاً منه؛ إذ لا يعرف أنّه يعود بصيراً بإلقاء القميص على وجهه، إلاّ بالوحي. وقيل: إنّ يوسف قال إنّما يذهب بقميصي من ذهب به أوّلاً. فقال يهوذا: أنا ذهبت به، وهو ملطّخ بالدم، فأخبرته أنّه أكله الذئب. قال: فإذهب بهذا أيضاً، وأخبره أنّه حيٌّ، وأفرحه كما حزنته. فحمل القميص، وخرج حافياً حاسراً حتى أتاه، وكان معه سبعة أرغفة،

وكانت مسافة بينهما ثمانين فرسخاً، فلم يستوف الأرغفة في الطريق، وقد ذكرنا شأن القميص من قبل.

وروى أيضاً الواحدي بإسناده، يرفعه إلى أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: إنّ نمرود الجبار لمّا ألقي إبراهيم في النار، نزل إليه جبرائيل بقميص من الجنّة، وطنفسة من الجنّة، فألبسه القميص، وأقعده على الطنفسة[١]، وقعد معه يحدّثه، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قصبة من فضّة، وعلّقها في عنقه، فأُلقي في الجبّ والقميص في عنقه، فذلك قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وقال ابن عباس: أخرج لهم قصبة من فضّة، كانت في عنقه، لم يعلم بها إخوته فيها قميص، وهو الذي نزل به جبرائيل على إبراهيم. وذكر القصّة. وقال مجاهد: أمره جبرائيل أنْ أرسل إليه قميصك، فإنّ فيه ريح الجنّة، لا يقع على مبتلى، ولا سقيم، إلاّ صحَّ وعوفي.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(اللغة): الفصل: أصله القطع. ومنه: قيل للحاكم: فيصل؛ لأنّه يقطع الأمور.

---

(١) أثبت الياء من «تفنّدون» يعقوب فقط. وفتحها من «إنّي أعلم» الحرميان، وأبو عمرو. وإذا وقف حمزة على «خاطئين» حذف الهمزة، وأبو جعفر مطلقاً.

[١] الطنفسة: البساط.

والتفنيد: تضعيف الرأي. قال:

يـا صـاحِبَيَّ دَعـا لَـوْمي، وَتَـفْنِيدي فَـلَيْسَ مـا فـاتَ مِـنْ أَمْـرٍ بِـمَرْدُودِ

والفند: ضعف الرأي. وقيل: إنّ أصله: الفساد. قال النابغة:

إِلَّا سُـلَيْمانَ إِذْ قـالَ الْـمَلِيكُ لَـهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ، فَـاحْدُدْها عَـنِ الْـفَنَدِ[1]

أي: امنعها عن الفساد.

المعنى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ﴾ أي: لمّا خرجت القافلة، وإنفصلت من مصر، متوجّهة نحو الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب لأولاد أولاده، الذين كانوا عنده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: وجد يعقوب ريح قميص يوسف عليه السلام، حين فصلت العير من مصر، وهو بفلسطين، من مسيرة عشر ليال. وقيل: من مسيرة ثماني ليال ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: من ثمانين فرسخاً، ـ عن الحسن ـ. وقيل: مسيرة شهر، ـ عن الأصمّ ـ. قال ابن عباس: هاجت ريح، فحملت بريح قميص يوسف عليه السلام إلى يعقوب. وذكر في القصّة أنّ الصبا إستأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف، قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها، فأتته بها، ولذلك يستروح كل محزون بريح الصبا. وقد أكثر الشعراء من ذكرها، فمن ذلك قولهم:

فَـإِنَّ الصَّـبا رِيـحُ إِذا مـا تَـنَسَّمَتْ عَـلىٰ نَـفْسِ مَـهْمُومٍ تَـجَلَّتْ هُـمُومُها

وقول أبي الصخر الهذلي:

إِذا قُلْتُ هٰذا حِينَ أَسْـلُو[أَثْلُو] يَـهيجُني نَسِيمُ الصَّبا مِنْ حَـيْثُ يَـطْلَعُ الْـفَجْرُ[2]

وقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ معناه: لولا أن تسفهوني، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: لولا أن تضعفوني في الرأي، ـ عن ابن إسحاق ـ. وقيل: لولا أن تكذّبوني. والفند: الكذب، ـ عن سعيد بن جبير، والسدّي، والضحّاك، وروي ذلك

---

(١) يعني: ليس يشبه النعمان بن المنذر إلاّ سليمان.

(٢) ريح الصبا: يهب في بلاد العرب بين المشرق والشمال، وتقابلها الدبور. وريح الشمال: تهب بين المغرب والقطب الشمالي، ومقابلها الجنوب، وأروحها الصبا.

أيضاً عن ابن عباس ـ. وقيل: لولا أن تهرموني، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. أي: تقولون إنّه شيخ قد هرم وخرف، وذهب عقله. وتقديره: إنّي أقطع أنّها ريح يوسف، لولا أن تفنّدون.

﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: قالوا له إشفاقاً عليه، وترحّماً: إنّك لفي ذهابك القديم، عن الصواب في حبّ يوسف عليه السلام، وإنّه كان عندهم أنّ يوسف قد مات منذ سنين، ولم يريدوا بذلك الضلال عن الدين، وإنّما أرادوا به المبالغة في حبّ يوسف، والأماني الفاسدة فيما كان يرجو من عوده بعد موته، ـ عن قتادة، والحسن ـ. وقيل: معناه: إنّك لفي شقائك القديم، ـ عن مقاتل ـ. وفي هذا دلالة على أنّ لفظ «القديم»، قد يطلق في اللغة على المتقدّم في الوجود.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا، ـ عن ابن عباس، وفي رواية أخرى عنه، أنّه مالك بن ذعر ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ أي: ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، فعاد بصيراً. قال الضحّاك: عاد إليه بصره بعد العمي، وقوّته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن، فقال للبشير: ما أدري ما أُثيبك به! هوّن الله عليك سكرات الموت.

﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنّي كنت أعلم أنّ الله يصدق رؤيا يوسف، ويكشف الشدائد عن أنبيائه بالصبر، وكنتم لا تعلمون ذلك. قال الحسن: كان الله سبحانه أعلمه بحياته، ولم يعلمه بمكانه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فيما فعلنا. ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إنّما لم يستغفر لهم في الحال؛ لأنّه أخّرهم إلى سحر ليلة الجمعة، ـ عن ابن عباس، وطاووس، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: أخّرهم إلى وقت السحر؛ لأنّه أقرب إلى إجابة الدعاء، ـ عن ابن مسعود، وإبراهيم التيمي، وابن جريج، وروي أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: إنّه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة، في نيف وعشرين سنة، ـ عن وهب ـ. وقيل: إنّه كان يقوم، ويصف أولاده خلفه عشرين سنة، يدعو، ويؤمّنون على دعائه

وإستغفاره لهم، حتى نزل قبول توبتهم[١]. وروي أنّ جبرائيل عليه السلام علّم يعقوب هذا الدعاء: «يا رجاء المؤمنين! لاتخيّب رجائي. ويا غوث المؤمنين أغثني! ويا عون المؤمنين! أعنّي. ويا حبيب التوّابين! تب عليَّ، وإستجب لهم».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا
لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ[٢] ﴿١٠٢﴾

الإعراب: دخول ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾، و﴿مِنْ تَأْوِيلِ

---

(١) إذ قبول التوبة تفضّل من الله تعالى، غير واجب بعد الندم.

(٢) يا أبت: مكتوب بالتاء في المصاحف، ووقف على الهاء ابن عامر، وابن كثير من السبعة. والباقون: بالتاء، كما في الرسم. ومضى الكلام في فتحها وكسرها، وكذا في «رؤياي» قريباً. وأدغم «قد جعلها» أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وهشام، وخلف. وإختلفوا في فتح الياء «من ربّي»؛ إذ «وإخوتي إنّ» و«يشاء أنّه» من إجتماع الهمزتين، سهّل ثانيتهما كالياء الحرميان، وأبو عمر، ولهم إبدالها واواً مكسورة.

﴿الْأَحَادِيثِ﴾ جائز أن يكون للتبعيض، فيكون المراد: آتيتني بعض الملك، وعلّمتني بعض تأويل الأحاديث. وجائز أن يكون لتبيين هذا الجنس من سائر الأجناس، فيكون المعنى: آتيتني الملك، وعلّمتني التأويل، عن الزجّاج قال: وقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ يدلّ على أن «مِن» هيهنا لتبيين الجنس، ومثله: قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾ أي: الرجس الذي هو وثن.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ منصوب على وجهين: أحدهما: أن يكون على الصفة لقوله: ﴿رَبِّ﴾ لأنّ المعنى: يا ربّي، فهو نداء مضاف في موضع نصب، فيكون ﴿فَاطِرَ ٱلسَّماوَاتِ﴾ صفة له. وجائز أن ينتصب على أنّه نداء ثان، على تقدير: يا فاطر السماوات، وذلك في موضع رفع بالإبتداء، ويكون خبره ﴿مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾، ويكون ﴿نُوحِيهِ إِلَيْك﴾ خبراً ثانياً. وإن شئت جعلت ﴿نُوحِيهِ﴾ هو الخبر، وجعلت ﴿ذَلِكَ﴾ في معنى «الذي»، وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾ صلته.

﴿المعنى﴾: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ هيهنا حذف، تقديره: فلمّا خرج يعقوب وأهله من أرضهم، وأتوا مصر، دخلوا على يوسف. وفي حديث ابن محبوب، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: إنّ يعقوب قال لولده: تحملوا إلى يوسف من يومكم هذا بأهلكم أجمعين. فساروا إليه ويعقوب معهم، وخالة يوسف أمّ يامين، فحثُّوا السير فرحاً وسروراً، تسعة أيّام إلى مصر. فلمّا دخلوا على يوسف في دار الملك، إعتنق أباه، وقبّله، وبكي، ورفعه ورفع خالته على سرير الملك. ثمّ دخل منزله، وإكتحل، وإدّهن، ولبس ثياب العزّ والملك. فلمّا رأوه سجدوا جميعاً؛ إعظاماً له، وشكراً لله عند ذلك، ولم يكن يوسف في تلك العشرين سنة يدّهن، ولا يكتحل، ولا يتطيّب، حتى جمع الله بينه وبين أبيه وإخوته.

وقيل: إنّ يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة، مع مايحتاج إليه في السفر، وسألهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين. فلمّا دنا يعقوب من مصر، تلقاه يوسف في الجند وأهل مصر، فقال يعقوب: يا يهوذا! هذا فرعون مصر. قال: لا هذا إبنك، ثمّ تلاقيا. قال الكلبي: على يوم من مصر، فلمّا دنا كل واحد منهما من صاحبه، بدأ يعقوب بالسلام، فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان! وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن محمّد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لمّا أقبل يعقوب إلى مصر، خرج يوسف ليستقبله، فلمّا رآه يوسف، همَّ بأن يترجل له، ثمّ نظر إلى ما هو فيه من الملك، فلم يفعل، فلمّا سلَّم على يعقوب، نزل عليه جبرائيل، فقال: يا يوسف! إنّ الله جلّ جلاله يقول: منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ما أنت فيه. أبسط يدك. فبسطها، فخرج من بين أصحابه نور. فقال: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: هذا أنّه لا يخرج من صلبك نبيّ أبداً؛ عقوبة بما صنعت بيعقوب؛ إذ لم تنزل إليه.

وقوله: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمَّهما إليه، وأنزلهما عنده. وقال أكثر المفسّرين: إنّه يعني بأبويه: أباه وخالته، فسمّي الخالة أُمّاً، كما سمّى العمّ أباً في قوله: ﴿وَإِلٰهَ آبائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وذلك أنّ أُمّه كانت قد ماتت في نفاسها بإبن يامين، فتزوّجها أبوه. وقيل: يريد أباه وأُمّه، وكانا حيّين، ـ عن ابن إسحاق والجبائي ـ. وقيل: إنّ راحيل أُمّه نشرت من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً للرؤيا، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَقَالَ﴾ لهم قبل دخولهم مصر ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ والإستثناء يعود إلى الأمن. وإنّما قال ﴿آمِنِينَ﴾؛ لأنّهم كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلا بجوازهم. قال وهب: إنهم دخلوا مصر، وهم ثلاثة وسبعون إنساناً، وخرجوا مع موسى، وهم ستّمائة ألف، وخمس مائة، وبضع

وسبعون رجلاً.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: رفعهما على سرير ملكه؛ إعظاماً لهما. والعرش: السرير الرفيع، ـ عن ابن عباس، والحسن، والقتادة ـ.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ أي: إنحطوا على وجوههم، وكانت تحيّة الناس بعضهم لبعض يومئذ السجود، والإنحناء، والتكفير، ـ عن قتادة ـ. ولم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله في شريعتهم، فأعطى الله تعالى هذه الأُمّة السلام، وهي تحيّة أهل الجنّة، عجلها لهم. قال أعشى بني [ابن] ثعلبة:

فَلَمّا أَتَانا بُعَيْدَ الْكَرَىٰ سَجَدْنا لَهُ، ورَفَعْنَا الْعَمارا[1]

وكان من سنة التعظيم يومئذ: أن يسجد للمعظم، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: كان سجودهم كهيئة الركوع، كما يفعل الأعاجم، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّ السجود كان لله تعالى شكراً له، كما يفعله الصالحون عند تجدّد النعم. والهاء في قوله: ﴿له﴾ عائدة إلى الله تعالى أي: سجدوا لله تعالى على هذه النعمة، وتوجّهوا في السجود إليه، كما يقال: صلّى للقبلة، ويراد به إستقبالها، ـ عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

قال عليّ بن إبراهيم، وحدّثني محمّد بن عيسى بن عبيد بن يقطين: أنّ يحيى بن أكثم [أكتم]، سأل موسى بن محمّد بن عليّ بن موسى مسائل، فعرضها على أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام، فكان إحداها أن قال: أخبرني أسجد يعقوب وولده ليوسف، وهم أنبياء؟ فأجاب أبوالحسن عليه السلام: أمّا سجود يعقوب وولده، فإنّه

---

(١) عَمارة ـ بفتح العين ـ: كل شيء تجعله على رأسك، والعمار: جمعه، يعني: وضعناه من رؤسنا إعظاماً ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: عمار: رفع الصوت يقول: عمرك الله. وقيل: هو الريحان، ورفعه كان تحيّة.

لم يكن ليوسف، وإنّما كان ذلك منهم طاعة لله، وتحيّة ليوسف، كما أنّ السجود من الملائكة لآدم كان منهم طاعة لله، وتحيّة لآدم. فسجد يعقوب وولده، ويوسف معهم؛ شكراً لله تعالى؛ لإجتماع شملهم. ألم تر أنّه في شكره في ذلك الوقت ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ الآية. الخبر بتمامه.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ أي: هذا تفسير رؤياي، أو تصديق رؤياي التي رأيتها[1].

﴿مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ أي: صدقاً في اليقظة. وقيل: كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانون سنة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: سبعون سنة، ـ عن عبدالله بن شوذب ـ. وقيل: أربعون سنة، ـ عن سلمان الفارسي، وعبدالله بن شداد ـ. وقيل: إثنتان وعشرون سنة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: ثماني عشرة سنة، ـ عن ابن إسحاق ـ. [قال ابن إسحاق]: وولد ليوسف من إمرأة العزيز أفرايم، وميشا، ورحمة ـ إمرأة أيّوب ـ، وكان بين يوسف وبين موسى أربعمائة سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: وقد أحسن ربّي إلي حيث أخرجني من السجن، وأنعم عليَّ به.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: من البادية، فإنّهم كانوا يسكنون البادية، ويرعون أغنامهم فيها، فكانت مواشيهم قد هلكت في تلك السنين بالقحط،

---

(١) الرؤيا من أعظم آيات الله، يرغّم بها أنوف الملاحدة، يثبت بها وجود عالم روحانيّ مجرد ثابت فيه صور ما سيقع قبل أن يقع؛ إذ لايمكن أن يكون مايري من الحوادث الآتية بعينها قبل وجودها، ولا أن يستنبطها الحاكم بعقله، فلابدّ من وجود صور تلك الحوادث في عالم آخر ترتبط النفوس به فيطّلع عليها، وليس للملاحدة هنا إلاّ الضحك والسخريّة، وأنّ المنام ليس من الأدلّة التي يعتمد عليها العقلاء، بل من خرافات العجائز، وهذا حمق؛ لأنّ مايستدلّ به على أمر عظيم ليس خرافة.

فأغناهم الله تعالى بمصيرهم إلى يوسف. وإنّما بدأ عليه السلام بالسجن في تعداد نعم الله دون إخراجه من الجبّ كرما لئلاّ يبدأ بصنيع إخوته به. وقيل: لأنّ نعم الله تعالى في إخراجه من السجن كانت أكثر؛ ولأنّ السجن طالت مدّته، وكثرت محنته.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، وحرش بيني وبينهم. وقال ابن عباس: معناه: دخل بيننا بالحسد.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف في تدبير عباده، يدبّر أمرهم على ما يشاء، ويسهّل لهم العسير، وبلطفه حصلت هذه النعم علينا من الإجتماع وغيره. قال الأزهري: اللطيف: من أسماء الله سبحانه، معناه: الرفيق بعباده. يقال: لطف فلان بفلان لطفاً: إذا رفق. وقال غيره: اللطيف: الذي يوصل إليك اربك في رفق. وقيل: اللطيف: العالم بدقائق الأمور.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل التدابير. وفي كتاب النبوّة، بالإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال يعقوب ليوسف: يابنيّ! حدّثني كيف صنع بك إخوتك؟ قال: يا أبه! دعني.

فقال: أقسمت عليك إلاّ أخبرتني. فقال له: أخذوني وأقعدوني على رأس الجبّ، ثمّ قالوا لي: إنزع قميصك، فقلت لهم: إنّي أسألكم بوجه أبي يعقوب، أن لا تنزعوا قميصي، ولا تبدوا عورتي. فرفع فلان السكين عليّ، وقال: إنزع. فصاح يعقوب، فسقط مغشياً عليه، ثمّ أفاق، فقال له: يا بنيّ! كيف صنعوا بك؟ فقال يوسف: إنّي أسألك بآله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلاّ أعفيتني. قال: فتركه.

وروي أيضاً أنّ يوسف قال ليعقوب عليه السلام: يا أبه لا تسألني عن صنيع إخوتي بي، وسل عن صنع الله بي. قال أبو حمزة: بلغنا أنّ يعقوب عاش مائة وسبعاً

وأربعين سنة، ودخل مصر على يوسف، وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وكان عند يوسف بمصر سبع عشرة سنة. وقال ابن إسحاق: أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة، ثمّ توفّي، ودفن بالشام. وقال سعيد بن جبير: نقل يعقوب إلى بيت المقدس في تابوت من ساج، ووافق ذلك يوم مات عيصو، فدفنا في قبر واحد، فمن ثمّ ينقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس. وولد يعقوب وعيصو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد، وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة.

ثمّ رجع يوسف إلى مصر بعد أن دفن أباه في بيت المقدس، عن وصية منه إليه، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة. وكان أوّل رسول في بني إسرائيل، ثمّ مات، وأوصي أن يدفن عند قبور آبائه. وقيل: دفن بمصر، ثمّ أخرج موسى عظامه، حتى دفنه عند أبيه. وقيل: أفضت النبوّة بعده إلى روبيل، ثمّ إلى يهوذا.

وفي كتاب النبوّة، بالإسناد عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين. قلت: فمن كان الحجّة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب الحجّة، وكان الملك ليوسف. فلمّا مات يعقوب، حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام، فدفنه في بيت المقدس، فكان يوسف بعد يعقوب الحجّة. قلت: وكان يوسف رسولاً نبيّاً؟ قال: نعم، أما تسمع قوله عزّوجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وبالإسناد عن أبي خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: دخل يوسف السجن، وهو ابن إثنتي عشرة سنة، ومكث فيها ثماني عشرة سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك مائة سنة، وعشر سنين. قالوا: ولمّا جمع الله سبحانه ليوسف شمله، وأقرَّ له عينه، وأتمَّ له رؤياه، ووسع عليه في ملك الدنيا ونعيمها، علم أنّ ذلك لا يبقي له، ولا يدوم، فطلب من الله سبحانه نعيماً لا يفني، وتاقت نفسه إلى الجنّة، فتمنّي

الموت، ودعا به، ولم يتمنّ ذلك نبيّ قبله، ولا بعده تمنّى أحد، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ﴾ أي: أعطيتني ملك النبوة، وملك مصر.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[1] أي: تأويل الرؤيا ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالق السموات والأرض، ومنشئهما لا على مثال سبق ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ أي: ناصري، ومدبّري، وحافظي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تتولّي فيهما إصلاح معاشي، ومعادي.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ قال ابن عباس: ما تمنّى نبيّ تعجيل الممات إلاّ يوسف؛ لمّا إنتظمت أسباب مملكته، إشتاق إلى ربّه. وقيل: معناه: ثبّتني على الإيمان إلى وقت الممات، وأمتني مسلماً.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بأهل الجنّة من الأنبياء، والأولياء، والصديقين.

وقيل: لمّا جمع الله سبحانه بينه وبين أبويه وإخوته، أحبّ أن يجتمع مع آبائه في الجنّة، فدعا بذا الدعاء. والمعنى: ألحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم. قيل: فتوفّاه الله تعالى بمصر وهو نبيّ، فدفن في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنّه لما مات، تشاحّ الناس عليه، كلٌّ يحبُّ أن يدفن في محلّته؛ لما كانوا يرجون من بركته، فرأوا أن يدفنوه في النيل، فيمرّ الماء عليه ثمّ يصل إلى جميع مصر، فيكون

---

(١) تأويل الأحاديث والأحلام: تجريد المعاني فيها عن الصور المتخيّلة التي تتمثّل المعاني فيها، وذلك لأنّ المعنى كسنى القحط الملقى من عالم الأرواح الى نفس الحالم، تتمثّل بتصرّف المتخيّلة في صورة مناسبة، كسبع بقرات عجاف، أو سبع سنابل يابسات، وقد تتمثّل شيء في صورة شيء آخر، كتمثّل يعقوب عليه السلام في صورة الشمس، والإخوة في صورة النجوم. وتأويل الرؤيا: تجريد الصور، وبيان مايؤول إليه الرؤيا، وذكر الشيخ ابن سينا في آخر الإشارات مايشفي الغليل، ويروى العليل في ذلك.

كلّهم فيه شركاء، وفي بركته شرعاً سواء. فكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام حين خرج من مصر.

ثمّ عاد سبحانه بعد تمام القصّة إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي قصصت عليك من قصّة يوسف يا محمّد ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من جملة أخبار الغيب ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ على ألسنة الملائكة؛ لتخبر به قومك، ويكون دلالة على إثبات نبوّتك، ومعجزة دالّة على صدقك.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: وما كنت يا محمّد عند أولاد يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ إذ عزموا على إلقائه في البئر، وإجتمعت آراؤهم عليه.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: يحتالون في أمر يوسف، حتى ألقوه في الجبّ، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يمكرون بيوسف، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ.

وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة عكرمة، وعمرو بن فائد[1]: ﴿وَالْأَرْضُ يَمُرُّونَ

---

(١) لا أعرفه. وقرء ابن كثير: كائن، على وزن «فاعل» ووقف أبو عمرو على ياء مشدّدة كأنّها منوّنة أسقط تنوينها. والباقون: بنون ساكنة.

﴿عَلَيْهَا﴾ ـ بالرفع ـ. وقراءة السدّي: ﴿وَالْأَرْضَ﴾ ـ نصباً ـ. والقراءة المشهورة: بالجرّ.

﴿الحجة﴾: من رفع أو نصب، وقف على السماوات، ثمّ إبتدأ: والأرض، فالرفع على الإبتداء، والجملة بعدها خبره، والعائد إلى المبتدأ الهاء من «عليها»، والضمير في «عنها» عائد إلى الآية. وأمّا النصب فبفعل مضمر، تقديره: ويطأون الأرض. ويؤيّد ذلك قراءة ابن مسعود: يمشون عليها، فلمّا أضمر الفعل الناصب، فسّره بقوله: يمرّون عليها. ومن جرَّ «الأرض» على قراءة القرّاء، فإن شاء وقف على «الأرض»، وإن شاء وقف آخر الآية.

﴿اللغة﴾: الحرص: طلب الشيء بإجتهاد في إصابته. والعالم: الجماعة من الحيوان التي من شأنها أن تعلم، مأخوذ من العلم. وقيل: لما حواه الفلك [عالم] على سبيل التبع للحيوان الذي ينتفع به، وهو مخلوق لأجله. والغاشية: المجلّلة للشيء بإنبساطها عليه، وغشيه يغشاه: إذا غطاه. والغشاء: الغطاء. والبغتة: الفجأة، وهي مجيء الشيء من غير توقّع.

﴿الإعراب﴾: «وكأيّن» في معنى «كم»، وأصلها: أيّ، دخلت عليها «الكاف». وبغتة: مصدر وضع موضع الحال، تقول: لقيته بغتة، وفجاءة.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدَّم ذكر الآيات، والمعجزات التي لو تفكّروا فيها عرفوا الحقّ من جهتها، فلم يتفكّروا، بيَّن عقيبها أنّ التقصير من جهتهم، حيث رضوا بالجهل، وليس من جهته سبحانه؛ لأنّه نصب الأدلّة والبيّنات، ولا من جهتك؛ لأنّك دعوتهم، فقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليس أكثر الناس بمصدِّقين، ولو حرصت على إيمانهم وتصديقهم، واجتهدت في دعائهم إليه، وإرشادهم إليه؛ لأنّ حرص الداعي لا يغني شيئاً إذا كان المدعوّ لا يجيب.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ولا تسألهم على تبليغ الرسالة، وبيان الشريعة أجراً، فيصدّهم ذلك عن القبول، ويمنعهم من الإيمان، ويثقل عليهم ما يلزمهم من الغرامة، فأعذارهم منقطعة.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما القرآن إلاّ موعظة، وعبرة، وتذكير للخلق أجمعين. فلست بنذير لهؤلاء خاصّة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: كم من حجّة ودلالة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تدلّ على وحدانيّة الله تعالى، من الشمس والقمر، والنجوم في السماء، ومن الجبال والشجر، وألوان النبات، وأحوال المتقدّمين، وآثار الأمم السالفة، في الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويبصرونها، ويشاهدونها.

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: هم عن التفكّر فيها، والإعتبار بها معرضون، لا يتفكّرون فيها، يعني: الكفّار.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إنّهم مشركوا قريش، كانوا يقرُّون بالله خالقاً ومحيياً ومميتاً، ويعبدون الأصنام، ويدعونها آلهة مع أنّهم كانوا يقولون الله ربّنا وآلهنا يرزقنا، فكانوا مشركين بذلك، ـ عن ابن عباس، والجبائي ـ.

وثانيها: إنها نزلت في مشركي العرب؛ إذ سألوا من خلق السماوات والأرض، وينزل المطر؟ قالوا: الله، ثمّ هم يشركون. وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، ـ عن الضحّاك ـ.

وثالثها: إنّهم أهل الكتاب، آمنوا بالله واليوم الآخر، والتوراة والإنجيل، ثمّ أشركوا بإنكار القرآن، وإنكار نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ، ـ عن الحسن ـ. وهذا القول مع ما تقدّمه رواه دارم بن قبيصة، عن عليّ بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جدّه،

عن أبي عبدالله عليه السلام.

ورابعها: إنّهم المنافقون، يظهرون الإيمان، ويشركون في السرّ، ـ عن البلخي ـ.

وخامسها: إنّهم المشبهة، آمنوا في الجملة، وأشركوا في التفصيل، وروي ذلك عن ابن عباس.

وسادسها: إنّ المراد بالإشراك: شرك الطاعة، لا شرك العبادة، أطاعوا الشيطان في المعاصي التي يرتكبونها، ممّا أوجب الله عليها النار، فأشركوا بالله في طاعته، ولم يشركوا بالله شرك عبادة، فيعبدون معه غيره، ـ عن أبي جعفر عليه السلام ـ. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لضاع عيالي، جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه، ويدفع عنه. فقيل له: لو قال: لولا أن منَّ الله عليَّ بفلان لهلكت؟ فقال: لا بأس بهذا. وفي رواية زرارة، ومحمّد بن مسلم، وحمران، عنهما عليهما السلام: إنّه شرك النعم. وروي محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: إنّه شرك لا يبلغ به الكفر.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ أي: أفأمن هؤلاء الكافرون أن يأتيهم عذاب من الله سبحانه، يُعمُّهم، ويحيط بهم، وهي من غاشية السرج؛ لأنّها تعمّه بالستر. وإنّما أتي بلفظة التأنيث، على تقدير العقوبة أي: عقوبة مجلّلة لجميعهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو عذاب الإستئصال، ـ عن مجاهد، وأبي مسلم ـ. وقيل: هي الصواعق والقوارع، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة على غفلة منهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها. قال ابن عباس: تهجم الصيحة بالناس، وهم في أسواقهم.

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ (١)
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ـ بالنون حيث كان ـ. وقرأ الباقون: يوحَى ـ بالياء وفتح الحاء ـ. ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾ ذكرنا الخلاف فيه في سورة الأنعام.

الحجة: قال أبو عليّ: الوجه في النون، قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾. والوجه في الياء، قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾. و﴿قُلْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

اللغة: السبيل: الطريق، وهو المكان المهيّأ للسلوك. وديـن الإسلام: طريق يؤدّي إلى الجنّة. والسبيل: يذكّر ويؤنث. قال:

فَلاَ تَبْعُدْ فَكُلُّ بَنِي أُنَاسٍ سَيُصْبِحُ سَالِكاً تِلْكَ السَّبِيلا

والبصيرة: ما يبصر به الشيء أي: يعرف. والسير: المرور الممتدّ في جهة، ومنه: السير، واحد السيور؛ لإمتداده في جهة.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ، أن يبيّن للمشركين ما يدعو إليه، فقال

---

(١) «سبيلي أدعوا»: ممّا إختلفوا في فتح الياء. وإتّفقوا على إثبات الياء من «ومن إتّبعني».

﴿قُلْ﴾ يامحمّد لهم ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي وسنّتي ومنهاجي، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: معناه: هذه الدعوة التي أدعوا إليها، ديني وطريقي، ـ عن مقاتل، والجبائي ـ.

ثمّ فسَّر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو إلى توحيد الله، وعدله، ودينه، على يقين، ومعرفة، وحجّة قاطعة، لا على وجه التقليد.

﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ أي: أدعوكم أنا، ويدعوكم أيضاً إليه من آمن بي، ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهي عن معاصي الله. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتمَّ الكلام عند قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ ثمّ إبتدأ، وقال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ وهذا معنى قول ابن عباس إنّه يعني: أصحاب محمّد ﷺ، كانوا على أحسن طريقة.

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ معناه: تنزيهاً لله عمّا أشركوا، وتقديره: قل هذه سبيلي، وقل سبحان الله. وقيل: إنّه إعتراض بين الكلامين، والواو فيه مثل قولك: قال الله، وهو منزّه عن الشركاء، سبحان الله.

﴿وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين إتّخذوا مع الله نِدّاً وكفواً وولداً. وفي هذه الآية دلالة على فضل الدعاء إلى الله سبحانه، وإلى توحيده وعدله، ويعضد ذلك الحديث عنه ﷺ، أنّه قال: العلماء أُمناء الرسل على عباده. وفيها دلالة أيضاً على أنّه ﷺ كان يدعوا إلى الله في كل أوقاته، وإن كان يبيّن الشرائع في أوقات مّا. وفيها دلالة أيضاً على أنّ الواجب في الداعي أن يكون على ثقة وبصيرة ودلالة قاطعة، وذلك يوجب فساد التقليد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ بيّن سبحانه أنّه إنّما أرسل الرسل من أهل الأمصار؛ لأنّهم أرجح عقلاً وعملاً [علماً] من أهل

البوادي؛ لبعد أهل البوادي عن العلم وأهله، ـ عن قتادة ـ. وقال الحسن: لم يبعث الله نبيّاً قطّ من أهل البادية، ولا من الجنّ، ولا من النساء، وذلك أنّ أهل البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، وأهل الأمصار أحد فطناً.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوّتك يا محمّد في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأُمم المكذّبين لرسلهم، وكيف أهلكهم الله بعذاب الإستئصال فيعتبروا بهم، ويحذروا مثل ما أصابهم.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يقول: هذا صنيعنا بأهل الإيمان والطاعة في دار الدنيا؛ إذ أَهلكنا عدوَّهم، ونجّيناهم من شرّهم، ولدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا ونعيمها. وروي أبو سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: لشبر من الجنّة خير من الدنيا وما فيها.

قال الزجّاج: قال الله سبحانه في غير هذا الموضع: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: فالآخرة نعت للدار؛ لأنّ لجميع الخلق دارين: الدار التي خلقوا فيها، وهي الدنيا، والدار الآخرة: هي التي يعادون فيها خلقاً جديداً. فإذا قال: دار الآخرة، فكأنّه قال: دار الحال الآخرة؛ لأنّ للناس حالين: حال الدنيا، وحال الآخرة. ومثل هذا في الكلام، الصلاة الأولى، وصلاة الأولى، فمن قال: الصلاة الأولى: جعل الأولى نعتاً للصلاة، ومن قال: صلاة الأولى: أراد صلاة الفريضة الأولى، والساعة الأولى.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يفهمون ما قيل لهم، فيعلمون.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفه، وأبو جعفر: كذبوا ـ بالتخفيف ـ، وهي قراءة عليّ، وزين العابدين، ومحمّد بن علي، وجعفر بن محمّد عليهم السلام، وزيد بن عليّ، وابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحّاك، والأعمش، وغيرهم[1]. وقرأ الباقون: كذّبوا ـ بالتشديد ـ، وهي قراءة عائشة، والحسن، وعطا، والزهري، وقتادة. وروي عن ابن عباس بخلاف، ومجاهد بخلاف: كذَبوا ـ بالتخفيف، وفتح الذال والكاف ـ، وقرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب، وسهل: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ ـ بنون واحدة، وتشديد الجيم، وفتح الياء ـ. وقرأ الباقون: فننجيْ من نشاء ـ بنونين، وتخفيف الجيم، وسكون الياء ـ. وفي الشواذّ، عن ابن محيصن: فَنجا ـ بفتح النون والجيم والتخفيف ـ. وعن عيسى الثقفي: ﴿وَلٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ برفع الأحرف الثلاثة،

---

(١) القرائة المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام، موافقة لقرائة أهل الكوفة، وكذلك لاتجد فيما روي المصنّف عن أهل البيت قرائة، إلاّ ولهم موافق من غيرهم إلاّ نادراً، فلايجوز أن يجعل الإختلاف في القرائة دليلاً على التحريف المتنازع فيه بيننا وبين الحشويّة، ولا على أنّ قرائتهم كانت من مصحف آخر خاصّ بهم غير المصحف المشهور؛ إذ لو كان كذلك، لم يكن من غيرهم موافق لهم في القرائة، ونعيد الكلام هنا بأنّ غير ما تواتر نقله، لايجوز القرائة به، وإن روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

والقراءة بنصبها.

الحجة: قال أبو عليّ: الضمير في «ظنّوا» في قول من شدّد «كذّبوا» للرسل، تقديره: ظنّ الرسل أي: تيقّنوا، أو ظنّوا الظنّ الذي هو حسبان. ومعنى كذبوا: تلقوا بالتكذيب، كقولهم: جبنته خطأته، وتكذيبهم إيّاهم يكون بأن يلقوا بذلك، كقولهم له: ﴿وَإِن نظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ أو بما يدلّ عليه، وإن خالفه في اللفظ.

ومن حجّة التثقيل قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿كذّبوا رُسُلي﴾، وقوله: ﴿ألا كذّب الرسل﴾.

وأمّا من خفّف فقال: كذبوا، فهو من قولهم: كذبتك الحديث أي: لم أصدقك. وفي التنزيل: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقياسه إذا إعتبر بالخلاف أن يتعدّى إلى مفعولين، كما تعدّى ﴿صَدَقَ﴾ في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وقال الأعشى:

فَصَدَقْتُهُ، وَكَذَبْتُهُ وَالْمَرءُ يَنْفَعُه كِذابُهُ

قال سيبويه: كذب يكذب كذباً، وقالوا: كذاباً، فجاؤا به على «فِعال». وقد خفّفه الأعشى. وقال ذو الرمة:

وَقَدْ حَلَفَتْ بِاللهِ مَيَّةُ مَاالّذي أَقُولُ لَها إلّا الَّذي أَنَا كاذِبُهُ[1]

والضمير الذي في قوله: وظنّوا أنّهم كذبوا للمرسل إليهم، وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبّوهم فيما أخبروهم به، من أنّهم إن لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب، وإنّما ظنّوا ذلك لما شاهدوه من إمهال الله إيّاهم، وإملائه لهم. فإن قلت: كيف يجوز

---

(١) أي: قد حلفت معشوقتي ميّة، أن ليس قولي إلاّ كذباً.

أن يحمل الضمير في «ظنّوا» على أنّه للمرسل إليهم الرسل، والذين قد تقدّم ذكرهم الرسل دون المرسل إليهم؟ قيل: إنّ ذلك لا يمتنع؛ لأنّ ذكر الرسل يدلّ على المرسل إليهم؛ لمقاربة أحد الإسمين الآخر؛ ولما في لفظ الرسل من الدلالة على المرسل إليهم. وقد قال الشاعر:

أمِنْكَ الْبَرْقُ أرْقُبُهُ فَهاجَا فَبِتُّ اِخالُهُ دُهْماً خِلاجاً

أي: بتّ أخال الرعد صوت دهم، فأضمر الرعد، ولم يجر له ذكر؛ لدلالة البرق عليه؛ لمقاربة لفظ كل واحد منهما للآخر. وفي التنزيل: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وإستغنى عن ذكر البرد؛ لدلالة الحرّ عليه. وإن شئت قلت: إنّ ذكرهم قد جري في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذّبي رسل الله، فإن ذهب ذاهب إلى أنّ المعنى ظنّ الرسل أنّ الذي وعد الله سبحانه أممهم على لسانهم قد كذبوا به، فقد أتى عظيماً لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء، ولا إلى صالحي عباداللّه تعالى، وكذلك من زعم أنّ ابن عباس ذهب إلى أنّ الرسل قد ضعفوا، فظنّوا أنّهم قد أخلفوا؛ لأنّ الله تعالى لا يخلف الميعاد.

حدّثنا أحمد بن محمّد قال: حدّثنا المؤمل قال: حدّثنا إسماعيل بن علية، عن أبي المعلى، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قال: إنّ الرسل يئسوا من قومهم أن يؤمنوا، وإن قومهم ظنّوا أنّ الرسل قد كذبوا فيما قالوا لهم أتاهم نصرالله عند ذلك. وأمّا قوله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ فإن نُنْجي حكاية للحال؛ لأنّ القصّة ممّا قد مضي، وإنّما حكي فعل الحال، كما كانت عليه، كما أنّ قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ حكاية للحال الكائنة، وكما كانت عليه، كما أنّ قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَو كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ جاء على الحكاية

للحال الكائنة، ومن ذلك قوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فلو لا حكاية الحال، لم يعمل إسم الفاعل؛ لأنّه إذا مضي إختصّ، وصار معهوداً ،فخرج بذلك من شبه الفعل.

ألاترى أنّ الفعل لا يكون معهوداً، فكما أنّ إسم الفاعل إذا وصف أو حقر، لم يعمل عمل الفعل؛ لزوال شبه الفعل عنه، بالإختصاص الذي يحدثه فيه التحقير والوصف، كذلك إذا كان ماضياً. وأمّا النون الثانية من «ننجي» فهي مخفاة مع الجيم، وكذلك النون مع سائر حروف الفم، لا تكون إلاّ مخفاة. قال أبو عثمان: تبيينها معها لحن، وللنون مع الحروف ثلاث أحوال: الإدغام، والإخفاء، والبيان.

وإنّما تدغم إذا كانت مع مقاربها، كما يدغم سائر المقاربة فيما يقاربه. والإخفاء، فيها مع حروف الفم التي لا تقاربها. والبيان فيها مع حروف الحلق. فأمّا حذف النون الثانية من الخطّ، فيشبه أن يكون لكراهة إجتماع المثلين فيه، ألاترى أنّهم كتبوا مثل: العليا والدنيا، ويحيا، ونحو ذلك بالألف، فلو لا إجتماعها مع الياء، لكتبت بالياء، كما كتبت: حبلى، ويخشى، وما لم يكن فيه ياء من هذا النحو بالياء، فكأنّهم لمّا كرهوا إجتماع المثلين في الخطّ، حذفوا النون. وقوّى ذلك أنّه لا يجوز فيها إلاّ الإخفاء، ولا يجوز فيها البيان، فأشبه بذلك الإدغام؛ لأنّ الإخفاء لا يبيّن فيه الحرف المخفي، كما أنّ الإدغام لا يبيّن فيه الحرف المدغم بيانه في غير الإدغام.

فلمّا وافق النون المدغم في هذا الوجه، أستجيز حذفه من الخطّ. ومن ذهب إلى أنّ النون الثانية مدغمة في الجيم، فقد غلط؛ لأنّها ليست مثل الجيم، ولا مقاربة لها.

وإذا خلا الحرف من هذين الوجهين، لم يدغم فيما إجتمع معه. ومن قرأ:

«فنجي» فإنّه أتي على لفظ الماضي، لأن القصّة ماضية، ويقوّي ذلك أنّه عطف عليه فعل مسند إلى المفعول به، وهو قوله: ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كان ﴿ننجي﴾ مسند إلى الفاعل، كقول من خالفه، لكان «لا نردّ بأسنا»، أشبه؛ ليكون مثل المعطوف عليه. ومن قرأ: ﴿تَصْدِيقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما بعده بالرفع، فيكون التقدير: لكن هو تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء. فحذف المبتدأ، وبقي الخبر.

اللغة: إستيأس: بمعنى يئس، كأنّه طلب اليأس لعلمه بإمتناع الأمر. والبأس: الشدّة، وهو شدّة الأمر على النفس. ومنه: البؤس: الفقر. ومنه: لا بأس عليك. والقصص: الخبر يتلوا بعضه بعضاً من أخبار من تقدّم. والعبرة: الدلالة التي تعبّر إلى البغية. والألباب: العقول، واحدها: لبّ، وإنّما سمّي بذلك؛ لأنّه أنفس شيء في الإنسان. ولبّ كل شيء: خياره.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه وتعالى عن حال الرسل مع أُممهم؛ تسلية للنبيّ ﷺ، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ﴾ وهيهنا حذف يدلّ الكلام عليه، وتقديره: إنّا أخّرنا العقاب عن الأُمم السالفة المكذّبة لرسلنا، كما أخّرناه عن أُمّتك يا محمّد، حتى إذا بلغوا إلى حالة يأس الرسل عن إيمانهم، وتحقّق يأسهم بإخبار الله تعالى إيّاهم ﴿وَظَنّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أي: تيقّن الرسل[1] أنّ قومهم كذّبوهم تكذيباً عاماً، حتى أنّه لا يصلح واحد منهم، ـ عن عائشة، والحسن، وقتادة، وأبي

---

(١) وذلك لأنّ الظنّ قد يستعمل بمعنى العلم مجازاً أو بالإشتراك اللفظي، كما أنّ العلم قد يطلق على الظنّ مجازاً، ولايجوز أن يجعل أمثال ذلك دليلاً على أنّ العلم والظنّ في اللغة شيء واحد، وهو الإعتقاد الراجح، كما قد يتوهّم، بل العلم حقيقة هو الإعتقاد الجازم، المطابق للواقع، والظنّ بخلافه.

عليّ الجبائي ـ. ومن خفّف، فمعناه: ظنّ الأمم أنّ الرسل كذّبوهم فيما أخبروهم من نصر الله إيّاهم، وإهلاك أَعدائهم، ـ عن ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد، والضحّاك، وأبي مسلم ـ. وقيل: يجوز أن يكون الضمير في ﴿ظنّوا﴾ راجعاً إلى الرسل أيضاً، ويكون معناه: وعلم الرسل أنّ الذين وعدوهم الإيمان من قومهم، أخلفوهم، أو كذبوا فيما أظهروه من الإيمان.

وروي أنّ سعيد بن جبير، والضحّاك، إجتمعا في دعوة، فسئل سعيد بن جبير في هذه الآية كيف يقرأها، فقال: وظنّوا أنّهم قد كذبوا ـ بالتخفيف ـ، بمعنى وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل كذبوهم. فقال الضحّاك: ما رأيت كاليوم قطّ، لو رحلت في هذه إلى اليمن، لكان قليلاً. وروي أنّ أبي مليكة، عن ابن عباس قال: كانوا بشراً، فضعفوا ويئسوا، وظنّوا أنّهم قد أخلفوا، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية. وهذا بعيد، وقد بيّنّا ما فيه.

﴿جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء الرسل ﴿نَصْرُنَا﴾ حين يئسوا بإرسال العذاب على الكفّار.

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ أي: نخلّص من نشاء من العذاب عند نزوله، وهم المؤمنون ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصص يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: فكرة وبصيرة من الجهل، وموعظة. وهو ما أصابه عليه السلام من ملك مصر، والجمع بينه وبين أبويه وإخوته بعد إلقائه في الجبّ، وبيعه، وحبسه. وقيل: في قصصهم عبرة؛ لأنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله لم يقرأ كتاباً، ولا سمع حديثاً، ولا خالط أَهله، ثمّ حدّثهم به في حسن معانيه، وبراعة ألفاظه ومبانيه، بحيث لم يرد عليه أحد من ذلك شيئاً. فهذا من أَدل الدلائل على صدقه وصحّة نبوّته ﴿لأُوْلِي ٱلأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول.

﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ أي: ما كان ما أدّاه محمّد ﷺ، أو أُنزل عليه، حديثاً يختلق كذباً ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان تصديق الكتب الذي بين يديه؛ لأنّه جاء كما بشّر به في الكتب، ـ عن الحسن، وقتادة ـ.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وبيان كل شيء يحتاج إليه من الحلال والحرام، وشرائع الإسلام ﴿وَهُدىً﴾ أي: ودلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: ونعمة ينتفع بها المؤمنون، علماً وعملاً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنّما خصّهم بذلك؛ لأنّهم المنتفعون به دون غيرهم، وبالله التوفيق والعصمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تمَّ الجزء الخامس من كتاب

«مجمع البيان في علوم القرآن»

فهرس الكتاب

(٩) سورة التوبة ـ مدنية ـ وآياتها تسع وعشرون مائة ٧
(١٠) سورة يونس ـ مكية ـ وآياتها تسع ومائة ١٩٩
(١١) سورة هود ـ مكية ـ وآياتها ثلاث وعشرون مائة ٣١٩
(١٢) سورة يوسف ـ مكية ـ وآياتها إحدى عشرة ومائة ٤٧٩
فهرس الكتاب ٦٣٧